

الإيمان بالله الملائكة الأنبياء والرسول اليوم الآخر القدر الإسلام التسامحة النفاق التوبة من
العبرة الأمانة الصدق الجنة الصلاة الزكاة الصوم الحج الشرك الكفر النفاق التفسير علوم
سير علوم القرآن علوم الحديث آيات كريمة من السور أحاديث مختارة الأمر بالإحسان المؤمن
قبل البعثة الهجرة السيرة النبوية قبل الإسلام الأنبياء والرسول اليوم الآخر القدر الإسلام اليوم
البعثة بر الوالدين الأخوة الشكر الصبر الشرك
سلامة الصدر الكذب الصدق
الإسلام الصلاة الزكاة الصوم

مكتبة

د. ناصر صبره الكسواني

ما لا يسع المُسلم جَهله

تقديم: د. كفاح أبو هنود



الصبر

العقيدة الإيمان بالله الملائكة الأمان

الأنبياء والرسول اليوم الآخر القدر الإسلام والفق

الحج الشرك الكفر النفاق والشرك

من القوي أخوة الإسلام بل

الوضوء أحكام السؤال

بالإحسان المؤمن من

الإسلام صلاة الجماعة

مراجعة أصحاب الفضيلة العلماء

د. أسامة التايه

د. روضة فرعون

د. علي أبو الشكر

د. نادي حسن علي

الصلوة الغسل الوضوء أحكام السور أحاديث مختارة الأمر بالإحسان المؤمن



سجل في مكتبة
اضغط الصفحة
SCAN QR

مَا لَا يَسَعُ
الْمُسْلِمُ
جَهْلُهُ





النشر و التوزيع

إدارة التوزيع

00201150636428

لمراسلة الدار:

email: P.bookjuice@yahoo.com

Web-site: www.aseeralkotb.com

العنوان: ما لا يسع المسلم جهله

تأليف: د. ناصر يونس صبره الكسواني

تقديم: د. كفاح أبو هنود

تدقيق لغوي: نهال جمال

تنسيق داخلي: معتز حسنين علي

الطبعة الأولى: يوليو 2025م

رقم الإيداع: 33742/2024م

الترقيم الدولي: 2-504-992-977-978

مكتبة

t.me/soramnqraa

د. ناصر صبره الكسواني

مَا لَا يَسْعُ الْمُسْلِمُ جَهْلُهُ

تقديم: د. كفاح أبو هنود





مكتبة
t.me/soramnqraa

المحتويات

11	تقديم: الدكتور كفاح أبو هنود
13	المقدمة
17	المبحث الأول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، أول العلم
17	أولاً- مقدمات في العقيدة
27	ثانياً- محاور العقيدة في الإسلام
27	المحور الأول: الإيمان
28	أركان الإيمان
68	المحور الثاني: الإسلام
68	تعريف الإسلام
68	الفرق بين الإسلام والإيمان
69	أركان الإسلام
72	ثالثاً- مفسدات العقيدة
73	الأول- الشرك
77	الثاني- الكفر
80	الثالث- النفاق
85	المبحث الثاني: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، في رحاب القرآن
85	أولاً- مقدمات في علم التفسير وعلوم القرآن
92	ثانياً- تفسير بعض سور القرآن
92	السورة الأولى: سورة الفاتحة
103	السورة الثانية: آيات من سورة الأنعام
116	السورة الثالثة: آخر سورة الفرقان
133	السورة الرابعة: سورة القارة

139	السورة الخامسة: سورة التكاثر
145	السورة السادسة: سورة العصر
149	السورة السابعة: سورة الهمزة
155	السورة الثامنة: سورة الفيل
159	السورة التاسعة: سورة قريش
163	السورة العاشرة: سورة الماعون
168	السورة الحادية عشرة: سورة الكوثر
172	السورة الثانية عشرة: سورة الكافرون
177	السورة الثالثة عشرة: سورة النصر
181	السورة الرابعة عشرة: سورة المسد
185	السورة الخامسة عشرة: سورة الإخلاص
190	السورة السادسة عشرة: سورة الفلق
195	السورة السابعة عشرة: سورة الناس

المبحث الثالث: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ».

199	أولاً- مقدمات في علوم الحديث
209	ثانياً- أحاديث مختارة
209	الحديث الأول: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ
213	الحديث الثاني: الطيب لا يقبل إلا طيباً
218	الحديث الثالث: لَا تَغْضَبْ
222	الحديث الرابع: الأمر بالإحسان
225	الحديث الخامس: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ
231	الحديث السادس: الظُّلُمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
234	الحديث السابع: ما يُدْخِلُ الْجَنَّةَ
240	الحديث الثامن: أخوة الإسلام
244	الحديث التاسع: الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر
249	الحديث العاشر: عبادة الله وسيلة القرب والمحبة
252	الحديث الحادي عشر: المؤمنُ القويُّ
255	الحديث الثاني عشر: الدعوة إلى الهدى
257	الحديث الثالث عشر: صلاة الجماعة
260	الحديث الرابع عشر: لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ
263	الحديث الخامس عشر: اختر من تجالس
266	الحديث السادس عشر: أثر القرآن الكريم

المبحث الرابع: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾، «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ».

269	أولاً- الفقه ومصادره وفروعه
277	ثانياً- فقه العبادات
277	فقه الطهارة

279	الوضوء
286	الغُسل أو الاغتسال
288	التيمم
291	فقه الصلاة
310	فقه الصيام
315	أحكام الزكاة
322	فقه العمرة والحج
329	ثالثاً- من فقه المعاملات
329	من أحكام اللباس
333	من أحكام الزواج
341	المبحث الخامس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، في صحبة النبي ﷺ وخلفائه...
342	أولاً- النبي ﷺ قبل البعثة
352	ثانياً- النبي ﷺ بعد البعثة
363	ثالثاً- الهجرة وما بعدها
419	رابعاً- الخلفاء الراشدون الأربعة
419	الخليفة الراشد الأول: أبو بكر الصديق ؓ
423	الخليفة الراشد الثاني: عمر بن الخطاب ؓ
427	الخليفة الراشد الثالث: عثمان بن عفان ؓ
430	الخليفة الراشد الرابع: علي بن أبي طالب ؓ
	المبحث السادس: ﴿إِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾، «إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»
435	الأخلاق الإسلامية
435	من الأخلاق الإسلامية
442	أولاً- الصدق
442	ثانياً- الصبر
447	ثالثاً- الأمانة
453	رابعاً- الإخلاص
461	خامساً- سلامة الصدر
471	سادساً- الحياء
477	سابعاً- بر الوالدين
482	ثامناً- الأخوة
491	تاسعاً- الشكر
500	
511	الخاتمة

إهداء

**إلى المرابطين على ثغر الفضيلة
والإيمان من شباب الإسلام**



تقديم الدكتورة كفاح أبو هنود

مكتبة
t.me/soramnqraa



الحمد لله رب العالمين...

«دِينُكَ دِينُكَ، إِنَّمَا هُوَ لَحْمُكَ وَدَمُكَ»، هذه صرخة الحسن البصري، يمد بها صوته وهو ينادي المسلمين ويوقظ فيهم جذوة التمسك بدينهم، لكن كيف يملك القلب ثباته، فلا تزل قدم بعد ثبوتها إذا كان لا يعرف أمر الله ونهيه، ولا الحلال من الحرام، ولا يستبين بمن يقتدي، ويجهل سنة نبيه ﷺ، ولا يعرف السبيل لمرضاة ربه ﷻ، وتلتبس عليه أمور عقيدته، أنى له بعد ذلك أن يبلغ صلاح دينه وحاله...

في كتاب «ما لا يسع المسلم جهله» تجد جرعة معرفية شرعية حول أساسيات العلم الشرعي الذي يحصنك من متاهة الضلال ومفاسد الجهل، فاقرأ منه على نقصك كل ما يكملك، واجمع نفسك عليه، فإنك به بالغ ميراث الأنبياء... وهل ميراث الأنبياء إلا العلم! هذا الكتاب يُقدم لك فهمًا كاملاً عن التصور الصحيح للعقيدة، ويحملك إلى كل ما تحتاج إليه في الفقه الإسلامي، ويأخذك إلى سيرة نبيك ﷺ فتدرك منها كل ما يبلغك جميل الاقتداء. والكتاب يرقبك في مدارج الأخلاق، فإذا بك مليء بما يبلغك مقام «وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا».

ولا ينتهي حتى يرحل بك إلى حديث النبي ﷺ فتعرف كيف يُميز العلماء بين صحيحه وضعيفه، وتقرأ من كلامه ﷺ ما يروي ظمأ روحك، ويسوقك إلى اتباع لا زل فيه... فإذا بالخطي تعلقوا منك إليه ﷺ...

كتاب «ما لا يسع المسلم جهله»، كتابُ الحاجة إليه مُلحة لبناء ثقافة شرعية تغني كثيرًا في بناء وعي ديني...

وهو كتاب تجد فيه إجابات عن أسئلة كثيرة في العقيدة والفقه والسيرة والتفسير ونحوه، فاستظل بما فيه من هجير الجهل، وتلمس به الضوء الشفيف عساه أن يهديك إلى صواب الأفعال والأقوال والأحوال.

في هذا الكتاب نهارٌ من الفهم، ونهرٌ من المعلومات الكثيرة، ورسائلٌ مليئة بالعلم والتربية والتزكية والسنن، فإذا بقلبك يستدير بكُّله نحو ربه ﷻ...

ترانا نجوب صحاري الجهل، فإذا منَّ الله تعالى بواحة العلم كَسِبَ العبدُ نفسه وقبل ذلك حبلَ وصله ﷻ، وامتنازَ بالعلم عنده، والنَّاسَ دون العلم سواء...

فاشدد يدك على العلوم كُلِّها عسى ألا يطولَ بك العُمر حتى تبلغَ كلَّ ذُرَاهَا. وإني لأظن الكتابَ ينفع كلَّ محاضن العلم الشرعي في ابتداء أمرها، ويغني الذي يبحث عن الثقافة الشرعية العامة، ويكفي المسلمَ الباحثَ عن الهدى في أول سبيله إلى الله ﷻ.. كل الدعاء بالتوفيق والقبول للكتاب ولصاحبه، الذي حاول كلَّ جهد أن يَسْتَخْلَصَ لك كل ما تحتاج إليه بلغةٍ سلسةٍ وسهلةٍ وميسرةٍ على المبتدئ.

فقد قدَّمَ الدكتور ناصر صبره الكسواني عُصارةِ علمه وما يراه نافعا للجيل في هذا الكتاب، وجعل ذلك في أبواب وعناوين واضحة.

والكاتب -نحسبه ولا نزكي على الله أحداً- ممن شهد لهم، من أساتذته وأقرانه على السواء، بالعلم المؤصل والدعوة لدين الله ﷻ، وهو مؤلفٌ قدير متين في العلم، كما تظهر كتبه التي سبقت هذا الكتاب.

ولرسوخ قدمه في العلم والدعوة أسَّس محاضن علمية عديدة، وشارك في برامج علمية ودعوية كثيرة، ومن أهم تلك المحاضن «معهد رُواق المعرفة لعلوم ومعارف الوحي»، الذي حقق سمعة معرفية طيبة الأثر، فللمؤلف كل التقدير وخالص الدعاء، وجزاه الله خيرَ الجزاء...

وجزى الله خيراً كلَّ مَنْ ساهم في نشر الكتاب، وقدَّم له النصيح، وعساه أن يكون نافعا للمسلمين، وصدقة جارية لمؤلفه إلى يوم الدين.

د. كفاح أبو هنود



المقدمة

الحمد لله وكفى، وصلاةً وسلاماً على سيدنا المصطفى...

أما بعد

فما من شك أنَّ العلم نور يهتدي به الإنسان في كل شأن، وبخاصة في أمر دينه، لذا كان العلم، كما جاء في الحديث: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**»⁽¹⁾، فلا يجوز للمسلم أن يُقَدِّم على أمرٍ حتى يعلمَ أحكامه، فمن أراد عبادة الله تعالى لا بُدَّ أن يتعلَّم ما يتعلق بها، سواء كانت صلاة أو زكاة أو حجًّا، وكذلك من أراد الزواج لا بُدَّ أن يتعلَّم ما يتعلق به من أحكام أساسية، وكذلك مَنْ أَرَادَ الْبَيْعَ وَالشِّرَاءَ وكل شأنٍ من شؤون دنياه إذا أراد أن يُقَدِّم عليه لا بُدَّ أن يُلِمَ بما يتعلق بالحلال والحرام فيه.

ولا يعني هذا أن يتفرَّغ المسلمون لطلب العلم الشرعي فقط، ويصبحوا جميعاً علماء بالشرع، لا ليس هذا المراد، وإنما المراد أنَّ هناك ثقافةً شرعية عامة لا بُدَّ أن تسود بين المسلمين، تعطيهم الحد الأدنى من العلم الشرعي الذي يمكِّنهم أن يعبدوا الله على علم، وأن يسيروا في هذه الدنيا وفقاً لهدى كتاب الله وهدى سنة رسوله ﷺ.

لذا كان هذا الكتاب، والموجه في الباب الأول إلى شبابنا، ليعطيهم هذا القسط من الثقافة الشرعية الذي يمكِّنهم من الهدف الذي ذكرناه، وليحصِّنهم ضد التيارات الفكرية

(1) جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ**». (أخرجه محمد بن يزيد بن ماجه، السنن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2002م)، افتتاح الكتاب في الإيمان وفصائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (224)).

الغالية المتشدة، ويحفظهم من التيارات الفكرية الداعية إلى تمييع الدين واتباع الهوى ومجانبة المَحَبَّة البيضاء التي تركنا عليها رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وقد تَكُونُ هذا الكتاب من ستّة مباحث، اخترنا لها عناوين تدل على مضموناتها، فجاءت على النحو التالي:

المبحث الأول: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾، أول العلم. وهو مبحث مُخَصَّص لقضايا العقيدة والإيمان.

والمبحث الثاني: ﴿كِتَابُ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾، في رحاب القرآن. وهو مبحث مخصص لمقدمات في التفسير وعلوم القرآن بالإضافة إلى تفسير سور مختارة من القرآن الكريم.

والمبحث الثالث: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾، «يَا غُلَامُ إِنِّي أُعَلِّمُكَ كَلِمَاتٍ». وهو مبحث مخصص لبعض مصطلحات علوم الحديث، وشرح لبعض الأحاديث من جوامع كلم النبي ﷺ.

والمبحث الرابع: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾، «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ». خصص هذا المبحث لقضايا الفقه الرئيسة، حيث تناولنا فيه بعض المقدمات المتعلقة بالفقه ثم انتقلنا إلى فقه الطهارة، ومن ثم فقه العبادات، وختمناه بشيء من فقه الزواج ومن فقه اللباس.

والمبحث الخامس: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾، في صحبة النبي ﷺ وخلفائه، وهو مبحث خاص بسيرة النبي ﷺ وخلفائه الراشدين الأربعة، تناولنا فيه سيرة النبي ﷺ بإيجاز غير محل ثم سير الخلفاء الأربعة مقتصرين على ما رأيناه أهم القضايا في تلك السير، وقد قيدت فيه ما اتفق عليه أهل السير ووافقهم فيه المحدثون.

(1) المحجة: تعني الطريق، وقد جاء في الحديث عن العِزْبِاضِ بْنِ سَارِيَةَ قَالَ: وَعَظَّنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً دَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، قُلْنَا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ هَذِهِ لَمَوْعِظَةٌ مُودِعٌ، فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ قَالَ: «قَدْ تَرَكْتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لِيُكَلِّمَهَا كَنَهَارَهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعْشَ مِنْكُمْ، فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ». (أخرجه الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني، المسند، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2001م)، رقم (17142)، ج28 ص367. وابن ماجه، السنن، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2002م)، افتتاح الكتاب في الإيمان وفضائل الصحابة والعلم، باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين، رقم (43)).

المبحث السادس: ﴿وَأَنَّكَ لَـعَلَّ خُلِقَ عَظِيمٌ﴾، «إِنَّ مِنْ أَحْبَبِكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مجلسًا يومَ القيامةِ أَحَاسِنُكُمْ أَخْلَاقًا». وهذا هو المبحث الأخير وقد تناولنا فيه أهم الأخلاق الإسلامية التي ينبغي أن يتمتع بها المسلم.

ثم كانت خاتمة وجيزة.

ونظن أننا بهذا قد غطينا جانبًا مهمًا مما ينبغي للمسلم أن يعلمه ومما لا يسعه أن يجهله من أمور دينه، سواء في العقائد أو الفقه أو التفسير أو الحديث أو السيرة أو الأخلاق.

ولقد حرصت ألا أنقل فيه إلا ما دلَّ عليه الدليل من كتاب الله ﷻ ومن السنة المقبولة عند أهل الحديث، وبعدت فيه عن الخلاف بقدر ما استطعت إلى ذلك سبيلًا.

وزيادة في موثوقية المعلومات الواردة في الكتاب أسندت مراجعته إلى ثلثة من الأساتذة المتخصصين من أهل الفضل والعلم، من أعضاء هيئة التدريس في معهد رواق المعرفة لعلوم ومعارف الوحي، الذي أشرف بإدارته، حيث قرأ الأساتذة الكرام مادته وقدموا من الملاحظات ما أثلج صدري، وصوبوا لي من الزلات ما أتحفني، وهؤلاء الأساتذة، هم:

د. أسامة التايه: أستاذ الفقه وأصوله في المعهد.

ود. أسامة نمر: أستاذ الحديث وعلومه في المعهد.

ود. روضة فرعون: أستاذة التفسير وعلوم القرآن في المعهد.

ود. علي أبو الشكر: أستاذ الحديث وعلومه في المعهد.

ود. نادي حسن علي: أستاذ التفسير وعلوم القرآن في المعهد.

فأتقدم إليهم بخالص الشكر والتقدير على ما أبدوه من ملحوظات وتصويبات أثرت الكتاب.

وقبل أن ننتقل إلى المقصود لا بد أن أتوجه بالشكر للدكتورة كفاح أبو هنود التي تابعت تأليف الكتاب وأتحفتنا في نهاية تأليفه بتقديم زاد الكتاب رونقًا.

وكذلك أتوجه بالشكر الجزيل للأخ محمد شوقي مدير دار عصير الكتب على دعمه وحثه لإصدار هذا الكتاب ونشره.

وختامًا أقول: هذا الكتاب جُهد بشري، ويعتريه ما يعتري عمل البشر من نقص وخطأ،
فما كان فيه من صواب فهو من الله ﷻ وما كان فيه من غلط وخطأ وخلاف الأولى فمن
نفسي ومن الشيطان.
والله أسأل أن يجعله خالصًا لوجهه الكريم، ويجعله لي صدقة جارية في صحيفتي إلى
يوم الدين.

د. ناصر صبره الكسواني

أستاذ التفسير ومدير معهد رواق المعرفة لعلوم ومعارف الوحي

ضاحية الرشيد- عَمَّان

11 / 3 / 2025م



المبحث الأول

﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾

أول العلم

أول ما ينبغي أن يعلمه المسلم من دينه أمور عقيدته، يقول تعالى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾ [محمد: 19]، ذلك لأنَّ العقيدة الصحيحة هي الأساس الذي يقوم عليه الدين وتصح معه الأعمال، وهي الثوابت العلمية والعملية التي يجزم ويوقن بها المسلم.

أولاً- مقدمات في العقيدة

معنى العقيدة الإسلامية:

العقيدة في اللغة: مأخوذة من العَقْد، وهو: الشد والربط والإيثاق والثبوت والإحكام. أما في اصطلاح أهل العلم: فهي التصور الإسلامي الكلي اليقيني عن الله الخالق ﷻ، وعن الكون والإنسان والحياة، وعمَّا قبل الحياة الدنيا، وعمَّا بعدها، وعن العلاقة بين ما قبلها وما بعدها⁽¹⁾.

الأساس الذي تقوم عليه العقيدة:

للعقيدة مصدران رئيسان، هما أساس الدين الإسلامي كُلُّه:

الأول: كتاب الله القرآن الكريم (كلام الله).

(1) انظر: عثمان ضميرية، مدخل لدراسة العقيدة الإسلامية، (الرياض: مكتبة السوادي، ط2، 1996م)، ص119-122. ومصطفى الخن ومحي الدين مستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، (دمشق: دار ابن كثير، ط9، 2022م)، ص19. وانظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، (دمشق: دار القلم، ط5، 1988م)، ص32-33.

والثاني: السنة المقبولة، وهي الأحاديث الصحيحة والأحاديث الحسنة الواردة عن النبي ﷺ.

قواعد مهمة في الاعتقاد:

هناك قواعد مُهمّة لا بُدَّ لكلِّ مُطلع على العقيدة الإسلامية إدراكها، لأنها تُسهل فهم العقيدة وتمنع من تطرّق كثيرٍ من الشبهات التي يثيرها الشيطان في عقل المسلم، وهذه القواعد هي:

القاعدة الأولى: ما أدركه بحواسي لا أشك في أنّه موجود:

من البدّهيات العقلية مُسلّمة، «أنَّ ما أدركه بحواسي لا أشك في أنّه موجود»، لكن قد يمشي أحدنا في الصحراء ساعة الظهيرة، فيرى بركة ماء، تلوح ظاهرة للعين، فإذا جاءها لم يجد إلا التراب، لأنَّ الذي رآه ليس إلا سرابًا.

وقد يضع الواحد منا القلم المستقيم في كأس الماء، فيراه منكسرًا، وهو لم ينكسر. وقد يكون المرء في سهرة دار الحديث فيها عن الجن والعفاريت، ثم يرجع إلى بيته، فإن كان الطريق خاليًا مظلمًا، وكان هو مخلوع القلب واسع الخيال، رأى أمامه جنًّا أو عفريتًا، فشاهده وأحس بوجوده، وما ثمة شيء مما رأى. وعليه، فالحواس قد تخطئ، وتخدع، وتتوهم، أو يتوهم صاحبها.

فهل نشك لهذا في وجود ما نحس به؟

لا، لأننا إن شككنا فيما نرى ونسمع ونحس، تداخلت لدينا الحقائق والخيالات، وصار الواحد منا والمجنون سواء، لذا لا بُدَّ من إضافة شرط آخر لحصول العلم (أي اليقين) بوجود ما نحسه، وهو ألا يحكم العقل بالتجربة السابقة أنَّ الذي كان قد أحسَّ به وهُمُّ أو خداع حواس، والعقل يُخدع أول مرة، فيحسب السراب ماءً، فإذا رآه مرةً أخرى أدرك أنّه سرابٌ. والعقل يحكم بعد أن رأى القلم منكسرًا أول مرة أنّه لا يزال مستقيمًا كما كان، وإن بدا للعين منكسرًا.

والأمور التي تخطئ فيها الحواس أو تخدع، أمورٌ محدودة معدودة معروفة، لا تبطل القاعدة ولا تؤثر فيها، ومنها عمل سحرة فرعون، وما يعملُه سحرة (السيرك) في هذه الأيام.

إذن، فما أدركه بحواسي لا أشك في أنّه موجود، بشرط ألا يحكم العقل بالتجربة السابقة أنَّ الذي كان قد أحسَّ به وهُمُّ أو خداع حواس.

القاعدة الثانية: اليقين كما يحصل بالحس والمشاهدة، يحصل بالخبر الذي نعتقد صدق صاحبه:

هناك أشياء ما شاهدناها ولا أحسسنا بها، لكننا نوقن بوجودها، كما نوقن بوجود ما نشاهده ونحس به، فإننا نوقن بوجود الهند والبرازيل ولم نزرهما ولم نرهما، ونوقن بأن «الإسكندر المقدوني» فتح بلاد فارس، وبأن الوليد بن عبد الملك بنى الجامع الأموي، ولم نحضر حروب الإسكندر، ولا شهدنا بناء الجامع الأموي.

ولو نظر كل واحدٍ منّا في نفسه لرأى أنّ ما يوقن بوجوده من الأشياء التي لم يرها، أكثر من الأشياء التي رآها من الممالك والبلدان، ومن حوادث التاريخ الذي كان، ومما يقع الآن. فكيف نوقن بوجود هذه الأشياء ونحن لم ندركها بحواسنا؟ إننا أيقنا بها حين نقلها جماعات عن جماعات، لا يتصور إمكان اتفاقهم، في العادة، على اختراع هذه الأخبار، ونقلها كذباً.

فاليقين إذن، كما يحصل بالحس والمشاهدة، يحصل بالخبر الذي نقل لنا عن طريق من نعتقد صدق صاحبه.

القاعدة الثالثة: لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا:

ما مدى العلم الذي تبلغه الحواس؟ وهل تستطيع أن تصل إلى إدراك كل موجود؟ إنّ مثل النفس والحواس مع الموجودات، كمثّل رجلٍ سجنه الحاكم في بُرج القلعة، وسدّ عليه الأبواب والنوافذ، ولم يترك له إلا شقوقاً في جدار البرج، شقّاً يطل منه على النهر الذي يجري في الشرق، وشقّاً على الجبل الذي يقوم في الغرب، وشقّاً على القصر الذي يجثم في الشمال، وشقّاً على الملعب الذي يقع في الجنوب. فالسجين هو النفس، والقلعة الجسد، وهذه الشقوق هي الحواس، جس النظر يشرف منه على عالم الألوان، وجس السمع على عالم الأصوات، وجس الذوق على عالم الطعوم، وجس الشم على عالم الروائح، وجس اللمس على عالم الأجسام.

1 - والسؤال الآن: هل أدرك بكلّ حاسة من هذه الحواس كل ما في العالم الذي تشرف عليه؟

السجين عندما ينظر من شق النهر، لا يرى النهر كلّهُ، ولكن جزءاً منه، وكذلك العين حين تشرف على عالم الألوان، لا تراه كله، بل ترى بعضه.

نحن لا نرى نملةً تمشي على بعد ثلاثة أميال، مع أنَّ النملة موجودة، ولا نرى الجراثيم في كأس الماء الصافي، مع أنَّ في الكأس الملايين من هذه الجراثيم. ولا نرى الكهارب التي تدور وسط الذرة، ودوران الكواكب في فضاء الأفلاك.

وإنَّ لتلك النملة صوتًا، لكنَّا لا نسمعه، لأنَّ سَمْعَنَا يلتقطُ الهزات من خمسة إلى عشرين ألفًا، فما نقص لا نسمعه، وما زاد ثقب طبلة الأذن فبطل بذلك السمع. ونحن لا نشمُّ للسكر رائحةً، مع أنَّ النملة والذباب يشمه ويسرع إليه.

فالحواس إذن لا تدرك من العوالم التي سُلِطت عليها إلا جزءًا منها.

2 - ثم ألا يمكن أن يكونَ بين عالم الألوان الذي تشرف عليه العين، وعالم الأصوات الذي تطل عليه الأذن عالم آخر، لا ندركه أصلًا لأنَّه ليس عندنا الحاسة لإدراكه؟

ألا يمكن أن يكونَ بين النهر وبين الجبل بالنسبة إلى سجين البرج بستانًا عظيم، لم يره ولم يعلم به، لأنَّه لا يجد شَقًّا يُطل منه عليه؟ فهل يحق له أن ينكره لأنَّه لا يراه؟ الضغط الجوي لا تُحس باختلافه القليل، لأنَّه ليس لديك حاسة تدركه بها، فإذا جئت بـ (البارومتر) أدركته به.

ففي الوجود أشياء كثيرة لا تدخل في نطاق الحواس، لأنَّها ليست لونا يُرى، ولا صوتًا يُسمع، ولا جمادًا يُلمس، ولا رائحة تُشم، ولا طعمًا يذاق، فهل يحق لنا أن ننكرها، لأنَّ حواسنا المحدودة لا تدركها؟

3 - والحواس هل هي كاملة؟

كان الأقدمون يحصرون الحواس في خمس فقط، لا يتصورون إمكانية الزيادة عليها، لكن كُشِفَتْ في الإنسان الآن حواس أخرى أودعها الله ﷻ فيه، وما يقبل الزيادة يوصف بالنقصان.

أنا أغمض عيني، وأبسط يدي أو أقبضها، فأحس بأنَّها مبسوطة أو مقبوضة لم ألمسها ولم أرها، فبأي حاسة أحسست بها؟ بما يسمى «الحسَّ العضلي». وأحس بالتعب وبالعثيان، وبالانبساط أو الانقباض، وما أحسست بذلك بوحدة من الحواس الخمس، بل «بالحس الداخلي». وأمشي فلا أميل، مع أنَّ الطفل أول مشيه يميل، وراكب الدراجة، ولاعبو السرك، الذين يأتون بالعجائب، بأي حاسة ضبطوا توازنهم؟ إنَّ هناك حاسة ثامنة هي «حاسة التوازن»، وقد كشفوا موضعها الذي وضعها الله فيه، ففي الأذن الداخلية مادة

سائلة، بها يكون التوازن، وأذكر أنهم في تجاربهم استخرجوها من أرنب، فصارت تمشي الأرنب مترنحة.

كل ذلك يؤكد أنه لا يحق لنا أن ننكر وجود أشياء لمجرد أننا لا ندركها بحواسنا.

القاعدة الرابعة: الخيال البشري لا يستطيع أن يَلِمَ إلا بما أدركته الحواس:

قلنا إنَّ الحواس محدودة المدى، فنحن لا نستطيع أن نرى بأبصارنا كل مرئي، وهذا صحيح، ولكنَّ الله ﷻ أعطانا مَلَكَةً نَتَم بها نقص الحواس، هي الخيال.

فأنا إن لم أستطع أن أرى داري في القدس، وأنا في مكة مثلاً، أستطيع أن أتخيلها وكأنني أراها، فالخيال يكمل الحواس.

فهل للخيال حدود، أم أنه مطلق غير محدود؟ هل أستطيع أن أتخيل شيئاً لم أدركه بالحواس؟

الخيال عند علماء النفس خيالان: خيال مرجع، كتخيلي الدار في القدس، وأنا في مكة، وخيال مبدع، وهو خيال الشعراء والقصاصين والرسامين، وسائر أهل الفنون.

فانظروا إلى خيالات هؤلاء الفنانين، هل جاؤوا بشيء غير ما في الواقع؟

الذي نحت تمثال «فينوس» جاء بصورة لم نَر من يماثلها تماماً، ولكن هل كانت جديدة، أم أخذ أجزاء من الواقع، فألف بينها؟ أخذ أجمل أنف رآه، وأجمل فم، وأجمل جسم، فجمع هذا إلى ذاك، فجاء بجديد، لكن هذا الجديد مؤلف من أجزاء قديمة.

وتمثال الثور المجنح الأشوري في متحف باريس، ما فيه إلا أنَّ نَاحِيَتَهُ أخذ رأس رجل فوضعه على جسد ثور، ووضع له أجنحة طائر. صورة جديدة، لكنها مؤلفة من أجزاء قديمة.

وكذلك خيالات الشعراء مهما أوغلت في باب الاستعارة والتشبيه والكناية والمبالغات العجيبة، لا تخرج عن كونها جمعاً بين أجزاء متفرقة في الواقع.

بل إننا إذا أوغلنا في الإغراب في جمع هذه الأجزاء، نجد الخيال نفسه قد عَجَزَ عن الإلمام بهذا الجمع، خذوا -مثلاً- جزءاً من عالم اللون، وجزءاً من عالم الصوت، فقولوا: إنَّ فلاناً المغني قد غَنَّى نغمة مُعطرة بعطر الورد، أو إنَّ العطر الفلاني له رائحة لونُها أحمر، واعرضوا هذه الصورة على خيالكُم، تجدوا أنَّكم لم تستطيعوا أن تتخيلوها، مع أنَّها جميعاً ما خرجت عن عالم الواقع.

فنحن لا نستطيع أن نتخيلَ نغمةَ عَطرة، ولا رائحةَ حمراء، ولا نتصور إلا الأبعاد الثلاثة، الطول والعرض والارتفاع، لا نستطيع أن نتصور بُعدًا رابعًا، ولا دائرة ليس لها محيط، ولا مثلثًا ليس له زوايا. فكيف إذن نتخيل الآخرة وما فيها، وهي عالم يختلف عن عالمنا؟

إنَّ الآخرة بالنسبة إلى هذه الدنيا كالدنيا بالنسبة إلى بطن الجنين، لو أمكن أن نتصل بالجنين ونسأله وأمکن أن يجيب، وقلنا له: ما الكون؟ لقال: إنَّ الكون هو هذه الأعشية التي تغشاني، وهذه الظلمات التي تحيط بي.

ولو قلنا له: إنَّها هنا كونًا آخرَ فيه شمس وقمر، وليل ونهار، وبر وبحر، وسهل وجبل، وصحاري قاحلة، وجنات معروشات. لما فهم معنى هذا الكلام ولو فهمه لما استطاع تخيل حقيقته.

ومن هنا قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: (ليس في الدنيا ممًا في الآخرة إلا الأسماء)⁽¹⁾، فلا خمر الآخرة كخمر الدنيا، ولا حورها كنسائها، ولا نار جهنم كنارها، ولا الصراط الممدود على جهنم كالجسور الممدودة على الأودية والأنهار.

وعليه فالخيال البشري لا يستطيع أن يُلِمَّ إلا بما أدركته الحواس.

القاعدة الخامسة: العقل لا يستطيع أن يحكم في كل شيء، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية المحدودة:

لما أبصرت العين العود المستقيم أعوجَ، وهو في كأس الماء، لم ينخدع العقل بما رأت العين، بل عرف أنَّه لم يزل مستقيمًا، ولما رأت التراب ماء في الصحراء عرف العقل أنَّه سراب، وأنَّه ليس ماء ولكنه تراب، ولما أبصرنا ساحرَ السيرك يُخرج من فمه مائة منديل، ومن كُفِّه عشرين أرنبًا أدرك العقل أنَّها خدعة، فالعقل أصحُّ حُكمًا، وحُكمُه أبعد مدى، لكن هل يحكم على كل شيء ويمتد مداه إلى غير ما نهاية؟

إنَّ العقل لا يستطيع أن يدرك شيئًا حتى يحصره بين اثنين: الزمان والمكان، فما لم ينحصر بينهما لم يدركه العقل بنفسه. فلو قال لك مدرس التاريخ، إنَّ حربًا وقعت بين العرب والفرس، لكنها لم تقع قبل الإسلام ولا بعده، ولم تقع في زمن من الأزمان، لكنها وقعت فعلًا، لن تدرك ذلك ولن تصدقه، ولن تقبله.

(1) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي سلامة، (السعودية: دار طيبة، 1999م)، ج 7 ص 503.

ولو قال لك مُدرّس الجغرافيا، إنّ بلدة ليست في سهل ولا جبل، ولا في بر ولا بحر، ولا في أرض ولا سماء، ولا في مكان من الأمكنة، لكنها موجودة، لن تدرك ذلك، ولن تصدقه، ولن تقبله.

فالعقل لا يحكم إلا في حدود الزمان والمكان، فما كان خارجًا عنهما من مسائل الروح، وأمور القدر، وآلاء الله وصفاته، فلا حكم للعقل عليه.

فالعقل إذن لا يستطيع أن يحكم في كل شيء، ولا يصح حكمه إلا في الأمور المادية المحدودة. أما «ما وراء المادة»، أي عالم الغيب، فلا حكم للعقل عليه.

القاعدة السادسة: الإيمان فطرة في النفوس:

إنّ النَّاس جميعًا، المؤمن منهم والكافر، والناشئ في صوامع العبادة، والمتربي في مخادع الفسوق، إذا أُلْمِتَ بهم ملّةٌ ضاقوا بها ذرعًا، ولم يجدوا لها دفعًا، لم يعوذوا منها بشيء من هذه الكائنات، وإنّما يعوذون بقوة وراء هذه الكائنات، قوة لا يرونها، لكنهم يشعرون بأرواحهم وقلوبهم، وكل عصب من أعصابهم بوجودها، وبِعَظمتها وجلالها.

يقع هذا لكثير من الطلاب أيام الامتحان، وكثير من المرضى عند اشتداد الألم، وعجز الطبيب. كلهم يعودون إلى ربهم، ويقبلون على عبادته. فهل سألتهم أنفسهم، ما السبب في هذا وأمثاله؟ لماذا نجد كل من وقع في شدة يرجع إلى الله؟ نذكر جميعًا أيام الحروب كيف كان النَّاس يقبلون على الدين، ويلجؤون إلى الله ﷻ، الرؤساء والقادة يأتون المعابد، ويدعون الجنود إلى الصلاة.

فهذه بنت «ستالين» نشرت مذكراتها، فذكرت فيها كيف عادت إلى الدين، وقد نشأت في غمرة الإلحاد، وتَعَجَّب هي نفسها من هذا المعاد. وما في ذلك عجب، فالإيمان بوجود إله شيء كامن في كل نفس، إنّه فطرة «غريزة» من الفِطَر البشرية الأصلية، كغريزة الجنس، والإنسان «حيوان ذو دين»، ولكن هذه الفطرة قد تغطيها الشهوات والرغبات والمطامع، والمطالب الحيوية المادية، فإذا هزتها المخاوف والأخطار والشدائد، أُلْقَتْ عنها غطاءها فظهرت، ولذلك سُمي غير المؤمن كافرًا، ومعنى الكافر في لسان العرب الساتر.

إنّ الإنسان لا يمكن أن يعيش ويموتَ من غير أن يُفكر في وجود إله لهذا الكون، ولكن ربما قصر عقله فلم يهتدِ إلى المعبود بحق، فعبد من دونه أشياء، عبدها على توهم أنّها هي الله ﷻ، أو أنّها تقرَّب إلى الله ﷻ. فإذا جدَّ الجدُّ، وكانت ساعة الخطر، رجع إلى الله ﷻ وحده، ونبذ هذه المعبودات.

لماذا؟ لأنَّ الإيمان غريزة، وأصدق تعريف للإنسان أنَّه «حيوان متدين»، وانظروا إلى هؤلاء الملحدين الماديين، عندما يأتيهم الموت، هل تظنون أنَّ «ماركس» أو «لينين»⁽¹⁾ لما أيقن بالموت، دعا «وسائل الإنتاج» التي يؤلِّفها، أم دعا الله؟ ثَقُوا أَنَّهُمَا لم يموتا حتى دَعَا الله، ولكن حين لا ينفع الدعاء. وفرعون تكبر وتجبّر، ﴿فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ [النازعات: 24]، ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَذْرَكَهُ الْعَرَقُ قَالَ آمَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي آمَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: 90].

وفي عاطفة الحُبِّ التي يحس بها المحبون دليلٌ على أنَّ الإيمان فطرة في النفوس، الحُبُّ صورة مصغرة للإيمان، ونوع من أنواع العبادة. المحب يطيع محبوبه، وينفذ كل رغبة له، وكذلك يكون المؤمن مع الله ﷻ. والمحب لا يبالي أن يسخط عليه النَّاسُ كلهم إنَّ رضي المحبوب، وكذلك يكون المؤمن مع الله ﷻ. والمحب يخاف المحبوب، ويخشى غضبه، ويرضى بكل ما يكون منه، وكذلك يكون المؤمن مع الله ﷻ. فالحب (أي العشق) دليل على أنَّ الإيمان فطرة في النفوس.

وليس معنى هذا أنَّ حُبَّ الله ﷻ، من جنس حُبِّ المعشوق. لا، فالعاشق يطيع معشوقه ويخشاه، ويرضى بكل ما يجيء منه، ويؤثر رضاه على رضا النَّاسِ لذته به، فهو يحب فيه نفسه، ولو أنَّ ليلى أصابها الجذام فشوه وجهها، وأكل أنفها وعينها لما دنا منها قيس ولما مال عليها، بل لفر منها، ونأى عنها، هذا هو فرق ما بين حب المخلوق وحب الخالق. إنَّهما نوعان مختلفان، ولكن اللغات البشرية ضيقة، وهي لضيقها عن استيعاب المعاني الروحية تستعمل اللفظ الواحد، في معانٍ كثيرة. فنحن نقول: «فلان يحب مناظر الجبال»، و«فلان يحب علم التاريخ»، و«فلان يحب الرز بالحم»، و«الوالد يحب ولده»، و«المجنون يحب ليلى»، و«المؤمن يحب الله». وكل حب منها، يختلف عن الآخر. ومثل ذلك كلمة: «الجمال»، نستعملها وهي لفظ واحد، للدلالة على ألف معنى.

ومن ذلك قولنا: «الله سميع بصير»، و«فلان سميع بصير»، أي: ليس أصم ولا أعمى. وسمع الله وبصره لا يشبه سمع العبد ولا بصره، لأنَّ الله لا يماثل شيئاً من المخلوقات ولا يماثله شيء، وجميع آيات الصفات جاءت من هذا الباب، والله ليس كمثله شيء.

(1) كارل هنريك ماركس، توفي في لندن عام 1883م. وفلاديمير لينين توفي عام 1924م، من زعماء الإلحاد في التاريخ الحديث.

القاعدة السابعة: الدليل النفسي على وجود العالم الآخر:

يُدرِك الإنسانُ بِالْحَدْسِ أَنَّ هَذَا الْعَالَمَ الْمَادِي لَيْسَ كُلُّ شَيْءٍ، وَأَنَّ وَرَاءَهُ عَالَمًا رُوحِيًّا مَجْهُولًا، يَدْرِكُ مِنْهُ لَمَحَاتٍ تَدُلُّ عَلَيْهِ.

ذَلِكَ أَنَّ الْإِنْسَانَ يَرَى اللِّذَاتِ الْمَادِيَّةَ مَحْدُودَةً، إِذَا هِيَ بَلَغَتْ غَايَتَهَا وَوَصَلَتْ إِلَى حَدِّهَا، لَمْ تَعُدْ اللَّذَّةُ لَذَةً، وَلَكِنْ صَارَتْ عَادَةً، فَذَهَبَ طَعْمُهَا، وَبَطَلَ سِحْرُهَا، وَصَارَتْ كَالنَّكْتَةِ الْمَحْفُوظَةِ، وَالْحَدِيثِ الْمُعَادِ.

يَبْصُرُ الْفَقِيرُ سَيَارَةَ الْغَنِيِّ تَمَرُّ بِهِ، وَعِمَارَةَ الْغَنِيِّ يَمُرُّ بِهَا، فَيَحْسَبُ أَنَّهُ يَحُوزُ الدُّنْيَا إِنْ حَازَ مِثْلَهَا، فَإِنَّ صَارَتْ لَهُ لَمْ يَعُدْ يَشْعُرُ بِالْمَتْعَةِ بِهَا.

وَيَسْهَرُ الْمَحَبُّ يَحْلُمُ بِوَصْلِ الْحَبِيبِ، يَظُنُّ أَنَّ مُتْعَ الدُّنْيَا كُلَّهَا بِحَبِّهِ، وَالْأَمَانِي كُلَّهَا فِي قَرْبِهِ، فَإِذَا تَزَوَّجَ الَّتِي يُحِبُّ، وَمَرَّ عَلَى الزَّوْجِ سَنَتَانِ، اِضْمَحَلَتْ تِلْكَ الْأَمَانِي، وَمَاتَتْ تِلْكَ الْمُتْعَةُ، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ مِنْهَا إِلَّا ذِكْرُهَا.

وَيَمْرُضُ الْمَرِيضُ وَيَتَأَلَّمُ، فَيَتَصَوَّرُ اللَّذَّةَ كُلَّهَا فِي زَهَابِ الْأَلَمِ وَالشِّفَاءِ مِنَ الْمَرَضِ، فَإِذَا عَاوَدَتْهُ الصَّحَّةُ، وَنَسِيَ أَيَّامَ الْمَرَضِ، لَمْ يَعُدْ يَرَى فِي الصَّحَّةِ شَيْئًا مِنْ تِلْكَ اللَّذَاتِ.

وَيَتَمَنَّى الشَّابُّ الشُّهُرَةَ، فَإِذَا هُوَ اشْتَهَرَ وَصَارَ اسْمُهُ مَلَأَ السَّمْعَ، وَشَخْصُهُ مَلَأَ الْبَصَرَ، صَارَتْ لَهُ الشُّهُرَةُ أَمْرًا مَعْتَادًا. ثُمَّ يَجِدُ أَنَّهُ يَسْمَعُ الْأَغْنِيَةَ الْحَالِمَةَ، فِي اللَّيْلَةِ السَّاجِيَةِ، قَدْ خَرَجَتْ مِنْ قَلْبٍ مَغْنً عَاشِقٍ، فَهَزَتْ مِنْ سَامِعِهَا حَبَّةَ الْقَلْبِ، وَأَطْلَتْ عَلَى عَالَمِ الرُّوحِ، وَيَقْرَأُ الْقِصَّةَ الْعَبْقَرِيَّةَ، لِلْأَدِيبِ الْبَارِعِ، فَيَحْسُ كَأَنَّهَا تَمْشِي بِهِ فِي مَسَارِبِ عَالَمٍ مَسْحُورٍ، فِيهِ مَعَ السَّحَرِ شَعْرٌ وَعَطَرٌ، فَإِذَا انْتَهَتْ الْقِصَّةُ رَأَى كَأَنَّهُ كَانَ فِي حِلْمٍ لَدَى فِتَّانٍ، وَصَحَا مِنْهُ، فَهُوَ يَحَاوِلُ عِبْدًا أَنْ يَعُودَ إِلَى لَذَّتِهِ وَفَتُونِهِ.

وَيَعِيشُ فِي لِحَظَاتِ التَّجَلِّيِ حِينَ تَصْفُو النُّفُوسُ بِالتَّأَمُّلِ فَتَتَخَفَّفُ مِنْ أَثْقَالِ الْمَادَةِ، فَتَعْلُو بِجَنَاحَيْنِ مِنَ الصِّفَاءِ وَالتَّجَرُّدِ، حَتَّى تَصِلَ إِلَى حَيْثُ تَرَى الْأَرْضَ وَمَا عَلَيْهَا، أَصْغَرَ مِنْ أَنْ يَنْظُرَ إِلَيْهَا، لَمَّا تَجِدُ مِنْ لَذَّةِ الرُّوحِ الَّتِي لَا تَعْلِيهَا لَذَّةُ الطَّعَامِ لِلْجَائِعِ، وَلَا لَذَّةُ الْوَصَالِ لِلْمَحْرُومِ، وَلَا لَذَائِذَ الْمَالِ وَالْجَاهِ لِلْفَقِيرِ الْمَغْمُورِ.

وَإِذَا بِالنَّفْسِ تَتَشَوَّقُ أَبَدًا إِلَى هَذَا الْعَالَمِ الرُّوحِيِّ الْعُلُويِّ، الْعَالَمِ الْمَجْهُولِ، الَّذِي لَا تَعْرِفُ مِنْهُ إِلَّا هَذِهِ اللَّمَحَاتِ، الَّتِي لَا تَكَادُ تَبْدُو لَهَا حَتَّى تَخْتَفِي، وَهَذِهِ النَّفْحَاتِ الَّتِي لَا تَهْبُ حَتَّى تَسْكُنَ.

فيعلم أنَّ اللذات المادية محدودة، وأنَّ اللذات الروحية أكبر منها كبراً، وأعمق في النفس أثراً.

ويُوقن بالحدس النفسي، لا بالدليل العقلي، أنَّ هذه الحياة المادية ليست كلَّ شيء، وأنَّ العالم المجهول المختبئ وراء عالم المادة حقيقة قائمة تحن إليها الأرواح، وتحاول أن تطير إليها، ولكن هذا الجسد الكثيف يحجبها عنها، ويمسكها عن أن تنطلق وراءها، وهذا هو الدليل النفسي على وجود العالم الآخر.

القاعدة الثامنة: الاعتقاد بوجود الحياة الأخرى نتيجة لازمة للاعتقاد بوجود الله ﷻ:

بيان ذلك: أنَّ الإله لا يكون إلا عادلاً، والعاقل لا يقرُّ الظلم، ولا يدع الظالم بغير عقاب، ولا يترك المظلوم من غير إنصاف، ونحن نرى أنَّ في هذه الحياة من يعيش ظالماً ويموت ظالماً لم يعاقب، ومن يعيش مظلوماً ويموت مظلوماً لم ينصف، فما معنى هذا؟ وكيف يتم هذا ما دام الله موجوداً، وما دام الله لا يكون إلا عادلاً؟ معناه أنَّه لا بُدَّ من حياة أخرى يكافأ فيها المحسن، ويعاقب المسيء.

وإنَّ الرواية لا تنتهي بانتهاء هذه الدنيا، ولو أنَّه عرض فلم في التلفزيون، فقطع من وسطه وقيل انتهى، لما صدق أحد من المشاهدين أنَّه انتهى، ولنادوا: ماذا جرى للبطل؟ وأين تنمة القصة؟ ذلك لأنَّهم ينتظرون من المؤلف أن يتم القصة، ويسدد حساب أبطالها. هذا والمؤلف بشر، فكيف يصدق عاقل أنَّ قصة الحياة تنتهي بالموت؟ كيف؟ ولم يسدد بعد الحساب، ولا اكتملت الرواية؟ فأيقن العقل من هنا، أن لهذا الكون رباً، وأن بعد الدنيا آخرة.

وإن ذاك العالم المجهول، الذي لمحت الروح ومضةً من نوره في الأغنية الحالمة، والقصة البارعة، واستروحت نفحة من عطره، في ساعة التجلي، ليس عالم المثل الذي كان خيالاً صاغه أفلاطون، ولكنه عالم الآخرة، الذي هو حقيقة أبدعها خالق أفلاطون. ورأى أنَّ أكبر لذائذ الدنيا، لذة الوصال، لا تدوم إلا نصف دقيقة، فعلم أنَّها ليست إلا مثلاً من لذات الآخرة. إنَّها لقمة من الطعام تذوقها، فإن أعجبك اشترت منه فأكلت حتى شبعت. إنَّها نموذج تجاري، تراه فإن ارتضيته طلبت البضاعة.

إنَّ هذه اللذة التي لا تدوم إلا نصف دقيقة، مثال مُصَغَّر للذات العالم الآخر، التي تدوم أبداً، التي لا حدَّ لها تقف عنده، التي تبقى لذة دائماً، لا تصير عادة، كما تصير اللذات في الدنيا عادات⁽¹⁾.

ثانياً- محاور العقيدة في الإسلام

تقوم العقيدة الإسلامية على محورين رئيسين:

الأول: الإيمان.

والثاني: الإسلام.

وسينصب كلامنا في أغلب ما تبقى من هذا المبحث على هذين المحورين.

المحور الأول: الإيمان

معنى الإيمان:

الإيمان لغة: مطلق التصديق مع الاطمئنان والإقرار والإذعان والتسليم.

الإيمان شرعاً: التصديق الجازم بجميع ما جاء به النبي ﷺ، مع الإقرار بذلك والطمأنينة به، والقبول والانقياد له.

وذلك كوجود الله -تعالى-، وأركان الإيمان وأركان الإسلام وغيرها من أمور الدين الواجب التصديق والإقرار بها⁽²⁾.

فمسمَّى الإيمان يقع: على التصديق بالجنان، والإقرار باللسان، والعمل بالأركان⁽³⁾.

الإيمان يَزِيد وينقص:

قال تعالى: ﴿فَرَادَهُمْ إِيمَانًا﴾ [آل عمران: 173]، وقال تعالى: ﴿وَيَزِدَادَ الَّذِينَ آمَنُوا إِيمَانًا﴾

[المدثر: 31]، وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ثَلِيثٌ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: 2].

(1) علي الطنطاوي، تعريف عام بدين الإسلام، (جدة: دار المنارة للنشر والتوزيع، ط1، 1989م)، ص37-51.

وانظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص5-30.

(2) عبد الكريم نتان ومحمد الكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، (دمشق: دار البشائر، ط2، 1999م)، ج1 ص238 بتصرف.

(3) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص332. وانظر: نتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج1 ص244-252. ومحمد نعيم ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، (الدمام: مكتبة المتنبّي، ط1، 2013م)، ص120-124.

دلّت هذه الآيات على أنَّ الإيمان يزيد وينقص، فإذا كان الإيمان مركباً من أمور ثلاثة: من العقيدة والعلم، ومن القول والنطق، ومن العمل، فإنَّ الإنسان إذا عمل وكثر عمله زاد إيمانه. والزيادة ليست في العمل فقط، بل قد تكون في اليقين، فالإنسان يكون في وقت أكثر يقيناً منه في وقت آخر، وكذلك القول، قد يكون القول مطابقاً لما في القلب، ومطابقاً لما في الواقع، وقد يكون مجرد قول قاله ولم يعرف معناه، ومعلوم أنَّ مثل هذا يتفاوت، وكذلك الأعمال تتفاوت، فالزيادة والنقص في الجميع، في العلم وفي القول وفي العمل⁽¹⁾.

فالإيمان يزيد بالإخلاص والطاعات والمسارة إلى رضوان الله ﷻ، وتقديم مرضاته وتبعية محابّه حتى يستكمل الإيمان في العبد.

وكذا عكسه بأن الإيمان ينقص ويقل، كلما ارتكب العبد المحرمات واقترب المنهيات، وفرغ قلبه من تحقيق معاني الألوهية ومعاني أسماء الله وصفاته، وأمره وشرعه حتى يزول الإيمان بالكلية، فتستحكم الشهوات والشبهات عليه.

أركان الإيمان:

يرتكز الإيمان في الإسلام على ستة أركان، هي:

- 1 - الإيمان بالله.
- 2 - الإيمان بالملائكة.
- 3 - الإيمان بالكتب.
- 4 - الإيمان بالرسول.
- 5 - الإيمان باليوم الآخر.
- 6 - الإيمان بالقضاء والقدر.

والركن في اللغة: هو ما يقوم عليه البناء ويستقيم به.

وبناءً على ذلك فالتعبيرُ بالركن عن الإيمان بهذه الأمور يعني أنَّ الإيمان لا يكون ولا يقوم في نفس المؤمن إلا إذا آمن بهذه الأركان جميعاً.

(1) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 335-346، حيث عرض آراء المذاهب العقدية في المسألة ورجح مذهب الجمهور. وبتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 1 ص 260-273. وياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 125-126.

فاجتماعها هو ما يتطلبه الإيمان القويم، ليكون إيماناً تاماً وحقاً، فلا يمكن التخلي عن ركنٍ منها أو التشكيك به، ولا بُدَّ للمسلم أن يكون إيمانه بها إيماناً يقيناً، ليستقيم دينه وتستقيم عباداته.

وقد جاء تحديد هذه الأركان في القرآن والسنة، ففي القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَأَتْ بِهِ وَكُنْتُمْ لَهُ كَافَّةً﴾ [البقرة: 285].

وفي السنة جاء فيما يُعرف بحديث جبريل ﷺ الذي يقول فيه عُمرُ بنُ الخطاب ؓ قال: (بَيْنَمَا نَحْنُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ، إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لَا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلَا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، حَتَّى جَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخْذَيْهِ. وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الْإِسْلَامِ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْإِسْلَامُ أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَتُقِيمَ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلًا»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ، وَيُصَدِّقُهُ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِيمَانِ، قَالَ ﷺ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللَّهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»، قَالَ: صَدَقْتَ، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ الْإِحْسَانِ، قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ اللَّهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ»، قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ، قَالَ: «مَا الْمَسْئُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ». قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَتِهَا، قَالَ: «أَنْ تَلِدَ الْأُمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحَفَاةَ الْعَرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّيْءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ»، قَالَ: ثُمَّ انْطَلَقَ فَلَبِثْتُ مَلِيًّا، ثُمَّ قَالَ لِي: «يَا عُمَرُ أَتَدْرِي مَنِ السَّائِلُ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»⁽¹⁾.

ونتناول هذه الأركان بشيء من البيان:

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (367)، ج 1 ص 434-435. والإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور (حديث) رسول الله وسننه وأيامه، تحقيق: مصطفى البغا، (بيروت: دار ابن كثير، ط 3، 1987م)، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (50) عن أبي هريرة ؓ. والإمام مسلم بن الحجاج النيسابوري، المسند الصحيح المختصر من السنن ينقل العدل عن العدل عن رسول الله ﷺ، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار إحياء التراث)، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، رقم (8).

الإيمان بالله تعالى الركن الأول، وهو الأهم في أركان الإيمان، وهو نقطة الفصل في الإيمان. والإيمان بالله يتضمن أربع قضايا: هي: أَنَّ الله ﷻ موجود بلا موجد، وأَنَّه رب العالمين، وأَنَّه مالك الكون المتصرف فيه، وأَنَّه الإله المعبود وحده، لا يُعبد معه غيره.

معنى الإيمان بالله ﷻ:

«فالإيمان بالله يعني: الاعتقاد الجازم بوجوده، وبربوبيته، وبألوهيته، وبأسمائه وصفاته.

وهذا يقتضي استحقاقه للعبادة وحده، وأَنَّه المتصف بصفات الكمال كلها، والمنزه عن كل صفات النقص، وبأنَّه رب هذا الكون وخالقه ومليكه⁽¹⁾.

وقد فُطر الإنسان على معرفة الله ﷻ والإيمان به، كما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: 30].

من أسماء الله ﷻ وصفاته:

ولله ﷻ صفات الجمال والجلال والكمال وله ﷻ أسماء حسنى، وعقيدة أهل السنة والجماعة في أسماء الله تعالى وصفاته أَنَّها توقيفية بمعنى أَنَّه لا اجتهد فيها، بل يتوقف إثباتها على ورودها في النصوص الشرعية، فلا يجوز لأحد أن يُسمِّي الله ﷻ باسم لم يُسمَّ به نفسه، أو لم يُسمَّ به رَسوله ﷺ، ولا يجوز لأحد كذلك أن يصف الله ﷻ بصفة لم يصف بها نفسه أو جاءت على لسان رسوله ﷺ، ولا مجال للعقل ولا للذوق ولا للرأي ولا للاجتهد في إثبات أسمائه وصفاته ﷻ⁽²⁾.

(1) ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 6.

(2) أحمد بن محمد الصاوي، شرح الصاوي على جوهرية التوحيد، تحقيق: عبد الفتاح البزم، (دمشق: دار ابن كثير، ط 10، 2014م)، ص 213-215. الخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص 185. ونتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرية التوحيد، ج 1 ص 437. وعمر سليمان الأشقر، الأسماء والصفات في معتقد أهل السنة والجماعة، (عمّان: دار النفائس، ط 1، 1993م)، ص 128-134.

من أسماء الله:

أسماء الله تعالى هي أعلام عليه ﷺ، تعرّفنا به ﷺ، وقد أخبرنا الله ﷻ في كتابه الكريم وأخبر نبيه ﷺ بكثير منها، جاء في الحديث عن أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مِائَةً إِلَّا وَاحِدًا، مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»⁽¹⁾.

وقد اجتهد العلماء في تعيين أسماء الله ﷻ بالاستقراء من الكتاب والسنة، ونذكر منها تسعة وتسعين اسمًا اجتهدنا نحن في جمعها من القرآن الكريم ومما ثبت من السنة، وهي على النحو التالي:

«الله، الإله، الربُّ، الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْقُدُّوسُ، السَّلَامُ، الْمُؤْمِنُ، الْمُهِمِّنُ، الْعَزِيزُ، الْجَبَّارُ، الْمُكَبِّرُ، الْخَالِقُ، الْخَلَّاقُ، الْبَارِئُ، الْمُصَوِّرُ، الْمَوْلَى، الْوَلِيُّ، النَّصِيرُ، الْجَمِيلُ، السَّتِيرُ، الْحَقُّ، الْمُبِينُ، الْقَوِيُّ، الْمَتِينُ، التَّوَّابُ، الْوَاحِدُ، الْأَحَدُ، الصَّمَدُ، الشَّهِيدُ، الْمَلِكُ، الْمَالِكُ، الْمَلِكُ، الْقَهَّارُ، الْقَاهِرُ، الشَّاكِرُ، الشَّكُورُ، الْمَنَّانُ، الْمُحْسِنُ، الشَّافِي، الرَّفِيقُ، السَّيِّدُ، الْكَرِيمُ، الْأَكْرَمُ، الْجَوَادُ، الرَّؤُوفُ، الْعَلِيُّ، الْأَعْلَى، الْمُتَعَالُ، الْوَدُودُ، التَّوَّابُ، الْعَفُوُّ، الْغَفُورُ، الْغَفَّارُ، الْوَهَّابُ، الرَّزَّاقُ، الْفَتَّاحُ، الْعَلِيمُ، الْمُعِزُّ، الْمُدِلُّ، السَّمِيعُ، الْبَصِيرُ، الْحَكَمُ، الْحَكِيمُ، الْعَدْلُ، اللَّطِيفُ، الْخَبِيرُ، الْحَلِيمُ، الْعَظِيمُ، الْكَبِيرُ، الْحَفِيزُ، الْمُقِيتُ، الْحَسِيبُ، الْجَلِيلُ، الرَّقِيبُ، الْمُجِيبُ، الْوَاسِعُ، الْمَجِيدُ، الْحَقُّ، الْوَكِيلُ، الْحَمِيدُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ، الْقَدِيرُ، الْقَادِرُ، الْمُقْتَدِرُ، الْمُقَدِّمُ، الْمُؤَخَّرُ، الْأَوَّلُ، الْآخِرُ، الظَّاهِرُ، الْبَاطِنُ، الْبَرُّ، الْغَنِيُّ، النَّافِعُ، الضَّارُّ، الْهَادِي، الْبَدِيعُ، الْبَاقِي».

ونشير هنا إلى أن هذه الأسماء هي «من أسماء الله ﷻ»، أي بعض أسمائه ﷻ وليست كلها، فأسماء الله أكثر من الأسماء التسعة والتسعين التي من أحصاها دخل الجنة، لأنَّ هناك أسماء استأثر الله بها في علم الغيب عنده، وهناك أسماء لم يطلع البشر عليها، ويدل على ذلك قول النبي ﷺ في دعائه: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمِيَتْ بِهِ نَفْسُكَ، أَوْ عَلِمَتْهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أُنْزِلَتْهُ فِي كِتَابِكَ، أَوْ اسْتَأْثَرَتْ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ»⁽²⁾، فأسماء الله أكثر من تسعة وتسعين، بل هي أكثر مما ذُكر في القرآن والسنة.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الشروط، باب: ما يجوز من الاشتراط، رقم (2585). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب: في أسماء الله تعالى، وفضل من أحصاها، رقم (2677). والمراد بإحصائها: حفظها، والإيمان بها، وبمقتضاها، والعمل بمدلولاتها فيما لا يختص به ﷻ.

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (3712)، ج 6 ص 246-247.

كل اسم من أسماء الله الحسنى يتضمن من صفات الكمال ما يدل عليه، وقد يتضمن الاسم صفة واحدة، مثل «الله» فإنه يتضمن صفة الألوهية، و«الرب» يتضمن صفة الربوبية، و«السميع» يتضمن صفة السمع، و«العليم» يتضمن صفة العلم، وقد يتضمن أكثر من صفة بحسب ما يدل عليه، من ذلك اسم «الأحد» فهو يدل على صفة الكمال المطلق، كما يدل على نفي صفة الولادة والتولد.

وهناك صفات لله لم تُشتق من أسمائه، وقد جاء ذكرها في كتاب الله أو في السنة الصحيحة، مثل صفة الوجه، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: 27]، وصفة اليدين، كما في قوله تعالى: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: 64]، وصفة المعية، كما في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ﴾ [الحديد: 4].

ومثل: صفة الاستواء، كما في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ [طه: 5]، وصفة الرضا، كما في قوله تعالى: ﴿رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [المائدة: 119]، وصفة المحبة، كما في قوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾ [المائدة: 54]، وهذه الصفات لا يُشتق منها أسماء له ﷻ.

والاعتقاد بصفات الله ﷻ يُبنى على ما ثبت في الكتاب والسنة - كما أشرنا -، فلا نثبت إلا ما أثبتته الله ﷻ لنفسه وأثبتته له نبيه ﷺ.

ونفهم هذه الصفات وفق فهم الصحابة والتابعين وتابعيهم، الذي يقوم على إثبات الصفات الواردة لله تعالى في الكتاب والسنة، على حسب المعنى الذي يليق بكمال الله ﷻ، الذي لا نستطيع تخيله أو تكيفه، فنثبتها منزهين له ﷻ عن أي مشابهة للمخلوقين، فهو ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: 11]، وبعيداً عن أي تحريف أو تعطيل أو تكيف⁽¹⁾.

(1) سرنا في مسألة الصفات مع مذهب أهل الحديث والسلف في العقيدة، ليسر فهمه، ولكونه كما قيل الأسلم. انظر: ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 16-18. والساوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص 216-220. ونتاج والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 1 ص 442-490.

الركن الثاني: الإيمان بالملائكة

الإيمان بالملائكة أحد أركان الإيمان الستة التي لا يقوم الإيمان إلا بها، التي مَنْ لا يؤمن بواحدة منها فليس بمؤمن⁽¹⁾.

ويؤكد ذلك قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَى رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أَنْزَلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

معنى الإيمان بالملائكة:

الإيمان بالملائكة يعني: الاعتقاد الجازم بوجود خلق من خلق الله تعالى، خلقهم ﷻ قبل البشر من نور، ولهم وظائف أكلها الله بهم، ولهم القدرة على التشكل، وهم لا يعصون الله ما أمرهم، قائمون بعبادة الله ﷻ وتدبير شؤون الكون بأمره، ولا يعلم عددهم إلا الله⁽²⁾. وكونهم خلقوا قبل البشر يبينه قوله -عز من قائل-: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 30]، فالآية واضحة الدلالة على أن وجود الملائكة سابق لوجود البشر.

وستأتي باقي الأدلة على جزئيات هذا التعريف في طيات هذا المبحث.

كيف يكون الإيمان بالملائكة؟

الإيمان بالملائكة يكون على التفصيل وعلى الإجمال، بمعنى أنه ينبغي لنا أن نؤمن إيماناً تفصيلياً بمن علمنا اسمه من طريق الوحي على وجه الخصوص، مثل: جبرائيل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، فنؤمن بوجودهم تفصيلاً.

وفي المقابل نؤمن إجمالاً بأن هناك ملائكة كثرًا غير من ذكرت أسماؤهم في الكتاب وفي السنة، أشير إلى وجودهم في آيات وأحاديث من غير ذكر أسمائهم⁽³⁾.

مقتضيات الإيمان بالملائكة:

(1) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 264-265. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص 199.

(2) انظر: ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 27.

(3) ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 38.

الإيمان بالملائكة يقتضي أموراً أربعة لا بُدَّ منها، وهي:

1 - الإقرار الجازم بوجودهم، وأنَّهم خلق من خلق الله ﷻ.

2 - الإيمان بأسماء من علمنا اسمه منهم، كجبريل، وميكائيل، وإسرافيل، ومالك، وغيرهم -عليهم السلام-.

3 - الإيمان بأوصاف من علمنا وصفه، كما علمنا من السنة وصف جبريل ﷺ.

4 - الإيمان بأعمال من علمنا عمله.

صفات الملائكة:

جاءت النصوص من كتاب الله ومن سنة نبيه ﷺ تصف لنا الملائكة، فبينت أنَّهم مخلوقون من نور، فعن عائشة -رضي الله عنها- قالت: قال رسول الله ﷺ: «خُلِقَتِ الْمَلَائِكَةُ مِنْ نُورٍ، وَخُلِقَ الْجَانُّ مِنْ مَارِجٍ مِنْ نَارٍ، وَخُلِقَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِمَّا وُصِفَ لَكُمْ»⁽¹⁾، فمادة خلقهم هي النور.

وهم خلق عظيم أولو قوة شديدة، قال تعالى في وصف جبريل ﷺ: ﴿ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ [التكوير: 20]. وقال النبي ﷺ في وصف جبريل ﷺ أيضاً: «رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ سَادًّا عِظَمُ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ»⁽²⁾.

ولهم أجنحة، كما وصفهم الله ﷻ في قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنِحَةٍ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [فاطر: 1].

ومن صفاتهم الخلقية أنَّهم لا يوصفون بذكورة ولا أنوثة، فمن وصفهم بالأنوثة من غير جهل فقد كفر، لتكذيبه القرآن الكريم الذي نعى الله على المشركين أنَّهم عدوا الملائكة إناثاً، فقال -عز من قائل-: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيَسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنثَى﴾ [النجم: 27]، وقال ﷻ: ﴿أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلًا عَظِيمًا﴾ [الإسراء: 40]، ومن وصفهم بالذكورة، فقد جاء بدعاً من القول وزوراً، لإثباته

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (25194)، ج 42 ص 109. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزهد والرقائق، باب في أحاديث متفرقة، رقم (2996).

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (25993)، ج 43 ص 133-134. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب مَعْنَى قَوْلِ اللَّهِ ﷻ: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾، وهل رأى النبي ﷺ رَبَّهُ لَيْلَةً الإِسْرَاءِ؟، رقم (177).

ما لم يثبت شرعاً، ونفي أن يكونوا إناثاً لا يلزم أن يكونوا ذكوراً، فإنَّ الملائكة خلق يختلف عن خلق الإنس والجن.

والملائكة لا يأكلون ولا يشربون، كما دلَّ على ذلك ما جرى بين نبي الله إبراهيم وأضيافه من الملائكة لما زاروه، قال تعالى: ﴿فَرَاغَ إِلَىٰ أَهْلِهِ فَجَاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ ۝ فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ ۝ فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ وَبَشِّرُوهُ بَعْلَامٍ عَلَيْهِمُ﴾ [الذاريات: 26-28].

ومن صفاتهم أنَّ لهم قدرة على التشكل، كما دلَّت على ذلك قصة مجيء جبريل   إلى مريم -عليها السلام- في صورة بشر، قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ [مريم: 17]. وكان جبريل   يأتي النبي   في صورة الصحابي دحية الكلبي (1)   (2)، أو في صورة أعرابي، كما في حديث جبريل   المشهور.

وإضافة إلى عظم خلقهم فهم أعظم الخلق خلقاً، فقد وصفهم الرب   بأنهم: ﴿كِرَامٌ بَرَرَةٌ﴾ [عبس: 16]، ووصفهم النبي   فقال: «الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَهُوَ مَاهِرٌ بِهِ مَعَ السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَرَةِ، وَالَّذِي يَقْرَأُهُ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ، وَالَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَنْتَعِنُ فِيهِ وَهُوَ عَلَيْهِ شَاقٌّ لَهُ أَجْرَانِ» (3).

وهم لا يعصون الله ولا يخالفون أمره  ، قال تعالى عنهم: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: 6]، وقال: ﴿لَا يَسْقُوتُ بِهِ الْقَوْلُ وَهُمْ بِأَمْرِ يَعْْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: 27].

وأعدادهم كثيرة غفيرة لا يعلمها إلا الله  ، قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: 31].

(1) هو: الصحابي الجليل دحية بن خليفة بن فروة الكلبي القضاعي، رسول النبي   إلى قيصر صاحب الروم، شهد اليرموك، أسلم قبل بدر ولم يشهدا، وكان يشبه جبريل  ، مات في المزة قرب دمشق، ودفن فيها سنة 45هـ. (محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1422هـ)، ج2 ص550-556).

(2) أخرجه أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب النسائي، السنن، صححها: جماعة، (القاهرة: المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، ط1، 1930م)، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم (4991).

(3) أخرجه أحمد، المسند، رقم (24211)، ج40 ص256، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

وجاء في الحديث في صفة «البيت المعمور» عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْبَيْتُ الْمَعْمُورُ فِي السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، يَدْخُلُهُ كُلُّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلَكٍ، ثُمَّ لَا يَعُودُونَ إِلَيْهِ»⁽¹⁾.

وأظهرت النصوص أَنَّ مسكنهم السماء، وإنَّما يهبطون منها إلى الأرض أو غيرها من جهات الملكوت تنفيذاً لأمر الله تعالى، قال تعالى: ﴿وَلَهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ [الأنبياء: 19]، أي: لا يتعبدون ولا يملؤون⁽²⁾. هذه بعض صفات الملائكة الواردة في الكتاب والسنة⁽³⁾.

أعمال الملائكة:

الملائكة في عبادة دائمة، من دون فتور ولا سأم، قال تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾ ١١ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾ [الأنبياء: 19-20]، وقال تعالى: ﴿فَإِنْ اسْتَكْبَرُوا فَالَّذِينَ عِنْدَ رَبِّكَ يُسَبِّحُونَ لَهُ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَهُمْ لَا يَسْأَمُونَ﴾ [فصلت: 38]، فوظيفتهم وعملهم الرئيس عبادة الله ﷻ.

ويضاف إلى ذلك أَنَّ لهم أعمالاً موكلة إليه، منها ما جاء في قوله ﷻ: ﴿فَالْمُدَبِّرَاتِ أَمْرًا﴾ [النازعات: 5]، قال الحسن البصري -رحمه الله-: «هي الملائكة تدبر الأمر من السماء إلى الأرض»⁽⁴⁾.

ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، فهذه ملائكة تحفظ الإنسان من الشرور بأمر الله ﷻ، حتى إذا جاء القدر خلَّوا عنه، وقال ﷻ: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: 61]، فذكر في هذه الآية أَنَّ الملائكة هي التي تتولى نزع روحه.

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (367)، ج 20 ص 27.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 5 ص 336.

(3) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 267-274. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص 201-207.

(4) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 8 ص 313.

ومن ذلك أَنَّ الملائكة هم من يحملون عرش الرحمن، قال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7].

ومن أعمال الملائكة الاستغفار للمؤمنين، قال ﷺ: ﴿يَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا﴾ [غافر: 7]. وقال عنهم: ﴿يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا إِنْ اللَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الشورى: 5].

ومن أعمال الملائكة كتابة وإحصاء أعمال المكلفين من خير أو شر، قال تعالى: ﴿مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: 18]، وقال ﷺ: ﴿كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 11-12].

فهذه بعض أعمال الملائكة التي ذكرت في الكتاب والسنة دون تعيين أصحابها من الملائكة.

وورد في الكتاب والسنة ذكر أعمال معينة مصرحاً بأسماء أصحابها، ومن أعظم الملائكة الذين صرح الكتاب والسنة بذكرهم وأعمالهم، «جبريل» وهو أمين الوحي، و«ميكال» وهو أمين القطر، قال تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 98].

وممن ورد ذكره في القرآن مصرحاً باسمه «مالك» خزائن النار، قال تعالى: ﴿وَنَادُوا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ [الزخرف: 77].

ومنهم «إسرافيل» وهو الموكل بالنفخ في الصور، فعن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ أَنْعَمَ وَصَاحِبُ الْقُرْنِ قَدْ التَّقَمَ الْقُرْنُ، وَحَنَى جَبْهَتَهُ، وَأَصْفَى السَّمْعَ مَتَى يُؤْمَرُ»⁽¹⁾.

ومنهم «مُنْكَرٌ وَنَكِيرٌ» -عليهما السلام-، وهما الملكان الموكلان بسؤال العبد في قبره وقد ورد ذكرهما عند الترمذي عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا قُبِرَ

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (19345)، ج 32 ص 91. وأبو عيسى محمد بن عيسى الترمذي، الجامع (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد شاكر وآخرون، (بيروت: دار إحياء التراث العربي)، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في شأن الصور، رقم (2431). وابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب ذكر البعث، رقم (4273).

الْمَيْتُ - أَوْ قَالَ: أَحَدُكُمْ - أَتَاهُ مَلَكَانِ أَسْوَدَانِ أَرْزَقَانِ، يُقَالُ لِأَحَدِهِمَا: الْمَنْكُرُ، وَالْآخَرُ: النَّكِيرُ»⁽¹⁾.

هذه بعض وظائف الملائكة التي ذكرت في الكتاب والسنة⁽²⁾، ومما يجدر التنبيه عليه أَنَّهُ قد اشتهر على ألسنة الناس أَنَّ اسم ملك الموت «عزرائيل»، وهذه التسمية لم ترد في القرآن الكريم ولا في حديث مقبول، وقد ذكر الله ملك الموت بوظيفته لا باسمه، فقال ﷺ: ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: 11].

الركن الثالث: الإيمان بالكتب

الثالث من أركان الإيمان هو الإيمان بالكتب السماوية التي أنزلها الله تعالى على أنبيائه ورسله، فالإيمان بها فرض، وأصل من أصول الدين، ومن يكفر بها إجمالاً، أي لا يقر بنزول أي كتاب من عند الله، أو يكفر بأحدها مما ذكر في القرآن والسنة تفصيلاً، فَإِنَّهُ يخرج من الدين⁽³⁾.

وقد وردت آيات عدة في القرآن الكريم تؤكد على وجوب الإيمان بالكتب، منها قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: 136].

وقال الله ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: 285]، وهذه الآية تجمع أربعة من أركان الإيمان.

وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي نَزَّلَ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَالْكِتَابِ الَّذِي أُنْزِلَ مِنْ قَبْلُ وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الجنائز عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في عذاب القبر، رقم (1071). وأحمد بن عمرو بن أبي عاصم، السنة، تحقيق: باسم الجوابرة، (الرياض: دار الصميعي، ط1، 1998م)، رقم (864)، ج2 ص416. قال محرجه: حديث حسن.

(2) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص274-279. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص207-213.

(3) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص536-537. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص214.

معنى الإيمان بالكتب السماوية:

الإيمان بالكتب السماوية يعني: الاعتقاد الجازم بأن الله ﷻ أنزل كتباً على أنبيائه ورسله، منها ما نعرفه مثل: التوراة والإنجيل والزبور وصحف إبراهيم وموسى، ومنها ما لا نعرفه، وأن القرآن الكريم نسخها جميعاً.

كيف يكون الإيمان بالكتب السماوية:

الإيمان بالكتب السماوية يكون على التفصيل وعلى الإجمال، فنؤمن على التفصيل بالكتب التي ذكرها الله في كتابه وذكرها نبيه ﷺ في سنته، وهي إضافة للقرآن: التوراة، والإنجيل، والزبور، وصحف إبراهيم، وصحف موسى. ونؤمن أيضاً على الإجمال أن هناك كتباً أخرى أنزلها الله ﷻ غير ما ذكر في الكتاب والسنة⁽¹⁾.

الكتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه:

قال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ [البقرة: 213]، أشارت الآية إلى أن حكمة الله تعالى اقتضت أن يرسل الرسل والأنبياء لدلالة الخلق على الحق، وأنه ﷻ ينزل معهم الكتب التي تحوي التعريف بالله ﷻ والشرائع التي يسировون عليها في حياتهم.

وقد ذكر لنا الله في القرآن الكريم بعض هذه الكتب، وهي:

- 1 - الصُّحُف: أنزلت على إبراهيم ﷺ، وكذلك أنزلت صحف على موسى ﷺ، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿٥٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾ [الأعلى: 18-19].
- 2 - التوراة: وهو الكتاب الذي أنزل على موسى ﷺ، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾ [المائدة: 44]، وقد يكون التوراة هو الصحف المذكورة في الآية من النقطة السابقة، وفي قوله ﷻ: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبِّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى﴾ [النجم: 36]، لكن جمهور أهل العلم ذهبوا إلى أن الصحف غير التوراة، وهو ما نميل إليه.
- 3 - الزبور: أنزله ﷻ على داود ﷺ، قال تعالى: ﴿وَأَتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ [الإسراء: 55]، والزبور: معناه الكتاب.

(1) ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص54. والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص537.

4 - الإنجيل: أنزله ﷺ على عيسى عليه السلام، قال الله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة: 46].

5 - القرآن الكريم: وهو آخر الكتب السماوية، أنزله جبريل عليه السلام على سيدنا محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى: ﴿نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ ﴿١٧٢﴾ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ ﴿١٧٣﴾ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: 193-195] (1).

الغاية من إنزال الكتب:

جميع الكتب التي أوحى الله تعالى بها إلى أنبيائه ورسله -عليهم الصلاة والسلام- غايتها واحدة، فهي كلها تدعو إلى عبادة الله وحده لا شريك له، وإلى الإسلام، فالإسلام هو دين جميع الأنبياء والرسل، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

ومع وحدة غاية الكتب السماوية في الدعوة إلى التوحيد وعبادة الله ﷻ وحده لا شريك له، فإنها تختلف في الشرائع، فشريعة النصارى تُخالف شريعة اليهود في بعض الأمور، وشريعة الإسلام تخالف شريعة اليهود والنصارى في كثير من الأمور، قال الله تعالى: ﴿لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: 48] (2).

مقتضيات الإيمان بالكتب:

للإيمان بالكتب مقتضيات لا بُدُّ أن تتحقق فيه، وهي:

1 - الإيمان بأنَّ جميع الكتب التي أنزلها الله ﷻ على أنبيائه ورسله قبل القرآن الكريم قد حُرِّفَتْ، ومما يدل على تحريفها وتبديلها ما فيها الآن من تناقض، وما فيها من وصفٍ لا يليق بالله ﷻ، وما فيها من طعن في بعض أنبياء الله، وما حُذِفَ منها من دلالات وبشارات وصفات لنبينا محمد ﷺ، وقد قال تعالى: ﴿أَفَتَتَذَكَّرُونَ أَنِ يَوْمِنَا لَكُمْ وَقد كَانَ قَرِيبٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يَحْرِفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 75].

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 541-556. الخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص 216-219. ياسين، الإيمان، ص 53. وبتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 1 ص 442-490.

(2) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 538-540.

2 - الإيمان بأن القرآن الكريم هو آخر الكتب السماوية التي أنزلها الله ﷻ، فلا كتاب بعده، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40].

3 - الإيمان بأن الله ﷻ تعهد وتكفل بحفظ القرآن الكريم من التحريف والتغيير، قال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: 9]، فهو ﷻ الذي تكفل بحفظه إلى قيام الساعة، فلم يُحرّف ولن يُحرّف، ومن ادّعى تحريف القرآن فقد كفر⁽¹⁾.

الركن الرابع: الإيمان بالأنبياء والرسل

الإيمان بالأنبياء والرسل هو الركن الرابع من أركان الإيمان، فالإيمان بالأنبياء والرسل الذين بعثهم الله واجب، ومن يكفر بأحد ممن ذكرهم الله ﷻ في كتابه أو ذكرهم نبيه محمد ﷺ فقد كفر بهم جميعاً⁽²⁾.

والأدلة الشرعية متواترة على تأكيد ذلك، فقد أمر ﷻ بالإيمان بهم، وقرن ذلك بالإيمان به ﷻ فقال: ﴿فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾ [آل عمران: 179]. وقرن الله ﷻ الكفر بالرسل بالكفر به، فقال: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 136].

معنى الإيمان بالأنبياء والرسل:

الإيمان بالأنبياء والرسل يعني: التصديق الجازم بأن الله تعالى بعث في كل أمة رسولاً يدعونهم إلى توحيده وعبادته، وأن جميعهم صادقون مصدقون، أتقياء أمناء هداة مهتدون، وأظهر ﷻ على أيديهم الآيات الظاهرة تأييداً لهم، وأنهم بلغوا جميع ما أرسلوا به، كاملاً غير منقوص، مع عدم التفريق بينهم بالإيمان، واتباع خاتمهم رسول الله محمد ﷺ.

(1) انظر: ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص54-58. والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص5-30.

(2) الصاوي، شرح الصاوي على جوهره التوحيد، ص278. والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص296-297.

كيف يكون الإيمان بالأنبياء والرسل؟

الإيمان بالأنبياء والرسل يكون على الإجمال والتفصيل، فنؤمن على التفصيل بالأنبياء والرسل الذين ذكرهم الله ﷻ في كتابه وذكرهم نبيه ﷺ في سنته، مثل: إبراهيم، وموسى، وعيسى.

ونؤمن إجمالاً بأن هناك أنبياء ورسلًا آخرين بعثهم الله ﷻ إلى أمم وأقوام ولم يُذكروا في الكتاب والسنة⁽¹⁾.

تعريف الرسول والنبي:

معنى الرسول:

الرسول في اللغة: يطلق على مَنْ أُرسل برسالة، وكذلك يطلق على الرّسالة. وفي الاصطلاح: هو رجل معصوم يبعثه الله ﷻ ويوحى إليه بشرع جديد، ليلبّغه إلى قوم كافرين.

معنى النبي:

النبي في اللغة: هو مُنْبئٌ أو مُنْبَأٌ، مُنْبئٌ، أي: مخبر عن الله، ومُنْبَأٌ، أي: مُخْبَرٌ من الله. والنبي في الاصطلاح: هو رجل معصوم يبعثه الله ﷻ إلى قوم قد سبق أن بُعث إليهم رسول، ليؤكد مضامين رسالة الرسول الذي سبقه، ويرد الناس إليها⁽²⁾.

الفرق بين الرسول والنبي:

اختلف العلماء في التفريق بين معنى النبي والرسول، على أقوال: القول الأول: أنهما سواء، أي أن كلمة النبي وكلمة الرسول مترادفتان، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ﴾ [الحج: 52]، فأثبت لهما معنى الإرسال، قالوا: ولا يكون النبي ﷺ إلا رسولاً، ولا الرسول إلا نبياً. ورُدُّ هذا القول بأن الآية لا تدل على ما ذهبوا إليه، بل تدل على التفريق بينهما، لأنَّ العطف يقتضي التغاير، وأنَّهما لو كانا شيئاً واحداً لما حسن تكرارهما في الكلام البليغ.

(1) انظر: الصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص 277-278.

(2) الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 298-301. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص 228. وعمر سليمان الأشقر، الرسل والرسالات، (الكويت: مكتبة الفلاح، ط 2، 1985م)، ص 13-14.

القول الثاني: وهو ما نراه أنهما مفترقان، وقد اختلفوا في تحديد وجه الافتراق بينهما على أقوال عديدة، أرجحها في نظرنا أن الرسول: مَنْ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمٍ كَفَّارٍ مَكْذِبِينَ بِشَرِّعٍ جَدِيدٍ وَأَمَرَ بِتَبْلِيغِهِ، وَالنَّبِيُّ: مَنْ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ بِشَرِيعَةِ رَسُولٍ قَبْلِهِ، يَعْلَمُهُمْ وَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ، كَحَالِ أَنْبِيَاءِ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِينَ كُفِّوا بِتَبْلِيغِ شَرِيعَةِ مُوسَى ﷺ، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَخْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ بِمَا اسْتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُهَدَاءً﴾ [المائدة: 44] (1).

وبناءً على هذا التفريق بنينا تعريفنا السابق للنبي والرسول. وقد اتفق أهل العلم على أن كل رسولٍ نبيٍّ، وليس كل نبيٍّ رسولاً.

مقتضيات الإيمان بالأنبياء والرسل:

الإيمان بالأنبياء والرسل له مقتضيات لا بُدَّ منها، وهي:

1 - التصديق بنبوتهم وبما جاؤوا به من عند الله ﷻ من رسالة أو توجيهات، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ أُولَئِكَ هُمُ الصِّدِّيقُونَ﴾ [الحديد: 19].

2 - عدم التفريق بين أحد منهم بالإيمان، فلا نؤمن ببعض ونكفر ببعض، قال ﷻ: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ﴾ [البقرة: 285].

3 - توقيرهم وتعظيمهم، قال ﷻ: ﴿لِيُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفتح: 9]، قال ابن عباس -رضي الله عنهما-: «(وَتُعَزِّرُوهُ»: يعظموه، «وَتُوَقِّرُوهُ»: من التوقير وهو الاحترام والإجلال والإعظام) (2). وأجمع العلماء على أن من انتقص نبياً من الأنبياء فقد كفر.

4 - اعتقاد عصمتهم عن الخطأ في تبليغهم الوحي عصمةً كاملة، وعصمتهم من الكبائر كلها، ومن الصغائر التي تدل على خسة الطبع وسفول الهمة.

5 - أن نؤمن بأن الله ﷻ أيدهم بالمعجزات، حُجة وبرهاناً على نبوتهم وتأييداً لهم.

6 - أن نؤمن أن النبوة قد ختمت بمحمد ﷺ، فلا نبي ولا رسول بعده.

(1) الخن ومستو، العقيدة الإسلامية، ص 244-282، والأشقر، الرسل والرسالات، ص 14-15.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 7 ص 329.

7 - أن نؤمن أن أكرمهم عند الله ﷺ أولو العزم من الرسل، وهم خمسة: نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، ومحمد - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين-، وأن أكرم أولي العزم هو: محمد ﷺ، فهو خير الخلق أجمعين.

8 - ألا نغلو في الأنبياء والرسل، فنؤمن بأنهم بشر مختارون بعثهم الله ﷻ لهداية الناس بعون من عنده، وأنهم لا يملكون أي صفة من صفات الألوهية أو الربوبية، فهم عباد مكرمون⁽¹⁾.

الحكمة من إرسال الرسل:

تتلخص الحكمة في إرسال الله ﷻ رسله إلى العباد في أمور:

الأول: إقامة الحجة على العباد، وتبشير المؤمنين بنعيم الله وجنته في الآخرة، وإنذار الكافرين من عذابه وعقابه، قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: 165]. وقال النبي ﷺ مبيِّنًا الحكمة من بعثة الرسل: «وَلَا أَحَدٌ أَحَبُّ إِلَيْهِ الْعُذْرُ مِنَ اللَّهِ، وَمَنْ أَجَلَ ذَلِكَ بَعَثَ الْمُبَشِّرِينَ وَالْمُنذِرِينَ»⁽²⁾.

الثاني: إقامة الدين وسياسة الدنيا به، فقد كان الأنبياء هم الساسة الذين يديرون شؤون البلاد والعباد، قال ﷺ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ»⁽³⁾، وكذلك كان نبينا محمد ﷺ هو قائد الأمة وأميرها.

الثالث: تحقيق القدوة والأسوة العملية، وذلك يدحض حجة من يزعم أنه ليس في مقدوره تطبيق تلك الشرائع، فيقال له: إن الأنبياء وهم بشر أيضًا، قد طبقوا تلك الشرائع ومارسوها عمليًا، فكيف يصح القول بأن تطبيقها مما لا يستطيع.

(1) انظر: ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 42-46. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، ص 207-213. وبتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 2 ص 727-738.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التوحيد، باب: قول النبي ﷺ: (لا شخص أغير من الله)، رقم (6980).

(3) أخرجه أحمد، المسند، رقم (7960)، ج 13 ص 340. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (3268). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب وجوب الوفاء ببيعة الخلفاء الأول فالأول، رقم (1842).

كذلك تحقيق الأسوة والقُدوة للمؤمنين في كيفية تطبيق تلك الشرائع، وكيفية العمل بها، لأنَّ كثيرًا من الأمور النظرية تختلف الأفهام في تطبيقها، فيأتي الفعل النبوي فاصلاً ومبيناً. إضافة إلى حث المؤمنين على الاستزادة من فعل الصالحات⁽¹⁾.

معجزات الأنبياء والرسل:

معجزات الأنبياء عبارة عن خوارق للعادة أجزاها الله ﷻ على أيدي أنبيائه تصديقاً لهم، وبرهاناً على الحق الذي معهم. وقد سمّاها الله ﷻ في كتابه (آيات)، أي علامات دالة على صدق أنبيائه.

وتأييدُ الله ﷻ الأنبياء بالمعجزات من كمال عدله ورحمته وإقامته للحجة على العباد، إذ لم يبعث الله نبياً من الأنبياء إلا ومعه آية تدل على صدقه فيما أخبر به، قال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ [الحديد: 25]، وقال ﷻ: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: 184]، وقال ﷻ: «مَا مِنْ نَبِيٍّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ إِلَّا وَقَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرُهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽²⁾.

ومن عظيم حكمة الله ﷻ أن جعل معجزات رُسُلِهِ -عليهم الصلاة والسلام- من جنس ما أبدع فيه أقوامهم، وذلك زيادة في إقامة الحجة على الأقوام، إذ لو جعلت معجزة الرسول في أمر يجله قومه، لكان لهم العذر في عدم الإتيان بمثلها.

فقوم صالح ﷻ برعوا بالنحت، قال تعالى عنهم: ﴿وَكَانُوا يَنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا آمِنِينَ﴾ [الحجر: 82]، فكانت معجزة النبي الذي أرسل إليهم شبيهة بما برعوا به، وهي أنه أخرج لهم من الصخرة ناقةً يطلبون من حليبيها ويشربون، قال ﷻ: ﴿وَالِى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ﴾

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص302-315. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، ص321-322. نتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج2 ص713-714.

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (8492)، ج14 ص190. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب كيف نزول الوحي وأول ما نزل، رقم (4968). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد ﷺ إلى جميع الناس، رقم (152).

[الأعراف: 73]. وحكى الله قول صالح، فقال ﷺ: ﴿قَالَ هَذِهِ نَاقَةٌ لَهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ

مَعْلُومٍ﴾ [الشعراء: 155]

وموسى ﷺ أرسل في قومٍ كان السحر شائعاً بينهم، فأتاه الله ﷻ من الآيات ما فاق قدرة السحرة على أن يأتوا بمثله، على الرغم من مشابهتها للسحر، فلما رأى السحرة ذلك علموا أنها معجزة ربانية أيد الله بها نبيه موسى ﷺ، فما كان منهم إلا أن آمنوا وأذعنوا، قال تعالى: ﴿قَالُوا يَا مُوسَى إِمَّا أَنْ تُلْقِيَ وَإِمَّا أَنْ نَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَلْقَى ﴿٣٥﴾ قَالَ بَلْ أَلْقُوا فَإِذَا جِبَالُهُمْ وَعِصِيُّهُمْ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّهَا تَسْعَى ﴿٣٦﴾ فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ﴿٣٧﴾ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى ﴿٣٨﴾ وَأَلْقَى مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفُ مَا صَنَعُوا إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدٌ سَاجِرٌ وَلَا يُفْلِحُ السَّاجِرُ حَيْثُ أَتَى ﴿٣٩﴾ فَأَلْقَى السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى ﴿طه: 65-70﴾.

ولما بعث الله عيسى ﷺ في بني إسرائيل كان الطَّبُّ فيهم شائعاً، كما قيل، فاقتضت حكمته تعالى أن يجعل كثيراً من معجزات عيسى ﷺ شبيهة بأعمال أهل الطب، فأبرأ الله ﷻ على يديه الأبرص والأعمى وأحيا الموتى، قال تعالى ﷻ: ﴿وَرَسُولًا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطَّيْرِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَةَ وَالْأَبْرَصَ وَأُخِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأَنْبِئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدْخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: 49].

ومثل ذلك جرى مع سيدنا محمد ﷺ، فقد بعثه الله ﷻ في قوم أهل بلاغة وفصاحة، فجعل الله معجزته ﷻ من جنس ما برع به قومه، كلاماً في ذروة البلاغة والفصاحة، القرآن الكريم، الذي لو اجتمع البشر كلهم، وتظاهرت الجن معهم على أن يأتوا بمثله ما استطاعوا، قال تعالى: ﴿قُلْ لِّينِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: 88] (1).

ومعجزات الأنبياء جميعها تجتمع على غاية واحدة هي تأييد الأنبياء، وإظهار صدقهم فيما جاؤوا به (2).

(1) انظر: السيوطي، الإتقان في علوم القرآن، ج 4 ص 10.

(2) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 337-377. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، ص 259-

يخبرنا القرآن الكريم أنه ما من أمة إلا أرسل الله لها نبياً يدعوهم إلى التوحيد وينذرهم لقاء الآخرة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: 24]، وقال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36]، وهذا يدل على أن عدد الأنبياء والرسل كثير، جاء في الحديث عن أبي أمامة ؓ: أَنَّ رجلاً قال: يا رسول الله، أنبيي كان آدم؟ قال ﷺ: «نعم، مُعَلِّمٌ مُكَلِّمٌ». قال: كم بينه وبين نوح؟ قال: «عَشْرَةُ قُرُونٍ». قال: كم كان بين نوح وإبراهيم؟ قال: «عَشْرَةُ قُرُونٍ» قالوا: يا رسول الله، كم كانت الرُّسُلُ؟ قال: «ثَلَاثُ مِائَةٍ وَخَمْسَ عَشْرَةٍ، جَمًّا غَفِيرًا»⁽¹⁾.

وأول الأنبياء هو سيدنا آدم ؑ، كما جاء في الحديث السابق، لكنه ليس برسول لما جاء في حديث الشفاعة أَنَّ النَّاسَ يَذْهَبُونَ إِلَى آدَمَ ؑ فيقولون: «اُنْتُتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللَّهُ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ»⁽²⁾، وهذا نص صريح بأن سيدنا نوح ؑ أول الرسل.

وخاتم الأنبياء هو محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُولُ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب: 40]، لذا ميَّزَ اللهُ رسالَةَ نبيه محمدٍ ﷺ بأنها كانت لجميع البشر بينما رسالات الرسل والأنبياء من قبله كانت خاصة بأقوامهم فقط، قال ﷺ: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [سبا: 28].

وقد ورد في القرآن الكريم ذكر خمسة وعشرين نبياً ورسولاً بأسمائهم، وهم: آدم، وإدريس، ونوح، وهود، وصالح، وإبراهيم، ولوط، وإسماعيل، وإسحاق، ويعقوب، ويوسف، وأيوب، وشعيب، وموسى، وهارون، ويونس، وداود، وسليمان، وإلياس، واليسع، وزكريا، ويحيى، وعيسى -عليهم الصلاة والسلام-، وكذا ذو الكفل عند كثير من المفسرين، وسيدهم محمد ﷺ⁽³⁾.

وقد نصت السُّنة المُطَهَّرة على أسماء أنبياء لم يُذكروا في القرآن، وهم: شيث، ويوشع بن نون.

- (1) أخرجه أبو عبد الله محمد بن عبد الله الحاكم النيسابوري، المستدرك على الصحيحين، تحقيق: عادل مرشد ورفاقه، (بيروت: دار الرسالة العالمية، ط1، 2018م)، رقم (3076)، ج4 ص102. وقال: هذا حديث صحيح على شرط مسلم، ولم يُخرجاه. وقال محققوه: إسناده صحيح.
- (2) أخرجه النسائي، السنن، كتاب الإيمان وشرائعه، باب صفة الإيمان والإسلام، رقم (4991).
- (3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج2 ص469.

الإيمان باليوم الآخر هو الركن الخامس من أركان الإيمان، وهو أكثر ركن اهتمَّ به القرآن الكريم وأطال الحديث عنه⁽¹⁾.

معنى الإيمان باليوم الآخر:

اليوم الآخر هو يوم القيامة، اليوم الذي يحاسب فيه الله ﷻ الناس على أعمالهم في حياتهم. وهو يتضمن ما يقع من أحداث من وقت الحشر إلى ما لا نهاية، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار.

وسُمي يوم القيامة باليوم الآخر، لأنه آخر الأوقات المحدودة، أو لأنه متأخر عن الدنيا، أو لأنه لا ليل بعده.

المراد بالإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الآخر: هو الإيمان بكل ما أخبر به الله ﷻ في كتابه، وأخبر به رسوله ﷺ مما يكون بعد الموت من فتنة القبر وعذابه، والبعث والحشر والصحف والحساب والميزان، والحوض والصراف والشفاعة والجنة والنار، وما أعد الله تعالى لأهلها جميعاً.

والإيمان باليوم الآخر من أمور الغيب، فلا سبيل لمعرفة ومعرفة ما يجري فيه إلا النقل الصحيح مما جاء في الكتاب والسنة⁽²⁾.

أول منازل الآخرة:

الحياة التي يعيشها الإنسان تنقسم إلى ثلاثة أقسام:

- 1 - الحياة الدنيا، التي تنتهي بالموت.
- 2 - حياة البرزخ، وتبدأ بقبض الروح والعروج بها والقبر وأحواله وأهواله، وسميت بحياة البرزخ، لأنَّ معنى البرزخ في اللغة الحاجز بين الشيئين، وهذه الحياة فترة بين فترتين، فكانها حاجز بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة⁽³⁾.
- 3 - الحياة الآخرة، وتكون بعد قيام الناس من قبورهم إما إلى جنة، وإما إلى نار.

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 626-628. ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 59-61.

(2) انظر: ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 62-68.

(3) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 400. والخن ومستو، العقيدة الإسلامية، ص 326.

وحياة البرزخ هي أول منازل الآخرة، فقد روى عُثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْقَبْرَ أَوَّلُ مَنَازِلِ الْآخِرَةِ، فَإِنْ نَجَا مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَيْسَرُ مِنْهُ، وَإِنْ لَمْ يَنْجُ مِنْهُ فَمَا بَعْدَهُ أَشَدُّ مِنْهُ»⁽¹⁾. فإن نجا الإنسان من عذاب القبر، فما بعده من المنازل أيسر منه وأسهل وأهون، لأنه يُفَسَّحُ له في قبره مدٌّ بصره، وينوَّرُ له، ويُفَرَّشُ له من بُسْطِ الجنة، ويلبس من خللها، ويُفْتَحُ له باب إلى الجنة فيأتيه من رَوْحِها وطيبها.

وإن لم ينجُ منه ولم تُغْفَرْ ذنوبه، وبقي عليه شيء مما يستحق العذاب به، فما بعده أشد منه، لأنَّ النَّارَ أَشَدُّ الْعَذَابِ، فما يحصل للميت في القبر عنوان ما سيصير إليه⁽²⁾.

والحياة البرزخية تقع على الإنسان، سواء قُبِرَ أم لم يُقْبَرِ أو احترق أو أكلته السباع، وقد جاءت النصوص الشرعية مؤكدة وقوعها ومبينة لها، من ذلك قول الله تعالى عن قوم فرعون: ﴿وَحَاقَ بِآلِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ۝ النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 45-46]. قال ابن كثير -رحمه الله-: «وهذه الآية أصل كبير في استدلال أهل السنة على عذاب البرزخ في القبور»⁽³⁾.

وقال القرطبي -رحمه الله-: «هذه الآية تدل على عذاب القبر، ألا تراه يقول عن عذاب الآخرة: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾»⁽⁴⁾.

وقد تواترت الأحاديث في ذلك تواتراً معنوياً، منها:

ما جاء عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا مَاتَ أَحَدُكُمْ فَإِنَّهُ يُعْرَضُ عَلَيْهِ مَقْعَدُهُ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ، فَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ فَمِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَإِنْ كَانَ مِنْ أَهْلِ النَّارِ فَمِنْ أَهْلِ النَّارِ»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (454)، ج 1 ص 35. والترمذي، الجامع، أبواب الزهد عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (2308)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب ذكر القبر والبلى، رقم (4267)، وهو حديث حسن.

(2) القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج 1 ص 229.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 4 ص 82.

(4) أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: عبد الرزاق المهدي، (بيروت: دار الكتاب العربي، ط 1، 1997م)، ج 15 ص 319.

(5) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (3068). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، رقم (2866).

وما جاء عن عائشة -رضي الله عنها- أَنَّ يَهُودِيَّةً دَخَلَتْ عَلَيْهَا فَذَكَرَتْ عَذَابَ الْقَبْرِ فَقَالَتْ لَهَا: أَعَاذَكَ اللَّهُ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ. فَسَأَلَتْ عَائِشَةَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ عَنْ عَذَابِ الْقَبْرِ فَقَالَ: «نَعَمْ عَذَابُ الْقَبْرِ». قَالَتْ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-: فَمَا رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بَعْدُ صَلَّى صَلَاةً إِلَّا تَعَوَّذَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ⁽¹⁾.

فهذه الآية والأحاديث تدل على إثبات عذاب القبر واستمراره في حق بعض الناس⁽²⁾.

وقد جاءت أحاديث أخرى تصف تلك الحياة البرزخية، منها:

ما رواه أنس بن مالك ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ إِذَا وُضِعَ فِي قَبْرِهِ وَتَوَلَّى عَنْهُ أَصْحَابُهُ وَإِنَّهُ لَيَسْمَعُ قَرْعَ نِعَالِهِمْ أَتَاهُ مَلَكَانِ فَيَقْعِدَانِهِ، فَيَقُولَانِ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ لِمَحَمَّدٍ ﷺ، فَأَمَّا الْمُؤْمِنُ فَيَقُولُ: أَشْهَدُ أَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، فَيُقَالُ لَهُ: انْظُرْ إِلَى مَقْعِدِكَ مِنَ النَّارِ قَدْ أَبْذَلَكَ اللَّهُ بِهِ مَقْعِدًا مِنَ الْجَنَّةِ فَيَرَاهُمَا جَمِيعًا». قَالَ قَتَادَةُ: وَذِكْرٌ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ، ثُمَّ رَجَعَ إِلَى حَدِيثِ أَنَسٍ ؓ قَالَ: «وَأَمَّا الْمُنَافِقُ وَالْكَافِرُ فَيُقَالُ لَهُ: مَا كُنْتَ تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ؟ فَيَقُولُ: لَا أَدْرِي كُنْتُ أَقُولُ مَا يَقُولُ النَّاسُ. فَيُقَالُ: لَا دَرَيْتَ وَلَا تَلَيْتَ، وَيُضْرَبُ بِمِطَارِقٍ مِنْ حَدِيدٍ ضَرْبَةً فَيَصِيحُ صَيْحَةً يَسْمَعُهَا مَنْ يَلِيهِ غَيْرُ الثَّقَلَيْنِ». هذا لفظ البخاري، وزاد مسلم في كلام قتادة فقال: قَالَ قَتَادَةُ: «وَذِكْرٌ لَنَا أَنَّهُ يُفْسَحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ سَبْعُونَ ذِرَاعًا وَيُمْلَأُ عَلَيْهِ خَضِرًا إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ»⁽³⁾.

ومنها ما روته السيدة عائشة -رضي الله عنها- عَنْ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ لِلْقَبْرِ ضَغْطَةً وَلَوْ كَانَ أَحَدٌ نَاجِيًا مِنْهَا نَجَا مِنْهَا سَعْدُ بْنُ مُعَاذٍ»⁽⁴⁾.

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (25419)، ج 42 ص 258. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، رقم (1306). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الكسوف، باب ذكر عذاب القبر في صلاة الخسوف، رقم (903).

(2) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 400-404. وياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 62-68.

(3) أخرجه أحمد، المسند، رقم (12271)، ج 19 ص 289-290. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجنائز، باب: ما جاء في عذاب القبر، رقم (1308). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب عرض مقعد الميت من الجنة أو النار عليه، وإثبات عذاب القبر، والتعوذ منه، رقم (2870).

(4) أخرجه أحمد، المسند، رقم (24283)، ج 40 ص 327. وقال محققوه: حديث صحيح.

ومنها الحديث المشهور عَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ ؓ قَالَ: (خَرَجْنَا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ فِي جَنَازَةِ رَجُلٍ مِنَ الْأَنْصَارِ فَأَنْتَهَيْنَا إِلَى الْقَبْرِ وَلَمَّا يُلْحَدُ فَجَلَسَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَجَلَسْنَا حَوْلَهُ، وَكَأَنَّ عَلَى رُؤُوسِنَا الطَّيْرَ، وَفِي يَدِهِ عُودٌ يَنْكُثُ فِي الْأَرْضِ فَرَفَعَ رَأْسَهُ، فَقَالَ ﷺ: «اسْتَعِيدُوا بِاللَّهِ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا»، ثُمَّ قَالَ: «إِنَّ الْعَبْدَ الْمُؤْمِنَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعِ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالِ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مَلَائِكَةٌ مِنَ السَّمَاءِ بِيضُ الْوُجُوهِ كَأَنَّ وَجُوهُهُمْ الشَّمْسُ مَعَهُمْ كَفَنٌ مِنْ أَكْفَانِ الْجَنَّةِ وَحَنُوطٌ⁽¹⁾ مِنْ حَنُوطِ الْجَنَّةِ حَتَّى يَجْلِسُوا مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ ؓ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتُهَا النَّفْسُ الطَّيِّبَةُ أَخْرِجِي إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ».

قَالَ: «فَتَخْرُجُ تَسِيلُ كَمَا تَسِيلُ الْقَطْرَةُ مِنْ فِي السَّقَاءِ⁽²⁾ فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدَعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَأْخُذُوهَا فَيَجْعَلُوهَا فِي ذَلِكَ الْكَفَنِ وَفِي ذَلِكَ الْحَنُوطِ، وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَطْيَبِ نَفْحَةٍ مَسْكٍ وَجِدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ».

قَالَ: «فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلَأٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الطَّيِّبُ، فَيَقُولُونَ: فَلَانُ بْنُ فَلَانٍ، بِأَحْسَنِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانُوا يُسَمُّونَهُ بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَوْا بِهَا إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا فَيَسْتَفْتَحُونَ لَهُ فَيُفْتَحُ لَهُمْ، فَيُشِيعُهُ مِنْ كُلِّ سَمَاءٍ مُقَرَّبُوهَا إِلَى السَّمَاءِ الَّتِي تَلِيهَا، حَتَّى يُنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَ عَبْدِي فِي عَلِيِّينَ⁽³⁾ وَأَعِيدُوهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَإِنِّي مِنْهَا خَلَقْتُهُمْ، وَفِيهَا أُعِيدُهُمْ، وَمِنْهَا أَخْرِجُهُمْ تَارَةً أُخْرَى».

قَالَ: «فَتَعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ فَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيَجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: رَبِّي اللَّهُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا دِينُكَ؟ فَيَقُولُ: دِينِي الْإِسْلَامُ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَا هَذَا الرَّجُلُ الَّذِي بَعَثَ فِيكُمْ؟ فَيَقُولُ: هُوَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَيَقُولَانِ لَهُ: وَمَا عِلْمُكَ؟ فَيَقُولُ: قَرَأْتُ كِتَابَ اللَّهِ فَأَمَنْتُ بِهِ وَصَدَّقْتُ، فَيُنَادِي مُنَادٍ فِي السَّمَاءِ أَنْ صَدَقَ عَبْدِي فَأَفْرِشُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَالْبِسُوهُ مِنَ الْجَنَّةِ وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى الْجَنَّةِ».

(1) الحنوط: ما يطيب به الميت.

(2) فِي السَّقَاءِ: قم القرية أو مخرج الماء منها.

(3) موضع في السماء السابعة.

قَالَ: «فَيَأْتِيهِ مِنْ رَوْحِهَا وَطَيِّبُهَا وَيُفْسِحُ لَهُ فِي قَبْرِهِ مَدَّ بَصَرِهِ»، قَالَ: «وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ حَسَنُ الْوَجْهِ حَسَنُ الثِّيَابِ طَيِّبُ الرَّيْحِ، فَيَقُولُ: أَبَشِّرْ بِالَّذِي يَسُرُّكَ هَذَا يَوْمَكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ لَهُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهَكَ الْوَجْهُ يَجِيءُ بِالْخَيْرِ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الصَّالِحِ، فَيَقُولُ: رَبِّ أَقِمِ السَّاعَةَ حَتَّى أَرْجِعَ إِلَى أَهْلِي وَمَالِي».

قَالَ: «وَإِنَّ الْعَبْدَ الْكَافِرَ إِذَا كَانَ فِي انْقِطَاعٍ مِنَ الدُّنْيَا وَإِقْبَالٍ مِنَ الْآخِرَةِ نَزَلَ إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَلَائِكَةٌ سَوْدُ الْوُجُوهِ مَعَهُمُ الْمُسُوحُ⁽¹⁾ فَيَجْلِسُونَ مِنْهُ مَدَّ الْبَصَرِ، ثُمَّ يَجِيءُ مَلَكُ الْمَوْتِ حَتَّى يَجْلِسَ عِنْدَ رَأْسِهِ، فَيَقُولُ: أَيَّتَهَا النَّفْسُ الْخَبِيثَةُ أَخْرَجِي إِلَى سَخَطٍ مِنَ اللَّهِ وَعَظَبٍ».

قَالَ: «فَتَفَرَّقُ فِي جَسَدِهِ فَيَنْتَزِعُهَا، كَمَا يَنْتَزِعُ السَّفُودُ⁽²⁾ مِنَ الصُّوفِ الْمَبْلُورِ، فَيَأْخُذُهَا، فَإِذَا أَخَذَهَا لَمْ يَدْعُوهَا فِي يَدِهِ طَرْفَةً عَيْنٍ حَتَّى يَجْعَلُوهَا فِي تِلْكَ الْمُسُوحِ وَيَخْرُجُ مِنْهَا كَأَنَّ رِيحَ حَيَفَةٍ⁽³⁾ وَجَدَتْ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ، فَيَصْعَدُونَ بِهَا فَلَا يَمُرُّونَ بِهَا عَلَى مَلٍّ مِنَ الْمَلَائِكَةِ إِلَّا قَالُوا: مَا هَذَا الرُّوحُ الْخَبِيثُ؟ فَيَقُولُونَ: فُلَانُ بْنُ فُلَانٍ، بِأَقْبَحِ أَسْمَائِهِ الَّتِي كَانَ يُسَمَّى بِهَا فِي الدُّنْيَا، حَتَّى يَنْتَهَى بِهِ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا، فَيُسْتَفْتَحُ لَهُ فَلَا يَفْتَحُ لَهُ، ثُمَّ قَرَأَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: ﴿لَا تَفْتَحُ لَهُمْ أَبْوَابَ السَّمَاءِ وَلَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ حَتَّى يَلِجَ الْجَمَلُ فِي سَمِّ الْخِيَاطِ﴾⁽⁴⁾ [الأعراف: 40]، فَيَقُولُ اللَّهُ ﷻ: اكْتُبُوا كِتَابَهُ فِي سَجِّينٍ⁽⁵⁾ فِي الْأَرْضِ السُّفْلَى فَتَطْرَحُ رُوحُهُ طَرْحًا، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: 31]، فَتُعَادُ رُوحُهُ فِي جَسَدِهِ وَيَأْتِيهِ مَلَكَانِ فَيُجْلِسَانِهِ، فَيَقُولَانِ لَهُ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولَانِ لَهُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيَقُولُ: هَاهُ هَاهُ لَا أَدْرِي، فَيُنَادِي مُنَادٍ مِنَ السَّمَاءِ أَنْ كَذَبَ، فَافْرِشُوا لَهُ مِنَ النَّارِ، وَافْتَحُوا لَهُ بَابًا إِلَى النَّارِ، فَيَأْتِيهِ مِنْ حَرِّهَا وَسُمُومِهَا وَيُضَيِّقُ عَلَيْهِ قَبْرُهُ حَتَّى تَخْتَلِفَ فِيهِ أَضْلَاعُهُ، وَيَأْتِيهِ رَجُلٌ قَبِيحُ الْوَجْهِ قَبِيحُ الثِّيَابِ

(1) المسوح: الكفن.

(2) السفود: حديدة لها كلاليب.

(3) الحيفة: جثة الميت إذا أنتنت وتعفت.

(4) سم الخياط: فتحة الإبرة.

(5) سجين: موضع في الأرض السفلى.

مُنِنُ الرِّيحِ، فَيَقُولُ: أَبْشِرْ بِالَّذِي يَسُووكَ، هَذَا يَوْمُكَ الَّذِي كُنْتَ تُوعَدُ، فَيَقُولُ: مَنْ أَنْتَ فَوَجْهَكَ الْوَجْهَ يَجِيءُ بِالشَّرِّ؟ فَيَقُولُ: أَنَا عَمَلُكَ الْخَبِيثُ، فَيَقُولُ: رَبِّ لَا تَقِمُ السَّاعَةَ»⁽¹⁾.

والحياة البرزخية تختلف عن الحياة الدنيوية وعن الحياة الأخروية من وجوه كثيرة، أهمها أنَّ الروح تتعلق بالبدن تعلقًا خاصًّا، فإنَّها وإنْ فارقتَه وتجردت عنه عند قبضها فإنَّها لا تفارقه بالكلية بحيث لا يبقى لها التفات البتة، وإنَّما تُردُّ إليه في بعض الأوقات كردِّها عند سؤال الملكين وتسليم المسلم عليه عند زيارته له. وهذا الرد هو إعادة خاصة للروح لا توجب حياة البدن قبل البعث.

يقول ابن أبي العز الحنفي -رحمه الله- في شرح العقيدة الطحاوية عن حياة البرزخ: «فَيَجِبُ اعتقادُ ثُبُوتِ ذَلِكَ والإيمانُ به، وَلَا تتكلم في كَيْفِيَّتِهِ، إذْ لَيْسَ للعقلُ وَقُوفٌ عَلَى كَيْفِيَّتِهِ، لَكُونِهِ لَا عَهْدَ لَهُ بِهِ فِي هَذِهِ الدَّارِ، وَالشَّرْعُ لَا يَأْتِي بِمَا تُحِيلُهُ الْعُقُولُ، وَلَكِنَّهُ قَدْ يَأْتِي بِمَا تَحَارُّ فِيهِ الْعُقُولُ. فَإِنَّ عَوْدَ الرُّوحِ إِلَى الْجَسَدِ لَيْسَ عَلَى الْوَجْهِ الْمَعْهُودِ فِي الدُّنْيَا، بَلْ تُعَادُ الرُّوحُ إِلَيْهِ إِعَادَةً غَيْرَ الإِعَادَةِ الْمَأْلُوفَةِ فِي الدُّنْيَا، فَالرُّوحُ لَهَا بِالْبَدَنِ خَمْسَةُ أَنْوَاعٍ مِنَ التَّعَلُّقِ، مُتَغَايِرَةُ الْأَحْكَامِ:

أَحَدُهَا: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي بَطْنِ الْأُمِّ جَنِينًا.

الثَّانِي: تَعَلُّقُهَا بِهِ بَعْدَ خُرُوجِهِ إِلَى وَجْهِ الْأَرْضِ.

الثَّالِث: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي حَالِ النَّوْمِ، فَلَهَا بِهِ تَعَلُّقٌ مِنْ وَجْهِ، وَمُفَارَقَةٌ مِنْ وَجْهِ.

الرَّابِع: تَعَلُّقُهَا بِهِ فِي الْبَرْزَخِ، فَإِنَّهَا وَإِنْ فَارَقَتْهُ وَتَجَرَّدَتْ عَنْهُ فَإِنَّهَا لَمْ تُفَارِقْهُ فَرَاقًا كُلِّيًّا بِحَيْثُ لَا يَبْقَى لَهَا إِلَيْهِ التَّفَاتُ الْبَتَّةَ، فَانَّهُ وَرَدَ رُدُّهَا إِلَيْهِ وَقَتَ سَلَامِ الْمُسْلِمِ، وَوَرَدَ أَنَّهُ يَسْمَعُ خَفَقَ نَعَالِهِمْ حِينَ يُؤَلَّوْنَ عَنْهُ، وَهَذَا الرُّدُّ إِعَادَةٌ خَاصَّةٌ لَا يُوجِبُ حَيَاةَ الْبَدَنِ قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ.

الخَامِس: تَعَلُّقُهَا بِهِ يَوْمَ بَعَثَ الْأَجْسَادَ، وَهُوَ أَكْمَلُ أَنْوَاعِ تَعَلُّقِهَا بِالْبَدَنِ، وَلَا نَسَبَةَ لِمَا قَبْلَهُ مِنْ أَنْوَاعِ التَّعَلُّقِ إِلَيْهِ، إذْ هُوَ تَعَلُّقٌ لَا يَقْبَلُ الْبَدَنُ مَعَهُ مَوْتًا وَلَا نَوْمًا وَلَا فَسَادًا، فَالنَّوْمُ أَخُو الْمَوْتِ، فَتَأْمَلْ هَذَا يَزَحْ عَنْكَ إِشْكَالَاتُ كَثِيرَةٍ»⁽²⁾.

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (18534)، ج 30 ص 499-503. وقال محققوه: حديث صحيح. وقال القرطبي في التذكرة: إنَّه صحيح. (القرطبي، التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، ج 1 ص 359).

(2) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 399. وانظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 642-646.

اليوم الآخر وما يقع فيه:

أخبر الله تعالى عن يوم القيامة وأهواله في كتابه العزيز في مواطن كثيرة، منها قوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ ۝ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُمْ بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ [الحج: 1-2]، إلى غير ذلك من الآيات الدالة على شدة الأمر وفضاعته.

وموعد يوم القيامة مِنَ الْغَيْبِ الَّذِي اسْتَأْثَرَ اللَّهُ ﷻ بعلمه، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [لقمان: 34]، وقال ﷻ: ﴿إِلَيْهِ يُرْدُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾ [فصلت: 47].

أشراط الساعة:

أشراط الساعة مجموعة من العلامات والظواهر والأحداث التي تسبق يوم القيامة، ويدل وقوع بعضها على قرب يوم القيامة.

وكلمة «الأشراط» تعني العلامات، قال القرطبي -رحمه الله- في تفسير قول الله تعالى: ﴿تَهَلَّلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا﴾ [محمد: 18]، «أشراطها أي أماراتها وعلاماتها»⁽¹⁾.

والساعة: هي الوقت الذي تقوم فيه القيامة، وقد سُمِّيَتْ بذلك لسرعة الحساب فيها، أو لأنها تفاجئ الناس في ساعة، فيموت الخلق كلهم بصيحة واحدة⁽²⁾.

«والحكمة في تقدم الأشراط بإيقاظ الغافلين، وحثهم على التوبة والاستعداد»⁽³⁾.

وقد قَسَمَ العلماء هذه الأشراط إلى قسمين:

القسم الأول: أشراط أو علامات صغرى، وهي التي تَقْدُم الساعة -في الغالب- بأزمان طويلة، ومنها ما وقع وانقضى ولن يتكرر وقوعه، ومنها ما ظهر ولا يزال يظهر ويتتابع، ومنها ما لم يقع إلى الآن، لكنه سيقع كما أخبر نبينا الصادق المصدوق ﷺ، وقد يظهر بعضها مصاحباً للأشراط الكبرى أو بعدها.

القسم الثاني: أشراط أو علامات كبرى: وهي الأمور العظام التي يعقبها قيام الساعة.

(1) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج 16 ص 240.

(2) الغفيلي، أشراط الساعة، ص 36.

(3) ابن حجر، فتح الباري، ج 11 ص 350.

من علامات الساعة الصغرى:

علامات الساعة الصغرى كثيرة، نذكر منها.

1. بعثة النبي ﷺ.
2. موته ﷺ.
3. فتح بيت المقدس.
4. طاعون «عمواس» وهي بلدة في فلسطين.
5. استفاضة المال والاستغناء عن الصدقة.
6. ظهور الفتن.
7. ظهور مدّعي النبوة، ومنهم «مسيلمة الكذاب» و«الأسود العنسي».
8. ظهور نار الحجاز.
9. ضياع الأمانة، ومن مظاهر تضييع الأمانة إسناد أمور الناس إلى غير أهلها القادرين على تسييرها.
10. قبض العلم وظهور الجهل، ويكون قبض العلم بقبض العلماء، كما جاء في الصحيحين.
11. انتشار الزنا.
12. انتشار الربا.
13. ظهور المعازف.
14. كثرة شرب الخمر.
15. تناول رعاء الشاة في البنيان.
16. كثرة العقوق في الأولاد فيعامل الولد أمّه معاملة السيد أمته من الإهانة والسب.
17. كثرة القتل.
18. كثرة الزلازل.
19. ظهور الخسف والمسخ والقذف.
20. ظهور الكاسيات العاريات.
21. صدق رؤيا المؤمن.
22. كثرة شهادة الزور وكتمان شهادة الحق.

23. كثرة النساء.
24. رجوع أرض العرب مروجاً وأنهاراً.
25. انكشاف الفرات عن جبل من ذهب.
26. كلام السباع والجمادات الإنس.
27. كثرة الروم وقتالهم للمسلمين.
28. فتح القسطنطينية⁽¹⁾.

من علامات الساعة الكبرى:

وأما أشراط القيامة الكبرى: فهي ما جاءت في حديث حذيفة بن أسيد الغفاري رضي الله عنه قَالَ: أَطْلَعَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَيْنَا وَنَحْنُ نَتَذَكَّرُ فَقَالَ: «مَا تَذَكَّرُونَ؟» قَالُوا: نَذْكُرُ السَّاعَةَ، قَالَ: «إِنَّهَا لَنْ تَقُومَ حَتَّى تَرَوْا قَبْلَهَا عَشْرَ آيَاتٍ»، فَذَكَرَ: «الدُّخَانُ وَالْدَّجَالُ وَالذَّابَّةُ وَطُلُوعُ الشَّمْسِ مِنْ مَغْرِبِهَا وَنُزُولُ عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ﷺ وَيَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَثَلَاثَةُ خُسُوفٍ خَسَفَ بِالْمَشْرِقِ وَخَسَفَ بِالْمَغْرِبِ وَخَسَفَ بِجَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَآخِرُ ذَلِكَ نَارٌ تَخْرُجُ مِنَ الْيَمَنِ تَطْرُدُ النَّاسَ إِلَى مَحْشَرِهِمْ»⁽²⁾.

وليس هناك نص صحيح صريح في ترتيب هذه العلامات، وإنما يستفاد ترتيب بعضها من جملة نصوص⁽³⁾.

أحداث اليوم الآخر:

بعد انقضاء العلامات الكبرى يأتي يوم القيامة، وأول ما يحدث فيه النفخ في الصور النفخة الأولى، قال ﷺ: «وَنُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِّخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ» [الزمر: 68].

والصور في لغة العرب عبارة عن قرن (بوق)، والملك الموكل بالنفخ فيه هو إسرافيل عليه السلام، وعند هذه النفخة يختل نظام الكون وتحدث أهوال في السماء والأرض والشمس والجبال، وهي نفخة الصعق يموت بها الأحياء من أهل السماوات والأرض، إلا من شاء الله، ثم يقبض أرواح الباقين حتى يكون آخر من يموت ملك الموت. قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ

(1) انظر: الغفيلي، أشراط الساعة، ص45-74.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في الآيات التي تكون قبل الساعة، رقم (2901).

(3) انظر: الغفيلي، أشراط الساعة، ص75-167.

إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٨﴾ [القصص: 88]، وقال ﷺ: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ﴿٨٩﴾ وَيَبْقَىٰ وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ ﴿٩٠﴾﴾ [الرحمن: 26-27].

قال ابن كثير - رحمه الله -: «نَفَخَةُ الصَّعْقِ، هِيَ الَّتِي يَمُوتُ بِهَا الْأَحْيَاءُ مِنْ أَهْلِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يَقْبِضُ اللَّهُ أَرْوَاحَ الْبَاقِينَ، حَتَّى يَكُونَ آخِرُ مَنْ يَمُوتُ مَلَكُ الْمَوْتِ، وَيَنْفِرُ الْحَيُّ الْقَيُّومُ الَّذِي كَانَ أَوَّلًا وَهُوَ الْبَاقِي آخِرًا بِالْأَيْمُونَةِ وَالْبَقَاءِ، ثُمَّ يُحْيِي أَوَّلَ مَنْ يُحْيِي إِسْرَافِيلَ، وَيَأْمُرُهُ أَنْ يَنْفَخَ فِي الصُّورِ أُخْرَىٰ»⁽¹⁾.

وبعد النفخة الأولى لا يستطيع الإنسان أن يوصي أو أن يرجع إلى أهله، وقد أخبر النَّبِيُّ ﷺ عن أَوَّلِ مَنْ يَسْمَعُ صَوْتَ الصُّورِ «رَجُلٌ يُلُوطُ حَوْضَ إِبِلِهِ، فَيَصْعَقُ، وَيَصْعَقُ النَّاسُ»⁽²⁾، وتكون سريعة بأخذ النَّاسِ، حتى يكاد الرجل يرفع اللقمة إلى فمه فلا يأكلها.

ثُمَّ تَكُونُ يَنْفَخُ فِي الصُّورِ النَّفْخَةُ الثَّانِيَّةُ، وَهِيَ نَفْخَةُ الْبَعْثِ، حَيْثُ تَكُونُ أَجْسَادُ الْخَلَائِقِ قَبْلَ هَذِهِ النَّفْخَةِ قَدْ تَحَلَّتْ وَلَمْ يَبْقَ مِنْهَا إِلَّا عَظْمٌ، كَحَبَّةِ الْحَمْصِ، يَقَعُ فِي آخِرِ سِلْسِلَةِ الظَّهْرِ يُسَمَّى عَجَبُ الذَّنْبِ⁽³⁾، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «بَيْنَ النَّفْخَتَيْنِ أَرْبَعُونَ» قَالُوا: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ، أَرْبَعُونَ يَوْمًا؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ أَرْبَعُونَ سَنَةً؟ قَالَ: أَبَيْتُ، قَالَ: أَرْبَعُونَ شَهْرًا، قَالَ: أَبَيْتُ «وَيَبْلَى كُلُّ شَيْءٍ مِنَ الْإِنْسَانِ إِلَّا عَجَبُ ذَنْبِهِ فِيهِ يُرَكَّبُ الْخَلْقُ»⁽⁴⁾، فَيَنْزِلُ اللَّهُ مَطَرًا تَنْبِتُ بِهِ الْأَجْسَادَ كَالزَّرْعِ، فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 7 ص 116. وانظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 646-648.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الفتن وأشراط الساعة، باب في خروج الدجال ومكته في الأرض، ونزول عيسى وقتله إياه، وذهاب أهل الخير والإيمان، وبقاء شرار الناس وعبادتهم الأوثان، والنفخ في الصور، وبعث من في القبور، رقم (2940). معنى: (يلوط حوض إبله)، أي: يُطَيَّن ويصلح الحوض الذي تشرب منه إبله.

(3) نتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 2 ص 998.

(4) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (4536). قال النووي: «ومعنى قول أبي هريرة (أبیت) أي أبیت أن أجزم أن المراد أربعون يومًا أو سنة أو شهرًا، بل الذي أجزم به أنها أربعون مجملة». (النووي، شرح النووي على مسلم، ج 18 ص 91).

«ثُمَّ يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَيَنْبُتُونَ بِهِ كَمَا يَنْبُتُ الْبَقْلُ، وَلَيْسَ مِنَ الْإِنْسَانِ شَيْءٌ إِلَّا عَظْمٌ وَاحِدٌ وَهُوَ عَجْبُ الذَّنْبِ، وَمِنْهُ يَرْكَبُ الْخَلْقُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»⁽¹⁾.

ويكون أول من يُبعث سيدنا محمد ﷺ أو في أول من يُبعث، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عن النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «فَإِنَّهُ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَيُصْعَقُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ، قَالَ: ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ أُخْرَى، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ، أَوْ فِي أَوَّلِ مَنْ بُعِثَ، فَإِذَا مُوسَى ؑ أَخَذَ بِالْعَرْشِ، فَلَا أَدْرِي أَحُوسِبَ بِصُعْقَتِهِ يَوْمَ الطُّورِ، أَوْ بُعِثَ قَبْلِي»⁽²⁾.

فيقوم النَّاسُ من قبورهم، فيقول الكافرون والمنافقون: ﴿قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا﴾ [يس: 52]، ويقول المؤمنون: ﴿هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ﴾ [يس: 52]، فيذهبون إلى أرض المحشر، فيحشر النَّاسُ على أرض بيضاء خالصة يكون لكل إنسان فيها موضع قدميه فقط، ولا يوجد فيها جبال أو زرع، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -رضي الله عنهما- قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى أَرْضٍ بَيْضَاءَ عَفْرَاءَ كَقُرْصَةِ النَّقِيِّ لَيْسَ فِيهَا عِلْمٌ لِأَحَدٍ»⁽³⁾.

ويكون النَّاسُ فيها حُفَاةً، عُرَاةً، خَائِفِينَ، جَوْعَى عطشى متعبين، يأتون أفواجا، بعضهم كالذرِّ وهم المُتَكَبِّرُونَ، وبعضهم يشتعل جسده نارا وهم المجرمون، وهكذا كُلُّ حسب عمله.

ويبقى النَّاسُ في أرض المحشر يوماً واحداً ومقداره خَمْسُونَ ألف سنة، وفيه تدنو الشمس من النَّاسِ ويغرق النَّاسُ في العرق بمقدار أعمالهم، ويكون هناك أصناف من النَّاسِ يجلسون بظل عرش الرحمن، جاء في الحديث: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ، يَوْمَ

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، باب: ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ فَنَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾، رقم (4651). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الفتن وأشراف الساعة، باب ما بين النفختين، رقم (2955).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْسُفَ لَيِّنَ الْمُرْسَلِينَ﴾، رقم (3233). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الفضائل، باب من فضائل موسى، رقم (2373).

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الرقاق، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب: يقبض الله الأرض يوم القيامة، رقم (6156). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب في البعث والنشور، وصفة الأرض يوم القيامة، رقم (2790). (العفراء): بيضاء إلى حمرة، و(النقي) هو الدقيق الحوري، وهو الأرض الجيدة، قال القاضي: كأن النار غيرت بياض وجه الأرض إلى الحمرة. (ليس فيها علم لأحد) ليس بها علامة سكنى أو بناء ولا أثر.

لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابُّ نَشَأٍ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ: إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ، أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينَهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ⁽¹⁾.

كما تأتي الملائكة بالنار، وتُعرض على الناس⁽²⁾.

وبعد الانتظار الطويل يكون حوض النبي ﷺ موجودًا في أرض المحشر، ليسقي منه مَنْ كَانَ عَلَى هَدْيِهِ وَسُنَّتِهِ ﷺ، غير مُغَيَّرٍ وَلَا مُحْدِثٍ وَلَا مُبَدِّلٍ، فيكون أول الأمان له أن يكون مَسْقِيًّا من حوض نبينا ﷺ، ثم بعدها يُرْفَعُ لكل نبي حوضه، فيُسْقَى منه صالح أُمته⁽³⁾.

ثم يقوم النَّاسُ مُقَامًا طَوِيلًا، ثم تكون الشفاعة العُظْمَى التي تكون للنبي ﷺ، وهي شفاعة منه ﷺ بأن يُعْجَلَ اللَّهُ حَسَابَ الْخَلَائِقِ، وهذه الشفاعة هي المقام المحمود الخاص به ﷺ، وتكون بعدما يأتي النَّاسُ إِلَى آدَمَ ﷺ، وَإِلَى نُوحٍ ﷺ، وَإِلَى إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وَإِلَى عِدَّةٍ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، وَكُلُّهُمْ يَعْتَذِرُ وَيَقُولُ: نَفْسِي نَفْسِي. حتى يأتوا إلى سيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ فيشفع لأهل أرض المحشر، ليبداً بعدها الحساب والعرض⁽⁴⁾.

ثم يُكْسَى النَّاسُ وَأَوَّلُ مَنْ يُكْسَى مِنَ الْخَلَائِقِ نَبِيُّ اللَّهِ إِبْرَاهِيمَ ﷺ، وتأتي الملائكة بِالْكِتَابِ التي سَجَّلَتْهَا عَلَى النَّاسِ فِي الدُّنْيَا، لتعرضَ كُلُّ كِتَابٍ عَلَى صاحبه، وقد سُجِّلَ فِيهِ كُلُّ حَرَكَةٍ وَفَعَلَ قَامَ بِهِ الشَّخْصُ.

ومن النَّاسِ من يأخذ كتابه بيمينه وهم أصحاب الجنة، ومنهم من يأخذه بشماله وهم أصحاب النار. ويقرأ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ كتابه، ويحاسب النَّاسُ بعد ذلك، إثباتًا لِلْحُجَّةِ عَلَيْهِمْ وَبَيَانًا لصدق ما جاء في الْكِتَابِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ.

ثم بعدها يكون الميزان، الذي توزن فيه أَعْمَالُ الْعِبَادِ، أو صُحُفُهُمْ، أو لِيُوزَنَ بِهِ الْعَبْدُ نَفْسَهُ، ويكون الجزاء حسب وزن أَعْمَالِهِ، واللَّهُ ﷻ هو من يتولى حساب النَّاسِ دُونَ حِجَابٍ

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأذان، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة وفضل المساجد، رقم (660). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزكاة، باب فضل إخفاء الصدقة، رقم (1031).

(2) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 653-657.

(3) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 227-229.

(4) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 229-236.

أو واسطة، فالمؤمن لا يُناقش في حسابه رحمةً به، وأمَّا الكافر فيفيضه الله ﷻ، فينادي عليه أمام الناس جميعًا بكذبه وظلمه⁽¹⁾.

ويكون المؤمن فرحًا مسرورًا بما قدَّم، ويكون حسابه يسيرًا، وأمَّا الكافر فيُصاب بالذل، ويلجأ إلى إنكار ما هو موجود في كتابه، فيتوقف لسانه عن الكلام وتتكلم أعضاؤه بما عمل بها من حرام، فيكون حسابه شديدًا عسيرًا.

ثمَّ بعد الميزان ينقسم النَّاس إلى طوائف وأزواج، ليذهب كُلُّ شَخْصٍ مع مَنْ كان على شكل أعماله، ويُقام لواءٌ لكل نبي، لتقف كُلُّ أُمَّةٍ تحت لواء نبيِّها، ويدخل النَّاس تحت هذه الألوِيَّة حسب أعمالهم.

ويقسَّم النَّاس فيُحشَر الجاحد مع الجاحد، والظالم مع الظالم، وبعدها يحجب الله ﷻ النور عن النَّاس، فتكون هُناك ظُلْمة قبل النَّار، فيمشي كُلُّ شَخْصٍ بما معه من نور عمله، فيُبْصِر المؤمنون طريق الصراط، ويُضرب السور بين المؤمنين والمنافقين، فيكون المنافقون مع الكافرين يتهافون في النار، يمشون وأمامهم جهنم.

ثم يأتي سيدنا محمد ﷺ فيكون على الصراط، وهو جسرٌ فوق جهنم، قال ﷺ: «وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ»⁽²⁾، فيمرُّ هو ثم تمرُّ أُمته على الصراط، كُلُّ يمر بقدر عمله، ومعه نورٌ أيضًا بقدر عمله، فيمضي مَنْ غَفَرَ اللَّهُ ﷻ له، ويسقط في النَّار، في طبقة الموحِّدين، من شاء الله ﷻ أن يُعَذِّبه⁽³⁾.

فإذا عبر أهلُ الجنة عليه، وقفوا على قَنْطَرَةٍ بين الجنة والنار، فيَقْتَصُّ لِبَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ لِمَظَالِمِ كَانَتْ بَيْنَهُمْ فِي الدُّنْيَا، حَتَّى إِذَا هُذِبُوا وَنُقُوا أُذِنَ لَهُمْ فِي دُخُولِ الْجَنَّةِ. وَأَوَّلَ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ النَّبِيُّ ﷺ.

الجنة والنار:

ثم يدخل المؤمنون الجنة، ويقع في النار من استحقها عن الصراط.

(1) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 657-659. وبتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 2 ص 1080-1093.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الرقاق، باب: الصراط جسر جهنم، (6204). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب معرفة طريق الرؤية، رقم (182).

(3) انظر: الميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص 659.

من يدخلون الجنة ينظر الله وجوههم، ويغير تكوينهم ليناسب هذا المقام العالي الذي دخلوه، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَوَّلَ زُمْرَةٍ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ عَلَى أَشَدِّ كَوَكَبٍ ذُرِّيٍّ فِي السَّمَاءِ إِضَاءَةً، لَا يَبُولُونَ وَلَا يَتَغَوَّطُونَ، وَلَا يَتَفَلُّونَ، وَلَا يَمْتَخِطُونَ، أَمْشَاطُهُمُ الذَّهَبُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَمَجَامِرُهُمْ⁽¹⁾ الْأَلْوَةُ الْأَنْجُوجُ⁽²⁾ عُودُ الطَّيِّبِ، وَأَزْوَاجُهُمُ الْخُورُ الْعَيْنُ⁽³⁾، عَلَى خَلْقٍ رَجُلٍ وَاحِدٍ عَلَى صُورَةِ أَبِيهِمْ آدَمَ سِتُّونَ ذِرَاعًا فِي السَّمَاءِ»⁽⁴⁾.

وقد جعل الله ﷻ للجنة درجات، وذلك حسب أعمال أهلها، قال تعالى: ﴿انْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَلِلْآخِرَةِ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 21]، وقال تعالى: ﴿وَلِكُلِّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 132].

وجعل ﷻ لها ثمانية أبواب عظيمة، قال الله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ﴾ [الرعد: 23].

ولهذه الأبواب أسماء ثبتت بنصوص شرعية، مثل: الصلاة والجهاد والصدقة والريان والأيمن وباب الكاظمين الغيظ، ومنها ما اختاره بعض العلماء لإشارات وإيماءات في النصوص مثل: باب التوبة أو الذكر أو العلم أو الراضين أو الحج.

وفي الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: أَعَدَدْتُ لِعِبَادِي الصَّالِحِينَ، مَا لَا عَيْنٌ رَأَتْ، وَلَا أَدْنُ سَمِعَتْ، وَلَا خَطَرَ عَلَى قَلْبِ بَشَرٍ»⁽⁵⁾.

- (1) مَجَامِرُهُمْ: مباخرهم، أي الآلات التي يُتَبَخَّرُ بها، ويسمى بها البخور نفسه ومعناه: عُودُ مَجَامِرِهِمُ الْأَلْوَةُ.
- (2) الْأَلْوَةُ الْأَنْجُوجُ: فسرت بعد ذلك بأنها «عُودُ الطَّيِّبِ»، وقيل نوع من الطيب الهندي. فالألوة: العود الذي يتبخر به، والأَنْجُوجُ: نوع من العود.
- (3) الْخُورُ الْعَيْنُ: الشَّيْءُ بَيَاضُ الْعَيْنِ، الشَّيْءُ سَوَادُهَا.
- (4) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأنبياء، باب: قول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، (3149). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر، رقم (2834).
- (5) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، (3072). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، أول الكتاب، (2824).

وفيهما الصحة والراحة والقوة، عن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «يُنَادِي مُنَادٌ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصِحُّوا فَلَا تَسْقَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَسْبُوا فَلَا تَهْرَمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَنْعَمُوا فَلَا تَبْتَسُوا أَبَدًا. فَذَلِكَ قَوْلُهُ ﷻ: ﴿وَنُودُوا أَنْ تُلَكُمُ الْجَنَّةَ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: 43]»⁽¹⁾.

ومن أعظم نعم تلك الدار ما كتب الله لأهلها من الخلود الأبدي فيها، فلا يخافون موتًا أو فناءً، ويحلُّ الله عليهم رضوانه فلا يسخط عليهم أبدًا، وأعظم نعمة في الجنة على الإطلاق هي رؤية وجهه الكريم ﷻ.

ومن صفات الجنة خلوها من المنغصات والمكدرات، فلا همَّ يلحق أهلها، ولا تعب يصيبهم.

ورزق أهل الجنة يأتيهم فيها بكرة وعشيًا، ما اشتهى أحدهم شيئًا إلا آتاه، قال تعالى: ﴿جَنَّاتٍ عَذْنٍ الَّتِي وَعَدَ الرَّحْمَنُ عِبَادَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّهُ كَانَ وَعْدُهُ مَأْتِيًا ۝ لَا يَسْمَعُونَ فِيهَا لَغْوًا إِلَّا سَلَامًا وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًا﴾ [مريم: 61-62].

ويخلق الله في الجنة للرجال نساء هم الحور العين، يبلغ من جمال الواحدة أنها لو طلعت على أهل الأرض لأضاءت ما بين الجنة والأرض، ولملأت ما بينهما بريحتها الطيب، ولخمارها على رأسها خير من الدنيا وما فيها، قال تعالى في ذكر جزاء أهل الجنة: ﴿وَحُورٌ عِينٌ ۝ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: 22-23]. وقال تعالى: ﴿فِيهِنَّ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ لَمْ يَطْمِئِنَّهُنَّ أَنْسَ قَبْلَهُمْ وَلَا جَانٌ ۝ فَبِأَيِّ آلَاءِ رَبِّكُنَا نُكَذِّبِينَ ۝ كَأَنَّهُنَّ الْيَاقُوتُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن: 56-58]. ووصفهن بالطهارة المادية والمعنوية، فقال تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 25].

وأما النساء المؤمنات في الجنة فهنَّ في حال هو أفضل من حال الحور العين وأعلى درجة وأكثر جمالًا، فهي إذا دخلت الجنة فإنما تدخلها جزاء على العمل الصالح وكرامة من الله لها لدينها وصلاتها، أما الحور التي هي من نعيم الجنة، فإنما خلقت في الجنة من أجل غيرها، وجُعِلت جزاء للمؤمن على العمل الصالح، وشتان بين من دخلت الجنة جزاء على عملها الصالح، وبين من خلقت ليُجَازَى بها صاحب العمل الصالح، فالأولى ملكةٌ سيِّدةٌ أَمْرَة، والثانية على عظم قدرها وجمالها إلا أنها لا شك دون الملكة وهي مأمورة من سيدها المؤمن الذي خلقها الله تعالى جزاء له.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، (2837).

وفي الجنة أنهار ذكرها ﷺ في كتابه في آيات كثيرة، منها قوله ﷺ: ﴿مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرَ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: 15].

والجنة واسعة لا يعلم سعتها الحقيقية إلا الله، وقد أخبرنا ﷺ عن عرضها بأنه كعرض السماء والأرض، قال تعالى: ﴿وَجَنَّةٌ عَرْضُهَا كَعَرْضِ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ [الحديد: 21]، ذكر العلماء: أنَّ الله ذكر عرض الجنة ولم يذكر طولها للدلالة على سعتها العظيمة. هذه بعض أوصاف الجنة وأوصاف أهلها، باختصار شديد.

وننبه قبل أن ننتقل عن الحديث عن الجنة أنه قد اشتهر أنَّ خازن الجنة من الملائكة اسمه «رضوان»، إلا أنَّ هذه التسمية لم ترد في القرآن الكريم، ولا في السنة الصحيحة، وإنَّما وردت في بعض الآثار الضعيفة.

النَّارُ:

كما جعل الله للجنة درجات جعل للنَّار دركات، بعضها أسفل من بعض، وأشدَّ عذابًا من بعض. والدرك كالدرج، لكن الدرج يقال اعتبارًا بالصعود، والدرك اعتبارًا بالنزول للأسفل، ولهذا قيل: درجات الجنة، ودركات النار. قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ﴾ [النساء: 145].

وأهل النار في العذاب على مراتب بحسب قبح أعمالهم، قال الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ أَدْخِلُوا آلَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ﴾ [غافر: 46].

وقيل: إِنَّ هناك نارًا يقع فيها مَنْ يُعَذَّبُ من الموحِّدين خاصة أخفَّ عذابًا من نار الكافرين، وأقربُها خروجًا، فَمَنْ أَدْخَلَ النَّارَ من الموحِّدين، لم يُدْخَلْ نار الكفار، بل نارًا أخرى يموتون فيها، ثُمَّ يُخْرَجُونَ منها، ثم يحيون ويدخلون الجنة -والله أعلم-⁽¹⁾.

ولجنهم سبعة أبواب، قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمَوْعِدُهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٧﴾ لَهَا سَبْعَةُ أَبْوَابٍ لِكُلِّ بَابٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ مَقْسُومٌ﴾ [الحجر: 43-44]. وهذه الأبواب السبعة تُغلق على الكافرين، فلا

(1) أبو العباس أحمد بن عمر بن إبراهيم القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، تحقيق: محيي الدين ميسو ورفاقه، (دمشق: دار ابن كثير، ط1، 1996م)، ج 1 ص 289.

مطمع لهم في الخروج منها بعد ذلك، قال تعالى: ﴿عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤَصَّدَةٌ﴾ [البند: 20]، وقال

تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّؤَصَّدَةٌ ۖ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدَةٍ﴾ [الهمزة: 8-9].

ويوم القيامة يؤتى بجهنم لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك يجرونها، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجُرُّونَهُ»⁽¹⁾.

وَقُودُ نَارِ جَهَنَّمَ النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ، قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ ۖ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: 24].

ونار الدنيا جزء من سبعين جزءاً من نار جهنم، وقد بين النبي ﷺ أقل أهلها وأهونها عذاباً فقال ﷺ: «إِنَّ أَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ رَجُلٌ، عَلَى أَحْمَصِ قَدَمَيْهِ جَمْرَتَانِ، يَغْلِي مِنْهُمَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمَرْجُلُ بِالْقَمَقَمِ»⁽²⁾.

لذلك هم يتمنون الموت فلا يموتون! قد اسودت وجوههم، وأعميت أبصارهم وأبكمت ألسنتهم، وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم.

نسأل الله العفو والعافية.

الركن السادس: الإيمان بالقدر خيره وبشره:

الإيمان بالقضاء والقدر جانب مهم من جوانب العقيدة الإسلامية، فهو الركن السادس من أركان الإيمان، ولهذا الركن من أركان الإيمان أثره الواضح في سلوك المرء وتصرفاته وفي موقفه من الوقائع والأحداث التي تفاجئ الإنسان في هذه الحياة.

وقد دلّ القرآن الكريم والسنة النبوية وإجماع المسلمين على وجوب الإيمان بالقدر خيره وبشره، فقال ﷺ: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: 38]. وقال تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ

شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: 49]. وقال ﷺ: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقْدَرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: 2].

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين، (2842).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الرقاق، باب: صفة الجنة والنار، (6194).

وعن عليّ ؑ قال: قال رسولُ الله ﷺ: «لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ حَتَّى يُؤْمِنَ بِأَرْبَعٍ: يَشْهَدُ أَنْ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَأَنَّيَ رَسُولُ اللَّهِ بَعَثَنِي بِالْحَقِّ، وَيُؤْمِنُ بِالْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْبَعْثِ بَعْدَ الْمَوْتِ، وَيُؤْمِنُ بِالْقَدَرِ»⁽¹⁾.

المراد بالإيمان بالقضاء والقدر:

القدر في اللغة، بمعنى: التقدير.

أما القضاء، فهو في اللغة: الحكم.

وعند الرُّجوع إلى ما كتبه علماؤنا نجدهم قد حدّدوا معنى كل من القضاء والقدر تحديداً يتفق والنصوص الشرعية من القرآن والسُّنة، ويتفق والمعاني اللُّغوية.

فالقضاء عندهم هو إرادة الله تعالى الأزليّة المتعلّقة بالأشياء وفق ما ستوجد عليه في المستقبل، كإرادته الأزليّة أن يخلق هذا الإنسان على الأرض.

أما القدر فهو إيجاد الأشياء على مقاديرها المحدّدة بالقضاء، كإيجاد الله هذا الإنسان فعلاً على وجه الأرض طبق ما سبق في قضائه⁽²⁾.

هذا وقد أصبحت الكلمتان متلازمتين بحيث أصبحتا مصطلحاً واحداً، جاء في النهاية في غريب الحديث: «القضاء والقدر أمران متلازمان لا ينفك أحدهما عن الآخر، لأنَّ أحدهما بمنزلة الأساس، وهو القدر، والآخر بمنزلة البناء، وهو القضاء، فمن رام الفصل رام هدم البناء ونقضه»⁽³⁾.

وقد عرّف العلامة ابن حجر -رحمه الله- «القضاء والقدر» باعتبار الكلمتين مصطلحاً واحداً فقال: «المراد أنَّ الله تعالى علّم مقادير الأشياء وأزمانها قبل إيجادها، ثُمَّ أوجد ما

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب القدر عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الإيمان بالقدر خيره وشره، (2145).

(2) الخن ومستو، العقيدة الإسلامية أركانها حقائقها مفسداتها، ص495-496. وانظر: حمد بن محمّد البستي الخطابي، معالم السنن، بهامش أبي داود، (دمشق: مطبعة الطباخ، ط2، 1334هـ)، ج7 ص70. وعمر سليمان الأشقر، القضاء والقدر، (الكويت: دار النفائس، ط2، 1980م)، ص25. الصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، 255-256. وياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص101. والميداني، العقيدة الإسلامية وأسسها، ص728-729.

(3) ابن الأثير الجزري، النهاية في غريب الحديث، تحقيق: محمود الطنحاني، (بيروت: دار الفكر، 1979م)، ج4 ص78.

سبق في علمه أنه يوجد، فكل محدث صادر عن علمه، وقدرته، وإرادته. هذا هو المعلوم من الدِّين بالبراهين القطعية، وعليه كان السَّلف من الصَّحابة وخيار التَّابعين⁽¹⁾.

وعليه فمعنى الإيمان بالقضاء والقدر: «الإقرار والتَّصديق الجازم بعلم الله ﷻ وقضائه وتدبيره للأمور كلّها خيرها وشرها، وأنه ﷻ المُتَحَكِّمُ بها وخالقها، وأنَّ لكلِّ إنسانٍ قَدَرًا مكتوبًا في اللُّوح المسطور قبل الخلق، وهذا بأمر الله وإرادته».

مراتب الإيمان بالقضاء والقدر:

بموجب ما مرَّ من تعريف يتبين لنا أن للقضاء والقدر مراتب أربع:

المرتبة الأولى: العلم، والمراد به علم الله ﷻ الأزلي بما كان وما يكون، وبما لم يكن لو كان كيف يكون، فالله قد أحاط بكل شيء عِلْمًا، فلا تخفى عليه خافية، ولا يغيب عن علمه مثقال ذرة، قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: 12]، فالله علم بما سيحدث وما سيفعله خلقه منذ الأزل، ولا يعني هذا أنَّ الإنسان مجبرٌ، فالعلم صفة كاشفة وليست مجبرة.

المرتبة الثانية: الكتابة، فلا بد من الإيمان أنَّ الله كتبَ مقاديرَ الخلائق كلّها في كتاب عنده، قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ ذَاتَةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا ظَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمْتُ أَمْثَالِكُمْ مَا قَرَّبْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ [الأنعام: 38].

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «كَتَبَ اللَّهُ مَقَادِيرَ الْخَلَائِقِ قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ»⁽²⁾.

والكتابة أيضًا لا تقتضي الجبر، فهي بمنزلة التوثيق السابق المبني على علم الله السابق لإيجاد الخلائق.

المرتبة الثالثة: الإيمان بمشيئته ﷻ، وأنَّ كل ما يجري في الكون إنما هو بإرادته ﷻ، لا يخرج شيء عنها، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29].

(1) ابن حجر، فتح الباري، ج 1 ص 145. وانظر: محمد بن أحمد بن سالم السفاريني، لوامع الأنوار البهية وسواطع الأسرار الأثرية لشرح الدرة المضية في عقد الفرقة المرضية، (دمشق: مؤسسة الخافقين ومكتبتها، ط 2، 1982م)، ج 1 ص 348. وعبد الرحمن الحمود، القضاء والقدر في ضوء الكتاب والسنة ومذاهب الناس فيه، (الرياض: دار الوطن، ط 2، 1997م)، ص 33-44.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب القدر، باب حجاج آدم وموسى، (2653).

المرتبة الرابعة: الإيمان بأن كل ما في الكون من خلقِ الله ﷻ وتكوينه، قال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: 62]⁽¹⁾.

هذا هو معنى القدر وتلك هي مراتب الإيمان به، فإذا تقرر لدى المسلم هذا المعنى اطمأنت نفسه، وهدأ باله، وعلم أن له من ربه حافظاً ومعيناً، فالكل يجري تحت علم الله وبصره، والكل يمشي بمشيئته وقدره، فهو المقدر وهو الميسر، ومقاليد الأمور جميعاً بيده، فكيف يخاف المسلم من غيره، أو يتوكل على سواه⁽²⁾.

العمل والإيمان بالقضاء والقدر:

خلق الله ﷻ الإنسان وأعطاه الإرادة والاختيار، وأمره بأوامر ونهاه عن نواهي، وجعل له حساباً بعد ذلك على عمله الذي يقع تحت إرادته ومشيئته، على الرغم من علم الله السابق بالنتائج.

وكتابة الأعمال لا تعني ترك العمل، فهذه الكتابة، كما أشرنا، كتابة علم لا كتابة جبر، ولا تنافي أن يكون للعبد مشيئة في أفعاله الاختيارية وقدرته عليها، قال تعالى: ﴿فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذْ إِلَىٰ رَبِّهِ مَا بَاءً﴾ [النبا: 39]، وقال تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: 286].

ومشيئة العبد وقدرته واقعتان بمشيئة الله تعالى وقدرته، فلا يكون في ملكه شيء دون علمه ومشيئته، قال الله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ وَالظَّالِمِينَ أَعَدَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الإنسان: 30-31].

(1) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص274. وياسين، الإيمان، ص104. والأشقر، القضاء والقدر، ص29-36.

(2) انظر: بن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص364-369.

تعريف الإسلام:

كلمة الإسلام في اللغة تعني: الخضوع والإنذعان، والانقياد التام للأوامر، إذ إنها لفظ في أصل اشتقاقه يراد به الاستسلام أو الطاعة المطلقة.

والإسلام في الشرع: هو الانقياد التام لأوامر الله ﷻ في كل ما جاء به الأمر في كتاب الله أو سنة نبيه ﷺ، من أعمال ظاهرة وباطنة، ومن أعمال قلبية، كالإيمان، أو أعمال الجوارح، كالصلاة⁽¹⁾.

وعليه يكون الإسلام شاملاً الاعتقاد والقول والعمل.

الفرق بين الإسلام والإيمان:

من خلال النظر في آيات كتاب الله وسنة النبي ﷺ نجد أن الإيمان قد يأتي بمعنى الإسلام في كثير من النصوص، فهما من حيث الاستعمال الشرعي بمعنى واحد. كما في قوله ﷻ: «الإِيمَانُ بَضْعٌ وَسَبْعُونَ، أَوْ بَضْعٌ وَسِتُّونَ، شُعْبَةٌ، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»⁽²⁾، فبين أن الإيمان يراد به الأعمال الظاهرة التي يعبر عنها بالإسلام.

وفي حالات نجد أنه يراد بالإيمان الأعمال المبنية على الاعتقاد والتصديق أو الأعمال القلبية، ويراد بالإسلام أعمال الظاهر والجوارح، أي أن لكل مصطلح معناه، وهذا يكون في حالة ذكرهما معاً في سياق واحد، كما في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات: 14]، فالإيمان والإسلام اجتماعاً في نص واحد، وقد نفت الآية عن تلك الفئة من الأعراب الإيمان، وأثبتت لهم الإسلام، فدل على افتراق مفهوم الإيمان ومفهوم الإسلام.

وفي حديث جبريل ﷺ عندما سأل النبي ﷺ عن الإيمان والإسلام والإحسان، ذكر الإسلام بالأركان الخمسة، والإيمان: أركانه الستة، فإنهما اجتماعاً في نص واحد، أجاب النبي ﷺ لكل بمعنى غير الآخر، فدل على افتراقهما.

(1) انظر: نتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 1 ص 253.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب شعب الإيمان، رقم (35).

وعليه إذا أُفرد أحدهما في النصوص الشرعية دخل فيه الآخر من حيث المعنى الشرعي، ودل كل منهما على ما يدل عليه الآخر، وإذا اجتمعا في نص واحد افترقا في المعنى⁽¹⁾.

أركان الإسلام:

أركان الإسلام هي أعمال الجوارح الظاهرة من القول والعمل، وهي أصول العبادات التي يتقرب بها المسلم من ربه، ولا يكمل دين المسلم حتى يأتي بهذه الأركان كاملاً مراعيًا الشروط المرتبطة بها، وهذه الأركان خمسة كما ثبت ذلك في حديث سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإسلام، وقد أجاب ﷺ جبريل ﷺ بقوله: «الإسلام أن تشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وتقيم الصلاة، وتؤتي الزكاة، وتصوم رمضان، وتحج البيت إن استطعت إليه سبيلاً»⁽²⁾.

وجاء في حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والحج، وصوم رمضان»⁽³⁾.

وهذه الأركان تتنوع إلى:

1. عمل بدني: كالصلاة والصوم.
2. عمل مالي: وهو إيتاء الزكاة.
3. ما هو مركبٌ منهما: كالحج بالنسبة إلى البعيد عن مكة.

الركن الأول: شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله:

الشهادتان هما أول ركن من أركان الإسلام، وهما أهم ركن من أركان الإسلام، فالشهادتان أساس في ذاتيهما، وهما أساس لبقية الأركان ولكل عمل يتقرب به إلى الله ﷻ، وإذا لم يكن

(1) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 347-351، حيث عرض آراء المذاهب العقدية في المسألة ورجح ما فرقنا به هنا. ونتان والكيلاني، عون المريد شرح جوهرة التوحيد، ج 1 ص 253-256.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب سؤال جبريل النبي ﷺ عن الإيمان، والإسلام، والإحسان، وعلم الساعة، رقم (50) عن أبي هريرة ؓ. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان الإيمان والإسلام والإحسان ووجوب الإيمان بإثبات قدر الله، رقم (8).

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: «بني الإسلام على خمس»، رقم (8). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (16).

العمل مبنياً على الشهادتين فإنه يكون مردوداً على صاحبه وغير مقبول، ولا ينفع صاحبه عند الله ﷻ.

معنى شهادة: «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»:

معنى شهادة «أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: أَنَّهُ لَا مَعْبُودَ بِحَقِّ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ.

وكلمة التوحيد «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» هي الكلمة التي دعا إليها جميع الأنبياء والرسل، وقد دلت على معنيين، هما: نفي، وإثبات، فقول: «لَا إِلَهَ» هو نفي لجميع الآلهة، وقول: «إِلَّا اللَّهُ» هو إثبات الألوهية لله ﷻ وحده لا شريك له.

و«الإله» هو: المقصود بالعبادة، وهو الذي تَأَلَّه القلوب، وتقصده، رغبةً إليه في حصول نفع، أو دفع ضرر.

فمعنى «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»: أَنَّ الْمُسْتَحَقَّ الْوَحِيدَ لِلْعِبَادَةِ هُوَ اللَّهُ ﷻ الْمَنْزَهَ عَنِ الشَّرِيكِ، وَالصَّاحِبَ، وَالْوَلَدَ، وَلَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِهِ أَحَدٌ، وَلَا يَشْتَرِكُ فِي مَلِكِهِ وَخَلْقِهِ أَحَدٌ، وَكُلُّ مَا يُعْبَدُ سِوَاهُ فَهُوَ بَاطِلٌ.

وتوحيد الله ﷻ يكون بأقوالنا وأفعالنا، وقد سَمَّى بعض أهل العلم هذا النوع من التوحيد بـ «توحيد الألوهية»، فلا يتوجه بأي شكل من أشكال العبادة إلا لله ﷻ.

ويكون توحيده ﷻ أيضاً بتوحيد أفعاله ﷻ، وهو ما سمي بـ «توحيد الربوبية»، فنؤمن بأنه لا خالق ولا رازق ولا محي ولا مميت إلا الله ﷻ.

ويكون أيضاً بتوحيد أسمائه وصفاته، وهو ما عرف بـ «توحيد الأسماء والصفات»، فنتعامل مع أسمائه ﷻ وصفاته وفق المنهجية التي وضعتها في المحور الأول⁽¹⁾.

معنى شهادة «أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»:

معنى شهادة «أَنْ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ»: الاعتراف والإقرار بالقلب واللسان أَنَّ مُحَمَّدًا ﷺ رَسُولُ اللَّهِ مَبْعُوثٌ مِنَ اللَّهِ لِلْبَشَرِيَّةِ جَمْعَاءَ بِالرَّسَالَةِ الْخَاتِمَةِ الَّتِي أَوْحِيَ إِلَيْهِ، وَجَاءَ بِالْقُرْآنِ الْكَرِيمِ نَاسِخًا لِبَاقِي الشَّرَائِعِ الَّتِي نَزَلَتْ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْآخَرَى، وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ، وَيَجِبُ الْإِيمَانُ بِهِ وَمَحَبَّتُهُ، وَأَنْ طَاعَتَهُ مِنْ طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ.

(1) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 77-108. والصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص 288-289. وياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص 6-16.

وهذا يقتضي تصديقه بكل ما أخبر به النبي ﷺ، وتعظيمه وتوقيره، وطاعته واتباعه والافتداء به ﷺ⁽¹⁾.

الركن الثاني: إقامة الصلاة:

إقامة الصلاة المفروضة هي أهم الأركان بعد الشهادتين، ويُطلق عليها عمود الدين. وتكون إقامة الصلاة بأداء الصلوات الخمس التي فرضت على المسلمين، وهي: الفجر، والظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء، بالطريقة التي أداها بها النبي ﷺ، مع الحرص على التزام شروطها، وأركانها، والمحافظة عليها في وقتها، والحرص على عدم تفويت سننها وآدابها، وحث الناس عليها وعلى التزامها.

الركن الثالث: إيتاء الزكاة:

الركن الثالث: إيتاء الزكاة، والزكاة عبادة مالية تجب في السنة مرة واحدة على كل مُقتدر مسلم بشروط مخصوصة ولفئات مخصوصة.

ولمكانتها يقرن كثيرًا بينها وبين الصلاة في كتاب الله ﷻ وفي سنة رسوله ﷺ، مما يدل على عظيم شأنها، وأنها تلي الصلاة، وأنها متقدمة على بقية الأركان، وذلك لأن نفعها متعدّد، حيثُ ينتفعُ صاحبُها وينتفعُ غيره، فصاحبها ينتفع بالأجر والثواب، وغيره ينتفع بالمال الذي هو محتاج إليه لفقره ولعوزة.

ومن فضائلها أنها سبب للبركة في الرزق، ولانتشار روح التكافل، والتعاطف، والتآلف، والتعاون بين المسلمين.

الركن الرابع: صوم رمضان:

الركن الرابع صوم شهر رمضان، وشهر رمضان هو الشهر التاسع من أشهر السنة الهجرية القمرية.

وصوم رمضان: هو التعبد لله ﷻ بترك الأكل والشرب والجماع، وسائر المفطرات من طلوع الفجر إلى غروب الشمس، من شهود هلال رمضان إلى شهود هلال شوال. وقد رخص الله ﷻ لعددٍ من المسلمين بعدم الصيام في حال حصول العذر لهم، كالمسافر، والمريض، والحائض والنفساء، والحامل، والمرضع بأحكام مخصوصة.

(1) ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 149-168. والصاوي، شرح الصاوي على جوهرة التوحيد، ص 289-290.

الركن الخامس الحج، وهو قصد مكة للتعبد لله ﷻ بأداء المناسك.

وهو فرض على من استطاعه مرة في العمر، فمن لم يستطع فلا حج عليه، ولقد حجَّ النبي ﷺ حجة واحدة.

وسياتي بيان لتفاصيل هذه الأركان في المبحث الفقهي -إن شاء الله-.

ثالثاً- مفسدات العقيدة

قد يقع المسلم في محظورات عقدية، تفسد عليه عقيدته، وقد تصل به إلى الخروج من الملة، وأهم هذه المفسدات: الشرك، والكفر، والنفاق، والعياذ بالله ﷻ.

ونتناول هذه المفسدات حتى نكون على حذر منها، منبهين على خطورة إخراج أحد من المسلمين من الملة باتهامه بالشرك أو الكفر أو النفاق أو غيرها مما يخرج من الدين، فهذا الأمر ليس لنا معاصر المثقفين أو طلاب العلم، وإنما هو للجهات المختصة في كل بلد، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَبَيَّنُوا وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ أَلْقَى إِلَيْكُمُ السَّلَامَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَغَانِمٌ كَثِيرَةٌ كَذَلِكَ كُنْتُمْ مِنْ قَبْلُ فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوا إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾ [النساء: 94].

وجاء في الصحيح عن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قال: (بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، قَالَ: فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، قَالَ: وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ، قَالَ: فَلَمَّا عَشِينَاهُ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قَالَ: فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمَحِي حَتَّى قَتَلَتْهُ، قَالَ: فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ ﷺ، قَالَ: فَقَالَ لِي: «يَا أُسَامَةُ، أَقَتَلْتَهُ بَعْدَمَا قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: «أَقَتَلْتَهُ بَعْدَ أَنْ قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ؟»، قَالَ: فَمَا زَالَ يُكْرِزُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسْلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ⁽¹⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الديات، باب: قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْيَاهَا﴾، رقم (6478). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب تحريم قتل الكافر بعد أن قال: لا إله إلا الله، رقم (96).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»⁽¹⁾. وفي رواية عن ابنِ عُمَرَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لِأَخِيهِ: يَا كَافِرُ، فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا. إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ. وَإِلَّا رَجَعَتْ عَلَيْهِ»⁽²⁾.

فمن الخطورة بمكان أن نقتحم حمى التكفير. والحكم على شخص مُعَيَّن بأنه كافر ليس بالأمر الهين، بل لا بُدَّ له من توفر شروط فيه وانتفاء موانع، فقد يفعل المسلم عملاً كُفْرِيًّا، ولكن لا يُحكم عليه بالكفر نظرًا لوجود مانع يمنع ذلك، كالإكراه أو الجهل أو التأويل⁽³⁾.

الأول- الشرك

إِنَّ أَعْظَمَ مَا عُصِيَ بِهِ اللَّهُ ﷻ الشُّرْكُ، حَتَّى وَصَفَ ﷻ هَذَا الذَّنْبَ بِالظُّلْمِ الْعَظِيمِ، فَعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه، قَالَ: لَمَّا نَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ [الأنعام: 82] شَقَّ ذَلِكَ عَلَى أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَقَالُوا: أَيُّنَا لَمْ يَلْبَسْ إِيمَانَهُ بِظُلْمٍ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّهُ لَيْسَ بِذَلِكَ، أَلَا تَسْمَعُ إِلَى قَوْلِ لُقْمَانَ لِإِنِّهِ: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: 13]»⁽⁴⁾.

تعريف الشرك:

الشرك في اللغة: من المشاركة، فحين يكون أمرٌ بين اثنين فهم فيه شركاء، وهذا يكون في الأرض والتجارة وغيرها، وكل واحد منهما يكون شريكًا للآخر في كل الأمر أو في جزء منهم.

وفي الشرع: «اتخاذ الشريك أو الند مع الله ﷻ في الربوبية أو في العبادة أو في الأسماء والصفات». والند هو: النظير والمثيل⁽⁵⁾.

أو هو: «كل ما ناقض التوحيد أو قدح فيه، مما ورد في الكتاب والسنة تسميته شركًا»⁽⁶⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال، رقم (5752). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، رقم (60).

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر، رقم (60).

(3) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 357-358. وياسين، الإيمان، ص 172-175.

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب تفسير القرآن، سورة لقمان باب ﴿لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾، رقم (4776).

(5) انظر: الخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص 487.

(6) أبو بكر محمد زكريا، الشرك في القديم والحديث، (الرياض: مكتبة الرشد، ط1، 2000م)، ص 119.

أقسام الشرك:

يقسّم الشرك إلى قسمين:

القسم الأول- الشرك الأكبر:

تعريفه:

الشرك الأكبر هو أن يصرف المكلف ما هو حق لله تعالى إلى غيره، كحَقِّهِ ﷻ في الألوهية والربوبية والأسماء والصفات، فيعتقد المكلف أن هناك إلهاً آخر يستحق أن يتقرب إليه بأي نوع من أنواع العبادات، القلبية أو القولية أو الفعلية. إذن فصاحب الشرك الأكبر يعتقد بوجود إله ثانٍ يستحق أن يُعبد.

الحكم الشرعي لمن وقع فيه:

مَنْ وقع في الشرك الأكبر خَرَجَ مِنْ مِلَّةِ الْإِسْلَامِ، وَفِي الْآخِرَةِ يَخْلُدُ فِي النَّارِ إِذَا لَمْ يَتُبْ مِنْهُ فِي الدُّنْيَا.

أدلة تحريمه:

دليل حرمة الشرك الأكبر قوله ﷻ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾ [النساء: 116]، وقال ﷻ: ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَتُنْفِلَى فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَذْحُورًا﴾ [الإسراء: 39]، ومن الآيات السابقة يتضح أنه لا يعد من أمة الإسلام من عبد غير الله تعالى.

القسم الثاني- الشرك الأصغر:

الشرك الأصغر هو كل ما كان وسيلة إلى الشرك الأكبر، أو ورد في نصوص الكتاب والسنة أنه شرك، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

من أمثلة الشرك الأصغر:

الرياء:

روى مَحْمُودُ بْنُ لَبِيدٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخْوَفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشُّرْكَ الْأَصْغَرَ». قَالُوا: وَمَا الشُّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ

يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جُزِيَ النَّاسُ بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»⁽¹⁾.

الرقى والتمايم الشركية:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ﷺ: «إِنَّ الرُّقَى، وَالتَّمَائِمَ، وَالتَّوَلَةَ، شِرْكٌ»⁽²⁾.
فالمقصود بالشرك هنا الشرك الأصغر دون الأكبر.

شرك في الألفاظ والأقوال:

فقد جاء أَنَّ يَهُودِيًّا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: إِنَّكُمْ تُنَدِّدُونَ، وَإِنَّكُمْ تُشْرِكُونَ، تَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ وَشِئْتَ، وَتَقُولُونَ: وَالْكَعْبَةِ فَأَمَرَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ إِذَا أَرَادُوا أَنْ يَحْلِفُوا أَنْ يَقُولُوا: «وَرَبُّ الْكَعْبَةِ، وَيَقُولُونَ: مَا شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ شِئْتَ»⁽³⁾.

وما رواه ابنُ عُمَرَ، قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ»⁽⁴⁾.

حكمه:

الشرك الأصغر من كبائر الذنوب، لكنه لا يُعد ناقضاً من نواقض الإسلام، ولا هادماً لركن من أركانه. فصاحب هذا الشرك مؤمن بالله ﷻ وموحدٌ، إلا أنه قد أتى إثمًا عظيمًا.

أدلة تحريمه:

كل ما سبق من أدلة تحريم الشرك الأكبر وما أوردناه من نصوص للتمثيل عليه وغيرها، يعد دليلاً على تحريم هذا النوع من الشرك.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (23630)، ج 39 ص 39. وهو حديث حسن، قال الهيثمي: «رجاله رجال الصحيح». (الهيثمي، مجمع الزوائد ومنبع الفوائد، ج 1 ص 102).

(2) أخرجه أبو داود سليمان بن الأشعث السجستاني، السنن، تحقيق: محمد محيي الدين، (بيروت: المكتبة العصرية، 1995م)، أول كتاب الأيمان والنذور، باب تعليق التمايم، رقم (3883). وهو صحيح لغيره. والتمايم: شيء يعلق على الأولاد كالخرز ونحوه يزعمون أن ذلك يحفظه من العين. والتولة: شيء يصنعونه يزعمون أنه يحبب المرأة إلى زوجها، والرجل إلى امرأته.

(3) أخرجه أحمد بن شعيب النسائي، السنن، تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة، (حلب: دار المطبوعات الإسلامية، ط 2، 1986م)، كتاب الأيمان والنذور، الحلف بالكعبة، رقم (3773). وهو صحيح لغيره.

(4) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب الطب، باب كراهية الحلف بالأمانة، رقم (3251). حديث صحيح. والترمذي، السنن، أبواب النذور والأيمان، باب ما جاء أن من حلف بغير الله فقد أشرك، رقم (1535)، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ».

الفرق بين الشرك الأكبر والأصغر من حيث الحكم:

وأما الفرق بينهما من حيث الحكم:

أنَّ الشرك الأكبر مخرج من الإسلام، فيُحكم على فاعله بالخروج من الإسلام والارتداد عنه فيكون كافرًا مرتدًا.

وأما الشرك الأصغر فلا يُخرج من يقتربه من الإسلام، بل قد يقع من المسلم ويبقى على إسلامه، غير أنَّ فاعله على خطر عظيم، لأنَّ الشرك الأصغر كبيرة من كبائر الذنوب.

خطورة الشرك:

تظهر خطورة الشرك الأكبر من خلال عواقبه وآثاره، ومن هذه العواقب:

1 - أنه يجعل صاحبه كافرًا مشرکًا.

2 - أنَّ صاحبه مغلَّد في النار، فقد حرم الله الجنة على المشركين، قال تعالى: ﴿إِنَّهُ مَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: 72].

3 - أن الله تعالى أخذ على نفسه ألا يغفر للمشرك إلا أن يتوب، قال ﷺ: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]، فلا يكفر الشرك شيء من أنواع المكفرات المعروفة إلا أن يتوب المشرك من شركه.

4 - أنَّ الشرك يحبط جميع الأعمال، قال تعالى: ﴿لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: 65]. وقال ﷺ: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [الأنعام: 88]، وحبوط العمل هو بطلانه بعد أن قام به الإنسان وفق شروط قبوله.

5 - أنه أعظم ذنب، قال تعالى: ﴿إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [بقمان: 13]، وروى عبد الله بن مسعود ؓ أنه سأل رسول الله ﷺ: أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً، وَهُوَ خَلْقَكَ»، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»⁽¹⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التفسير، باب: قوله تعالى: ﴿فَلَا تَحْمِلُوا لِلَّهِ أُنِدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (4207). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (86).

أما الشرك الأصغر فخطورته تظهر من خلال:

- 1 - كونه وسيلة إلى الشرك الأكبر.
- 2 - أنه معصية وكبيرة من الكبائر ينبغي التوبة منها.
- 3 - ما يترتب عليه من عقوبة أخروية إذا لم يقبل الله ﷻ توبة من يقترفه.

الثاني - الكفر

الكفر بالله قد يكون أصلياً لمن وُلد على دين غير دين الإسلام، أو يكون ردة عن الدين، فبعد أن يكون الإنسان مسلماً ينتكس إلى الكفر بأن يعمل عملاً أو يقول قولاً أو يعتقد اعتقاداً ناقضاً للإسلام.

تعريف الكفر:

المعنى اللغوي الأصلي لكلمة «كَفَرَ»: هو السَّتْرُ والتَّغْطِيَةُ.

والكُفْرُ في اصطلاح علماء الشرع: يُطْلَقُ ضِدُّ الإِيمَانِ، وهو: جحود أو تكذيب الوجدانية أو الشريعة أو النبوة، أو جحود بالألوهية والربوبية معاً، أو الإتيان بعمل أو قول أو أن يعتقد اعتقاداً من نواقض الإسلام.

وكما أنَّ الإيمانَ قَوْلٌ وعَمَلٌ واعتقادٌ، فالكُفْرُ يكونُ بقَوْلٍ وعَمَلٍ واعتقادٍ، ويكونُ شكّاً وتركاً، وهذا ممَّا اتَّفَقَ عليه أهلُ السُّنَّةِ والجماعة⁽¹⁾.

نواقض الإسلام:

كما جعل الله لهذا الدين أسباباً للدخول فيه، فقد جعل ﷻ له نواقض تنقضه وتحبطه، وهي المكفرات المخرجات من الإسلام. فإذا وقع المسلم في شيء ينقض الإسلام، فإنه يرتدُّ ويكفر، وقد توعَّد الله ﷻ المرتدَّ بالعقاب الأليم، فقال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْتَدِدْ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَأُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: 217].

وقد ذكر الفقهاء نواقض الإسلام في باب الردة وأحكام المرتد من كتب الفقه، وعلى رأس هذه النواقض:

- 1 - الشرك الأكبر، كما مرَّ.

(1) انظر: الخن ومستو، العقيدة الإسلامية، أركانها حقائقها مفسداتها، ص495-496. وحمزة البكري، أسس العقيدة الإسلامية، (شرح لمتن العقائد النسفية)، (عمان: دار الفاروق، ط2019م)، ص195.

2 - أن يُنكر المرء معلوماً من الدين بالضرورة، كمن ينكر ركناً من أركان الإيمان أو أركان الإسلام.

3 - أن يستهزئ شخصٌ بشيء من دين الله أو برسوله ﷺ، فهذا كفر، لأنَّ فاعل ذلك لم يوقر هذا الدين الذي يجب عليه توقيره، وتوقير من جاء به، ولأنَّ الله حكم على أناس - كانوا مؤمنين- بالكفر لما استهزؤوا برسول ﷺ وأصحابه، وقالوا: «ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء أرغب بطوناً وأكذب ألسنةً وأجبن عند اللقاء»، فأُنزل الله فيهم: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٦٦﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ [التوبة: 65-66]، فالله حكم بكفرهم مع أنَّهم كانوا قبل ذلك مؤمنين، ولكنهم كفروا بسبب الاستهزاء مع أنَّهم قالوها على وجه اللعب والمزاح والهزل.

4 - السحر، إن كان في عمل الساحر ما يوجب الكفر، والدليل قول الله تعالى: ﴿وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: 102]، ومن السحر التنجيم، والاستدلال بالأفلاك على الحوادث الأرضية.

5 - مظاهرة غير المسلمين، بمعاونتهم في حرب الإسلام والمسلمين: وهو التولي المذکور في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ [المائدة: 51].

6 - استحلال ما حرم الله ﷻ وتحريم ما أحل، فمن حرم ما أحل الله ﷻ كمن حرم الطيبات من الرزق، أو استحلَّ ما حَرَّمَ الله ﷻ، فاعتقد مثلاً أنَّ الزنا حلال، أو أنَّ الخمر حلال، فهذا خروج من الإسلام بإجماع المسلمين⁽¹⁾.

هذه بعض نواقض الإسلام، وهناك نواقض أخرى نص عليها العلماء أخذاً من القرآن ومن السنة.

هل الكبائر من نواقض الإسلام؟

منهج أهل السنة في ذلك: أنَّ مرتكب المعصية الكبيرة⁽²⁾ لا يكفر إن لم يكن مستحلاً لها، كذلك فهو لا يخلد في النار إن دخلها، بل هو مؤمن بإيمانه، فاسق بوقوعه في هذه

(1) انظر: ياسين، الإيمان أركانه حقيقته نواقضه، ص178-186. والبكري، أسس العقيدة الإسلامية، ص196-197.

(2) الكبيرة: هي الذنب الذي توعده الله فاعله بعقوبة في الدنيا أو الآخرة أو باللعن أو الويل أو جاء النص بأنَّه كبيرة، كقتل النفس بغير حق، والربا، وعقوق الوالدين، وشهادة الزور، والزنا، وشرب الخمر، وأمثالها.

الكبيرة، وحكمه في الآخرة تحت المشيئة الإلهية، إن شاء الله ﷻ عفا عنه بعفوه وكرمه، وإن شاء عذبه بعدله.

فمن الأصول المُجمع عليها عند أهل السنة: أنهم لا يكفّرون أحدًا من أهل القبلة بذنب ما لم يستحلّه، ويقصدون بالذنب الكبائر والصغائر.

واتفقوا على أنّ المرء إذا اقتحم باب المعاصي ثم تاب إلى الله ﷻ توبة نصوحًا تامة بالشروط الشرعية المقررة، فإنّ الله يتوب عليه.

وشروط التوبة النصوح هي:

- 1 - الندم على ما وقع منه من السيئات والمعاصي.
- 2 - تركها والإقلاع منها، خوفًا من الله ﷻ وتعظيمًا له.
- 3 - العزم الصادق ألا يعود فيها.
- 4 - رد الحقوق إلى أصحابها، إذا كان الذنب يتعلق بالملوك، كالضرب وأخذ المال، ونحو ذلك، فينبغي إعطاء كل ذي حق حقه، أو استحلاله من ذلك بأن يسامحه.

قال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تَوْبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنْكُمُ سَيِّئَاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُم جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ يَوْمَ لَا يُخْزِي اللَّهُ النَّبِيَّ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التحريم: 8]. وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ﴾ [الشورى: 25].

واتفقوا على أنّ جميع المعاصي قد يغفرها الله لعبده المؤمن بعفوه وكرمه إن شاء يوم القيامة إلا الشرك، كما أشرنا، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 48]. فعلم بذلك أنّ ما دون الشرك من الذنوب كلها تحت مشيئة الله ﷻ⁽¹⁾.

وهذا لا يعني التهاون بالذنوب والمعاصي، كبيرة كانت أم صغيرة، فقد حذرنا النبي ﷺ من التهاون بالصغائر من الذنوب، فكيف بالكبائر؟ فعن سهل بن سعد -رضي الله عنهما- أنّ النبي ﷺ قال: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ، فَإِنَّمَا مَثَلُ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ كَقَوْمٍ نَزَلُوا

(1) انظر: ابن أبي العز الحنفي، شرح العقيدة الطحاوية، ص 370.

فِي بَطْنٍ وَادٍ، فَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، وَجَاءَ ذَا بَعُودٍ، حَتَّى أَنْضَجُوا خُبَزَتَهُمْ، وَإِنَّ مُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ مَتَى يُؤْخَذُ بِهَا صَاحِبُهَا تُهْلِكُهُ»⁽¹⁾.

ومحقرات الذنوب صغائرهما، لأنها تجر إلى كبارها، فكما أنَّ صغار الطاعات تجر إلى كبارها صغار الذنوب تجر بعضها بعضاً.

والمؤمن الصادق يكون حساساً للذنوب يلوم نفسه عليها إذا ضعف ووقع في حمائها، ويصف لنا الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود حال المؤمن والفاجر مع الذنوب فيقول: (إِنَّ الْمُؤْمِنَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَأَنَّهُ فِي أَصْلِ جَبَلٍ يَخَافُ أَنْ يَقَعَ عَلَيْهِ، وَإِنَّ الْفَاجِرَ يَرَى ذُنُوبَهُ كَذُبَابٍ وَقَعَ عَلَى أَنْفِهِ. فَقَالَ لَهُ هَكَذَا⁽²⁾، فَطَارَ⁽³⁾).

الثالث- النفاق

تعريف النفاق:

النَّفَاقُ لُغَةً: مُخَالَفَةُ الْبَاطِنِ لِلظَّاهِرِ، مَأْخُودٌ مِنْ نَافِقَاءِ الْيَرْبُوعِ⁽⁴⁾ (أي: جُحره)، لَأَنَّهُ يَدْخُلُ مِنْ بَابٍ وَيَخْرُجُ مِنْ بَابٍ، فَقِيلَ لِلْمُنَافِقِ: (مُنَافِقٌ)، لَأَنَّهُ يَخْرُجُ مِنَ الْإِسْلَامِ مِنْ غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي دَخَلَ فِيهِ، وَذَلِكَ أَنَّهُ دَخَلَ عِلَانِيَةً وَخَرَجَ سِرًّا، وَأَصْلُ (نَفَقَ): يَدُلُّ عَلَى إِخْفَاءِ شَيْءٍ وَإِغْمَاضِهِ.

وَالنَّفَاقُ فِي الْإِصْطِلَاحِ: هُوَ الْقَوْلُ أَوْ الْفِعْلُ بِخِلَافِ مَا فِي الْقَلْبِ مِنَ الْإِعْتِقَادِ، وَالْمُنَافِقُ هُوَ الَّذِي يَسْتُرُ كُفْرَهُ وَيُظْهِرُ إِيمَانَهُ، وَهُوَ اسْمٌ إِسْلَامِيٌّ لَمْ تَعْرِفْهُ الْعَرَبُ بِالْمَعْنَى الْمَخْصُوصِ بِهِ، وَإِنْ كَانَ أَصْلُهُ فِي اللُّغَةِ مَعْرُوفًا.

وَالْمُنَافِقُ لَا بُدَّ أَنْ تَخْتَلَفَ سَرِيرَتُهُ وَعِلَانِيَّتُهُ، وَظَاهِرُهُ وَبَاطِنُهُ⁽⁵⁾.

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (22808)، ج 27 ص 446-447، وقال محققوه: إسناده صحيح، رجاله ثقات رجال الشيخين.

(2) لوح بيده على وجهه.

(3) أخرجه أحمد، المسند، رقم (3627)، ج 6 ص 131. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الدعوات، باب: التوبة، رقم (5949). والترمذي، الجامع، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (2497).

(4) الْيَرْبُوعُ أَوْ الْجَرْبُوعُ حَيَوَانٌ ثَدِييٌّ. وَالْجَرَابِيْعُ قَوَارِضُ صَحْرَاوِيَّةٌ وَتَأْبَةُ نَظَرًا لِمَتْلَاقِهَا أَرْجُلًا طَوِيلَةً.

(5) ضَمِيرِيَّةٌ، مَدْخُلٌ لِدِرَاسَةِ الْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، ص 343-345.

أنواع النفاق وأقسامه:

أنواع النفاق في الشرع نوعان، وهما:

القسم الأول: النفاق الأكبر:

وَيُسَمَّى النِّفَاقُ الِاعْتِقَادِيّ، وهو أن يُظهر الإنسان بلسانه الإيمان بالله ﷻ، وباقي أركان الإيمان، ويخفي الكُفر أو ما يُناقض ذلك كُلُّهُ أو بعضه، وهذا النوع هو الذي كان في زمن النَّبِيِّ ﷺ، ونزل القرآن بذمِّه وذمُّ أهله، وأخبر القرآن أَنَّهُم في الدَّرَكِ الأسفل من النَّارِ، ومن صور هذا النِّفَاق تكذيب النَّبِيِّ ﷺ، أو الاعتقاد بعدم وجوب طاعته.

القسم الثاني: النفاق الأصغر:

وَيُسَمَّى النِّفَاقُ العملي، وهو أن يُظهر الشخص الصلاح، ويُبطن ما يُخالف ذلك، ويحافظ على أمور الدين في العلن ويتركها في السرِّ، وهذا النوع ليس مُخرجاً من المِلَّة، بل هو من كبائر الذُّنوب والمعاصي، ولا يُخلد صاحبه في النَّار، فإن شاء غفر الله له، وإن شاء عذِّبه، ولكنَّ هذا القسم إن تمكَّن من قلب صاحبه فقد يؤدي إلى النفاق الأكبر.

ومن الأفعال التي جعلت من صفات المنافقين وعُدَّت من هذا النوع من النفاق، إخلاف الوعد، وخيانة الأمانة، وعَمَل أعمال المُنافقين مع بقاء الإيمان في القلب، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُوتِمِنَ خَانَ»⁽¹⁾.

وعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «أَرْبَعٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ كَانَ مُنَافِقًا خَالِصًا، وَمَنْ كَانَتْ فِيهِ حَصَلَةٌ مِنْهُنَّ كَانَتْ فِيهِ حَصَلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ حَتَّى يَدْعَهَا: إِذَا أُوتِمِنَ خَانَ، وَإِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا عَاهَدَ غَدَرَ، وَإِذَا خَاصَمَ فَجَرَ»⁽²⁾.

الفرق بين النفاق الأصغر والنفاق الأكبر:

يوجد العديد من الفروقات بين النفاق الأصغر والنفاق الأكبر، منها:

1 - أَنَّ النفاق الأكبر مُخْرِجٌ من المِلَّة، أمَّا الأصغر فلا يُخْرِج صاحبه من المِلَّة أو من الإسلام.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق، رقم (33). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (59).

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق، رقم (34). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (58).

2 - أنَّ النفاق الأكبر مُحِبٌّ ومبطل لجميع الأعمال، ويكون الاختلاف فيه بين الظاهر والباطن في العقيدة، أمَّا النفاق الأصغر فيكون الاختلاف فيه بين السرِّ والعلَن في الأعمال.

3 - أنَّ النفاق الأكبر سببٌ للخلود في النَّار إذا لم يَتُبْ منه صاحبه قبل الموت، بالإضافة إلى أنه لا يصدر عن مؤمن، وأمَّا الأصغر فقد يصدر عن مؤمن بالله ﷻ (1).

خطورة النفاق الأكبر أو النفاق العقدي:

النفاق الأكبر أو النفاق العقدي مرض خطير وجرم كبير فهو إظهار الإسلام وإبطان الكفر، والنفاق أخطر من الكفر وعقوبته أشد، لأنه كفر بلباس الإسلام وضرره أعظم، ولذلك جعل الله ﷻ مصير المنافقين جهنم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ جَامِعُ الْمُنَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [النساء: 140]. وجعل مكانهم في أسفلها، كما قال ﷻ: ﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ فِي الدَّرَكِ الْأَسْفَلِ مِنَ النَّارِ وَلَنْ يَجِدَ لَهُمْ نَصِيرًا﴾ [النساء: 145].

صفات المنافقين في القرآن الكريم:

للمنافقين في كتاب الله صفات كثيرة أخطرها الكفر بالله، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا كَمَا آمَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنْتُمُ الَّذِينَ آمَنَ السُّفَهَاءُ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِنْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: 13].

ومن صفاتهم العداوة والحسد للمؤمنين، كما قال ﷻ: ﴿إِنْ تُصِيبَكَ حَسَنَةٌ فُسُوءُهُمْ وَإِنْ تُصِيبَكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا قَدْ أَخَذْنَا أَمْرًا مِنْ قَبْلٍ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ﴾ [التوبة: 50].

ومن صفاتهم الاستهزاء بالله ورسوله ودينه، كما قال ﷻ: ﴿وَلَمَّا سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ ﴿٥١﴾ لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ إِنَّ نَعْفَ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ يُعَذِّبُ طَائِفَةٌ بَأْسُهُمْ كَأَنَّهُمْ مُجْرِمِينَ﴾ [التوبة: 65-66].

ومن صفاتهم الفساد في الأرض بالكفر والنفاق والمعاصي، قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿٥٢﴾ أَلَا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِنْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: 11-12].

ومن صفاتهم الأمر بالمنكر والنهي عن المعروف والبخل بالمال كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [التوبة: 67].
وغيرها من الصفات الرذيلة.

انتهى كلامنا في العقيدة



المبحث الثاني

﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾

في رحاب القرآن

أولاً- مقدمات في علم التفسير وعلوم القرآن

تعريف التفسير

كلمة التفسير جاءت في اللغة من الفَسر، وهو البيان والتوضيح.

وفي اصطلاح أهل العلم التفسير: «علم يعين على فهم كتاب الله المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه»⁽¹⁾.

تعريف القرآن:

القرآن في تعريف أهل الأصول، هو: «كلامُ الله، المُعْجِزُ، المُنْزَلُ على النَّبِيِّ محمد ﷺ، المنقولُ بالتواتر، المتعبدُ بتلاوته، المكتوبُ في المصاحف، المبدوءُ بالفاتحة والمختتم بسورة الناس».

فسمات هذا الكتاب التي يُعرف بها:

- 1 - أنه كلام الله تعالى.
- 2 - أنه مُعْجِزٌ بألفاظه ومعانيه، فلا يستطيع أحد من الإنس والجن أن يأتوا بمثل سورة منه، ولو تظاهروا على ذلك جميعاً.

(1) ناصر صبره الكسواني، نظم الجمان في علوم القرآن، (عمّان: دار الرياحين، ط1، 2024م)، ص614-615.

- 3 - وهو الكتاب الذي أنزله الله ﷻ بألفاظه ومعانيه على نبيه محمد ﷺ بواسطة ملك الوحي جبريل ﷺ، وكانت مدة نزوله ثلاثة وعشرين عامًا.
- 4 - وقد نُقل إلينا القرآن الكريم بالتواتر، فقد رواه جمع من الصحابة ؓ زادوا على المئات ونقله عنهم ألوف من الناس وما زالت تتناقله الجموع إلى يومنا.
- 5 - والقرآن متعبد بتلاوته، أي أنه يُقرأ في الصلاة، وأنَّ قراءته عبادة يتقرب بها إلى الله ﷻ.
- 6 - وقد كُتب القرآن الكريم منذ عهد النبي ﷺ، حيث كتبه كُتَّابُ الوحي بين يدي النبي ﷺ بإملاء منه ﷺ على وسائط الكتابة في زمنهم، لكنهم لم يجمعوه في مصحف واحد، وهو ما فعله الصحابة في خلافة أبي بكر الصديق ؓ، وما أكدّه عثمان ؓ في خلافته عندما كتب منه عدة نسخ تجمع قراءاته، ووزعها على الأمصار الإسلامية وأرسل مع كل مصحف قارئًا يعلم الناس قراءته، وبذلك منع ﷺ أن يزداد أو ينقص من القرآن، فما كان في المصاحف العثمانية فهو قرآن وما لم يوجد فليس بقرآن.
- 7 - وقد حددت حدوده بأنه المبدوء بالفاتحة والمختتم بسورة الناس، مما يشير إلى أن ترتيب سورته توقيفي، أي بتوجيه من النبي ﷺ وليس بالاجتهاد، وكذلك آياته في سورته⁽¹⁾.

أسماء القرآن وصفاته

وللقرآن أسماء أربعة، هي:

- الاسم الأول- القرآن.
- الاسم الثاني- الكتاب.
- الاسم الثالث- الفرقان.
- الاسم الرابع- الذكر⁽²⁾.

وله أوصاف كثيرة ذُكرت فيه، منها:

- 1 - الهدى.
- 2 - النور.

(1) الكِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص13-17.

(2) الكِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص38-51.

3 - الشفاء.

4 - الحكمة.

5 - الموعظة.

6 - الوحي.

7 - كلام الله.

8 - الروح.

وغيرها كثير⁽¹⁾.

أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن:

مما يُظهر عناية المسلمين الشديدة بالقرآن الكريم أنهم اهتموا بتحديد أول ما نزل من القرآن وآخر ما نزل منه.

أ- أول ما نزل من القرآن:

أول ما نزل من القرآن على الإطلاق هو قوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]، وهو أرجح الأقوال.

ودليله ما جاء عن عائشة أم المؤمنين -رضي الله عنها- أنها قالت: (أَوَّلُ مَا بُدِئَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرَّؤْيَا الصَّالِحَةُ فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ، ثُمَّ حُبِّبَ إِلَيْهِ الْخَلَاءُ، وَكَانَ يَخْلُو بَغَارَ حَرَاءٍ فَيَتَحَنَّنُ فِيهِ -وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ- قَبْلَ أَنْ يَنْزِعَ إِلَى أَهْلِهِ وَيَتَزَوَّدَ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيَتَزَوَّدُ لِمِثْلِهَا حَتَّى جَاءَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارٍ حَرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فَقَالَ: اقْرَأْ قَالَ ﷺ: «مَا أَنَا بِقَارِئٍ»، قَالَ: «فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. قُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدَ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: اقْرَأْ. فَقُلْتُ: مَا أَنَا بِقَارِئٍ، فَأَخَذَنِي فَغَطَّنِي الثَّلَاثَةَ ثُمَّ أَرْسَلَنِي، فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5]»، فَرَجَعَ بِهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَرْجُفُ فُؤَادُهُ فَدَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- فَقَالَ: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي»، فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرَّوْعُ، فَقَالَ لَخَدِيجَةَ وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ: «لَقَدْ

(1) الكِسَوَانِي، نظم الجمان في علوم القرآن، ص 52-53.

خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ خَدِجَةُ: كَلَّا وَاللَّهِ مَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحْمَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ، وَتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ (الحديث⁽¹⁾).

ب- آخر ما نزل من القرآن:

اعتمد كثير من علماء التفسير وعلوم القرآن أَنَّ آخرَ ما نزلَ مِنَ القرآنِ الكريمِ قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

وسبب اعتمادهم لهذا القول قوة أدلته بالنسبة إلى غيره، التي منها ما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (آخر شيء نزل من القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ الآية).

كذلك ما جاء من تحديد للوقت بين نزول الآية ووفاة النبي ﷺ، كما جاء عن سعيد بن جبير -رحمه الله- أَنَّهُ قال: «آخر ما نزل من القرآن كله: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللَّهِ﴾ الآية...، وعاش النبي ﷺ بعد نزول هذه الآية تسع ليال، ثم مات يوم الاثنين لليلتين خلتا من ربيع الأول». فالتبني ﷺ عاش بعد نزولها تسع ليال فقط، وهو ما لم يظفر به غيره من الأقوال.

ومما رجحه أيضًا أَنَّ الآية تحمل في طياتها من الإشارة إلى ختام الوحي والدين بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد، وما تنوه به من الرجوع إلى الله ﷻ واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم، وذلك كُلُّهُ أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة في سياقها⁽²⁾.

أسباب نزول القرآن:

آيات القرآن الكريم وسوره منها ما نزل ابتداءً من غير سبب، كآيات المتحدثة عن الجنة والنار في كثير من المواطن.

ومنها ما نزل لسبب غير مباشر، كآيات التي وردت لتصحيح وضع مغلوط كان العرب عليه في الجاهلية، مثل تزوج زوجة الأب غير الأم والجمع بين الأخنتين، فجاءت الآيات في سورة النساء تُحَرِّم ذلك، جاء عن عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما-، قال: (كان أهل الجاهلية يحرمون ما حرم الله، إلا امرأة الأب والجمع بين الأخنتين، فأنزل الله: ﴿وَلَا

(1) الإِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص173-179.

(2) الإِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص180-185.

تَنكِحُوا مَا نَكَحَ آبَاؤُكُمْ مِنَ النِّسَاءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَمَقْتًا وَسَاءَ سَبِيلًا ﴿[النساء: 22]﴾.

وأمثال هذه الأسباب غير المباشرة لا يصلح أن يُعد من أسباب النزول بالمعنى الاصطلاحي الضيق.

وهناك من الآيات ما نزل لسبب مباشر، وهذا ما نحن بصدد، وهو الذي يتبادر إليه الذهن عند سماع مصطلح سبب النزول، وبهذا تضيق الدائرة التي يدخل في خضمها سبب النزول⁽¹⁾.

تعريف سبب النزول:

سبب النزول هو: «ما نزلت الآية أو الآيات متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه». مثاله: ما جاء عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: (صَعِدَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ عَلَى الصَّفَا فَنَادَى: «يَا صَبَا حَاه»، فَاجْتَمَعَتْ إِلَيْهِ قُرَيْشٌ، فَقَالَ: «إِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُمْسِكٌ أَوْ مُصْبِحٌ كُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي»، فَقَالَ أَبُو لَهَبٍ: أَلَهَذَا جَمَعْتَنَا؟ تَبًّا لَكَ، فَأَنْزَلَ اللَّهُ: ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1]⁽²⁾.

المكي والمدني:

يُقسم العلماء سور القرآن الكريم إلى سور مكية وسور مدنية، وقد اختلفوا في ضابط التفريق بين المكي والمدني، والراجح من أقوالهم أن المكي ما نزل من القرآن الكريم قبل هجرة الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة، سواء كان نزوله في مكة أو خارجها، والمدني ما نزل من القرآن الكريم بعد الهجرة، وإن كان نزوله خارج المدينة، ولو في مكة. فالضابط زمني حسب فترة النزول⁽³⁾.

ويرى عامة أهل العلم أن سور القرآن الكريم من حيث مكية ومدنية آياتها تقسم إلى أقسام أربعة، هي:

1 - سور آياتها جميعاً مكية، وهذه سور مكية.

(1) الكِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص 189-190.

(2) الكِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص 191.

(3) الكِسْوَاني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص 238-241.

2 - سور آياتها جميعاً مدنية، وهذه سور مدنية.

3 - سور غالب آياتها مكية وفيها آيات مدنية، وهذه سور مكية.

4 - سور غالب آياتها مدنية وفيها آيات مكية، وهذه سور مدنية⁽¹⁾.

وبناء على أن هناك آيات مكية في سور مدنية وآيات مدنية في سور مكية قرروا أن وصفاً للسورة بأنها مكية أو بأنها مدنية يعتمد على العدد الأكثر للآيات فيها، فإن كان أكثر آيات السورة مكية كانت السورة مكية، وإن كان أكثرها مدنية كانت السورة مدنية⁽²⁾.

لطائف تتعلق بفروع هذا المبحث:

هناك لطائف ذكرها العلماء في كتبهم تتعلق بموضوعات هذا المبحث جديرٌ بنا بإيرادها في هذا الكتاب لما لها من فائدة.

أطول سورة في القرآن هي البقرة، وأقصرها الكوثر.

وأطول آية فيه آية الدين مائة وثمانى وعشرون كلمة وخمسمائة وأربعون حرفاً.

وأقصر آية فيه ﴿وَالضُّحَى﴾ [الضحى: 1]، ثم ﴿وَالْفَجْرِ﴾ [الفجر: 1] كل كلمة خمسة أحرف تقديراً، ثم لفظاً ستة رسماً، لا آية ﴿مُدْهَامَّتَانِ﴾ [الرحمن: 64]، لأنها سبعة أحرف لفظاً ورسماً وثمانية تقديراً، ولا آية ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ [المدثر: 21]، لأنها كلمتان خمسة أحرف رسماً وكتابة، وستة أحرف تقديراً خلافاً لبعضهم.

وأطول كلمة في القرآن لفظاً وكتابة بلا زيادة ﴿فَأَسْقَيْنَا كُنُوزَ﴾ [الحجر: 22] أحد عشر حرفاً.

وأقصر كلمة فيه نحو باء الجر، حرف واحد.

والقرآن الكريم يحوي مائة وأربع عشرة سورة، وهو مكون من ثلاثين جزءاً، ينقسم كل جزء إلى قسمين، كل قسم يُسمى حزباً، وبذلك يضم القرآن الكريم ستين حزباً، وكل حزب يُقسم إلى أربعة أرباع.

وأما عدد آياته، فهي: ستة آلاف آية، واختلف فيما زاد على ذلك على عدة أقوال، فمنهم من قال: مائتا آية وأربع آيات، وقيل: أربع عشر آية، وقيل: مائتان وتسع عشرة آية، وقيل: مائتان وخمس وعشرون آية، أو ست وعشرون، وقيل: مائتان وست وثلاثون آية.

(1) الراجح أن هذا النوع لا وجود له بين سور القرآن الكريم. (انظر: الكسواني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص294).

(2) الكسواني، نظم الجمان في علوم القرآن، ص249.

وأما عدد حروفه فيبلغ (323670)، وتكوّن بمجموعها (77934) كلمة قرآنية.

وتتوسط كلمات القرآن الكريم كلمة: ﴿وَلَيْسَ لَكَ﴾ [الكهف: 19]، وحرف «التاء» فيها يتوسط حروفه.

وهناك تسع وعشرون سورة من سور القرآن الكريم تبدأ بالحروف المقطعة.

وخمس سور تبدأ بـ «الحمد»، وهي: الفاتحة، والأنعام، والكهف، وسبأ، وفاطر.

وسبع سور تبدأ بتسبيح الخالق ﷻ، وهي: الإسراء، والحديد، والحشر، والصف، والجمعة، والتغابن، والأعلى.

السور المفتحة بالأحرف المقطعة: تسع وعشرون سورة.

المفتحة منها بـ ﴿الم﴾ ست سور، وهي: البقرة، وآل عمران، والعنكبوت، والروم، ولقمان، والسجدة.

السور المفتحة بـ ﴿الر﴾ خمس سور، وهي: يونس، وهود، ويوسف، وإبراهيم، والحجر.

السور المفتحة بـ ﴿حم﴾ سبع سور، وهي: غافر، وفصلت، والشورى، والزخرف، والدخان، والجاثية، والأحقاف.

وثلاث سور تبدأ بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ﴾، وهي: الأحزاب، والطلاق، والتحريم.

وسورتان مفتحتان بـ ﴿يَا أَيُّهَا الْمَرْمِلُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾، وهما: المزمل، والمدثر.

وثلاث سور تبدأ بـ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾، وهي: المائدة، والحجرات، والممتحنة.

وسورتان مفتحتان بـ ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾، وهما: النساء، والحج.

وخمس سور تبدأ بـ ﴿قُلْ﴾، وهي: الجن، والكافرون، والإخلاص، والفلق، والناس.

وأربع سور تبدأ بـ ﴿إِنَّا﴾، هي: الفتح، ونوح، والقدر، والكوثر.

وسورتان مفتحتان بكلمة ﴿هَلْ﴾، هما: سورة الإنسان، وسورة الغاشية.

وسورتان مفتحتان بكلمة ﴿تَبَارَكَ﴾، هما: سورة الفرقان، وسورة الملك.

وسورتان مفتحتان بكلمة ﴿قَدْ﴾، هما: سورة المؤمنون، وسورة المجادلة.

وخمس عشرة سورة تبدأ بصيغة القسم، وهي: الذاريات، والطور، والنجم، والمرسلات، والنازعات، والبروج، والطارق، والفجر، والشمس، والليل، والضحى، والتين، والعاديات، والعصر، والصفاء.

وتحتوي أربع عشرة سورة من سور القرآن الكريم على سجدة تلاوة. وكل سور القرآن تبدأ بالبسملة سوى سورة «التوبة»، بينما سورة «النمل» تحوي بسملتين، وعليه فإنه يبقى عدد مرات ورود البسملة في القرآن 114 مرة. وست سور من القرآن الكريم تحمل أسماء ستة أنبياء، وهي سورة يونس، وسورة هود، وسورة يوسف، وسورة إبراهيم، وسورة محمد، وسورة ونوح. هذا ما تيسر لنا من هذه اللطائف⁽¹⁾.

ثانيًا- تفسير بعض سور القرآن

اخترنا مجموعة من سور ومقاطع القرآن الكريم التي نرى أنَّ المسلم ينبغي أن يقف على تفسيرها، وننصح من لا يحفظها بحفظها بعد قراءة تفسيرها، وأول هذه السور سورة الفاتحة.

السورة الأولى: سورة الفاتحة

مقدمات لسورة الفاتحة:

سور القرآن لها أسماء عُرفت في عهد النبي ﷺ، وأغلب سور القرآن عُرف له اسم واحد، وبعضها عُرف له أكثر من اسم، وقد ذكر المفسرون لسورة الفاتحة أسماء كثيرة. وعند النظر في النصوص الشرعية التي أشير فيها إلى سورة الفاتحة وقفنا لها على ستة أسماء، وهي:

- 1 - الفاتحة: سميت بذلك، لِأَنَّ اللَّهَ بِهَا افْتَتَحَ الْقُرْآنَ.
- 2 - أُمُّ الْقُرْآنِ وَأُمُّ الْكِتَابِ: أُمُّ الشَّيْءِ: أصله، وسميت الفاتحة بذلك، لِأَنَّهَا أَصْلُ الْقُرْآنِ فَبِهَا بُدِئَ، أو لِأَنَّهَا حَوَتْ أَصُولَ مَعَانِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ كُلِّهِ.
- 3 - السَّبْعُ الْمَثَانِي، سميت بذلك لِأَنَّهَا سَبْعُ آيَاتٍ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ. ووصفت بِأَنَّهَا «مَثَانِي» لِأَنَّهَا تُتَنَّى، أي تكرر، فِي الصَّلَاةِ، فَتَقْرَأُ فِي كُلِّ رَكْعَةٍ.
- 4 - سورة الصلاة، ذلك أَنَّ مَعْنَى الصَّلَاةِ الدُّعَاءُ، وَغَالِبُ سُورَةِ الْفَاتِحَةِ دُعَاءٌ، لِذَا سُمِيَتْ سُورَةُ الصَّلَاةِ، أو لِأَنَّ الصَّلَاةَ لَا تَصِحُّ إِلَّا بِهَا.
- 5 - سورة الحمد، لِافتتاحها بِالْحَمْدِ.
- 6 - القرآن العظيم، لِأَنَّهَا أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ، كَمَا سَيَأْتِي فِي فَضْلِهَا.

(1) الْكِسَوَانِي، نَظْمُ الْجَمَانِ فِي عُلُومِ الْقُرْآنِ، ص 91-94.

وهي سورة مَكِّيَّةٌ نزلت قبل الهجرة، بل روي أنها خامس سورة نزلت على النبي ﷺ (1).

فضلها:

ونقصد بفضل السورة مكانتها وعظم أجر قراءتها، ومن فضائل هذه السورة:

1 - أنها أعظم سورة في القرآن، لحديث أبي سعيد بن المَعْلَى ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «**الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ**» هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ» (2).

2 - الفاتحة سورة تميز بها المسلمون عن غيرهم، فلم ينزل مثلها على نبي غير محمد ﷺ، فعن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال له: «أَتُحِبُّ أَنْ أُعَلِّمَكَ سُورَةً لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا». قال: نعم يا رسول الله. قال رسول الله ﷺ: «كَيْفَ تَقْرَأُ فِي الصَّلَاةِ». قال ؓ: فقراء أُمِّ الْقُرْآن. فقال رسول الله ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ مَا أُنْزِلَتْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الزَّبُورِ وَلَا فِي الْفُرْقَانِ مِثْلُهَا، وَإِنَّهَا سَبْعٌ مِنَ الْمَثَانِي وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُعْطِيَتْهُ» (3).

3 - سورة الفاتحة رقية يُسْتَشْفَى بها من أمراض الجسد وأمراض النفس، فعن أبي سعيد الخدري ؓ قال: بعثنا رسول الله ﷺ في سريّة ثلاثين راكبًا، فنزلنا بقوم من العرب، فسألناهم أن يُضَيِّقُوا فابوا، فلدغ سيّدُهم فأتونا، فقالوا: فيكم أحدٌ يرقى من العقرب؟ فقلْتُ: نعم أنا، ولكن لا أفعلُ حَتَّى تُعْطُونَا شَيْئًا، قالوا: فَإِنَّا نُعْطِيكُمْ ثَلَاثِينَ شَاةً. فقرأتُ عليها (الْحَمْدُ لِلَّهِ) سبع مرّاتٍ فبرأ، فلمّا قبضنا الغنم عرض في أنفسنا منها فكففنا حَتَّى أَتَيْنَا النَّبِيَّ ﷺ، قال: فذكرنا ذلك له قال: فقال: «أَمَّا عَلِمْتَ أَنَّهَا رُقِيَّةٌ؟ اقْسِمُوهَا وَاضْرِبُوا لِي مَعَكُمْ بِسَهْمٍ» (4).

(1) الكسواني، التفسير التحليلي للقرآن تفسير سورة الفاتحة نموذجًا، ص 23-41.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب تفسير القرآن، باب ما جاء في فاتحة الكتاب، رقم (4474).

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، رقم (4622). وأبو داود، السنن، رقم (1246). والنسائي، السنن، رقم (904). وابن ماجه، السنن، رقم (3775). والترمذي، الجامع، رقم (2800). ثم قال: هذا حديث حسن صحيح. وأحمد، المسند، رقم (8977).

(4) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، رقم (4623). ومسلم، الصحيح المسند، رقم (4081).

4 - من فضائل الفاتحة أنها نور ولا يقرأ العبد منها حرفاً إلا أوتيها، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (بينما جبريل ﷺ قاعدٌ عند النبي ﷺ سمع نقيضاً⁽¹⁾ من فوقه فرفع رأسه فقال ﷺ: «هذا بابٌ من السماءُ فتح اليوم لم يُفتح قطُّ إلا اليوم»، فنزل منه ملكٌ فقال جبريل ﷺ: «هذا ملكٌ نزل إلى الأرض لم ينزل قطُّ إلا اليوم»، فسلم، وقال: «أبشر بنورين أُوتيتهما لم يُؤتِهما نبيٌ قبلك: فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة، لن تقرأ بحرفٍ منهما إلا أُعطيته»⁽²⁾).

وقد وردت أحاديث أخر في فضل هذه السورة أعرضنا عنها لضعفها.

الاستعاذة

يقصد بالاستعاذة قولك: «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»، وهي ليست من سورة الفاتحة ولا من غيرها من السور بإجماع المسلمين، لكن جاء الأمر بها في القرآن عند الشروع بقراءته، وذلك في قوله ﷺ: ﴿إِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: 98]، لذا نبدأ بتفسيرها⁽³⁾.

شرح الكلمات:

- أعوذ: أستجير وألتجئ.
- بالله: الباء: حرف من حروف المعاني، يعني الإلصاق والمصاحبة أو الاستعانة.
- الله: اسم علم على الإله المعبود بحق لا يسمى به غيره ﷻ.
- الشيطان: من شاط بمعنى احترق أو من شطن بمعنى بعد، ويراد به كل متمرّد على أوامر الله تعالى من الجن والإنس.
- الرجيم: بمعنى المرجوم، أي: المطرود من كل رحمة الله ومن الخير⁽⁴⁾.

(1) (نقيضاً)، أي صوتاً كصوت الباب إذا فتح، و«من قرأهما في ليلة كفتاه». قيل: معناه كفتاه من قيام الليل، وقيل: من الشيطان، وقيل: من الآفات ويحتمل من الجميع. (انظر: يحيى بن شرف بن مري النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، ط2، 1392هـ)، ج6 ص91-92).

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، رقم (806). والنسائي، السنن، رقم (912).

(3) انظر: ناصر الكسواني، التفسير التحليلي للقرآن تفسير سورة الفاتحة نموذجاً، (عمّان: دار الفاروق، ط1، 2011م)، ص63.

(4) أبو بكر الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط5، 2003م)، ج1 ص10-11، بتصرف.

معنى الاستعاذة «أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ»: «أستجير بجانب الله ﷻ، وأعتصم به من شرِّ إبليس الملعون والمطرود من رحمة الله ومن شر كل شيطان عاتٍ متمرد رجيم، من الجن والإنس، أن يضرني في ديني أو دنيائي، أو يصدني عن فعل ما أُمِرتُ به»⁽¹⁾.

حكم الاستعاذة:

يُسَنُّ لكل مَنْ يريد قراءة شيء من القرآن الكريم، آية فأكثر، أن يقول قبل قراءته: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ثم يقرأ⁽²⁾.

تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ① الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ② الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ③ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ④ إِيَّاكَ تَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ⑤ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ⑥ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ⑦.

معاني المفردات والتراكيب:

- الاسم: لفظٌ جُعِلَ علامة على مُسَمًّى يُعرف به ويميزه عن غيره.
- الله: علم على المعبود بحق، اسم علم للذات المقدسة لا يطلق على غيره ﷻ، وهذا الاسم هو الجامع للصفات الإلهية.
- الرَّحْمَنُ: اسم من أسماء الله مشتق من الرحمة، يعني: المتصف بكثرة الرحمة وعظمتها.
- الرَّحِيمُ: اسم من أسماء الله مشتق من الرحمة، يعني: المتصف بدوام الرحمة واستمراريتها.
- الْحَمْدُ: الثناء بالجميل على جهة التعظيم والتبجيل، مقرونًا بالمحبة، وهو نقيض الذم.
- لِلَّهِ: اللام حرف جر، من حروف المعاني، ومعناه هنا: الاستحقاق، أي: أَنَّ الله مستحق لجميع المحامد.
- الرب: اسم من أسماء الله، مشتق من التربية، والتربية إصلاح شؤون الغير ورعاية أمرهم، والرب يطلق على عدة معانٍ، المالك، والمصلح، والمعبود، والسيد المطاع.

(1) محمد علي الصابوني، صفوة التفاسير، (صيدا: المكتبة العصرية، 2008م)، ص17.

(2) الكسواني، التفسير التحليلي للقرآن تفسير سورة الفاتحة نموذجًا، ص63-65.

- الْعَالَمِينَ: جمع عالم، والعالم: اسم جنس لا واحد له من لفظه، كالرھط، وهو ما ينطوي تحته مجموعة من المتشابهات والأجناس، مثل: عالم الإنس وعالم الجن وعالم الملائكة وهكذا.
- مَالِك: المالك: صاحب الْمَلِك. وتُقرأ أَيْضًا: مَلِك: وَالْمَلِك ذو السلطان الأمر الناهي.
- يَوْمِ الدِّينِ: الدين: الجزاء والحساب، ويوم الدين: يوم الجزاء والحساب، وهو يوم القيامة، حيث يجزي الله ﷻ كل نفس بما كسبت.
- نَعْبُدُ: نقوم بالطاعة الدالة على غاية التذلل والتعظيم والحب للمعبود، وهو الله ﷻ.
- نَسْتَعِينُ: نطلب عونك، فالسين للطلب.
- اهْدِنَا: أرشدنا بلطف، وأدم هدايتنا وثبتنا.
- الصِّرَاطَ: الطريق، وأصله بالسين من الاستراط بمعنى الابتلاع، كأنَّ الطريق يبتلع السالك عليه.
- الْمُسْتَقِيمَ: الشيء الذي لا عوج فيه ولا انحراف.
- الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ: كل من أنعم الله عليهم بالإيمان به ﷻ ومعرفته، ومعرفة محابه، ومساخطه، والتوفيق لفعل المحاب وترك المكاره.
- غَيْرَ: لفظ يستثنى به، كـ «إِلَّا».
- الْمَغْضُوبَ عَلَيْهِمْ: هم مَنْ استحقوا غضب الله تعالى عليهم لكفرهم وإفسادهم في الأرض عن علم.
- الضلال: الانحراف والبعد عن الهدى المطلوب شرعًا.
- الضَّالِّينَ: هم مَنْ أخطؤوا طريق الحق، فعبدوا الله على جهالة، فانحرفوا عن نهجه⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ ١

ما نختاره في البسملة أنها آية من أول الفاتحة، ومن أول كل سورة ما عدا سورة التوبة، نزلت مع أول كل سورة فصلًا لها عما سبقها، وافتتاحًا لها⁽²⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 1 ص 11-12، بتصرف وإضافة.

(2) انظر: آراء العلماء في البسملة في: كتابنا: التفسير التحليلي للقرآن تفسير سورة الفاتحة نموذجًا، ص 107-114.

والمعنى العام للبسملة: «أبتدئ قراءتي وعملي مصطحباً متبركاً باسم الله، الله الذي هو إله الكون المعبود بحق، ومستعيناً به ﷻ، فهو خير متبرك به وخير مستعان، العظيم الرحمة ودائمها».

فالباء في البسملة: إما تفيد الإلصاق، فيكون المعنى أبتدئ قراءتي أو عملي متبركاً باسم الله، وإما تفيد الاستعانة، فيكون المعنى أبتدئ قراءتي أو عملي مستعيناً بالله ﷻ. وقد ذُكرَ لله ثلاثة أسماء في البسملة، الأول: الله، وهو الاسم العلم لله ﷻ مشتق من الألوهية، وهو يوصف ولا يوصف به.

والثاني والثالث: الرحمن الرحيم، وهما اسمان لله مشتقان من صفة الرحمة، والأول يدل على عظم صفة الرحمة في الله تعالى، والثاني يدل على دوامها، لذا جُمع بينهما في سياق واحد.

فالرحمن عظيم الرحمة، والرحيم دائمها. واختيار هذين الاسمين للافتتاح بهما، لأنَّ الرحمة هي عنوان رسالة محمد ﷺ، قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: 107].

وقد افتتح الله بهذه الآية سور القرآن - ما عدا سورة التوبة - ليرشد المسلمين إلى أن يبدووا أعمالهم وأقوالهم بـ «بسم الله الرحمن الرحيم»، التماساً لمعونته وتوقيفه، ومخالفة للوثنيين الذين يبدوون أعمالهم بأسماء آلهتهم أو طواغيتهم فيقولون: باسم اللات، أو باسم العزى، أو باسم الشعب.

﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ ①

يخبر تعالى أنَّه المستحق للشكر الكامل والثناء التام، فهو ﷻ رب كل شيء وخالقه ومالكة. وكذلك يعلمنا الله ﷻ بهذه الآية كيف نحمده ونشكره ونثني عليه.

والعلماء عند تفسير هذه الآية يُفرقون بين المدح والحمد، فيقولون:

إنَّ الحمد يكون على الجميل الاختياري في المحمود أو من المحمود، كما يحمده الله تعالى على لطفه ورحمته وإحسانه. وأما المدح فإنه يكون على الاختياري والاضطراري، كما يمدح الإنسان على جمال وجهه، وهو ليس فعله، وعلى إحسانه الذي هو عمله الاختياري.

ويفرقون بين الحمد والشكر أيضاً، فيقولون:

إنَّ الشكر هو الثناء بالقلب واللسان والجوارح، وإنَّ الحمد يكون باللسان وبعضهم قال وبالقلب.

والشكر يكون على السَّراء دون الضَّرَّاء التي تصيب الإنسان، أمَّا الحمد فيكونُ على السراء والضراء وعلى كل حال.

ويفرقون أيضًا بينهما أنَّ الحمد يحوي شكرًا مع مدح وثناء، أما الشكر فقد يخلو من الثناء.

وتبين الآية أنَّ استحقاق الله للحمد، لأنَّه رب العالمين، أي سيد ومدبر أمور ومربي ومصلح شؤون العالمين، عالم الإنس وعالم الملائكة، وعالم الجن، وعالم الحيوان، وعالم النبات، وجميع العوالم من المخلوقات. فالله هو رب العوالم كلها.

﴿الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾ (٣)

تَقْدِم شرح هاتين الكلمتين في البسملة، وأنَّهما اسمان وُصف بهما «الله»، ثناء عليه تعالى لاستحقاقه الحمد كله.

وإعادتهما للتأكيد على رحمة الله تعالى، ولبيان أنَّ الله يربي النَّاس ويصلحُ شأنهم برحمته وعلى منهج الرحمة.

﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ (٤)

وحتى لا يغتر الإنسان برحمة الله تعالى، التي قرر في الآية السابقة أنَّه جعل عنوان رسالة الإسلام الرحمة، وأنَّه أنزل كتابه ليقررها، وأنَّه جعلها المنهج الذي يعامل ويربي به خلقه، جاءت هذه الآية تحمل في كلماتها إشارة إلى مظهر من مظاهر سلطانه وقهره، وهو أنه جعل يومًا للحساب والجزاء، لا يملك أحد فيه شيئًا إلا المالك الحقيقي وهو الله، ولا سلطان لأحد فيه إلا للملك الحقيقي وهو الله ﷻ.

ومن المعلوم أنَّ الله ﷻ أنزل القرآن الكريم ليقرأ بطُرق مختلفة مع بقاء القالب الرئيس للألفاظ والكلمات والجمل، وهذه الطُّرق عُرفت باسم القِراءات القرآنية، والتي استقرت فيما بعد إلى أئمة عشرة^(١).

وهذه الآية قُرئت بقراءتين، الأولى: «مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ»، والثانية «مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ»، وبأيهما قرأ القارئ صحت قراءته، ويدل مجموع القراءتين على أنَّ الله ﷻ هو صاحب المُلْك وصاحب المُلْك في يوم القيامة وحده ﷻ، الذي عبر عنه بـ«يوم الدين»، لما تحمله كلمة الدين من معاني الحساب والجزاء.

(١) انظر: الكِسْوانِي، نظم الجمان في علوم القرآن، مبحث القراءات القرآنية، ص 299-330.

وهذا من رحمة الله بخلقه أن جعل يومًا يرجع إليه فيه الخلق أجمعون، ليحاسبهم على ما عملوه في هذه الحياة الدنيا، فيأخذ كلُّ ذي حَقٍّ حَقَّهُ ممن ظَلَمَ من ذي سلطان أو ذي ملك.

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ ٥

بعد ذلك تلتفت الآيات من خطاب الغائب إلى خطاب الحاضر، وذلك شدًّا لانتباه السامع وتنشيطًا له، فالعبد يخاطب ربه مباشرة كأنه يراه قائلًا: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفتحة: 5]، أي: نخصُّكَ وحدَكَ يا رب بالعبادة، فلا نعبدُ أحدًا سواك، ونخصُّكَ أيضًا بطلب المعونة، فلا نستعين بأحدٍ سواك.

والعبادة: عُرِفَتْ في اللغة بأنها أقصى غاية الخضوع والتذلل مع الحب والتعظيم للمعبود.

وعرفت في الشرع بأنها كل عمل يحبه الله ﷻ ويرضاه من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، يؤديه العبد مظهرًا كمال حبه لله وكمال تذله له ﷻ.

فمفهوم العبادة في الإسلام مفهوم شامل، يشمل، بالإضافة إلى الشعائر مثل الصلاة والصيام والزكاة والحج، كل فعل يبتغي به الإنسان وجه ربه ﷻ.

وإذا كان أمر تخصيص العبادة بالله ﷻ وحده واضحًا، لأنَّ مخالفة ذلك شرك أكبر يستحق فاعله الخلود في النار، كما أوضحنا في مبحث العقيدة، فإنَّ حصر الاستعانة بالله ﷻ قد يُشكِّل على البعض، بأنَّه ينافي التعاون بين الناس، فنقول: إنَّ حصر الاستعانة بالله يكون فيما لا يقدر عليه إلا الله ﷻ، أمَّا ما يتعلق بشؤون النَّاس وحياتهم فهذا أمر لا حرمة فيه، كذلك فإن الله هو الفاعل المطلق في الكون فهو المعين الحقيقي في أي شأن.

﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾ ٦

بعد توجه المؤمن إلى الله ﷻ بالثناء عليه يحين وقت الطلب منه ﷻ، وأعظم طلبٍ يطلبه العبدُ من الله ﷻ الهداية إليه بأن يده ويوفقه إلى الصراط المستقيم الموصول إليه، الذي في السير عليه وفي انضباط الحياة وفقه سعادة الإنسان في دنياه وأخراه.

والهداية: هي الدلالة بلطف، فالعبد يسأل الله أن يعامله بلطفه، فيدله دلالة لطيفة على الصراط المستقيم، الذي هو دينه ومنهجه القويم.

والمؤمن الذي وفَّق أصلًا لانتهاج الصراط المستقيم في هذا الدعاء يسأل الله الزيادة في الهداية، ويسأله الثبات على الصراط المستقيم.

﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (٥)

ولبيان المراد بهذا الصراط المستقيم بيّن الله تعالى مَنْ هم سالكوه، ومن هم مُتَنَكِّبوهُ ومخالفوهُ، لكي يكون الأولون لنا قدوة، ولكي نتجنب حال المتنكبين.

فالصراط المستقيم هو الطريق والمنهج الذي سار ويسير عليه عباد الله «الَّذِينَ أَنْعَمَ عَلَيْهِمْ»، وأي نعمة على الإنسان أعظم من نعمة أن يكون من المسلمين، وأن يسلك الطريق الذي سلكه أحسن الرفقاء له إن هو سلكه، من النّبیین والصديقين والشهداء والصالحين، ليهنأ في الدنيا بما تُلذّذوا به من نعمة الإيمان والعمل الصالح، وليكون رفيقاً لهم في الجنة يتنعم في خيراتها.

ولمزيد توضيح لهذا الصراط بين الله ﷻ أنه الطريق الذي لا يجانبه إلا من يستحق غضب الله ﷻ، فيكون من «الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ» الذين تركوا ما أمروا به واقتحموا ما نُهوا عنه عن علم، بعد أن جاءتهم الآيات البينات فاستحقوا على ذلك غضب الله ﷻ، لأنّ مَنْ يَعْلَمَ ليس كَمَنْ لَا يَعْلَم.

كذلك يجانبه وينحرف عنه الضالون الذين انحرفوا عنه، لا عن علم كسابقيهم، ولكن عن جهل وتضليل من المغضوب عليهم وغيرهم.

وبهذا يظهر أنه لا يُعذر مَنْ ضَلَّ عن علم، ولا يُعذر من ضَلَّ عن جهل، إذا كان قادراً على العلم ومعرفة الحق، وهو أمر يسّره الله ﷻ لكل من أراد^(١).

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - على المُسلم أن يبدأ كلّ فعلٍ مباحٍ له أو مستحبٍّ أو واجبٍ بالبسملة، ذلك ليصبغ حياته كلّها باسم الله ﷻ، وليقيم حياته مع الخلق على الرحمة.
- 2 - دوام حمد الله على كل حال، ودوام شكره على كل نعمة ينعمها علينا.
- 3 - الله ﷻ هو عظيم الرحمة ودائمهها، فإذا قصّر الإنسان وأذنب فلا ييأس من رحمة الله التي وسعت كل شيء.
- 4 - يجب أن يبقى الإنسان في خشية دائمة من الله، لأنّ الإنسان لا بد راجع إليه فيحاسبه ﷻ في يوم الحساب.

(١) الكسواني، التفسير التحليلي للقرآن تفسير سورة الفاتحة نموذجاً، ص 106-314.

5 - تَعَلَّمْنَا الْآيَاتِ كَيْفَ نَتَوَسَّلُ إِلَيْهِ فِي قَبُولِ دَعَائِنَا، فنقدم دعاء الثناء والعبادة على دعاء الطلب والسؤال.

6 - استعملت الآية: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾، ضمير الجمع للتنبيه على روح الأخوة الإسلامية بين المسلمين. واستعمل فيها الفعل المضارع للدلالة على مداومة العبد على عبادة الله والاستعانة به.

7 - الترغيب في دعاء الله والتضرع إليه.

8 - سؤال الله الثبات على الصراط المستقيم دوماً وعدم الزيغ عنه.

9 - الترغيب في سلوك سبيل الصالحين، والترهيب من سلوك سبيل المجرمين.

10 - على المسلم أن يبحث عن الحق ويلتزمه في حياته، ولا يعذر بالجهل إن كان قدراً على أسباب العلم.

11 - أن يحذر الإنسان من سلوك سبيل المنحرفين ممن ضلوا عن علم أو قصرُوا في معرفة الحق فضلوا عن جهل.

12 - كلمة: «أمين»: تعني: استجب يا رب دعاءنا، ويستحب أن تقال بعد الانتهاء من قراءة الفاتحة، وهي ليست من الفاتحة، بالإجماع.

أحكام قراءة الفاتحة في الصلاة:

أجمع العلماء على مشروعية قراءة الفاتحة في الصلاة، لكنهم اختلفوا في تحديد حكمها، وما يترجح عندنا في ذلك أنَّ قراءة الفاتحة واجبة في كل ركعة من ركعات الصلاة للإمام والمنفرد، وهو ما ذهب إليه جمهور العلماء.

وقد احتجوا لذلك بأدلة كان منها:

1 - الأحاديث الدالة على ذلك، من مثل ما جاء عن عبادة بن الصامت ؓ قال: قال رسول

الله ﷺ: «لَا صَلَاةَ لِمَنْ لَمْ يَقْرَأْ بِفَاتِحَةِ الْكِتَابِ»⁽¹⁾، وما جاء عن أبي هريرة ؓ

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب صفة الصلاة. باب: وجوب القراءة للإمام والمأموم في الصلوات كلها، في الحضر والسفر، وما يجهر فيها وما يخافت، رقم (723). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وإنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (394).

أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «كُلُّ صَلَاةٍ لَمْ يُقْرَأْ فِيهَا بِأَمِّ الْقُرْآنِ فَهِيَ خِدَاجٌ»⁽¹⁾، أي غير تمام.

2 - وَأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ وَاضَّبَ طَوْلَ عُمُرِهِ عَلَى قِرَاءَةِ الْفَاتِحَةِ فِي الصَّلَاةِ، فَوَجِبَ عَلَيْنَا ذَلِكَ.

3 - وَأَنَّ الْخُلَفَاءَ الرَّاشِدِينَ ﷺ أَيْضًا وَاضَبُوا عَلَى قِرَاءَتِهَا طَوْلَ عُمُرِهِمْ، كَمَا ثَبَتَ ذَلِكَ فِي الصَّحِيحِينَ، وَإِذَا ثَبَتَ هَذَا وَجَبَ عَلَيْنَا الْإِتِّبَاعَ.

هذا بالنسبة إلى الإمام والمنفرد، أمّا المأموم فهل تشرع قراءة الفاتحة له؟

اختلف العلماء في قراءة المأموم للفاتحة خلف الإمام، وما نرجحه من خلال النظر في الأدلة والجمع بينها أَنَّ قِرَاءَتَهَا خَلْفَ الْإِمَامِ لِلْمَأْمُومِ مُسْتَحَبَّةٌ، وَلَيْسَتْ وَاجِبَةً، سِوَاءَ فِي الصَّلَاةِ السَّرِيَّةِ أَوْ الصَّلَاةِ الْجَهْرِيَّةِ، وَهَذَا مَرْوِيٌّ عَنِ الْإِمَامِ الْأَوْزَاعِيِّ، وَأَهْلِ الشَّامِ، وَاللِّيثِ بْنِ سَعْدٍ. وَهُوَ اخْتِيَارُ طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِمْ -رَحِمَهُمُ اللَّهُ جَمِيعًا-⁽²⁾.

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الصلاة، باب وجوب قراءة الفاتحة في كل ركعة، وأنه إذا لم يحسن الفاتحة ولا أمكنه تعلمها قرأ ما تيسر له من غيرها، رقم (395). وابن ماجه، السنن، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب القراءة خلف الإمام، رقم (842).

(2) انظر التفاصيل والمراجع في كتابنا: التفسير التحليلي للقرآن تفسير سورة الفاتحة نموذجًا، ص52-

السورة الثانية: آيات من سورة الأنعام

الوصايا العشر

مقدمة حول الآيات:

الآيات الثلاث التي سنتناولها أخذت من سورة الأنعام، وهي ثاني سورة مكية بعد الفاتحة في ترتيب المصحف.

وسميت هذه السورة بسورة الأنعام، لأنه تكرر فيها ذكر لفظ الأنعام ست مرات. وعُدت هذه السورة الخامسة والخمسين في عدد نزول السور، قيل نزلت بعد سورة الحجر وقبل سورة الصافات.

وقد جاء في هذه السورة ثلاث آيات حملت مجموعة من الأوامر والنواهي، سميت بالوصايا العشر، لأنها تضمنت عشر وصايا من الله تبارك وتعالى⁽¹⁾.

الوصايا العشر:

انقسمت الأحكام التي تضمنتها آيات الوصايا العشر، إلى ثلاثة أقسام:

الأول: أحكام بها إصلاح الحالة الاجتماعية العامة بين الناس، وهو ما افتتح بقوله: ﴿أَلَّا تَشْكُرُوا بِهِ شَيْئًا﴾ [الأنعام: 151].

الثاني: ما به حفظ نظام تعامل الناس بعضهم مع بعض، وهو المفتتح بقوله: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ [الأنعام: 152].

الثالث: أصل كلي جامع لجميع الهدى، وهو اتباع طريق الإسلام والتحرز من الخروج عنه إلى سبل الضلال، وهو المفتتح بقوله: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام: 153].

وقد ختم كل قسم من هذه الأقسام بالوصاية به بقوله: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ﴾ ثلاث مرات.

وذكر فيما حرم الله عليهم أشياء ليست من قبيل اللحوم إشارة إلى أن الاهتمام بالمحرمات الفواحش أولى من العكوف على دراسة أحكام الأطعمة، تعريضاً بصرف المشركين هماتهم إلى بيان الأطعمة وتضييعهم تركية نفوسهم وكف المفاسد عن الناس.

(1) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، (تونس: دار سحنون، ط1، 2021م)، ج3 ص313-315.

وقد ذكرت المحرمات: بعضها بصيغة النهي، وبعضها بصيغة الأمر الصريح أو المؤول، لأن الأمر بالشيء يقتضي النهي عن ضده.

وهذه الوصايا العشر وصايا من الله تعالى لبناء مجتمع إنساني كامل، يقوم على أساس التعاون الإنساني والمودة ودفع الأذى ووقاية المجتمع من الآفات ورعاية الضعفاء.

تفسير الآيات

قال الله تعالى:

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُؤْمَرْ بِمَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكَُمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: 151-153].

معاني المفردات والتراكيب:

- اتل: التلاوة هي القراءة التي يعقبها تأمل وفهم وعمل.
- الإملاق: الفقر، أو الإنفاق المؤدي إلى الفقر والجوع.
- الفواحش: جمع فاحشة، وهي كل ما قبح واشتد قبحه من الأفعال والأقوال.
- إلا بالحق: بالحق الذي أعطاه الله للناس لإزهاق تلك النفس، مثل القصاص.
- التي هي أحسن: الخصلة التي هي أحسن.
- أشده: الاحتلام مع سلامة العقل.
- القسط: العدل.
- وسعها: طاقتها وما تتسع له.
- تذكرون: تتذكرون فتتعتظون.
- السُّبُل: جمع سبيل، وهي الطريق⁽¹⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 2 ص 138-139.

حوت الآيات السابقة إبطالاً لتحريم ما ادَّعى المشركون تحريمه في الآيات السابقة من لحوم الأنعام، وهذه الآيات انتقلت إلى دعوتهم لمعرفة المحرمات، التي حرّمها الله ﷻ على الحقيقة، وهذا أحق أن يعلموه مما اختلقوا من افتراءهم وموهوا بجدلهم. والمناسبة لهذا الانتقال ظاهرة، فالمقام مقام تعليم وإرشاد، ولذلك ابتدئ بأمر الرسول ﷺ بفعل القول استرعاء للأسماع⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

من أساليب البيان وإيصال المفاهيم والأحكام الثقافية في القرآن الكريم طريقة الوصية، الوصية من الله ﷻ لعباده، للدلالة على عظم الموصى به، وقد جاءت هذه الآيات ضمن هذا الأسلوب.

افتتاح الآيات:

قال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُلِ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾: خاطب الله ﷻ نبيه ﷺ بـ ﴿قُلْ﴾، وهذا يدل على أنه يطلب منه التبليغ لما سيأتي، وهذا فيه زيادة اهتمام واعتناء بالآتي. طلب ﷻ من نبيه ﷺ أن يقول للمشركين، الذين حرّموا وأحلوا وفق أمزجتهم، كما بينت الآيات السابقة، أن يقوموا ويأتوا إليه ﷺ، ليقرأ عليهم آيات الله ﷻ التي تبين ما أحل وما حرم، فالتحريم والتحليل من شأنه ﷻ، حتى لا تتحكم به الأهواء. وكان الأمر بأن يقول لهم ﷻ: تعالوا، أيها القوم وأقبلوا، لكي أقرأ عليكم ما حرم ربكم حقاً يقيناً، لا الباطل الذي بنيتموه على الظن وعلى الكذب على الله، ولكن ما أتلوه عليكم وحياً من الله أوحاه إليّ، وتنزيلاً أنزله عليّ.

واستعمال فعل: ﴿تَعَالَوْا﴾: اهتمام بالغرض المنتقل إليه بأنه أجدى عليهم من تلك السفاسف التي اهتموا بها، ليعلموا البون بين ما يدعون إليه قومهم وبين ما يدعوهم إليه الإسلام، من جلائل الأعمال، فيعلموا أنهم قد أضاعوا أزمانهم وأذهانهم. والتلاوة، كما نراها، في استعمال القرآن الكريم تعني: القراءة التي يتبعها الفهم والعمل. ثم شرع ببيان تلك الوصايا، وهي:

(1) أبو الثناء شهاب الدين محمود بن عبد الله الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، تحقيق: ماهر حبوش، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 2010م)، ج8 ص494.

الوصية الأولى: قوله ﷺ: ﴿أَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾، النهي عن الشرك:

ألا تشركوا بالله شيئاً من خلقه، ولا تعدلوا به الأوثان والأصنام، ولا تعبدوا شيئاً سواه، وقد مرَّ بنا أنَّ الشرك هو صرف شيء من العبادة لغير الله ﷻ، وأنَّ الشرك هو أكبر معصية، وهو أكبر كبيرة، وهو الذنب الذي لا يُغفر، وأنَّ الجنة مُحَرمة على المشركين، وأنَّ مأوى المشركين النار خالدين فيها.

و﴿أَلَا﴾: أصلها «أن» التفسيرية و«لا» الناهية.

والابتداء بالنهي عن الإشراك، لأنَّ إصلاح الاعتقاد هو مفتاح باب الإصلاح في العاجل، والفلاح في الآجل، ولأنَّ الشرك أعظم المحرمات وأكبر الكبائر.

﴿شَيْئًا﴾: من الإشراك، أو شيئاً من الأشياء مما يشرك به.

الوصية الثانية: قوله تعالى: ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾، الوصية بالإحسان للوالدين:

تقول الآية: ومما وصاكم به ربكم أن تحسنوا للوالدين إحساناً تاماً كاملاً، لا تدخرون فيه وسعاً، ولا تألون فيه جهداً، وهذا يستلزم ترك الإساءة وإن صغرت، فكيف بالعقوق؟ وهو من أكبر كبائر المحرمات.

وإنما ثنَّي بهذا التكليف، لأنَّ المؤثر الحقيقي في وجود الإنسان هو الله ﷻ، وفي الظاهر هو الوالدان، ثم نعمهما على الإنسان عظيمة، وهي نعمة التربية والشفقة والحفظ عن الضياع والهلاك في وقت الصغر.

والله تعالى أمر بالإحسان إلى الوالدين مقترباً بالنهي عن الشرك في آيات آخر، فقال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [النساء: 36]، وكذلك قرن بين شكر الوالدين وشكر الله وجمعهما معاً، فقال تعالى: ﴿أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14].

والإحسان إلى الوالدين شريعة النبيين أجمعين قد كلفها الله بني إسرائيل، قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83].

وقد أفردنا في هذا الكتاب مقلاً خاصاً بـ «بر الوالدين» سيأتي -إن شاء الله-.

الوصية الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ

وَأَيَّاهُمْ﴾، الوصية بالنهي عن قتل الأولاد خشية الفقر:

ثم عَقِبَ ﷺ التكليف المتعلق بالوالدين بالتكليف المتعلق بالأولاد لكمال المناسبة، فأوصى تبارك وتعالى الآباء بعدم قتل الأبناء من ذكور وإناث خشية الفقر، فإنه ﷺ هو الرزاق، فرزق الأبناء على الله كما أن رزق الآباء على الله ﷺ.

وذلك أن المشركين كانوا يقتلون أولادهم، فكانوا يئدون البنات خشية العار، وربما قتلوا بعض الذكور خشية الافتقار أو بسببه، ولهذا ورد في الحديث عن عبد الله بن مسعود ﷺ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، أَيُّ الذَّنْبِ أَعْظَمُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً، وَهُوَ خَلَقَكَ»، قَالَ: قُلْتُ لَهُ: إِنَّ ذَلِكَ لَعَظِيمٌ. قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ ﷺ: «ثُمَّ أَنْ تَقْتُلَ وَلَدَكَ مَخَافَةَ أَنْ يَطْعَمَ مَعَكَ»، قَالَ: قُلْتُ: ثُمَّ أَيُّ؟ قَالَ ﷺ: «ثُمَّ أَنْ تُزَانِيَ حَلِيلَةَ جَارِكَ»، وأنزل الله تصديق قول النبي ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ﴾ [الفرقان: 68] (1).

وقد نهى الله تعالى عن ذلك الإثم الجاهلي، وهو من إغواء الشياطين، وبينت الآية أن سببه الإملاق، والإملاق: الفقر والجوع. وجاء في سورة الإسراء قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء: 31]، أي: لا تقتلوهم خوفاً من أن تفتقروا في الآجل. فقتل الأبناء إما لكون الوالد فقيراً لا يستطيع الإنفاق على أولاده في الحال وإما أنه يخشى مع كثرة العيال الفقر في المستقبل. فقال ﷺ في الإسراء بناء على السبب هناك: ﴿ثُمَّ نَزَرْنَاهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، فبدأ برزقهم للاهتمام بهم، أي: لا تخافوا من فقركم بسبب رزقهم، فهو على الله ﷺ. وأما هنا فلمّا كان الفقر حاصلًا، قال: ﴿ثُمَّ نَزَرْنَاهُمْ وَإِيَّاكُمْ﴾، لأنه الأهم هنا. الوصية الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَّنَ﴾، الوصية بالنهي عن قربان الفواحش بأنواعها:

ولما وصّاهم الله بالآباء والأبناء وهم عماد الأسرة، وصّاهم بأهم الأسس التي تقوم عليها الأسرة، وهو النظافة والطهارة والعفة، فلا يمكن قيام أسرة، ولا استقامة مجتمع، في وحلّ الفواحش، فلا بدّ من طهارة ونظافة وعفة لتقوم الأسرة وليقوم المجتمع.

وتعليق النهي بقربانها ﴿وَلَا تَقْرُبُوا﴾، إما للمبالغة في الزجر عنها لقوة الدواعي إليها، وإما لأنّ قربانها داع إلى مباشرتها ومظنة الوقوع فيها.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: قتل الولد خشية أن يأكل معه، رقم (5655). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (86).

وَالْفَوَاحِشُ: جمع فاحشة، والأصل في الفُحش الزيادة عن الأمر المعتدل، والفاحش هو الزائد عن المعقول، فالفاحشة المعصية القبيحة العظيمة، وهو وصفٌ لصيقٌ بالمعاصي الجنسية ومقدماتها، لذا وجدنا كلمة الفاحشة في السياقات القرآنية ترد في سياق ما يتعلق بالمعاصي الجنسية، ومن هنا حصرها بعض المفسرين بالزنا.

وجمع الفَوَاحِشُ إما لتنوعها إذا أُريد بها المعاصي المتعددة، وإما للمبالغة وإما باعتبار تعدد من يصدر عنه إن أُريد بها الزنا فقط.

و«ما ظهر منها»: ما يظهره من الزنا وأضرابه ولا يخفونه، مثل: ما يفعله الفجار في الحوانيت وديار البغايا، و«ما بطن»: ما يستخفون به ولا يظهره، مثل: اتخاذ الأخدان سرًا.

وإذا كانت الفواحش هي المعاصي عامة، فالمعاصي منها ما هو ظاهر يراه الخلق، وهي معاصي الجوارح، ومنها ما هو باطن وهي معاصي القلوب.

وهنا نشير إلى أن هناك من يستتر عند اقترافه للذنوب ولم يجاهر بها، ولا شك أن هذا حاله دون من يجاهر بالمعاصي، فإن من يجاهر وقع في إثمين، إثم الفعل وإثم المجاهرة، ولخطورة المجاهرة بالإثم قال ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي مُعَاْفَى إِلَّا الْمُجَاهِرِينَ، وَإِنَّ مِنَ الْمُجَاهِرَةِ أَنْ يَعْمَلَ الرَّجُلُ بِاللَّيْلِ عَمَلًا، ثُمَّ يُصْبِحَ وَقَدْ سَتَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَيَقُولُ: يَا فَلَانُ، عَمِلْتَ الْبَارِحَةَ كَذَا وَكَذَا، وَقَدْ بَاتَ يَسْتُرُهُ رَبُّهُ، وَيُصْبِحُ يَكْشِفُ سِتْرَ اللَّهِ عَنْهُ» (1).

هذا وإن وجه توسيط هذا النهي، بين النهي عن قتل الأولاد والنهي عن القتل مطلقاً، أن الفواحش جناية عظيمة فهي في حكم قتل الأولاد، فإن الزنا قد يُفضي إلى قتل المواليد منه أو الإجهاض، وفوق ذلك فهو قتل معنوي للمجتمع ولأهم مؤسسة في المجتمع.

الوصية الخامسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾، **الوصية بالنهي عن قتل النفس التي حرّمها إلا بالحق:**

أعقب ﷺ النهي عن الفواحش بالنهي عن قتل النفس، لأنه من الفساد العظيم، فنهى في هذه الوصية عن قتل النفس التي حرم الله قتلها، إلا بالحق، فلا يجوز قتل إنسان، أي إنسان، فالتعريف في «النفس» تعريف الجنس الذي يفيد الاستغراق.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب ستر المؤمن على نفسه، رقم (6069). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزهد والرقائق، باب النهي عن هتك الإنسان ستر نفسه، رقم (2990).

وبغير حق: من غير سبب من الأسباب الشرعية التي رفع الله ﷻ بها عن الإنسان عصمة الدم.

وقد فصل الإسلام هذا الحق في قتل النفس في القرآن والسنة، وهو: قتل المحارب، والنفس بالنفس، وهذان بنص القرآن، وقتل المرتد عن الإسلام بعد استتابته، التارك لدينه المفارق للجماعة، وقتل الزاني المحصن، وقتل الممتنع عن أداء الصلاة بعد إنظاره حتى يخرج وقتها، وهذه الثلاث وردت بها أحاديث عن النبي ﷺ، ومنه قتل من يقتل من البغاة وهو بنص القرآن، وقتل من يقتل من مانعي الزكاة وهو بإجماع الصحابة ﷺ.

وقد عظم الله جرم القتل، فقال ﷺ: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا﴾ [النساء: 93]، وكذلك عظم النبي ﷺ شأن هذه الجريمة، فقد جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يَزَالُ الْمُؤْمِنُ فِي فُسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبَّ دَمًا حَرَامًا»⁽¹⁾.

ويكثر في السياق القرآني مجيء النهي عن هذه المنكرات الثلاثة متتابعة: الشرك، والزنا، وقتل النفس، لأنها كلها جرائم قتل في الحقيقة!

الجريمة الأولى جريمة قتل للفطرة، والثانية جريمة قتل للجماعة، والثالثة جريمة قتل للنفس المفردة. فالفطرة التي لا تعيش على التوحيد فطرة ميتة، والجماعة التي تشيع فيها الفاحشة جماعة ميتة، منتهية حتمًا إلى الدمار. والمجتمع الذي تشيع فيه المقاتل والثارات، مجتمع مهدد بالدمار، ومن ثم يجعل الإسلام عقوبة هذه الجرائم هي أقسى العقوبات، لأنه يريد حماية مجتمعه من عوامل الدمار.

التعقيب على هذه الوصايا الخمس المتقدمة: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أشار في نهاية نهيهِ عن نوع من المحرمات، وهي المحرمات الراجع تحريمها إلى إصلاح الحالة الاجتماعية للأمة، بإصلاح الاعتقاد، وحفظ نظام العائلة والانكفاف عن المفساد، وحفظ النوع بترك القتل، بأنها وصية من الله تعالى، والتوصية هي الطلب المؤكد من العباد.

﴿لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾: أي: رجاء أن يعقلوا، لأن ملابسة بعض هذه المحرمات تنبئ عن خساسة في العقل، بحيث يُحسب فاعلوها بمنزلة من لا يعقل، فلذلك رجي أن يعقلوا.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الديات، رقم (6469).

الوصية السادسة: قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾، النهي عن أموال اليتامى إلا بالتي هي أحسن:

السادسة من وصايا ربكم فيما حَرَّمَ وأوجب عليكم: ﴿وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ﴾ إذا وليتم أمره أو تعاملتم به، ولو بوساطة وصيه أو وليه.

والنهي عن قربان الشيء أبلغ من النهي عنه، لأنه يتضمن النهي عن الأسباب والوسائل التي تؤدي إليه وتوقع فيه، وعن الشبهات التي تحتل التأويل فيه، فيحذرهما التقى، إذ يعدها هضمًا لحق اليتيم.

ولما اقتضى هذا الأسلوب بالنهي تحريم التصرف في مال اليتيم بالمطلق، ولو بالخرن والحفظ، وذلك يعرض ماله للتلف، استثنى منه قوله: ﴿إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أي: إلا بالفعل أو الأفعال أو بالحالة التي هي أحسن ما يفعل بماله، وهي النافعة التي لا ضرر فيها لليتيم ولا لماله، من حفظه وتنميره وتنميته ورجحان مصلحته، والإنفاق منه على تربيته وتعليمه ما يصلح به معاشه ومعاده.

و﴿حَتَّى﴾: غاية للنهي عن هذا القرب لمال اليتيم، وما فيه من المبالغة في الترهيب عن التعامل فيه.

﴿يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾: البلوغ: الوصول، وهو هنا مجاز في التدرج في أطوار القوة المخرجة من وهن الصبا.

والأشد: هو من الشدة، أي القوة أو الارتفاع، اسم يدل على قوة الإنسان، وهو مشتق من الشد، وهو التوثق، والمراد به في هذه الآية ونظائرها، مما الكلام فيه على اليتيم، بلوغه القوة التي يخرج بها من ضعف الصبا، وتلك هي البلوغ مع صحة العقل، لأنَّ المقصود بلوغه أهلية التصرف في ماله، قال تعالى في آية أخرى: ﴿وَابْتَغُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا﴾ [النساء: 6].

وكان اليتيم في المجتمع العربي في الجاهلية ضائعًا، حتى انتدب الله يتيماً كريماً، فعهد إليه بأشرف مهمة في الوجود، حين عهد إليه بالرسالة إلى الناس كافة، وجعل من آداب هذا الدين الذي بعثه به رعاية اليتيم وكفالاته على النحو الذي نرى منه هذا التوجيه.

الوصية السابعة: قوله تعالى: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا تُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أوصى الله بالأمر بإيفاء المكيال والميزان بالقسط:

والسابع مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم: ﴿وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ﴾، أي: أن أوفوا وأتموا تمامًا كاملاً الكيل، إذا كُلتُم للناس أو اكتلتُم عليهم لأنفسكم، وأوفوا وأتموا تمامًا كاملاً الميزان إذا وزنتم لأنفسكم فيما تبتاعون أو لغيركم فيما تبيعون، فليكن كل ذلك وافيًا تمامًا بالقسط، أي: العدل، متحرين بذلك القسط والعدل ولا تظلموا أحدًا حقه، من مكيل أو موزون.

ولا تكونوا من المطففين: ﴿الَّذِينَ إِذَا أَكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ۝ وَإِذَا كَالُواهُمْ أَوْ زَنَواهُمْ يُخْسِرُونَ﴾ [المطففين: 2-3]، أي: ينقصون الكيل والوزن، وهم الذين توعدهم الله بالويل والهلاك في أول السورة التي سُميت باسمهم. فقد كان المشركون يبيعون التمر والزبيب كيلاً، وكانوا يتوازنون الذهب والفضة، فكانوا يطففون حرصاً على الربح، فلذلك أمرهم بالوفاء.

ثم قال ﷺ: ﴿لَا تُكَيِّفْ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾، أي: مَنْ اجتهد في أداء الحق وأخذه، فإن أخطأ بعد استفراغ وسعه وبذل جهده، فلا حرج عليه.

والمقصود من هذا الاحتراس ألا يترك الناس التعامل بينهم خشية الغلط أو الغفلة، فيفضي ذلك إلى تعطيل منافع جمّة.

وإن الوفاء في الكيل والميزان يرمز إلى حسن التعامل في الأمة، ومنع أكل أموال الناس بالباطل الذي يضعفها ويقتلها.

الوصية الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، أوصى الله وأمر بقول الحق والعدل فيه، ولو كان على أولي القربى:

والثامن مما أتلوه عليكم من وصايا ربكم هو: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾، أي: أن تعدلوا في القول إذا قلتم قولاً في شهادة أو حكم على أحد، ولو كان المقول في حقه ذلك القول صاحب قرابة منكم.

فالعدل واجب في الأقوال، كما أنه واجب في الأفعال كالوزن والكيل، لأنه هو الذي تصلح به شؤون الناس، فهو ركن العمران وأساس الملك وقطب رَحَى النظام للبشر في جميع أمورهم الاجتماعية، فلا يجوز لمؤمن أن يحابي فيه أحدًا لقرباته ولا لغير ذلك، كما قال في آية أخرى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: 135].

والعدل في ذلك ألا يكون في القول شيء من الاعتداء على الحقوق بإبطالها، أو إخفائها، مثل كتمان عيوب المبيع، وادعاء العيوب في الأشياء السليمة، والكذب في الأثمان، كأن يقول التاجر: أعطيت في هذه السلعة كذا، لثمن لم يعطه، أو أن هذه السلعة قامت عليّ بكذا. ومنه التزام الصدق في التعديل والتجريح وإبداء النصيحة في المشاورة، وقول الحق في الصلح.

وإذا وعد القائل لا يخلف، وإذا أوصى لا يظلم أصحاب حقوق الميراث، ولا يحلف على الباطل، وإذا مدح أحدًا مدحه بما فيه.

وأما الشتم والطعن فالإمسак عنه واجب ولو كان حقًا، فذلك الإمساك هو العدل، لأن الله أمر به.

ومجيء أداة الشرط في قوله: ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ﴾ إشارة إلى أن المرء في سعة من السكوت إن خشي قول العدل. وأما أن يقول الجور والظلم والباطل فليس له سبيل إلى ذلك، والكذب كله من القول بغير العدل، على أن من السكوت ما هو واجب.

﴿وَلَوْ كَانْ ذَا قُرْبَى﴾، ومعنى القربى: القرابة، أي: إذا قلت قولًا لأجله أو عليه فاعدلوا، ولا تقولوا غير الحق، ولا لدفع ضرره بأن تغمصوا الحق الذي عليه، ولا لنفعه بأن تخلقوا له حقًا على غيره أو تبرئوه مما صدر منه على غيره.

الوصية التاسعة: قوله تعالى: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾، أوصى وأمر بإيفاء العهد:

التاسعة من وصايا ربكم: ﴿وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا﴾ أن توفوا بعهد الله دون ما خالفه، وهو يشمل ما عهده الله ﷻ إلى الناس على السنة رسله، وبما آتاهم من العقل والوجدان والفتوة السليمة، وما يعاهده الناس عليه، وما يعاهد عليه بعضهم بعضًا في الحق موافقًا للشرع. وتقدير الجار المجرور ﴿وَبِعَهْدِ﴾: للاهتمام بأمر العهد وصرف ذهن السامع عنه، ليتقرر في ذهنه ما يرد بعده من الأمر بالوفاء، أي إن كنتم ترون الوفاء بالعهد مدحة فعهد الله أولى بالوفاء وأنتم قد اخترتموه.

فهذه الآية تحت على الوفاء بما يكون من العهود بين الآحاد والجماعات، وهي تدل على ثلاثة أمور:

أولها: أن من وثق عهده بالله ﷻ فقد جعل الله تعالى كفيلاً بالوفاء، والخيانة أو خفر العهد خيانة لله تعالى.

ثانيها: أنَّ الوفاء بالعهد يقوي الأمة فيجعل الناس يثقون بها، وتلك قوة، ولذلك شبه الله تعالى من ينقض عهده بالحمقاء التي تنقض ما فتلتها من غزل، فتجعله أنكاثًا شعرا متفرقا.

ثالثها: أنه لا يصح أن تكون الرغبة في زيادة الأرض والسلطان سببًا لخيانة العهد، لأنَّ ذلك ظلم وطغيان، وفقد لقوة أكبر وأعز من النكث في العهد والخيانة.

التعقيب على هذه الوصايا: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾:

﴿ذَلِكُمْ﴾: أي ما فصل من التكاليف الجليلة.

﴿وَصَّاكُم بِهِ﴾: أوصاكم به وأمركم به أمرًا مؤكدًا.

﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾: رجاء أن تتعظوا وتنتهوا عما كنتم فيه قبل هذا.

والذكر ضد الغفلة، والقلب الذاكر غير الغافل، وهو يذكر عهد الله كله، ويذكر وصاياه المرتبطة بهذا العهد ولا ينساها.

وجاء مع هذه الوصية بقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، لأنَّ هذه المطالب الأربعة عُرف بين العرب أنها محامد، فالأمر بها، والتحريض عليها تذكير بما عرفوه في شأنها، ولكنهم تناسوه بغلبة الهوى وغشاة الشرك على قلوبهم.

الوصية العاشرة: قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾، أمر الله باتباع صراط الله المستقيم ونهى عن التفرق واتباع السبل:

وبعد أن ساق ﷺ ما تقدم من الوصايا وطلب العمل بما جاء من الأوامر، وترك ما نهى عنه ﷺ، وحصل بذلك البيان والإرشاد من تلك الوصايا الجامعة، فأتضح طريق الحق وبيان، فقال ﷺ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا﴾.

ومعنى ذلك: اتل عليهم، وبين لهم أنَّ ما سبق هو الصراط المستقيم الذي لا عوج فيه، فالإشارة بـ ﴿هَذَا﴾ إلى ما يبينه الله تعالى من ضلال الذين يحرمون ما أحل الله ﷻ، وبيان ما أحل وما حرم، وبيان ضلال من قتلوا أولادهم سفهاً بغير علم، وما بينه الله تعالى من نهي عن الشرك، وطلب الإحسان إلى الوالدين، والنهي عن القرب من الفواحش والنهي، وعن قتل النفس التي حرم الله قتلها، والأمر بالإحسان إلى اليتيم، ووفاء الكيل والميزان، والعدل في القول والوفاء بعهد الله. كل هذه المعاني، أو جماعها هو طريق الله تعالى وهو طريق مستقيم.

والصراط: الطريق الواسع.

﴿مُسْتَقِيمًا﴾، أي: لا اعوجاج فيه، لأنَّ الطريق المستقيم أيسر سلوكًا على السائر وأسرع وصولًا به.

والياء المضاف إليها صراط ﴿صِرَاطِي﴾ تعود على الله أو الرسول ﷺ، وإضافة الصراط إلى الله ﷻ هي من حيثُ الوضع، وإلى النبي ﷺ من حيث السلوك والدعوة، أي: هذا صراط الله أو هذا الصراط الذي أسلكه، أي النبي، وأدعو إليه، مستقيمًا لا اعوجاج فيه. ثم أمرهم باتباعه، فقال: ﴿فَاتَّبِعُونِي﴾، أي: اقتفوا أثره واعملوا به.

﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ﴾: أي الضلالات والبدع والشبهات وغيرها من السُّبُل المخالفة لهذا المنهج القويم، التي هي مثرات الشيطان من الآثام وآثارها من البعد عن الحق والتفرق في باطلها.

والسبل: الطرق الفرعية، وهي التي يسمونها: بنايات الطريق، وهي طرق تتشعب من السبيل الجادة ذاهبة، يسلكها بعض المارة فرادى إلى بيوتهم أو مراعيهم فلا تبلغ إلى بلد ولا إلى حي، ولا يستطيع السير فيها إلا من عقلها واعتادها.

ووقعها هنا في مقابلة الصراط المستقيم يدل على صفة محذوفة، أي: السبل المتفرقة غير المستقيمة.

وسبب النهي: ﴿فَتَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾، أي فإنَّها طرق متفرقة فهي تجعل سالكيها متفرقًا عن السبيل الجادة.

الأصل في ﴿فَتَتَفَرَّقَ﴾: «فتتفرق» فحذفت إحدى التاءين.

والضمير المضاف إليه في: ﴿سَبِيلِهِ﴾: يعود إلى الله تعالى بقرينة المقام.

وقد جاء في الحديث عن ابن مسعود ؓ قال: خَطَّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ»، ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ»، -قال يزيد: متفرقة-، «عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُونِي وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾⁽¹⁾.

التعقيب الثالث: ﴿ذَلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

الإشارة إلى الصراط، والوصاية به معناها الوصاية بما يحتوي عليه.

وجعل الرجاء للتقوى، لأنَّ هذه السبيل تحتوي على ترك المحرمات، وتزيد بما تحتوي عليه من فعل الصالحات، فإذا اتبعها السالك فقد صار من المتقين، أي: الذين اتَّصفوا بالتقوى بمعناها الشرعي.

وكرر سبحانه الوصية لمزيد التأكيد⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من الآيات:

يستفاد من دراسة هذه الآيات:

- 1 - هذه الوصايا العشر عليها مدار الإسلام وسعادة الإنسان في الدارين.
- 2 - أولى خطوات الإصلاح تكون بإصلاح التصور والعقيدة.
- 3 - حرمة الشرك وحقوق الوالدين وقتل الأولاد والزنا واللواط وكل قبيح من قول أو عمل أو اعتقاد وقتل النفس إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وبخس الكيل والوزن، وقول الزور وشهادة الزور، ونكث العهد وخلف الوعد، والردة عن الإسلام، واتباع المذاهب الباطلة والطرق الضالة.
- 4 - كمال العقل باجتنب المحرمات.
- 5 - النجاة من عذاب الله في الدارين بالتزام الإسلام حتى الموت والبراءة من غيره من سائر المذاهب والملل والطرق.
- 6 - خطورة التفرق في الدين⁽²⁾.

(1) انظر تفسير الآيات في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 8 ص 494-506. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 4 ص 109-153. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 364-365.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 2 ص 142.

السورة الثالثة: آخر سورة الفرقان

صفات عباد الرحمن

بين يدي الآيات:

هذه الآيات خاتمة سورة الفرقان، وهذه السورة ليس لها اسم غير هذا الاسم، ووجه تسميتها به لوقوع لفظ الفرقان فيها: ثلاث مرات في أولها ووسطها وآخرها. وهي سورة مكية عند الجمهور.

وعدد آيات سورة الفرقان سبع وسبعون آية في قول جميع القراء. وروي أنها السورة الثانية والأربعون في ترتيب النزول، نزلت بعد سورة يس وقبل سورة فاطر⁽¹⁾.

تفسير الآيات:

يقول تعالى:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ۝
وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا ۝
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۝
إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝
وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا
وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا ۝
وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۝
يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا ۝
إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدِلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ
حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ۝
وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا ۝
وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا ۝
وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا ۝
وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا ذُرِّيَّتًا فَقَرَّةً أَعْيُنٍ
وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا ۝
أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا ۝
خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا ۝
قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ
فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا ۝﴾ [الفرقان: 63-77].

معاني المفردات والتراكيب:

(1) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 8 ص 234.

- هَوْنًا: الهون مصدر بمعنى اللين والرفق، أي: يمشون بسكينة ووقار وتواضع.
- قالوا سَلَامًا: قولًا يَسْلَمُونَ به من الإثم، أو المراد التحية بالسلام.
- يَبِيتُونَ: كل من أدركه الليل فقد بات، نام أو لم ينم، يقال: بات فلان قَلَقًا.
- سَجَّدًا: جمع ساجد.
- وقيامًا: جمع قائم.
- غَرَامًا: الهلاك المُلح الدائم لا يفارق صاحبه، وغلب إطلاقه على الشر المستمر.
- ساءت: بُئِست هي.
- والمُسْتَقَر: مكان الاستقرار، والاستقرار: قوة القرار.
- والمُقام: اسم مكان الإقامة.
- لم يسرفوا: لم يبذروا. فالإسراف: مجاوزة الحد في النفقة.
- ولم يقتروا: لم يضيّقوا. فالإقتار: التقصير عما لا بد منه.
- قَوَامًا: القَوَام: العدل والقصد بين الطرفين، سمي به لاستقامة الطرفين وتعادلتهما، كأنَّ كلاً منهما يقاوم الآخر، والمراد به هنا ما يقام به الحاجة لا يفضل عنها ولا ينقص.
- يدعون: يعبدون، فالدعاء بمعنى العبادة.
- يلق أثامًا: أي عقوبة شديدة جزاء إثمه.
- لا يشهدون: لا يحضرون مجالس الباطل أو لا يشهدون الشهادة على الحقوق.
- الزور: الكذب والباطل والحرام.
- باللغو: أي بالكلام السيئ القبيح وكل ما لا خير فيه.
- كرامًا: معرضين عنه مكرمين أنفسهم عن سماعه أو المشاركة فيه.
- ذكروا بآيات ربهم: وعظوا بآيات القرآن.
- لم يخروا: الخور: السقوط على غير نظام وترتيب.
- قرة أعين: أي ما تقر به أعيننا، وهو أن نراهم مطيعين لك يعبدونك وحدك.
- للمتقين: عبادك الذين يتقون سخطك بطاعتك.
- إمامًا: قدوة يقتدون بنا في الخير.
- الغرفة: البيت المعتلي يُصعد إليه بدرج، وهو أعز منزلًا من البيت الأرضي.

- ما يعبأ بكم ربي: أي ما يكثرث ولا يعتد بكم ولا يبالى⁽¹⁾.

مناسبة الآيات لما قبلها:

لما ذكرت السورة الكفار بالفظاظة والغلظة على النبي ﷺ وعداوتهم له ومظاهرتهم على خالقهم، وختم الحديث عنهم وعن عدم انتفاعهم بالآيات الكونية، فعباد الشيطان لا يتذكرون، ولا يشكرون لما لهم من القسوة.

عطف على هذا المقدّر أضدادهم واصفًا إياهم بأضداد أوصافهم مبشرًا لهم بضدّ جزائهم، فقال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾ فأضافهم إليه ونسبهم إليه لاصطفائه إياهم ورفعته لهم، وإضافتهم إلى صفة الرحمن أبلغ عندما أنكر الكفار هذه الصفة.

التفسير الإجمالي:

﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ﴾:

سبق في السورة تجاهل المشركين واستنكارهم لاسم «الرحمن» فها هي الآيات تعرض صفات عباد الرحمن، الذين يعرفون الرحمن، ويستحقون أن يُنسبوا إليه، وأن يكونوا عبادَه. المراد بـ «عباد الرحمن» أصحاب رسول ﷺ فالصفات التي وُصفوا بها في هذه الآيات حكاية لأوصافهم التي اختصوا بها، ولما أُجريت عليهم تلك الصفات في مقام الثناء والوعد بجزاء الجنة، علم أنّ مَنْ اتصف بتلك الصفات موعود بمثل ذلك الجزاء الذي وعدوا به.

وقد شَرَّفهم الله ﷻ بأن جعل عنوانهم «عباده»، واختار لهم من الإضافة إلى اسمه اسم «الرحمن» لوقوع ذكرهم بعد ذكر الفريق الذين: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ أَنَسْجُدُ لِمَا تَأْمُرُنَا وَزَادَهُمْ نُفُورًا﴾ [الفرقان: 60].

واعلم أن هذه الصلوات التي أُجريت على «عباد الرحمن» جاءت على أربعة أقسام:

1 - قسم هو من التحلي بالكمالات الدينية، وهي التي ابتدئ بها من قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَشْكُرُونَ عَلَى الْأَرْضِ هُونَ﴾ إلى قوله: ﴿سَلَامًا﴾.

2 - وقسم هو من التخلي عن ضلالات أهل الشرك، وهو الذي من قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾.

3 - وقسم هو من الاستقامة على شرائع الإسلام، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾، وقوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج3 ص628-629 و632-633.

قَوَامًا، وقوله: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ إلى قوله: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ الخ.

4 - وقسم من تطلب الزيادة من صلاح الحال في هذه الحياة، وهو قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا﴾ إلى قوله: ﴿الْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾.

الصفة الأولى: ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا﴾:

السمة الأولى من سمات عباد الرحمن، أنهم يمشون على الأرض مشية سهلة هينة، إذ المشية ككل حركة تعبير عن الشخصية، وعمّا يستكن فيها من صفات، والنفس السوية المطمئنة الجادة القاصدة، تظهر صفاتها هذه في مشية صاحبها، فيمشي مشية سوية مطمئنة جادة قاصدة، فيها وقار وسكينة، وفيها جد وقوة.

وتقييد المشي بأنه ﴿عَلَى الْأَرْضِ﴾، ليكون في وصفه بالهون ما يقتضي أنهم يمشون كذلك اختيارًا، وليس ذلك عندما يضطرون إلى هذه المشية.

والمشي الهون: هو الذي ليس فيه ضرب بالأقدام وخفق النعال، فهو مخالف لمشي المتجبرين المعجبين بنفوسهم وقوتهم.

وهذا الهون ناشئ عن التواضع لله تعالى والتخلق بآداب النفس العالية وزوال بطر أهل الجاهلية، فكانت هذه المشية من صفات الذين آمنوا على الضد من مشي أهل الجاهلية.

والمراد بوصف مشيتهم مدحهم بعدم الخشونة والفظاظة في سائر أمورهم وتصرفاتهم، والمراد أنهم يعيشون بين الناس هينين في كل أمورهم، وذكر المشي لما أنه انتقال في الأرض، وهو يستدعي معاشرة الناس ومخالطتهم، واللين مطلوب فيها غاية الطلب.

والتخلق بهذا الخلق مظهر من مظاهر التخلق بالرحمة المناسب لعباد الرحمن، لأن الرحمة ضد الشدة، فالهون يناسب ماهيتها، وفيه سلامة من صدم المارين.

وليس معنى يمشون على الأرض هونًا أنهم يمشون متموتين منكسي الرؤوس، متداعي الأركان، متهاوي البنيان، كما يفهم بعض الناس ممن يريدون إظهار التقوى والصلاح! وهذا رسول الله ﷺ كان إذا مشى أسرع الناس مشية، وأحسنها وأسكنها، قال أبو هريرة: (مَا رَأَيْتُ شَيْئًا أَحْسَنَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَأَنَّ الشَّمْسَ تَجْرِي فِي وَجْهِهِ، وَمَا رَأَيْتُ أَحَدًا أَسْرَعَ فِي مَشْيِهِ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، كَأَنَّمَا الْأَرْضُ تُطْوَى لَهُ، إِنَّا لَنَجْهْدُ أَنْفُسَنَا، وَإِنَّهُ لَغَيْرُ مُكْتَرِبٍ⁽¹⁾).

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8943)، ج 14 ص 506.

وقال علي بن أبي طالب (ع): (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ...، إِذَا مَشَى تَكْفُؤًا تَكْفُؤًا كَأَنَّمَا يَنْحَطُّ مِنْ صَبَبٍ، لَمْ أَرْ قَبْلَهُ وَلَا بَعْدَهُ مِثْلَهُ ﷺ) (1)، وهي مشية أولي العزم والهمة والشجاعة.

الصفة الثانية: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾:

ثم جاء بيان لحالهم في المعاملة مع غيرهم بعد بيان حالهم في أنفسهم، أو بيان لحسن معاملتهم، وتحقيق للينهم عند تحقق ما يقتضي خلاف ذلك إذا خلى الإنسان وطبعه.

فقرن وصفهم بالتواضع في سمتهم وهو المشي على الأرض هوناً بوصف آخر يناسب التواضع وكراهية التطاول، وهو ترك الذين يجهلون عليهم في الخطاب بالأذى والشتم.

﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ﴾، أي: إذا خاطبهم بالسوء. ﴿الْجَاهِلُونَ﴾: الجاهلون يومئذ هم المشركون، إذ كانوا يتعرضون للمسلمين بالأذى والشتم فعلمهم الله ﷻ متاركة السفهاء، فالجهل هنا ضد الحلم، وذلك أشهر إطلاقاته عند العرب قبل الإسلام.

وذكرهم بصفة الجاهلين دون غيرها مما هو أشد مذمة مثل الكافرين، لأن هذا الوصف يشعر بأن الخطاب الصادر منهم خطاب الجهالة والجفوة.

﴿قَالُوا سَلَامًا﴾: وإذا خاطبهم الجاهلون بالقول السيئ لم يقابلوهم بمثله، بل قالوا كلاماً فيه سلام من الإيذاء والإثم، سواء كان بصيغة السلام كقولهم: (سلام عليكم)، أو غيرها مما فيه لطف في القول أو عفو أو صفح، وكظم للغیظ دفْعاً بالتي هي أحسن.

والآية في معنى قوله: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

والظاهر أن المراد مدحهم بالإغضاء عن السفهاء وترك مقابلتهم في الكلام.

وقولهم: ﴿سَلَامًا﴾ لا عن ضعف، ولكن عن ترفع، ولا عن عجز إنما عن استعلاء، وعن صيانة للوقت والجهد أن ينفقا فيما لا يليق بالرجل الكريم المشغول بما هو أهم وأكرم وأرفع.

فهم في جدهم ووقارهم وقصدهم لا يتلفتون إلى حماقة الحمقى وسفه السفهاء، ولا يشغلون بالهم ووقتهم وجهدهم في جدل أو عراك، وترفعون عن المهاترة مع الطائشين.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (746)، ج 2 ص 144.

الصفة الثالثة: ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾:

بيان لحالهم في معاملتهم مع ربهم، بعد بيان حالهم في معاملة الناس، فنهارهم مع الناس ﴿الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾، وأما ليلاً فهو التقوى ومراقبة الله، والشعور بجلاله، والخوف من عذابه ﴿وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾.

﴿وَالَّذِينَ﴾: إعادة الموصول لتأكيد أنهم يُعرفون بهذه الصلة.

﴿يَبِيتُونَ﴾: البيوتة أن يدركك الليل، نمت أو لم تنم.

﴿لِرَبِّهِمْ﴾: قُدم للتخصيص، أي: يتوجهون بذلك لربهم وحده، ويقومون له وحده، ويسجدون له وحده، إشارة إلى الإخلاص في أدائها وابتغاء وجهه الكريم.

وقدم أيضاً لمراعاة للفاصلة، التي هي ختام الآية، لكي تكون الآيات على جِرس واحد.

﴿سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾: والسجود والقيام ركني الصلاة، فالمعنى: يبيتون يصلون، أي: يحيون الليل كله أو بعضاً بالصلاة.

وإبراز السجود والقيام من الصلاة لتصوير حركة عباد الرحمن، في جُنب الليل والناس نيام، فهؤلاء قوم يبيتون لربهم سجداً وقِياماً، مشغولون عن النوم المريح اللذيذ، بما هو أروح منه وأمتع، وهو القيام والسجود لله.

وقدّم السجود على القيام للرعي الفاصلة، مع الإشارة إلى الاهتمام بالسجود، وهو ما بينه النبي ﷺ بقوله: «أَقْرَبُ مَا يَكُونُ الْعَبْدُ مِنْ رَبِّهِ وَهُوَ سَاجِدٌ فَأَكْثِرُوا الدُّعَاءَ»⁽¹⁾.

وكان الصحابة ؓ كثيري التهجد، كما أثنى الله عليهم بذلك بقوله: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [السجدة: 16].
وبالجملة الآية حض على قيام الليل في الصلاة.

الصفة الرابعة: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ۖ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾:

الذين يقولون داعين ذاكرين في أعقاب صلواتهم أو في عامة أوقاتهم: ﴿رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا﴾، أي: عذابها لازم دائم شديد.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9461)، ج 15 ص 274. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (482).

وهذا اللزوم إما للكفار وإما المراد به الامتداد، وهذا ما يجعله مروغاً مخيفاً شنيعاً، لذا جاء تفسيره: بالفظيع الشديد، وفسر بعضهم الغرام: بالهلاك الملح الدائم.

فهم في قيامهم وسجودهم وتطلعهم وتعلقهم تمتلئ قلوبهم بالتقوى، والخوف من عذاب جهنم. على الرغم من أنهم لم يروا جهنم، وإنما آمنوا بوجودها، وتمثلوا صورتها مما جاءهم في القرآن الكريم وعلى لسان رسول الله ﷺ، فهذا الخوف النبيل إنما هو ثمرة الإيمان العميق، وثمره التصديق.

ودعائهم هذا يوحي كأنما جهنم متعرضة لكل أحد، متصدية لكل بشر، فاتحة فاهها، تهم أن تلتهم، بأسطة أيديها تهم أن تقبض على القريب والبعيد! وهم في خوف منها يتضرعون إلى ربهم أن يصرف عنهم عذابها، وأن ينجيهم من تعرضها وتصديها!

وهذا أمانة على شدة مخافتهم من الذنوب، فهم يسعون في مرضاة ربهم لينجوا من العذاب، فالمراد بصرف العذاب: إنجائهم منه بتيسير العمل الصالح، وتوفيره، واجتناب السيئات.

وفي حكاية قولهم هذا مزيد مدح لهم ببيان أنهم مع حسن معاملتهم مع الخلق واجتهادهم في عبادة الخالق يخافون العذاب، ويبتهلون إلى ربهم ﷻ في صرفه عنهم غير محتفلين بأعمالهم، فهم لما يخالغ قلوبهم من التقوى يستقلون عملهم وعبادتهم، ولا يرون فيها ضمناً ولا أماناً من النار، إن لم يتداركهم فضل الله وسماحته وعفوه ورحمته، فيصرف عنهم عذاب جهنم، كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجَلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ﴾ [المؤمنون: 60].

﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾:

الجملة: يجوز أن تكون حكاية لكلام القائلين، وأن تكون من جانب الله ﷻ. أي: ساءت وبئس أن تكون جهنم موضعاً لمن يستقر فيها دون إقامة مثل عصاة أهل الأديان، ولمن يقيم فيها من المكذبين للرسل المبعوثين إليهم، فالمستقر للعصاة والمقام للكفرة.

الصفة الخامسة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾:

وهم في حياتهم نموذج القصد والاعتدال والتوازن: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا﴾، أي: لم يتجاوزوا حد الكرم، فالإسراف: تجاوز الحد الذي يقتضيه الإنفاق بحسب حال المنفق

وحال المنفق عليه. ﴿وَلَمْ يَفْشُرُوا﴾: أي: ولم يضيّقوا تضيق الشحيح. فالإقتار والقتّر: الإجحاف والنقص مما تسعه الثروة ويقضيه حال المنفق عليه.

وهذه سمة الإسلام التي يحققها في حياة الأفراد والجماعات، ويتجه إليها في التربية والتشريع، يقيم بناءه كله على التوازن والاعتدال.

والمسلم مقيد بالتوسط في الأمرين الإسراف والتقتير، فالإسراف مفسدة للنفس والمال والمجتمع، والتقتير مثله حبس للمال عن انتفاع صاحبه به وانتفاع الجماعة من حوله، فالمال أداة اجتماعية لتحقيق خدمات اجتماعية، والإسراف والتقتير يحدثان اختلالاً في المحيط الاجتماعي والمجال الاقتصادي، وحبس الأموال يحدث أزمات، ومثله إطلاقها بغير حساب، ذلك فوق فساد القلوب والأخلاق.

﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾: أي: وكان إنفاقهم بين ذلك المذكور من الإسراف والقتّر، وسطاً وعدلاً.

والظاهر أنّ المراد بالإنفاق ما يعم إنفاقهم على أنفسهم وإنفاقهم على غيرهم، والقوام في كل ذلك خير.

الصفة السادسة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ﴾:

هذا قسم آخر من صفات عباد الرحمن، وهو قسم التخلي عن المفاصد التي كانت ملازمة لقومهم من المشركين، فتنزه عباد الرحمن عنها بسبب إيمانهم، وذكر هنا تنزههم عن الشرك وقتل النفس والزنا، وهذه القبائح الثلاث كانت غالبية على المشركين.

فمن صفات عباد الرحمن أنّهم لا يتوجهون بأي شكل من أشكال العبادة لغير الله تعالى، فهم لا يشركون به ﷻ شيئاً.

والتوحيد أساس الإسلام، ومفرق الطريق بين الوضوح والاستقامة والبساطة في الاعتقاد، والغموض والالتواء والتعقيد، الذي لا يقوم على أساسه نظام صالح للحياة، وقد مدى كلام عن الشرك.

الصفة السابعة: ﴿وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ﴾:

فهم لا يتجرؤون على سفك دم إنسان حرم الله ﷻ قتله في الأصل، إلا إن كان معهم من الله سلطان وحق، من سبب من الأسباب يزيل حرمة النفس وعصمتها، كالزنا بعد الإحصان والكفر بعد الإيمان.

وهذا هو مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المُطمئنة التي تُحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن، وحياة الغابات التي لا يأمن فيها الإنسان على نفسه ولا يطمئن إلى عمل أو بناء.

الصفة الثامنة: ﴿وَلَا يَزْنُونَ﴾:

وهم قد عفوا أنفسهم فلم يسقطوا في رذيلة الزنا، وهذه العفة عن هذا الفعل القبيح مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التي يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيواني الغليظ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفاً أسمى من إشباع الشهوة.

وتكرير «لا» للدلالة على أن كل خصلة من هذه الخصال موجبة لمضاعفة العذاب.

التعقيب على الصفات: ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ۖ يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا﴾ [الفرقان: 68-69].

ومن أجل أن هذه الصفات الثلاث مفرق الطريق بين الحياة اللائقة بالإنسان الكريم على الله، والحياة الرخيصة الغليظة الهابطة إلى درك الحيوان، من أجل ذلك ذكرها الله في سمات عباد الرحمن، أرفع الخلق عند الله وأكرمهم على الله، وعقب عليها بالتهديد الشديد. ﴿وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ﴾، الإشارة بـ (ذلك) إلى ما ذكر من الكبائر.

﴿يَلْقَى أَثَامًا﴾ والمتبادر من الإشارة أنها إلى المجموع، أي: من يفعل مجموع الثلاث، ويعلم أن جزاء من يفعل بعضها ويترك بعضاً عدا الإشارك دون جزاء من يفعل جميعها، وأن البعض أيضاً مراتب، وليس المراد من يفعل كل واحدة مما ذكر يلق أثاماً، لأن لقي الأثام بين هنا بمضاعفة العذاب والخلود فيه. وقد نهضت أدلة متظافرة من الكتاب والسنة على أن ما عدا الكفر من المعاصي لا يوجب الخلود، مما يقتضي تأويل ظواهر الآية. والأثام: جزاء الإثم على زنة الوبال والنكال، وهو أشد من الإثم، أي: يجازى على ذلك سوءاً، لأنها آثام.

وفي بيان هذا الأثام وهذا الجزاء على ما اقترب من إثم، يقول تعالى: ﴿يُضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾: فهو عذاب يجمع بين مضاعفة العذاب يوم القيامة، وبين الخلود فيه مهاناً، فليس هو العذاب المضاعف وحده، وإنما هي المهانة كذلك، وهي أشد وأنكى.

ومضاعفة العذاب: أن يعذب على كل جرم مما ذكر عذاباً مناسباً، ولا يكتفى بالعذاب الأكبر عن أكبر الجرائم وهو الشرك، تنبيهاً على أن الشرك لا يُنجي صاحبه من تبعة ما

يقترفه من الجرائم والمفاسد، وذلك لأن دعوة الإسلام للناس جاءت بالإقلاع عن الشرك وعن المفاسد كلها.

وقيل: المراد بالمضاعفة الشدة، فكأنه قيل: ومن يفعل ذلك يعذب عذاباً شديداً، ويكون ذلك العذاب الشديد جزاء كل من تلك الأفعال ومماثلاً له.

﴿وَيَخْلُدُ فِيهِ﴾: فيه: أي في ذلك العذاب المضاعف، والخلود في العذاب اقتضاه الإشرار.

﴿مُهَانًا﴾: ذليلاً مستحقراً، فيجتمع له العذاب الجسماني والروحاني.

وقصد من هذه الحال تشنيع حالهم في الآخرة، أي: يعذب ويهان إهانة زائدة على إهانة التعذيب بأن يشتم ويحقر.

استثناء التائبين من ذلك العقاب وفتح باب التوبة: قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الفرقان: 70].

قوله: ﴿إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾: استثناء من ذلك العذاب لمن تاب وآمن وعمل صالحاً.

والتوبة: هي الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فرط، والعزم على ألا يعود إلى الذنب، وإذا كان فيما سبق ذكر الشرك، فالتوبة هنا التلبس بالإيمان، والإيمان بعد الكفر يوجب عدم المؤاخذه لما اقترفه المشرک في مدة شركه، ولذلك عطف ﴿وَآمَنَ﴾ على ﴿مَنْ تَابَ﴾ للتبنيه بالإيمان، وليبنى عليه قوله: ﴿وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا﴾، وهو شرائع الإسلام حثاً على عمل الصالحات وإيماء إلى أنها لا يعتد بها إلا مع الإيمان.

وهذه الآية دلت على أن التوبة تمحو آثام كل ذنب من الذنوب المعدودة، ومنها قتل النفس دون حق، وهو المعروف من عمومات الكتاب والسنة.

﴿فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ فرّع على الاستثناء أنه ۞ يبدل سيئاتهم حسنات، وهو كلام مسوق لبيان فضل التوبة المذكورة التي هي الإيمان بعد الشرك.

﴿فَأُولَٰئِكَ﴾: أي: فأولئك الموصوفون بالتوبة والإيمان والعمل الصالح، ﴿يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ﴾.

والتبديل: جعل شيء بدلاً عن شيء آخر، بأن يمحى سوابق معاصيهم بالتوبة، ويثبت مكانها ما سيأتي من طاعاتهم، كما يشير إلى ذلك كلام كثير من السلف، واحتجوا

بحديث أبي ذر الغفاري ؓ أن رسول الله ﷺ قال: «يُؤْتَى بِالرَّجُلِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيُقَالُ: اغْرَضُوا عَلَيْهِ صِغَارَ ذُنُوبِهِ. قَالَ: فَتَغْرَضُ عَلَيْهِ وَيَحْبَأُ عَنْهُ كِبَارُهَا، فَيُقَالُ: عَمِلْتَ يَوْمَ كَذَا وَكَذَا وَكَذَا وَكَذَا، وَهُوَ مُقَرَّرٌ لَا يُنْكِرُ، وَهُوَ مُشْفِقٌ مِنَ الْكِبَارِ، فَيُقَالُ: أُعْطُوهُ مَكَانَ كُلِّ سَيِّئَةٍ عَمِلَهَا حَسَنَةً». قَالَ: «فَيَقُولُ: إِنَّ لِي ذُنُوبًا مَا أَرَاهَا». قَالَ أَبُو ذَرٍّ ؓ: فَلَقَدْ رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ضَحِكَ حَتَّى بَدَتْ نَوَاجِذُهُ⁽¹⁾.

أو أَنَّ تلك السيئات الماضية تنقلب بنفس التوبة النصوح حسنات، وهذا من كرم عفوهِ ﷺ.

قاعدة التوبة وشرطها: ﴿وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا﴾ [الفرقان: 71].
والتوبة تبدأ بالندم والإقلاع عن المعصية، وتنتهي بالعمل الصالح الذي يثبت أَنَّ التوبة صحيحة، وأنها جدية، وهو في الوقت ذاته ينشئ التعويض الإيجابي في النفس للإقلاع عن المعصية، فالمعصية عمل وحركة، يجب ملء فراغه بعمل مضاد وحركة، وإلا حنت النفس إلى الخطيئة بتأثير الفراغ الذي تحسه بعد الإقلاع، وهذه لمحة في منهج التربية القرآني عجيب، تقوم على خبرة بالنفس الإنسانية عميقة، ومن أخبر من الخالق بما خلق ﷻ!؟

﴿وَمَنْ تَابَ﴾ أي: عن المعاصي التي فعلها ﴿وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ وغير من حاله واستبدل المعاصي بالعمل الصالح في سلوكه، ﴿فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ﴾ أي: يرجع إلى الله ﷻ بذلك. ﴿مَتَابًا﴾ أي: رجوعًا عظيم الشأن، مرضيًا عنده تعالى، ماحيًا للعقاب، محصلًا للثواب، يتوب إلى الله تعالى ذي اللطف الواسع الذي يحب التائبين، وهو يرجع إلى الله تعالى أو إلى ثوابهِ ﷻ مرجعًا حسنًا.

والآية صريحة في أَنَّ العمل الصالح والمثابرة عليه قولًا وفعلًا شرط في صحة التوبة وقبولها، وأنه لا اعتداد بها دون العمل الصالح.

فليتفطن لمعنى هذه الآية من يتوهم أَنَّ التوبة استغفار بلسان، أو تخشع بأركان، ولا عمل صالح يرضي الرحمن.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (21393)، ج 35 ص 313. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (190).

الصفة التاسعة: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾:

وبعد هذا البيان المعترض يعود إلى سمات عباد الرحمن، فهم لا يشهدون إذا طلبت منهم الشهادة باطلاً وكذباً، وهم أيضاً لا يحضرون مجالس الباطل التي يعصى فيها الله ﷻ.

ف فعل «شهد»: يستعمل بمعنى: حضر، وهو أصل إطلاقه، كقوله تعالى: ﴿فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾ [البقرة: 185].

ويستعمل بمعنى: أخبر عن شيء شاهده وعلمه، كقوله ﷻ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِنْ أَهْلِهَا﴾ [يوسف: 26].

والزور: الباطل من قول أو فعل وقد غلب على الكذب.

فيجوز أن يكون معنى الآية: أنهم لا يحضرون مجالس الباطل التي كان يحضرها المشركون، وهي مجالس المعاصي والعبث الماجن من الغناء والغيبة ونحوهما، وكذلك أعياد المشركين وألعابهم.

وهذا ثناء على المؤمنين بمقاطعة المشركين وتجنبهم. وفي هذا المعنى للآية قوله ﷻ: ﴿وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنعام: 68].

ويجوز أن يكون المعنى: أنهم لا يشهدون بالزور، أو لا يشهدون شهادة هي زور لا حق.

الصفة العاشرة: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُورِ مَرُّوا كِرَامًا﴾:

وهم كذلك يصونون أنفسهم واهتماماتهم عن اللغو والهذر: ﴿وَإِذَا مَرُّوا بِاللُّغُورِ مَرُّوا كِرَامًا﴾، لا يشغلون أنفسهم به، ولا يلوثونها بسماعه، إنما يكرمونها عن ملابسته ورؤيته، بل المشاركة فيه! فلمؤمن ما يشغله عن اللغو والهذر، وليس لديه من الفراغ والبطالة ما يدفعه إلى الشغل باللغو الفارغ، وهو من عقيدته ومن دعوته ومن تكاليفها في نفسه وفي الحياة كلها في شغل شاغل.

واللغو: الكلام العبث والسفه الذي لا خير فيه.

ومعنى المرور به المرور بأصحابه اللادين في حال لغوهم، فجعل المرور بنفس اللغو للإشارة إلى أن أصحاب اللغو متلبسون به وقت المرور.

﴿مَرُّوا كِرَامًا﴾ أي: أنهم يمرون وهم في حال كرامة، غير متلبسين بالمشاركة في اللغو فيه، فإن السفهاء إذا مروا بأصحاب اللغو أنسوا بهم ووقفوا عليهم وشاركوهم في لغوهم، فإذا فعلوا ذلك كانوا في غير حال كرامة.

والكرامة: النزاهة ومحاسن الخلال، وضدها اللؤم والسفالة.

فهذا ثناء على المؤمنين بترفعهم عما كانوا عليه في الجاهلية، كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا اللَّغْوَ أَعْرَضُوا عَنْهُ وَقَالُوا لَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِي الْجَاهِلِينَ﴾ [القصص: 55].

الصفة الحادية عشرة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾:

ومن سماتهم أنهم سريعو التذكر إذا ذكروا، قريبو الاعتبار إذا وعظوا، مفتوحو القلوب لآيات الله، يتلقونها بالفهم والاعتبار.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا دُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ﴾: بأن تليت عليهم آياته، إن كانت متلوة، أو ذكروا بآياته الكونية في خلقه السماوات والأرض، وإبداعه في خلق الإنسان، فإذا ذكروا بها ﴿لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، بل أكبوا عليها سامعين بآذان واعية، مبصرين بعيون راعية، ولم يكونوا كالمشركين والمنافقين حين يسمعون الآيات، يخرون عليها صمًّا وعميانًا.

و﴿صُمًّا وَعُمْيَانًا﴾، أي: يخرون كالصم الذين لا يبصرون والعميان الذين لا يبصرون في عدم الانتفاع بالمسموع من الآيات والمبصر منها مما يذكرون به.

الصفة الثانية عشرة: ﴿وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾:

وأخيرًا فإن عباد الرحمن لا يكفيهم أنهم يتسمون بتلك السمات العظيمة كلها، بل يرجون أن تعقبهم ذرية تسير على نهجهم، وأن تكون لهم أزواج من نوعهم، فتقر بهم عيونهم، وتطمئن بهم قلوبهم، ويتضاعف بهم عدد عباد الرحمن. فيسألون الله فيقولون: ﴿رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ﴾.

أو هو سؤال لله ﷻ أن يرزقهم من عنده من خلال أزواجهم ومن خلال ذرياتهم الولد الذي يكون لهم قرّة عين.

وكلمة أزواج هي جمع زوج، وهو يطلق على الذكر والأنثى، فالرجل يسأل الله أن يرزقه الزوجة والذرية، والمرأة تسأل أن يرزقها الله الزوج والذرية يجعلهما الله قررة العين، أو يسأل أن يرزقهما من الزوج وأيضاً من الذرية الولد الذي تقر به العين.

وهذا هو الشعور الفطري الإيماني العميق شعور الرغبة في مضاعفة السالكين في الدرب إلى الله، وفي أولهم الذرية والأزواج، فهم أقرب الناس تبعة وهم أول أمانة يُسأل عنها الرجال.

وقرة العين: كناية عن السرور والفرح، وهو مأخوذ من القر وهو البرد، لأن دمة السرور باردة، ولذا يُقال في ضده: أسخن الله تعالى عينه.

وقيل: هو مأخوذ من القرار، لأن ما يسر يقر النظر به ولا ينظر إلى غيره.
فإن المؤمن الصادق إذا رأى أهله قد شاركوه في الطاعة قرت بهم عينه، وسر قلبه، وتوقع نفعهم له في الدنيا حياً وميتاً، ولحوقهم به في الأخرى.
وقال: ﴿أَعْيُنٌ﴾ بالتنكير: للتعظيم.

الصفة الثالثة عشرة: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾:

ويتمون دعاءهم بأنهم يرجون من الله ﷻ أن يجعل منهم قدوة طيبة للذين يتقونه ويخافونه: ﴿وَجَعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾، أي: اجعلنا بحيث يقتدي بنا المقتدون في إقامة مراسم الدين بإفاضة العلم والتوفيق للعمل.

والإمام: أصله المثال والقالب الذي يصنع على شكله مصنوع من مثله.
وأطلق الإمام على القدوة تشبيهاً بالمثال والقالب، وغلب ذلك فصار الإمام بمعنى القدوة وهذا يقتضي أنهم يسألون لأنفسهم بلوغ الدرجات العظيمة من التقوى، فإن القدوة يجب أن يكون بالغاً أقصى غاية العمل الذي يرغب المهتمون به في الكمال فيه.
ويقتضي أيضاً أنهم يسألون أن يكونوا دعاة للدخول في الإسلام وأن يهتدي الناس إلى الله بواسطتهم.

عاقبة عباد الرحمن: ﴿أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحْوَةً وَسَلَامًا ﴿٧٥﴾ خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾:

فأما جزاء عباد الرحمن فيختم به هذا البيان:

﴿أُولَئِكَ﴾ الذين اتصفوا بهذه الصفات التي استحقوا بها أن ينعتوا بعباد الرحمن، استحقوا الجزاء الأوفى في الآخرة عند الله.

واستعمال اسم الإشارة للبعيد للإيذان ببعد منزلتهم في الفضل.

وهذا الجزاء أنهم ﴿يَجْزُونَ الْغُرَّةَ﴾، درجة عليا في الجنة. والتعريف في الغرفة: تعريف الجنس، فالمعنى: يجزون الغرف من الجنة، قال تعالى: ﴿وَهُمْ فِي الْغُرَفَاتِ آمِنُونَ﴾ [سبا: 37].

وهذا الجزاء كان ﴿يَمَّا صَبَرُوا﴾، بسبب صبرهم. فهذه العزائم تحتاج إلى الصبر على شهوات النفس، ومغريات الحياة، ودوافع السقوط، والاستقامة جهد لا يقدر عليه إلا بالصبر. ولم يذكر متعلق الصبر، ليعم ما سلف من عبادتهم فعلاً وتركاً وغيره من أنواع العبادة، وما لقوا من المشركين من أذى، وصبرهم على كبح شهواتهم لأجل إقامة شرائع الإسلام، وصبرهم على مشقة الطاعات.

وفوق ذلك الجزاء فهم في تلك الغرف ﴿وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا نَحِيَّةً وَسَلَامًا﴾: واللقى واللقاء: استقبال شيء ومصادفته، فهم يستقبلون في الغرفة بالتحية من الملائكة وبالسلام. والسلام هو: السلامة عن الآفات، أو يحيي بعضهم بعضاً ويدعو له بذلك، والمراد من الدعاء بالسلام التكريم وإلقاء السرور والمؤانسة.

وهو جزاء غير منقطع، فقال: ﴿خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾، وهذا في مقابل جهنم التي تضرعوا إلى ربهم أن يصرفها عنهم، لأنها ساءت مستقراً ومقاماً، فيجزئهم الله الجنة خالدين فيها، حسنت مستقراً ومقاماً، فلا مخرج لهم إلا أن يشاء الله، وهم فيها على خير حال من الاستقرار والمقام.

وهو ضد ما قيل في المشركين ﴿إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا﴾ والعياذ بالله.

الختام: ﴿قُلْ مَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّي لَوْلَا دُعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾:

وبعد أن استكملت صور عباد الرحمن وبعد أن استوعبت السورة أغراضها في التنويه بالرسالة والقرآن، وما تضمنته من توحيد الله ﷻ، ومن صفة كبرياء المعاندين، وأحوال المؤمنين، وأقيمت الحجج الدامغة للمعرضين، ختمت بأمر الله ﷻ أن يخاطب المشركين بكلمة جامعة يُزال بها غرورهم وإعجابهم بأنفسهم وحسبانهم أنهم قد شفوا غليلهم من الرسول بالإعراض عن دعوته وتوركهم في مجادلته، فبين لهم حقارتهم عند الله

تعالى، وأنه ما بعث إليهم رسوله وخاطبهم بكتابه إلا رحمة منه بهم لإصلاح حالهم وقطعاً لعذرهم، فإذا كذبوا فسوف يحل بهم العذاب.

﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾:

وفي التعبير سند للرسول ﷺ وإعزاز، ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي﴾. فأنا في جواره وحماه، هو ربي وأنا عبده، فما أنتم بغير الإيمان به، والانضمام إلى عبادته؟ إنكم حسب جهنم فقد كذبتهم فسوف يكون لزاماً.

وتركيب: ما يعبأ به، يدل على التحقير، وضده عبأ به يفيد الحفاوة.

ومعنى ﴿مَا يَعْبَأُ﴾: ما يبالي وما يهتم.

﴿لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ﴾: والدعاء: الدعوة إلى شيء، وهو هنا مضاف إلى مفعوله، والفاعل يدل عليه ﴿رَبِّي﴾ أي: لولا دعاؤه إياكم، أي: لولا أنه يدعوكم. وحذف متعلق الدعاء لظهوره من قوله: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، أي: الداعي وهو محمد ﷺ، فتعين أن الدعاء الدعوة إلى الإسلام. والمعنى: أن الله لا يلحقه من ذلك انتفاع ولا اعتزاز بكم.

وقيل: الدعاء هنا بمعنى عبادتكم، أي: لولا عبادتكم عبادة صحيحة تؤمنون فيها بالواحد الأحد.

لكن كان موقفهم على كلا التفسيرين للدعاء التكذيب، قال تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبْتُمْ﴾، فلن يكون مقابل هذا التكذيب إلا لزوم العذاب لكم، ﴿فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾، فسوف يكون عذاب الآخرة وقبله عقاب الدنيا مؤكداً لكم، وغير مفارق.

وهذا تهديد بعواقب التكذيب تهديداً مهولاً بما فيه من الإبهام، كما تقول للجاني: قد جعلت كذا فسوف تتحمل ما فعلت. ودخل في هذا الوعيد ما يحل بهم في الدنيا من قتل وأسر وهزيمة وما يحل بهم في الآخرة من العذاب⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من الآيات:

يستفاد من دراسة هذه الآيات:

- 1 - بيان صفات عباد الرحمن.
- 2 - فضيلة التواضع والسكينة في المشي والوقار.

(1) انظر تفسير الآيات في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 13 ص 97-126. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 8 ص 310-327. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 821-823.

- 3 - فضيلة رد السيئة بالحسنة والقول السليم من الإثم.
- 4 - فضيلة قيام الليل والخوف من عذاب النار.
- 5 - فضيلة الاعتدال والقصد في النفقة وهي حسنة بين السيئتين.
- 6 - حرمة الشرك وقتل النفس والزنا وأنها أمهات الكبائر.
- 7 - التوبة تجب ما قبلها، والحث عليها.
- 8 - حرمة شهود الزور وحرمة شهادته.
- 9 - فضيلة الإعراض عن اللغو فعلاً كان أو قولاً.
- 10 - فضيلة تدبر القرآن وحسن الاستماع لتلاوته والاتعاظ بمواعظه والعمل بهدأيته.
- 11 - فضيلة علو الهمة وسمو الروح وطلب الكمال والقُدوة في الخير.
- 12 - سعة كرم الله وعفوه.
- 13 - لا قيمة للإنسان، وهو أشرف الأحياء، لولا عبادته الله ﷻ فإذا لم يعبدّه كان شر الخليقة⁽¹⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 3 ص 636 و 634-635.

السورة الرابعة: سورة القارعة

مقدمات:

هذه السُورَة تسمى «سُورَة الْقَارِعَة»، وليس لها غير هذا الاسم.
وقد اتَّفَقَ عَلَى أَنَّهَا مَكِّيَّةٌ.

وعدت الثلاثين في عداد نزول السور. نزلت بعد سورة قريش وقبل سورة القيامة.

مناسبة السورة لما قبلها:

مناسبة السورة لما قبلها يعني صلتها بالسورة التي سبقتها، وصلة هذه السورة بالسورة التي قبلها «سورة العاديات»: أَنَّ السورة السابقة خُتِمت بذكر بعض أوصاف يوم القيامة، وهذه السورة بأسرها في وصف ذلك اليوم وما يكون فيه من أهوال.

تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقَارِعَةُ ١ مَا الْقَارِعَةُ ٢ وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ٣ يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ ٤ وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ ٥ فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ ٦ فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ ٧ وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ ٨ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ ٩ وَمَا أَذْرَاكَ مَا هِيَّةٌ ١٠ نَارُ جَامِيَةٍ ١١ ﴿١١﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- القارعة: أصل الكلمة اسمُ فاعِلٍ مِنْ قرع، والقرع: هُوَ ضَرْبُ جَسْمٍ بِأَخْرَ بِشْدَةٍ، بِحَيْثُ يَحْصُلُ مِنْهُ صَوْتُ شَدِيدٌ. وَسُمِّيَتِ الْمَوَاعِظُ الَّتِي تَنْكَسِرُ لَهَا النَّفْسُ قَوَارِعَ لِمَا فِيهَا مِنْ زَجَرِ النَّاسِ عَنْ أَعْمَالِ السَّوْءِ. وَيُقَالُ لِلتَّوْبِيخِ تَقْرِيعٌ. وَسُمِّيَتِ الْقِيَامَةُ بِالْقَارِعَةِ، لِأَنَّهَا تَقْرَعُ الْقُلُوبَ بِأَهْوَالِهَا.
- كالفرش: فِرَاحُ الْجَرَادِ حِينَ يَخْرُجُ مِنْ بَيْضِهِ مِنَ الْأَرْضِ.
- المَبْثُوثُ: الْمُنْتَشِرُ يَمُوجُ بَعْضُهُمْ فِي بَعْضٍ.
- كالعِهن: الصوف ذو الألوان أو المصبوغ.
- المنفوش: المندوف المفرق الأجزاء.
- عِيشَةٌ: اسْمُ مَصْدَرِ الْعَيْشِ.
- راضية: أي يرضاها صاحبها في الجنة، فهي مرضية له.

- فأمه: مأواه ومسكنه.

- الهاوية: المكان المنخفض بين جبلين، الذي إذا سقط فيه إنسان أو دابة هلك⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

السورة كلها عن القيامة، حقيقتها، وما يقع فيها، وما تنتهي إليه، فهي تعرض مشهداً من هولها تتناول فيه آثار وقوعها على الناس والجبال.

﴿القارعة﴾ ١

الافتتاح بلفظ القارعة افتتاح مهول. وفيه تشويق إلى معرفة ما سيخبر به.

و﴿القارعة﴾: هي الحادثة التي تُصيبُ الناس بالأهوال والأفزع، أو التي تُصيبُ الموجودات بالقرع، مثل: دك الجبال، وخسف الأرض، وطمس النجوم، وكُسوف الشمس كُسُوفًا لا انجلاء له، فشبّه ذلك بالقرع.

فالقارعة هنا مرادٌ بها حادثة عظيمة، هي القيامة وما يجري فيها من نفخ في الصور ومن حشر، سُميت بذلك لأنها تفرغ القلوب والأسماع بفنون الأفزع والأهوال، وتُخرجُ جميع الأجرام العلوية والسفلية من حالٍ إلى حالٍ.

﴿ما القارعة﴾ ٢

﴿ما﴾: استفهامية، والاستفهام: مُستعملٌ هنا في التَّهويل والتَّعظيم، لأنَّ الأمر العظيم من شأنه أن يُستفهم عنه ويسأل عنه فصارَ التَّعظيم والاستفهام مُتلازمين. كأنه قيل: أتدري ما القارعة؟ أي ما هي القارعة، وأي شيء عظيم هي القارعة.

وإعادة لفظ ﴿القارعة﴾: لزيادة التَّهويل والتَّرويع.

﴿وما أدراك ما القارعة﴾ ٣

الهدف من إيراد هذا التركيب: زيادة التَّهويل في أمر القارعة، فهو تأكيدٌ لهولها وقظاعتها، ببيان خروجها عن دائرة علوم الخلق، على معنى أنَّ عظم شأنها ومدى شدتها بحيث لا تكاد تناله داية أحد، حتى يدريك بها.

و﴿ما﴾ الأولى في هذه الآية: اسمُ استفهامٍ مُستعملٍ كسابقه في التَّهويل والتَّعظيم، أي: لا يدري أحدٌ ماهية هذا الأمر.

و﴿أدراك﴾: بمعنى أعلمك.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 609.

وَتَرَكِيبُ «مَا أَدْرَاكَ كَذَا»: مِمَّا جَرَى مَجْرَى المَثَلِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ فَلَا يُغَيَّرُ عَنْ هَذَا اللَّفْظِ.
والخطاب فيه: خطابٌ لغير مُعَيَّنٍ، ولكل سامعٍ للآيات.

فمعنى الآية: أيُّ شيء أعلمك ما شأن القارعة في هولها على النفوس؟ إنها لا تُفزع القلوب فحسب، بل تؤثر في الأجرام العظيمة، فتؤثر في السماوات بالانشقاق، وفي الأرض بالزلزلة، وفي الجبال بالدُّك والنسف، وفي الكواكب بالانتثار، وفي الشمس والقمر بالتكوير والانكدار إلى غير ما هنالك.

وإعادة «القارعة»: لَقَصْد ما في الاسم أيضًا مِنَ التَّهْوِيلِ.

﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾ ①

هذا هو المَشْهَدُ الأوَّلُ للقارعة، مَشْهَدٌ تَطِيرُ لَهُ القُلُوبُ، وَتَرْجُفُ مِنْهُ الأَوْصَالُ، وَيُحَسُّ السَّامِعُ كَأَنَّهُ كُلُّ شَيْءٍ يَتَشَبَّثُ بِهِ فِي الأَرْضِ قَدْ طَارَ حَوْلَهُ هَبَاءٌ! فِيهِ اليَوْمُ الَّذِي تَبْدَأُ فِيهِ الحَيَاةُ الآخِرَةُ، وَفِيهَا تُعْرَفُ مَقَادِيرُ الأَعْمَالِ وَمَا تَسْتَحِقُّهُ مِنَ الْجَزَاءِ، فِي ذَلِكَ اليَوْمِ، وَفِي أَرْضِ المَحْشَرِ يَجْتَمِعُ النَّاسُ فَيَكُونُونَ كَأَنَّهُمْ فَرَاشٌ مَبْثُوثٌ مُتَفَرِّقٌ عَلَى وَجْهِ الأَرْضِ، قَالَ تَعَالَى فِي مَوْطِنٍ آخَرَ: ﴿يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنتَشِرٌ﴾ [القَمَرُ: 7].

وشبهوا بالفراش المَبْثُوثِ فِي الكَثْرَةِ والانتشار، لِكَثْرَةِ الاكْتَظاظِ عَلَى أَرْضِ المَحْشَرِ، وَفِي الضَّعْفِ والدَّلَّةِ والاضطراب، وَفِي التَّطَايُرِ إِلَى الدَّاعِي، كَتَطَايُرِ الفَرَاشِ إِلَى النَّارِ.

﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنْفُوشِ﴾ ②

وَفِي ذَلِكَ اليَوْمِ تَصِيرُ الجِبَالُ كَأَنَّهَا صُوفٌ مَلُونٌ، مَنْفُوشٌ، مُفَرَّقٌ بَعْضُ أَجْزَائِهِ عَنْ بَعْضٍ، بِمَعْنَى أَنَّ الجِبَالَ تَصِيرُ هَبَاءً وَتَزُولُ، كَمَا قَالَ ﷺ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: ﴿فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثًّا﴾ [الوَاقِعَةُ: 6].

﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ﴾ ③

وَعِنْدَ ذَلِكَ اليَوْمِ يَنْقَسِمُ النَّاسُ إِلَى حَزْبَيْنِ: فَرِيقٌ فِي الجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعِيرِ، فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُ أَعْمَالِهِ كَانَ مِنْ أَهْلِ الجَنَّةِ.

ووزن الأعمال في الآخرة مِمَّا يَجِبُ الإِيْمَانُ بِهِ حَقِيقَةً، وَيَكُونُ بَعْدَ تَطَايُرِ الصُّخْرِ وَأَخْذِهَا بِالْإِيْمَانِ وَالشَّمَائِلِ وَبَعْدَ السُّؤَالِ وَالْحِسَابِ.

والمِيزَانُ لَهُ لِسَانٌ وَكَفَّتَانِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمُ بِمَا هَيْئَتِهِ. وَالْأَشْهُرُ والأَصْحَحُ أَنَّهُ مِيزَانٌ وَاحِدٌ لَجَمِيعِ الأُمَمِ وَلَجَمِيعِ الأَعْمَالِ.

وَاسْتِخْدَامُ الجَمْعِ ﴿مَوَازِينُهُ﴾: لِلتَّعْظِيمِ أَوْ بِاعْتِبَارِ تَعَدُّدِ الأَفْرَادِ.

وِثْقَلُ الْمَوَازِينِ كُنَايَةً عَنْ كَوْنِ صَاحِبِ الْأَعْمَالِ الَّتِي تَوَزَنُ فِيهِ بِمَحَلِّ الرِّضَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى لِكَثْرَةِ حَسَنَاتِهِ.

وَقَدْ وَرَدَ ذِكْرُ الْمِيزَانِ لِلْأَعْمَالِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَثِيرًا فِي الْقُرْآنِ، وَالْمَقْصُودُ عَدَمُ ضِيَاعِ شَيْءٍ مِنْ جِزَاءِ الْأَعْمَالِ.

﴿فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ﴾ (٧)

فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ بِالْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ فَهُوَ فِي حَيَاةٍ ﴿رَاضِيَةٍ﴾، يَرْضَى عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَيَرْضَى بِهَا، فَوُصِفَتْ الْعِيشَةُ بِأَنَّهَا رَاضِيَةٌ لِأَنَّهَا سَبَبُ الرِّضَا وَلِأَنَّهَا زَمَانُ الرِّضَا. وَذَلِكَ لِمَا فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ مِنَ اللَّيْنِ وَالْإِنْقِيَادِ لِأَهْلِهَا، قَالَ تَعَالَى عَنِ الْجَنَّةِ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى (٨) وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَصْحَى﴾ [طه: 118-119].

﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ﴾ (٩)

وَالْفَرِيقُ الْمَقَابِلُ هُمْ مَنْ كَانَتْ مَوَازِينُهُمْ خَالِيَةً مِنَ الْأَعْمَالِ الصَّالِحَاتِ فَخَفَتْ مَوَازِينُهُمْ وَطَاشَتْ.

﴿نَأْمُهُ هَاوِيَةٌ﴾ (١٠)

فَهَؤُلَاءِ الْفَرِيقُ الَّذِينَ خَفَتْ مَوَازِينُهُمْ وَمَأْوَاهُمْ إِلَى شَقَاءٍ وَسُوءِ حَالٍ. وَالْأُمُّ: هِيَ مَرْجِعُ الطِّفْلِ وَمَلَاذُهُ، وَالْمَعْنَى أَنَّ مَرْجِعَ الْقَوْمِ وَمَلَاذَهُمْ يَوْمَئِذٍ هُوَ الْهَآوِيَةُ! وَعَبَّرَ عَنِ الْمَأْوَى بِالْأُمِّ عَلَى التَّشْبِيهِ بِهَا، فَالْأُمُّ مَفْزَعُ الْوَلَدِ وَمَأْوَاهُ، فَهَؤُلَاءِ فِي زَمَنِ الْقُرْعِ وَالْخَوْفِ يَرِيدُونَ أَنْ يَحْتَمُوا فَلَا يَجِدُونَ لَهُمْ مَرْجِعًا إِلَّا الْهَآوِيَةَ. وَأُرِيدَ بِالْهَآوِيَةِ جَهَنَّمُ، وَقِيلَ: هِيَ اسْمُ لَجَهَنَّمِ، أَيِ فَمَاوَاهُ جَهَنَّمِ.

وَإِطْلَاقُ ذَلِكَ عَلَيْهَا لَغَايَةً عُمُقُهَا وَبُعْدَ مَهْوَاهَا، فَقَدْ رُوِيَ أَنَّ أَهْلَ النَّارِ تَهْوِي فِيهَا سَبْعِينَ خَرِيفًا. رَوَى الْإِمَامُ مُسْلِمٌ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: (كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ سَمِعَ وَجْبَةً (صَوْتٌ عَظِيمٌ لِسُقُوطِ شَيْءٍ)، فَقَالَ ﷺ: «تَذَرُونَ مَا هَذَا؟». قُلْنَا: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «هَذَا حَجَرٌ رُمِيَ بِهِ فِي النَّارِ مُنْذُ سَبْعِينَ خَرِيفًا، فَهُوَ يَهْوِي فِي النَّارِ الْآنَ، حَتَّى انْتَهَى إِلَى قَعْرِهَا» (١).

هَذَا، وَالْعَرَبُ تَقُولُ: هَوَتْ أُمُّهُ، فَهِيَ هَاوِيَةٌ، أَيِ ثَاكِلَةٌ لَهُ فَاقْدَةُ لَهُ، وَيَكُونُ الْمَعْنَى عَلَيْهِ تَمَثِيلٌ لِحَالِ مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ يَوْمَئِذٍ بِحَالِ الْهَالِكِ فِي الدُّنْيَا، لِأَنَّ الْعَرَبَ يُكْنَوْنَ

(١) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، الصَّحِيحُ الْمُسْنَدُ، كِتَابُ الْجَنَّةِ، وَصِفَةُ نَعِيمِهَا وَأَهْلِهَا، بَابُ فِي شِدَّةِ حَرِّ نَارِ جَهَنَّمَ، وَبَعْدَ قَعْرِهَا، وَمَا تَأْخُذُ مِنَ الْمَعْذِبِينَ، رَقْمُ (2844).

عَنْ حَالِ الْمَرْءِ بِحَالِ أُمِّهِ فِي الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، لَشِدَّةِ مَحَبَّتِهَا ابْنَهَا، فَهِيَ أَشَدُّ سُرُورًا بِسُرُورِهِ وَأَشَدُّ حُزْنًا بِمَا يُحْزَنُهُ. وَيَقُولُونَ فِي الشَّرِّ: هَوَتْ أُمُّهُ، أَيِ أَصَابَهُ مَا تَهْلِكُ بِهِ أُمُّهُ، بَعْدَ أَنْ تَحْزَنَ عَلَيْهِ.

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَ﴾ ١٧

﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا﴾: تَهْوِيلٌ، كَمَا تَقَدَّمَ أَنْفَاءً فِي أَوَّلِ السُّورَةِ.

﴿هِيَ﴾: الضَّمِيرُ «هي» عَائِدٌ إِلَى هَاوِيَةٍ، وَالْهَاءُ الَّتِي لَحَقَتْ يَاءَ «هي»: تَسْمَى هَاءَ السَّكْتِ، وَهِيَ هَاءٌ تُجْلِبُ لِأَجْلِ تَخْفِيفِ اللَّفْظِ عِنْدَ الْوَقْفِ عَلَيْهِ.

﴿نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ ١٨

بيان لما هي، إنها نار، وهي ليست كأي نار إنها نار حامية.

وَكَلِمَةُ «حَامِيَةٌ» مِنَ الْحُمَى اسْتِدَادُ الْحَرِّ، وَوَصْفُ النَّارِ بِذَلِكَ وَهَذِهِ طَبِيعَتُهَا مِنْ قَبِيلِ التَّوَكِيدِ اللَّفْظِيِّ، لِأَنَّ النَّارَ لَا تَخْلُو عَنْ الْحَمِي وَالسَّخُونَةِ، فَوَصَفَهَا بِهِ وَصَفَ بِمَا هُوَ مِنْ مَعْنَى لَفْظِ «نَارٍ» فَكَانَ كَذِكْرِ الْمُرَادِفِ.

جاء في وصف نار جهنم عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «نَارُكُمْ هَذِهِ الَّتِي يُوْقِدُ ابْنُ آدَمَ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ حَرِّ جَهَنَّمَ». قَالُوا: وَاللَّهِ إِنْ كَانَتْ لَكَافِيَةً يَا رَسُولَ اللَّهِ. قَالَ: «فَإِنَّهَا فَضَّلَتْ عَلَيْهَا بِتِسْعَةٍ وَتِسْتِينَ جُزْءًا، كُلُّهَا مِثْلُ حَرِّهَا»⁽¹⁾.

وَبَيَّنَتْ عَنْهُ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اشْتَكَّتِ النَّارُ إِلَى رَبِّهَا، فَقَالَتْ: رَبِّ أَكَلْ بَعْضِي بَعْضًا، فَأَيْنَ لَهَا بِنَفْسَيْنِ: نَفْسٍ فِي الشَّتَاءِ وَنَفْسٍ فِي الصَّيْفِ، فَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الْحَرِّ، وَأَشَدُّ مَا تَجِدُونَ مِنَ الزَّمْهِيرِ»⁽²⁾.

نَسَأَلُ اللَّهَ الْعَفْوَ وَالْعَافِيَةَ فِي الدِّينِ وَالدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ⁽³⁾.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، ويعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين، رقم (2843).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب: صفة النار، وأنها مخلوقة، رقم (3087). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب استحباب الإبراد بالظهر في شدة الحر لمن يَمْضِي إِلَى جَمَاعَةٍ وَيُنَالُ الْحَرَّ فِي طَرِيقِهِ، رقم (617).

(3) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني، ج 29 ص 281-293. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 469-473. والشوكاني، فتح القدير، ج 5 ص 601-604. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 796-801. الصابوني، صفوة التفاسير، ص 1536-1538.

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - تقرير عقيدة البعث والجزاء بذكر صورة صادقة لها.
- 2 - التحذير من أهوال يوم القيامة وعذاب الله تعالى فيها.
- 3 - تقرير عقيدة وزن الأعمال صالحها وفاسدها وترتيب الجزاء عليها.
- 4 - تقرير أنَّ الناس يوم القيامة فريقان فريق في الجنة وفريق في السعير⁽¹⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 608.

السورة الخامسة: سورة التكاثر

مقدمات:

سُمِّيَتْ في العهد الأول «سورة التَّكَاثُرِ»، وَسُمِّيَتْ في بَعْضِ المَصَاحِفِ «سورة أَلْهَاكُم». وهي سورة مَكِّيَّةٌ، عند جمهور العلماء.

وقد عدت السادسة عشرة في ترتيب نزول السور، ونزلت بعد سورة الكوثر وقبل سورة الماعون بناء على أنها مكية. وعدد آياتها ثمان.

مناسبة السورة لما قبلها:

في السورة السابقة «سورة القارعة» جاء ذكر بعض أهوال يوم القيامة وجزاء الأخيار والأشرار، وفي هذه السورة جاء ذكر الجحيم وهي الهاوية التي ذُكرت في السورة السابقة، كما جاء السؤال عما قدم المرء من أعمال وهذه بعض أحوال الآخرة.

ولما قَسَمَ الناس في القارعة إلى شقي وسعيد، وختم بالشقي، افتتح هذه بعلة الشقاوة ومبدأ الحشر لينزجر السامع عن هذا السبب.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ ۚ ١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ ۚ ٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۚ ٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ ۚ ٥ لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ ۚ ٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ ۚ ٧ ثُمَّ لَتَسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ ۚ ٨﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- أَلْهَاكُم: من اللُّهُو، وهو شُغْلٌ يَصْرِفُ عَنِ تَحْصِيلِ أَمْرٍ مَهْمٍّ. وَقِيلَ: أَصْلُ اللُّهُوِ الْغَفْلَةُ، ثُمَّ شَاعَ فِي كُلِّ شَاغِلٍ، وَخَصَّصَهُ الْعَرَفُ بِالشَّاعِلِ الَّذِي يَسُرُّ الْمَرْءَ، وَهُوَ قَرِيبٌ مِنَ اللَّعِبِ.
- التكاثر: التباهي بكثرة المال، أو التنافس في جمع الأموال والأشياء.
- زرتم: إما على الحقيقة من معنى الزيارة، وإما المراد متم ودُفنتم بها.

- المَقَابِرَ: جَمْع مَقْبَرَةٍ، والمَقْبَرَةُ الأرض الَّتِي فِيهَا قُبُورٌ كَثِيرَةٌ.
- كلا: حرف ردع وزجر، ويأتي بمعنى حقًا.
- ثم: حرف عطف، حرف من حروف المعاني، يفيد إما التراخي الزماني وإما التراخي الرتبي.
- اليقين: الاعتقاد الَّذِي لَا يَشُوبُهُ تَرَدُّدٌ.
- الجحيم: نار جهنم.
- عَيْنَ الْيَقِينِ: نَفْسُ الْيَقِينِ.
- يومئذ: أي يوم ترون الجحيم عين اليقين.
- النعيم: اسمٌ لما يَلْذُّ لِإنْسَانٍ مِمَّا لَيْسَ مِلَازِمًا لَهُ، مثل شُربِ الْمَاءِ وَأَكْلِ الطَّعَامِ وَالتَّلَذُّذِ بِالْمَسْمُوعَاتِ وَبِرُؤْيَا الْمَحَاسِنِ⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي للسورة:

هذه السورة ذات إيقاعٍ جليلٍ رهيبٍ عميقٍ، وكأنَّما هي صوت نذيرٍ، قائمٌ على مكان عالٍ، يمد بصوته ويدوي بنبرته، يصيحُ بنيامٍ غافلين أشرفوا على الهاوية وعيونهم مغمضة، وحسهم غائب.

﴿الْهَاجِمُ التَّكَاثُرُ﴾ ٥

أيها المشركون لقد شَغَلَكُم التَّكَاثُرُ والتفاخر في الأموال والأولاد ومتاع الدنيا عَمَّا يَجِبُ عَلَيْكُمُ الْإِسْتِغْلَالُ بِهِ مِنْ شَأْنِ النَّظَرِ بِالْقُرْآنِ وَالتَّذَبُّرِ فِيهِ، وَالْإِنْصَافِ بِتَصَدِيقِهِ، أَوْ عَنْ التَّفَكُّرِ فِي مَالِكُمْ وَعَنْ سَبَبِ وَجُودِكُمْ، شَغَلْتُمْ وَأَلْهَامُ التَّكَاثُرِ وَالتَّبَارِي وَالتَّبَاهِي فِي الْإِكْثَارِ مِنْ شَيْءٍ مَرْغُوبٍ فِي كَثْرَتِهِ، كَالْأَمْوَالِ، وَعَدَدِ الْأَوْلَادِ، وَالْأَحْلَافِ لِلْإِعْتِزَازِ بِهِمْ، وَغَيْرِ ذَلِكَ. عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّخِيرِ رحمته الله قَالَ: (انْتَهَيْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهُوَ يَقُولُ: ﴿الْهَاجِمُ التَّكَاثُرُ﴾ قَالَ صلى الله عليه وسلم: «يَقُولُ ابْنُ آدَمَ: مَالِي مَالِي. قَالَ: وَهَلْ لَكَ يَا بَنَ آدَمَ مِنْ مَالِكٍ إِلَّا مَا أَكَلْتَ فَأَقْنَيْتَ، أَوْ لَبِسْتَ فَأَبْلَيْتَ، أَوْ تَصَدَّقْتَ فَأَمْضَيْتَ»⁽²⁾.

والخطاب وإن كان للمشركين فالمسلمون يَعْلَمُونَ أَنَّ التَّخْلُقَ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْخَلْقِ مَذْمُومٌ عِنْدَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وَأَنَّهُ مِنْ خِصَالِ أَهْلِ الشَّرْكِ، فَيَحْذَرُونَ مِنْ أَنْ يُلْهِيَهُمْ حُبُّ الْمَالِ عَنْ

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج5 ص610.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الزهد والرقائق (أوله)، رقم (2958).

شَيْءٍ مِنْ فِعْلِ الْخَيْرِ، وَيَتَوَقَّعُونَ أَنْ يَفَاجَهُمُ الْمَوْتُ وَهُمْ لَاهُونَ عَنِ الْخَيْرِ، لَكِنْ يَقَعُ جَمْعُ مِنْهُمْ فِيهِ، وَبِخَاصَّةٍ مِنْ بَعْدِ الدِّينِ فَكْرًا وَحَيَاةً.

﴿حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ ①

وهذا الانشغال بالتكاثر يستمر طوال حياتكم إلى أن تتم وحللتهم في المقابر وقد فارقتهم الحياة، عندها تخرجون من هذا الالتهاة عندما تعينون الأمور على حقيقتها، وحينها لا رجعة إلى الحياة لتصحيح ما فات.

فزيارة المقابر عبارة عن الموت والحلول فيها، وأطلق فعل الزَّيَارَةِ على الموت والحلول في القبور تعريضاً بالمشرّكين، لإنكارهم البعث بأنّ حلولهم في القبور كالزيارة، فكما أنّ الزيارة يعقبها خروج من بيت المزور فالقبر يعقبه خروجٌ للحساب، وفي ذلك إشارة إلى تحقق البعث.

يحكى أنّ أعرابياً سمع ذلك فقال: «بعث القوم للقيامة ورب الكعبة، فإنّ الزائر منصرفٌ لا مقيم»⁽¹⁾.

وعن عمر بن عبد العزيز -رحمه الله- أنّه قال: «لا بُدَّ لِمَنْ زَارَ أَنْ يَرْجَعَ إِلَى جَنَّةٍ أَوْ نَارٍ»⁽²⁾.

وفيه أيضاً إشارة إلى قصر زمن اللبث في القبور قياساً لما بعده، قال تعالى: ﴿قَالَ كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ۚ قَالُوا لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ الْعَادِيْنَ ۚ قَالَ إِنَّ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا لَوْ أَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [المؤمنون: 112-114].

﴿كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ②

بعد هذا الوصف للمشرّكين ولمن سلك مسلكهم في الانشغال بالتكاثر بأعراض الدنيا والذي تضمنه التوبيخ لهم أُتبع بالزجر عن هذه السذاجة الفكرية التي جعلتهم ينسون ما ينتظرهم من عذاب بالوعيد والتهديد بأنهم سيعلمون عاقبة هذا الفعل، وذلك بعد الموت الذي أشير إليه بزيارة المقابر.

فجاءت كلمة ﴿كَلَّا﴾: لتفيد زَجْرًا وإبطالاً لإنهاء التكاثر، وردّعا عن الاشتغال المؤدي إلى الغفلة وتنبيهاً على الخطأ فيه، لأنّ عاقبته وخيمة.

(1) انظر: أبو محمد عبد الحق بن غالب الشهير بابن عطية الغرناطي، المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، تحقيق: عبد السلام شافي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2001م)، ج5 ص518.

(2) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1997م)، ج9 ص553.

و﴿سَوْفَ﴾: لتحقيق حصول العلم.

و﴿تَعْلَمُونَ﴾: أي تعلمون سوءَ مَغَبَّةٍ لهُوكم بالتَّكَاثُرِ عَنْ قَبُولِ دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ.

﴿ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ ⑤

كررت الجملة زيادة في الزَّجْرِ وَالْوَعِيدِ لِمَنْ أَلْهَاهُم التَّكَاثُرُ، كما يقول العظيم لعبده: «أقول لك لا تفعل ثم أقول لك لا تفعل».

وعطفت بـ«ثُمَّ»: الذي يفيد التراخي الرتبِي، ليفيد أنْ فوق ذلك العلم سوف تعلمون سوءَ عاقبتكم.

﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾ ⑥

أُعِيدَ الزَّجْرُ بـ﴿كَلَّا﴾ ثالثَ مَرَّةٍ زِيَادَةً فِي إِبْطَالِ مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ اللَّهْوِ عَنِ التَّدْبُرِ فِي أَقْوَالِ الْقُرْآنِ، لَعَلَّهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ غَفْلَتِهِمْ وَيَقْلَعُونَ عَنْ انْهَمَاكِهِمْ بِالتَّكَاثُرِ مِمَّا هُمْ يَتَكَاثَرُونَ فِيهِ، وَعَنْ لَهْوِهِمْ إِلَى النَّظَرِ فِي دَعْوَةِ الْحَقِّ وَالتَّوْحِيدِ، وَهَذَا يَظْهَرُ مَدَى انْغِمَاسِهِمْ فِي تِلْكَ الْغَفْلَةِ.

أي: لو أعلمتم عقولكم يا من لا تؤمنون بالجزاء، وعلمتم علماً مَتَّقِنًا مطابقاً للواقع حقيقة أحوالكم، وحقيقة هذه الدنيا، ومغبة ما أنتم فيه من التَّهَاءِ بِالتَّكَاثُرِ، لشغلكم ذلك عن التَّكَاثُرِ والتَّفَاخُرِ، أو لفعلتم ما ينفعكم من الخير وتركتم ما لا ينفعكم مما أنتم فيه.

﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ ⑦

الزَّجْرُ وَالرَّدْعُ الْمَكْرَرُ وَالْوَعِيدُ الْمُؤَكَّدُ الْمُتَقَدِّمُ يَثِيرُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ سُؤْلًا عَمَّا سَيَعْقِبُهُ وَمَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهِ، فَجَاءَ قَوْلُهُ: ﴿لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ﴾ جَوَابًا عَمَّا يَجِيشُ فِي نَفْسِ السَّامِعِ.

﴿لَتَرَوُنَّ﴾: اللام دالة على قَسَمٍ مُضْمَرٍ وَمَقْدَرٍ، أي: والله لترون الجحيم يوم تبعثون جزاء هذا الانشغال في غير الهدف الذي خلقتم من أجله، مما أدى إلى عدم إيمانكم وانحرافكم عن الحق.

وهو توكيد للوعيد وزيادة تهديد.

و﴿الْجَحِيمَ﴾: هي نار جهنم، سميت بذلك من الجحمة، وهي شدة تأجج النار، لأنها تجتمع أجساد من يدخلون فيها، فتصبح النار تتوقد بتلك الأجساد. قال تعالى: ﴿فَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [البقرة: 24]، وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ [التحريم: 6].

وقيل المعنى: لو تعلمون اليوم علم اليقين وأنتم في الدنيا لترون الجحيم بعين قلوبكم، وهو أن تتصوروا أمر القيامة وأهوالها.

﴿ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ﴾ ⑤

تكريرٌ للتأكيد لتحقيق الوعيد. وعطف التأكيد بـ ﴿ثُمَّ﴾ للتأخي الزمني، أي: وفوق ذلك لترونها عين اليقين. و﴿عَيْنَ الْيَقِينِ﴾: أي: الرؤية التي هي نفس اليقين. فـ«عَيْنَ» بمعنى النفس، فهي أعلى درجات العلم.

ومعنى الآية: وزيادة على ما سبق، والله لترون الجحيم رؤية هي نفس اليقين، وهي المشاهدة والمعاينة بدخولكم في الجحيم.

﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾ ⑥

أَعْقَبَ التَّوْبِيخُ وَالْوَعِيدُ عَلَى لَهُوهِم بِالتَّكَاثُرِ عَنِ النَّظَرِ فِي دَعْوَةِ الْإِسْلَامِ بِتَهْدِيدِ وَتَخْوِيفِ بِمُواخَذَتِهِمْ عَلَى مَا فِي التَّكَاثُرِ مِنْ نَعِيمٍ تَنَعَّمُوا وَتَمَتَّعُوا بِهِ فِي الدُّنْيَا وَلَمْ يَشْكُرُوا اللَّهَ عَلَيْهِ، بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ﴾، أي: والله لتُسألن يا من ألهاكم التكاثر، تسألن سؤال حساب، عَنِ النَّعِيمِ الَّذِي خَوَّلْتُمُوهُ فِي الدُّنْيَا.

فهذا النعيم الذي ألهاكم عن غاية وجودكم فتعملوا وفقها لدنياكم وآخرتكم، ستسألون عنه، فهو عبء تستخفونه في غمرتكم ولهوكم، ولكن وراءه ما وراءه من هَمٍّ ثَقِيلٍ! والنَّعِيمُ هنا: عامٌ لكلِّ ما يَتَلَذَّذُ بِهِ مِنْ مَطْعَمٍ وَمَشْرَبٍ وَمَفْرَشٍ وَمَرْكَبٍ وغيرها⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - عدم اللهو عن الغاية التي خُلق لها الإنسان والدور الذي جعله الله في هذه الحياة الدنيا.
- 2 - التحذير من جمع المال وتكثيره مع عدم شكره وترك طاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ من أجله.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 294-307. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 474-482. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 602-609. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 802-809. الصابوني، صفوة التفاسير، ص 1539-1541.

- 3 - سرعة مغادرة هذه الدنيا وهذا يقتضي الاستعداد لما بعدها.
- 4 - تقرير عقيدة البعث وحتمية الجزاء بعد الحساب والاستنطاق والاستجواب.
- 5 - حتمية سؤال العبد عن النعم التي أنعم الله تعالى عليه بها في الدنيا، فإن كان شاكرًا لها فاز، وإن كان كافرًا لها خسر، والعياذ بالله⁽¹⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 611-612. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1541.

مقدمات:

سُورَةُ الْعَصْرِ لها اسم واحد فقط هو «سُورَةُ وَالْعَصْرِ».

وهي سورة مَكِّيَّة.

مكونة من ثلاث آيات، وهي إحدى سُورٍ ثَلَاثٍ هُنَّ أَقْصَرُ السُّورِ من حيثِ عَدَدِ الْآيَاتِ، وهذه السور هي: سُورَةُ الْعَصْرِ، وَسُورَةُ الْكَوْثَرِ، وَسُورَةُ النَّصْرِ.

وقد عدت الثالثة عشرة في عداد نزول السور. نزلت بعد سورة الانشراح وقبل سورة العاديات.

وَقَدْ كَانَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ اتَّخَذُوا هذه السورة شِعَارًا لَهُمْ فِي مُلْتَقَاهُمْ، رَوَى الطَّبْرَانِيُّ بِسَنَدِهِ إِلَى عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ -رحمه الله- أَنَّهُ قَالَ: «كَانَ الرَّجُلَانِ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ إِذَا التَّقِيَا لَمْ يَفْتَرِقَا إِلَّا عَلَى أَنْ يَقْرَأَ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ سُورَةَ الْعَصْرِ إِلَى آخِرِهَا ثُمَّ يُسَلِّمُ أَحَدُهُمَا عَلَى الْآخَرِ»⁽¹⁾.

ولمكانة هذه السورة وما حوته من معاني قال فيها الإمام الشافعي -رحمه الله-: «لَوْ تَدَبَّرَ النَّاسُ هَذِهِ السُّورَةَ لَوَسَّعَتْهُمْ»⁽²⁾.

مناسبة هذه السورة لما قبلها:

لما بيَّن ﷺ في السورة المتقدمة أَنَّ الاشتغال بأمور الدنيا والتهاكك عليها مذمومٌ، أراد أن يبين في هذه السورة ما يجب الاشتغال به من الإيمان والأعمال الصالحات، وهو ما يعود على النفس، بالخيرات وكف النفس عن المناهي والمعاصي، وهو ما يثمر في المجتمع الخير.

تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَّصُوا بِالْحَقِّ وَتَوَّصُوا بِالصَّبْرِ ③.

(1) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 8 ص 479.

(2) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج 8 ص 479.

- العصر: اسم للدهر، والمراد: الزمن الذي يحياه الإنسان.
- الإنسان: جنس الإنسان كله.
- الخُسْر: ضدُّ الرِّبح في التَّجَارَة. اسْتَعْمَلَ هنا لسوء العاقبة لمن يظنُّ لنفسه عاقبةً حسنةً، وتلك هي العاقبة الدَّائمة، وهي عاقبة الإنسان في آخرته من نعيمٍ أو عذاب.
- وتواصوا: وصَّى بعضهم بعضًا، أي: تناصَّحوا وتعاهدوا.
- الحقُّ: الأمر الثابت الذي لا سبيلَ إلى إنكاره، وهو هنا: أمور الدين، وشرائع الإسلام، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والعمل بالقرآن والسنة، والبعد عن الزور والبدعة.
- الصبر: حبس النفس على أمر معين⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

تضمنت هذه الآيات حُكْمًا ومحكومًا عليه ومحكومًا به، فالحُكْم هو ما حكم به تعالى على الإنسان، كل الإنسان من النقصان والخسران، والمحكوم عليه هو الإنسان ابن آدم، والمحكوم به هو الخسران لمن لم يؤمن ويعمل صالحًا، والربح والنجاة من الخسران لمن آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر.

﴿العصر﴾

الواو: للقسم.

العصر: مُقْسَم به، ويراد به الزمان والدهر، الذي هو ظرف ابتلاء الإنسان، ففيه يقوم الإنسان، أي إنسان، ويعمل بما سيكون سببًا في فوز الإنسان أو خسارته. والقسم يرد في القرآن الكريم لتأكيد الخبر الذي أقسم عليه، ويقسم الله بمخلوقاته للفت النظر إليها وبيان مكانتها في الكون أو مكانتها عنده ﷻ.

هذا وقد ذكر أهل التفسير في تحديد كلمة العصر أقوالاً لا بد من الإشارة إلى بعضها، منها: أنَّ المراد بالعصر صلاة العصر الصلاة الوسطى، أو وقت العصر، أو عصر النبي ﷺ، وما أوردناه أعم وأولى بسياق الآيات.

فالله ﷻ يقسم بالزمان الذي هو الظرف الذي يقع فيه اختبار الإنسان في هذه الحياة الدنيا.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 612.

﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾ ٥

ولا بُدَّ لكل قَسَمٍ من جوابِ قَسَمٍ (مقسَم عليه)، وهو هنا قوله ﷺ: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِفِي خُسْرٍ﴾.

فجنس الإنسان في خسران محقق وكبير ومتنوع في كل جانب، وعاقبته ستكون إلى خسران وعدم الفوز، إذا أغفل دوره الذي أنيط به ليقوم به داخل الظرف الزماني الذي وجد فيه.

ومجيء هذا الخبر ليدل على العموم (عموم الإنسان) مع تأكيده بالقسم وحرف التوكيد (إِنَّ)، يفيد التهويل والإنذار بالحالة المحيطة بمعظم الناس.

﴿أَلَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ ٥

ثم يأتي الاستثناء بقوله ﷺ: ﴿أَلَا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾، ليتقرر الحكم تمامًا في نفس السامع مبينًا أَنَّ النَّاسَ فريقان: فريق يلحقه الخسران، وفريق لا يلحقه شيء منه، وهم الَّذِينَ آمَنُوا إذا لم يتركوا شيئًا من الصَّالِحَاتِ، ولم يرتكبوا أضرارها وهي السَّيِّئَاتِ. والإيمان هنا المراد به الإيمان الحقيقي الكامل الذي يرافقه القيام بالأعمال الصَّالِحَاتِ، وهي الأعمال التي تكون وفق منهج الله ﷻ، وفي دائرة الدور الذي خُلق الإنسان لأجله، في كل مجالات الحياة.

ودلَّ هذا الاستثناء على أَنَّ سبب كون باقي البشر في خُسْرٍ هو عدم الإيمان وتركهم العمل الصَّالح.

ودل على أَنَّ من تحقَّق فيه وصف الإيمان ولم يعمل السَّيِّئَاتِ أو عملها وتاب منها، فقد تحقَّق له ضدُّ الخسران، وهو الرِّيح والفوز، أي حسنت عاقبة أمره.

ويكمل هذا الاستثناء بتفصيل لبعض العمل الصالح لأهميته فيقول ﷺ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾، ذلك أَنَّ الإنسان إذا آمن وعمل صالحًا فقد أخذ نفسه في مراقبي الكمال الذاتي، وهذا لا يعني أن يترك غيره لِمَهَبَاتِ رِيحِ الْفِتَنِ وعواصف الشهوات، بل عليه أن يسعى لتكميل غيره وتثبيته على الحق، وذلك بأن يوصي بعضهم بعضًا بالحق، الذي هو الأمر الثَّابِت الَّذِي لا سبيل إلى إنكاره، ولا زوال في الدَّارين لمحاسن آثاره، وهو الخير كُلُّهُ من الإيمان بالله ﷻ واتباع كتبه وأنبيائه -عليهم الصلاة السَّلام- في كلِّ عقدٍ وعملٍ.

وهذا الأسلوب في اللغة يقال له: عطف الخاص على العام، لأنّ التواصي بالحق جزء من العمل الصالح، ويأتي هذا العطف للتأكيد على أهمية المعطوف بحيث استحق أن يذكر وحده، كما أشرنا.

والتواصي بالحقّ يشمل تعليم حقائق الإسلام وشريعته وعقائده والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومع التواصي بالحق لا بد من التواصي بالصبر، فيوصي بعضهم بعضًا بحبس أنفسهم على هذا الحق، والثبات عليه، وألا يخالفوه، وما ذلك إلا لما في إقامة الحق من مشقة، وما يعترض المسلم من أذى في نفسه عند إقامته لبعض الحق.

وعطف التواصي بالصبر على التواصي بالحق من باب عطف الخاص على العام أيضًا، مما يؤكد أهميته، كما سبق⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - فضيلة سورة العصر لاشتمالها على طريق النجاة في ثلاث آيات.
- 2 - أهمية الوقت الذي هو ظرف الابتلاء في هذه الحياة الدنيا.
- 3 - بيان مصير الإنسان الكافر، وأنّه الخسران التام.
- 4 - بيان فوز أهل الإيمان والعمل الصالح المجتنبين للشرك والمعاصي.
- 5 - لا يكفي من المسلم أن يكون صالحًا، بل ينبغي أن يكون مع ذلك مُصلحًا.
- 6 - وجوب التواصي بالحق والتواصي بالصبر بين المسلمين.
- 7 - الحق ثقيل، والمحن تلازمه، فلذلك قرن به التواصي.
- 8 - حقيقة الصبر منع المرء نفسه مما هو مناف لطاعة الله ﷻ ورسوله ﷺ فعلًا أو تركًا⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 308-313. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 483-487. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 610-611. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 810-816. الصابوني، صفوة التفاسير، ص 1542-1544.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام علي الكبير، ج 5 ص 613. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1544.

السورة السابعة: سورة الهمزة

مقدمات:

سمّيت هذه السُورة في المصاحف ومعظم التفسير «سورة الهمزة».
وهي مكيّة بالاتفاق.

وعدّت الثانية والثلاثين في عداد نزول السور. نزلت بعد سورة القيامة وقبل سورة المرسلات.

وآياتها تسع بالاتفاق.

فيمن نزلت السورة:

وقد روي أنها نزلت في جماعة من المشركين كانوا أقاموا أنفسهم للزم المسلمين وسبهم واختلاق الأحدثات السيئة عنهم. وسُمّي من هؤلاء: الوليد بن المغيرة المخزومي، وأمّية بن خلف، وأبي بن خلف، وجميل بن معمر من بني جمح (وهذا أسلم يوم الفتح وشهد حنيناً)، والعاص بن وائل السهمي. وكلّهم من سادة قريش. وسُمّي أيضاً الأسود بن عبد يغوث، والأخنس بن شريق الثقفيّان من سادة ثقيف أهل الطائف. وكلّ هؤلاء من أهل الثراء في الجاهليّة.

وقد جاءت السُورة عامّة فعَمَّ حكمها المذكورين ومن كان على شاكلتهم من المشركين ولم تذكر أسماءهم.

مناسبة السورة لما قبلها:

لما ذكر ﷻ في السورة السابقة «سورة العصر» أنّ الإنسان سوى من استثنى في خسر، بيّن ﷻ في هذه السورة «سورة الهمزة» أحوال بعض الخاسرين، وصفات أهل الضلال.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

وَبِئْسَ لِلْكَافِرِينَ لَمَزَةٌ ① الَّتِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ ② يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ ③ كَلَّا لَيُنْبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ ④ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ ⑤ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ⑥ الَّتِي تَطْلِعُ عَلَى الْآفِئَةِ ⑦ إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ ⑧ فِي عَمَدٍ مُّمدَّدةٍ ⑨ .

- ويل: كلمة يطلب بها العذاب والسخط والهلاك.
- همزة: وصفٌ مشتقٌّ من الهمز، والهمز: الكسر، ومنه: همزت الشيء في كفي، أي عصرتة.
- لمزة: وصفٌ مشتقٌّ من اللمز. واللَّمز: الطُّعن، والمواجهة بالعيب.
- عدَّده: أي: أحصاه أو أعدّه لحوادث الدهر.
- أخلده: أي يجعله خالداً في الحياة لا يموت.
- كلا: ردع وزجر، أي: ليس الأمر كما يزعم ويظن.
- النبذ: الإلقاء والطرح، وأكثر استعماله في إلقاء ما يكره.
- الحطمة: النّار التي من شأنها أن تحطّم وتكسر كلّ من يُلقي فيها.
- تطلع على الأفئدة: أي تشرف على القلوب فتحرقها.
- مؤصدة: مغلقة مطبقة.
- عمَد: جمع عمود أو عماد، وهي قضبان طويلة وثخينة من الخشب أو الحديد.
- ممدّدة: اسم مفعولٍ من مدّده، إذا بالغ في مده، أي الزيادة فيه. والمد: الجذب للبسط⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

﴿وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ﴾ ①

يتوعد الرب ﷻ بالويل، وهو الهلاك، لكل «هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ»، فكلمة (ويلٌ له): دعاءٌ بالويل، وهو سوء الحال والهلاك. والدُّعاء هنا مستعملٌ في الوعيد بالعقاب.

و«الهُمَزَةُ اللَّمَزَةُ»: هو الذي اتَّخذ همز المسلمين ولمزهم ديدناً لهم وعادة. فصيغة «فعلته» التي بنيت عليها كلمة الهمزة واللمزة تفيد دوام صدور هذه الأفعال ممن اتصف بصفة على وزنها.

وقد ورد عن السلف أقوال كثيرة في تفسير كلمتي الهمزة واللمزة، منهم من فرَّق بينهما ومنهم من قال إنهما بمعنى واحد، ويمكن الجمع بين أقوال السلف: أنَّ المقصود

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 614، مع إضافات وتصرف.

بهما الشخص الذي يعتاد أذية المسلم بالسخرية والاستهزاء، بشكل مباشر أو بشكل غير مباشر، بالقول أو بالإشارة والحركات.

وعليه فالآية وعيد بالهلاك والويل لكل من يداوم على الهُزء والسخرية من المسلمين، وأعظم الهلاك هلاك الآخرة بدخول جهنم، والعياذ بالله تعالى.

﴿الَّذِي جَمَعَ مَالًا وَعَدَّدَهُ﴾ ٥

وهذا «الهمزة للزمّة»، لا يفعل ما يفعله من همز ولمز إلا لأنه فاقد للهدف الحقيقي لوجوده، وللتصور الصحيح لحقيقة الأشياء، فهو بدلاً من أن يُسَخَّر نفسه لعبادة الله ﷻ بعمارة الأرض سَخَّر نفسه لجمع المال وعده، وجعله هدفه وغايته، حتى صار مدار فكره وعليه يبني قيمه، وتصرفاته.

والمال: هو مكاسب الإنسان التي تنفعه وتكفي مؤونة حاجته من طعامٍ ولباسٍ، وما يتخذ منه ذلك، كالأنعام والأشجار ذات الثمار المثمرة.

وهذا التصرف إنما ينشأ عن فساد في التصور لحقيقة الأشياء والغاية منها، وما يتولد عن ذلك من بخل النفس والتَّخَوُّف من الفقر.

﴿وَعَدَّدَهُ﴾: في معناه وجوه:

الأول- أنه مأخوذ من العُدّة، وهي الذخيرة لحوادث الدهر، أي: جعله عُدّةً ومُدخراً لنوائب الدهر ومصائبه.

والثاني- أنه من العَدَّ والإحصاء، أي: أكثر من عده، أي: حسابه لشدة ولعه بجمعه فالتَّضعيف للمبالغة في (عدّ) ومعاودته.

والثالث- أنه جُعِلَ أصنافاً وأنواعاً، كعقار ونقود.

والإتيان بكلمة «عَدَّه» لزيادة تشنيع صفتيه الذمّيتين بصفة الحرص على المال.

﴿يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ﴾ ٥

ثم بين الله أساس هذا الانحراف وأصل هذه المشكلة عند هذا الشخص، وهو الظن الخاطئ أن ماله سيكون سبباً في خلوده فينسى الآخرة والرجوع إلى ربه، هذا إن لم ينكرهما.

وحب الخلود شهوة في الإنسان وقع في شباكها أبونا الأول، عندما أغراه إبليس ليأكل من الشجرة ويعصي أمر ربه، قال ﷺ حاكياً فعلة إبليس: ﴿فَوَسَّوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا

آدَمُ هَلْ أَذْكَكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَى﴾ [طه: 120].

فهذا الهمزة للزمزة قد طَوَّلَ المالُ أمله ومَنَاهُ الأمانِي البعيدة، فهو يعمل من تشايد البنيان وغرس الأشجار وكري الأنهار ونحو ذلك، عمل من يظن أنَّ ماله سيبقيه حيًّا مدة متطاولة.

وقد يصل الحال ببعض هذا الصنف أن يحسب ذلك حقيقةً وأَنَّهُ مُخْلَدٌ فعلاً، لفرط غروره واشتغاله بالجمع والتَّكاثُرَ عَمَّا أمامه من قوارع الآخرة أو لزعمه أنَّ الحياة والسَّلامة عن الأمراض والآفات تدور على مراعاة الأسباب الظَّاهرة، وأنَّ المال هو الجالب لها.

﴿كَلَّا لَيُنَبَذَنَّ فِي الْحُطَمَةِ﴾ ①

﴿كَلَّا﴾ إبطالُ لكون المال مُخْلَدًا لهم، وزجرٌ للمخاطبين عن التَّلَبُّس بهذه الحالة الشَّنيعة الَّتِي جعلتهم في حال من يحسب أنَّ المال يخلد صاحبه.

فالحقيقة ليس فيما حسبه هذا الهمزة للزمزة، بل الحقيقة أنَّ مصيره أن يُلْقَى ويُطرح في الحُطمة ذليلاً محتقراً، و«الْحُطْمَةُ»: هي المكان الذي يحطم فيه، وتتحطم فيه كل أمانيه وحساباته الباطل.

ومناسبة الحطمة للكبر وظن الخلود واضحة.

و ﴿لَيُنَبَذَنَّ﴾: واللام دالة على قسمٍ محذوفٍ مقدَّر، أي: والله ليطرحن فيما يكره وبمهانة بسبب أفعاله المذكورة. فأكد هذا الخبر بالقسم لانغماس صاحب الظن الفاسد بظنه.

﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ ②

«وما أدراك ما كذا»: مرَّ بنا أنَّ هذا التركيب الذي يتكرر في القرآن الكريم يستعمل للتهويل والتعظيم، فجاء به هنا لتهويل أمر الحُطمة، ببيان أنَّها ليست من الأمور الَّتِي تصل إلى إدراكها عقول الخلق.

﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ ③

ثم جاءت هذه الجملة جواباً عن السؤال السابق: ﴿وَمَا أَذْرَاكَ مَا الْحُطْمَةُ﴾ لبيان ما هي الحُطمة، فقال -عز من قائل-: هي نار الله الموقدة بأمره ﷻ.

وإضافة «نار» إلى اسم الجلالة ووصفها بالإيقاد لتهويل أمرها، وللترويع بها بأنَّها نارٌ خلقها القادرُ على خلق الأمور العظيمة.

ومع كثرة استعمال كلمة النَّار في القرآن الكريم، لم تأت مضافة إلى الله تعالى إلا في هذه السورة، فشهد ذلك بشدة الإنكار لفتنة المال، وما ينتج عنها من تكبر، وبغي، وعدوان، وضلال.

والتَّوَقُّدُ: ابتداء التَّهَابِ النَّارِ، ويفيد وصف النار بذلك أنها لا تزال تلتهب ولا يزال لهيبها قويًا.

﴿الَّتِي تَطْلُعُ عَلَى الْأَفْنَةِ﴾ ٧

وصف آخر للنار، والاطِّلاعُ: يجوز أن يكون بمعنى الإتيان، مبالغةً في «طلع»، أي الإتيان السريع بقوة واستيلاء، فالمعنى: النار التي تنفذ إلى الأفئدة فتحرقها في وقت حرق ظاهر الجسد نفسه.

أو أن يكون بمعنى الكشف والمشاهدة، فيفيد أنَّ النَّارَ تحرق الأفئدة إحراقاً العالم بما تحتوي عليه الأفئدة من الكفر، فتصيب كلَّ فؤادٍ من شدة الحرق على حسب مبلغ سوء اعتقاده، وذلك بتقديرٍ من الله ﷻ بين شدة النَّارِ وقابليَّة المتأثر بها لا يعلمه إلا مقدِّره.

تخصيص «الأفئدة» بالذكر، لأنَّه محلُّ العقائد والنِّيَّاتِ والملكات، ومنشأ الأعمال، وهؤلاء فسدت عقائدهم وزاغت نياتهم وفسدت ملكاتهم وضلت أعمالهم، فذكر الأفئدة أنسب من ذكر أي جزء من أجزاء الجسد.

﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّدَةٌ﴾ ٧

صفة أخرى للنار، أي: إن جهنم مطبقة مغلقة عليهم. وجاء تأكيدها بـ(إنَّ) لتحويل الوعيد.

﴿عَلَيْهِمْ﴾: تفيد الإطباق الملاصق المباشر، المحيط بهم من كل جانب.

﴿مُّوَصَّدَةٌ﴾: اسم مفعول، من أوصد الباب: إذا أغلقه غلقاً مطبقاً.

ومعنى إيصادها عليهم ملازمة العذاب واليأس من الإفلات منه، كحال المساجين الذين أغلق عليهم باب السَّجْنِ، تمثيل تقريب لشدة العذاب بما هو متعارف في أحوال النَّاسِ، وحال عذاب جهنم أشدُّ ممَّا يبلغه تصوُّر العقول المعتاد.

﴿فِي عَمَدٍ مُمَدَّدَةٍ﴾ ٨

وهي مغلقة عليهم بواسطة أعمدة وقضبان طويلة وثخينة من الخشب أو الحديد. وتُمدَّد هذه العَمَدُ على الأبواب بعد أن توصل وتغلق عليهم، تأكيداً ليأسهم من الخلاص.

وقيل: المعنى أنهم كائنون في عَمِدٍ ممدّدةٍ، أي: موثقين مربوطين بها، وهو عذاب في العذاب⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - تقرير عقيدة البعث والجزاء.
- 2 - فساد التصور والاعتقاد يؤدي إلى فساد السلوك.
- 3 - المسلم يحذر من الذنوب أيًا كان حجمها ومقدارها.
- 4 - التحذير من الغيبة والنميمة والسخرية وإيذاء المسلمين بأي صورة كانت.
- 5 - التنديد بالمغتربين بالأموال المعجبين بها.
- 6 - بيان شدة عذاب النار وفضاعته⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 314-323. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 488-495. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 612-614. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 817-823. الصابوني، صفوة التفاسير، ص 1545-1547.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 615.

وردت تسميتها في كلام بعض السلف سورة «ألم تر».

وسميت في جميع المصاحف وكتب التفسير: «سورة الفيل».

وهي سورة مكية بالاتفاق.

وقد عدت التاسعة عشرة في ترتيب نزول السور، نزلت بعد «سورة الكافرون» وقبل

«سورة الفلق». وقيل: قبل «سورة قريش».

وآياتها خمس.

مناسبة السورة لما قبلها:

مناسبتها لسورة الهزمة أنه لما تضمن الهزم واللمز من الكفرة نوع كيد له ﷻ عَقِبَ

ذلك بقصة أصحاب الفيل، للإشارة إلى أن عَقَبَى كيدهم في الدنيا تدميرهم، فإنَّ عناية الله

ﷻ برسوله ﷺ أقوى وأتم من عنايته ﷻ بالبيت، فالسورة مشيرة إلى مآلهم في الدنيا إثر

بيان مآلهم في الأخرى.

ويجوز أن تكون كالاستدلال على ما أشير إليه فيما قبلها من أن المال لا يغني من الله

تعالى شيئاً، أو على قدرته ﷻ على إنفاذ ما توعد به أولئك الكفرة في قوله ﷻ: ﴿لَيَنْبَذَنَّ

فِي الْخُطْمَةِ﴾ [الهزمة: 4] إلخ.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ ۚ ۝ أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ ۚ ۝ وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ

طَيْرًا أَبَابِيلَ ۖ تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۚ ۝ فَجَعَلَهُمْ كَعَصِفٍ مَّا كُولٍ ۚ ۝

معاني المفردات والتراكيب:

- الرُّؤْيَا: هنا مجازية مستعارة للعلم البالغ من اليقين حدَّ الأمر المرئي، لتواتر ما

فعل الله ﷻ بأصحاب الفيل بين أهل مكة، وبقاء بعض آثار ذلك يشاهدونه.

- الفيل: الحيوان العظيم المعروف.

- أصحاب الفيل: أبرهة الأشرم وجنوده وفيلته.

- الكيد: الاحتيال على إلحاق ضرر بالغير ومعالجة إيقاعه.
- تضليل: التضليل جعل الغير ضالاً، أي: لا يهتدي لمراده، وهو هنا مجاز في الإبطال وعدم نوال المقصود، لأنّ ضلال الطريق عدم وصول السائر.
- أباييل: جماعات جماعات بعضها في إثر بعض، يقال: جاءت غنمك أباييل، أي: فرقاً وجماعات.
- سجيل: طين متحجر مطبوخ.
- العصف، جمع عصفه، وهو ورق الزرع بعد الحصاد كالتين وقشر الحنطة، سمي عصفاً، لأنّ الريح تعصف به، فتفرقه ذات اليمين وذات الشمال⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

هذه السورة خمس آيات تضمنت الحديث عن حادث عظيم وقع قبل ولادة النبي ﷺ، وحكايته ستمر بنا في مبحث السيرة النبوية.

وليست هذه الحادثة سبب نزول السورة، كما ذكر بعضهم، لأنّ سبب النزول يكون وقوعه في زمن تنزل القرآن الكريم، وهذه الحادثة وقعت قبل ولادة النبي ﷺ، أي قبل بدء تنزل القرآن، والإشارة إليها في هذه السورة، كما يشار إلى قصص السابقين في غيرها من السور.

والهدف من ذكر هذا الحدث هنا تذكير النبي ﷺ وهو يواجه عتاة قريش بفعل الله ﷻ بإهلاك الجبابرة، فأين قوة ظلمة قريش، من قوة أبرهة الأشرم وجيشه الذين أبادهم الله تعالى في ساعة، إذن فاصبر يا محمد ولا تحمل لهؤلاء الأعداء همّاً، فإنّ لهم ساعة، فكانت السورة عبارة عن ذكرى للعة والاعتبار.

وكذلك تحمل السورة تهديداً وتحذيراً لقريش بأنّ يحل بها مثل ما حلّ بأصحاب الفيل إن هم تمادوا في غيهم.

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ ①

تخاطب السورة سيد المرسلين ﷺ باستفهام ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ﴾ معناه التنبيه والتعجب.

أي: ألم تعلم يا محمد أو ألم يأتك الخبر، خبر تلك الحالة العجيبة والعقوبة الشنيعة التي فعلها الله ﷻ بأصحاب الفيل، أبرهة وجيشه الذين اصطحبوا الفيلة لهدم الكعبة.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 615-616.

هذه الفعلة الدالة على عظم قدرة الله تعالى، وكمال علمه وحكمته.

وجيء في تعريف الله ﷻ بوصف (رَب) مضافاً إلى ضمير النبي ﷺ ﴿رَبُّكَ﴾: إيماء إلى أنَّ المقصود من التذكير بهذه القصة تكريم النبي ﷺ إرهافاً لنبوته، إذ كان ذلك عام مولده.

﴿أَلَمْ يَجْعَلْ كَيْدَهُمْ فِي تَضْلِيلٍ﴾ ①

أي ألم يُصير الله ﷻ مكرهم وسعيهم في تخريب الكعبة واستباحة أهلها في تضليل عما قصدوا إليه حتى لم يصلوا إلى البيت ولا إلى ما أرادوه بكيدهم من المضرة بقريش بالقتل والسبي، وبالبيت الحرام بالتخريب.

فأله أبطل كيدهم إبطالاً شديداً، إذ لم ينتفعوا بقوتهم مع ضعف أهل مكة وقلة عددهم. وهمزة الاستفهام للتقرير، كأنه قيل: قد جعل كيدهم في تضليل.

﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ﴾ ②

فكانت عقوبتهم أن بعث الله على ذلك الجيش العظيم، الذي يسوق تلك الحيوانات الضخمة، طوائف متفرقة من الطير المتنوعة والصغيرة الحجم، يتبع بعضها بعضاً من نواح شتى.

وانظر كيف قوبلت الفيلة الضخمة التي جاء بها أبرهة بطيور صغيرة، وهذا من عظيم قدرة الله ﷻ ونكايته بأعدائه.

﴿تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ ③

هذه الطيور الصغيرة ترمي أبرهة وجيشه بحجارة من سجيل، أي من طين متحجر، حجارة خلقت لعذابهم.

﴿فَجَعَلْنَاهُمْ كَصَفِيفٍ مَّاكُولٍ﴾ ④

فصيرهم كأنهم تبين أو ورق شجر أو زرع، وقع فيه الأكال، وهو أن يأكله الدود، أو أكل حبه فبقي صفراً منه.

وهذا تصوير لحال أصحاب الفيل بعد تلك النضرة والقوة، كيف صاروا متساقطين على الأرض هالكين.

وذهب غير واحد من أهل التفسير إلى أنَّ المعنى: صيرهم كتنين أو ورق شجر أو زرع أكلته الدواب وراثته، والمراد: صيرهم كالروث، إلا أنَّه لم يذكر بهذا اللفظ لهجنته، فجاء على الآداب القرآنية فشبه تقطع أوصالهم بتفريق أجزاء الروث، ففيه إظهار تشويه حالهم⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - تسلية رسول الله ﷺ عما يلاقيه من ظلم كفار قريش.
- 2 - تذكير قريش بفعل الله ﷻ تخويفاً لهم وترهييباً.
- 3 - مظاهر قدرة الله تعالى في تدبيره لخلقه وبطشه بأعدائه.
- 4 - الله ناصر دينه ومعلي كلمته.
- 5 - مهما جمع أعداء الله ﷻ لحربه وللكيد بدينه من قوة، فإنه ﷻ هازمهم ومبطل ومضلل كيدهم من حيث لا يحتسبون⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 334-338. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 496-502. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 615-617. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 824-831. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1548-1550.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 617.

السورة التاسعة: سورة قريش

مقدمات:

سُمِّيتْ هذه السُّورَةُ في عهد السُّلَفِ «سورة ﴿إِلِيلَافٍ قُرَيْشٍ﴾».

وسُمِّيتْ في المصاحف وكتب التفسير «سورة قريش».

وهي سورة مَكِّيَّةٌ عند جماهير العلماء.

وقد عدت التاسعة والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة التين وقبل سورة القارعة.

وعدد آياتها أربع عند جمهور العاديين.

مناسبة السورة لما قبلها:

في السورتين تذكير بنعم الله ﷻ على أهل مكة، فسورة الفيل جاء فيها إهلاك عدوهم الذي جاء لهدم البيت الحرام أساس مجد قريش وعزمهم، ثم جاء التذكير بالنعمة الأخرى، وتعليل هلاك أصحاب الفيل، لتقر قريش بالحرم، ولأجل ائتلافهم واجتماعهم آمنين بجوار البيت، ألفين هاتين الرحلتين اللتين بهما عيشهم ومقامهم بمكة.

تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِلِيلَافٍ قُرَيْشٍ ① إِيلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ ② فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ ③ الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ ④.

معاني المفردات والتراكيب:

- إِيلَافٍ: الإِيلَافُ: مصدر آلفه الشيء يؤالفه إِيلَافًا، إذا اعتاده وزالت الكلفة عنه والنفرة منه.
- قريش: سكان مكة، وهم من ولد النضر بن كنانة، وهم قبائل شتى.
- رحلة الشتاء: رحلة قريش للتجارة إلى اليمن، وكانت في الشتاء بسبب الجو الدافئ جنوبًا.
- والصيف: رحلة قريش للتجارة إلى الشام، وكانت في الصيف بسبب الجو اللطيف في الشام صيفًا.

- فليعبدوا: أي إن لم يعبدوا الله لأجل سائر نعمه، فليعبدوه لإنعامه عليهم بهاتين الرحلتين.
- رب هذا البيت: أي مالك وسيد البيت الحرام⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

هذه السورة تبدو امتدادًا لسورة الفيل قبلها من ناحية موضوعها وجوها. وإن كانت سورة مستقلة مبدوءة بالبسملة، والروايات تذكر أنه يفصل بين نزول سورة الفيل وسورة قريش تسع سور، ولكن ترتيبهما في المصحف متواليتين يتفق مع موضوعهما القريب.

﴿إِلَافٍ قُرَيْشٍ﴾ ①

استجاب الله ﷻ دعوة خليله إبراهيم عليه السلام، وهو يتوجه إليه عقب بناء البيت وتطهيره: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: 126]، فجعل هذا البيت آمنًا، وجعله متحررًا من سلطة المتسلطين وجبروتهم، وجعل من يأوي إليه آمنًا، حتى حين انحرف الناس وأشركوا بربهم وعبدوا معه الأصنام، لأمر يريده ﷻ بهذا البيت الحرام.

وقد كان لحادث الفيل أثرٌ مضاعف في زيادة حُرمة البيت عند العرب في جميع أنحاء الجزيرة، وزيادة مكانة أهله وسدنته من قريش، مما ساعدهم على أن يسيروا في الأرض آمنين، حيثما حلوا وجدوا الكرامة والرعاية، وشجعهم على إنشاء خطين عظيمين من خطوط التجارة -عن طريق القوافل- إلى اليمن في الجنوب، وإلى الشام في الشمال.

فحرمة البيت في أنحاء الجزيرة قد كفلت لقريش الأمن والسلامة في هذه التجارة المغربية، وجعلت لقريش بصفة خاصة ميزة ظاهرة، وفتحت أمامها أبواب الرزق الواسع المكفول، في أمان وسلام وطمأنينة، وألفت نفوسهم هاتين الرحلتين الآمنتين الراجحتين، فصارتا لهم عادة وإلفًا!

فيخبر الله ﷻ أن الإلف يُنسي النعم، ومن ذلك ما ألفت قُريش من نعم الله ﷻ في كونها تسكن مكة، وما أعطاهها ذلك من أمن ومن ميزات تجارية.

﴿إِلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ﴾ ②

ومما ألفتهم رِحْلَةُ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ والخروج في تجارتهم.

﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ ③

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 617-618.

الفاء لما في الكلام من معنى الشرط، إذ المعنى أن نعم الله تعالى غير محصورة، فإن لم يعبدوا الله لسائر نعمه فليعبدوه لهذه النعمة الجليلة.

والعبادة التي أمروا بها: عبادة الله ﷻ وحده دون إشراك الشركاء معه في العبادة، لأنَّ إشراك من لا يستحقُّ العبادة مع الله ﷻ الذي هو الحقيق بها ليس بعبادة.

وهم قد شغلوا بعبادة الأصنام عن عبادة الله الديان، فلا يذكرون الله ﷻ إلا في أيام الحجِّ في التلبية، على أنهم قد زاد بعضهم فيها بعد قولهم: «لبيك لا شريك لك إلا شريكاً هو لك تملكه وما ملك».

وأوثر إضافة ﴿رَبِّ﴾ إلى ﴿هَذَا الْبَيْتِ﴾ دون أن يقال: «ربهم»، للإيماء إلى أن البيت هو أصل النعمة التي ألقوها، بأن أمر الله ﷻ إبراهيم عليه السلام ببناء البيت الحرام، فكان سبباً لرفعة شأنهم بين العرب، قال تعالى: ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكعبةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ وَالشَّهَرِ الْحَرَامَ وَالْهَدْيَ وَالْقَلَائِدَ ذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [المائدة: 97].

والبيت: معهودٌ عند المخاطبين، وهو الكعبة التي حميت من أصحاب الفيل.

والإشارة إليه بـ ﴿هَذَا﴾: لأنه كان كالحاضر في مقام الكلام.

و«رب البيت»: هو الله، والعرب يعترفون بذلك.

﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ ①

بما هيا لهم من أسباب، حيثُ أطعمهم الله بسبب تلك الرحلتين من جوع شديد كانوا فيه قبلهما. وكذلك تفضل ﷻ عليهم بالأمن من خوف شديد كانوا فيه نتيجة للغزو والإغارة، التي كانت شائعة بين قبائل العرب، قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ نُنَكِّسْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُحْيِي إِلَيْهِ نَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [القصاص: 57].

فكان جديرًا بهم أن يقابلوا هذه النعم بسرعة الأوبة إليه والاستجابة لنبيه الكريم ﷺ فيفردوه بالعبادة وحده لا شريك له، ولا يعبدون من دونه صنماً ولا ندًا ولا وثناً⁽¹⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج29 ص393-349. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج20 ص503-510. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج5 ص618-621. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12 ص832-839. الصابوني، صفوة التفاسير، ص1551-1552.

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - بيان إفضال الله تعالى على قريش وإنعامه عليها، الأمر الذي تطلب شكرها ولم تشكر فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بتركها للشكر.
- 2 - وجوب عبادة الله تعالى وترك عبادة من سواه.
- 3 - وجوب الشكر على النعم وشكرها حمداً لله تعالى والثناء عليه بها وصرفها في مرضاته.
- 4 - الإطعام من الجوع والتأمين من الخوف عليهما مدار كامل أجهزة الدولة، فأرقى الدول اليوم وقبل اليوم لم تستطع أن تحقق لشعوبها هاتين النعمتين نعمة العيش الرغد والأمن التام.
- 5 - الرزق وتيسير أسبابه من الله ﷻ وحفظها يكون بشكره وأداء حقه بعبادته وحده ﷻ (1).

السورة العاشرة: سورة الماعون

مقدمات:

سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ في كثيرٍ من المصاحف وُكُتِبَ التَّفْسِيرُ: «سورة الماعون»، لَوُزُود لفظ «الماعون» فيها دُونَ غيرها من السور.

وَسُمِّيَتْ في بعض التَّفاسير: «سورة أَرَأَيْتَ»، حسب مطلعها.

وهي سورة مكية في قول الجمهور، وقيل: مدينة.

وُعِدَتْ السابعة عشرة في عداد نزول السور بناءً على أَنَّها مكية، نزلت بعد سورة التكاثر وقبل سورة الكافرون.

وُعِدَتْ آياتها ستاً أو سبْعاً عند العادِّين.

مناسبة هذه السورة لما قبلها:

أَنَّهُ ﷻ لما ذكر في سورة قريش: ﴿أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ﴾ [قريش: 4] ذم ﷻ هنا من لم يحض على طعام المسكين.

ولما قال تعالى هناك: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ [قريش: 3] ذم ﷻ هنا من سها عن صلاته.

أو لما عدد نعمه تعالى على قريش، وكانوا لا يؤمنون بالبعث والجزاء، أتبع ﷻ امتنانه عليهم بتهديدهم بالجزاء وتخويفهم من عذابه.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْإِيمَانِ ۚ فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ ۚ وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ ۚ
فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ۚ الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ ۚ الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ ۚ وَيَمْنَعُونَ
الْمَاعُونَ ۚ ﴿٥﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- أَرَأَيْتَ: أي هل عرفته؟
- بالدين: بالجزاء والحساب.
- يدع اليتيم: يدع: يدفع بعنف وشدة، أي: يدفع اليتيم عن حقه بعنف.

- الحُضُّ: هو الحثُّ والترغيب.
- طعام المسكين: إطعام المساكين.
- سَاهُون: جمع سَاهٍ يقال: سَهَا عن كَذَا يسهو سهوًا، إذا تركه عن غفلة، فالسَّهْوُ: الدُّهُولُ عن أمرٍ سبق علمُهُ.
- يراءون: أي يراءون بأعمالهم الناس، فلم يخلصوا لله تعالى في ذلك.
- الماعون: الشيء القليل، من المعن وهو القلة، أو هو من العون، فيشمل كل ما فيه منفعة، كالفأس، والقدر، والدلو، وغير ذلك مما ينتفع به ويرد بعينه⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

هذه السُّورَةُ الصَّغِيرَةُ تُعَالِجُ حَقِيقَةً، هِيَ أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَيْسَ دِينَ مَظَاهِرٍ وَشَعَائِرٍ خَالِيَةٍ مِنَ الْإِخْلَاصِ لِلَّهِ ﷻ، لَا تَدْفَعُ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ، وَتَتِمَّتُلُ فِي سُلُوكِ تَصْلُحُ بِهِ الْحَيَاةُ وَتَرْقَى، بَلْ هُوَ دِينَ يَدْفَعُ فِيهِ الْإِيمَانَ إِذَا اسْتَقَرَّ بِالْقَلْبِ إِلَى الْعَمَلِ الصَّالِحِ الَّذِي يَنْفَعُ النَّاسَ وَيَنْفَعُ صَاحِبَهُ.

كَذَلِكَ تَقَرَّرُ أَنَّ هَذَا الدِّينَ لَيْسَ أَجْزَاءً مُوزَّعَةً مُنْفَصِلَةً، وَإِنَّمَا هُوَ مِنْهَجٌ مُتَكَامِلٌ، تَتَعَاوَنُ عِبَادَاتُهُ وَشَعَائِرُهُ، وَتَكْلِيفُهُ الْفَرْدِيَّةُ وَالْاجْتِمَاعِيَّةُ، حَيْثُ تَنْتَهِي كُلُّهَا إِلَى غَايَةٍ تَتِمَّتُلُ فِيهَا رَحْمَةُ اللَّهِ السَّابِغَةُ بِالْعِبَادِ.

﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكْذِبُ بِالَّذِينَ﴾ ①

افْتَتَحَتِ السُّورَةُ بِاسْتِفْهَامٍ يَهْدَفُ إِلَى تَشْوِيقِ السَّامِعِ إِلَى التَّعَرُّفِ عَلَى ذَلِكَ الْمُكَذِّبِ بِالذِّينِ، وَأَنَّ ذَلِكَ مِمَّا يَجِبُ عَلَى الْمُتَدِينِ لِيَحْتَرِزَ عَنْهُ وَعَنْ فَعْلِهِ.

وَيَفِيدُ الْاسْتِفْهَامَ التَّعْجِيبَ مِنْ تَكْذِيبِهِمُ بِالذِّينِ، وَمَا تَفَرَّعَ عَلَيْهِ مِنْ دَعْوِ الْيَتِيمِ وَعَدَمِ الْحُضِّ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ.

وَالْخَطَابُ: لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَوْ لِكُلِّ مَنْ يَصْلَحُ لَهُ.

وَالرُّؤْيَا: بِمَعْنَى الْمَعْرِفَةِ.

وَالْتَكْذِيبُ بِالذِّينِ: عَدَمُ الْإِقْرَارِ وَالْإِيمَانِ، وَالذِّينُ: يَأْتِي بِمَعْنَى: الْجَزَاءُ، وَهُوَ أَحَدُ مَعَانِيهِ، وَمَنْه: «كَمَا تَدِينُ تَدَانُ».

وَيَأْتِي بِمَعْنَى الْحِسَابِ أَوْ الْإِسْلَامِ، كَمَا هُوَ الْأَشْهُرُ، وَلَعَلَّهُ مُرَادٌ مِنْ فَسْرِهِ بِالْقُرْآنِ.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 19-20.

فألاية تقول للنبي ﷺ ولكل من يصلح أن يخاطب بهذا الخطاب: أعلمت وعرفت الحال العجيبة المستغربة للذي يكذب بالجزاء في الآخرة والحساب، أو يكذب بهذا الدين وكتابه، وأثار ذلك عليه وعلى سلوكه وتصرفاته؟

﴿تَذَلُّكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ﴾ ⑤

فبسبب تكذيبه بالدين وبسبب فساد عقيدته، فإنك ترى في سلوكه سلوكياتٍ لثيمة، لا تصدر عن إنسان سوي، أولها: أنه يدع اليتيم. يدفعه بعنفٍ وقهرٍ، لكيلا يصل إلى حقه، فيا له من لؤم لا يصدر إلا عن مكذب بدين الله وبحسابه وجزائه.

واليتيم: هو من فقد أباه قبل البلوغ.

ويقال لمن فقد أمه: العجى، ولمن فقد أبويه معاً: اللطيم.

﴿وَلَا يَخْضُ عَلَى طَعَامِ الْمَسْكِينِ﴾ ⑥

وثاني هذه السلوكيات اللاإنسانية عدم الحض على إطعام المساكين.

أي: أنه لا يحث ولا يشجع ولا يرغب أحداً سواء من أهله أو من غيرهم من الموسرين، على طعام المسكين، أي بذل الطعام للمساكين.

والمسكين في هذا الموطن: هو الفقير عامة.

وجيء في: «يُكذَّبُ»، و«يَدْعُ»، و«يَخْضُ» بصيغة المضارع لإفادة تكرُّر ذلك منه ودوامه. فهذه الأفعال تصدر من ذلك الشخص باستمرار، وكأنها صارت له سجية.

﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ ① الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ ①، ②

ثم يأتي التهديد والوعيد بالهلاك لمن هو ساهٍ عن صلاته، أي تارك لها بالمطلق، وليس هو المسلم الذي يسهو في صلاته، وهذا فهمناه من حرف الجر «عن»، الذي نلمح فيه دقة التعبير القرآني، إذ لو أراد السهو في الصلاة الذي نقع فيه جميعاً لقال: «الذين هم (في) صلاتهم ساهون»، أما لما أتى حرف الجر عن فدل على السهو المؤدي إلى الترك بالكلية.

والفاء: في قوله تعالى: ﴿قَوْلٌ﴾ جزائية: أي جزاء ما سبق من أفعاله.

ووصفهم بـ«المُصَلِّينَ» تهكُّمٌ، والمراد عدمه، أي الذين لا يُصَلُّون، كقوله تعالى في أهل

النار: ﴿مَّا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ③ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: 42-43].

و﴿سَاهُونَ﴾: أي: معرضون وتاركون لها عن عمدٍ كما أشرنا.

وهو سلوك راسخ في شخصياتهم، كما دل عليه استعمال اسم الفاعل ﴿سَاهُونَ﴾.

﴿الَّذِينَ هُمْ يُرَآؤُونَ﴾ (٦)

وهؤلاء الساهون عن صلاتهم التاركون لها يراؤون بأعمالهم، فيقصّدون بأيّ عملٍ يقومون به أن يرى النَّاسُ أنَّهم يفعلونه، إما نفاقاً وإما ليتحدّث النَّاسُ بمحاسن ما هُم بموصوفين بها، والله غني عنهم وعن أعمالهم، جاء في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رسول الله ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشُّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِيَ غَيْرِي، تَرَكْتَهُ وَشَرَكْتَهُ»^(١).

والفعل المضارع ﴿يُرَآؤُونَ﴾ يدل على استمرارهم ودوامهم على هذا الفعل القبيح الرياء.

﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ (٧)

وهم مع ذلك يمنعون الماعون، والماعون: يُطلق على الإعانة بالمال، فالمعنى: يمنعون فضلهم أو يمنعون الصدقة على الفقراء.

ويُطلق أيضاً على ما يُستعان به على عمل البيت من آنية وآلات طبخٍ وشدٍّ وحفرٍ ونحو ذلك ممّا لا خسارة على صاحبه في إعارته وإعطائه.

وقيل: يطلق على الشيء القليل.

وهذا ذمٌّ لهم بمُنتهى البخل، وهو الشُّحُّ والمنع بما ولما لا يؤثر عليهم سلباً^(٢).

والفعل المضارع ﴿يَمْنَعُونَ﴾ يدل أيضاً على استمرارهم ودوامهم على هذا الفعل القبيح المنع لأسباب نفع الناس مما يحوزونه ويملكونه.

إذن هي نفس معتمة القلب، وتظهر هذه العتمة بمنعها للخير وعدم قيامها بالخير، وإن قامت بشيء منه قامت به رياءً، وكل ذلك سببه التكذيب بيوم الدين وبالأخرة والحساب.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

1 - تقرير عقيدة البعث والجزاء.

(١) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الزهد والرقائق، باب من أشرك في عمله غير الله، رقم (2985).

(٢) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 385-350. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 511-518. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 622-625. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 840-846. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1553-1555.

- 2 - أيما قلب خلا من عقيدة البعث والجزاء إلا وصاحبه شر الخلق ولا خير فيه.
- 3 - الإيمان بالبعث والجزاء هو الوازع الحق الذي يغرس في النفس جذور الإقبال على الأعمال الصالحة حتى يصير ذلك لها خلقاً، فتزكو وتنساق إلى الخير دون كلفة ولا احتياج إلى أمر ولا إلى مخافة ممن يُقيم العقوبات.
- 4 - التنديد بالذين يأكلون أموال اليتامى ويدفعونهم عن حقوقهم استصغاراً لهم واحتقاراً.
- 5 - التنديد والوعيد للذين يتركون الصلاة ولا يبالون بها، ولا في أي وقت صلوها، وهو من علامات النفاق والعياذ بالله.
- 6 - دقة التعبير القرآني وبيان إعجازه.
- 7 - خطورة الرياء وترك الإخلاص لله ﷻ.
- 8 - منع الماعون من صفات المكذبين بالدين.
- 9 - الحث على البذل والصدقة⁽¹⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 621.

سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ «سُورَةُ الْكَوْثَرِ».

وقد وقع الخلاف في مكيتها:

1 - قال الجُمهُور: هي مَكِّيَّةٌ، بناءً على مُقتضى ما يُروى في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، فقد روي عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: إنَّ سورة الكوثر قد نزلت في العاص بن وائل، وذلك لأنَّه لقي رسول الله ﷺ وهو يخرج من المسجد فتحدَّثا، فسأله جماعة من كفار قريش من كان يُحدِّث، فأخبرهم أنَّه كان يتحدَّث مع الأبتَر -يقصد رسول الله ﷺ- وذلك لأنَّ ابنه القاسم كان قد توفي -وكانوا يسمُّون من ليس له ابن ذكر بالأبتَر، فنزلت سورة الكوثر⁽¹⁾.

2 - وقيل: هي مدنيَّة، وهو ما رجحه جمع من أهل العلم، ويشهدُ له ما جاء في الصحيح عن أنس ؓ قال: (بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً، ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُنَبِّسًا، فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ أَنْفًا سُورَةٌ، فَقَرَأْتُ: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ إِنَّنَا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ ۝ وَاخْرُجْ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾»⁽²⁾.

وأنس أسلم في صدر الهجرة، فإذا كان لفظُ «أنفًا» في كلام النبي ﷺ مُستعملًا في ظاهر معناه وهو الزَّمَنُ القريبُ، فالسُّورَةُ نزلت مُنْذُ وَقْتٍ قَرِيبٍ من حُصُولِ تلك الرؤيا. ومُقتضى ظاهر تفسير قوله تعالى: ﴿وَاخْرُجْ﴾ من أنَّ النحر في الحجِّ أو يوم الأضحي فتكونُ السُّورَةُ مدنيَّةً، ويبعثُ على أنَّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ليس ردًّا على كلام العاصي بن وائل -والله أعلم-.

وعلى القول بأنَّها مكية عدوها الخامسة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة العاديات وقبل سورة التكاثر، وعلى القول بأنَّها مدنية فقد قيل: إنها نزلت في الحديبية.

(1) أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 2001م)، ص 494.

(2) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب الصلاة، باب حجة من قال بالبسلة آية من أول كل سورة سوى براءة، رقم (400).

وعدد آياتها ثلاث بلا خلاف، وهي أقصر سُور القرآن من حيثُ عدد الكلمات وعدد الحُرُوف، وأما في عدد الآيات فسُورة العَصْرِ وسُورة النَّصْرِ مثلها، ولكن كلماتهما أكثر. مناسبة السورة لما قبلها:

هذه السورة كالمقابلة للسورة المتقدمة، لأنَّ سورة العصر مثال لكون الإنسان في خُسْر، وهذه السورة للمستثنين منهم، بل لأشرفهم وأفضلهم، وهو النبي ﷺ، بل له ولشأنه، فكأنَّها مثال للفريقين جميعًا، هذا وجه إجمالي، وأما الوجه التفصيلي:

فقلوه: ﴿إِنَّا أَعْظَمْنَاكَ الْكُوْثَرَ﴾ أي: الخير الكثير، وقع في مقابلة الدَّع والمنع من الإطعام.

وقوله: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾ أي: دم على الصلاة، وقع بإزاء قوله: ﴿عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ﴾ [الماعون: 5].

وقوله: ﴿لِرَبِّكَ﴾ مكان قوله: ﴿يُرَآؤُونَ﴾ [الماعون: 6].

وقوله: ﴿وَانْحَرِ﴾ والمراد به التصدق بلحوم الأضاحي، بحذاء قوله: ﴿وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ﴾ [الماعون: 7].

ثم ختم السورة بقوله: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، أي: الذي تضاد طريقته طريقتك سيزول عنه ما يفتخر به من المال والجاه والأحساب والأنساب، ويبقى لك ولمتابعيك الذكر الجميل في الدنيا والثواب الجزيل في العقبى، بل يدوم لك النسب الصوري بسبب أولادك الشرفاء، والنسب المعنوي بواسطة أتباع العلماء⁽¹⁾.

تفسير السورة

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا أَعْظَمْنَاكَ الْكُوْثَرَ ۝ فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرِ ۝ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ ۝

معاني المفردات والتراكيب:

- الكوثر: تُسمَّى العربُ كلَّ شيء كثير في العدد والقدر كوثرًا.
- وانحر: النحر خاص بالإبل، وهو بمنزلة الذبح في البقر والغنم.
- الشانئ: المبغض من الشنآن، بمعنى العداوة والبغض.

(1) نظام الدين الحسن بن محمد القمي النيسابوري، غرائب القرآن ورغائب الفرقان، تحقيق: زكريا عميرات، (بيروت: دار الكتب، ط1، 1416هـ)، ج6 ص575.

- الأبتَر: المنقطع عن كل خير، من البتر، وهو القطع، يقال: بترت الشيء يعني قطعتَه، ويقال للذي لا نسل له أبتَر، لأنه انقطع نسبه⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي للسورة:

﴿إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ﴾⁽²⁾

هذه الآيات الثلاث مختصة برسول الله ﷺ، إذ هو المخاطب بها، وأنها تحمل طابع التسرية لرسول الله ﷺ. فتبدأ بخطاب الله ﷻ نبيه ﷺ مبشراً بأنه قد أعطاه الكوثر، ويؤكد تلك البشارة بحرف التأكيد «إِنَّ»، الذي يفتح الكلام به للاهتمام بالخبر.

ويأتي ضميرُ العظمة «نا» في (إِنَّا)، للإشعار بالامتنان بأن ما أعطاه الله ﷻ شيء عظيم، لأنَّ العظيم لا يعطي إلا العظيم، وهو أيضاً يستتبع الإشعار بالتنويه بشأن النبي ﷺ عند الله.

وفي التعبير بالماضي ﴿أَعْطَيْنَاكَ﴾ إشارة إلى أَنَّ العطاء قد تحقق وقوعه.

و﴿الْكَوْثَرَ﴾ ذهب أهل التفسير في تفسيره إلى:

1 - إما أَنَّهُ نهر في الجنة، لما جاء عَنْ أَنَسٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَإِذَا أَنَا بِنَهْرٍ حَافَتَاهُ خِيَامُ اللَّوْلُؤِ، فَضَرَبْتُ بِيَدِي إِلَى مَا يَجْرِي فِيهِ الْمَاءُ، فَإِذَا مِسْكٌ أَذْفَرُ، قُلْتُ: مَا هَذَا يَا جِبْرِيلُ؟ قَالَ: هَذَا الْكَوْثَرُ الَّذِي أَعْطَاكَهُ اللَّهُ»⁽²⁾.

2 - وإما أَنَّهُ الخير الكثير والنعم الدنيوية والأخروية، فعن سعيد بن جبیر -رحمه الله- عن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (الكوثر: الخير الذي أعطاه الله تعالى إياه ﷺ). قال أبو بشر: قلت لسعيد بن جبیر -رحمه الله- فَإِنَّ نَاسًا يَزْعُمُونَ أَنَّهُ نهر في الجنة؟ قال: النهر الذي في الجنة من الخير الذي أعطاه الله ﷻ إياه ﷺ⁽³⁾.

وفيه إشارة إلى أَنَّ ما جاء في تفسيره ﷺ بالنهر من باب التمثيل والتخصيص.

وأريد من هذا الخبر بشارة النبي ﷺ، وإزالة ما عسى أن يكون في خاطره من قول من قال فيه: هُوَ أبتَر، فقبول معنى الأبتَر بمعنى الكوثر، إبطالاً لقولهم.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج5 ص621.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (12008)، ج19 ص66. وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(3) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم، ج8 ص501.

﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ ٢

ثم رتب ﷺ على هذا الوعد أمر النبي ﷺ بالصلاة: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ﴾، والمراد بالصلاة: جنس الصلاة، أو الفريضة، وقيل: المراد بها صلاة العيد وبالنحر التضحية.

وإذا كان المراد الفريضة: فالمقصود الدوام عليها، أي: قدم على الصلاة لربك.

أي قُمْ بالصلاة ودُم عليها شكرًا لله الذي أفاض عليك ما أفاض من الخير الكثير، مخلصًا لوجهه ﷺ على خلاف حال الساهين عنها المرائين فيها، وذلك أداء لحق شكره ﷺ.

وإضافته «ربًّا» إلى ضمير المُخاطب في ﴿لِرَبِّكَ﴾: لقصد تشريف النبي ﷺ وتقريبه.

﴿وَانْحَرْ﴾: وانحر البدن والإبل التي هي خيار أموال العرب باسمه تعالى وفي سبيله، وتصدق على الفقراء والمحتاجين أيضًا شكرًا لله على ما من عليك.

﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾ ٣

هذه الجملة كالتعليل لما يفهمه الكلام، فكأنه قيل: إنا أعطيناك ما لا يدخل تحت الحصر من النعم، ومنها نهر في الجنة، فاشكر الله على ذلك من خلال الصلاة له والنحر خالصًا لوجهه الكريم، ولا تكثر بقول الشانئ المبغض لك أيًا كان، فإنَّه هو الأبتَر المقطوع عن كل خير في الدنيا والآخرة، لا أنت يا محمد ﷺ الذي منَّ الله عليك بالخير الكثير⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - بيان إكرام الله تعالى لرسوله محمد ﷺ.
- 2 - تأكيد أحاديث الكوثر وأنه نهر في الجنة.
- 3 - وجوب الإخلاص في العبادات كلها لا سيما الصلاة والنحر.
- 4 - مشروعية الدعاء على الظالم.
- 5 - لا مقارنة بين عطاء الله ﷻ في الآخرة وما يعطونه هم وغيرهم في الدنيا⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 373-359. وابن عادل الحنبلي، الباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 519-526. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 626-630. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 847-853. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1556-1558.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 622.

السورة الثانية عشرة: سورة الكافرون

مقدمات:

عُرفت هذه السورة باسم (سورة الكافرون) على حكاية لفظ القرآن الواقع في أولها.

أو «سورة ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾».

وهي سورة مكية باتفاق.

وقد عُدت الثامنة عشرة في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الماعون وقبل سورة الفيل.

وعدد آياتها ست.

فضلها:

جاء في فضلها أحاديث منها:

أن النبي ﷺ مرَّ برجل يقرأ: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾، قال: «أَمَا هَذَا فَقَدْ بَرِئَ مِنَ الشُّرْكِ» قال: «وَإِذَا آخَرُ يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «بِهَا وَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ»، وفي رواية: «أما هذا، فقد غُفِرَ له»⁽¹⁾.

سبب نزولها:

جاء في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ كان يطوف بالكعبة فاعترضه الأسود بن المُطَلِّب، والوليد بن المغيرة وأمّية بن خلف، والعاص بن وائل. وكانوا ذوي أسنانٍ في قومهم، فقالوا: يا مُحَمَّدُ هَلُمَّ فلنعبُد ما تعبدُ سنّةً وتعبد ما نعبدُ سنّةً، فنشترك نحنُ وأنت في الأمر، فإن كان الذي تعبدُ خيراً ممّا نعبدُ كُنّا قد أخذنا بحظنا منه، وإن كان ما نعبدُ خيراً ممّا تعبدُ كُنْتَ قد أخذت بحظك منه. فقال ﷺ: معاذ الله أن أشرك به غيره. فأنزل الله فيهم: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ السورة كُلُّها، فغدا رسولُ الله ﷺ إلى المسجد الحرام وفيه الملائكة من قريش فقرأها عليهم فيئسوا منه عند ذلك.

مناسبة السورة لما قبلها:

لما خُتِمت سورة الكوثر بردُّ على الكافرين في قوله تعالى: ﴿إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الْأَبْتَرُ﴾، افتتحت هذه السورة بالردِّ عليهم وعلى أقوالهم الباطلة. وكذلك في سورة الكوثر أمرٌ بتوجيه

(1) رواه الإمام أحمد، المسند، رقم (16605)، ج 27 ص 150. وصحَّحه محققوه.

عبادتي الصلاة والنحر لله ﷻ، فجاءت سورة الكافرون بعدها كذلك تأمر بإخلاص الدين العملي كله لله ﷻ، والعلم عند الله وحده.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ❶ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ❷ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❸ وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ ❹ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ❺ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ❻﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- الكافرون: الذين لم يؤمنوا برسول الله ﷺ من أهل مكة.
- العبادة لغة: العمل الممزوج بالتعظيم الذي يؤدي إلى الطاعة والخضوع والتذلل خوفاً وطمعاً أو هي الخضوع والتذلل لآخر بقصد تعظيمه، ويحرم هذا الخضوع إلا لله تعالى⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

لم يكن العرب يجحدون وجود الله ﷻ، قال ﷻ: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: 61]، وقال ﷻ: ﴿وَلَيْزَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [العنكبوت: 63]، وقال: ﴿وَلَيْنَ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: 25]، ولكنهم كانوا لا يعرفونه بحقيقته التي وصف بها نفسه، فكانوا يشركون به ولا يقدرونه حق قدره، ولا يعبدونه حق عبادته. كانوا يشركون به الأصنام التي اتخذوها لتقربهم إلى الله ﷻ، كما حكى عنهم قولهم: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: 3].

فلما جاءهم محمد ﷺ يقول: إِنَّ دِينَهُ هُوَ دِينُ إِبْرَاهِيمَ ﷺ. قالوا: نحن على دين إبراهيم، فما حاجتنا إذن إلى ترك ما نحن عليه واتباع محمد؟! وفي الوقت ذاته راحوا يحاولون مع الرسول ﷺ حُطَّةً وسطاً بينهم وبينه فعرضوا عليه أن يعبد آلهتهم مقابل أن يعبدوا هم إلهه! وأن يسكت عن عيب آلهتهم وعبادتهم.

ولحسم هذه الشبهة، وقطع الطريق على المحاولة نزلت هذه السورة، بجزم وتوكيد تضمنه التكرار، لئنهي كل قول، وتقطع كل مساومة وتفرق نهائياً بين التوحيد والشرك.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 623.

﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ﴾ ①

قل يا محمد لهؤلاء الكافرين من قريش الذين يدعونك إلى عبادة الأوثان والأحجار، ونادهم ليسمعوك، ونادهم بالوصف الذي يكرهونه، وبما يُثيرُ غضبهم تحقيرًا لهم، وإظهارًا لهم من أول الأمر أنَّ عبادتهم لأصنامهم كفر يبعدهم عن الله ﷻ ولا يقربهم منه.

وفي ذلك أيضًا إظهار أنه لا يخشاهم ولا يخشى آلهتهم المزعومة.

وقد افتتحت هذه السورة بـ ﴿قُلْ﴾، والسُّورُ الْمُفْتَتَحَةُ بالأمر بالقول خمسُ سُورٍ: سورة الجن، وسُورَةُ الْكَافِرُونَ، وسُورَةُ الْإِخْلَاصِ، والمُعَوِّذَتَانِ.

فالثَلَاثُ الْأُولُ لقولٍ يُبَلِّغُهُ، والمُعَوِّذَتَانِ لقولٍ يقولُهُ لتعويدِ نفسه.

وفائدة هذا الافتتاح الاهتمام بما بعد القول بأنَّه كلامٌ يرادُ إبلاغُهُ إلى النَّاسِ بوجهٍ خاصٍّ منصوص فيه على أنَّه ﷻ مُرسلٌ بقولٍ يُبَلِّغُهُ، وإلاَّ فَإِنَّ الْقُرْآنَ كُلَّهُ مأمورٌ بإبلاغه.

وابتداً القول المراد تبليغه بالنداء: ﴿يَا أَيُّهَا﴾ للمبالغة في طلب إقبالهم لسماع ما سيبلاغهم به، لئلا يفوتهم شيء مما سيلقى إليهم، لأنَّ النَّدَاءَ يستدعي إقبال أذهانهم على ما سيلقى عليهم.

﴿لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ ②

أمام عروض المشركين المحاولة تمييع العقيدة يأتي الرد بالرفض عليها، فقل يا محمد لهؤلاء الكافرين لا أعبد ما تعبدونه من الأصنام والأوثان، وأنا بريء من آلهتكم ومعبوداتكم، التي لا تضر ولا تنفع، ولا تغني عن عابدها شيئاً.

فأنا لم أعبد ما عبده الكافرون قبل أن أبعث وأكونَ نبي التوحيد، فهل يعقل أنني بعد بعثتي وأمرني لكم بالتوحيد أن أعبد ما تعبدونه أيها الكافرون؟!

وجاءت الجملة فعلية، والجملة الفعلية دالة على الحدوث والتجدد، فالنفي: في قوله: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾ يتناول نفي عبادته لمعبودهم في الزمان الحاضر والمستقبل.

واستعمال المضارع المنفي: ﴿لَا أَعْبُدُ﴾: يفيدُ كمال البراءة من الشرك، واستمرار الولاء لله ﷻ. ودوام العبادة وصدق الطاعة لله ﷻ.

و﴿تَعْبُدُونَ﴾: فعل مضارع يدلُّ على ديمومة عبادتهم فيتناول ما كانوا يعبدونه في الحاضر وما سيعبدونه في المستقبل.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ﴾ ③

ولا أنتم يا معشر المشركين، عابدون إلهي الحق الذي أعبدته، وهو الله وحده، فأنا أعبد الإله الحق، وأنتم تعبدون الأحجار والأوثان، فلا مساومة بيننا ولا وفاق.

وعبادة الله ﷻ لا يعتد بها حتى تكون لله وحده، أما إن عبد الله مع غيره فهذه ليست عبادة لله، كذلك فإن مفهوم العبادة أشمل من مجرد طقوس وشعائر تؤدي، فعبادة الله منهج حياة، فإذا صلوا وصاموا دون أن يكملوا مقتضيات العبادة التي هي كمال الخضوع والتذلل لله ﷻ في كل جانب من جوانب الحياة، فلا يعتبرون عابدين لله حقاً، لذا فهم لن يعبدوا الله العبادة التي يريدونها. وعلى فرض أنهم عبدوا الله فترة من الزمن ثم انتكسوا إلى الشرك، فإن الشرك يحبط ما قبله فكأنهم لم يعبدوه ﷻ.

والجملة في هذه الآية اسمية، والجملة الاسمية دالة على الثبوت، فإنهم لما اتصفوا بكفرهم على وجه الثبات، نفى عنهم عبادة الله على وجه الثبات.

﴿وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَا عَبَدْتُمْ﴾ ①

تأتي هذه الآية لتؤكد ما قررته الآية الثانية من السورة، من البراءة من عبادة الأصنام، وقطع لأطماع الكفار، كأنه قال: لا أعبد هذه الأوثان في الحال ولا في الاستقبال، فأنا لا أعبد ما تعبدونه أبداً ما عشت.

وتأتي الجملة هنا «اسميّة» للدلالة على الثبات، وهذا أبلغ في النفي.

وكون الخبر اسم فاعل ﴿عَابِدٌ﴾ دال على زمان الحال، فإنه لما نفى عن نفسه أن يعبد في المستقبل ما يعبدونه بقوله: ﴿لَا أُعْبِدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾، صرح هنا بما تقتضيه الدلالة غير المباشرة على نفي أن يعبد آلهتهم في الحال، بما هو صريح الدلالة على ذلك، لأن المقام يقتضي مزيد البيان، لتأييسهم مما راودوه عليه ولمقابلة كلامهم المردود بمثله في إفادة الثبات.

﴿وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أُعْبِدُ﴾ ②

قد حصل من ذكر هذه الجملة بمثل نظيرتها السابقة توكيد للجملة السابقة، والمقصود من التأكيد: تحقيق تكذيبهم في عرضهم أنهم يعبدون رب محمد ﷺ.

﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ ③

وبناءً على ما سبق فلكل طريقه، الذي لا يلتقي مع الآخر لما بينهما من فواصل تبعدهما عن بعضهما، ف﴿لَكُمْ﴾ أيها الكافرون ﴿دِينُكُمْ﴾ أي لكم شرككم، ﴿وَلِيَ دِينِ﴾ أنا

توحيدي، وهذا غاية في التخلي والإعراض عن عبادة الكفار، والتأكيد على عبادة الواحد القهار.

كأنه قال: لا معبودنا واحد، ولا عبادتنا واحدة، فدينكم الكفر والإشراك، وديني التوحيد والإخلاص.

والدين هنا: معناه العقيدة والملة، وهو معلومات وعقائد يعتقدها المرء، فتجري أعماله على مقتضاها، ويجازى عليها، لذلك سُمِّي دينًا، لأنَّ أصل معنى الدين المُعاملَة والجزاء. وكذلك فُسر الدين بالحساب وبالجزاء على أصل معناه، أي: لكم حسابكم وجزاؤكم ولي حسابي وجزائي عند الله ﷻ، لا يرجع إلى كل منا من عمل صاحبه أثر.

وقدَّم في كلتا الجُمْلَتين الجار والمجرور ﴿لَكُمْ﴾ و﴿وَلِي﴾ ليفيد القصر، أي: دينُكم مقصُورٌ عليكم، فهو لكم ولا يتجاوزكم ليكون لي، وديني مقصُورٌ عليَّ لا يتجاوزني ليكون لكم. واللام في الموضعين: لشبه الملك وهو الاختصاص أو الاستحقاق⁽¹⁾.
الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - ولاية الله تعالى لرسوله ﷺ وعصمته من قبول اقتراح المشركين الباطل.
- 2 - تقرير وجود التباعد بين أهل الإيمان وأهل الكفر والشرك.
- 3 - عبادة الله لا يجوز أن تشوبها شائبة⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 374-389. وابن عادل الحنبلي، الباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 527-536. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 631-636. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 854-859. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1559-1560.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 624.

سُمِّيَتْ هذه السُّورَةُ في كلام السَّلَف: «سُورَةُ ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾».

وسُمِّيَتْ: «سُورَةُ النَّصْرِ»، لذكر نصر الله فيها.

وهي سورة مدنيَّةٌ بالاتِّفاق.

واختلف في وقت نزولها.

وعدُّ آياتها ثلاثٌ، وهي مُساوِيَةٌ كما أشرنا لِسُورَةِ الْكَوْثَرِ في عدد الآيات إِلَّا أَنَّهَا أطولُ منها في عدد الكلماتِ، وأقصرُ من سُورَةِ الْعَصْرِ، المساوية لها في عدد الآيات.

مناسبة السورة لما قبلها:

في هذه السورة إشارة إلى اضمحلال ملة الأصنام وظهور دين الله ﷻ على أتم وجه وهي التي دُعي إليها رسول الله ﷺ.

ما أوَمأت إليه السورة:

وقد تضافرت الأخبارُ أنَّ هذه السُّورَةَ تشتملُ على إيماءٍ إلى اقتراب أجل رسول الله ﷺ ففي حديث ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- في «صحيح البخاري»: «هُوَ أَجَلُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَعْلَمُهُ لَهُ، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ [النَّصْر: 1] وذلك علامةُ أهلك: ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النَّصْر: 3].

وهذا المنزع الذي ذكره ابن عباس ذكره ابن مسعود وأصحابه، ومجاهد وقتادة والضحاك، وتأوله عمر والعباس بحضرة رسول الله ﷺ، فصدقهما.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝ ﴿٢﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- المجيء: جاء هنا بمعنى: حصل وتحقق.
- النَّصْرُ: هو تسليط الإنسان على عدوه بحيث يتمكن منه ويخذه ويكبته.

- الفتح: امتلاك بلد العدو وأرضه، لأنه يكون بفتح باب البلد، ويكون باقتحام ثغور الأرض ومحارستها، وهو هنا فتح مكة.
- الرؤية: يجوز أن تكون علمية، أي وعلمت علم اليقين أن الناس يدخلون في دين الله أفواجًا وذلك بالأخبار الواردة من آفاق بلاد العرب ومواطن قبائلهم وبمن يحضر من وفودهم.
- ويجوز أن تكون رؤية بصرية بأن رأى أفواج وفود العرب يردون إلى المدينة يدخلون في الإسلام وذلك سنة تسع.
- الناس: اسم جمع يدل على جماعة من آدميين.
- دين الله: هو ملة الإسلام التي لا دين له تعالى يضاف إليه غيرها.
- الأفواج: جمع فوج، وهو الجماعة المارة بسرعة، ويراد به مطلق الجماعة.
- التسبيح: التنزيه لله، فسيح: أي فنزهه تعالى بكل ذكر يدل على التنزيه.
- معنى الباء: الباء للملابسة والمُصاحبة بمعنى (مع).
- الحمد: الثناء على الله المتضمن الشكر والمدح⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

هذه السورة القصيرة، تحمل البشرية لرسول الله ﷺ بنصر الله والفتح ودخول الناس في دين الله أفواجًا، وتوجهه ﷺ حين يتحقق نصر الله ﷻ وفتحه واجتماع الناس على دينه إلى التوجه إلى ربه، بالتسبيح والحمد والاستغفار.

﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ ٥

يخاطب الله ﷻ نبيه محمدًا ﷺ مبشرًا له بنصره وفتحه عليه، وبأنه سيأتي ذلك الوقت.

والمراد بهذا النصر: ما كان في أمر مكة من غلبته ﷺ على قريش.

وقيل: بل المراد جنس نصر الله لرسوله ﷺ والمؤمنين.

وإضافة «نصر» إلى «الله» ﴿نَصْرُ اللَّهِ﴾: تُشعر بتعظيم هذا النصر، وتشريفه لما سيكون بعده.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 625.

﴿وَالْفَتْحُ﴾: الفتح المذكور: فتح مكة، كما يشعر به التعريف بلام العهد، وهو المعهود في الأذهان.

والفتح من حيث المعنى به نصر، لكن عطف على النصر تنويهاً بشأنه، وهو من باب عطف الخاص على العام.

﴿وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ ⑤

ثم يبين الله ﷻ لنبيه ﷺ أنه لما حصل هذا النصر وهذا الفتح فإنك يا محمد ﷺ ستري الناس في إقبال شديد على الدين، فصاروا ﴿يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾. والدخول في الدين: مُستعارٌ للنطق بكلمة الشهادة والتزام أحكام الدين الناشئة عن تلك الشهادة.

والمراد بـ﴿أَفْوَاجًا﴾: أي جماعات كثيرة، يدخلون الإسلام من غير قتال، وقد كان ذلك بعد فتح مكة، وكانوا قبل الفتح يدخلون فيه فرادى، وفي بعض الأحيان في الخفاء والسر، فصاروا يدخلون في دين الله بعد الفتح أفواجًا، وصارت الوفود ترد على النبي ﷺ في المدينة من كل جانب، حتى سُمي العام التاسع عام الوفود، كما سيأتي في مبحث السيرة.

﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ ⑥

فإذا جاء النصر والفتح ورأيت دخول الناس في دين الله أفواجًا، يا محمد ﷺ فتوجه إلى الله بتسبيح ممزوج بالحمد وأكثر من استغفاره ﷻ.

ومعنى ﴿سَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أي: سَبِّحْهُ تسبيحًا مقرونًا بالحمد، والتسبيحُ تَنْزِيْهُ الله وتقديسه تعالى عما لا يليق بجلاله، والحمد هو الثناء عليه بالكمال مع الشكر والتعظيم، واجمع بين التنزيه وبين الحمد، ومع ذلك كله ﴿وَاسْتَغْفِرْهُ﴾، فأمره الله تعالى بأمرين: الأمر الأول: التسبيح المقرون بالحمد.

والثاني: الاستغفار.

ومعنى الاستغفار: طلب المغفرة، والمغفرة سَتْرُ الله تعالى على عبده ذنوبه مع مَحْوِها والتجاوز عنها، وهذا غاية ما يريد العبد، لأن العبد كثير الذنب، يحتاج إلى مغفرة، إن لم يتغمده الله ﷻ برحمته هَلَكَ.

﴿إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ أي: لم يزل الله ﷻ تَوَّابًا على عباده، فإذا استغفرته تَابَ عليك.

تَأْوِيلُ النَّبِيِّ ﷺ لِلْأَمْرِ:

في الصحيحين عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ أَنْ يَقُولَ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ رَبَّنَا وَبِحَمْدِكَ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي» يَتَأَوَّلُ الْقُرْآنَ)⁽²⁾، تعني هذه السورة.

فعن عائشة -رضي الله عنها- أيضًا قالت كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُكْثِرُ فِي آخِرِ أَمْرِهِ مِنْ قَوْلٍ: «سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ». قَالَتْ: فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا لِي أَرَاكَ تُكْثِرُ مِنْ قَوْلِ سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ؟ قَالَ: «إِنَّ رَبِّي ﷻ كَانَ أَخْبَرَنِي أَنِّي سَأَرَى عَلَامَةً فِي أُمَّتِي، وَأَمَرَنِي إِذَا رَأَيْتُهَا أَنْ أَسْبِّحَ بِحَمْدِهِ، وَأَسْتَغْفِرَهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا، فَقَدْ رَأَيْتُهَا: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۖ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۖ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر: 1-3]»⁽³⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - جاء عن ابن عباس أَنَّ آخر سورة نزلت كاملة هي سورة النصر.
- 2 - وجوب الشكر عند تحقق النعمة بالقول والعمل، ومن ذلك سجدة الشكر.
- 3 - مشروعية قول: سبحانك اللهم وبحمدك اللهم اغفر لي في الركوع⁽⁴⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 390-403. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 538-547. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 637-640. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 860-869. والصابوني، صفوة التفاسير، ص 1561-1562.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب، صفة الصلاة، باب التسبيح والدعاء في السجود، رقم (817). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الصلاة، باب ما يقال في الركوع والسجود، رقم (484).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (24066)، ج 40 ص 76. وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(4) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 625-626.

السورة الرابعة عشرة: سورة المسد

مقدمات:

- سُمِّيت هذه السُورة في أكثر المصاحف «سورة تَبَّتْ».
- وسُمِّيت في بعض المصاحف وبعض التفسير «سورة المسد».
- وهي سورة مكية باتفاق.
- وعدت السادسة من السور نزولاً، نزلت بعد سورة الفاتحة وقبل سورة التكوين.
- وعدد آياتها خمس.

مناسبة السورة لما قبلها:

لما ذكر ﷺ في السورة السابقة دخول الناس في ملة الإسلام أفواجاً أعقبه بذكر هلاك بعض ممن لم يدخل فيها وخسرانه.

سبب نزولها:

عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: (صعد رسول الله ﷺ ذات يوم على الصفا فنادى: «يَا صَبَاحَاهُ»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «إِنِّي نَذِيرُ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابٍ شَدِيدٍ، أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنِّي أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ الْعَدُوَّ مُمْسِكُكُمْ أَوْ مُصَبِّحُكُمْ أَكُنْتُمْ تُصَدِّقُونِي»، فقال أبو لهب: أَلِهَذَا جَمَعْتَنَا تَبًّا لَكَ، فَأَنْزَلَ اللهُ: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: 1] (1).

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ① مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ② سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ③
وَأَمْرُهُ خَمَالَةٌ ④ الْحَطَبِ ⑤ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ⑥ ﴿٥﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- التَّبُّ: مادة التَّبَاب تدور على القطع، وهو مؤدٌّ إلى الهلاك والخسران الدائم.
- ما كَسَبَ: ما جمعه من المال، وما أنجبه من الولد وغيره.
- سيصلى: الصَّلَى الشَّوِيُّ بالنار.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدا أبي لهب وتب، رقم (4971).
ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ غَيْرَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (208).

- الجيد: العنق، وغلب في الاستعمال على عنق المرأة وعلى محلّ القلادة منه.
- الحبل: ضفيرٌ من اللّيف أو من سيور جلدٍ في طولٍ متفاوتٍ.
- المسد: ما مُسد أي فُتل من الحبال فتلاً شديداً من الليف أو غيره⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

مضمون هذه السورة زجر لأبي لهب ووعيد له على أذية النبي ﷺ، ووعيد لامراته أيضاً على انتصارها لزوجها، وبغضها النبي ﷺ.

﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ ١

في اللغة العربية يعبر باليدين عن الذات والنفس، فالآية تتوعد أبا لهب بالتباب الذي هو الهلاك والخسران، وذلك على مواقفه السلبية والمناوئة لرسول الله ﷺ، التي تمثلت بصدّه عن الدعوة وأذية النبي ﷺ مادياً ومعنوياً، وتؤكد ذلك بإعادة فعل التباب مرة أخرى. وأبو لهب: أحد أعمام النبي ﷺ، واسمه عبد العزى، وكان من أشد الناس عداوة للنبي ﷺ، وأذية وبغضاً له وازدراءً به وتنقصاً له ولدعوته، مات على كفره بعد وقعة بدر، ولم يحضرها.

وقد اشتهر بكنيته، وعُرف بها، إمّا لولد له يقال له: لهب، وإمّا لتلهب وجنتيه وإشراقهما. وبها سمّاه القرآن دون اسمه، وذلك:

- 1 - لأنّ في اسمه عبادة العزى، وذلك لا يقره القرآن.
- 2 - أو لأنّه كان بكنيته أشهر منه باسمه العلم.
- 3 - أو لأنّه كما كان يكنى بذلك لتلهب وجنتيه وإشراقهما فذكر بذلك تهكماً به وبافتخاره بذلك.
- 4 - أو لتجانس كنيته مع «ذات لهب»، فيتوافقان لفظاً ومعنى، مع الإشارة إلى أنّه من أهل النار، وأنّ مآله إلى نار ذات لهب، فوافقت حاله كنيته، فحُسّن ذكره بها.

﴿مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ﴾ ٢

انتقلت الآيات من إنشاء الوعيد بالهلاك والخسران إلى الإعلام لأبي لهب إلى أنّه: لن يشفع له شيء، ولن يُغني عنه ما كسبه من مال وجمعه، ولن يغني عنه وجاهة وعزة اكتسبها في قومه ولن ينفعه أولاده في دفع شيء من عذاب الله ﷻ عنه لا في الدنيا ولا في الآخرة.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 626.

﴿سَيَصِلُ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ ②

ثم توعده الله ﷻ أبا لهب بأنه سيشوى بنار عظيمة، متصفة بأنها ﴿ذَاتَ لَهَبٍ﴾ أي: ذات اشتعال وتوقد، وهي نار الآخرة.

والسين في: ﴿سَيَصِلُ﴾: للتحقيق ولتأكيد الوعيد.

﴿وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾ ①

أعقب ذم أبي لهب ووعيده له بوعيدٍ مثله لامراته، لأنها كانت تشاركه في أذى النبي ﷺ وتعينه عليه. أي: وسيصلى النار ذات اللهب زوجه معه.

وكانت زوجته من سادات نساء قريش، وهي أم جميل، واسمها أروى بنت حرب بن أمية، وهي أخت أبي سفيان، وكانت عوناً لزوجها على كفره وجحوده وعناده، وإيذائه للنبي ﷺ. وإنما وصفت بأنها ﴿حَمَّالَةَ الْحَطَبِ﴾، قيل: كانت تحمل حزمة من الشوك والحسك، فتنتشرها بالليل في طريق النبي ﷺ لإيذائه.

وقيل: لأنها كانت تحطب الكلام، بمعنى أنها كانت تمشي بالنميمة، إذ شبهوا النميمة بالحطب، والعداوة والشحناء بالنار، لأنهما يقعان بالنميمة، كما تلتهب النار بالحطب، فكانت امرأة أبي لهب تنم على النبي ﷺ وأصحابه إلى المشركين، وقال الفراء: كانت تنم فتحرش فتوقع بينهم العداوة.

﴿فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ﴾ ⑤

إخبار بما تعامل به زوجة أبي لهب في الآخرة، حيث سيُجعل لها حبلٌ من مسدٍ في جيدها، أي: في عنقها، تحمل فيه الحطب في جهنم لتسعير النار على زوجها جزاءً مماثلاً لعملها في الدنيا الذي أغضب الله تعالى عليها.

وهذه السورة أوضح الأدلة على صدق القرآن، وأنه من عند الله، فقد علم أبو لهب وامراته أنهما سيصليان نارًا ذات لهب، ومع ذلك فقد بقيا على كفرهما⁽¹⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج29 ص404-419. وابن عادل الحنبلي، الباب في علوم الكتاب، ج20 ص548-558. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج5 ص641-643. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12 ص870-877. والصابوني، صفوة التفاسير، ص1563-1565.

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - بيان حكم الله ﷻ بأبي لهب، وإبطال كيده الذي كان يكيده لرسول الله ﷺ.
- 2 - لا يغني المال ولا الولد عن العبد شيئاً من عذاب الله ﷻ إذا عمل بما يسخط الله وترك ما يرضيه.
- 3 - حرمة أذية المؤمنين مطلقاً.
- 3 - عدم إغناء القرابة شيئاً مع الشرك والكفر، إذ إن أبا لهب عمُ النبي ﷺ وهو في النار ذات اللهب.
- 5 - صدق ما أخبر به القرآن وأنه لا يتبدل ولا يتغير⁽¹⁾.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 627.

السورة الخامسة عشرة: سُورَةُ الْإِخْلَاصِ

مقدمات:

المشهورُ في تسمية هذه السورة في عهد النَّبِيِّ ﷺ وفي أكثر ما رُوي عن الصَّحابة تسميتها «سُورَةُ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾».

وسُمِّيَتْ في أكثر المصاحف وفي مُعظم التِّفَاسِير بِـ«سُورَةِ الْإِخْلَاصِ». وتُسَمَّى الْمُعَوِّذَةُ، لقول النَّبِيِّ ﷺ لِعُثْمَانَ بْنِ مِظْعُونٍ ؓ وهو مريضٌ: «فَعَوِّذْهُ بِهَا. وبالسُّورَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَهَا»، وقال له: «تَعَوِّذْ بِهَا».

وهي سورة مكيَّةٌ في قول الجُمهور.

وعُدَّت السورة الثانية والعشرين في عداد نزول السور، نزلت بعد سورة الناس وقبل سورة النجم.

وآياتها أربع، وعند أهل مكة والشام خمس باعتبار ﴿لَمْ يَلِدْ﴾ آية ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾ آية.

مناسبة السورة لما قبلها:

هي متصلة بـ«سورة الكافرون» في المعنى، فهما بمنزلة كلمة التوحيد في النفي والإثبات، وقرن بينهما في القراءة في صلوات كثيرة إلا أنه فُصل بينهما بسورتين: «سورة النصر»، و«سورة المسد»، لكون «سورة النصر» قرنت بسورة «الكافرون»، لأنَّ سورة «الكافرون» تضمنت اختلاف دين الرسول ودين قريش، وسورة النصر تضمنت أنَّ دينه ﷺ هو الغالب، وهو المنصور، وسورة المسد قرنت بسورة النصر، لأنَّ سورة النصر تضمنت أنَّ ثواب الطاعة حصول النصر والغلبة والاستعلاء في الدنيا، وسورة المسد بينت أنَّ عاقبة العاصي الخسران في الدنيا فلهذا تلتها.

سبب نزولها:

ما جاء عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ ؓ (أَنَّ قُرَيْشًا قَالُوا لِلنَّبِيِّ ﷺ: «انْسِبْ لَنَا رَبَّكَ»، فنزلت ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلى آخرها)⁽¹⁾، فتكون مكيَّةً.

وما روي خلاف ذلك فهو أشدُّ منه ضعفًا.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (3364)، ج 35 ص 243-44، وقال محققوه: إسناده ضعيف. والترمذي، الجامع، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ومن سورة الإخلاص، رقم (3364)، وقال الأرناؤوط: إسناده ضعيف. والحاكم، المستدرک، رقم (4031)، ج 4 ص 719. وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يُخرجاه. وقال محققوه: والإسناد إليه حسن.

الأحاديث في فضائل السورة كثيرة، منها:

عن عائشة -رضي الله عنها-: أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ بَعَثَ رَجُلًا عَلَى سَرِيَّةٍ، وَكَانَ يَقْرَأُ لِأَصْحَابِهِ فِي صَلَاتِهِمْ، فَيَخْتُمُ بِـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، فَلَمَّا رَجَعُوا ذَكَرُوا ذَلِكَ لِلنَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: «سَلُّوهُ: لِأَيِّ شَيْءٍ يَصْنَعُ ذَلِكَ؟». فَسَأَلُوهُ، فَقَالَ: لِأَنَّهَا صِفَةُ الرَّحْمَنِ، وَأَنَا أُحِبُّ أَنْ أَقْرَأَ بِهَا. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَخْبِرُوهُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يُحِبُّهُ»⁽¹⁾.

وعن أبي سعيد ؓ أَنَّ رَجُلًا سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ، وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالَّهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ»⁽²⁾.

وعن عائشة -رضي الله عنها- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلِّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفِّيه، ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، وَ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾، ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ، وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ، يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ⁽³⁾.

هذه بعض الأحاديث التي وردت في فضل سورة الإخلاص.

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ١ اللَّهُ الصَّمَدُ ٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ٣ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ ٤

معاني المفردات والتراكيب:

- الصمد: السيد الذي يصمد إليه في الحوائج، والمقصود في قضاء الحوائج على الدوام.

- لم يلد: أي: لا يفنى، إذ لا شيء يلد إلا وهو فان بائد لا محالة.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التوحيد، باب: ما جاء في دعاء النبي ﷺ أمته إلى توحيد الله، رقم (6940). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة قل هو الله أحد، رقم (813).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، رقم (4726).

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل القرآن، باب: فضل المعوذات، رقم (4729).

- ولم يولد: أي: ليس بمحدث بأن لم يكن فكان هو كائن أولاً وأبداً.
- كُفُّوا: المساوي والمماثل والنظير والشبيه في الصفات (1).

التفسير الإجمالي:

تضمنت السورة أعرض الخطوط الرئيسية في حقيقة الإسلام.

﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ (١)

فقد أمر النبي ﷺ أن يبينها حقيقة لا غَبَشَ فيها، وأن يُعلنها على الملأ أن الله هو وحده المنفرد بالألوهية بذاته وصفاته.

قل يا محمد لهؤلاء المشركين في وصف ربي الذي أعبد، والذي أدعوك لعبادته، أنه هو الواحد الأحد لا شريك له، ولا شبيه له ولا نظير، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله، المتفرد بالألوهية، المستحق وحده العبادة، لا شريك له في ذلك، كما لم يشاركه أحد في خلق الخلق.

وافتتح هذه السورة بالأمر بالقول:

- 1 - لإظهار العناية بما بعد فعل القول.
- 2 - أو لأنها نزلت على سبب قول المشركين: انسب لنا ربك، فكانت جواباً عن سؤالهم، فلذلك قيل له: ﴿قُلْ﴾ فكان للأمر بفعل قل فائدتان.

﴿أَحَدٌ﴾: اسمٌ بمعنى «واحد». ومأل الوصف إلى معنى نفي الشريك له تعالى في ألوهيته ﷻ.

وأوثر «أحد» هنا على «واحد»: لأنه في اللغة صفةٌ مُشَبَّهَةٌ. وصيغة الصفة المُشَبَّهَةُ تُفيدُ تمكُّن الوصف في موصوفها بأنه ذاتيُّ له.

﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (٢)

وما دام الله هو المنفرد بالألوهية فالأصل أنه السيّد الذي ينتهي إليه السؤدد، الذي لا يُستغنى عنه في المهمّات، الذي ليس فوقه أحد، الذي يَصِمِدُ إِلَيْهِ ويقصده عبادةً بالدعاء والطلب في حوائجهم وأمورهم، وهو القادر على إجابتها وتلبيتها لهم.

وتكرار لفظ الجلالة: للتنبيه على أن كُلاً من الوصفين مُستقلٌّ في تعيين الذات.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 628.

وَالصَّمَدُ: من أسماء الله ﷻ الحسنى، وهو سبحانه الصَّمَدُ الْحَقُّ الْكَامِلُ الصَّمَدِيَّةُ عَلَى وَجْهِ الْعُمُومِ.

وصيغَةُ ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ صيغَةُ قَصْرِ تُفِيدُ قَصْرَ صِفَةِ الصَّمَدِيَّةِ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَذَلِكَ لِإِبْطَالِ مَا تَعَوَّدَهُ أَهْلُ الشَّرْكَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ مِنْ دُعَاءِ الْأَصْنَامِ فِي حَوَائِجِهِمْ وَالْفَزْعِ إِلَيْهَا فِي نَوَائِبِهِمْ حَتَّى نَسُوا اللَّهَ.

﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ ٢

بعد أن أبطلت الآية الأولى من هذه السورة تعدد الإله بالأصالة والاستقلال، أبطلت هذه الآية تعدد الإله بطريق تولد إله عن إله، لأنَّ المتولد مُساوٍ لما تولد عنه.

﴿لَمْ يَلِدْ﴾: أي لم يتخذ ولدًا، وليس له أبناء وبنات، فكما هو متصف بالكمالات، فإنَّه منزَّه عن النقائص، ففي الآية رد على كل من جعل لله ولدًا، كاليهود: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عِزَّى ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، والنصارى: ﴿وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ﴾ [التوبة: 30]، ومشركي العرب في زعمهم الكاذب أنَّ الملائكة بنات الله، قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ [النحل: 57]، فردَّ الله ﷻ على الجميع، في أنَّه ليس له ولد، لأنَّ الولد لا بُدَّ أن يكون من جنس والده، والله تعالى هو الأول ليس قبله شيء، فلا يمكن أن يكون له ولد، ولأنَّ الولد لا يكون إلا لمن له زوجة، والله تعالى ليس له زوجة، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أُنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: 101].

ثم قال: ﴿وَلَمْ يُولَدْ﴾، أي: ولم يولد من أب ولا أم، لأنَّ كل مولود حادث، والله تعالى غير حادث، فلا يصح أن يكون مولودًا ولا أن يكون له والد. وقَدَّم نفْيَ الولد لأنَّه أهمُّ، إذ قد نسب أهل الضلالة الولد إلى الله تعالى ولم ينسبوا إلى الله والدًا، أو لكثرة متوهمي خلاف الأول دون خلاف الثاني.

﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ ٣

أي لم يوجد ولن يوجد أحد كُفُوًا له يماثله أو يشاكله، لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

و﴿أَحَدٌ﴾: هُنا بمعنى إنسان أو موجود⁽¹⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج29 ص420-456. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج20 ص559-567. والشوكاني، فتح

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - معرفة الله تعالى بأسمائه وصفاته.
- 2 - تقرير التوحيد والنبوة.
- 3 - بطلان نسبة الولد إلى الله تعالى.
- 4 - وجوب عبادته ﷻ وحده لا شريك له فيها، إذ هو ذو الألوهية على خلقه دون سواه (1).

القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 644-650. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 878-888. الصابوني، صفوة التفاسير، ص 1566-1568.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 629.

السورة السادسة عشرة: سُورَةُ الْفَلَقِ

مقدمات:

سَمَّى النَّبِيُّ ﷺ هذه السُّورَةَ سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾.
وَسُمِّيَتْ فِي أَكْثَرِ الْمَصَاحِفِ وَمُعْظَمِ كُتُبِ التَّفْسِيرِ: (سُورَةُ الْفَلَقِ).
وَجَاءَ فِي بَعْضِ كَلَامِ الصَّحَابَةِ ؓ تَسْمِيَّتُهَا مَعَ سُورَةِ النَّاسِ: (الْمُعَوِّذَتَيْنِ).
وَاخْتَلَفَ فِيهَا أَمَكِّيَّةٌ هِيَ أَمْ مَدَنِيَّةٌ؟ وَالْأَصَحُّ أَنَّهَا سُورَةٌ مَكِّيَّةٌ.
وَعُدَّتِ الْعِشْرِينَ فِي عِدَادِ نَزُولِ السُّورِ، نَزَلَتْ بَعْدَ سُورَةِ الْفِيلِ وَقَبْلَ سُورَةِ النَّاسِ.
د. آيَاتُهَا خَمْسٌ بِالِاتِّفَاقِ.

فضلها:

جاء في فضلها مع سورة الناس وسورة الإخلاص:

عَنْ عُقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَلَمْ تَرَ آيَاتِ أَنْزَلَتْ اللَّيْلَةَ لَمْ يَرْ مِثْلَهُنَّ قَطُّ: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾»⁽¹⁾.
وَعَنْ عَائِشَةَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ كَانَ إِذَا أَوَى إِلَى فِرَاشِهِ كُلَّ لَيْلَةٍ جَمَعَ كَفَّيْهِ ثُمَّ نَفَثَ فِيهِمَا فَقَرَأَ فِيهِمَا: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾، و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ثُمَّ يَمْسَحُ بِهِمَا مَا اسْتَطَاعَ مِنْ جَسَدِهِ، يَبْدَأُ بِهِمَا عَلَى رَأْسِهِ وَوَجْهِهِ وَمَا أَقْبَلَ مِنْ جَسَدِهِ يَفْعَلُ ذَلِكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ⁽²⁾.

مناسبة السورة لما قبلها:

لَمَّا شَرَحَ أَمْرَ الْإِلَهِيَّةِ فِي السُّورَةِ الَّتِي قَبْلَهَا جِيءَ بِهَذِهِ السُّورَةِ شَرْحًا لَمَّا يُسْتَعَاذُ مِنْهُ بِاللَّهِ تَعَالَى مِنَ الشَّرِّ الَّذِي فِي مَرَاتِبِ الْعَالَمِ وَمَرَاتِبِ مَخْلُوقَاتِهِ.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة المعوذتين، رقم (814).

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يقرأ القرآن عند المنام، رقم (3402)، وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ﴿١﴾ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ﴿٢﴾ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ﴿٣﴾ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ﴿٤﴾ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ﴿٥﴾ ﴿٦﴾

معاني المفردات والتراكيب:

- أعوذ: أي أستجير وأتحصن ألتجئ وأعتصم وأتحرز. والعوذ: اللجأ إلى شيء يقي من يلجأ إليه ما يخافه.
- الفلق: حقيقة الفلق: الانشقاق عن باطن شيء.
- غاسق: الغاسق الليل، وصف الليل إذا اشتدت ظلمته، يُقال: غسق الليل يغسق، إذا أظلم، قال تعالى: إلى غسق الليل.
- وقب: دخل بظلامه، والوقوب: الدخول.
- النفث: هو النفخ دون تفل بالريق، فإذا كان معه ريق فهو التفل، وسيأتي.
- النفاثات: جمع نافثة، ويقصد به الساحرات اللاتي ينفثن في عُقدن يصنعنها أو المقصود نفوس السحرة ذكورا وإناثا.
- في العقد: أي في العقد التي يعقدنها الساحرات.
- إذا حسد: إذا أظهر حسده وأعمله⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ ﴿١﴾

الخطاب في ﴿قُلْ﴾: للنبي ﷺ، وخطاب النبي ﷺ يشمل الأمة، حيث لا دليل على تخصيصه به ﷺ.

ومعظم المفسرين على أنَّ الفلق هو الصبح، ومنهم من ذهب إلى الفلق هو: الخلق أجمعين، لأنَّ أساس عملية التخلق مبنية على الانفلاق والانقسام في الخلايا وأضرابها، كما أثبت العلم الحديث، وهو ما نميل إليه في تفسير هذه الكلمة هنا، وذلك لمناسبتها للمستعاض منه وهو ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، فيستعيز المرء برب الخلق من شرهم.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 629-630، مع إضافة وتعديل.

فمعنى الآية: قل يا محمد، وقل أيها المؤمن، إِنِّي أَلْتَجِيءُ وَأَعْتَصِمُ بِرَبِّ الْخَلْقِ أَجْمَعِينَ، ومنهم الصبح الذي ينفلق عنه الليل، وينجلي عنه الظلام.

واختير «الرب» هنا من بين أسماء الله ﷻ، لأنَّ الإعادة من المضارَّ تربيةً.

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾ ①

بعد الاستعاذة برب الفلق جاء بيان المستعاذ منه، وهو من شرِّ الذين خلقهم الله ﷻ، والله خالق كل شيء، فالاستعاذة من شرِّ الخلق أجمعين، الإنس والجنُّ والشياطين والسَّباع والهوامُّ والنَّار والدُّنُوب والهوى وشرُّ النَّفْس وشرُّ العمل.

وهو أيضًا استعاذة من كل شرِّ في الدُّنيا والآخرة.

﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾ ②

وبعد الاستعاذة من شرِّ جميع الخلق عطَّف شرَّ أشياء خاصَّة، هي ممَّا شمله عُمومُ:

﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾، وهي ثلاثة أنواعٍ من أنواع الشُّرُور:

أحدهما: وقتٌ يغلبُ وقوعُ الشرِّ فيه، وهو اللَّيْلُ.

والثَّاني: صنفٌ من النَّاس أقيمت صناعتُهُم على إرادة الشرِّ بالغير.

والثَّالثُ: صنفٌ من النَّاس ذُو خُلُقٍ من شأنه أن يبعثَ على إلحاق الأذى بمن تعلَّق به.

فأول هذه الثلاثة جاء في قوله تعالى: ﴿وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ﴾: أي: من شرِّ الليل إذا دخل وتغلغل فأظلمت الدنيا، واشتد ظلامها.

وإعادة كلمتي «مِنْ شَرِّ» في الجُمْلَتَيْنِ: قصداً لتأكيد الدُّعاء تعرُّضاً للإجابة، وهذا من الابتهاال فيُناسبه الإطنابُ والإطالة.

وتنكير «غاسقٍ»: في مقام الدُّعاء يَراودُّ منه العُمومُ وشُمُولُ الشرِّ لجميع أفرادهِ ولكُلِّ أجزائه، لأنَّ مقامَ الدُّعاء يُناسبُ التَّعميمَ.

وتقييدُ «الغاسق» بظرف ﴿إِذَا وَقَبَ﴾، لأنَّ ذلك وقتٌ يتحيَّنه اللصوص وأصحابُ العبت، لتحقُّقُ غلبة الغفلة والنُّوم على النَّاس فيه، يُقال: أغدر اللَّيْلُ، لأنَّه إذا اشتدَّ ظلامُه كثرُ الغدر فيه، فعبرَ عن ذلك بأنَّه أغدرُ، أي: صار ذا غدرٍ على طريق المجاز العقليِّ.

﴿وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ﴾ ③

هذا النُّوعُ الثَّاني من الأنواع الخاصَّة المعطوفة على العامِّ من قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا

خَلَقَ﴾.

عطف «شَرُّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ» على شَرِّ اللَّيْلِ، لَأَنَّ اللَّيْلَ أَيْضًا وَقْتُ يَتَحَيَّنُ فِيهِ السَّحَرَةُ إِجْرَاءَ شَعُوذَتِهِمْ لئَلَّا يَطَّلَعَ عَلَيْهِمْ أَحَدٌ.

فلاستعانة والاعتصام والالتجاء إلى الله ﷻ من شَرِّ مَنْ يتعاطى السحر، ذكورًا وإناثًا، من خلال أفعال معينة منها أَنَّهُمْ يعقدون ويربطون عُقْدًا في خيط أو ما شابهه وينفقون عليها، يزعمون أَنَّ السحر يبقى ما بقيت العقدة، ولذلك يخافون من حلِّها فيدفنونها أو يخفونها في محلٍّ لا يَهْتَدَى إليه.

والمُرَادُ بـ«النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ»: إما النِّسَاءُ السَّاحِرَاتُ، لذلك جيء بصفة المؤنث، وقد كان الغالب عند العرب أَنَّ من يتعاطى السَّحْرَ هم النِّسَاءُ.

وإما أَنَّ كلمة النَّفَّاثَاتُ صفةٌ لمحذوفٍ تقديره النُّفُوسُ، أي النفوس السواحر، لَأَنَّ تأثير السَّحْرِ إِنَّمَا هُوَ من جهة النُّفُوسِ الخبيثة والأرواح الشَّرِّيرة وسُلْطَانُهُ منها.

وهذا التفسير اختاره بعض المفسرين ليشمل الرِّجَال إضافة للنساء.

﴿وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ﴾

هذا النوع الثالث من الأنواع الخاصة المعطوفة على العام من قوله: ﴿مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ﴾.

أي والتجئ وأعتصم بالله من شَرِّ قَدٍ يصدرُ من حاسِدٍ حَسَدَنِي على نعمة أوليتني إياها يا رب.

وعُطف «شَرُّ الحاسد» على «شَرِّ السَّاحِرِ» المعطوف على «شَرِّ اللَّيْلِ»، لمناسبة أَنَّ مِمَّا يدْعُو الحاسد إلى أذى المحسود أن يتطلَّب أذاه فيتوهم أَنَّ السَّحْرَ يُزِيلُ النِّعْمَةَ الَّتِي حَسَدَهُ عليها مما يدفعه لفعله، ولأَنَّ ثوران الحسد في النفس يكثرُ في وقت اللَّيْلِ، لَأَنَّ اللَّيْلَ وَقْتُ الْخُلُوةِ وَخُطُورِ الْخَوَاطِرِ النَّفْسِيَّةِ وَالتَّفَكُّرِ فِي الْأَحْوَالِ المحيطة بالحاسد والمحسود.

والحسدُ: إحساسُ نفسانيٍّ مُرَكَّبٌ من استحسان نعمةٍ في الغير مع تمنِّي زوالها عنه، لأجل غيرةٍ على اختصاص الغير بتلك الحالة أو على مُشاركته الحاسد فيها.

وقد يغلبُ الحسدُ صبرَ الحاسد وأَنَاتَهُ فيحمله على إيصال الأذى للمحسود بإتلاف أسباب نعمته أو إهلاكها.

والحسدُ كان أوَّل أسباب الجنايات في الدُّنْيَا، إذ حَسَدَ أَحَدُ ابْنَيْ آدَمَ أَخَاهُ على أَنَّ قُبْلَ قُرْبَانَهُ ولم يُقْبَلْ قُرْبَانُ الْآخَرِ، كما قصَّهُ اللَّهُ تعالى في سورة المائدة.

﴿إِذَا حَسَدَ﴾: أي: إذا أظهر ما في نفسه من الحسد وعمل بمقتضاهُ بترتيب مُقدِّمات الشَّرِّ ومبادي الإضرار بالمحسود قولًا وفعلًا.

وتقييد الاستعاذة من شره بوقت إذا حسد، لأنه حينئذ يندفع إلى عمل الشر بالمحسود حين يجيش الحسد في نفسه فتتحرك له الحيل والنوايا لإلحاق الضرر به⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من السورة:

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - التعوذ بالله والاعتصام بجنابه تعالى من كل مخوف لا يقدر المرء على دفعه لخفائه أو عدم القدرة عليه.
- 2 - تحريم السحر بأي طريقة كان.
- 3 - تحريم الحسد قطعياً⁽²⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج 29 ص 457-475. وابن عادل الحنبلي، اللباب في علوم الكتاب، ج 20 ص 568-575. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج 5 ص 651-657. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 12 ص 889-895. الصابوني، صفوة التفاسير، ص 1569-1570.

(2) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 631.

السورة السابعة عشرة: سُورَةُ النَّاسِ

مقدمات:

تقدّم عند تفسير سورة الفلق أنّ النبي ﷺ سمى سورة الناس: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. وتقدّم في سورة الفلق أنّها وسورة الناس تُسمَّيان (المُعَوِّذَتَيْنِ). وعنوانها البخاريُّ في صحيحه: (سورة ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾). وفي المصاحف تسميةُ هذه السُورة «سورة الناس»، وكذلك أكثرُ كُتُب التفسير. وعلى الصحيح أنّها مكِّيَّة، نزلت عقب سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص. وقد عُدت الحادية والعشرين من السور، نزلت عقب سورة الفلق وقبل سورة الإخلاص. وعدد آياتها ست آيات.

مناسبة السورة لما قبلها:

هذه السورة والتي قبلها نزلتا معًا ولذلك قرننا، مع اشتراكهما في التسمية بالمعوذتين، وبافتتاح بـ «قُلْ أَعُوذُ».

تفسير السورة

﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾

قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ④ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ⑤ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ⑥ ﴿

معاني المفردات والتراكيب:

- أعوذ: أتحصن وأستجير.
- ملك الناس: سيد الناس ومالكهم وحاكمهم.
- إله الناس: معبود الناس بحق إذ لا معبود سواه.
- الوسواس: الشيطان الموسوس، مشتق من الوسوسة وهي الكلام الخفي وحديث النفس.
- الخَنَّاس: الذي يخنس، أي يتوارى ويختفى ويتأخر عن القلب عند ذكر الله.
- الخنوس: التأخر.

- في صدور الناس: في قلوبهم إذا غفلوا عن ذكر الله تعالى.

- الجنة: بكسر الجيم الجن جمع جني⁽¹⁾.

التفسير الإجمالي:

﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾ ١

شابهت فاتحتها فاتحة سورة الفلق إلا أنَّ سورة الفلق تعوذٌ من سُرور المخلوقات من حيوانٍ وناسٍ، وسورة الناس تعوذٌ من سُرور مخلوقاتٍ خفيةٍ وهي الشياطين.

و«بِرَبِّ النَّاسِ»: بخالق الناس، ومربيهم، ومدبر شؤونهم، الذي أحياهم وأوجدهم من العدم، وأنعم عليهم بأنواع النعم.

والنَّاسُ اسمٌ جمعٌ للبشر جميعهم أو طائفةٌ منهم ولا يُطلق على غيرهم على التحقيق. وإنما خُصَّ النَّاسُ بالذكر - وإن كان ﷻ رب جميع الخلائق - تعريفاً وتكريماً لهم، من حيث إنَّه تعالى سَخَّرَ لهم ما في الكون، وأمدهم بالعقل والعلم، وأسجد لهم ملائكة قدسه، فهم أفضل المخلوقات على الإطلاق.

﴿مَلِكِ النَّاسِ﴾ ٢

وقد رُتِبَ أوصافُ الله بالنسبة إلى النَّاسِ ترتيباً مُدرجاً، فإنَّ الله خالقُهم، ثُمَّ هُم غيرُ خارجين عن حكمه إذا شاء أن يتصرَّف في شؤونهم، ثُمَّ زيد بياناً بوصف إلهيته لهم ليتبين أنَّ رُبوبيَّةَ لهم وحاكميَّةَ فيهم ليست كُربوبيَّةَ بعضهم بعضاً وحاكميَّةَ بعضهم في بعض.

﴿إِلَهِ النَّاسِ﴾ ٣

جاء هذا الوصف لبيان أنَّ مُلكه تعالى ليس بمُجرَّد الاستيلاء عليهم والقيام بتدبير أُمور سياستهم والتَّولَّى لترتيب مبادئ حفظهم وحمايتهم، كما هو قُصارى أمر المُلوك، بل هو بطريق المعبوديَّة المؤسَّسة على الألوهيَّة المُقتضية للقدرة التَّامة على التَّصرُّف الكلِّي فيهم، إحياء وإماتة وإيجاداً وإعداماً.

وكرر لفظ الناس ثلاثاً ولم يكتفِ بالضمير، لإظهار شرفهم وتعظيمهم والاعتناء بشأنهم.

﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾ ٤

ثم بين المستعاذ منه، وهو ﴿مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ﴾، أي: من شر الشيطان الذي يلقي حديث السوء في النفس، ويوسوس للإنسان ليغريه بالعصيان.

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 631.

ومن صفة هذا الشيطان أنه من عادته أن يخنس ويختفي ويتأخر إذا ذكر العبد ربّه، فإذا غفل عن الله ﷻ، عاد فوسوس له.

﴿الَّذِي يُوسُوسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ ٥٠

أي الذي يلقي لشدة خبثه في قلوب البشر صنوف الوسواس والأوهام، ووسوسته هو الدعاء لطاعته بكلام خفي، يصل مفهومه إلى القلب، من غير سماع صوت. فمحل تلك الوسوسة هي صدور الناس، ثمّ هناك من يستجيب لها وهناك من يعارضها فلا تضره.

﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ ٥١

«من» بيانية، بيّنت الذي يوسوس في صدور الناس بأنه صنفان: صنف من الجنّ وهو أصله، وصنف من الإنس، وهو تبعٌ ووليٌّ للصنف الأول. قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ [الأنعام: 112]. و«الجنّة»: اسمُ جمع لجنّي بياء النسب إلى نوع الجنّ، فالجنّي: الواحد من نوع الجنّ، كما يُقال: إنسيّ: للواحد من الإنس.

فالآية استعانة من شر الإنس والجن جميعاً، ولا شك أنّ شياطين الإنس، أشدّ فتكاً وخطراً من شياطين الجن، فإنّ شيطان الجن يخنس بالاستعانة، وشيطان الإنس يزين لصاحبه الفواحش، ويغريه بالمنكرات، ولا يثنيه عن عزمه شيء، والمعصوم من عصمه الله تعالى.

وقدّمت «الجنّة» على «الناس» هنا، لأنّ الجنّ أصلُ الوسواس.

نسأل الله أن يكفينّا شرَّ الفريقين، وينفعنا بصالح الثّققلين⁽¹⁾.

(1) انظر تفسير السورة في: الألوسي، روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ج29 ص476-483. وابن عادل الحنبلي، الباب في علوم الكتاب، ج20 ص576-580. والشوكاني، فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية، ج5 ص658-661. وابن عاشور، التحرير والتنوير، ج12 ص896-901. الصابوني، صفوة التفاسير، ص1571-1573.

يستفاد من دراسة هذه السورة:

- 1 - وجوب الاستعاذة بالله تعالى من شياطين الإنس والجن.
- 2 - تقرير ربوبية الله تعالى وألوهيته ﷻ.
- 3 - الحذر من وسوسة الشيطان وشركه⁽¹⁾.

انتهى كلامنا عن القرآن الكريم

(1) الجزائري، أيسر التفاسير لكلام العلي الكبير، ج 5 ص 633.



المبحث الثالث

﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾

«يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ»

«يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ» كلمات لرسول الله ﷺ نبدأ بها مبحثنا للتعريف بشيء لا يجوز أن يغيب عن المسلم في علوم الحديث، وشيء من الأحاديث التي تُعد مفاصل في سلوك المسلم وعقيدته.

أولاً- مقدمات في علوم الحديث

تعريف الحديث النبوي:

الحديث أو السنة عند علماء الحديث يعرف بأنه: «ما جاء عن النبي ﷺ من قول أو فعل أو تقرير أو صفة خلقية أو خلقية»، وأضيف إلى تعريف الحديث: «أو أضيف إلى الصحابي أو التابعي».

فكل قول أو فعل روي عن النبي ﷺ من الحديث النبوي، وكذلك كل تقرير، أي: أن يقول أحدُ أمام النبي ﷺ قولاً، أو يفعل فعلاً، فلا يُنكره ﷺ عليه، أو لا يكون أمامه، ولكن يبلغه فيسكت عليه، فسكوته هذا تقرير له، يكتسب به صفة الشرعية، لأنه صلوات الله وسلامه عليه، لا يُقر أمراً غير مشروع.

وكذلك ما روي عنه ﷺ من الصفات الخلقية مثل ما ورد في الأحاديث: من كونه ﷺ أبيض الوجه مُشرباً بحمرة، وأنه ليس بالطويل البائن، ولا بالقصير المتردد، وأنه إذا مشى فكأنما ينحط من صُلب، أي: مكان مُنحدر.

أو صفاته ﷺ الخُلُقِيَّة، كما ثبت أنه ﷺ كان أجود الناس، وأشجع الناس، وأشدهم تواضعًا وعطفًا على الفقراء والمساكين، والأرامل واليتامى! وأعظمهم حلمًا وعفوًا، مع قدرته على العقوبة، وأنه ما كان يُواجه أحدًا بما يكره، إلى غير ذلك من مكارم الأخلاق التي بعثه الله ﷺ بها ليُتمها.

والمحدثون أضافوا قول الصحابي والتابعي إلى الحديث⁽¹⁾.

السند والمتن:

تتكون الأحاديث المروية عن النبي ﷺ من سندٍ ومتنٍ.

والسند في اصطلاح المحدثين: سلسلة الرواة الذين نقلوا متن الحديث واحدًا عن الآخر، حتى يبلغوا به إلى قائله⁽²⁾.

والمتن في اصطلاح المحدثين: هو نصُّ الحديث ألفاظه التي تتقوم به معانيه. أو هو ما ينتهي إليه السند من الكلام⁽³⁾.

ومثال السند والمتن: ما جاء في صحيح الإمام البخاري أنه قال: حدثنا محمد بن المثنى قال: حدثنا عبد الوهاب الثقفي قال: حدثنا أيوب، عن أبي قلابة، عن أنس ؓ عن النبي ﷺ قال: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ»⁽⁴⁾.

(1) جمال الدين القاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، ص1979م)، ص61-64 وص79-102. ونور الدين عتر، منهج النقد في علوم الحديث، (بيروت: دار الفكر المعاصر، ط1، 2010)، ص26-31، وص241-247، وص267-268. ومحمد بن إسماعيل الصنعاني، توضيح الأفكار لمعاني تنقيح الأفكار، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1997م)، ج1 ص242. ومحمد عجاج الخطيب، أصول الحديث علومه ومصطلحه، (بيروت: دار الفكر، ط4، 1981م)، ص26-28.

(2) جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، تحقيق: أحمد عمر هاشم، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1996م)، ج1 ص22. والقاسمي، قواعد التحديث من فنون مصطلح الحديث، ص202. والخطيب، أصول الحديث علومه ومصطلحه، ص32-33. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص344.

(3) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج1 ص23. والخطيب، أصول الحديث علومه ومصطلحه، ص32. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص321-322.

(4) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (43).

فلسلة الرجال من البخاري إلى رسول الله ﷺ هم سند الحديث، وقول الرسول نفسه ﷺ هو متن الحديث.

أقسام الحديث

يقسم الحديث إلى أقسام من حيثيات متعددة، نبين أهمها:

أقسام الحديث من حيث قائله أو من أسنده إليه:

الحديث من حيث قائله أو من أسنده إليه يقسم إلى أربعة أقسام، وهي:

الأول- الحديث القدسي:

هو ما نُقِلَ إلينا عن النبي ﷺ مع إسناده إياه إلى ربه ﷻ، فيقول فيه الراوي: قال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ، ونحو ذلك. أو هو ما أضافه النبي ﷺ إلى الله ﷻ. ويسمى الحديث القدسي أيضاً بالحديث الإلهي.

وهذا النوع من الحديث يرى فريق من العلماء أنَّ لفظه ومعناه من الله ﷻ، ولكنَّ لفظه غير معجز كالقرآن، ومن أهل العلم من يرى أنَّ معناه فقط من عند الله ولفظه من عند الرسول ﷺ.

ومثاله: ما رواه أبو هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: ثَلَاثَةٌ أَنَا خَصْمُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ كُنْتُ خَصْمُهُ خَصَّمْتُهُ، رَجُلٌ أَعْطَى بِي ثُمَّ عَدَرَ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَأَكَلَ ثَمَنَهُ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا فَاسْتَوْفَى مِنْهُ وَلَمْ يُؤْفِهِ أَجْرَهُ»⁽¹⁾. هذا القسم الأول من أقسام الحديث من حيث قائله⁽²⁾.

الثاني- الحديث المرفوع:

هو ما أُضيف إلى النبي ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8692)، ج 14 ص 318. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب البيوع، باب: إثم من باع حراً، رقم (2114).

(2) القاسمي، قواعد التحديث، ص 64-69. والخطيب، أصول الحديث، ص 28-31. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 323-325.

أي القول أو الفعل الذي يصدر عن النبي ﷺ، أو ما يُنسب إليه من تقارير أقرَّ النبي ﷺ مَنْ فعلها أو قالها سواء في حضرته أو بلغه أنَّها قد حدثت، وكذلك ما يصفه به من رآه من صفة خلقية أو خلقية⁽¹⁾.

الثالث- الحديث الموقوف:

هو ما أضيف إلى الصحابي من قول، أو فعل، أو تقرير، يعني هو القول أو الفعل الذي يصدر عن الصحابي وليس عن النبي ﷺ.

ومثاله قول علي بن أبي طالب (ع): (أَحِبُّ حَبِيبَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ بَغِيضَكَ يَوْمًا مَا، وَأَبْغِضْ بَغِيضَكَ هَوْنًا مَا عَسَى أَنْ يَكُونَ حَبِيبَكَ يَوْمًا مَا)⁽²⁾.⁽³⁾

الرابع: الحديث المقطوع:

وهو ما أضيف إلى التابعي من قول، أو فعل، أو تقرير، أو صفة. ويسمى: (الأثر) كذلك. مثاله: قول التابعي الجليل مسروق بن الأجدع -رحمه الله-: (كَفَى بِالْمَرْءِ عِلْمًا أَنْ يَخْشَى اللَّهَ، وَكَفَى بِالْمَرْءِ جَهْلًا أَنْ يُعْجَبَ بِعِلْمِهِ)⁽⁴⁾.

هذه أقسام الحديث من حيثُ قائله أو مَنْ أُسْنِدَ إليه، فإذا أُسْنِدَ الحديث إلى الله ﷻ فهو قُدسي، وإذا أُسْنِدَ إلى النبي ﷺ فهو مرفوع، وإذا أُسْنِدَ إلى الصحابي فهو موقوف، وإذا أُسْنِدَ إلى التابعي فهو مقطوع⁽⁵⁾.

أقسام الحديث من حيث القبول والرد:

اصطلح العلماء على تقسيم الحديث من حيث قبوله والعمل به إلى حديث مقبول يُعمل به، وحديث غير مقبول لا يُعمل به.

(1) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 149. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 1 ص 230-233، وص 244-245. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 325-326.

(2) أخرجه البخاري، الأدب المفرد، رقم (1321)، ص 774.

(3) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 149-150. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 1 ص 237-240. والقاسمي، قواعد التحديث، ص 130. والخطيب، أصول الحديث علومه ومصطلحه، ص 380-381.

(4) أخرجه الدارمي، المقدمة، باب في اجتناب الأمواء، رقم (322).

(5) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 159. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 1 ص 241. والقاسمي، قواعد التحديث، ص 130. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 327. والخطيب، أصول الحديث، ص 381.

أ- الحديث المقبول:

ويقسم أيضًا إلى قسمين:

الأول- الحديث الصحيح:

ويُعرَّف الحديث الصحيح بأنه: الحديث الذي اتصل سنده بنقل العدل الضابط عن مثله إلى منتهاه من غير شذوذ ولا علة.

شروط الحديث الصحيح:

من التعريف نتعرف على شروط الحديث الصحيح، التي هي:

1 - اتصال السند: ومعناه أنَّ كل راوٍ في سلسلة السند قد أخذ الحديث (المتن) وسمعه مباشرة عن سبقة من أول السند إلى منتهاه.

2 - عدالة الرواة: أن يكون كل راوٍ مستقيم الدين، وحسن الخلق، سالمًا من الفسق وخوارم المروءة التي تشينه.

3 - ضبط الرواة: أن يكون حفظ الراوي سليمًا، فيكون حافظًا لما يرويه عالمًا بمعناه.

4 - عدم الشذوذ: والشذوذ أن تخالف رواية الحديث الذي عدَّ شاذًّا رواية أخرى هي أقوى منها، بأن يكون رجال إسنادها أوثق وأقوى حفظًا، أو تكون قد تعددت طرقها.

5 - عدم العلة: والعلة سبب غامض خفي، يقدر في صحة الحديث، مع أنَّ الظاهر السلامة منه، والعلة يعرفها العلماء المتبحرون في الحديث وعلومه.

مثال الحديث الصحيح:

عامة ما ورد في صحيح البخاري وصحيح مسلم يصلح مثالًا لهذا القسم، لأنَّ صاحبيهما التزما بإيراد الحديث الصحيح في كتابيهما، مثل حديث: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»⁽¹⁾.

وإذا صح الحديث وجب العمل به إذا لم يوجد له معارض من الكتاب والسنة، ولم يتم الجمع بينهما.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (1). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (1907).

وقد قَسَمُوا الحديث الصحيح إلى قسمين:

الصحيح لذاته، وهو ما سبق تعريفه وبيانه والتمثيل له.

والصحيح لغيره: وهو الحديث الحسن لذاته (كما سيأتي) إذا تعددت طرقه وأسانيده⁽¹⁾.

الثاني- الحديث الحسن:

الحديث الحسن: وهو الحديث الذي اتصل سنده، بنقل العدل الذي خف ضبطه، من غير شذوذ ولا علة.

ويظهر من التعريف أنَّ شروط الحسن هي شروط الصحيح، ما عدا أن يكون رواه أو راوٍ في إسناده قد خَفَّ ضبطه، أي: حفظه، لكنَّه لم ينزل إلى مرتبة ضياع الحفظ وضعفه الذي يحكم به على حديثه بأنَّه ضعيف.

مثال الحديث الحسن:

ما رواه الإمام الترمذي -رحمه الله- قال: حدثنا ابن أبي عمر حدثنا سفيان عن ابن عجلان عن سعيد المقبري عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَقُلْ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي رَدَّ عَلَيَّ رُوحِي، وَعَافَانِي فِي جَسَدِي، وَأَذِنَ لِي بِذِكْرِهِ»⁽²⁾.

وقد أجمع العلماء على العمل بالحديث الحسن.

وقد قَسَمُوا الحديث الحسن إلى قسمين:

الحسن لذاته، وهو ما سبق تعريفه وبيانه والتمثيل له.

والحسن لغيره، وهو الحديث الضعيف الذي يمكن أن يتقوى، إذا تعددت طرقه وأسانيده⁽³⁾.

(1) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 43-48. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 1 ص 15-29. والقاسمي، قواعد التحديث، ص 79-102. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 241-247، وص 267-268. والخطيب، أصول الحديث، ص 304-311.

(2) أخرجه ابن السني، عمل اليوم والليلة، رقم (9)، ص 12.

(3) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 122-133. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 1 ص 144-177. والقاسمي، قواعد التحديث، ص 102-108. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 263-273. والخطيب، أصول الحديث، ص 331-336.

ب - الحديث غير المقبول:

ويقسم «الحديث غير المقبول» إلى قسمين:

1 - الحديث الضعيف:

وهو الحديث الذي لم تجتمع فيه شروط الحديث الحسن. ويكون ذلك إما بعدم اتصال السند، وإما لضعف في راوٍ أو أكثر وإما لعلّة أخرى.

مثال الحديث الضعيف:

روي عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَغْتَاذُ الْمَسَاجِدَ، فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»⁽¹⁾.

فهذا الحديث ضعيف، لأن في سنده راوياً ضعّفه العلماء.

رواية الحديث الضعيف والعمل به:

وقد اختلف العلماء في رواية الحديث الضعيف والعمل به، فمنهم من منع رواية الحديث الضعيف والعمل به بالمطلق، ومنهم من جوزها ولكن بشروط، وهي:

الأول: ألا تتعلق بالعقائد، كصفات الله تعالى.

الثاني: ألا يكون في بيان الأحكام الشرعية مما يتعلق بالحلال والحرام.

الثالث: أن يكون الضعف غير شديد.

الرابع: أن يندرج الحديث تحت أصل معمول به في الشريعة.

الخامس: ألا يعتقد عند العمل به ثبوته، بل يعتقد الاحتياط.

فيعمل بالضعيف في المواعظ، والترغيب والترهيب والقصص وما أشبه ذلك، كالحديث الذي مثلنا به⁽²⁾.

2 - الحديث الموضوع:

وهو ما نُسبَ إلى النبي ﷺ اختلاقاً وكذباً، ممّا لم يقله، أو يفعله، أو يُقره ﷺ.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، كتاب الإيمان، باب: ما جاء في حرمة الصلاة، رقم (2617).

(2) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 144-146. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 1 ص 222-229. والقاسمي، قواعد التحديث، ص 79-123. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 286-297. والخطيب، أصول الحديث، ص 337-338.

مثاله: حديث: (الهريسة تشد الظهر)، فإنَّ واضعه محمد بن الحجاج النخعي، كان يبيع الهريسة⁽¹⁾.

وقد يخطئ بعض الرواة فيسندون إلى رسول الله ﷺ كلاماً لم يقله عن غير قصد، من ذلك ما رواه ابنُ ماجه عن إسماعيل بنِ مُحَمَّدٍ الطَّلحيّ، عن ثابِت بنِ مُوسَى الزَّاهِد، عن شريك، عنِ الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، مرفوعاً: «مَنْ كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ»⁽²⁾.

قال الحاكم: «دخل ثابتٌ على شريك وهو يملي، ويقول: حدثنا الأعمش، عن أبي سفيان، عن جابر، قال: قال رسولُ الله ﷺ، وسكت، ليكتبَ المُستملي، فلما نظر إلى ثابتٍ، قال: من كَثُرَتْ صَلَاتُهُ بِاللَّيْلِ حَسَنَ وَجْهُهُ بِالنَّهَارِ، وقصد بذلك ثابتاً، لزهده وورعه، فظنَّ ثابتٌ أنَّه متنٌ ذلك الإسناد، فكان يُحدِّثُ به»⁽³⁾.

حكم رواية الحديث الموضوع والعمل به:

اتفق العلماء على منع رواية الحديث الموضوع والعمل به⁽⁴⁾.

أقسام الحديث من حيث تعدد طرقه:

الحديث قد يأتي من طريق واحد، وإسناد واحد، وقد تتعدد أسانيده وطرقه، وبناء على ذلك قسّم العلماء الحديث من حيث تعدد الطرق الموصلة إلى متنه، إلى أنواع:

الأول- الحديث المتواتر:

الحديث المتواتر: وهو ما رواه جمعٌ عن جمع يستحيل عادةً تواطؤهم واتفاقهم على الكذب عن مثلهم من أول السند إلى آخره.

فهو إذن ما جاء بأسانيد متعددة وكثيرة يستحيل عادة أن يتفق كل جمع في أي دائرة من دوائر إسناده على الكذب.

(1) القاري، الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة، ص 438.

(2) أخرجه الترمذي، ابن ماجه، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء في قيام الليل، رقم (2617).

(3) السيوطي، تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، ج 1 ص 339.

(4) السيوطي، تدريب الراوي، ج 1 ص 232-245. والصنعاني، توضيح الأفكار، ج 2 ص 53-75. والقاسمي، قواعد التحديث، ص 150-185. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 415-438.

وهو نوعان:

الأول: متواتر لفظي: وهو ما تواتر لفظه ومعناه، مثل حديث: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»⁽¹⁾، فقد رواه أكثر من سبعين صحابيًا، وهذا الحديث متواتر باتفاق جميع أئمة الحديث، ولذلك فهو في أعلى درجات الصحة.

الثاني: متواتر معنوي: وهو ما تواتر معناه دون لفظه، مثل أحاديث رفع اليدين في الدعاء، فقد ورد نحو مائة حديث في قضايا مختلفة، والجامع بينها: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَفَعَ يَدَيْهِ عِنْدَ الدَّعَاءِ»⁽²⁾، وهذا الحديث متواتر باتفاق جميع أئمة الحديث. والحديث المتواتر صحيح ولا مجال للتشكيك فيه، فهو قطعي الثبوت⁽³⁾.

الثاني - الحديث الآحاد:

حديث الآحاد: هو ما لم يكن متواترًا.

فهو ما لم تبلغ طريقه حد التواتر، ولم تجتمع فيه شروط المتواتر، فيشمل ما رواه واحد في طبقة أو في جميع الطبقات، وما رواه اثنان في طبقة أو في جميع الطبقات، وما رواه ثلاثة فصاعدًا ما لم يصل إلى عدد التواتر⁽⁴⁾.

وله ثلاثة أنواع:

الأول - المشهور:

وهو ما رواه ثلاثة فأكثر في كل طبقة ولم يبلغ التواتر، أي: ما رواه ثلاثة فصاعدًا ولم يصل إلى حد التواتر.

وهذا هو المراد بالشهرة عند المحدثين، وسمي بذلك لوضوحه وظهوره.

والمشهور يكون صحيحًا وحسنًا وضعيفًا على حسب أحوال وصفات رواته.

وقد يطلق المشهور لغة على ما اشتهر على ألسنة الناس.

مثال الحديث المشهور على اصطلاح أهل الحديث:

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجنائز، باب ما يكره من النياحة على الميت، رقم (1291)، ومسلم، المسند الصحيح، المقدمة، باب في التحذير من الكذب على رسول الله ﷺ، رقم (3).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، رقم (933)، ومسلم المسند الصحيح، رقم (895) ورقم (896)، وأبو داود، السنن، رقم (1174) ورقم (1175)، والنسائي، السنن، ج 3 ص 154 وص 155.

(3) السيوطي، تدريب الراوي، ج 2 ص 159-162 وجعله جزءًا من الحديث المشهور. والخطيب، أصول الحديث، ص 301-302. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 404-408.

(4) الخطيب، أصول الحديث، ص 302-303.

ما جاء عن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبِضُ الْعِلْمَ انْتِزَاعًا يَنْتَزِعُهُ مِنَ النَّاسِ، وَلَكِنْ يَقْبِضُهُ بِقَبْضِ الْعُلَمَاءِ، حَتَّى إِذَا لَمْ يَتْرُكْ عَالِمًا اتَّخَذَ النَّاسُ رُؤُسَاءَ جُهَالًا، فَسُئِلُوا، فَأَفْتَوْا بِغَيْرِ عِلْمٍ، فَضَلُّوا، وَأَضَلُّوا» (1). (2)

الثاني- العزيز:

هو ما رواه اثنان في كل طبقة، أي ما لا يرويه أقل من اثنين عن أقل من اثنين وهكذا، وقد يزيد في بعض طبقاته.

ومثال العزيز: ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة، والشيخان من حديث أنسٍ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَا يُؤْمَنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَالِدِهِ وَوَلَدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (3)، فقد رواه من الصحابين أنس وأبو هريرة -رضي الله عنهما-، ورواه عن أنس اثنان: قتادة، وعبد العزيز بن صهيب، ورواه عن قتادة اثنان: شعبة وسعيد، ورواه عن عبد العزيز اثنان: إسماعيل بن علية وعبد الوارث، ورواه عن كل منهما جماعة (4).

الثالث- الغريب:

هو ما رواه راوٍ واحد فقط، أي الذي تفرد بروايته راوٍ واحد في كل الطبقات أو بعضها. **ومثال الغريب:** حديث عمر ؓ مرفوعاً: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» (5)، فهو حديث فرد غريب في أوله، مستفيض في آخره، وهو صحيح (6).

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب العلم، باب: كيف يقبض العلم، رقم (1291). وأخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب العلم، باب رفع العلم وقبضه، وظهور الجهل والفتن، في آخر الزمان، رقم (2673).

(2) السيوطي، تدريب الراوي، ج 2 ص 156-159. وعتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 408-412. والخطيب، أصول الحديث، ص 302.

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب: حب الرسول ﷺ من الإيمان، رقم (15). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب وجوب محبة رسول الله ﷺ أكثر من الأهل والولد والوالد والناس أجمعين، رقم (44).

(4) عتر، منهج النقد في علوم الحديث، ص 415-417.

(5) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (1). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ» وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (1907).

(6) السيوطي، تدريب الراوي، ج 2 ص 163-165.

الحديث الأول: إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ

عَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

هو أمير المؤمنين، أبو حفص⁽²⁾ عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبد العزى بن رياح بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي، القرشي العدوي، الفاروق رضي الله عنه، استشهد سنة 23هـ، وستأتي ترجمته مفصلة⁽³⁾.

معاني مفردات الحديث:

- إِنَّمَا: أداة حصر وقصر، تثبت المذكور وتنفي ما عداه.
- بالنيات: جمع نية، وهي في اللغة: القصد. وشرعاً: هي اعتقاد القلب فعل شيء، وعزمه عليه من غير تردد.
- امرئ: المرء: الإنسان ذكراً كان أو أنثى.
- الهجرة: في اللغة: الترك. وفي الشرع: مفارقة بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام خشية الفتنة. ويراد بها في الحديث: الانتقال من مكة وغيرها إلى المدينة المنورة، وذلك قبل فتح مكة.
- إلى الله ورسوله: أي كانت نيته فيها ابتغاء رضوان الله وإطاعة لأمر رسوله ﷺ لما أمرهم بالهجرة.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (1)، وفي غير هذا الموطن. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (1907). والترمذي، الجامع، كتاب فضائل الجهاد عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن يقاتل رياء وللدنيا، رقم (1647). والنسائي، السنن، كتاب الطهارة، باب النية في الوضوء، رقم (75). وأبو داود، السنن، كتاب الطلاق، بَابٍ فِيمَا عُنِيَ بِهِ الطَّلَاقُ وَالنِّيَّاتُ، رقم (2201).

(2) الحفص: هو الأسد.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج راشدون ص71.

- دنيا يصيبها: أي تكون نيته من الهجرة مصلحة دنيوية.

- ينكحها: يعقد عليها ويتزوجها⁽¹⁾.

أهمية الحديث:

هذا حديث صحيح متفق على صحته، وهو من أهم الأحاديث لكثرة فوائده⁽²⁾، فقد روي عن الإمام الشافعي -رحمه الله- أنه قال فيه: «يدخل هذا الحديث في سبعين باباً من الفقه»⁽³⁾.

وروي عن الإمام أحمد -رحمه الله- أنه قال: «أصول الإسلام على ثلاثة أحاديث: حديث عمر : «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، وحديث عائشة -رضي الله عنها-: «مَنْ أَحَدَّثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ، فَهُوَ زُورٌ»، وحديث النعمان بن بشير -رضي الله عنهما-: «الْحَلَالُ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامُ بَيِّنٌ»⁽⁴⁾.

وقد استحب العلماء أن تُستفتح المصنفات بهذا الحديث، تذكيراً لطالب العلم باستحضار النية والإخلاص من أول أمره في قراءة الكتاب وفي طلبه للعلم، قال الإمام عبد الرحمن بن مهدي -رحمه الله-: «ينبغي لكل مَنْ صَنَّفَ كتاباً أن يبتدئ فيه بهذا الحديث تنبيهاً للطالب على تصحيح النية»⁽⁵⁾.

لذا وجدنا الإمام البخاري يفتتح صحيحه به، وكذلك صنع الإمام النووي في «الأربعين النووية» وفي كتاب «المجموع»، والبعثي في كتابيه «مصابيح السنة»، و«شرح السنة»، وبه بدأ الحافظ عبد الغني المقدسي كتابه «عمدة الأحكام»، والسيوطي ابتداءً به كتابه «جامع الأحاديث»، وغيرهم -عليهم رحمة الله جميعاً-⁽⁶⁾.

(1) مصطفى البغا، ومحي الدين مستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، (دمشق: دار العلوم الإنسانية، 2001م)، ص12.

(2) أبو الفتح محمد بن علي بن وهب بن مطيع القشيري، المعروف بابن دقيق العيد، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، (بيروت: مؤسسة الريان، ط6، 2003م)، ص24.

(3) أخرجه البيهقي، السُّنَنِ الْكُبْرَى، رقم (2255).

(4) جامع العلوم والحكم (1/ 24).

(5) ابن دقيق العيد، شرح الأربعين النووية، ص25.

(6) الكسواني، الإخلاص والنية الصادقة، ص40.

في هذا الحديث العظيم الشأن يُبَيِّنُ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ كُلَّ الْأَعْمَالِ الْمَشْرُوعَةِ مَعْتَبَرَةٌ بِالنِّيَّةِ، والنَّيَّةُ هِيَ الْقَصْدُ الْبَاعِثُ عَلَى الْعَمَلِ، ومقاصد العباد تختلف اختلافًا عظيمًا بحسب ما يقوم في القلب.

وتأتي النِّيَّةُ في كلام أهل العلم على معنيين:

1 - أن يكون المراد بها مقصود النَّاوي، هل يبتغي بعمله وجه الله ﷻ أو مصلحة دنيوية، وهي النِّيَّةُ التي يهتم بها علماء التزكية.

2 - أو يراد منها النِّيَّةُ التي لتعيين وتمييز العمل، مثل النِّيَّةِ التي تميز في الصلاة الفرض عن السنة، وفي الصيام هل هو نفل أو قضاء أو غير ذلك، وهي النِّيَّةُ التي يهتم بها علماء الفقه.⁽¹⁾

والمقصود بقوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»، أي: إِنَّمَا صَحَةُ الْأَعْمَالِ بِالنِّيَّاتِ، أو لا صحة لعمل إلا بنية، والمراد بالأعمال هنا أعمال الجوارح كُلِّهَا، حتى تدخل في ذلك الأقوال، فإنَّها عمل اللسان، وهو من الجوارح.

فصحة الأعمال ووجوب أحكامها إِنَّمَا يكون بالنِّيَّةِ، فإنَّ النِّيَّةَ هي الصارفة لها إلى جهاتها.

وقوله ﷺ: «وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَّا نَوَى»، يراد به: أَنَّ جِزَاءَهُ سَيَكُونُ وَفْقَ مَا نَوَاهُ فِي عَمَلِهِ، من خير أو شر، فإنَّ نَوَى فِي عَمَلِهِ وَجْهَ اللَّهِ وَالِدَارَ الْآخِرَةَ كَتَبَ اللَّهُ ﷻ لَهُ ثَوَابَ عَمَلِهِ، وَأَجْزَلَ لَهُ الْعَطَاءِ، وَإِنْ أَرَادَ بِهِ السَّمْعَةَ وَالرِّيَاءَ أَحْبَطَ عَمَلَهُ، وَكَتَبَ عَلَيْهِ وَزْرَهُ، كما يقول الله ﷻ فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110].

ثم ضرب رسول الله ﷺ مثلاً لبيان تأثير النِّيَّةِ فِي الْأَعْمَالِ مَعَ تَسَاوِيهِمَا فِي الصُّورَةِ الظَّاهِرَةِ، فَقَالَ ﷺ: «فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ فَهَجْرَتُهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهَجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، فَيُبَيِّنُ بِهَذَا الْمَثَلِ أَنَّ مَنْ قَصَدَ بِهَجْرَتِهِ مِنْ مَكَّةَ إِلَى الْمَدِينَةِ وَتَرَكَ وَطَنَهُ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ رَبِّهِ، فَهَجْرَتُهُ هِجْرَةٌ شَرْعِيَّةٌ مَقْبُولَةٌ يَثَابُ عَلَيْهَا لَصَدَقَ نِيَّتُهُ، وَمَنْ قَصَدَ بِهَجْرَتِهِ مَنَفْعَةً دُنْيَوِيَّةً، مِنْ مَالٍ، أَوْ جَاهٍ، أَوْ تِجَارَةٍ، أَوْ زَوْجَةٍ، فَلَا يَنَالُ مِنْ هَجْرَتِهِ إِلَّا تِلْكَ الْمَنَفْعَةُ الَّتِي نَوَاهَا، وَلَا نَصِيبَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ وَالثَّوَابِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

(1) انظر: كتابنا «الإخلاص والنِّيَّةُ الصَّادِقَةُ»، (القاهرة: عصير الكتب، ط1، 2021م)، ص21-23.

وفي قوله: «فَهَجَرْتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، لم يذكر ما أراده من الدنيا أو المرأة، وعبر عنه بالضمير في قوله: «مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»، وذلك تحقيقاً لما أراده من أمر الدنيا واستهانته به واستصغاراً لشأنه، حيث لم يذكره بلفظه.

مكتبة

t.me/soramnqraa

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - الحث على الإخلاص، فאלله ﷻ لا يقبل من العمل إلا ما ابتغي به وجهه، فالإخلاص شرط في قبول العمل عند الله ﷻ.
- 2 - اتفق العلماء على أَنَّ الأعمال الصادرة من المكلفين لا تكون معتبرة في الشرع ولا يترتب عليها الثواب إلا إذا سبقت بالنية.
- 3 - الأعمال التي يُتَقَرَّبُ بها إلى الله ﷻ إذا فعلها المكلف على سبيل العادة ليس له ثواب عليها.
- 4 - النية لها أثر في العادات، حيث تحولها إلى قربات، فإذا كان الإنسان يريد عملاً ما من أمور الدنيا أو أمور الآخرة فله من الجزاء بحسب نيته، مثل إنسان بنى بيتاً يستتر فيه ويأوي إليه عياله، ويتركه لعياله من بعده فله أجر على هذا العمل، روى سعد بن أبي وقاص ﷺ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ لَهُ: «إِنَّكَ لَنْ تُنْفِقَ نَفَقَةً تَبْتَغِي بِهَا وَجْهَ اللَّهِ إِلَّا أُجِرْتَ عَلَيْهَا، حَتَّى مَا تَجْعَلَ فِي فَمِ امْرَأَتِكَ»⁽¹⁾.
- 5 - النية هي الفارق بين العبادة والعادة.
- 6 - ضرب الأمثال لبيان وإيضاح الحق الذي يحمله للناس، وذلك لأنَّ النفس البشرية جُبِلَتْ على محبة سماع القصص والأمثال، فالفكرة مع المثل تطرق السمع، وتدخل إلى القلب من غير استئذان، وبالتالي تترك أثرها فيه، لذلك كثر استعمالها في الكتاب والسنة⁽²⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (1524)، ج 3 ص 109. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب ما جاء أَنَّ الأعمال بالنية والحسبة، ولكل امرئ ما نوى، رقم (56).

(2) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 13-14.

الحديث الثاني: الطيب لا يقبل إلا طيباً

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى طَيِّبٌ لَا يَقْبَلُ إِلَّا طَيِّبًا، وَإِنَّ اللَّهَ أَمَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِمَا أَمَرَ بِهِ الْمُرْسَلِينَ فَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾ [المؤمنون: 51]، وَقَالَ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ﴾ [البقرة: 172]، ثُمَّ ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبُّ يَا رَبُّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

أبو هريرة هو: عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، كان يُسمى بالجاهلية عبد شمس، وقيل: عبد عمرو، وقد غيّر له النبي ﷺ اسمه إلى عبد الرحمن.

وُلِدَ رضي الله عنه ونشأ في اليمن يتيماً، أسلم على يد الطفيل بن عمرو الدوسي الذي قدم إلى مكة المكرمة قبل الهجرة والتقى رسول الله ﷺ عند الكعبة فدخل في الإسلام ثم أوصاه الرسول ﷺ بدعوة قومه، فلما عاد إلى اليمن أسلم مع الطفيل بن عمرو جمع من قومه دوس.

هاجر الطفيل ومن أسلم معه إلى المدينة، وكان منهم أبو هريرة، ووصلوا في أيام غزوة خيبر، ومن يومها لازم أبو هريرة رضي الله عنه النبي ﷺ حتى آخر حياته ﷺ. وقد اشتهر رضي الله عنه بلقب أبي هريرة لعنايته الدائمة بهرة.

روى رضي الله عنه الكثير من الأحاديث، فقد روي عنه 5374 حديثاً، وكان ضابطاً مُتَقَنّاً لروايتها، على الرغم من قصر الفترة التي لازم بها النبي ﷺ، وذلك لأن النبي ﷺ دعا له بقوة الحفاظ. كان من أهل الصُفة، وولي إمرة المدينة مدة، ولما صارت الخلافة إلى عمر رضي الله عنه استعمله على البحرين، ثم رآه لئن العريكة مشغولاً بالعبادة فعزله، ثم أراد بعد زمن على العمل فأبى، وكان أكثر مقامه في المدينة.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8348)، ج 14 ص 89-90. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب وتربيتها، رقم (1015). والترمذي، الجامع، أبواب تفسير القرآن عن رسول الله ﷺ، ومن سورة البقرة، رقم (3232).

تعددت الأقوال في سنة وفاته بين أنه توفي في السنة السابعة أو الثامنة أو التاسعة والخمسين للهجرة، وكان في الثامنة والسبعين عند وفاته، ودُفن في البقيع في المدينة المنورة⁽¹⁾.

مفردات الحديث:

- الطيب: ضد الخبيث، فإذا وصف به الله ﷻ أريد به أنه ﷻ مُنزه عن النقائص مُقدَّس عن الآفات، وإذا وُصف به العبد مطلقاً أريد به أنه الخالي من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال والمتحلي بأضدادها، وإذا وُصفت به الأموال أريد به كونها حلالاً من خيار الأموال.
- إلا طيباً: وهو من الأعمال والأقوال ما كان خالياً من الرياء والعُجب، وغيرهما من المفسدات، ومن الأموال ما كان حلالاً.
- أَشْعَثَ: أي أصبح شَعْرَهُ مِنْ طُولِ السَّفَرِ وَشِدَّةِ عَنَائِهِ مُتَفَرِّقًا مُجْعَدًا، لعدم تهذيبه أو تمشيطة.
- أَغْبَرَ: أي صار جسده مُغْبَرًا وَثِيَابُهُ مَغْبَرَةً مِنْ أَثَرِ التُّرَابِ.
- يمدُّ يديه: يرفعها بالدعاء إلى الله تعالى.
- فَأَنَّى: أي: فكيف، أو: فَمِنْ أَيْنَ؟!⁽²⁾

المعنى الإجمالي للحديث

هذا الحديث أحد الأحاديث التي عليها قواعد الإسلام ومباني الأحكام⁽³⁾، لما فيه من فوائد وتوجيهات.

أَخْبَرَ النَّبِيُّ ﷺ أَنَّ اللَّهَ «طِيبٌ» مُنَّهٌ عَنِ النَّقَائِصِ وَالْعُيُوبِ وَمُتَّصِفٌ بِصِفَاتِ الْكَمَالِ، وَمَنْ هُوَ كَذَلِكَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْأَعْمَالِ وَالْأَقْوَالِ وَالْإِعْتِقَادَاتِ إِلَّا مَا كَانَ طَيِّبًا، وَهُوَ الْخَالِصُ لِلَّهِ ﷻ، الْمَوَافِقُ لِهَدْيِ النَّبِيِّ ﷺ، وَلَا يَقْبَلُ مِنَ الصَّدَقَاتِ إِلَّا مَا كَانَ حَلَالًا، لِأَنَّ لَفْظَ طَيْبٍ يَتَضَمَّنُ الْمَدْحَ وَالتَّشْرِيفَ، فَلَا يَتَقَرَّبُ إِلَى اللَّهِ ﷻ إِلَّا بِمَا يَنَاسِبُهُ فِي ذَلِكَ الْمَعْنَى، وَهُوَ الْإِخْلَاصُ فِي

(1) أبو القاسم إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني، سير السلف الصالحين، تحقيق: كرم حلمي، (الرياض: دار الراجعية للنشر)، ج 2، ص 537-544. وأبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني، الإصابة في تمييز الصحابة، تحقيق: عادل عبد الموجود وعلي معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1415هـ)، ج 4، ص 267.

(2) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 80.

(3) ابن دقيق العيد، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، ص 59.

الأعمال وخيار الأموال، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف: 110]، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَيْمَسُوا الْحَبِثَ مِنْهُ تُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: 267]. وقال رسول الله ﷺ في معرض ذكر الصدقة: «مَنْ تَصَدَّقَ بِعَدْلِ تَمْرَةٍ مِنْ كَسْبٍ طَيِّبٍ، وَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ إِلَّا الطَّيِّبَ، وَإِنَّ اللَّهَ يَتَقَبَّلُهَا بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يُرَبِّيَهَا لصاحبها، كَمَا يُرَبِّي أَحَدَكُمْ فَلُوهُ، حَتَّى تَكُونَ مِثْلَ الْجَبَلِ»⁽¹⁾.

ومن أعظم ما يحصل به طيبة الأعمال للمؤمن طيبُ مَطْعَمِهِ، وأن يكون من حلال، فبذلك يزكو عمله، ولذا أمر الله المؤمنين بالذي أمر به المرسلين من أكل الحلال وعمل الصالحات، فقال في شأن رسله الكرام -عليهم الصلاة والسلام-: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون: 51]، وقال في شأن المؤمنين من اتباع الرسل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172]، وأما الخبائث فإنها حرام عليهم، لقوله تعالى في وصف الرسول ﷺ: ﴿وَيُجِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ﴾ [الأعراف: 157].

ثم ضرب النبي ﷺ مثلاً عظيماً لأثر أكل المال الحرام، وهو عدم استجابة الدعاء، فذكر رجلاً أتى بأسباب إجابة الدعاء غير أنه لم يكن يتحرى الحلال الطيب فيما يتناوله فلم يستجب له.

ومن خلال هذا الحديث نستنتج بعضاً من أسباب استجابة الدعاء الظاهرة، وهي:

1 - السفر في غير معصية، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «ثلاث دعوات مستجابات لا شكَّ فيهنَّ، دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، ودَعْوَةُ الْمَسَافِرِ، ودَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ»⁽²⁾.

2 - تذلل العبد وافتقاره لله ﷻ، بحصول التبذُّل في هيئته وملابسه، ومن كانت هذه حاله كان أدعى للإجابة، إذ إنَّ فيه معنى الخضوع لله تعالى، والحاجة إليه.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8381)، ج 14 ص 115. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الزكاة، باب: لا يقبل الله صدقة من غلول، ولا يقبل إلا من كسب طيب، رقم (1344)..

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (7510)، ج 14 ص 479. والترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في دعوة الوالدين، رقم (1905). وأبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب الدعاء بظهر الغيب، رقم (1536). وابن ماجه، السنن، كتاب الصيام، باب في الصائم لا ترد دعوته، رقم (1752).

3 - رفع اليدين إلى السماء بالدعاء، والله ﷻ كريم لا يرد من سألَه، فَعَنْ سَلْمَانَ
 أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ رَبَّكُمْ حَيٌّ كَرِيمٌ، يَسْتَحْيِي مِنْ عَبْدِهِ أَنْ يَرْفَعَ إِلَيْهِ
 يَدَيْهِ، فَيَرُدَّهُمَا صِفْرًا، أَوْ قَالَ: خَائِبَتَيْنِ»⁽¹⁾.

4 - التوسل إلى الله بأسمائه والإلحاح في ذلك: يا رب يا رب! وهذا من أعظم
 أسباب إجابة الدعاء، ولذلك كان النبي ﷺ يكرر ما يدعو به ثلاثًا.

ومع توفر هذه الأسباب كلها في الرجل الذي ضَرَبَ النبي ﷺ به مثلًا إلا أنه لا يستجاب
 له، قال ﷺ: «فَأَنْتَى يُسْتَجَابُ لَهُ؟»، وهذا استفهام على وجه التعجب والاستبعاد، لمن
 كانت هذه حاله، أي أنه على الرغم من هذه الأسباب لإجابة الدعاء التي اجتمعت فيه فإنه لا
 يُسْتَجَابُ له، لماذا؟

يبين النبي ﷺ السبب فيقول: «وَمَطْعُمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ،
 وَغُذِّي بِالْحَرَامِ»، فَمَطْعَوْمُهُ ومشروبُهُ وملبوسُهُ حرام، وغذي بالحرام، فكيف يستجاب
 له؟!

يقول يحيى بن معاذ -رحمه الله-: «الطاعة خزانة من خزائن الله، إلا أن مفتاحها
 الدعاء، وأسنانه لقم الحلال»⁽²⁾.

ويقول وَهَيْبُ بْنُ الْوَرْدِ -رحمه الله-: «لو قمت مقام هذه السارية لم ينفعك شيء حتى
 تنظر ما يدخل بطنك حلال أم حرام»⁽³⁾.

وقال ميمون بن مهران -رحمه الله-: «لا يكون الرجل تقيًا حتى يعلم من أين ملبسه،
 ومطعمه، ومشربه»⁽⁴⁾.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد هذا الحديث:

1 - وُصِفَ الله تعالى بالطيب ذاتًا وصفاتٍ وأفعالًا، وتنزيهاً له تعالى عن كل نقص.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (3556). وأبو داود، السنن، كتاب
 الصلاة، باب الدعاء، رقم (1488). وابن ماجه، السنن، كتاب الدعاء، باب رفع اليدين في الدعاء، رقم (3865).

(2) الإمام أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، إحياء علوم الدين، (بيروت: دار المعرفة)، ج 2 ص 91.

(3) أبو نُعَيْمٍ أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ الْأَصْفَهَانِي، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج 8
 ص 154.

(4) أخرجه أبو بكر عبد الله بن محمد بن أبي شيبة، المصنف في الأحاديث والآثار، تحقيق: محمد عوامة،
 (جدة: دار القبلة، ط 1، 2006م)، رقم (30808)، ج 7 ص 195، و 235.

2 - كمال الله ﷻ في ذاته، وصفاته، وأفعاله، وأحكامه.

3 - أن من الأعمال ما يقبله الله ﷻ، ومنها ما لا يقبله، والله لا يقبل إلا طيبًا.

4 - تشريف المؤمنين، حيث أمرهم الله بما أمر به المرسلين.

5 - الأصل استواء الأنبياء مع أممهم في الأحكام الشرعية، إلا ما قام الدليل على أنه مختص بهم.

6 - أكل الحلال الطيب من الأسباب المعينة على العمل الصالح.

7 - الحثُّ على الإنفاق من الحلال، والنهي عن الإنفاق من غيره.

8 - أن المأكول والمشروب والملبوس ونحوها ينبغي أن يكون حلالًا خالصًا لا شبهة فيه.

9 - بيان شرط الدعاء وموانعه وآدابه، ومنها أن يكون الداعي طيب المأكول والمشرب، وألا يدعو بمعصية وبمُحال، ومنها أن يكون حاضر القلب، للنهي عن الدعاء مع الغفلة، وأن يحسن ظنه بالإجابة، ومنها ألا يستعجل.

10 - المطعم الحرام يمنع قبول العمل، وإجابة الدعاء⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 80-84.

الحديث الثالث: لَا تَغْضَبْ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه: أَنَّ رَجُلًا قَالَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: «أَوْصِنِي، قَالَ ﷺ: «لَا تَغْضَبْ». فَرَدَّدَ مَرَارًا، قَالَ: «لَا تَغْضَبْ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

راوي الحديث أبو هريرة رضي الله عنه مضت ترجمته.

مفردات الحديث:

- رجل: من الصحابة، قيل: هو جارية بن قدامة رضي الله عنه، وقيل: هو أبو الدرداء رضي الله عنه.
- أوصني: دلني على عمل ينفعني، والوصية: هي العهد إلى الشخص بالأمر المهم⁽²⁾.

أهمية الحديث:

هذا الحديث أصل عظيم من أصول الأدب، وقد روي عن أبي محمد بن أبي زيد - رحمه الله - أنه قال: «جماعُ آداب الخير وأزمته تتفرعُ من أربعة أحاديث: قول النبي ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكَلِّمْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ»، وقوله ﷺ: «مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَغْنِيهِ»، وقوله للذي اختصر له في الوصية: «لَا تَغْضَبْ»، وقوله ﷺ: «الْمُؤْمِنُ يُحِبُّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»⁽³⁾.

المعنى الإجمالي للحديث

في هذا الحديث يأتي صحابي جليل، بنفسٍ متعطشة إلى النبي ﷺ، فيطلب منه أن يوصيه وصية وجيزة جامعة لخصال الخير في الدنيا والآخرة، ليحفظها عنه. وكان النبي ﷺ يَنْصَحُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْ صَحَابَتِهِ الْكَرَامِ - عليهم الرضوان - بما هو يناسبه وَيَحْتَاجُ إِلَيْهِ، فما زاد النبي ﷺ في وصيته على أن قال له: «لَا تَغْضَبْ»، وأعادها عليه مرارًا.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (6116).

(2) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 110-111.

(3) أبو الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين بن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم في شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم، شعيب الأرنؤوط وإبراهيم باجس، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 7، 1997م)، ج 1 ص 288.

قال بعض أهل العلم: لعلَّ السائلَ كان غَضُوبًا، فلهذا اقتصَرَ في وصيَّته له على تَرَكَ الغضبِ⁽¹⁾.

وهذه الوصية تدل على أَنَّ الغَضَبَ جِماعُ الشرِّ، ومصدر كلِّ بليَّةٍ، فكم مُرِّقت به من صلات، وقُطعت به من أرحام، وأُشعلت به نار العداوات، وارتُكبت بسببه العديد من التصرفات التي يندم عليها صاحبها ساعة لا ينفع الندم، وكذلك في التحرز منه جِماع الخير، وصرف كل سوء ينجم عنه. وبهذا يكون النَّبِيُّ ﷺ قد جَمَعَ في قوله: «لا تَغْضَبْ» خَيْرِي الدُّنيا والآخِرة.

ومعنى النهي عن الغضب اجتناب أسبابه، وعدم التعرُّض لِمَا يَجْلِبُهُ، وألا ينفذ مقتضى الغضب، فإذا أتت دواعي الغضب كظمها الإنسان وتوقف عند مبادئها.

وبسبب ما يترتب على الغضب من النتائج الوخيمة مدح النَّبِيُّ ﷺ الذي يملك نفسه عند الغضب، فقال من حديث أبي هريرة ؓ: «لَيْسَ الشَّدِيدُ بِالصُّرَعَةِ، إِنَّمَا الشَّدِيدُ الَّذِي يَمْلِكُ نَفْسَهُ عِنْدَ الْغَضَبِ»⁽²⁾.

والنَّاسُ مختلفون في دافعهم للغضب وفي أثره، وَمِنْ ثَمَّ كان من الغضب ما هو مَحْمُودٌ، وما هو مَذْمُومٌ، فَمَنْ كان غَضَبُهُ في الْحَقِّ وَلِلَّهِ ﷻ، ولا يَجْرُهُ لِمَا يُفْسِدُ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ، فهو غَضَبٌ مَحْمُودٌ، وَمَنْ كان غَضُوبًا في الْبَاطِلِ، أو لا يستطيع التَّحَكُّمَ في غَضَبِهِ إذا غَضِبَ، وَيَجْرُهُ الْغَضَبُ لتجاوز الْحَدِّ، وإفسادِ دِينِهِ وَدُنْيَاهُ، فهذا غَضَبٌ مَذْمُومٌ. والنهي عن الغضب في هذا الحديث مَحْمُولٌ على الْغَضَبِ الْمَذْمُومِ.

وقد بينت الشريعة العلاج النافع للغضب من خلال عدة نصوص، وهو يتلخص فيما يأتي:

- 1 - اللجوء إلى الله ﷻ بالدعاء، فالنفوس بيده تعالى، وهو المعين على تزكيتها.
- 2 - التعوذ بالله من الشيطان الرجيم، فهو الذي يوقد جَمرة الغضب في القلب، فقد جاء في الحديث عن سليمان بن صُرد ؓ قال: استب رجلان عند النَّبِيِّ ﷺ فجعل أحدهما يغضب، ويحمر وجهه وتنتفخ أوداجه فنظر إليه النَّبِيُّ ﷺ فقال: «إِنِّي لَأَعْلَمُ كَلِمَةً لَوْ قَالَهَا ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، لَوْ قَالَ: أَعُوذُ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ،

(1) ابن دقيق العيد، شرح الأربعين النووية في الأحاديث الصحيحة النبوية، ص70.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأدب، باب الحذر من الغضب، رقم (5763). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل من يملك نفسه عند الغضب، وبأي شيء يذهب الغضب، رقم (2609).

ذَهَبَ عَنْهُ مَا يَجِدُ، فقالوا له: إِنَّ النبي ﷺ قال: تعوذ بالله من الشيطان. فقال: وهل بي جنون؟⁽¹⁾.

3 - على الغاضب أن يُكثر من ذكر الله تعالى والاستغفار، فإنَّ ذلك يعينه على طمأنينة القلب وذهاب فورة الغضب.

3 - التطلع إلى ما عند الله ﷻ من الأجور العظيمة التي أعدها لمن كظم غيظه، فمن ذلك ما جاء عن مُعَاذِ بْنِ أَنَسٍ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَظَمَ غَيْظًا وَهُوَ قَادِرٌ عَلَى أَنْ يُنْفِذَهُ، دَعَاهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ حَتَّى يُخَيِّرَهُ مِنْ أَيِّ الْحُورِ شَاءَ»⁽²⁾.

4 - الإمساك عن الكلام، ويغير من هيئته التي عليها، بأن يقعد إذا كان واقفًا، ويضطجع إذا كان جالسًا كما روى أبو ذر الغفاري ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِذَا غَضِبَ أَحَدُكُمْ وَهُوَ قَائِمٌ فَلْيَجْلِسْ، فَإِنْ ذَهَبَ عَنْهُ الْغَضَبُ وَإِلَّا فَلْيُضْطَجِعْ»⁽³⁾.

5 - الابتعاد عن كل ما يسبب الغضب، والتفكير فيما يؤدي إليه.

6 - تدريب النفس على الصبر والهدوء والسكينة في معالجة القضايا والمشكلات، في شتى شؤون الدنيا والدين.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد هذا الحديث:

1 - حرص المسلم على السؤال عن أبواب الخير.

2 - الحلم وضبط النفس سبيل الفوز والرضوان.

3 - الغضب جماع الشر.

4 - الغضب المذموم هو ما كان للنفس وللدنيا، أما ما كان لله وللحق ولم يكن له أثر سلبي فهو غضب محمود.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب: صفة إبليس وجنوده، رقم (3108).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (15637)، ج 24 ص 398. والترمذي، الجامع، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب كظم الغيظ، رقم (2140)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأبو داود، السنن، أول كتاب الأدب، باب من كظم غيظًا، رقم (4777). وابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الحلم، رقم (4186).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (21348)، ج 35 ص 287. وأبو داود، السنن، أول كتاب الأدب، باب ما يقال عند الغضب، رقم (4782).

- 5 - معالجة كل ذي عيب بما يناسب عيبه، إن صح أنَّ النَّبي ﷺ خص هذا الرجل بهذه الوصية لأنه كان غضوبًا.
- 6 - تكرار الكلام حتى يعيه السامع ويدرك أهميته.
- 7 - الحديث يحث على اجتناب أسباب الغضب ونتائجه من الأقوال والأفعال.
- 8 - يجب على المسلم أن يتحلى بمكارم الأخلاق⁽¹⁾.

(1) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص111-116.

الحديث الرابع: الأمر بالإحسان

عَنْ أَبِي يَعْلَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ الْإِحْسَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ، فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ، وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَةَ، وَلِإِجْدٍ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلِيُرِيحَ ذَبِيحَتَهُ» (1).

التعريف براوي الحديث:

أبو يعلى هو الصحابي الجليل شَدَّاد بن أوس بن ثابت بن المنذر الأنصاري، سكن فلسطين، وهو من علماء الصحابة وحلمائهم وزهادهم، قال عبادة بن الصامت رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كان شَدَّاد بن أوس ممن أوتي العلم والحلم)، وقال خالد بن معدان -رحمه الله-: «لم يبق بالشام أحدٌ كان أوثق ولا أفقه ولا أرضى من عبادة بن الصامت، وشَدَّاد بن أوس».

كانت له عبادة واجتهاد، فكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إذا دخل فراشه يتقلب عليه، ولا يأتيه النوم، فيقول: (اللهم إني النار قد أسهرتني وأذهبت عني النوم)، ثم يقوم فيصللي حتى يصبح. مات سنة 58هـ، وهو ابن خمس وسبعين سنة (2).

مفردات الحديث:

- كتب: طلب وأوجب. فلفظ «الكتابة» يقتضي الوجوب عند أكثر الفقهاء والأصوليين.
- الإحسان: مصدر أحسن يُحسِن، إذا أجاد وأتقن وأتى بالشيء على أحسن الوجوه وأكملها.
- فإذا قتلتم: أي أردتم قتل ما يجوز قتله.
- فأحسنوا القِتْلَةَ: القِتْلَةُ بكسر القاف، وهي الهيئة والحالة، بأن تختاروا أسهل الطرق وأخفها إيلامًا وأسرعها زهوًا.
- وإذا ذبحتم: ما يحل ذبحه من الحيوانات.
- لِيُجِدَّ: أي يشحذها ويصقلها ويسنّها.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (17113)، ج 28 ص 336. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب: الأمر بإحسان الذبح والقتل، وتحديد الشفرة، رقم (1955). والترمذي، الجامع، أبواب الديات عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في النهي عن المثلة، رقم (1409)، وقال: هذا حديث حسن غريب. وأبو داود، السنن، أول كتاب الجهاد، باب في النهي عن المثلة، رقم (2666). وابن ماجه، السنن، كتاب الذبائح، باب إذا ذبحتم، فأحسنوا الذبح، رقم (3170).

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 2 ص 460-467.

المعنى الإجمالي للحديث

دين الإسلام هو دين الرحمة والإحسان، وهذه الرحمة والإحسان يدخل فيهما الإنسان والحيوان وكل شيء أيضاً.

والإحسان في النصوص الشرعية كلمة جامعة تشمل الحياة كلها، فتشمل علاقة الإنسان بربه وذلك بأن يعبد الله ﷻ كأنه يراه، فإن لم يصل إلى هذا الشعور فلا أقل من استشعاره دوماً بأن الله ﷻ يراه.

وكذلك تشمل علاقته بال مخلوقات قاطبة، بالإحسان إلى مخلوقات الله ﷻ ببذل الخير لهم والتعامل معهم على أساس الرحمة.

كذلك تشمل ما يقوم به الإنسان من العمل، بأن يقوم به بإحسان، بمعنى إتقانه والقيام به على الوجه المطلوب.

وفي هذا الحديث بين النبي ﷺ أن الله أمر وحض على الإحسان في كل شيء، وهذه قاعدة في نظرة المسلم لكل شيء وفي عمله لأي شيء، فالإحسان فرض فيها.

وقد ضرب النبي ﷺ في هذا الحديث مثلين لهذه القاعدة:

الأول: «فَإِذَا قَتَلْتُمْ فَأَحْسِنُوا الْقِتْلَةَ».

والثاني: «وَإِذَا ذَبَحْتُمْ فَأَحْسِنُوا الذَّبْحَ، وَلْيُجِدَّ أَحَدُكُمْ شَفْرَتَهُ، وَلْيُرْخَ ذَبِيحَتَهُ».

فبين ﷺ أن من الإحسان الإحسان إلى ما يذبح أو يقتل، والمعنى: أحسنوا هيئة القتل والذبح لما يجوز قتله أو ذبحه.

فإذا أراد شخص ذبح حيواناً مما يؤكل لحمه، كالإبل، والبقر، والأغنام، والطيور التي تؤكل، ونحوها، فينبغي أن يكون ذلك بالإحسان، بأن يجد ويسن الذابح السكين وما شابهها ليقوى على الإجهاد على الحيوان المذبوح بسهولة ويسر.

وأن يريح ذبيحته عند الذبح، بعرض الماء عليها قبل ذبحها لتشرب، وأن يسوقها إلى موضع الذبح برفق، وأن يضعها بمكان سهل غير وعر، وأن يجعل إمرار السكين عليها بقوة، ليسرع موتها فتستريح من ألمه.

ومن الإحسان في ذلك أيضاً: ألا تحدد الشفرة أمام الذبيحة وهي تنظر إليها، وألا تدبح وهناك من الماشية ما ينظر إليها، فكل ذلك من الإحسان الذي أمر به الله ﷻ.

وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ أَيْضًا مَا يُقْتَلُ لَكُونِهِ مِنَ الْحَيَوَانَاتِ الضَّارَّةِ الَّتِي أَمَرَ الْإِسْلَامُ بِقَتْلِهَا، كَالْفَأْرَةِ، وَالْعَقْرَبِ، وَالْغُرَابِ، وَالْكَلْبِ الْعَقُورِ -وهو الَّذِي يعض النَّاسَ فِي الطَّرِيقَاتِ، وَيَعْدُو عَلَيْهِمْ وَيُخَيِّفُهُمْ-، فَتَقْتُلُ مَنْ غَيْرَ أَنْ تَعَذِّبَ.

وَيَدْخُلُ أَيْضًا الْإِحْسَانُ فِي قَتْلِ الْآدَمِيِّ الَّذِي اسْتَحَقَّ الْقَتْلَ شَرْعًا، كَالَّذِي تَطْبِقُ عَلَيْهِ عَقُوبَةُ الْقِصَاصِ لَكُونِهِ قَاتِلًا، فَيَكُونُ قَتْلُهُ بِأَسْهَلِ وَجْهِ الْقَتْلِ⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد هذا الحديث:

- 1 - وجوب الإحسان في كل شيء.
- 2 - في الحديث الحثُّ على الرحمة والشفقة والرفق بالحيوان، والإسلام له السُّبْقُ فِي هَذَا الْمِيقَانِ.
- 3 - شريعةُ الإسلامِ شريعةٌ سمحة، حَيْثُ بُنِيَتْ عَلَى الْإِحْسَانِ وَمِرَاقَبَةِ اللَّهِ وَالْإِتْقَانِ.
- 4 - كَمَالُ الشَّرِيعَةِ وَاشْتِمَالُهَا عَلَى كُلِّ خَيْرٍ، وَمِنْ ذَلِكَ رَحْمَةُ الْحَيَوَانِ وَالرَّفْقُ بِهِ.
- 5 - بَيَانُ لُطْفِ اللَّهِ تَعَالَى بِعِبَادِهِ، وَرَحْمَتِهِ، وَرَأْفَتِهِ بِهِمْ⁽²⁾.

(1) انظر: ابن رجب الحنبلي، جامع العلوم والحكم، ج 1 ص 382.

(2) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 118-121.

الحديث الخامس: احفظ الله يحفظك

عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ: كُنْتُ خَلْفَ النَّبِيِّ ﷺ يَوْمًا فَقَالَ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ، إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ، وَإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ، وَاعْلَمْ أَنَّ الْأُمَّةَ لَوِ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَنْفَعُوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، وَإِنْ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ، وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

ابن عَبَّاسٍ هو الصحابي الجليل حبر الأمة، وفقه العصر، وإمام التفسير، أبو العباس عبد الله بن عباس بن عبد المطلب، ابن عم رسول الله ﷺ، مولده: بشعب بني هاشم، قبل عام الهجرة بثلاث سنين، صحب النبي ﷺ نحوًا من ثلاثين شهرًا.

كان طَلَّابًا للعلم، فبعد وفاة النبي ﷺ تفرغ لتلقي العلم عن الصحابة رضي الله عنهم، يُروى عنه أنه قال: (وجدت عامة علم رسول الله ﷺ عند هذا الحي من الأنصار، إن كنت لأتي الرجل منهم، فيقال: هو نائم، فلو شئت أن يوقظ لي، فأدعه حتى يخرج لأستطيب بذلك قلبه). وقال ﷺ: (إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي ﷺ).

وكان ذلك استجابة لدعوة النبي ﷺ له، فقد صحَّ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ دعا له فقال: «اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمْهُ التَّأْوِيلَ»⁽²⁾، ودعا له ﷺ بأن يؤتى الحكمة⁽³⁾، لذا كان ذا علم غزير حتى سُمي بالبحر، ولُقِّبَ بترجمان القرآن.

كان له ﷺ مجلس علم في المدينة يأتيه الناس من كل حَدَبٍ وَصَوْبٍ يطلبون العلم، وكان يُقَسِّم مجلسه أيامًا ودروسًا، فيجعل يومًا للفقهاء، ويومًا لتفسير القرآن، ويومًا للمغازي، ويومًا للشعر، ويومًا لأيام العرب. روي عنه ﷺ نحو 1660 حَدِيثًا، وله في الصحيحين 75 حَدِيثًا متفقًا عليها، وتفرد البخاري له بِـ 110 أَحَادِيثٍ، وتفرد مسلم بن الحجاج بِـ 49 حَدِيثًا.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب (2516)، وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (2397)، ج 4 ص 225.

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب ذكر ابن عباس ﷺ، رقم (3756)، بلفظ: ضمنني النبي ﷺ وقال: «اللهم علِّمه الحكمة».

توفي ﷺ في الطائف سنة 68هـ، وهو ابن إحدى وسبعين سنة، صلى عليه محمد ابن الحنفية، وقال: «مات اليوم والله حَبْرُ هذه الأمة» والحبر هو العالم⁽¹⁾.

مفردات الحديث:

- خلف النبي ﷺ: أي راكبًا خلفه على دابته رديفًا.
- غلام: الصبي من حين يولد إلى أن يقارب سن البلوغ.
- كلمات: جُمْلًا تحتوي على نصائح، وأمورًا وأشياء يَنْفَعُكُ الله بها.
- احفظ الله: اعرفْ حدوده، وحقوقه وأوامره ونواهيه، واحفظها.
- يحفظك: يصونك.
- تجده تجاهك: أي: تجده أمامك، قريبًا منك، يعطيك ما سألت.
- سألت: أردت أن تطلب.
- رفعت الأقالم: فرغت من الكتابة.
- جفت الصحف: المراد بالصحف: ما كُتِبَ فيه مقادير المخلوقات في اللوح المحفوظ، والمقصود أن ما كتبه الله ﷻ قد انتهى، فالأقلام رُفِعَتْ، والصحف جَفَتْ، ولا تبديل لكلمات الله⁽²⁾.

المعنى الإجمالي للحديث:

كان من هدي النبي ﷺ أن يستثمر كل فرصة لتعليم أصحابه دينهم، ومن ذلك تربية الصغار وتعليمهم أمور دينهم، وهذا الحديث يحكي لنا استثمار النبي ﷺ لركوب ابن عمه الصبي ابن عباس ﷺ خلفه ﷺ على دابته فقام بتعليمه وتوجيهه. فأرشده إلى أمر ينبغي لكل مسلم أن يعلمه، فقال ﷺ: «يَا غُلَامُ إِنِّي أَعْلَمُكَ كَلِمَاتٍ: احْفَظِ اللَّهَ يَحْفَظْكَ، احْفَظِ اللَّهَ تَجِدْهُ تُجَاهَكَ»، أي: احفظ وراعِ حدود الله وحقوقه والتزم أوامره واجتنب نواهيه، فتنقّي الله ﷻ في أوامره ونواهيه بحيث يَجِدُكَ ﷻ في الطاعات والقربات، ولا يَجِدُكَ عند المعاصي والآثام.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 3 ص 331-359. وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 4 ص 127.

(2) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 132.

وقد جاءت النصوص الشرعية بالأمر بحفظ أمور خاصة مما يدل على أهميتها، من ذلك الصلاة، فقد قال ﷺ: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: 238]، ومدح ﷺ المحافظين عليها بقوله: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ [المعارج: 34]. ومن ذلك المحافظة على الطهارة التي هي مفتاح الصلاة، قال النبي ﷺ: «وَلَنْ يُحَافِظَ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ»⁽¹⁾.

وكذلك حفظ الرأس وما وعى، وهو يتضمن حفظ السمع والبصر واللسان من المحرمات. وحفظ البطن من إدخال الحرام إليه من المأكَل والمشارب. وما حوى، ويتضمن حفظ القلب عن الإصرار على المحرمات، جاء في الحديث عن ابن مسعود ؓ قال ﷺ: «الاستحياء من الله حق الحياء: أَنْ تَحْفَظَ الرَّأْسَ وَمَا وَعَى، وَتَحْفَظَ الْبَطْنَ وَمَا حَوَى، وَلَتَذَكَّرَ الْمَوْتَ وَالْبُلَى، وَمَنْ أَرَادَ الْآخِرَةَ تَرَكَ زِينَةَ الدُّنْيَا، فَمَنْ فَعَلَ ذَلِكَ، فَقَدْ اسْتَحْيَا يَعْنِي مِنَ اللَّهِ حَقَّ الْحَيَاءِ»⁽²⁾.

ومن أعظم ما يجب حفظه من جوارح الإنسان حتى لا يقع فيما يغضب الله ﷻ اللسان والفرج، فعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ مَا بَيْنَ لَحْيَيْهِ وَمَا بَيْنَ رِجْلَيْهِ، دَخَلَ الْجَنَّةَ»⁽³⁾.

وأمر الله ﷻ بحفظ الفروج، ومدح المحافظين لها، فقال: ﴿قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30]، وقال: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ أَعَدَّ اللَّهُ لَهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: 35].

وهذا الحفظ من العبد على درجتين:

- 1 - درجة واجبة: وهي الإتيان بالواجبات، والامتناع عن المحرمات.
- 2 - درجة مستحبة: وهي الإتيان بما زاد على ذلك من النوافل والمستحبات من الطاعات⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (22378)، ج 37 ص 60. وابن ماجه، السنن، كتاب الطهارة وسننها، باب المحافظة على الوضوء، رقم (277).

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، باب، (2458).

(3) أخرجه الحاكم، المستدرک على الصحيحين، رقم (8258)، ج 8 ص 763.

(4) أبو عبد الله خلدون بن محمود بن نفوي الحقوي، سبيل المهتدين إلى شرح الأربعين النووية، (القاهرة: الدار العالمية للنشر، ط 1، 2020م)، ص 233.

ثم بين النبي ﷺ أَنَّ مَنْ حَفِظَ أَوَامِرَ اللَّهِ وَامْتَثَلَهَا، وَانْتَهَى عَنْ نَوَاهِيهِ حَفِظَهُ اللَّهُ ﷻ.
 إِذَا الْجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْفَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ
 فَلَنُحْيِيَنَّه حَيَاةً طَيِّبَةً﴾ [النحل: 97]، وَمَا يَحْصُلُ لِلْعَبْدِ مِنَ الْبَلَاءِ وَالْمَصَائِبِ بِسَبَبِ تَضْيِيعِ
 أَوَامِرِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فِيمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ﴾ [الشورى: 30].

وَحِفْظُ اللَّهِ لِعَبْدِهِ نَوْعَانِ:

أَحَدُهُمَا: حِفْظُهُ لَهُ فِي مَصَالِحِ دُنْيَاهُ، كَحِفْظِهِ فِي بَدَنِهِ وَوَلَدِهِ، وَأَهْلِهِ وَمَالِهِ، قَالَ اللَّهُ
 ﷻ: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ [الرعد: 11]، فَمَنْ حَفِظَ
 اللَّهَ فِي صَبَاهُ وَقَوَّتِهِ، حَفِظَهُ اللَّهُ فِي حَالِ كِبَرِهِ وَضَعْفِ قُوَّتِهِ، وَمَتَّعَهُ بِسَمْعِهِ وَبَصَرِهِ وَحَوْلِهِ
 وَقُوَّتِهِ وَعَقْلِهِ.

النَّوْعُ الثَّانِي: حِفْظُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ فِي دِينِهِ وَإِيمَانِهِ، فَيَحْفَظُهُ فِي حَيَاتِهِ مِنَ الشُّبُهَاتِ
 الْمُضِلَّةِ، وَمِنَ الشَّهَوَاتِ الْمَحْرَمَةِ، وَيَحْفَظُ عَلَيْهِ دِينَهُ عِنْدَ مَوْتِهِ، فَيَتَوَفَّاهُ عَلَى الْإِيمَانِ، وَعَلَى
 الْعَكْسِ مِنْ هَذَا، فَمَنْ ضَيَّعَ اللَّهَ ضَيَّعَهُ اللَّهُ، فَضَاعَ بَيْنَ خَلْقِهِ، حَتَّى يَدْخُلَ عَلَيْهِ الضَّرُّ
 وَالْأَذَى مِمَّنْ كَانَ يَرْجُو نَفْعَهُ مِنْ أَهْلِهِ وَغَيْرِهِمْ.

فَإِذَا قَامَ الْعَبْدُ بِذَلِكَ وَجَدَ اللَّهَ تَجَاهَهُ وَأَمَامَهُ، قَالَ ﷻ: «أَحْفَظِ اللَّهَ تَجِدَهُ تُجَاهَكَ»،
 وَالْمَعْنَى: أَنَّهُ يَجِدُهُ حِينَئِذٍ كَأَنَّهُ حَاضِرٌ تَلْقَاءَ وَجْهِهِ وَقُدَّامَهُ فِي مَقَامِ إِحْسَانِ الْعَبْدِ، وَإِيقَانِهِ،
 وَكَمَالِ إِيْمَانِهِ.

وَقِيلَ: الْمَعْنَى: إِذَا حَفِظْتَ طَاعَةَ اللَّهِ ﷻ وَجَدْتَهُ يَحْفَظُكَ وَيَنْصُرُكَ فِي مُهِمَّاتِكَ أَيْنَمَا
 تَوَجَّهْتَ، وَيُسَهِّلُ لَكَ الْأُمُورَ الَّتِي قَصَدْتَ.

وَقِيلَ الْمَعْنَى: تَجِدُ عَنَابَتَهُ وَرَأْفَتَهُ قَرِيبًا مِنْكَ، يُرَاعِيكَ فِي جَمِيعِ الْحَالَاتِ، وَيُنْقِذُكَ مِنْ
 جَمِيعِ الْمَضَرَّاتِ.

ثُمَّ وَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ ابْنَ عَمِّهِ ﷺ إِلَى أَنَّهُ إِذَا أَرَادَ أَنْ يَسْأَلَ وَيَطْلُبَ شَيْئًا أَنْ يَطْلُبَهُ مِنَ اللَّهِ
 تَعَالَى أَيْ كَانَ ذَلِكَ الشَّيْءُ، فَقَالَ ﷻ: «إِذَا سَأَلْتَ فَاسْأَلِ اللَّهَ»، وَفِي هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى أَنَّ
 الْعَبْدَ لَا يَنْبَغِي لَهُ أَنْ يُعْلِقَ حَاجَتَهُ بِغَيْرِ اللَّهِ ﷻ، بَلْ يَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ فِي سَائِرِ أُمُورِهِ، فَهُوَ وَحْدَهُ
 الْقَادِرُ عَلَى الْإِعْطَاءِ وَالْمَنْعِ، وَدَفْعِ الضَّرِّ وَجَلْبِ النِّفْعِ.

ثُمَّ وَجَّهَهُ ﷺ إِلَى أَنَّهُ ﷻ إِذَا أَرَادَ الْعَوْنُ عَلَى أَمْرٍ مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَطْلُبْهُ مِنَ
 اللَّهِ ﷻ، فَقَالَ ﷻ: «وَإِذَا اسْتَعْنَتْ فَاسْتَعِنِ بِاللَّهِ»، فَإِنَّهُ هُوَ ﷻ الْمُسْتَعَانُ، بِيَدِهِ مَلَكُوتُ
 السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ، وَهُوَ يُعِينُ عَبْدَهُ إِذَا شَاءَ.

ثم بين ﷺ أنه لا يملك أحد من الخلق من أمرٍ أحدٍ شيئاً، إلا إذا أذن الله له، سواء من الخير أم الشر، فقال ﷺ: «واعلم أنَّ الأُمَّةَ لو اجْتَمَعَتْ»، أي: سائر المخلوقين اتفقوا «عَلَى أَنْ يَنْفَعُوكَ بِشَيْءٍ»، أي: على خير الدنيا والآخرة «لَمْ يَنْفَعُوكَ» بشيءٍ من الأشياء «إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ»، أي: أثبتته في اللوح المحفوظ، والمعنى: وَلَيَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ وَيَقِينُ أَنَّهُ لَا يَكُونُ إِلَّا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ لَكَ، فلن تُحْصَلَ مَنَفَعَةٌ إِلَّا مَا كَتَبَهُ اللَّهُ لَكَ، ولو اجتمع على مَنَفَعَتِكَ أَهْلُ الْأَرْضِ جميعاً.

وكذلك «وإنِ اجْتَمَعُوا عَلَى أَنْ يَضُرُّوكَ بِشَيْءٍ لَمْ يَضُرُّوكَ إِلَّا بِشَيْءٍ قَدْ كَتَبَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ»، أي: وَلَيَكُنْ عِنْدَكَ عِلْمٌ أَيْضًا أَنَّكَ لَنْ تَرَى إِلَّا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، فَلَنْ يَبْلُغَكَ ضَرٌّ إِلَّا مَا قَدَّرَهُ اللَّهُ عَلَيْكَ، ولو اجتمع على ضُرِّكَ أَهْلُ الْأَرْضِ جميعاً، وهذا مُتَّفَقٌ مع الْحُكْمِ الْمَقْرَرِ فِي الْإِعْتِقَادِ أَنَّ اجْتِمَاعَهُمْ عَلَى إِصْلَالِ النَّفْعِ وَالضَّرِّ دُونَ مَشِيئَةِ اللَّهِ مِنَ الْمُحَالِ، ويشهد لذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلَا رَادَّ لِفَضْلِهِ﴾ [يونس: 107].

ثم قال ﷺ: «رُفِعَتِ الْأَقْلَامُ»، أي: كُتِبَتِ مَقَادِيرُ الْخَلَائِقِ جميعاً، ورفع القلم، فلا زيادة ولا نُقْصَانٌ فِي كِتَابَةِ الْأَحْكَامِ.

«وَجَفَّتِ الصُّحُفُ»، أي: جَفَّتِ الصُّحُفُ بِمَا كَتَبَتْهُ الْأَقْلَامُ فِيهَا مِنْ مَقَادِيرِ الْخَلَائِقِ، فلا تَبْدِيلَ وَلَا تَغْيِيرَ، فكلُّ شَيْءٍ قَدْ كُتِبَ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ.

فعبَّرَ عَنْ سَبْقِ الْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ بِرَفْعِ الْقَلَمِ، وَجَفَافِ الصَّحِيفَةِ، تَشْبِيهًا بِفَرَاغِ الْكَاتِبِ فِي الشَّاهِدِ مِنْ كِتَابَتِهِ.

وهذا كُلُّهُ مِنَ التَّرْبِيَةِ النَّبَوِيَّةِ لِلأُمَّةِ عَلَى أَنْ تَتَعَاطَلَ بِصَدَقٍ مَعَ اللَّهِ، وَأَنْ تُرَاقِبَهُ فِي كُلِّ أَعْمَالِهَا، وَأَلَّا تَخَافَ غَيْرَهُ سُبْحَانَهُ، فَمِنْهُ النَّفْعُ وَالضَّرُّ، وَأَنْ تُرَبِّيَ أَطْفَالَهَا عَلَى هَذِهِ الْمَفَاهِيمِ الطَّيِّبَةِ فَيَنْشِئُوا وَيَسْبُوا عَلَيْهَا.

من فوائد الحديث:

- 1 - أهمية تعليم الصغار والأطفال أمور الدين من التوحيد والآداب وغير ذلك، والحث على تربية الأبناء وتعليمهم أمور دينهم.
- 2 - مَنْ حَافِظٌ عَلَى أَوْامِرِ اللَّهِ ﷻ، حَفِظَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ أَضَاعَ أَمْرَ اللَّهِ ﷻ فَإِنَّ اللَّهَ يُضَيِّعُهُ وَلَا يَحْفَظُهُ، ذَلِكَ أَنَّ الْجَزَاءَ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.
- 3 - مَنْ امْتَثَلَ أَوْامِرَ اللَّهِ أَخْرَجَهُ ﷻ مِنَ الشَّدَةِ.
- 4 - الأَمْرُ بِالْعِتْمَادِ عَلَى اللَّهِ ﷻ، وَالتَّوَكُّلُ عَلَيْهِ دُونَ غَيْرِهِ، وَهُوَ نَعْمُ الْوَكِيلِ.
- 5 - الْحَثُّ عَلَى طَلْبِ الْعَوْنِ مِنَ اللَّهِ وَحْدَهُ.
- 6 - الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالرِّضَا بِهِ، وَأَنَّ اللَّهَ ﷻ قَدَّرَ كُلَّ شَيْءٍ.
- 7 - وَجُوبُ الرِّضَا بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ وَالْإِيمَانِ بِهِمَا⁽¹⁾.

(1) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 133-139.

الحديث السادس: الظُّلْمُ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «اتَّقُوا الظُّلْمَ، فَإِنَّ الظُّلْمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَاتَّقُوا الشُّحَّ، فَإِنَّ الشُّحَّ أَهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُمْ عَلَى أَنْ سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ وَاسْتَحْلَوْا مَحَارِمَهُمْ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

راوي الحديث هو الصحابي الجليل الإمام الكبير، المجتهد الحافظ جَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بْنِ حَرَامٍ بْنِ ثَعْلَبَةَ بْنِ حَرَامٍ، أَبُو عَبْدِ اللَّهِ، وأبو عبد الرحمن، الأنصاري الخزرجي السُّلَمِيُّ المدنيُّ الفقيه. وأمه نسيبة، وقيل: أنيسة بنت عقبة بن عدي الأنصارية.

شهد ليلة العقبة مع والده، وكان والده من النقباء البدرين. وكان هو آخر من توفي ممن شهد بيعة العقبة الثانية.

كذلك شهد المشاهد كلها مع رسول الله ﷺ بعد أحد، فلم يتخلف عن غزوة من غزوات النبي ﷺ، كما شهد بيعة الرضوان.

وبعد وفاة النبي ﷺ شارك في الفتح الإسلامي للشام، وكان في جيش خالد بن الوليد الذي حاصر دمشق.

روى عِلْمًا كَثِيرًا عن النبي ﷺ وعن أبي بكر، وعُمر، وعلي، وأبي عبيدة، ومعاذ بن جبل، والزبير، وطائفة. وكان مفتي المدينة في زمانه.

اختلف في سنة وفاته، فقيل: إنه مات سنة 73 هـ، وقيل: سنة 74 هـ، وقيل: سنة 78 هـ، وهو الأرجح، وهو ابن 94 عامًا، وكان قد ذهب بصره، وصلى عليه أبان بن عثمان والي المدينة بقباء⁽²⁾.

معاني مفردات الحديث:

- الظُّلْمُ: في اللغة وضع الشيء في غير موضعه، وهو الجور.
- الشُّحُّ: مادة الشح تدل على المنع، والشُّحُّ البخل مع الحرص.
- حَمَلَهُمْ عَلَى: دفعهم إلى فعل.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (14461)، ج 22 ص 352. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (2578).

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 3 ص 189-194. وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 1 ص 546.

- سَفَكُوا دِمَاءَهُمْ: يعني لحرصهم على جمع المال الحرام يقتل بعضهم بعضًا لأخذ أموالهم.
- وَاسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ: أي انتهكوا حرمة الله ﷻ دون اكتراث، وكأنها أصبحت عندهم حلالًا.

المعنى الإجمالي للحديث:

في هذا الحديث يَأْمُرُنَا النَّبِيُّ ﷺ بأن نتقي ونجتنب أمرين، وذلك لخطورتهما على الإنسان وعلى المجتمع:

الأمر الأول- اتقوا الوقوع في الظلم، والمراد بالظلم: كل أذى يَتَسَبَّبُ فيه المسلم لغيره.

وسبب هذا التحذير والأمر بالاجتناب أن الظلم يكون ظُلمَاتٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ على صاحبه لا يَهْتَدِي بِسَبِيلِهَا عَلَى حِينٍ يَسْعَى نُورُ الْمُؤْمِنِينَ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ. وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَرَادَ بِالظُّلُمَاتِ الشَّدَائِدُ وَالْأَهْوَالُ الَّتِي يَكُونُ فِيهَا الظَّالِمُ. وَيَحْتَمِلُ أَنَّهَا عِبَارَةٌ عَنِ الْأَنْكَالِ وَالْعُقُوبَاتِ الَّتِي يَنْزِلُهَا اللَّهُ بِهِ. **والظلم نوعان:**

النوع الأول- ظلم يتعلّق بحقّ الله ﷻ، وهو أعظمُ الظلم، ومنه الإِشْرَاقُ بالله ﷻ، فعَنِ ابْنِ مَسْعُودٍ ؓ قَالَ: سَأَلْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَيُّ الذَّنْبِ أَكْبَرُ عِنْدَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «أَنْ تَجْعَلَ لِلَّهِ نِدَاءً، وَهُوَ خَلَقَكَ»⁽¹⁾، ويليهِ في الدرجة الظلم في ارتكاب الكبائر، ثم الظلم في ارتكاب الصغائر.

النوع الثاني- ظلم يتعلّق بحقوق العباد، وهو يدور على ثلاثة أشياء:

أ- الظلم في النفس هو الظلم في الدماء، بأن يعتدي الإنسان على غيره بسفك الدماء، أو الجروح، أو ما أشبه ذلك.

ب- والظلم في الأموال بأن يعتدي الإنسان ويظلم غيره في الأموال.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، باب ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، رقم (4207). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب كون الشرك أقبح الذنوب وبيان أعظمها بعده، رقم (86).

ج- وأما الظلم في الأعراض، فيشمل الاعتداء على الغير بالزنا، والقذف، وما أشبه ذلك.

والظلم بأنواعه كلها حرام، بل هو من كبائر الذنوب.

والأمر الثاني - اتقاء الشُّح، وهو: البُخلُ مع الحرص على تحصيل ما ليس له، وهو نوعٌ من الظلم.

وسبب النهي عن الشُّح كما جاء في الحديث أنه أهلك مَنْ كان قبلنا من الأمم، فقد حملهم وبعثهم الشُّح والحرص على الدنيا على أن قتل بعضهم بعضاً، وحملهم الشُّح أيضاً على أن يستحلوا محارمهم.

والمحارم يحتمل أن يكون المراد بها جميع ما حرّمه الله ﷻ عليهم أو بعضه، ويحتمل أن المراد: اتّخذوا ما حرّم الله من نساءهم حلاً، أي: فعلوا بهنّ الفاحشة.

وإنما كان الشُّح سبباً لذلك، لأنّ في بذل المال ومواساة الإخوان التّحابّ والتّواصل، وأمّا الإمساك والشُّح ففيه التّهажر والتّقاطع، وذلك يؤدّي إلى التّشاجر والتّعادي من سفك الدّماء واستباحة المحارم من الفروج والأعراض وفي الأموال وغيرها.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - النهي عن الظلم، والحث على ردّ المظالم.
- 2 - بذل المال ومواساة الإخوان من أسباب التّحابّ والتّواصل.
- 3 - البخل والشح يجرّ إلى المعاصي والفواحش والآثام.
- 4 - الاعتبار بأحوال الأمم السابقة.
- 5 - اهتمام النبي ﷺ بأمر أمّته، فيرشدها إلى ما فيه صلاحها في الدنيا والآخرة، ويحذّرها عمّا فيه هلاكها.

الحديث السابع: ما يدخل الجنة

عَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ. قَالَ ﷺ: «لَقَدْ سَأَلْتُ عَنْ عَظِيمٍ، وَإِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عَلَى مَنْ يَسْرُهُ اللَّهُ تَعَالَى عَلَيْهِ، تَعْبُدُ اللَّهَ لَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا، وَتَقِيمُ الصَّلَاةَ، وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ، وَتَصُومُ رَمَضَانَ، وَتَحُجُّ الْبَيْتَ». ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ؟ الصَّوْمُ جُنَّةٌ، وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ، وَصَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَوْفِ اللَّيْلِ»، ثُمَّ تَلَا: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ﴾ حَتَّى بَلَغَ: ﴿يَعْتَمِلُونَ﴾ [السجدة: 16-17]، ثُمَّ قَالَ ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ وَعَمُودِهِ وَذُرْوَةِ سَنَامِهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: «رَأْسُ الْأَمْرِ الْإِسْلَامُ، وَعَمُودُهُ الصَّلَاةُ، وَذُرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ». ثُمَّ قَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَكَ ذَلِكَ كُلِّهِ؟» قُلْتُ: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ. فَأَخَذَ بِلِسَانِهِ، وَقَالَ: «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا». قُلْتُ يَا نَبِيَّ اللَّهِ وَإِنَّا لَمُؤَاخِذُونَ بِمَا نَنكَلُكُمْ بِهِ؟ فَقَالَ: «ثَكَلَتْكَ أُمُّكَ يَا مُعَاذُ. وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ» أَوْ قَالَ: «عَلَى مَنَاحِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ السِّنَنِهِمْ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

راوي الحديث هو الصحابي الجليل أبو عبد الرحمن مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ بن عمرو بن أوس بن عائذ بن عدي الأنصاري الخزرجي المدني البَدْرِي. كان فقيهاً قارئاً للقرآن ومن رواة الحديث، أسلم وهو ابن 18 سنة، وشهد بيعة العقبة الثانية، آخى النبي ﷺ بينه وبين عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

شهد مع النبي ﷺ المشاهد كلها، وأثنى النبي ﷺ عليه، فقد روى أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قوله: «أَرْحَمُ أُمَّتِي بِأُمَّتِي أَبُو بَكْرٍ، وَأَشَدُّهُمْ فِي دِينِ اللَّهِ عُمَرُ، وَأَصْدَقُهُمْ حَيَاءُ عُثْمَانُ، وَأَفْرَضُهُمْ زَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَأَقْرَبُهُمْ لِكِتَابِ اللَّهِ أَبِي بَنْ كَعْبٍ، وَأَعْلَمُهُمْ بِالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ، أَلَا وَإِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَمِينًا، وَإِنَّ أَمِينَ هَذِهِ الْأُمَّةِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ»⁽²⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (22016)، ج 36 ص 344. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة، باب تحريم الظلم، رقم (2578). والترمذي، الجامع، كتاب الإيمان، باب حرمة الصلاة، رقم (2616). وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه، السنن، كتاب الفتن، باب كف اللسان في الفتنة، رقم (3973).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (13990)، ج 21 ص 405-406.

وبعد فتح مكة استبقاه النبي ﷺ فيها ليعلم الناس القرآن ويفقههم في الدين، ثم بعثه ﷺ في ربيع الآخر سنة 9 هـ عاملاً على بعض نواحي اليمن، فعاد وقد توفي النبي ﷺ، ثم خرج للمشاركة في الفتوحات الإسلامية إلى الشام.

ولما توفي أبو عبيدة بن الجراح ؓ قائد جيوش فتح الشام في طاعون عمواس، استُخلف معاذ بن جبل على الجيش، ثم مات ؓ هو بالطاعون نفسه، مات شاباً قيل كان عمره 33 أو 34 أو 38 سنة، وذلك سنة 17 هـ أو 18 هـ⁽¹⁾.

مفردات وتراكيب الحديث:

- عن عظيم: عن عمل عظيم، لأن دخول الجنة والنجاة من النار أمر عظيم جداً، لأجله أنزل الله الكتب، وأرسل الرسل.
- على أبواب الخير: أي النوافل.
- جُنة: وقاية.
- جَوْفُ اللَّيْلِ: آخره.
- تتجافى: تتنحى.
- المضاجع: مواضع الاضطجاع للنوم (المراقد).
- دُ/ذروة: بضم الذال وكسرها، الطرف الأعلى.
- سنامه: السنام ما ارتفع من ظهر الجمل.
- بِمَ/ملاك ذلك كله: أي بمقصوده وجماعه، وما يعتمد عليك. والملاك بكسر الميم وفتحها.
- فأخذ بلسانه: أمسك النبي ﷺ لسان نفسه.
- كُف: احبس وامنع.
- ثكلتك: فقدتك، ولم يقصد رسول الله ﷺ حقيقة الدعاء، بل جرى ذلك على عادة العرب في المخاطبات.
- يَكُب: يطرح ويصرع.
- مناخرهم: جمع منخر، والمِنْخَرُ: فَتْحَةُ الْأَنْفِ.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 1 ص-443 461. وابن حجر، الإصابة في تمييز الصحابة، ج 6 ص107-109.

- حصائد ألسنتهم: ما يقولونه من الكلام الذي لا خير فيه، لأنه من نتائج وآثار كلامهم⁽¹⁾.

المعنى الإجمالي للحديث:

يَقُولُ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رضي الله عنه للنبي ﷺ: (يا رسولَ الله، أَخْبِرْنِي بِعَمَلٍ)، أي: إذا عملته، يُدْخِلُنِي الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُنِي مِنَ النَّارِ)، أي: يَكُونُ سَبَبًا لِدُخُولِي الْجَنَّةِ، وَنَجَاتِي مِنَ النَّارِ. وهذا يُظْهِرُ لَنَا هَدَفَ الصَّحَابَةِ رضي الله عنهم وغايتهم في هذه الحياة، وهي الفوز في الآخرة بدخول الجنة والبعد عن النار.

فأجابه النبي ﷺ بقوله: «لَقَدْ سَأَلْتَنِي عَنْ عَظِيمٍ»، أي: عَظِيمِ فِعْلُهُ عَلَى النَّفُوسِ، أَوْ سَأَلْتَنِي عَنْ شَيْءٍ عَظِيمٍ، لَأَنَّ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَالبُعدَ عَنِ النَّارِ يَطْلُبُ فِعْلَ كُلِّ عَمَلٍ مَأْمُورٍ بِفِعْلِهِ وَاجْتِنَابَ كُلِّ عَمَلٍ مِنْهُيٌّ عَنْ فِعْلِهِ، والمعنى الأول أولى بسبب سياق الحديث.

ثم قال النبي ﷺ: «وَأِنَّهُ لَيْسَ بِشَيْءٍ عَلَى مَنْ يَسِّرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ»، أي: وَمَعَ عَظَمِ هَذَا الْعَمَلِ إِلَّا أَنَّهُ سَهْلٌ وَهَيَّئْ عَلَى مَنْ أَعَانَهُ اللَّهُ ﷻ عَلَيْهِ.

ثُمَّ شَرَعَ النَّبِيُّ ﷺ بَيَانِ ذَلِكَ الْعَمَلِ الَّذِي يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَيُبَاعِدُ عَنِ النَّارِ، فَقَالَ ﷺ:

1 - «تَعْبُدُ اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»، وهو التَّوْحِيدُ لِلَّهِ ﷻ وَنَفْيُ الشَّرِكِ، وهذا من مضامين شهادة أن لا إله إلا الله محمد رسول الله، وهو خصيصة الإسلام التي تميزه عن غيره من الأديان والمبادئ.

2 - «وَتُقِيمُ الصَّلَاةَ»، تصليها على أكمل وجه، فتؤديها في أوقاتها تامة الأركان والواجبات وبخشوع، والمراد بالصلاة هنا: صَلَاةُ الْفَرِيضَةِ، وهي خَمْسُ صَلَوَاتٍ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ.

3 - «وَتُؤْتِي الزَّكَاةَ»، وَتُخْرِجُ الزَّكَاةَ مِنْ مَالِكَ بِشُرُوطِهَا، التي سنبينها في المبحث القادم.

4 - «وَتَصُومُ رَمَضَانَ»، وَتَصُومُ الشَّهْرَ الْمَفْرُوضَ صِيَامُهُ، عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي يَرْضَى اللَّهُ ﷻ.

5 - «وَتَحُجُّ الْبَيْتَ»، وَتَقْصِدُ الْبَيْتَ الْحَرَامَ وَالْكَعْبَةَ وَتُؤَدِّي مَنَاسِكَ الْحَجِّ بِأَرْكَانِهَا وَبَشُرُوطِهَا وَأَحْكَامِهَا.

ويلاحظ أن هذه الخمسة هي أركان الإسلام.

(1) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 218-14.

ثمَّ زاده النَّبِيُّ ﷺ على سؤاله، فقال: «أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى أَبْوَابِ الْخَيْرِ»، أي: هل تريد أن أخبرك عن طُرُقِ الْخَيْرِ وَمَفَاتِيحِهِ الْمَوْصَلَةِ لَهُ، والمرادُ بِالْخَيْرِ: هو النَّجَاحُ فِي الدُّنْيَا وَالنَّعِيمُ فِي الْآخِرَةِ.

فالبابُ الأوَّلُ: الصوم: فقال ﷺ: «الصَّوْمُ جَنَّةٌ»، سِتْرٌ وَحِفْظٌ لِمَالِهِ مِنَ الشَّهَوَاتِ فِي الدُّنْيَا، وَمِنَ النَّارِ فِي الْآخِرَةِ، **والمرادُ بالصوم هنا:** صِيَامُ التَّطَوُّعِ، لِأَنَّهُ ذَكَرَ صَوْمَ رَمَضَانَ قَبْلَ ذَلِكَ فِي الْأَعْمَالِ الَّتِي تُوجِبُ دُخُولَ الْجَنَّةِ وَالْمَبَاعَدَةَ عَنِ النَّارِ.

والبابُ الثَّانِي: الصدقة: فقال ﷺ: «وَالصَّدَقَةُ تُطْفِئُ الْخَطِيئَةَ كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ»، تَذَهَبُ بِهَا وَتَمْحُو أَثَرَهَا الْمَتْرَبِّ عَلَيْهَا، كَمَا يُطْفِئُ الْمَاءُ النَّارَ. **والمرادُ بالصدقة هنا:** صَدَقَةُ التَّطَوُّعِ، لِأَنَّ زَكَاةَ الْفَرَضِ سَبَقَ ذِكْرُهَا.

فبعد أن بيَّن النَّبِيُّ ﷺ فِي أَوَّلِ الْحَدِيثِ أَرْكَانَ الْإِسْلَامِ، عَادَ إِلَى مَعَانٍ مُسْتَقَاةٍ مِنْهَا مَرَّةً أُخْرَى، وَلَكِنْ بَوَجهِ بَيِّنٍ فِيهِ النَّوَاقِلُ الَّتِي هِيَ مِنْ أَبْوَابِ الْخَيْرِ الْوَاسِعَةِ، فَبَيَّنَ مَا يَدْخُلُ الْمَرْءَ الْجَنَّةَ مِنَ الْأُمُورِ وَالْأَفْعَالِ الَّتِي هِيَ مِنْ جِنْسِ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ بَيَّنَ مَا يَرْفَعُ مَنْزِلَةَ الْعَبْدِ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ وَيَرْفَعُ دَرَجَتَهُ فِي الْجَنَّةِ.

والبابُ الثَّالِثُ: قيام الليل: فقال ﷺ: «وَصَلَاةُ الرَّجُلِ مِنْ جَوْفِ اللَّيْلِ»، أي: قِيَامُ اللَّيْلِ.

قال مُعَاذٌ: (ثُمَّ تَلَا) ﷺ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَتَجَافَى جُنُوبُهُمْ عَنِ الْمَضَاجِعِ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿١٦﴾ فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مِمَّا أُخْفِيَ لَهُمْ مِنْ قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَاءُ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [السجدة: 16-17]، أي: يُبَيِّنُ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ حَالِ مَنْ يَقُومُ اللَّيْلَ فِي الْقُرْآنِ، وَمَا أَعَدَّ اللَّهُ ﷻ لَهُ مِنْ أَجْرٍ.

ثمَّ زاده النَّبِيُّ ﷺ أَمْرًا آخَرَ مَهْمًا، فَقَالَ: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِرَأْسِ الْأَمْرِ كُلِّهِ وَعَمُودِهِ وَذِرْوَةِ سَنَامِهِ؟»، أي: أَصْلُ الدِّينِ وَمَا يَقُومُ وَيَعْتَمِدُ عَلَيْهِ، وَيَحْفَظُ بِهِ الْإِسْلَامَ.

قال مُعَاذٌ: (بلى، يا رسولَ اللهِ).

قال ﷺ: «رَأْسُ الْأَمْرِ: الْإِسْلَامُ»، شَبَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الْإِسْلَامَ بِالرَّأْسِ، لِأَنَّ الرَّأْسَ إِذَا ذَهَبَ: ذَهَبَتْ مَعَهُ الْحَيَاةُ، فَكَذَلِكَ إِذَا ذَهَبَ إِسْلَامُ الْمَرْءِ: ذَهَبَ دِينُهُ.

ثم قال ﷺ: «وَعَمُودُهُ: الصَّلَاةُ»، تَشْبِيهُهُ لِلصَّلَاةِ بِالْعَمُودِ الَّذِي لَا تَقُومُ الْخِيْمَةُ إِلَّا بِهِ، وَوَجْهُهُ ذَلِكَ: أَنَّ الصَّلَاةَ هِيَ أَعْظَمُ أَرْكَانِ الْإِسْلَامِ الْعَمَلِيَّةِ الَّتِي يَتَّصِلُ بِهَا الْعَبْدُ بِرَبِّهِ، وَهِيَ الْحَدُّ الْفَاصِلُ بَيْنَ الْإِيمَانِ وَالْكَفْرِ، وَكَذَلِكَ فَإِنَّهَا مِنْ أَوْضَحِ الشَّعَائِرِ الَّتِي تُمَيِّزُ الْمُسْلِمَ عَنْ غَيْرِهِ، لِهَذَا حَظَّتْ بِهَذِهِ الْمَنْزِلَةِ، وَتِلْكَ الْمَكَانَةِ.

ثم قال ﷺ: «وَذُرْوَةٌ سَنَامِهِ: الجهاد»، ولما كان الجهاد سبباً في ظهور الإسلام، وعاملاً من عوامل انتشار هذا الدين، شبه النبي ﷺ مكانته بذروة سنام الجمل، ولئن كان الجمل متميزاً بذروة سنامه، فإنَّ هذا الدين متميز بالجهاد، ولا يخفى على المسلم فضل الجهاد وأجره.

وللجهاد أحكام بينها العلماء في كتب الفقه، من يقرأها ير عظمة هذا الدين ورحمته وبعده عن سفك دماء الناس ولو كانوا غير مسلمين، فكيف لو كانوا من المسلمين.

ثمَّ زاده النبي ﷺ أمراً جامعاً، فقال: «أَلَا أُخْبِرُكَ بِمَلَاكٍ ذَكَرَ كُلُّهُ؟»، أي: ما يَكْمُلُ به وَيَنِمُّ.

قال مُعَاذُ: (بلى، يا رسولَ الله). فَأَخَذَ ﷺ بِلِسَانِهِ، ثُمَّ قَالَ: (أي: أَمَسَكَ النَّبِيُّ ﷺ بِلِسَانِ نَفْسِهِ، وقال ﷺ): «كُفَّ عَلَيْكَ هَذَا»، أي: اَتْرَكَ الْكَلَامَ الْمَحْرَمَ كَالْكَذِبِ، وَشَهَادَةِ الزُّورِ، وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَالْخَوْضِ فِي أَعْرَاضِ النَّاسِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَوْبِقَاتِ، كَالْغِيْبَةِ وَالنَّمِيمَةِ وَالْفُحْشِ مِنَ الْقَوْلِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، وَاتْرَكَ الْكَلَامَ فِيمَا لَا يُفِيدُ وَفِيمَا لَا مَعْنَى لَهُ، فَإِذَا تَكَلَّمْتَ فَلَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا بِخَيْرٍ، كَالْأَمْرِ بِالصَّدَقَةِ وَالْمَعْرُوفِ أَوْ الْإِصْلَاحِ بَيْنَ النَّاسِ وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكَلَامِ خَيْرٌ فَفِي الصَّمْتِ السَّلَامَةُ.

فقال مُعَاذٌ ﷺ سائلاً مُتَعَجِّباً: (يا نبيَّ الله، وَإِنَّا لِمُؤَاخَذُونَ بِمَا نَتَكَلَّمُ بِهِ؟!)، أي: هل نحن مُحَاسِبُونَ وَمُعَاقَبُونَ عَلَى الْكَلَامِ؟!

فأجابه النبي ﷺ قائلًا: «تَكَلَّمْتَ أَمْكَ يَا مُعَاذُ»، أي: فَقَدْتُكَ، وليس المرادُ به الدُّعَاءُ عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهَا مِنْ كَلَامِ الْعَرَبِ، وَاسْتَعْمَالُهُ ﷺ لَهَا لِتَنْبِيهِهِ إِلَى أَمْرِ كَانَ يَنْبَغِي أَنْ يَنْتَبِهَ لَهُ وَيَعْرِفَهُ.

ثم بين ﷺ خطورة الألسنة، فقال: «وَهَلْ يَكُفُّ النَّاسُ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟»، أي: هل هناك شيءٌ يَجْعَلُهُمْ يُصْرَعُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ وَيَسْقُطُونَ فِي النَّارِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِلَّا بِسَبَبٍ مَا يَحْصُدُونَهُ مِنْ كَثْرَةِ الْكَلَامِ فِي الدُّنْيَا فِي غَيْرِ طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ.

فحفظ اللسان هو عنوان الفلاح، وطريق السلامة من الإثم، فالنبي ﷺ بتحذيره من خطر اللسان، يدعونا إلى تسخيرهِ في مجالات الخير والمعروف، وميادين الذكر والإصلاح، حتى يُكْتَبَ للمرء النجاة، وذلك هو غاية ما يتمناه المرء.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - اغتنام الصحابة ﷺ لقاءهم النبي ﷺ للسؤال عن العلم وما يصلح دينهم.
- 2 - همة معاذ بن جبل ﷺ، حيثُ لم يسأل عن أمور الدنيا، بل عن أمور الآخرة.
- 3 - السؤال الذي صدر من معاذ ﷺ سؤال عظيم، لأنه في الحقيقة هو سرُّ الحياة والوجود، فكل موجود في هذه الدنيا من بني آدم أو من الجن غايته إما الجنة وإما النار، فلذلك كان هذا السؤال عظيماً.
- 4 - القيام بأركان الإسلام الخمسة دون الإتيان بما يُناقضها سبب رئيس في دخول المسلم الجنة ومُباعدته من النار، بفضل الله تعالى، وهذا هو الحد الأدنى.
- 5 - ظهر في الحديث حرصُ النبي ﷺ على تعليم أمته من خلال زيادته في الإجابة عن سؤال معاذ ﷺ أكثر من مرة.
- 6 - الصلاة من الإسلام بمنزلة العمود الذي تقوم عليه الخيمة، يذهب الإسلام بذهابها، كما تسقط الخيمة بسقوط عمودها.
- 7 - بين الحديث بعض أبواب الخير المهمة التي ترفع درجات المؤمن في الجنة ويسد بها النقص إن وقع في الفرائض والأركان، وهذا من رحمة الله تعالى بعباده.
- 8 - فضل التقرب بالنوافل بعد أداء الفرائض، كصدقة التطوع، والصلاة في جوف الليل.
- 9 - التحذير الشديد من آفات اللسان.
- 10 - بيّن الحديث أنَّ رأس الدين وأعلى المهمات وأعلى الواجبات توحيد الله ﷻ، بعبادته وحده لا شريك له، فالتوحيد هو أول الأمر.
- 11 - التوفيق بيد الله ﷻ، فمن يسر عليه الهداية اهتد، ومن لم يسر عليه، لم ييسر له ذلك⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 219-223.

الحديث الثامن: أخوة الإسلام

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا، وَلَا تَنَاجَشُوا، وَلَا تَبَاغَضُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ، وَلَا يَخْذُلُهُ، وَلَا يَكْذِبُهُ، وَلَا يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ - بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ» ⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

سبب ورود الحديث:

سبب ورود الحديث، هو السبب الذي لأجله قيل الحديث.

جاء عن سويد بن حنظلة رضي الله عنه قال: خَرَجْنَا نَرِيدُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، وَمَعَنَا وَائِلُ بْنُ حُجْرٍ رضي الله عنه، فَأَخَذَهُ عَدُوٌّ لَهُ فَتَحَرَّجَ الْقَوْمُ أَنْ يَحْلِفُوا، وَحَلَفْتُ أَنَّهُ أَخِي فَخَلَّى سَبِيلَهُ، فَأَتَيْنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرْتُهُ أَنَّ الْقَوْمَ تَحَرَّجُوا أَنْ يَحْلِفُوا، وَحَلَفْتُ أَنَّهُ أَخِي، قَالَ ﷺ: «صَدَقْتَ الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ» ⁽²⁾.

مفردات الحديث:

- لَا تَحَاسَدُوا: أصله لَا تَتَحَاسَدُوا، حُذِفَتْ إِحْدَى التَّائِينَ تَخْفِيفًا، أَيْ لَا يَحْسَدُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا.
- وَلَا تَنَاجَشُوا: كذلك أصله لَا تَتَنَاجَشُوا، أَيْ لَا يَخْدَعُ بَعْضُكُمْ بَعْضًا فِي التَّجَارَةِ.
- التَّقْوَى: اجْتِنَابُ عَذَابِ اللَّهِ ﷻ بِفِعْلِ الْأُمُورِ، وَتَرْكُ الْمَحْظُورِ.
- عَرْضُهُ: الْعَرَضُ هُوَ مَوْضِعُ الْمَدْحِ وَالذَّمِّ مِنَ الْإِنْسَانِ ⁽³⁾.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (2564).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (16726)، ج 27 ص 284. أبو داود، السنن، كتاب الأيمان والنذور، باب المعارض في اليمين رقم (3256).

(3) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 284.

في هذا الحديث نَهَى النَّبِيُّ ﷺ عن بعض ما يُسَبِّبُ الْعَدَاوَةَ وَالْقَطِيعَةَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، لِمَا فِي تَبَاغُضِهِمْ مِنَ التَّفَرُّقِ، وَمِنْ تِلْكَ الْأَسْبَابِ:

1 - **التَّحَاسُدُ**، فَقَالَ ﷺ: «لَا تَحَاسَدُوا»، والحسد: تمنى زوال النعمة وهو حرام، فنهى النبي ﷺ عن التحاسد، وهذا ما أكدّه النبي ﷺ في أحاديث عدة منها، قوله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْحَسَدَ، فَإِنَّ الْحَسَدَ يَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ»⁽¹⁾.
وأما الغبطة فهي تمنى حال المغبوط من غير أن يريد زوالها عنه، وقد يوضع الحسد موضع الغبطة لتقاربهما كما قال النبي ﷺ: «لَا حَسَدَ إِلَّا فِي اثْنَتَيْنِ»⁽²⁾، أي لا غبطة.

2 - **التَّنَاجُشُ**، فَقَالَ ﷺ: «وَلَا تَنَاجَشُوا»، أصل النَّجَشِ الْخِدَاعُ، وَمِنْهُ قِيلَ لِلصَّائِدِ: نَاجَشٌ، لِأَنَّهُ يَحْتَالُ لِلصِّيدِ. وهو في عالم التجارة: أن يمدح السلعة مَنْ لَا يَرِيدُ شَرَاءَهَا لِيُرَوِّجَهَا، أَوْ يَزِيدَ فِي ثَمَنِهَا وَهُوَ لَا يَرِيدُ شَرَاءَهَا، لِيُخْدَعَ بِذَلِكَ غَيْرُهُ مِمَّنْ يَرْغَبُ فِيهَا، وَيُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ نَفْعَ الْبَائِعِ، أَوْ الْإِضْرَارَ بِالْمُشْتَرِي، كَمَا يَفْعَلُهُ الْبَعْضُ عَلَى مَوَاقِعِ التَّوَاصُلِ الْاجْتِمَاعِيِّ.

3 - **التَّبَاغُضُ**، فَقَالَ ﷺ: «وَلَا تَبَاغَضُوا»، أي: لَا تَتَعَاطَوْا أَسْبَابَ التَّبَاغُضِ، لِأَنَّ الْحُبَّ وَالْبَغْضَ مَعَانٍ قَلْبِيَّةٌ لَا قُدْرَةَ لِلْإِنْسَانِ عَلَى اكْتِسَابِهَا، وَلَا يَمْلِكُ التَّصَرُّفُ فِيهَا، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِي مُحَبَّتِهِ لَزَوْجَاتِهِ: «اللَّهُمَّ هَذَا قَسَمِي، فِيمَا أَمْلِكُ فَلَا تَلُمْنِي، فِيمَا تَمْلِكُ، وَلَا أَمْلِكُ»، يعني القلب⁽³⁾.

4 - **التَّدَابُرُ**، فَقَالَ ﷺ: «وَلَا تَدَابُرُوا»، والتدابير: المعاداة، وقيل: المقاطعة، لِأَنَّ كُلَّ وَاحِدٍ يُؤْتِي صَاحِبَهُ دَبْرَهُ.

5 - **أَنْ يَبِيعَ الْمُسْلِمُ عَلَى بَيْعِ أَخِيهِ**، قَالَ ﷺ: «وَلَا يَبِيعُ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ»، بِأَنْ يَقُولَ لِمَنْ اشْتَرَى سَلْعَةً فِي مَدَّةِ الْخِيَارِ: افْسَخْ هَذَا الْبَيْعَ وَأَنَا أَبِيعُكَ مِثْلَهُ أَوْ أَجُودَ بِثَمَنِهِ أَوْ يَكُونُ الْمُتَبَايِعَانِ قَدْ تَقَرَّرَ الثَّمَنُ بَيْنَهُمَا وَتَرَاضِيَا بِهِ وَلَمْ يَبْقَ إِلَّا الْعَقْدُ

(1) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب الحسد، رقم (4903). وابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الحسد، رقم (4210).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب العلم، باب الاغتياب في العلم والحكمة، رقم (73). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل من يقوم بالقرآن ويعلمه، وفضل من تعلم حكمة من فقه أو غيره فعمل بها وعلمها، رقم (815).

(3) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب النكاح، باب في القسم بين النساء، رقم (2134).

فيزيد عليه أو يعطيه بأنقص، وهذا حرام بعد استقرار الثمن وأما قبل الرضا فليس بحرام.

ثم أمر النبي ﷺ المؤمنين بأن يكونوا إخوة في الدين كأخوة النسب في الشفقة والرحمة والمحبة والمواساة، والمعاونة والنصيحة، فأمرهم أن يأخذوا بأسباب كل ما يوصلهم إلى مثل الأخوة الحقيقية مع صفاء القلب، والنصيحة بكل حال، فقال ﷺ: «وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا». فالمسلم أخو المسلم في الدين، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10]. ثم بين النبي ﷺ مقتضيات وواجبات هذه الأخوة الإيمانية، بعد أن أكد أن: «المُسلِمُ أخو المُسلِم»، وبناء على ذلك فهو:

1 - لا يَظْلِمُهُ، أي: لا يدخل عليه ضررًا في نفسه، أو دينه، أو عرضه، أو ماله بغير إذن شرعي.

2 - وَلَا يَخْذُلُهُ، أي: إذا استعان به في دفع ظالم أو نحوه لزمه إعانتة إذا أمكنه ولم يكن له عذر شرعي، فلا يترك نصرته المشروعة، لأن من حقوق أخوة الإسلام: التناصر.

3 - وَلَا يَكْذِبُهُ، أي: لا يخبره بأمر خلاف الواقع.

4 - وَلَا يَحْقِرُهُ، أي: لا يتكبر عليه ويستصغر من شأنه ويضع من قدره.

ولأن الدافع وراء التزام هذه المناهي الواردة في الحديث تقوى الله ﷻ ومخافة عقابه قال ﷺ: «التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ ﷺ إِلَى صَدْرِهِ ثَلَاثَ مَرَاتٍ -».

كذلك التقوى هي الميزان الذي يتفاضل به الناس عند الله تعالى، قال الله ﷻ: ﴿إِنْ أَكْرَمَكُمُ عِنْدَ اللَّهِ أَنْتَأَكُمُ﴾ [الحجرات: 13]، ومحلها القلب فلا يطلع عليها أحد، لذا «بِحَسَبِ أَمْرِي مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ»، وبخاصة أنه لا يعلم من حقيقته شيئاً ولا يعلم منزلته عند الله ﷻ، فإنه إنما يحتقر أخاه المسلم لا شيء في أخيه، بل لمرض في نفسه، وهو الكبر، الذي هو من أعظم خصال الشر، فقد جاء عن النبي ﷺ أنه قال: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ كِبَرٍ»⁽¹⁾.

ثم ختم الحديث ببيان حرمة المسلم على المسلم، فقال ﷺ: «كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعَرْضُهُ»، فلا يجوز أن يتعدى عليه بقتل أو فيما دونه، ولا أن يأخذ

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (3913)، ج 7 ص 30. ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب تحريم الكبر وبيانه، رقم (91). والترمذي، الجامع، كتاب البر والصلة، باب في الكبر، رقم (1999).

ماله بغير وجه حق، بسرقة أو نهب أو غير ذلك، ولا ينتهك عرضه وذمته ويقع فيه بالغيبة ونحوها.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - وجوبُ التآخي والتعاون بين المسلمين.
- 2 - تحريم الظلم.
- 3 - من حقوق المسلم على المسلم نصره إذا احتاج إليه، وتركه هو الخذلان المحرم.
- 4 - التحذير من تحقير المسلم، فإنَّ الله لم يحقره إذ خلقه.
- 5 - التقوى محلها في القلب وسببها استشعار عظمة الله ﷻ، وخشيته ومراقبته.
- 6 - تحريم دماء المسلمين، وأموالهم وأعراضهم.
- 7 - وجوب الصدق على المسلم فيما يخبر به أخاه وغيره، وألا يكذب على أحد، لأنَّ الكذب حرام.
- 8 - تحريم المناجشة، ولو من جانب واحد.
- 9 - تحريم شراء المسلم على شراء أخيه.
- 10 - النهي عن أذية المسلم بأي وجه من الوجوه من قول أو فعل.
- 11 - الأخلاق المذمومة في شريعة الإسلام جريمة ممقوتة⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص284-294.

الحديث التاسع: الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «مَنْ نَفَسَ عَنْ مُؤْمِنٍ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ الدُّنْيَا نَفَسَ اللَّهُ عَنْهُ كُرْبَةً مِنْ كَرْبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ يَسَّرَ عَلَى مُعْسِرٍ يَسِّرَ اللَّهُ عَلَيْهِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ سَتَرَ مُسْلِمًا سَتَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ، وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، وَمَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللَّهِ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَ بَيْنَهُمْ إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمْ الرَّحْمَةُ وَحَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ، وَمَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

مفردات الحديث:

- نفَس: أزال وفرج.
- كُرْبَة: شدة عظيمة، وهي ما أهم النفس وأغم القلب.
- معسر: المعسر من أثقلته الديون وعجز عن وفائها.
- ومن ستر مسلماً: لم يُعرف بأذى أو فساد، بأن عِلِمَ منه وقوع معصية ولم يخبر بها أحداً.
- ستره الله في الدنيا والآخرة: ألا يعاقبه على ما فرط منه.
- سلك: مشى أو أخذ بالأسباب بالمشي بالأقدام إلى مجالس العلم، ويتناول أيضاً الطريق المعنوي: كالحفظ والمذاكرة والمطالعة والتفهم.
- يَلْتَمِس: يطلب ويبتغي.
- عِلْمًا: شرعياً، قاصداً به وجه الله ﷻ.
- سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ: بتيسير ذلك العلم الذي طلبه والعمل بمقتضاه، وتسهيل طريق الجنة الحسي يوم القيامة وهو الصراط.
- بيوت الله: المساجد.

(1) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب العلم، باب فضل الاجتماع على تلاوة القرآن وعلى الذكر، رقم (2699).

- السكينة: الطمأنينة والوقار والتأني.
- غشيتهم الرحمة: شملتهم الرحمة من كل جهة.
- حَفَّتْهُم الملائكة: أي أحاطت بهم بحيث لا يدعون للشيطان فرجة يتوصل منها للذاكرين.
- وذكرهم الله: أثنى عليهم.
- مَنْ عنده: الملائكة.
- بطأ: قصر، لفقد بعض شروط الصحة أو الكمال.
- لم يسرع به نسبه: لم يُلْحَقْهُ برتب أصحاب الأعمال الكاملة، لأنَّ المسارعة إلى السعادة بالأعمال لا بالأحساب⁽¹⁾.

المعنى الإجمالي للحديث:

حوى هذا الحديث مجموعة من الأخلاق والأعمال الصالحة والوصايا التي من فعلها جوزي بمثلها، ثُمَّ ختم بأهمية طلب العلم ومدارسة القرآن الكريم.

فقد حثَّنَا النَّبِيُّ ﷺ فيه على:

1 - **تنفيس الكرب عن المؤمنين:** أي رفع الحزن والعناء والشدة عن مؤمن، ولو كان يسيراً، إذ الحياة مليئة بالمشقات والصعوبات، وقد تستحكم كُرْبُهَا على المؤمن، فما أعظم أن يُسارع المسلم في بذل المساعدة لأخيه، والسعي لإزالة تلك الكربة أو تخفيفها، فيكون ثوابه وأجره أن يُنْفَسَ الله عنه كربة من كُرْبِ يوم القيامة، سواء كانت كربة في الحساب، أو كربة في السؤال أو كربة في العقاب، فما أعظمه من أجر.

2 - **التيسير على المعسر، والتيسير على المعسر في الدنيا من جهة المال يكون بأحد أمرين:** إمَّا بإنظاره إلى الميسرة، كما جاء في قوله ﷺ: **﴿وَأَنْ كَانَ ذُو عُسْرَةٍ فَنَظِرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾** [البقرة: 280]، وثأرة بالوضع عنه إن كان عليه دين، وإلا فبإعطائه ما يزول به إعساره، وكلاهما له فضل عظيم، وجزاؤه أن يُيسِّرَ الله على الميسر من مشاق الدنيا والآخرة مُقَابِلَ تيسيره على عبده، مُجَازَاةً له بجنس عمله

3 - **ستر عيوب المسلمين، وعدم تتبع أخطائهم وزلاتهم،** فالمسلم مهما بلغ من التقى والإيمان، فإنَّ الزلل متصور منه، فقد يصيب شيئاً من الذنوب، وهو مع ذلك

(1) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 295-297.

كاره لتفريطه في جنب الله ﷻ، كاره أن يطلع الناس على زَلِيلِهِ وتقصيره، فإذا رأى المسلم من أخيه هَفْوة فعلية أن يستره ولا يفضحها، دون إهمال لواجب النصح والتذكير.

فمن ستر عورة أخيه المسلم يَكُونُ جَزَاؤُهُ أَنْ يَسْتُرَهُ اللهُ فِي الدُّنْيَا، بَأَنْ يَسْتُرَ عَوْرَتَهُ أَوْ عُيُوبَهُ، وَيَسْتُرَهُ فِي الْآخِرَةِ عَنْ أَهْلِ الْمَوْقِفِ عند عرض الأعمال.

وهذا فيمن كان مَسْتَوْرًا لَا يُعَرَفُ بِشَيْءٍ مِنَ الْمَعَاصِي، فإذا وَقَعَتْ مِنْهُ هَفْوةٌ أَوْ زَلَّةٌ، فَإِنَّهُ لَا يَجُوزُ هَتْكُهَا وَلَا كَشْفُهَا وَلَا التَّحَدُّثُ بِهَا، وليس في هذا مَا يَقْتَضِي تَرَكَ الْإِنْكَارِ عَلَيْهِ فيما بينه وبينه.

4 - أَنْ يَمُدَّ الْمُسْلِمُ يَدَ الْمُسَاعَدَةِ فِي كُلِّ خَيْرٍ، «وَاللَّهُ فِي عَوْنِ الْعَبْدِ مَا كَانَ الْعَبْدُ فِي عَوْنِ أَخِيهِ»، أي: مَنْ أَعَانَ أَخَاهُ أَعَانَهُ اللهُ ﷻ، وَمَنْ كَانَ سَاعِيًا فِي قَضَاءِ حَاجَاتِ أَخِيهِ، قَضَى اللهُ حَاجَاتِهِ، إِنْ فَالَجَزَاءُ مِنْ جِنْسِ الْعَمَلِ.

ولما كان للعلم منزلة عظيمة، ومكانة رفيعة، جاء الحديث ليؤكد على فضله وعلو شأنه، فوعد ﷻ لِمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَطْلُبُ فِيهِ عِلْمًا أَنْ يُسَهِّلَ اللهُ لَهُ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ، فَقَالَ ﷻ: «وَمَنْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ».

والطريق الذي يُطَلَبُ فِيهِ الْعِلْمُ يَشْمَلُ الطَّرِيقَ الْمَعْنَوِيَّ والطَّرِيقَ الْحِسِّيَّ، فالْمَعْنَوِيُّ هُوَ الطَّرِيقُ الَّذِي يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى الْعِلْمِ، كَحِفْظِ الْعِلْمِ، وَمَدَارَسَتِهِ وَمُذَاكِرَتِهِ، وَمُطَالَعَتِهِ وَكِتَابَتِهِ، وَالتَّفَهُّمُ لَهُ، بَأَنْ يَلْتَمَسَ الْعِلْمُ مِنْ أَفْوَاهِ الْعُلَمَاءِ وَمِنْ بُطُونِ الْكُتُبِ، فَهَذَا قَدْ سَلَكَ طَرِيقًا يَلْتَمِسُ فِيهِ عِلْمًا لَوْ كَانَ جَالِسًا فِي بَيْتِهِ.

وَالطَّرِيقُ الْحِسِّيُّ هُوَ الَّذِي يَجْتَهِدُ فِيهِ الْمَرْءُ، وَيَسِيرُ فِيهِ عَلَى الْأَقْدَامِ، مِثْلَ أَنْ يَأْتِيَ الْإِنْسَانُ مِنْ بَيْتِهِ إِلَى مَكَانِ الْعِلْمِ، سَوَاءَ كَانَ مَسْجِدًا، أَوْ مَدْرَسَةً، أَوْ جَامِعَةً، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ.

وَمَعْنَى «سَهَّلَ اللهُ لَهُ بِهِ طَرِيقًا إِلَى الْجَنَّةِ»، أي: يَسَّرَ اللهُ لَهُ عَمَلًا صَالِحًا يُوصِلُهُ إِلَى الْجَنَّةِ بِفَضْلِ اللهِ وَرِضَاوَانِهِ عَلَيْهِ، فَيُوفِّقُهُ لِلْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَوْ الْمُرَادُ: سَهَّلَ عَلَيْهِ مَا يَزِيدُ بِهِ عِلْمَهُ، لِأَنَّهُ أَيْضًا مِنْ طُرُقِ الْجَنَّةِ، بَلْ هُوَ أَقْرَبُهَا، لِأَنَّ الْعِلْمَ الشَّرْعِيَّ تُعَرَفُ بِهِ أَوَامِرُ اللهِ وَنَوَاهِيهِ، فَيُسْتَدَلُّ بِهِ عَلَى الطَّرِيقِ الَّذِي يُرْضِي اللهُ ﷻ، وَيُوصِلُ إِلَى الْجَنَّةِ.

وفي سياق طلب العلم يخبر النبي ﷺ أَنَّهُ «مَا اجْتَمَعَ قَوْمٌ فِي بَيْتٍ مِنْ بُيُوتِ اللهِ»، وَيُيُوتُ اللهُ فِي الْأَرْضِ الْمَسَاجِدُ، وَأَضَافَ اللهُ ﷻ هَذِهِ الْأَمَاكِنَ إِلَى نَفْسِهِ تَشْرِيفًا وَتَعْظِيمًا، وَلِأَنَّهَا مَحَلُّ ذِكْرِهِ، وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ، وَالتَّقَرُّبِ إِلَيْهِ بِالصَّلَاةِ، وَيُلْحَقُ بِالْمَسَاجِدِ دُورُ الْعِلْمِ وَنَحْوُهَا.

وهذا الاجتماع لأجل تعلم القرآن الكريم: «يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَيَتَدَارَسُونَهُ بَيْنَهُمْ»، بأن يقرأه بعضهم على بعض، ويتدبروا معانيه، ويتدارسوا أحكامه، ويتعهدوه خوف النسيان، إلا منحهم الله ﷻ الأجر الجزيل فضلاً منه ﷻ وكرماً، لأن أولى ما يصرف العبد فيه وقته: تعلم القرآن ونشر علومه.

ثم بين ﷻ فضل هذا الاجتماع، فقال: «إِلَّا نَزَلَتْ عَلَيْهِمُ السَّكِينَةُ وَغَشِيَتْهُمُ الرَّحْمَةُ وَحَقَّقَتُهُمُ الْمَلَائِكَةُ وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ»، فالله يمنح لمن جلس هذه المجالس أربع منج:

أولها: أن ذلك سبب في نزول السكينة عليهم، وهي ما يحصل به صفاء القلب بنور القرآن وذهاب ظلمته النفسانية، مع الطمأنينة والوقار، ومن ثم يكون مطمئناً غير قلق ولا شاك، راضياً بقضاء الله وقدره.

الثانية: غطتهم وسترتهم رحمة الله ﷻ.

الثالثة: اتفقت حولهم الملائكة، تعظيماً لصنيعهم، واستماعاً لذكرهم الله ﷻ، وليكونوا شهداء عليهم بين يدي الله ﷻ.

الرابعة: «وَذَكَرَهُمُ اللَّهُ فِيمَنْ عِنْدَهُ» من الملائكة الأعلى، وهي الطبقة الأولى من الملائكة، ذكرهم الله تعالى مباهة بهم.

ثم يختتم الحديث ببيان أن تلك البشارات العظيمة لا تنال إلا بعد المرء واجتهاده، لا بشخصه ومكانته، فلا ينبغي لأحد أن يتكل على شرفه ونسبه، فلا اعتبار لمكانة الشخص إن كان مقصراً في العمل، ف«مَنْ بَطَأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»، أي: من كان عمله ناقصاً، لم يلحقه نسبه بمرتبة أصحاب الأعمال، فينبغي ألا يتكل على شرف النسب، وفضيلة الآباء، ويقصر في العمل.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - الجزاء من جنس العمل.
- 2 - الترغيب في تنفيس الكرب عن المؤمنين، والتيسير على المعسرين.
- 3 - الترغيب في ستر المسلم إذا أخطأ إذا لم يكن يُعرف بالفساد.
- 4 - الحث على عون العبد المسلم.

- 5 - فضل قضاء حاجات المسلمين ونفعهم بما تيسر من علم أو جاه أو مال أو إشارة أو نصح أو دلالة على خير أو إعانة بنفسه أو بوساطته أو الدعاء بظهر الغيب.
- 6 - الحثُّ على طَلَبِ العلم.
- 7 - الحثُّ على الاجتماع على مدارس كتاب الله ﷻ وقراءته ومذاكرته.
- 8 - فضل الجلوس في بيوت الله تعالى لمدارسة العلم.
- 9 - دلُّ الحديث على أَنَّ مَنْ ذَكَرَ الله ذَكَرَهُ الله في المَلَأَ الأعلى.
- 10 - الجزاء رتبته الله ﷻ على الأعمال لا على الأنساب⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 298-328.

الحديث العاشر: عبادة الله وسيلة القرب والمحبة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى قَالَ: مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا. وَلَئِنْ سَأَلَنِي لِأَعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنْ اسْتَعَاذَنِي لِأُعِيذَنَّهُ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مفردات الحديث:

- عادى: من المعادة، وهو من باب المفاعلة الَّتِي تقع من الْجَانِبَيْنِ، والمعنى هنا آذى وأبغض وأغضب بالقول والفعل.
- ولياً: أصل الولاية القرب، والولي هو العالم بالله، المواظب على طاعته، المخلص في عبادته.
- آذنته: أي أعلمته، والإيذان الإعلام، ومنه أخذ الأذان.
- النوافل: الطاعات المستحبات.
- يبطش: يأخذ.
- سألني: دعاني بشيء وطلب مني شيئاً.
- استعاذني: لاذ بي ولجأ إليّ واعتصم بي.
- لأعِيذَنَّهُ: لأحفظنه مما يخاف.
- مساءته: ضرره⁽²⁾.

المعنى الإجمالي للحديث:

هذا الحديث قد اشتمل على فوائد كثيرة النفع، جليلة القدر لمن فهمها حق فهمها، وتدبرها.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الرقاق، باب التواضع، رقم (6137).

(2) البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 336-342.

وهو حديث قُدْسِي ﷺ يضيفه النبي ﷺ إلى الله ﷻ، وقبل الشروع بشرح الحديث لا بد لنا أن نقف مع المراد بالولي، فمن هو الولي؟

الْوَلِيُّ: هو الْمُؤْمِنُ التَّقِيُّ، الْعَالِمُ بِاللَّهِ تَعَالَى، الْمَوَاطِبُ عَلَى طَاعَتِهِ، الْمُخْلِصُ فِي عِبَادَتِهِ. قال تعالى: ﴿أَلَا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٦﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴿٣٧﴾ لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ لَا تَبْدِيلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [يونس: 62-64]، فوصفهم ﷺ بهذين الوصفين الإيمان والتقوى، وهما ركننا للولاية الشرعية، فكل مؤمن تقى فهو لله ولي، وهذا يعني أَنَّ الباب مفتوح أمام من يريد أن يبلغ هذه المنزلة العلية والرتبة السنية، وذلك بالمواظبة على طاعة الله في كل حال، وإخلاص العمل له، ومتابعة رسوله ﷺ في الدقيق والجليل.

ونبدأ بشرح جمل هذا الحديث، يقول النبي ﷺ فيما يرويه عن ربه ﷻ: «مَنْ عَادَى لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالْحَرْبِ»، أي: من ألحق الأذى بوليٍّ مِنْ أَوْلِيَاءِ اللَّهِ تَعَالَى بقول أو فعل، فَقَدْ أَعْلَنَ اللَّهُ ﷻ الْحَرْبَ عَلَيْهِ، حيثُ كَانَ مُحَارِبًا لَهُ ﷻ بمعاداة أوليائه، وهذا فيه الغاية القصوى مِنَ التَّهْدِيدِ، إِذْ مَنْ حَارَبَهُ اللَّهُ وَعَامَلَهُ مُعَامَلَةَ الْمُحَارِبِ، فَهُوَ هَالِكٌ لَا مَحَالَةَ، وَمَنْ يُطِيقُ حَرْبَ اللَّهِ؟!

وبعد أن ذكر ﷺ وجوب موالاة أوليائه وتحريم معاداتهم وعقوبة ذلك، ذكر طرق تحصيل هذه الولاية، فقال ﷺ: «وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِشَيْءٍ أَحَبَّ إِلَيَّ مِمَّا افْتَرَضْتُهُ عَلَيْهِ»، أي: ليس هناك شيء يتقرب به إلى الله ﷻ أحب إليه ممن يتقرب بالفرائض، وما أَوْجَبَهُ، فَالصَّلَاةُ الْخَمْسُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ قِيَامِ اللَّيْلِ، وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ النَّوَافِلِ، وَصِيَامُ رَمَضَانَ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنْ صِيَامِ الْاِثْنَيْنِ وَالْخَمِيسِ، وَالْأَيَّامُ السَّيِّئَةِ مِنْ شَوَّالٍ، وَمَا أَشَبَّهَهَا، فَالْفَرَايِضُ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَأَوْكَدُ.

ثم قال ﷺ: «وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّى أَحْبَبَهُ»، يعني: ويستمر العبد بالتقرب إلى الله بالنوافل حتى ينال محبة الله، فيُحِبُّهُ اللَّهُ.

قال ﷺ: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ»، ظهرت آثار المحبة عليه، وهذه الآثار: «كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَنْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا»، يعني أَنَّهُ يَكُونُ مُسَدِّدًا لَهُ فِي هَذِهِ الْأَعْضَاءِ الْأَرْبَعَةِ، فَاللَّهُ ﷻ يُسَدِّدُهُ فِي سَمْعِهِ، فَلَا يَسْمَعُ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ ﷻ، وَيُسَدِّدُهُ فِي بَصَرِهِ، فَلَا يَنْظُرُ إِلَّا إِلَى مَا يَحِبُّ اللَّهُ ﷻ النَّظَرَ إِلَيْهِ، وَيُسَدِّدُهُ فِي يَدِهِ، فَلَا يَعْمَلُ بِيَدِهِ إِلَّا مَا يُرْضِي اللَّهَ، لِأَنَّ اللَّهَ يُسَدِّدُهُ، وَكَذَلِكَ رِجْلُهُ، فَلَا يَمْشِي إِلَّا إِلَى مَا يُرْضِي اللَّهَ، لِأَنَّ اللَّهَ يُسَدِّدُهُ.

قوله: «وإن سألني لأعطينه، ولئن استعاذني لأعيذنه»، يعني: أن هذا المحبوب المقرب إلى الله ﷻ، له عند الله منزلة خاصة تقتضي أنه إذا سأل الله شيئاً، استجاب له فأعطاه الله إياه، وإن استعاذ بالله من شيء أعاده منه، فيصير مجاب الدعوة لكرامته على الله ﷻ.

ثم يقول ﷻ: «وما ترددت عن شيء أنا فاعله ترددي عن نفس المؤمن» وليس هذا التردد من أجل الشك في المصلحة، ولا من أجل الشك في القدرة على فعل الشيء، بل هو من أجل رحمة هذا العبد المؤمن، ولهذا قال الله تعليلاً لهذا التردد: «يكره الموت» لما فيه من الألم العظيم، «وأنا أكره مساءته»، لما يلقى المؤمن من الموت وصعوبته.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - الدلالة على شرف مكانة أولياء الله ﷻ.
- 2 - حرّم الله إيذاء المؤمن بغير حق، وتوعّد المجترئ على ذلك بالعقاب الأليم في الدنيا والآخرة.
- 3 - معادة أولياء الله من كبائر الذنوب، لأن الله جعل ذلك إيذاناً بالحرب.
- 4 - أولياء الله ﷻ تجب موالاتهم، وتحرم معاداتهم، كما أن أعداءه تجب معاداتهم، وتحرم موالاتهم.
- 5 - تنال ولاية الله ومحبته بفعل الواجبات وترك المحرمات، وبالإكثار من التطوع بالعبادات.
- 6 - الفريضة أحب إلى الله من النافلة وأفضل من الأعمال المستحبة.
- 7 - لا تقدّم نافلة على فريضة عند التعارض.
- 8 - في محبة الله تسديد العبد في سمعه وبصره ويده ورجله، فيكون بذلك مُعاناً في جميع أموره.
- 9 - أنه كلما ازداد الإنسان تقرباً إلى الله ﷻ بالأعمال الصالحة، فإن ذلك أقرب إلى إجابة دعائه وإعازته مما يستعيز الله منه⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا ومستو، الوافي في شرح الأربعين النووية، ص 336-342.

الحديث الحادي عشر: المؤمن القوي

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْمُؤْمِنُ الْقَوِيُّ خَيْرٌ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ مِنَ الْمُؤْمِنِ الضَّعِيفِ وَفِي كُلِّ خَيْرٍ. احْرَضْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللَّهِ وَلَا تَعْجِزْ. وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: (لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)، وَلَكِنْ قُلْ: (قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

مفردات الحديث:

- القوي: القوي في إيمانه، وفي جانب من جوانب القوة المادية أو المعنوية.
- الحرص: هو بذل الجهد واستفراغ الوسع، بفعل الأسباب المشروعة التي تنفع في الدنيا والآخرة.
- استعن بالله: الإعانة هي طلب العون والمساعدة، أي اطلب الإعانة في جميع أمورك من الله تعالى لا من غيره.
- لا تعجز: لا تكسل فتفعل فعل العاجز، وهو غير القادر.

المعنى الإجمالي للحديث:

يحض النبي ﷺ في هذا الحديث المؤمنين على الأخذ بأسباب القوة المادية والمعنوية، فيبين أن «المؤمن القوي» في إيمانه وعزيمته وتخصسه ومهنته وماله وغيرها من أوجه القوة «خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف»، لأن المؤمن القوي ينتج ويعمل للمسلمين، وينتفع المسلمون بقوته البدنية وقوته الإيمانية وقوته العملية والعلمية في تحقيق مصالحهم، وفي مواجهة الأعداء، وفي نشر صورة حسنة عن دينه بين الأمم، وهذا ما لا يملكه المؤمن الضعيف، فمن هذا الوجه كان المؤمن القوي خيراً من المؤمن الضعيف. والمؤمنون قد يتفاوتون في قدراتهم، لذا تسلية للمؤمن الذي لا يملك القوة التي يخدم بها نفسه ويخدم بها الآخرين، لم يستثنه الحديث من الخيرية، حتى لا يقع في أجواء الخيبة والخسران، فقال ﷺ: «وفي كل خير»، وذلك الخير هو بسبب ما يحمله من الإيمان، وما يتمتع به من جوانب إيجابية، ولو كانت قليلة أو ضعيفة، وهذا من العدل والإنصاف.

(1) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب القدر، باب في الأمر بالقوة وترك العجز والاستعانة بالله وتفويض المقادير لله، رقم (2664).

ثم أوصى النبي ﷺ المؤمنَ قوياً كان أو ضعيفاً بالأخذ بأسباب القوة، وعلى رأسها أن يحرص على كلِّ أمرٍ فيه نفع، فيشغل وقته وعمره بما هو نافع، سواء في أمر دينه أو في أمر دنياه، قال ﷺ: «أَحْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ».

ومع الأخذِ بالأسبابِ لا بُدَّ للمؤمن من الاعتماد على مُسَبِّبِ الأسبابِ، وهو الله ﷻ، ولهذا قال النبي ﷺ بعد ذلك: «وَأَسْتَعِزْ بِاللَّهِ»، لأنَّ الإنسانَ إذا أَخَذَ بِالْأَسْبَابِ وَلَمْ يَحْصُلْ لَهُ عَوْنٌ وَتَوْفِيقٌ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، فَلَنْ يُحْصَلَ مَا يُرِيدُهُ، فَإِنَّهُ لَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.

وصدق ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله- حين قال: (مَا تَوَقَّفَ مَطْلَبُ أَنْتَ طَالِبُهُ بِرَبِّكَ، وَلَا تَيْسَّرَ مَطْلَبُ أَنْتَ طَالِبُهُ بِنَفْسِكَ) (1).

ثم ينهى النبي ﷺ عن أهم أسباب الضعف وهو الشعور بالعجز، فقال ﷺ: «وَلَا تَعْجُزْ»، والعجز شعور نفسي يدعو إلى الكسلِ، والتثاقلُ عملاً لا ينبغي التثاقلُ عنه، ويكونُ ذلك لعدم انبعاثِ النَّفْسِ لِلْخَيْرِ مع وجودِ القدرة عليه، ولذلك كان النبي ﷺ يَسْتَعِيزُ بِاللَّهِ منه، فعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ؓ قَالَ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْعَجْزِ وَالْكَسَلِ، وَالْجُبْنِ وَالْهَرَمِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ») (2).

والعجز يأتي من عدم الاستعانة بالله ﷻ، ويأتي أيضاً من التحسر على ما فات والوقوع في دائرة الهم والحزن، والعيش في أجواء اللوم للنفس، أو أجواء التمني الفارغ، لذا قال النبي ﷺ: «وإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: (لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا)، وَلَكِنْ قُلْ: (قَدَرُ اللَّهِ وَمَا شَاءَ فَعَلَ)، فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ».

إِنَّ المؤمن إذا اجتهد في العمل، وأخذ بالأسباب، مستعيناً بالله ﷻ، وطلب الخير من الله ﷻ، فلا عليه بعدها إلا أَنْ يُقَوِّضَ أمره كُلَّهُ لِلَّهِ ﷻ، وليعلم أَنَّ اختيار الله ﷻ هو الخير، فإذا أصابته بعد ذلك مصيبة، فلا يقل: «لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا»، فَإِنَّ هَذَا الْقَوْلَ غَيْرُ سَدِيدٍ. وَلَكِنْ يَقُولُ مُسْتَسْلِماً وَرَاضِياً، وَمُؤْمِلاً بِالْخَيْرِ: «قَدَّرَ اللَّهُ»، أَي: وَقَعَ ذَلِكَ بِمُقْتَضَى قَضَائِهِ وَعَلَى وَفْقِ قَدَرِهِ ﷻ، «وَمَا شَاءَ فَعَلَ»، فَإِنَّهُ فَعَالٌ لِمَا يَرِيدُ، وَلَا رَادَّ لِقَضَائِهِ، وَلَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ﷻ.

(1) ابن عباد، غيث المواهب العلية، ص46.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب: ما يتعوذ من الجبن، رقم (2668). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الذكر، والدعاء، والتوبة، والاستغفار، باب التعوذ من شر ما عمل، ومن شر ما لم يعمل، رقم (2722).

«فَإِنَّ (لَوْ) تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»: فقول لو علامة على الاعتراض على القدر، وفيها تَحَسُّرٌ وتَأْسُفٌ على ما فات، لذا فهي تفتح أبواب الشيطان إلى النفس ليلج من أيها شاء.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - استحباب القوة في الأعمال، لأنه يحصل بها من الفائدة ما لا يحصل بالضعف.
- 2 - إِنَّ المؤمن القوي والضعيف إن استويا بالإيمان، فَإِنَّ القوي نفعه متعدُّ إلى غيره، أما الضعيف فنفعه قاصر على نفسه، بهذا كان القوي خيراً من الضعيف.
- 3 - المؤمن القوي في إيمانه وجسده وعمله وأثره وعلمه أحب إلى الله ﷻ من المؤمن الضعيف.
- 4 - الإنسانُ ينبغي أَنْ يحرصَ على ما ينفعه، ويترك ما لا ينفعه.
- 5 - يجب على المؤمن أَنْ يَطْلُبَ معونةَ الله ﷻ له في كلِّ أموره، ولا يعتمد على نفسه.
- 6 - على الإنسان أن يحذر العجز والبطالة وتعطيل الأسباب.
- 7 - إثبات القضاء والقدر، وأنه لا ينافي بَذْلَ الأسباب والسعي في طلب الخيرات.
- 8 - النهي عن قول «لو» على وجه التَّسَخُّطِ عند نزول المصائب، وتحريم الاعتراض على القضاء والقدر لله تعالى.

الحديث الثاني عشر: الدعوة إلى الهدى

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ آثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَامِهِمْ شَيْئًا»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه.

مفردات الحديث:

- هدى: الأعمال الصالحة والتوجهات السديدة الموافقة للشرع التي توصل الناس إلى الله ﷻ.
- ضلالة: الأعمال المحرمة والتوجهات والأفكار المخالفة للشرع التي توصل الناس إلى طريق جهنم.

المعنى الإجمالي للحديث

في هذا الحديث يبين النبي ﷺ أَنَّ مَنْ أَرشَدَ وَدَلَّ وَحَضَّ النَّاسَ عَلَى عَمَلٍ فِيهِ حَقٌّ وَخَيْرٌ بِقَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ كَانَ لَهُ مِثْلُ أَجْرِ مَنْ تَبِعَهُ دُونَ أَنْ يَنْقُصَ ذَلِكَ مِنْ أَجْرِ التَّابِعِ شَيْئًا، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا»، وذلك مثل أن يبين للناس أَنَّ رَكَعَتِي الضُّحَى سُنَّةٌ، وَأَنَّهُ يَسْتَحِبُّ لِلْإِنْسَانِ أَنْ يَصِلِيَ رَكَعَتَيْنِ فِي الضُّحَى، ثُمَّ تَبِعَهُ النَّاسُ وَصَارُوا يَصِلُونَ الضُّحَى، فَإِنَّ لَهُ مِثْلَ أُجُورِهِمْ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، لِأَنَّهُ كَانَ سَبَبَ حَصُولِ ذَلِكَ الْخَيْرِ مِنْهُمْ، وَلَوْلَا هُوَ لَمْ يَحْصُلْ ذَلِكَ الْخَيْرُ مِنْهُمْ، لِأَنَّ الدَّعَاءَ إِلَى الْهُدَى خِصْلَةٌ مِنْ خِصَالِ الْأَنْبِيَاءِ.

وهنا جاءت كلمة «هدى» منكرة لتدل على مطلق الهدى، فيشمل الدعوة إلى القليل والكثير، فلا يستقل المرء في دعوة الناس أمرًا مهمًّا ظنه صغيرًا.

ولأجل هذا الفضل العظيم في الدعوة إلى الخير كانت من أحسن الأعمال، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت: 33].

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9160)، ج 15 ص 83. ومسلم، المسند الصحيح، كتاب العلم، باب من سن سنة حسنة، رقم (2674). وأبو داود، السنن، كتاب السنة، باب لزوم السنة، رقم (4609).

وفي المقابل يقول النبي ﷺ: «وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ مِثْلِ أَثَامِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يُنْقِصُ ذَلِكَ مِنْ أَثَامِهِمْ شَيْئًا»، فمن أرشد ودلَّ النَّاسَ، سواء بقوله أو فعله، إلى طريق باطلٍ وشرٍّ فيه ذنب وخطيئة أو أمر لا يحلُّ، فإنَّ كلَّ إنسان يستجيب له ويتأثر به وبدعوته فإنه يُكتب له مثل أوزارهم، لأنَّه دعا إلى الوزر، ولا ينقص ذلك من آثامهم شيئاً والعياذ بالله.

وكلمة ضلالة جاءت أيضاً منكراً ومنونة لتدل على العموم، فيدل فيها أي انحراف وأي دعوة لإثم صغر أم كبير.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - فضل الدعوة إلى الهدى والخير، قليلاً كان أو كثيراً، فإنَّ الدَّاعي له مِثْلُ أَجْرِ العامل، وذلك من عظيم فضل الله وكمال كرمه.
- 2 - خطورة الدعوة إلى الضلال، قليلاً كان أو كثيراً، وأنَّ الدَّاعي عليه مِثْلُ وَزْرِ العامل.
- 3 - الجزاء من جنس العمل، فمن دعا إلى الخير كان له مِثْلُ أَجْرِ فاعله، ومن دعا إلى الشر كان عليه مِثْلُ وَزْرِ فاعله.
- 4 - على المسلم أن يحذَرَ مَنْ أن يُقْتَدَى به بمجاهرتة بالمعصية والناس يرونه، فإنَّه يأثم بِمَنْ قَلَّده ولو لم يحثْهُ على ذلك.
- 5 - الحث على الاجتهاد في الدعوة لعبادة الله، فإن كل من يطيعك يكون عمله كله في موازين حسناتك.
- 6 - احذر أن تعصي الله فيقلدك أحد أو تدل على معصية فيفعلها أحد فتكون في موازين سيئاتك يوم القيامة.

الحديث الثالث عشر: صلاة الجماعة

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً، وَذَلِكَ أَنْ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَازُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتْ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ، وَالْمَلَائِكَةُ يَصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ، مَا لَمْ يُؤْذِ فِيهِ، مَا لَمْ يُحْدِثْ فِيهِ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

مفردات الحديث:

- السوق: الموضع الذي يُجلب إليه المتاع والسلع للبيع والشراء، والمقصود مكان عمله.
- بِضْعًا: البضع: من الثلاثة إلى العشرة.
- أحسن الوضوء: أسبغه وأتى بفرائضه كاملة وبسننه وآدابه.
- ينهزه: يخرج به ويُنهضه.
- درجة: مرتبة ومنزلة.
- حط: محا ووضع عنه.
- خطيئة: ذنب.
- يصلون: يدعون.

المعنى الإجمالي للحديث

صلاة الجماعة من أفضل القربات التي يتقرب بها العبد إلى ربه ﷻ، حيث ضاعف الله ثوابها أضعافاً كثيرة عن الصلاة منفرداً.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب البيوع، باب: ما ذكر في الأسواق، رقم (2013). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم (649)، واللفظ له.

وفي هذا الحديث يخبر النبي ﷺ بفضل صلاة الجماعة وأنها تفضل وتزيد في الأجر على صلاة المنفرد في عمله أو في بيته، بضعا وعشرين درجة في الأجر والثواب، فقال ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ، وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ، بِضْعًا وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»، والبضع: ما بين ثلاثة إلى تسعة، وجاء في الصحيحين تحديد هذا البضع: «بِسَبْعٍ وَعِشْرِينَ دَرَجَةً»⁽¹⁾، وفي رواية: «بِخَمْسٍ وَعِشْرِينَ»⁽²⁾، وهذا الاختلاف راجع لاختلاف أحوال المصلين والصلاة، فيكون لبعضهم خمس وعشرون، ولبعضهم سبع وعشرون، وذلك بحسب كمال الصلاة، ومحافظته على هيئتها، وخشوعها، وكثرة جماعتها، وفضلهم وشرف البقعة التي يصلون فيها.

ثم ذكر النبي ﷺ السبب في ذلك، فقال ﷺ: «وَذَلِكَ أَنَّ أَحَدَهُمْ إِذَا تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ، ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ لَا يَنْهَرُهُ إِلَّا الصَّلَاةُ، لَا يُرِيدُ إِلَّا الصَّلَاةَ، فَلَمْ يَخْطُ خَطْوَةً إِلَّا رَفَعَ لَهُ بِهَا دَرَجَةً، وَحُطَّ عَنْهُ بِهَا خَطِيئَةٌ، حَتَّى يَدْخُلَ الْمَسْجِدَ، فَإِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ كَانَ فِي الصَّلَاةِ مَا كَانَتِ الصَّلَاةُ هِيَ تَحْبِسُهُ»، أي: أن الرجل إذا توضأ في بيته فأتم الوضوء وأحسنه، ثم خرج من بيته إلى المسجد لا ينهزه، أو لا يُخرجه إلا إرادة الصلاة، لم يخطُ خطوة إلا رفع له بها مرتبة ومنزلة درجة، ومُحِي عنه بها خطيئة، سواء أقرب مكانه من المسجد، أم بعد.

حتى يدخل المسجد، فإذا دخل المسجد فصلى ما كُتِبَ له، ثم جلس ينتظر الصلاة، فإنه في صلاة ما انتظر الصلاة، فلو بقي منتظرا للصلاة مدة طويلة، وهو جالس لا يصلي، بعد أن صلى تحية المسجد، وما شاء الله، فإنه يُحسب له أجر الصلاة.

وهناك أيضا ثواب آخر، وهو أن «الْمَلَائِكَةَ يُصَلُّونَ عَلَى أَحَدِكُمْ»، أي: يدعون له «مَا دَامَ فِي مَجْلِسِهِ الَّذِي صَلَّى فِيهِ، يَقُولُونَ: اللَّهُمَّ ارْحَمْهُ، اللَّهُمَّ اغْفِرْ لَهُ، اللَّهُمَّ تَبَّ عَلَيْهِ».

وتستمر الملائكة في دعائها له «ما لم يؤذ فيه»، أي: ما لم يصدر عنه ما يتأذى به بنو آدم أو الملائكة. و«ما لم يحدث فيه»، أي: ما لم يفسد وضوءه، وقيل: ما لم يرتكب معصية، كالغيبة والنميمة.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (619). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (650).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجماعة والإمامة، باب فضل صلاة الجماعة، رقم (619). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (649).

من فوائد الحديث:

- 1 - صلاة الجماعة أفضل من صلاة الإنسان منفردًا.
- 2 - فضل الوضوء في البيت والخروج بهذا الوضوء إلى المسجد.
- 3 - الإخلاص معتبر في تحقيق هذا الثواب.
- 4 - من وظائف الملائكة الدعاء للمؤمنين.
- 5 - استحباب انتظار الصلاة إلى الصلاة.
- 6 - استحباب بقاء المسلم على وضوء.

الحديث الرابع عشر: لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: (أَوْصَانِي خَلِيلِي ؓ بِثَلَاثٍ، لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وَتْرٍ)⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي هُرَيْرَةَ ؓ.

مفردات الحديث:

- أَوْصَانِي: الوصية هنا بمعنى العهد والأمر المؤكّد.
- الخليل: الصديق الخالص الذي تخلّلت محبّته القلب، فصارت في خلاله، أي: في باطنه.
- لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ: لَا أتركهنَّ طوال حياتي.

المعنى الإجمالي للحديث:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يُرْشِدُ أَصْحَابَهُ وَيُوصِيهِمْ بِكُلِّ مَا فِيهِ الْخَيْرُ فِي دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ، وَكَانَ يَحْتَنُّهُمْ وَيُرْغَبُهُمْ فِي أَعْمَالِ التَّطَوُّعِ.

وَفِي هَذَا الْحَدِيثِ يَقُولُ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ: «أَوْصَانِي» وَهَذِهِ الْوَصِيَّةُ النَّبَوِيَّةُ الْعَظِيمَةُ لِأَبِي هُرَيْرَةَ ؓ وَصِيَّةٌ لِلْأَمَةِ كُلِّهَا، لِأَنَّ وَصِيَّةَ النَّبِيِّ ﷺ وَتَوْجِيهَهُ لَوَاحِدٍ مِنْ أُمَّتِهِ خَطَابٌ لِأُمَّتِهِ كُلِّهَا، مَا لَمْ يَدِلْ دَلِيلٌ عَلَى الْخُصُوصِيَّةِ.

وَيَصِفُ أَبُو هُرَيْرَةَ ؓ النَّبِيَّ ﷺ بِقَوْلِهِ «خَلِيلِي»: لَغَرَضِ بَيَانِ عَظِيمِ مَحَبَّتِهِ لِلنَّبِيِّ ﷺ وَافْتِخَارِهِ بِمَنْزِلَتِهِ عِنْدَهُ ﷺ.

وَقَوْلُهُ ؓ: (لَا أَدْعُهُنَّ حَتَّى أَمُوتَ)، يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ هَذَا مِنَ الْوَصِيَّةِ، أَيْ: أَمْرُهُ أَلَّا يَتْرَكَ الْعَمَلَ بِهِنَّ حَتَّى يَمُوتَ ؓ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ ذَلِكَ إِخْبَارٌ مِنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ عَنْ نَفْسِهِ.

فَأَوْصَاهُ النَّبِيُّ ﷺ بِثَلَاثٍ وَصَايَا: (صَوْمُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَصَلَاةِ الضُّحَى، وَنَوْمٍ عَلَى وَتْرٍ).

الْوَصِيَّةُ الْأُولَى: صِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، ذَلِكَ أَنَّ الصِّيَامَ يَعُودُ عَلَى الصَّبْرِ وَالتَّحْمَلِ، وَيَعْلَمُ الْأَمَانَةُ وَمِرَاقَبَةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي السِّرِّ وَالْعَلَنِ، إِذْ لَا رَقِيبَ عَلَى الصَّائِمِ إِلَّا اللَّهُ

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التهجد، باب صلاة الضحى في الحضر، رقم (1124).

ومسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان

وأكملها ثمانين ركعات وأوسطها أربع ركعات أو ست، والحث على المحافظة عليها، رقم (721).

وحده، وفيه جهاد للنفس ومقاومة للأهواء، كما أنه ينمي عاطفة الرحمة والأخوة والشعور بالآخرين من الفقراء والمحتاجين.

وصيام ثلاثة أيام من كل شهر يعدل صيام الشهر كله، فالحسنة بعشر أمثالها، فإذا صام في كل شهر ثلاثة أيام وصام شهر رمضان فكأنما صام سنته تلك كلها، يقول النبي ﷺ في حديث عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما-: «وإنَّ بِحَسْبِكَ أَنْ تَصُومَ كُلَّ شَهْرٍ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ، فَإِنَّ لَكَ بِكُلِّ حَسَنَةٍ عَشْرَ أَمْثَالِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ صِيَامُ الدَّهْرِ كُلِّهِ»⁽¹⁾.

وقد اختلف في تعيين هذه الأيام بين قائل بأنها الأيام البيض (ثلاث عشرة، وأربع عشرة، وخمس عشرة) من كل شهر قمري، أو أنها الأوائل من كل شهر، أو أنها تصام أيام الاثنين والخميس.

وما دام لم يحصل تقييد معين في الحديث، فليأخذ المرء ما يتيسر له دون أن يشق على نفسه، سواء كان ذلك بصيام ثلاثة أيام من أول كل شهر أو آخره، متتابعة أو متفرقة.

الوصية الثانية: عدم ترك ركعتي الضحى، وصلاة الضحى هي نافلة، وأقلها: ركعتان، وأفضلها: ثمان، وأكثرها: اثنتا عشرة، ويسلم من كل ركعتين⁽²⁾، وقيل: لا حد لأكثرها.

وقد حث النبي ﷺ على صلاة الضحى وذكر فضلها في أحاديث كثيرة، منها قوله ﷺ: «يُصْبِحُ عَلَى كُلِّ سَلَامَةٍ⁽³⁾ مِنْ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، فَكُلُّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةٌ، وَكُلُّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةٌ، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنِ الْمُنْكَرِ صَدَقَةٌ، وَيُجْزَى مِنْ ذَلِكَ رَكْعَتَانِ يَرْكُؤُهُمَا مِنَ الضُّحَى»⁽⁴⁾.

ووقت صلاة الضحى بعد شروق الشمس قدر رُمح، ويمتد وقتها إلى ما قبل الظهر برُبْع ساعة تقريباً، وأفضل وقتها حين ترمض الفصال⁽⁵⁾، أي: إذا اشتد الحر في آخر الضحوة،

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصوم، باب: حق الجسم في الصوم، رقم (1874).

(2) أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي، روضة الطالبين وعمدة المفتين، (بيروت: المكتب الإسلامي، ط3، 1991م)، ج1 ص332.

(3) السَّلَامَةُ: جَمْعُ سَلَامَةٍ وَهِيَ الْأَنْمَلَةُ مِنْ أَنْأَمِلَ الْأَصَابِعَ. وَقِيلَ وَاحِدُهُ وَجْمَعُهُ سَوَاءً. وَيُجْمَعُ عَلَى سَلَامِيَّاتٍ وَهِيَ الَّتِي بَيْنَ كُلِّ مَفْصَلَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الْإِنْسَانِ. وَقِيلَ السَّلَامَى: كُلُّ عَظْمٍ مُجَوَّفٍ مِنْ صِغَارِ الْعِظَامِ: الْمَعْنَى عَلَى كُلِّ عَظْمٍ مِنْ عِظَامِ ابْنِ آدَمَ صَدَقَةٌ. (الجزري، النهاية في غريب الحديث، ج2 ص396).

(4) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب استحباب صلاة الضحى، وأن أقلها ركعتان وأكملها ثمان ركعات وأوسطها أربع ركعات أو ست، والحث على المحافظة عليها، رقم (720).

(5) رمض الفصال: أن تحترق الرمضاء، وهي الرمل فتبرك الفصال (الإبل الصغار) من شدة حرها وإحراقها أخفافها. (أبو عبد الله محمد بن علي بن عمر المازري، المُعْلَمُ بفوائد مسلم، تحقيق: محمد النيفر، (تونس: الدار التونسية للنشر، ط2، 1988م)، ج1 ص452).

فعن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الْأَوَّابِينَ (أي: صلاة الضحى) حِينَ تَرْمَضُ الْفَصَالُ»⁽¹⁾.

الوصية الثالثة: المحافظة على صلاة الوتر، وصلاة الوتر هي الصلاة التي تُختم بها صلاة الليل، وسميت بذلك لأنها تصلى وترًا، أي: ركعة واحدة أو ثلاثًا أو نحو ذلك، وأقلها ركعة واحدة، والأفضل تأخير فعلها إلى آخر الليل، وذلك لمن وثق باستيقاظه قبل الفجر، فعن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ خَافَ أَلَّا يَقُومَ مِنْ آخِرِ اللَّيْلِ فَلْيُوتِرْ أَوَّلَهُ، وَمَنْ طَمِعَ أَنْ يَقُومَ آخِرَهُ فَلْيُوتِرْ آخِرَ اللَّيْلِ، فَإِنَّ صَلَاةَ آخِرِ اللَّيْلِ مَشْهُودَةٌ، وَذَلِكَ أَفْضَلُ»⁽²⁾.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - اختلاف وصايا النبي ﷺ لأصحابه مَبْنِيٌّ عَلَى عِلْمِهِ ﷺ بأحوال أصحابه، وما يُنَاسِبُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ، فالقوي يُنَاسِبُهُ الْجِهَادُ، وَالْعَابِدُ تُنَاسِبُهُ الْعِبَادَةُ، وَالْعَالِمُ يُنَاسِبُهُ الْعِلْمُ، وَهَكَذَا.
- 2 - أَنَّ مَنْ خَافَ فَوَاتَ الْوَتْرِ، فَالْأَفْضَلُ لَهُ أَنْ يُصَلِّيَهُ قَبْلَ أَنْ يَنَامَ.
- 3 - الْإِفْتِخَارُ بِصُحْبَةِ الْأَكَابِرِ إِذَا كَانَ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى التَّحَدُّثِ بِالنِّعَمَةِ وَالشُّكْرِ لِلَّهِ تَعَالَى، لَا عَلَى وَجْهِ الْمُبَاهَاةِ.
- 4 - الْإِشَارَةُ إِلَى فَضِيلَةِ صَلَاةِ الضُّحَى وَفَضِيلَةِ صَوْمِ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ وَفَضِيلَةِ الْوَتْرِ.

(1) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب صلاة الأوابين، رقم (748).

(2) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب صلاة المسافرين، باب من خاف ألا يصلي آخر الليل، رقم (755).

الحديث الخامس عشر: اختر من تجالس

عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ كَحَامِلِ الْمَسْكِ وَنَافِخِ الْكِيرِ، فَحَامِلُ الْمَسْكِ إِمَّا أَنْ يُخْذِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً، وَنَافِخُ الْكِيرِ إِمَّا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

أبو موسى هو: عبد الله بن قيس بن سليم بن حضار بن حرب، الإمام الكبير صاحب رسول الله ﷺ، الأشعري التميمي الفقيه المقرئ. وهو معدود فيمن قرأ على النبي ﷺ، كان أقرأ أهل البصرة، وقد فقههم في الدين. ولم يكن في الصحابة أحد أحسن صوتاً منه. وقدم مهاجراً ليالي فتح خيبر، وغزا وجاهد مع النبي ﷺ وحمل عنه علماً كثيراً. وقد استعمله النبي ﷺ ومعاذاً على زبيد، وعدن، وولي إمرة الكوفة لعمر رضي الله عنه، وإمرة البصرة. وهو من فتح تستر.

كان رضي الله عنه صواماً قواماً ربانياً زاهداً عابداً، ممن جمع العلم والعمل والجهاد وسلامة الصدر، لم تغيره الإمارة، ولا اغتر بالدنيا.

مات رضي الله عنه بالكوفة، وقيل: مات بمكة سنة اثنتين وأربعين، وقيل: سنة أربع وأربعين وهو ابن ثلاث وستين سنة.

مفردات الحديث:

- يُخْذِيكَ: يعطيك.
- الكير: جراب من جلد ينفخ به الحداد على النار لتزيد اشتعالاً (منفاخ).
- نافخ الكير: الحداد الذي يصهر الحديد.

المعنى الإجمالي للحديث:

ضَرَبَ النَّبِيُّ ﷺ فِي هَذَا الْحَدِيثِ الْمَثَلَ لِنَوْعَيْنِ مِنَ النَّاسِ، فَقَالَ ﷺ: «إِنَّمَا مَثَلُ الْجَلِيسِ الصَّالِحِ وَالْجَلِيسِ السُّوءِ»:

فالنوع الأول: الجليس الصديق الصالح الذي يدل على الله ﷻ وما فيه رضاه، ويعين على الطاعة، فحاله كحال بائع المسك إِمَّا أَنْ يُعْطِيكَ، وَإِمَّا أَنْ تُشْتَرِيَ مِنْهُ، وَإِمَّا أَنْ تَجِدَ وَتَشْمَ مِنْهُ رِيحًا طَيِّبَةً.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (19660)، ج 32 ص 430. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الذبائح والصيد، باب المسك، رقم (5534). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب استحباب مجالسة الصالحين، ومجانبة قرناء السوء، رقم (2628).

وذلك أَنَّ الجليس الصالح إما أن يتبادل هو وجليسه ما يعود عليهما بخيري الدنيا والآخرة، فهو المشار إليه بقوله «أَنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ»، وإما أن يكون النصيح والإرشاد من جانب الجليس الصالح فقط، فهو يشبه إعطاء حامل المسلك لجليسه من مسكه، وإما ألا يكون هذا ولا ذاك، لكن ينتفع صاحب الجليس الصالح بحال جليسه، ويقتفي أثره في صلاحه، فتزكو في نفسه محبة الخير، فهو يشبه من شم من حامل المسك ريحاً طيبة.

والنوع الثاني: جليس وصديق السوء، الذي يصدُّ عن سبيل الله، ويعين على فعل المعاصي، وترى منه الفعل القبيح، ويطالك الذم لمصاحبة ومجالسة مثله، فمثله كحال الحداد الذي ينفخ ناره بالكير، أي المنفاخ، فيتطاير الشرر عليك، فهو إما أن يحرق ثيابك من شرره المتطاير، وإما تجد من قربه ريحاً خبيثة.

فجليس السوء إما أن يصيبك شره، فهو المشار إليه بقوله: «إِذَا أَنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ»، وإما أن تسلم من شره، لكن لا تخلو نفسك من الضيق به والحرص منه، ولا تسلم من أن يظن بك الناس السوء فتخسر ثقتهم، فهو المشار إليه بقوله: «وَإِذَا أَنْ تَجِدَ رِيحًا خَبِيثَةً».

ولخطورة مجالسة هذا النوع تجد الإنسان يندم يوم القيامة ويأسف لمصاحبة من ضل وانحرف فكان سبباً في ضلاله وانحرافه، يقول الله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَعْصُ الطَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَبِئْسَ الْأَخَذُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا ۖ يَا وَيْلَتَا لَبِئْسَ مَا كُنَّا فِي سَبِيلٍ ۚ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولًا﴾ [الفرقان: 27-29].

لذا فالكيس العاقل يقترب من الجليس الطيب الصالح، ويبتعد عن الجليس الخبيث السيئ، فإنَّ في مجالسة الأتقياء الصالحين ثماراً طيبة، وآثاراً جميلة حسنة، ففي مجالستهم إعانة للعبد على طاعة الله ﷻ، فعن أبي هريرة ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «الْمَرْءُ عَلَى دِينِ خَلِيلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ»⁽¹⁾.

وقديماً قال شاعر:

عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسْأَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِينِهِ
فَكُلُّ قَرِينٍ بِالْمُقَارِنِ يَقْتَدِي⁽²⁾

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8417)، ج 14 ص 142. والترمذي، الجامع، كتاب الزهد، باب منه، رقم (2378)، وقال: حديث حسن غريب. وأبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب من يؤمر أن يجالس، رقم (4833).

(2) البيت من قصيدة للشاعر الجاهلي: طرفة بن العبد بن سفيان بن سعد البكري الواطلي، ديوان طرفة بن العبد، ص 32. وينسب أيضاً للشاعر الجاهلي عدي بن زيد. انظر: القرشي، جمهرة أشعار العرب، ص 394.

ورحم الله ابنُ عطاءِ الله السَّكندري القائل في حكمة من حكمه: (لَا تَصْحَبْ مَنْ لَا يُنْهَضُكَ حَالُهُ وَلَا يَدُلُّ عَلَى اللَّهِ تَعَالَى مَقَالُهُ)⁽¹⁾.

ويعمل ذلك بقوله: (رُبَّمَا كُنْتَ مُسِيئًا فَأَرَاكَ الْإِحْسَانَ مِنْكَ صُحْبَتُكَ مَنْ هُوَ أَسْوَأُ حَالًا مِنْكَ)⁽²⁾.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

- 1 - جواز ضرب الأمثال لتقريب المعنى للسامع.
- 2 - الحث والترغيب على مجالسة أهل الطاعة والصلاح، ومجانبة أهل الفساد وأصحاب الخلق السيئ.
- 3 - جواز بيع المسك والحكم بطهارته لأنَّ النَّبِي ﷺ مدحه ورغَّب فيه.
- 4 - أن للجليس تأثيرًا عظيمًا على جليسه بالخير أو بالشر، ولذلك جاء الحث على اختيار الجليس.

(1) ابن عباد، غيث المواهب العلية، ص66.

(2) ابن عباد، غيث المواهب العلية، ص70.

الحديث السادس عشر: أثر القرآن الكريم

عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْأُتْرُجَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا طَيِّبٌ، وَمَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ التَّمْرَةِ، لَا رِيحَ لَهَا وَطَعْمُهَا حُلْوٌ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الرِّيحَانَةِ، رِيحُهَا طَيِّبٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ، وَمَثَلُ الْمُنَافِقِ الَّذِي لَا يَقْرَأُ الْقُرْآنَ كَمَثَلِ الْحَنْظَلَةِ، لَيْسَ لَهَا رِيحٌ وَطَعْمُهَا مُرٌّ»⁽¹⁾.

التعريف براوي الحديث:

مضى التعريف براوي الحديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

مفردات الحديث:

- الأترجة: ثمر من الحمضيات يشبه الليمون، وحجمه أكبر من البرتقال، وقشرته متعرجة، ويسمى أيضًا الترنج.
- المنافق: مَنْ يظهر الإيمان ويبطن الكفر.
- الريحان: نبات عطري معروف، له ريح طيبة ولكن طعمه مر.
- الحنظلة: نباتٌ مفترشٌ من الفصيلة القرعية ثماره في حجم البرتقالة ولونها خضراء مرقشة أو صفراء وخضراء منقطة، فيها لبٌ شديد المرارة.

المعنى الإجمالي للحديث:

القرآن الكريم كلام الله المجيد، له تأثير في باطن العبد وفي ظاهره، والعباد متفاوتون في التقاط ذلك الأثر، فمنهم من له النصيب الأوفر منه، ومنهم من لا نصيب له البتة، ومنهم من تأثر ظاهره دون باطنه، أو بالعكس.

وفي هذا الحديث بيّن النبي ﷺ أقسامَ الناسِ من حيث أثر قراءة القرآن فيهم وارتفاعهم بها، وضرب ﷺ لذلك مثلًا قَسَمَ فيه النَّاسَ إلى أربعة أقسام:

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (19664)، ج 32 ص 433-434. البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأطعمة، باب: ذكر الطعام، رقم (5111). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضيلة حافظ القرآن، رقم (797).

القسم الأول: المؤمن الذي يقرأ القرآن وينتفع به، ويعمل بما يقرأ، وينفع عباد الله ﷺ، شبهه رسول الله ﷺ بثمره الأترجة، وهو ثمر جامع لطيب الطعم والرائحة وحسن اللون، ومنافعه كثيرة.

القسم الثاني: المؤمن الذي طاب باطنه لثبات الإيمان فيه، وقيامه بالواجبات، غير أنه لا يقرأ القرآن، باستثناء الواجب منه كالفاتحة، فشبهه رسول الله ﷺ بالتمر، طعمها حلو، ولا ريح لها، فاشتماله على الإيمان كاشتغال التمرة على الحلاوة، بجامع أن كليهما أمر باطني، وعدم ظهور ريح لها يستريح الناس لشمه، لعدم ظهور قراءة منه يستريح الناس بسماعها.

القسم الثالث: المنافق الذي يقرأ القرآن، ولا يصلح قلبه بالإيمان، ولا يعمل به، ويتظاهر أمام الناس أنه مؤمن، فهو من حيث تعطل باطنه عن الإيمان واستراحة الناس بقراءته، مثل الريحانة لها رائحة طيبة وطعمها مرٌّ، فريحها الطيب يشبه قراءته، وطعمها المرُّ يشبه كفره.

القسم الرابع: المنافق الذي لا يقرأ القرآن الكريم، شبهه النبي ﷺ من حيث تعطل باطنه عن الإيمان، وظاهره عن سائر المنافع، وتلبسه بالمضار بالحنظلة، حيث إنها لا رائحة لها، ومرٌّ مذاقها، فانهدام ريحها أشبه انعدام ريحه، لعدم قراءته، ومرارة طعمها شبيهة بمرارة كفره، فباطنه خالٍ من الإيمان، وظاهره لا نفع فيه، بل هو ضارٌّ.

وقوله ﷺ: «يقرأ القرآن» على صيغة المضارع ونفيه في قوله: «لا يقرأ» ليس المراد منهما حصولها مرة ونفيها بالكلية، بل المراد منهما الاستمرار والدوام عليهما، وأن القراءة دأبه وعادته، أو ليست عادة له.

وتلاوة القرآن لها فضل وأجرٌ عظيم، جاءت به آيات والأحاديث عن النبي ﷺ، منها:
قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَرْجُونَ تِجَارَةً لَّنْ تَبُورَ ۚ لِيُؤْفِقَهُمْ أَجُورَهُمْ وَيَرْيَدَهُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ غَفُورٌ شَكُورٌ﴾ [فاطر: 29-30].

وورد عن عبد الله بن مسعود ؓ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ قرأ حرفاً من كتابِ اللَّهِ فَلَهُ بِهِ حَسَنَةٌ، والحسنةُ بعشرِ أمثالِها، لا أقولُ ﴿آلَمْ﴾ حرفٌ، وَلَكِنْ أَلِفٌ حَرْفٌ وميمٌ حرفٌ»⁽¹⁾.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، كتاب الإيمان، أبواب فضائل القرآن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن قرأ حرفاً من القرآن ماله من الأجر، رقم (2910).

وما ورد عن أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- عن النبي ﷺ أنه قال: «الماهرُ بالقرآن مع السَّفَرَةِ الْكِرَامِ الْبَرَّةِ، والذي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ وَيَتَتَعَتَعُ فِيهِ، وهو عليه شاقٌّ، له أَجْرَانِ»⁽¹⁾.

الفوائد المستفادة من الحديث:

من فوائد الحديث:

1. بيان فضل القرآن على غيره من الكلام.
2. بيان فضيلة حامل القرآن العامل به.
3. من طُرُقِ التعليمِ ضَرْبُ الْمَثَلِ، لتقريب الفهم.
4. ينبغي للمسلم أن يكونَ له وَرْدٌ مُسْتَمِرٌّ من كتاب الله تعالى.
5. المقصود من تلاوة القرآن العمل، كما دل عليه قوله «ويعمل به».

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل الماهر بالقرآن والذي يتتعتع فيه، رقم (798).



المبحث الرابع

﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا﴾

«اللَّهُمَّ فَقِّهْهُ فِي الدِّينِ»

قيل: «مَنْ عبد الله على جهالة فكأنما عصاه»، لأنَّ من يعبد الله على غير علم لا بدَّ أن يقصِّر أو يضل عن العبادة الصحيحة، لذا جاء في الحديث عن رسول الله ﷺ: «طَلَبُ الْعِلْمِ فَرِيضَةٌ عَلَىٰ كُلِّ مُسْلِمٍ»⁽¹⁾.

وفي هذا المبحث الفقهي نُسلط الضوء على أهم القضايا المتعلقة بعبادة المسلم، كي يؤديها على الوجه الذي يحبه الله ويرضاه، ونحسب أنَّ ما أوردناه واجب على المسلم تعلمه.

أولاً- الفقه ومصادره وفروعه

تعريف الفقه:

الفقه لغةً: الفهم العميق.

ويعرَّف اصطلاحاً: بأنَّه العلم بالأحكام الشرعية العملية التي تُستنبط من أدلتها التفصيلية.

بمعنى العلم بالأحكام الفرعية المتعلقة بعبادات المسلم، كالصلاة والصيام والزكاة والحج، ومعاملاته الاقتصادية، كالبيع والشراء، والقضائية، كالمحاكمات والعقوبات،

(1) أخرجه ابن ماجه، السنن، افتتاح الكتاب في الإيمان وفصائل الصحابة والعلم، باب فضل العلماء والحث على طلب العلم، رقم (224).

والسياسية، كأحكام الدولة والحرب والسلم، والاجتماعية، كأحكام الزواج والطلاق والميراث، وغيرها من الأحكام الفرعية العملية⁽¹⁾.

مصادر الفقه الإسلامي:

مصادر الفقه الإسلامي هي الأدلة التي يُستقى منها ويبنى عليها الفقه، ويُطلق عليها أيضاً مصادر التشريع الإسلامي أو مصادر الشريعة. وتقسم مصادر الفقه إلى مصادر أصلية، وأخرى تبعية، فالأصلية هي الكتاب والسنة، أما التبعية هي الإجماع والقياس. ونفصلها على النحو الآتي:

١ - القرآن الكريم:

القرآن الكريم هو المصدر الرئيس لعلم الفقه ولاستنباط الأحكام الفقهية، حيث يحتوي على الأحكام الشرعية والقواعد الفقهية التي تهم المسلمين في حياتهم اليومية. والقرآن كله قطعي الثبوت، لأنه وصلنا عن النبي ﷺ متواتراً، رواه جموع عن جموع من الحفاظ والقراء إلى وقتنا الحالي، بحيث لا يجوز الطعن أو التشكيك بصحة نص من نصوصه.

ومع أن آيات القرآن كلها قطعية الثبوت إلا أن منها ما هو قطعي الدلالة ومنها ما هو ظني الدلالة.

وقطعية الدلالة هو ما لا يختلف في دلالة ومعناه العلماء، كقوله تعالى: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلَّذِ كَرِ مِثْلَ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ﴾ [النساء: 11]، فهذا المقطع من الآية لم يخالف في فهمه أحد من العلماء، فهم مجمعون على أن الإخوة ذكوراً وإناثاً إذا ورثوا عن والديهم مالا أن للذكر مثل نصيب الأنثيين.

وظني الدلالة هو ما قد تختلف فيها فهم العلماء، مثل قوله ﷺ: ﴿أَوْ لَا مَسْتَمُ السَّاءِ﴾ [المائدة: 6] في آية الوضوء، فقد اختلفت فيه فهم العلماء فذهبت طائفة من أهل العلم، وهم الشافعية، إلى أن المراد بـ ﴿أَوْ لَا مَسْتَمُ﴾ المس الظاهري للجسد، فحكموا بنقض الوضوء بمجرد لمس المرأة الأجنبية ظاهرياً، وذهبت طائفة، وهم الحنفية، إلى أن المراد

(1) بدران أبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، (بيروت: دار النهضة العربية)، ص 118-128. ومحمد مصطفى الزحيلي، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، (دمشق: دار الخير للطباعة والنشر والتوزيع، ط 2، 2006م)، ج 1، ص 18-21.

﴿لَا مَسْئَمَ﴾ الجماع، فقالوا بعدم نقض الوضوء من ملامسة المرأة الأجنبية، والمرأة الأجنبية هي التي يحل شرعاً للرجل الزواج بها.

2- السنة النبوية:

تُعد السنة النبوية والأحاديث المقبولة الواردة عن النبي ﷺ المصدر الثاني لعلم الفقه أو المصدر التشريعي الثاني.

وقد جاءت السنة بأحكام جديدة لم تأت في القرآن الكريم، كحكم أكل لحوم الحمر الأهلية، فقد جاء النهي عنها في السنة المطهرة⁽¹⁾.

ومن السنة ما كان تفسيراً وشرحاً وتوضيحات للأحكام الشرعية التي جاءت في القرآن الكريم، مثل الصلاة والزكاة والحج، فقد جاء الأمر بها دون أن تبين تفاصيلها وشروطها وغير ذلك من أحكامها، وكل ذلك جاءت به السنة.

ونصوص السنة منها ما هو متواتر، أي قطعي الثبوت، ومنها ما هو غير متواتر (آحاد)⁽²⁾، أي ظني الثبوت، وهي من حيث الدلالة منها ما هو ظني، ومنها ما هو قطعي.

3- الإجماع:

يعد الإجماع المصدر الثالث المتفق عليه لاستنباط الأحكام الشرعية بعد القرآن والسنة النبوية.

ومصطلح الإجماع في علم الفقه وأصوله يعني: اتفاق مجتهدي العلماء من أمة محمد ﷺ بعد وفاته على حكم شرعي في عصر من العصور.

فإذا اتفق مجتهدو الأمة على حكم شرعي، ولم يخالف منهم أحد كان هذا إجماعاً شرعياً لا تجوز مخالفته.

ومن الأمثلة المعاصرة عليه: إجماع علماء المسلمين على حرمة تمثيل النبي ﷺ وسائر أنبياء الله ورسله صلوات الله وسلامه عليهم في الأفلام والمسلسلات.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (1204)، ج 2 ص 384. والبخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر، رقم (3963). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيد والذبائح وما يؤكل من الحيوان، باب: تحريم أكل لحم الحمر الإنسية، رقم (561).

(2) سيأتي في مبحث الحديث بيان معنى المتواتر والآحاد إن شاء الله.

مصطلح القياس يعني استنباط حكم شرعي عملي جديد لمسألة لم يأت بها نص من الكتاب والسنة على حكمها، وذلك من خلال عقد مقايضة بين هذه المسألة غير المنصوص على حكمها وبين مسألة أخرى جاء في نص شرعي ببيان حكمها، فإذا اتفقتا في العلة أخذت المسألة غير المنصوص عليها حكم المسألة المنصوص عليها، وذلك كقياس الحبوب المخدرة على الخمر.

ويُعد القياس مصدرًا مهمًا في علم الفقه، لأنه يساعد على تطبيق الشريعة الإسلامية في الحياة العملية والتعامل مع الأحداث والمسائل الجديدة التي قد تظهر في المجتمع⁽¹⁾.

مصادر أخرى للأحكام الشرعية:

اتفق جمهور العلماء على هذه المصادر الأربعة آنفة الذكر، واختلفوا في مصادر أخرى، لذا سموا المصادر الأربعة بالمصادر المتفق عليها، وسموا غيرها بالمصادر المختلف فيها. ومن المصادر المختلف فيها: العرف، وقول الصحابي، والاستحسان، والاستصحاب، والمصلحة المرسله، وشرع من قبلنا، وعمل أهل المدينة، وغيرها⁽²⁾.

فروع علم الفقه:

من أهم فروع علم الفقه الإسلامي:

فقه العبادات: وتتعلق بالأحكام المتعلقة بالعبادات والشعائر الدينية، مثل: الصلاة والصوم والحج والزكاة والأضحية وغيرها.

فقه المعاملات: وتتعلق بالأحكام المتعلقة بالمعاملات المالية، مثل البيع والشراء والإجارة والوكالة والديون والتحويلات المالية وغيرها.

فقه العقوبات: وتتعلق بالأحكام المتعلقة بالجنايات والعقوبات الجزائية، مثل: الحدود والتعزير والقصاص وغيرها.

فقه الأسرة: وتتعلق بالأحكام المتعلقة بالأسرة والزواج والطلاق والنفقة وحضانة الأولاد وغيرها.

(1) أبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص 185-206. والزحيلي، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، ج 1 ص 227-244.

(2) انظر: أبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص 207-220. والزحيلي، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، ج 1 ص 245-281.

فقه الوصايا والوقف: وتتعلق بالأحكام المتعلقة بالوصايا والوقف والهبات والعطايا وغيرها.

فقه السياسة الشرعية: وتتعلق بالأحكام المتعلقة بالحكم وتطبيق الشريعة الإسلامية⁽¹⁾.

المذاهب الفقهية:

برز علماء في الفقه تأسست على أيديهم مدارس فقهية ذات منهجية عامة محددة سُميت بالمذاهب الفقهية، وصار كلُّ مَنْ يريد تعلُّم الفقه يتعلمه وفق مدرسة معينة، وكذلك صار غير المجتهدين من طلاب العلم والعامة يتبعون تطبيق أحكام مذهب من هذه المذاهب في حياتهم إذا تعلموه.

ولا بدُّ أن نشير أنَّ هدف كل مدرسة ومذهب هو إصابة الصواب من خلال تحري ما كان عليه رسول الله ﷺ وصحابته الكرام ؓ وتابعوهم وتابعوهم من أهل القرون الثلاثة الأولى.

وهذه المذاهب هي:

١- المذهب الحنفي:

المذهب الحنفي أحد المذاهب الفقهية الأربعة، ونسبته إلى الإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن مرزبان الكوفي (80هـ - 150هـ)⁽²⁾، ويتبعه العديد من المسلمين في العالم الإسلامي في شبه القارة الهندية وتركيا وغيرها.

ويتميز المذهب الحنفي بالتركيز على استخدام الاجتهاد المبني على العقل في فهم الأحكام الشرعية، حيث توسع الإمام أبو حنيفة في الأخذ بالرأي والقياس في غير الحدود

(1) انظر: محمد الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص 24-66. وأبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص 14-19.

(2) هو: أبو حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي التيمي، الكوفي، مولى بني تيم الله بن ثعلبة، إمام الحنفية، الفقيه المجتهد المحقق، أحد الأئمة الأربعة، ولد بالكوفة سنة 80هـ في حياة صغار الصحابة. رأى أنس بن مالك ؓ لما قدم عليهم الكوفة، ولم يثبت له حرف عن أحد منهم، عُني بطلب الآثار، وارتحل في ذلك، وأما الفقه والتدقيق في الرأي وغوامضه، فإليه المنتهى، والناس عليه عيال في ذلك. وكان يبيع الخُرَّ ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، وأرادَه عمر بن مُبيرة (أمير العراقيين: عراق العرب وعراق العجم) على القضاء، فامتنع ورَعًا، وأرادَه المنصور العباسي بعد ذلك على القضاء ببغداد فأبى. توفي سنة 150هـ وله سبعون سنة. (انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 6 ص 390-403. وخير الدين الزركلي، الأعلام، (بيروت: دار العلم للملايين، ط 15، 2002م)، ج 3 ص 122).

والكفارات والتقديرات الشرعية، والسبب في ذلك أنه أقل من غيره من الأئمة في رواية الحديث لتقدم عهده على عهد بقية الأئمة، ولتشدده في رواية الحديث بسبب فشو الكذب في العراق في زمانه وكثرة الفتن⁽¹⁾.

من أهم المراجع في الفقه الحنفي:

ومن أشهر كتبهم التي يرجع إليها في نقل مذهبهم كتاب: «رد المحتار على الدر المختار» لابن عابدين - رحمه الله-، وكتاب «بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع» لأبي بكر مسعود بن أحمد الكاساني، وكتاب «فتح القدير» لكمال الدين بن عبد الواحد بن الهمام.

2- المذهب المالكي:

المذهب المالكي أحد المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسة في الإسلام، ونسبته إلى إمام دار الهجرة، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي الحميري المدني (93 هـ - 179 هـ)⁽²⁾، وهذا المذهب يتميز بالتركيز على الأدلة النقلية المعتمدة على السنة النبوية. ويتميز بالاهتمام بالتفاصيل الدقيقة للأحكام الشرعية، والتأكيد على تحري الدليل الشرعي بدقة. ويتبعه العديد من المسلمين في شمال إفريقيا وبعض الدول في المشرق العربي.

من أهم المراجع في الفقه المالكي:

ومن أهم كتب المذهب «المدونة» لسحنون، وفيه روى أقوال الإمام مالك - رحمه الله- بواسطة عبد الرحمن بن القاسم. و«مختصر خليل»، وعليه شروح عديدة منها: «الشرح (1) الخصري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص 152-160. ومحمد أبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، (لندن: دار الفكر العربي، 1987م)، ص 348-388. وأبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص 118-128.

(2) هو: شيخ الإسلام وحجة الأمة أبو عبد الله مالك بن أنس بن مالك الأصبحي الحميري، إمام دار الهجرة، وأحد أئمة المذاهب الأربعة، مولده في سنة 93 هـ في المدينة، نشأ في صون ورفاهية وتعلم. طلب العلم وهو ابن بضع عشرة سنة، وتأهل للفتيا، وجلس للإفادة، وله إحدى وعشرون سنة، وحدث عنه جماعة وهو شاب طري، وقصده طلبه العلم من الآفاق إلى أن مات، كان صلباً في دينه، بعيداً عن الأمراء والملوك، وجه إليه الرشيد العباسي لياثبه فيحدثه، فقال: «العلم يؤتى»، فقصده الرشيد منزله واستند إلى الجدار، فقال مالك: «يا أمير المؤمنين من إجلال رسول الله ﷺ إجلال العلم، فجلس بين يديه فحدثه، صنف «الموطأ»، توفي سنة 179 هـ. (الزركلي، الأعلام، ج 5 ص 257-258. وانظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 8 ص 48-130).

الكبير»، لأبي البركات الدردير، و«التاج والإكليل» لمحمد بن يوسف العبدري المواق. و«حاشية مواهب الجليل في شرح مختصر خليل» للحطاب⁽¹⁾.

3- المذهب الشافعي:

المذهب الشافعي مذهب من المذاهب الفقهية الأربعة الرئيسة، وينسب إلى الإمام محمد بن إدريس الشافعي المَطْلَبِيُّ القُرَشِيُّ (150 هـ - 204 هـ)⁽²⁾. ويتميز هذا المذهب بالتركيز على الأدلة النقلية والاجتهاد في استخراج الأحكام الشرعية. ويتبعه العديد من المسلمين في بعض دول المشرق العربي وجنوب شرق آسيا.

من أهم المراجع في الفقه الشافعي:

ومن كتبهم: «الأم» للإمام الشافعي -رحمه الله-. و«منهاج الطالبين» للإمام النووي -رحمه الله-. وأهم شروحه شرحان: الأول: «نهاية المحتاج إلى شرح المنهاج»، للعلامة محمد بن شهاب الدين الرملي. والثاني: «تحفة المحتاج في شرح المنهاج»، للعلامة أحمد بن محمد بن علي بن حجر الهيتمي⁽³⁾.

4- المذهب الحنبلي:

المذهب الرابع من المذاهب الفقهية المذهب الحنبلي، وينسب هذا المذهب إلى الإمام أحمد بن محمد بن حنبل الذهلي الشيباني (164 هـ - 241 هـ)⁽⁴⁾.

(1) الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص 160-168. وأبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 390-434. وأبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص 129-136.

(2) هو: الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس بن عباس القرشي المَطْلَبِيُّ الشافعي، يلتقي نسبه مع النبي ﷺ في عبد مناف، ولد في غزة عام 150 هـ، ونشأ في مكة، تلقى العلم على يد ثلثة من علماء الحجاز، منهم الإمام مالك. رحل إلى العراق ونشر فيها علم الحديث ومذهبه، وهو أول من صنّف في أصول الفقه، من كتبه «الأم»، و«الرسالة»، رحل إلى مصر سنة 199 هـ، وتوفي فيها سنة 204 هـ. (أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، تهذيب التهذيب، (بيروت: دار الفكر، ط1، 1984م)، ج 9 ص 23-27).

(3) الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص 168-174. وأبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص 436-482. وأبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص 137-143.

(4) هو: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل الشيباني الوائلي، إمام المذهب الحنبلي، وأحد الأئمة الأربعة، أصله من مرو، ولد في بغداد عام 164 هـ، ونشأ منكبًا على طلب العلم، صنّف «المسند» الذي يحتوي على أكثر من ثلاثين ألف حديث، وله كتب أخرى، في أيامه دعا المأمون إلى القول بخلق القرآن، وتولى بعده المعتصم فسجن ابن حنبل 28 شهرًا لامتناعه عن القول بخلق القرآن، ولما توفي الواثق وولي أخوه المتوكل أكرم الإمام ابن حنبل وقدمه، توفي سنة 241 هـ. (انظر: الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 11 ص 177-358. والزركلي، الأعلام، ج 1 ص 203).

ويتميز هذا المذهب بالتركيز على الأدلة النقلية والتحري الدقيق لها في استنباط الأحكام الشرعية. ويتبعه العديد من المسلمين في منطقة الخليج العربي وبعض دول المشرق العربي.

من أهم المراجع في الفقه الحنبلي:

ومن أهم كتبهم: «الإنصاف»، للمرداوي - رحمه الله-، و«الفروع»، لابن مفلح - رحمه الله-، و«كشاف القناع عن متن الإقناع»، لمنصور بن يونس البهوتي⁽¹⁾.

ونؤكد في ختام كلامنا عن المذاهب الأربعة على أنَّ الخلاف بين هذه المذاهب هو في فروع الأحكام الشرعية، وأنها لا تعدو مدارس لدراسة الفقه وتعليمه وتطبيقه، وأنه يجوز للمسلم أن يتبع أيَّ مذهبٍ من هذه المذاهب بعد أن يتعلم أحكامه.

الأحكام الشرعية:

من أهم المصطلحات الفقهية، ما يعرف بـ«الأحكام الشرعية العملية»، وهي خمسة عند الجمهور:

أولاً: الواجب (الفرض):

وهو: ما أمر به الشرع بالقيام به على وجه الإلزام والحتم، أي: لا بُدَّ من فعله. وثمرته: يثاب فاعله ويعاقب تاركه.

ومثاله: الطهارة، والصلاة، والزكاة، والحج، والإخلاص، والصدق، وغيرها فهذه كلها واجبات، وفرائض على المسلم القيام بها.

ثانياً: المُحَرَّم (الحرام):

وهو: ما نهى الشرع عن فعله على وجه الإلزام والحتم، أي: لا بُدَّ من تركه فهو ضد الواجب.

وثمرته: يعاقب فاعله ويثاب تاركه.

ومثاله: الربا، والزنا، والغيبة، والرياء، وغيرها من المحرمات.

ثالثاً: المكروه:

وهو: ما نهى الشرع عن القيام به على غير وجه الإلزام والحتم، أي: من الأفضل تركه.

(1) الخضري، تاريخ التشريع الإسلامي، ص174-175. وأبو زهرة، تاريخ المذاهب الإسلامية، ص484-543. وأبو العنين، تاريخ الفقه الإسلامي ونظرية الملكية والعقود، ص144-149.

وثمرته: لا يعاقب فاعله، ويثاب تاركه.

ومثاله: الالتفات لغير حاجة في الصلاة، والعبث القليل في الصلاة، وكذلك الاختصار فيها، أي وضع اليدين في الوقف للصلاة على الخاصرة، وغيرها فهذه كلها مكروهات.

رابعًا: المسنون أو المندب أو المستحب:

وهو ما أمر الشرع بفعله على غير وجه الإلزام والحتم، أي: من الأفضل فعله.

وثمرته: يثاب فاعله، ولا يعاقب تاركه.

ومثاله: السنن الرواتب، والوتر، والنوم على الشق الأيمن، وغيرها فهذه كلها سنن.

خامسًا: المباح أو الحلال:

وهو ما لم يأمر به الشرع ولم ينه عنه، فالأصل فيه الإباحة، ففعله وتركه سواء.

لا ثمرة له في الفعل أو الترك، إلا إذا نوى الإنسان في فعل المباح نية خير، فتتحول العادات التي نواها لله إلى عبادات، أو يتحول المباح إلى طاعة، وذلك بحسن نيته.

مثاله: أكل الإنسان لعشائه أو لغدائه أو أي وجبة في يومه وليلته هو أمر مباح، لكن إن نوى به التقوي على الطاعة أثيب على حسن نيته⁽¹⁾.

ثانيًا- فقه العبادات

فقه الطهارة

تعريف الطهارة:

الطَّهَارَةُ فِي اللُّغَةِ: النَّظَافَةُ مِنْ جَمِيعِ الْأَقْدَارِ، سَوَاءً أَكَانَتْ حَسِيَّةً أَوْ مَعْنَوِيَّةً.

وفي الاصطلاح: هي رفع الحَدَث، وإزالة النَّجَاسَةِ وَالْخَبَثِ، بالماء أو التُّرَابِ الطَّاهَرَيْنِ.

وَالطَّهُّورُ بِفَتْحِ الطَّاءِ: هُوَ مَا يُنْطَهَرُ بِهِ، وَأَمَّا الطَّهُّورُ بِضَمِّ الطَّاءِ: هُوَ فِعْلُ الطَّهَارَةِ

نَفْسِهِ.

(1) الزحيلي، الوجيز في أصول الفقه الإسلامي، ج 1 ص 305-375.

أنواع الطهارة:

الطهارة نوعان:

النوع الأول: طهارة من الخبث:

الخبث هو النجاسة الحسية أو العينية، كالبول، والغائط، والدم، وغير ذلك من أنواع النجاسات الحسية.

وهذه لا يُطهرها إلا الماء الطَّهور⁽¹⁾ (الطاهر المطهر) عند جماهير أهل العلم، وذلك بأن تغسل به حتى يزول لونها وطعمها وريحها، إلا نجاسة الكلب والخنزير، فلا بُدَّ من غسلها سبع مرات إحداهن بالتراب، على خلاف بين أهل العلم في بعض تفاصيل ذلك. وتسمى الطهارة من الخبث بالطهارة الحقيقية.

النوع الثاني: الطهارة من الحدث:

وهي قسمان:

القسم الأول: الطهارة من الحدث الأكبر، وهو ما يوجب الغسل، كخروج المني والعلاقة الزوجية الخاصة، وما يصيب المرأة من حيض أو نفاس.

القسم الثاني: الطهارة من الحدث الأصغر، وهو ما يوجب الوضوء، كخروج شيء من أحد السبيلين (مخرج البول ومخرج البراز)، سواء كان بولاً أو غائطاً أو حصاة أو غير ذلك.

ويسمى هذا النوع من الطهارة أيضاً بالطهارة الحُكمية، ويستعمل في تحقيقها الماء أو ما ينوب عنه من تراب في التيمم عند تعذر الماء.

شروط صحة الطهارة:

هناك شروط إذا لم تتوفر بالطهارة فإنَّها لا تصح:

1 - الإسلام: فلا تصح طهارة غير المسلم، فالكافر لو لزمه ما يوجب الغسل في الكفر واغتسل في كفره ثم أسلم لزمه إعادة غسله.

2 - التمييز: فلا يصح الوضوء ولا الغسل من غير مميز (وهو الطفل الصغير)، ومن المجنون الذي لا يعقل.

(1) وهو الماء الذي بقي على أصل طهوريته، كماء العين وماء البحر وماء البئر.

- 3 - إزالة ما يمنع وصول الماء إلى البشرة، كطلاء الأظفار للنساء (المناكير)، وما يشبهه مما يُكون طبقةً على الجلد أو الظفر، كالشمع والدهانات.
- أما إذا كانت هناك أصباغ، كالحناء وصبغة اليود ونحوهما مما ليس له كثافة، لكنه يصبغ الجلد فقط، فهذا لا يؤثر في صحة الطهارة.
- ويضاف للثلاثة السابقة في حالة الحدث الأكبر:
- 4 - تعميم البدن بالماء في الغسل.
- 5 - انقطاع ما يمنع صحة الغسل لرفع الحدث بالنسبة إلى المرأة، وهو الحيض والنفاس⁽¹⁾.

الوضوء

تعريف الوضوء:

الوضوء في اللغة: من الوضأة، وهي الحُسن والنظافة والبهجة، كما يقال: رجل وضيء، أي: حسن الهيئة.

وفي الشرع: هو غَسْلُ ومسحُ أعضاء محددة شرعاً بنية.

موجبات الوضوء:

يجب الوضوء للعديد من الأمور، وهي:

- 1 - الصلاة: سواء أكانت فرضاً أو نفلاً، لقوله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6].
- 2 - الطواف: لقول النبي ﷺ لعائشة -رضي الله عنها-: «أَفْعَلِي مَا يَفْعَلُ الْحَاجُّ غَيْرَ أَلَا تَطُوفِي بِالْبَيْتِ حَتَّى تَطْهَرِي»⁽²⁾.
- 2 - مَسُّ الْمُصْحَفِ، عند من يرى ذلك، وهم جمهور العلماء.

(1) انظر: مصطفى البغا، الفقه الحنفي بأدلته، (دمشق: دار المصطفى، ط1، 2012م)، ج1 ص7-11. والحبیب بن طاهر، الفقه المالكي وأدلته، (بيروت: مكتبة المعارف، ط1، 2014م)، ج1 ص9-59. ووهبة الزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، (دمشق: دار الفكر، ط4، 2021م)، ج1 ص79-112. وعثمان بن قاید النجدي الحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، تحقيق: العیدان والیتامی، (الریاض: دار ركانز، ط1، 2021م)، ج1 ص65-87، وص222-236.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الحج، باب بيان وجوه الإحرام، رقم (1211).

فروض وواجبات الوضوء ستة، لا يتم إلا بها، وقد جاءت في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6]، وهي على التفصيل:

1- النِّتَّة:

مَعْنَى النِّتَّة: الْقَصْد وَالْعَزْم عَلَى فِعْلِ الشَّيْءِ، بَأَنْ يَعَزِمَ الْمُتَوَضِّئُ عَلَى الْوُضُوءِ طَهَارَةً لِلَّهِ لِمَا يَلْزِمُهُ الْوُضُوءُ لَهُ.

وَمَحِلُّهَا: الْقَلْبُ، وَلَوْ تَلَفَظَ بِهَا دُونَ أَنْ يَعْتَقِدَ سَنِيَّتَهَا فَلَا بَأْسَ، وَبِخَاصَّةٍ إِذَا خَشِيَ الْوَسْوَاسَ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى فَرَضِيَّتِهَا، قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ﴾ [المائدة: 6].
وَمَا جَاءَ فِي حَدِيثِ عُمَرَ رضي الله عنه الْمَشْهُورِ، أَنَّ النَّبِيَّ صلى الله عليه وسلم قَالَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ»⁽¹⁾.

2- غَسْلُ الْوَجْهِ:

الدَّلِيلُ عَلَى فَرَضِيَّتِهِ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ﴾ [المائدة: 6].

وَحُدُودُ الْوَجْهِ: مَا بَيْنَ مَنَابِتِ الشَّعْرِ الْمَعْتَادِ إِلَى مُنْتَهَى الذَّقَنِ طَوْلًا، وَمَا بَيْنَ شَحْمَتَيْ الْأُذُنِ عَرْضًا، وَيَدْخُلُ فِي ذَلِكَ ظَاهِرُ اللَّحْيَةِ الْكَثِيفَةِ (وَهِيَ الَّتِي لَا يَظْهَرُ الْجِلْدُ مِنْ تَحْتِهَا)، وَأَمَّا اللَّحْيَةُ الْخَفِيفَةُ (وَهِيَ الَّتِي يَظْهَرُ الْجِلْدُ مِنْ تَحْتِهَا)، فَإِنَّهُ يَجِبُ غَسْلُهَا حَتَّى يَصِلَ الْمَاءُ إِلَى الْجِلْدِ مِنْ تَحْتِهَا.

3- غَسْلُ الْيَدَيْنِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ:

وَتُغْسَلُ الْيَدَانِ بَدَأًا مِنْ رُؤُوسِ الْأَصَابِعِ إِلَى الْمِرْفَقَيْنِ، (وَالْمِرْفَقُ هُوَ الْمِفْصَلُ الَّذِي بَيْنَ الْعِضْدِ وَالسَّاعِدِ).

(1) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، الْجَامِعُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ بَدْءِ الْوَحْيِ، بَابُ كَيْفِ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ، رَقْمُ (1). وَمُسْلِمٌ، الصَّحِيحُ الْمُسْنَدُ، كِتَابُ الْإِمَارَةِ، بَابُ قَوْلِهِ صلى الله عليه وسلم: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ» وَأَنَّهُ يَدْخُلُ فِيهِ الْغُرُوحُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَعْمَالِ، رَقْمُ (1907). وَأَبُو عِيْسَى مُحَمَّدُ بْنُ عِيْسَى التِّرْمِذِيُّ، الْجَامِعُ (سَنَنُ التِّرْمِذِيِّ)، تَحْقِيقُ: أَحْمَدُ شَاكِرٌ وَآخَرُونَ، (بَيْرُوتُ: دَارُ إِحْيَاءِ التَّرَاثِ الْعَرَبِيِّ)، كِتَابُ فَضَائِلِ الْجِهَادِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، بَابُ مَا جَاءَ فِي مَنْ يِقَاتِلُ رِيَاءً وَلِلدُّنْيَا، رَقْمُ (1647). وَالنَّسَائِيُّ، السَّنَنِ، كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ النِّيَّةِ فِي الْوُضُوءِ، رَقْمُ (75). وَأَبُو دَاوُدَ، السَّنَنِ، كِتَابُ الطَّلَاقِ، بَابُ فِيمَا عُيِّنَ بِهِ الطَّلَاقُ وَالنِّيَّاتُ، رَقْمُ (2201).

وقد اتَّفَق العلماء على وجوب غسل المرفقين مع اليدين.

والدليل على فرضية غسل اليدين إلى المرفقين قوله تعالى: ﴿فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ [المائدة: 6].

4- مَسَحَ شَيْءٌ مِنَ الرَّأْسِ مَرَّةً وَاحِدَةً:

والدليل على فرضيته قوله تعالى: ﴿وَأَمْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ﴾ [المائدة: 6]، والباء في ﴿بِرُءُوسِكُمْ﴾ عند الشافعية للتبعيض، أي: فامسحوا ببعض رؤوسكم، وللإصاق عند الحنفية فحكموا بأنَّ الواجب مسح ربع الرأس، ومن قال إنَّ الباء زائدة قال بمسح جميع الرأس -والله أعلم-.

5- غَسَلَ الْقَدَمَيْنِ إِلَى الْكَعْبَيْنِ:

والدليل على فرضيته قوله تعالى: ﴿وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6].
وَتَبَّتْ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ الْأَمْرُ بِغَسْلِ الرَّجْلَيْنِ، بَلْ إِنَّهُ عَنَّفَ الَّذِينَ قَصَرُوا بِغَسْلِهِمَا، فَقَالَ لَهُمْ ﷺ: «وَيْلٌ لِلْأَعْقَابِ مِنَ النَّارِ». مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا⁽¹⁾.
وَالْأَعْقَاب: جَمْعُ عَقَبٍ، وَالْعَقَبُ هُوَ مُؤَخَّرُ الْقَدَمِ، وَهُوَ الَّذِي يُعْرِفُ عِنْدَ الْعَوَامِ بِـ (الكعب) وهذا خطأ، والصواب أَنَّ الْكَعْبَيْنِ هُمَا الْعِظْمَتَانِ الْبَارِزَتَانِ عَلَى جَانِبَيْ الرَّجْلِ عِنْدَ مَفْصَلِ السَّاقِ وَالْقَدَمِ.

وَيَجِبُ غَسْلُ الْكَعْبَيْنِ مَعَ الرَّجْلِ عَلَى الرَّاجِحِ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْعِلْمِ.

6- التَّرْتِيبُ:

التَّرتِيبُ فِي غَسْلِ وَمَسْحِ الْفَرَائِضِ، وَالْأَدْلَى عَلَى فَرْضِيَةِ التَّرْتِيبِ فِي الْآيَةِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ﴾ [المائدة: 6]، فَقَدْ جَاءَتْ الْأَعْضَاءُ فِيهَا مَرْتَبَةً، حَيْثُ جَاءَ يَتَوَسُّطُهَا مَمْسُوحٌ، وَلَئِنْ الثَّابِتُ مِنْ فِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ لَمْ يَتَوَضَّأْ غَيْرَ مَرْتَبٍ، وَفِعْلُهُ ﷺ هُوَ بَيَانٌ لِلْقُرْآنِ.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب من رفع صوته بالعلم، رقم (60). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الطهارة، باب وجوب غسل الرجلين بكمالهما، رقم (240).

وللوضوء سنن يستحب ويندب الإتيان بها ويكره تركها، منها:

1 - التَّسْمِيَةُ: يستحب قول: (بسم الله) أو (بسم الله الرحمن الرحيم) في البدء بالوضوء.

2 - السَّوَاكُ قَبْلَ الْوُضُوءِ: لقول النَّبِيِّ ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسَّوَاكِ مَعَ كُلِّ وُضُوءٍ»⁽¹⁾.

3 - غَسْلُ الْكَفَّيْنِ فِي أَوَّلِ الْوُضُوءِ: وَيَزْدَادُ غَسْلُ الْكَفَّيْنِ تَأْكِيدًا إِذَا كَانَ الْوُضُوءُ بَعْدَ النَّوْمِ، لَمَّا جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «إِذَا اسْتَيْقَظَ أَحَدُكُمْ مِنْ نَوْمِهِ، فَلَا يَغْمِسُ يَدَهُ فِي إِنَائِهِ، حَتَّى يَغْسِلَهَا ثَلَاثًا، فَإِنَّهُ لَا يَدْرِي أَيْنَ بَاتَتْ يَدُهُ»⁽²⁾.

4 - الْمَضْمُضَةُ: وهي إدخال الماء في الفم، وَخَضْخَضَتِهِ ثُمَّ مَجَّهَ، أي: إخراجها من الفم.

5 - الاستنشاق والاستنثار:

والاستنشاق: هو جعلُ الماء في الأنف وجذبُه بالنفَس، لينزلَ ما في الأنف.

والاستنثار: وهو: إخراج الماء من الأنف بعد الاستنشاق.

6 - تَثْلِيثُ غَسْلِ الْأَعْضَاءِ: أي غسل الأعضاء التي فَرَضَها الغَسْلُ ثلاثَ مرات، وقد أَجْمَعَ المسلمون على أَنَّ الْوَاجِبَ فِي غَسْلِ الْأَعْضَاءِ مَرَّةً مَرَّةً، وعلى أَنَّ الثَّلَاثَةَ سُنَّةٌ، والدليل حديث حُمران مولى سيدنا عثمان ؓ في صفة وضوء رسول الله ﷺ قال: (إِنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؓ دَعَا بِوَضُوءٍ فَتَوَضَّأَ، فَغَسَلَ كَفَّيْهِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ ثُمَّ مَضَمَضَ وَاسْتَنْثَرُ، ثُمَّ غَسَلَ وَجْهَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْمِرْفَقِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ يَدَهُ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ مَسَحَ رَأْسَهُ، ثُمَّ غَسَلَ رِجْلَهُ الْيُمْنَى إِلَى الْكَعْبَيْنِ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، ثُمَّ غَسَلَ الْيُسْرَى مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا)⁽³⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9928)، ج 16 ص 22، قال محققوه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (7282)، ج 12 ص 227. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الطهارة، باب كراهة غمس المتوضئ وغيره يده المشكوك في نجاستها في الإتياء قبل غسلها ثلاثاً، رقم (278).

(3) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، (226).

7 - **التَّيَامُنُ**: أي البدء بغسل العضو الأيمن قبل الأيسر، فَعَنْ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَالَتْ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحِبُّ التَّيَامُنَ فِي طُهُورِهِ وَنَعْلِهِ وَفِي تَرَجُلِهِ) ⁽¹⁾، وكذلك فعل ﷺ في وضوئه، كما في حديث حمran السابق.

8 - **تخليل اللحية الكثة**: مرَّ بنا أنَّ اللحية إن كانت خفيفة تصف البشرة وجب غسل باطنها، وأما إن كانت كثيفة غسل ظاهرها، ولم يجب غسل ما تحتها، ويستحب مع ذلك تخليلها. فقد كان النبي ﷺ إذا توضأ أخذ كفًا من ماء، فأدخله تحت حَنَكِهِ فخلَّلَ به لِحْيَتَهُ، وقال ﷺ: «هَذَا أَمَرَنِي رَبِّي ﷺ» ⁽²⁾.

9 - **مسح جميع الرأس مرة واحدة**: لأنَّ الواجب مسح بعضه عند الشافعية والحنفية، وجعل غيرهم الواجب مسح جميع الرأس.

10 - **مسح الأذنين**: ويمسح أذنيه مع الرأس أو بماء جديد.

11 - **إطالة الغُرَّة والتَّحْجِيل**: **الغُرَّة**: غَسَلَ شَيْءٍ مِنْ مُقَدِّمَةِ الرَّأْسِ فِي أَثْنَاءِ غَسْلِ الْوَجْهِ، وَالتَّحْجِيل: غَسَلَ مَا فَوْقَ الْمِرْفَقَيْنِ وَالْكَعْبَيْنِ فِي أَثْنَاءِ غَسْلِ الْيَدَيْنِ وَالرَّجْلَيْنِ.

فيطيل الغرة، أي: يغسل ما يزيد على حدود الوجه، **ويتحجل**، أي: يغسل ما يعلو المرفقين من اليدين وما فوق الكعبين من الرجلين، وقد قال العلماء: «يُسَمَّى النُّورُ الَّذِي يَكُونُ عَلَى مَوَاضِعِ الْوُضُوءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرَّةً وَتَحْجِيلًا، تَشْبِيهَا بِغُرَّةِ الْفَرَسِ وَتَحْجِيلِهِ».

12 - **تخليل أصابع اليدين والقدمين**: التخليل أن يدخل الماء بين أصابعه مع الفك بالأصابع الأخرى بالنسبة إلى اليدين، أو الفك بأصابع يديه ما بين أصابع رجليه، ودليله ما جاء عن لَقِيطِ بْنِ صَبْرَةَ ؓ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي عَنِ الْوُضُوءِ، قَالَ ﷺ: «أَسْبَغِ الْوُضُوءَ وَخَلَّلْ بَيْنَ الْأَصَابِعِ» ⁽³⁾.

13 - **الموالاة**: وهي التتابع بغسل الأعضاء بحيث يغسل العضو قبل أن يجف الذي قبله.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (25664)، ج 16 ص 22، قال محققوه: «إسناده صحيح على شرط الشيخين».

(2) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب تخليل اللحية، رقم (145).

(3) أخرجه ابن ماجه، السنن، أبواب الطهارة وسننها، باب تخليل اللحية، رقم (448). وأبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب في الاستنثار، رقم (142). والترمذي، السنن، أبواب الصوم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في كراهية مبالغة الاستنشاق للصائم، رقم (788). وقال: «هذا حديث حسن صحيح».

14 - عدم الإسراف في الماء في أثناء الوضوء: فقد قال رسول الله ﷺ: «سَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ قَوْمٌ يَعْتَدُونَ فِي الدُّعَاءِ وَالطَّهْوَرِ»⁽¹⁾. ومعنى يعتدون: أي يتجاوزون الحد في الدعاء بحيث يدعون بالشيء الذي نهى الله ﷻ عنه، ويتجاوزون الحد في الطهارة من خلال الإسراف بالماء.

15 - الدعاء بعده: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ فَيُبْلِغُ -أَوْ فَيُسْبِغُ- الْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ الثَّمَانِيَةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ»⁽²⁾.

16 - صلاة ركعتين بعد الوضوء: عن أبي هريرة ؓ أن رسول الله ﷺ قال لبلال: «يا بلال، حَدَّثْنِي بِأَرْجَى عَمَلٍ عَمَلْتَهُ فِي الْإِسْلَامِ، إِنِّي سَمِعْتُ دَفَّ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ»، قال: مَا عَمِلْتُ عَمَلًا أَرْجَى عِنْدِي مِنْ أَنِّي لَمْ أَطَهَّرْ طَهْوَرًا فِي سَاعَةٍ مِنْ لَيْلٍ أَوْ نَهَارٍ إِلَّا صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطَّهْوَرِ مَا كُتِبَ لِي أَنْ أَصَلِّيَ⁽³⁾. وعن حُمْرَانَ مَوْلَى عُثْمَانَ أَنَّ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؓ قال بعد أن وصف وضوء رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ نَحْوَ وَضُوءِي هَذَا، ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ رَكَعَتَيْنِ لَا يُحَدِّثُ فِيهِمَا نَفْسَهُ غُفِرَ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ»⁽⁴⁾.

صفة الوضوء كاملة:

ذَكَرْنَا فِيْمَا سَبَقَ فَرَائِضَ وَسُنَنَ الْوُضُوءِ، وَإِتْمَامًا لِلْفَائِدَةِ نَذَكُرُ هُنَا صِفَةَ الْوُضُوءِ مُرْتَبَةً كَالآتِي:

- 1 - استحضار النية في القلب، ثم البدء بالسواك.
- 2 - التسمية عند البدء بالوضوء، وذلك بأن يقول (بسم الله) أو (بسم الله الرحمن الرحيم).
- 3 - غَسْلُ الْكَفَّيْنِ (ثلاث مرات).

(1) أخرجه ابن حبان، المسند الصحيح على التقاسيم والأنواع، النوع التاسع والستون، ذكر خبر قد يوهم من لم يحكم صناعة الحديث أن إحدى الروايتين اللتين تقدم ذكرنا له وهم، (4905)، ج 6 ص 76.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (17314)، ج 28 ص 549-550. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الطهارة، باب الذكر المستحب عقب الوضوء، رقم (234).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9672)، ج 15 ص 419-420. والبخاري، الجامع الصحيح، أبواب التهجد، باب: فضل الطهور بالليل والنهار، وفضل الصلاة بعد الوضوء بالليل والنهار، رقم (1098).

(4) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الطهارة، باب صفة الوضوء وكماله، (226).

- 4 - المضمضة (ثلاث مرات).
- 5 - الاستنشاق والاستنثار (ثلاث مرات).
- 5 - غَسَلَ الوجه (ثلاث مرات) مع تخليل اللحية الكثة، وَيُسْتَحَبُّ (إطالة الغرة) غسل شيء من مقدمة الرأس مع الوجه.
- 6 - غَسَلَ اليدين من رؤوس الأصابع مع المرفقين، (ثلاث مرات) على أَنْ يبدأ بيده اليمنى قبل اليسرى، وَيُسْتَحَبُّ (التحجيل) غسل جزء مما فوق المرفقين من اليدين.
- 7 - مَسَحَ جميع الرأس (مرة واحدة) عند من يرى أن مسح بعض الرأس هو الواجب.
- 8 - مَسَحَ الأذنين من الداخل والخارج مرّة واحدة.
- 9 - غَسَلَ رِجْلَيْهِ إلى الكعبين (ثلاث مرات)، على أَنْ يبدأ بـرجله اليمنى، وَيُسْتَحَبُّ غسل ما فوق الكعبين حتى تأتي يوم القيامة وعليها نور.
- 10 - يدعو بما ذكرنا من أدعية بعد فراغه من الوضوء.

نواقض الوضوء:

هناك العديد من الأمور التي تنقض الوضوء أو تُفسده، وهي:

- 1 - خروج شيء من أحد السبيلين: والسبيلين هما (القبل والدُّبر) مخرج البول ومخرج الغائط (البراز)، فإذا خرج منهما شيء، كالبول والغائط والريح فينتقض الوضوء، لقوله ﷺ: «أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَائِطِ أَوْ لَامَسَتُمُ النِّسَاءَ فَلَمْ يَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا» [المائدة: 6].
- 2 - زوال العقل: سواء أكان زواله بالجنون، أم بإغماء، أم بتخدير لعملية، أم بسُكر أم بدواء أم بنوم مُستغرق لا يبقى معه إدراك.
- 3 - الرُّدَّة عن الدين.

ملاحظات متعلّقة بنواقض الوضوء:

إذا شكَّ الإنسان أو خيَّل إليه أنه قد خرَجَ منه شيءٌ، بِمعنى أَنَّهُ شكَّ هل انتقض وضوؤه أم لا؟ فلا يضره ذلك، ولا يَنْتَقِضُ وضوؤه إلا إذا تَيَقَّنَ أَنَّهُ أَحْدَثَ، وذلك لِمَا ثبت عن عبَادِ

بن تميم عن عمه عليه السلام أنه شكا إلى النبي ﷺ الرَّجُلُ يُخَيَّلُ إِلَيْهِ أَنَّهُ يَجِدُ الشَّيْءَ فِي الصَّلَاةِ، فَقَالَ ﷺ: «لَا يَنْفُتِلُ -يعني لا يخرج من صلاته- حَتَّى يَسْمَعَ صَوْتًا، أَوْ يَجِدَ رِيحًا»⁽¹⁾.
وإذا نسي هل انتقض وضوؤه أم لا، فإنه يبني على اليقين، وهو آخر ما يتذكره من حاله، فإن كان آخر حاله الذي يتذكره الوضوء فهو متوضئ، وإن كان العكس فالعكس⁽²⁾.

الْغُسْلُ أَوْ الْاِغْتِسَالُ

اعتنى الإسلام بنظافة الإنسان حتى أوجب عليه الاغتسال في بعض الأحيان، واستحب له ذلك في أحيان أخرى.

تعريف الغُسل:

الغُسل لغة: اسم من الاغتسال، وهو تمام غُسل الجسد، واسم للماء الذي يُغْتَسَلُ به أيضاً، وأما الغُسل بالفتح، فهو اسم لعملية الغسل.
وشرعاً: تعميمُ البدنِ بالماءِ بنيةٍ معتبرة.

موجبات الغسل:

لِغُسْلِ الْعَدِيدِ مِنَ الْأَسْبَابِ الَّتِي تَجْعَلُهُ وَاجِبًا، وَهِيَ:

1 - خُرُوجُ الْمَنِيِّ، ولا فرق في الحُكْم بين الرجل أو المرأة، في النوم أو اليقظة، لقول النبي ﷺ: «إِنَّمَا الْمَاءُ مِنَ الْمَاءِ»⁽³⁾.

واشترط جمهور العلماء خروجه بشهوة حتى يجب الغُسل منه، في حين يرى الشافعية الغُسل منه، ولو نزل بغير شهوة، وهو ما نميل إليه.

2 - الْجِمَاع، أي العلاقة الخاصة الكاملة بين الزوجين، وهو من الأحكام المُتَّفَق عليها، والغسل واجب على الرجل والمرأة.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8369)، ج 14 ص 105. والبخاري، الجامع الصحيح، كتاب الوضوء، باب: لا يتوضأ من الشك حتى يستيقن، رقم (137).

(2) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 12-59. وظاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 1 ص 59-89. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 113-127. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج 1 ص 127-151، وص 163-176.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (11434)، ج 18 ص 25-26. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الحيض، باب: إنما الماء من الماء، رقم (347).

3 - انقطاع دم الحيض أو النَّفَاس، بالنسبة إلى النساء، لقوله ﷺ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَى فَأَعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرُبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: 222].

4 - الموت، فيجب على المسلمين تغسيل الميت، لقول النبي ﷺ: «مَنْ مَاتَ مُحْرِمًا: «اغْسِلُوهُ بِمَاءٍ وَسِدْرٍ، وَكَفَّنُوهُ فِي ثَوْبَيْهِ»⁽¹⁾.

5 - الدخول في دين الإسلام، وهو قول المالكية والحنابلة، ويُسنُّ عند غيرهم.

الأغسال المسنونة:

يُسنُّ الغُسل في أوقات وأحوال معينة، منها:

أن يغتسل ليوم الجمعة، وللإحرام سواء أكان للحج أم للعمرة، وعند دخول مكة، ولكل مناسبة فيها اجتماع للمسلمين، وللنظافة، وفي الأعياد، وغير ذلك.

أركان الغسل وفرائضه:

أركان الغسل ثلاثة، هي:

- 1 - النية.
- 2 - إزالة النجاسة عن الجسم إذا وُجدت.
- 3 - تعميم الشعر والبشرة بالماء.

سنن الغسل:

وسنن الغسل ما عدا ما ذكرناه من الفرائض، وسيأتي بيانها في كيفية الغسل الكاملة.

كيفية الغسل:

هناك صورتان للغسل:

الأولى مُجزئة، وهي أن يقتصر على فرائض الغسل، فيكون بالنية، وإزالة النجاسة عن البدن إذا وُجدت، ثم تعميم الماء على جميع الجسد.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (11434)، ج 18 ص 350. والبخاري، الجامع الصحيح، أبواب الإحصار وجزاء الصيد، باب: سنة المحرم إذا مات، رقم (1753). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الحج، باب ما يفعل بالمحرم إذا مات، (1206).

وَأَمَّا الصُّورَةُ الثَّانِيَّةُ فَهِيَ الْكَمَالُ، حَيْثُ يَكُونُ:

بِالنِّيَّةِ: وَمَحَلُّهَا الْقَلْبُ.

ثُمَّ التَّسْمِيَةِ.

ثُمَّ غَسَلَ الْفَرْجَ بِالْيَدِ الْيُسْرَى.

ثُمَّ غَسَلَ الْيَدَيْنِ ثَلَاثًا.

ثُمَّ الْوُضُوءَ، وَيَجُوزُ أَنْ يُؤَخَّرَ قَدَمَيْهِ إِلَى آخِرِ الْغَسْلِ إِنْ شَاءَ.

وَبَعْدَهَا يَضَعُ الْمُغْتَسِلُ الْمَاءَ عَلَى رَأْسِهِ مَعَ تَخْلِيلِ أَصُولِ الشَّعْرِ.

ثُمَّ يَغْسِلُ جَسَدَهُ بَدَأًا بِشَقِّهِ الْأَيْمَنِ ثُمَّ الْأَيْسَرِ.

كُلُّ ذَلِكَ لِفِعْلِ النَّبِيِّ ﷺ، كَمَا رَوَتْهُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ مَيْمُونَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، حَيْثُ قَالَتْ: (أَدْنَيْتُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ غُسْلَهُ مِنَ الْجَنَابَةِ، فَغَسَلَ كَفَّيْهِ مَرَّتَيْنِ، أَوْ ثَلَاثًا، ثُمَّ أَدْخَلَ يَدَهُ فِي الْإِنَاءِ، ثُمَّ أَفْرَغَ بِهِ عَلَى فَرْجِهِ، وَغَسَلَهُ بِشِمَالِهِ، ثُمَّ ضَرَبَ بِشِمَالِهِ الْأَرْضَ، فَذَلَكُهَا دَلْكََا شَدِيدًا، ثُمَّ تَوَضَّأَ وَضُوءَهُ لِلصَّلَاةِ، ثُمَّ أَفْرَغَ عَلَى رَأْسِهِ ثَلَاثَ حَفَنَاتٍ مَلَأَ كَفَّهُ، ثُمَّ غَسَلَ سَائِرَ جَسَدِهِ) (1).

فَبِهَذَا الْحَدِيثِ وَصِفَ غُسْلُ النَّبِيِّ ﷺ، وَفَقْنَا اللَّهَ لِلاتِّزَامِ سُنَّتَهُ (2).

التيمم:

يَكُونُ التَّيْمُمُ لِلطَّهَّارَةِ مِنَ الْحَدَثَيْنِ الْأَصْغَرِ وَالْأَكْبَرِ عِنْدَ فَقْدِ الْمَاءِ أَوْ إِذَا لَمْ يَسْتَطِعِ الْمُسْلِمُ اسْتِعْمَالَهُ، وَأَمَّا الطَّهَّارَةُ فِي الثَّوْبِ وَالْبَدَنِ وَالْمَكَانِ فَلَا يُشْرَعُ لَهَا تَيْمُمٌ، بَلْ تُزَالُ وَتُغْسَلُ، فَإِنْ لَمْ يَسْتَطِعْ إِزَالَتَهَا بِالْمَاءِ فَإِنَّهُ يُصَلِّي عَلَى حَالِهِ، وَاخْتَلَفُوا فِي الْإِعَادَةِ بَعْدَ تَطْهِيرِ الثَّوْبِ أَوْ إِحْرَازِ طَهَارَةِ الْمَكَانِ.

تعريف التيمم

التيمم في اللغة: القصد، يقال: تيممت فلانًا، ويممته، وأممته، وتأممته، إذا قصدته.

وفي الشرع: استعمال إلى الصعيد (التراب أو الرمل) الطيب (الطاهر) لمسح الوجه واليدين منه بنية استباحة الصلاة عند عدم الماء أو العجز عن استعماله.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الحيض، باب صفة غسل الجنابة، رقم (317).

(2) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 59-63. وظاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 1 ص 113-116.

والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 127-134. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب،

ج 1 ص 177-197.

الدليل على مشروعية التيمم قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُم مِّنَ الْغَايِبِ أَوْ لَمْ تُسْقِوْا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيدًا طَيِّبًا فَامْسَحُوا بِوُجُوْهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [المائدة: 6].

وما جاء عن جابر بن عبد الله -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قال رسول الله ﷺ: «أُعْطِيَتْ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِي الْغَنَائِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْ الصَّلَاةُ، صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيِ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيَتْ الشَّفَاعَةُ»⁽¹⁾.

متى يُشرع التيمم؟

يُشرع التيمم باعتباره بديلاً عن الوضوء والغسل عند العجز عن استعمال الماء، إما لفقدانه وإما لقلته بحيث لا يكفي إلا للشرب، وإما العجز عن استعماله لمرض يمنع استعمال الماء.

وينبغي أن يكون بترابٍ أو رملٍ طاهر، لحديث حذيفة بن اليمان -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا، وَجُعِلَتْ تَرَبَّتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ»⁽²⁾.

كذلك ينبغي أن يقع التيمم بعد دخول الوقت للصلاة المتيمم لأدائها. وأن يُتِمَّ لكل فرض صلاة، وبهذا التيمم نفسه تصح صلاة النافلة أو أي عبادة يلزم لها الوضوء إذا أراد أدائها في داخل وقت الفريضة التي تيمم لها.

أركان التيمم:

للتيمم أركان أربعة، هي:

- 1 - نقل التراب بضربة واحدة على الأرض، أو ضربتين عند الحنفية والشافعية، ضربة للوجه وضربة لليدين.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (2256)، ج 4 ص 119. والبخاري، الجامع الصحيح، كتاب التيمم، رقم (328). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (521).

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، (522).

2 - النية.

3 - مسح الوجه كله.

4 - مسح اليدين مع المرفقين على وجه الاستيعاب، وذهب جمع من أهل العلم إلى مسح الكفين فقط، وهو الراجح.

وسنن التيمم:

وسنن التيمم، هي:

1 - التسمية.

2 - مسح وجهه ويديه بضربتين.

3 - الزيادة إلى المرفقين في اليدين عند من يرى عدم وجوب المسح إلى المرفقين.

4 - تقديم أعلى الوجه.

5 - تخفيف الغبار.

6 - الموالاة، كالوضوء.

7 - تفريق الأصابع أولاً، أي عند ضرب الأرض.

8 - الترتيب بين الوجه واليدين.

كيفية التيمم:

وأما كيفية التيمم فيكون:

البدء بالتسمية.

ثُمَّ ضَرَبَ الْأَرْضَ بِالْكَفَّيْنِ مَعَ تَفْرِيقِ الْأَصَابِعِ وَتَخْفِيفِ مَا عُلِقَ بِهِمَا مِنْ تَرَابٍ أَوْ رَمَلٍ.

ثُمَّ يَمْسَحُ الْمُتِمِّمُ وَجْهَهُ بِبَاطِنِ الْأَصَابِعِ.

ثُمَّ يَضْرِبُ الْأَرْضَ ضَرْبَةً أُخْرَى كَالأُولَى.

ثُمَّ يَمْسَحُ كَفَيْهِ بِرَاحَتَيْهِ، وَيَسْتَحِبُّ الْمَسْحَ إِلَى الْمَرْفَقَيْنِ عِنْدَ مَنْ يَرَى عَدَمَ وَجُوبِهِ إِلَى

المرفقين⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 78-86. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 1 ص 117-130.

والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 140-148. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب،

ج 1 ص 198-221.

تعريف الصلاة:

الصلاة لغة: الدعاء. قال الله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103]. أي ادع لهم. وقال النبي ﷺ: «إِذَا دُعِيَ أَحَدُكُمْ، فَلْيَجِبْ، فَإِنْ كَانَ مُفْطِرًا فَلْيُطْعَمْ، وَإِنْ كَانَ صَائِمًا، فَلْيُصَلِّ»⁽¹⁾.

وشرعاً: عبادة لله ذات أقوال وأفعال مخصوصة ومعلومة، تبدأ بالتكبير، وتنتهي بالتسليم.

حكم الصلاة:

الصلوات الخمس واجبة بالكتاب، والسنة، والإجماع:

- 1 - الكتاب: قال ﷺ: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة: 43].
- 2 - السنة: عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»⁽²⁾.
- 3 - الإجماع: فقد أجمعت الأمة على وجوب الصلوات الخمس في اليوم والليلة.

شروط وجوب الصلاة:

تجب الصلاة على كل من توفرت فيه هذه الشروط:

- 1 - الإسلام.
- 2 - البلوغ.
- 3 - العقل.
- 4 - الخلو من الموانع التي تمنع صحة الصلاة مما لا يستطيع المرء تجاوزه (كالطهارة من الحيض والنفاس).

(1) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب الصوم، باب في الصائم يُدعى إلى وليمة، رقم (2460).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (367)، ج 1 ص 434-435. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس)، رقم (8). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (16).

صحّة الصّلاة تقوم على بعض الشروط، بمعنى أنّه لو نقص أحدها تبطل الصلاة، وهي:

- 1 - الإسلام: فلا تقبل الصلاة الشرعية من غير المسلم.
- 2 - العقل: ولا تقبل الصلاة من فاقد العقل كالمجنون والسكران والطفل غير المميز.
- 3 - الطهارة من الحدثين: الأصغر والأكبر، بالوضوء والغسل أو التيمم لقوله تعالى: ﴿وَأَنْ كُنْتُمْ جُنُبًا فَاطَّهَّرُوا﴾ [المائدة: 6]. ولقوله ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً إِلَّا بِطُهُورٍ»⁽¹⁾.

4 - الطهارة عن الخبث: (النجاسة الحقيقية) ويشترط ذلك للثوب والبدن والبقعة التي يصلّى فيها، قال تعالى: ﴿وَيَتَابَكَ فُطَيْهْرٌ﴾ [المدثر: 4].

5 - دخول وقت الصّلاة: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ [النساء: 103]. ويعرف ذلك بأن يؤذن للصلاة أو عن طريق الحسابات أو التقاويم.

6 - ستر العورة: لقوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ [الأعراف: 31]، وفسرت الزينة بالثياب في الصلاة.

ولقوله ﷺ: «لَا يَقْبَلُ اللَّهُ صَلَاةً حَائِضٍ إِلَّا بِخِمَارٍ»⁽²⁾، والخمار ما يغطّي به رأس المرأة.

وعورة الذكر في الصلاة ما بين سترته وركبته، ويجب أن يغطّي السرة وما حاذها وأن يغطي الركبتين، لأنّه ما لا يتم الواجب به فهو واجب. وعورة الأنثى جميع جسدها إلا الوجه والكفين.

7 - استقبال القبلة، لقوله تعالى: ﴿قَوْلَ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ﴾ [البقرة: 144]. وهذا بالنسبة إلى الفريضة، وأما النافلة فإنّ للراكب أن يتجه فيها حيث اتجهت ركوبته به، ولو خالف جهة القبلة.

أركان الصّلاة:

أركان الصّلاة هي ما تقوم الصّلاة بها، وهي لا تسقط عن الإنسان إذا نسيها، ولا يُجزئ عن نقصها سجود السهو، وهي:

- (1) أخرجه ابن ماجه، السنن، كتاب الطهارة وسننها، باب لا يقبل الله صلاة بغير طهور، رقم (273).
- (2) أخرجه ابن ماجه، السنن، كتاب الطهارة وسننها، باب إذا حاضت الجارية لم تصل إلا بخمار، رقم (655). وأبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب المرأة تصلي بغير خمار، رقم (641).

1 - النية.

2 - القيام في صلاة الفرض مع القدرة على ذلك.

3 - تكبيرة الإحرام بأن يقول: «الله أكبر».

4 - قراءة سورة الفاتحة في كل ركعة، ومنها البسمة، وذلك للإمام ولل منفرد، أما المأموم فتستحب له قراءتها في السرية والجهرية.

5 - الرُّكُوع وأقله أن يَنْحَنِي بحيثُ يمكنه مس ركبتيه بكفيه، وأكمله أن يمد ظهره مستويًا ويجعل رأسه حياله، ويضع يديه قابضًا على ركبتيه.

6 - الاعتدال من الرُّكُوع مسويًا ظهره.

7 - السُّجُود، وذلك بتمكين جبهته وأنفه وكفيه وركبتيه وأطراف أصابع قدميه من محل سجوده.

8 - الرِّفْع من السُّجُود مسويًا ظهره.

9 - الجلوس بين السجدين. وكيف جلس كفى، والسنة أن يجلس مفترشًا على رجله اليسرى وينصب اليمنى ويوجهها إلى القبلة.

10 - الطمأنينة، وهي السكون في كل ركن فعلي. وذلك بأن يمكث المصلي راکعًا أو ساجدًا أو جالسًا أو قائمًا بعد الركوع بمقدار تسبيحة.

11 - التشهد الأخير، وصيغة التشهد المشهورة: «التَّحِيَّاتُ لِلَّهِ، وَالصَّلَوَاتُ وَالطَّيِّبَاتُ، السَّلَامُ عَلَيْكَ أَيُّهَا النَّبِيُّ وَرَحْمَةُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ، السَّلَامُ عَلَيْنَا وَعَلَى عِبَادِ اللَّهِ الصَّالِحِينَ، أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ».

12 - الجلوس للتشهد الأخير، إذ لا يجوز أن يكون المصلي قائمًا وهو يتلو التشهد الأخير.

13 - الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد الأخير، وأقلها أن يقول: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ»، وأكملها أن يقرأ الصلاة الإبراهيمية، وهي: «اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِ مُحَمَّدٍ، كَمَا صَلَّيْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، وَبَارَكْتَ عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ كَمَا بَارَكْتَ عَلَى إِبْرَاهِيمَ وَآلِ إِبْرَاهِيمَ، فِي الْعَالَمِينَ، إِنَّكَ حَمِيدٌ مَجِيدٌ».

14 - التسليم على اليمين بأن يقول: «السلام عليكم ورحمة الله»، أما التسليم على اليسار فسنة.

15 - ترتيب الأركان كما ذكرنا، فلو سجد مثلاً قبل ركوعه عمداً بطلت صلاته، وسهواً لزمه الرجوع ليركع ثم يسجد، ثم يسجد للسهو في نهاية الصلاة.

سنن الصلاة:

سنن الصلاة هي ما عدا الأركان التي ذكرت، وهي كثيرة يطول ذكرها وتفصيلها، فنذكر ما تيسر منها:

1 - رفع اليدين مع تكبيرة الإحرام، وعند التكبير للركوع، وعند الرفع من الركوع. وعند القيام للركعة الثالثة، وهذه سنة ثبتت بالمتواتر عن النبي ﷺ، ويكون رفعهما حذو منكبيه، وقيل: يرفعهما حذو أذنيه في تكبيرة الإحرام وحذو منكبيه في غيرها.

2 - تفرقته بين قدميه قائماً بمقدار كتفيه.

3 - وضع اليمين على الشمال في أثناء القيام للقراءة.

4 - نظره إلى موضع سجوده.

5 - قوله دعاء الاستفتاح وله صيغ أشهرها أن يقول: «سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ، وَتَبَارَكَ اسْمُكَ وَتَعَالَى جَدُّكَ وَلَا إِلَهَ غَيْرُكَ»، أو يقول: «وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ، إِنَّ صَلَاتِي، وَنُسُكِي، وَمَحْيَايَ، وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، لَا شَرِيكَ لَهُ، وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ، وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ»، أو «وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ».

6 - التعوذ، بأن يقول: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، قبل قراءة الفاتحة.

7 - التأمين، وهو قول «آمين» عند الانتهاء من قراءة الفاتحة، للإمام والمأموم والمنفرد، جهراً في الصلاة الجهرية وسراً في الصلاة السرية.

8 - قراءة ما تيسر من القرآن بعد الفاتحة.

9 - الجهر بالقراءة في الصلاة الجهرية للمنفرد والإمام، والإسرار للجميع في الصلاة السرية.

10 - تكبيرات الانتقال، عند الركوع والسجود والجلوس والقيام.

11 - قبض ركبتيه بيديه مفرجتي الأصابع في ركوعه ومد ظهره فيه وجعل رأسه حياًله.

12 - قول (سبحان ربي العظيم) مرة في الركوع.

- 13 - ما زاد على المرة في تسبيح الركوع.
- 14 - قول: (سمع الله لمن حمده) للإمام والمنفرد.
- 15 - قول: (ربنا ولك الحمد) للإمام والمأموم والمنفرد. ويمكن أن يزيد: (ملء السماوات وملء الأرض وملء ما شئت من شيء بعد).
- 16 - قول: (سبحان ربي الأعلى) مرة في السجود.
- 17 - ما زاد على المرة في تسبيح السجود.
- 18 - أن يقول بين السجدين (رب اغفر لي)، وما زاد على المرة فيها.
- 19 - الجلوس الأوسط والتشهد فيه.
- 20 - الصلاة على النبي ﷺ بعد التشهد في الجلوس الأوسط.
- 21 - الافتراش⁽¹⁾ في الجلوس بين السجدين وفي التشهد الأول والتورك⁽²⁾ في الأخير.
- 22 - وضع اليدين على الفخذين مبسوطتين مضمومتين الأصابع بين السجدين، وكذا في التشهد، إلا أنه يقبض من اليمنى الخنصر والبنصر ويحلق إبهامها مع الوسطى ويشير بسبابتها عند ذكر الله تعالى.
- 23 - الدعاء بعد الصلاة الإبراهيمية وقبل التسليم بالمأثور عن النبي ﷺ⁽³⁾.
- 24 - التفاته يمينًا وشمالًا في تسليمه.
- من ترك شيئًا من هذه السنن عمدًا أو سهوًا فصلاته صحيحة، وليس عليه شيء إلا إذا ترك الجلوس الأول والتشهد فيه فعليه أن يسجد للسهو.

مكروهات الصلاة:

وأما مكروهات الصلاة فكثيرة أيضًا منها:

- 1 - أن يترك سنة من سنن الصلاة.
- 2 - التلثم: وهو تغطية الفم بثوب ونحوه.
- 3 - كف الشعر والثوب، أي ضمهما وجمعهما احترازًا من الانتشار أو التراب.

(1) الافتراش: أن يجلس على رجله اليسرى، وينصب اليمنى.

(2) التورك: أن يجلس على مقعدته، يخرج رجله اليسرى من جهة يمينه تحت رجله اليمنى.

(3) من دعائه ﷺ: «اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر، وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات، اللهم إني أعوذ بك من المأثم، والمغرم». والمأثم: هو الأمر الذي يأثم به الإنسان، أو هو الإثم نفسه. والمغرم: يريد به الدين.

- 4 - الحركة القليلة لغير حاجة، ومن ذلك الالتفات بالوجه أو العبث باليد في الثوب، أو اللحية، ونحو ذلك، أما إذا كثرت حركته لغير حاجة الصلاة أو ما يتعلق بها بحيث يظنه من ينظر لا يصلي فقد بطلت صلاته -والله أعلم-.

كيفية أداء الصلاة:

يبدأ المسلم بالصلاة كالاتي:

يقف بعد دخول وقت الصلاة متطهرًا، مستور العورة، مستقبلًا للقبلة، ثم يبدأ بالترتيب بـ:

- 1 - يقيم للصلاة، سواء كانت الصلاة جماعة أو فردية، وإقامة الصلاة سنة وليست بفرض⁽¹⁾.
- 2 - يرفع يديه محاذيًا بهما منكبيه أو أذنيه ناويًا الصلاة التي يريد أن يصليها، ثم يكبر للدخول في الصلاة.
- 3 - يضع اليد اليمنى على اليسرى عند صدره لا ينخفض بها إلى ما تحت السرة.
- 4 - يقرأ دعاء الاستفتاح.
- 5 - يستعيد بالله من الشيطان الرجيم سرًا.
- 6 - ثم يقرأ «بسم الله الرحمن الرحيم» سرًا أو جهرا (في الصلاة الجهرية) فكلاهما وارد، ويُسر بها كباقي الفاتحة في الصلاة السرية، ويكمل الفاتحة حتى يصل إلى (ولا الضالين) فيقول: (أمين).
- 7 - قراءة سورة صغيرة أو ما يتيسر من آيات القرآن بعد الفاتحة.
- 8 - يرفع يديه حذو منكبيه ويركع قائلاً (الله أكبر).
- 9 - يمكّن كفيه من ركبتيه ويمد ظهره، ولا يرفع رأسه ولا ينكسه، ثم يقول وهو راکع: (سبحان ربي العظيم) ثلاث أو أكثر.
- 10 - يرفع من الركوع رافعًا يديه حذو منكبيه قائلاً: (سمع الله لمن حمده)، حتى إذا استوى قائمًا في اعتدال قال: (ربنا لك الحمد، حمد كثيرًا طيبًا مباركًا فيه).

(1) جاء في حديث أنس ؓ في أذان بلال الإيتار في الإقامة، فمن أوتر الإقامة فهو أفضل على حديث بلال، وإقامة بلال: (الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمدًا رسول الله، حي على الصلاة، حي على الفلاح، قد قامت الصلاة، قد قامت الصلاة، الله أكبر، الله أكبر، لا إله إلا الله).

- 11 - يهوي إلى السجود قائلاً: (الله أكبر)، فيسجد على أعضائه السبعة وهي (الجبهة والأنف، والكفان، والركبتان، وثنائياً أصابع قدميه نحو القبلة) قائلاً: (سبحان ربي الأعلى) ثلاثاً أو أكثر. (وإذا أحب أن يدعو بخيري الدنيا والآخرة جاز).
- 12 - يرفع من السجود قائلاً: (الله أكبر) فيجلس مفترشاً رجله اليسرى جالساً عليها، ناصباً اليمنى ويقول: (رب اغفر لي)، ويزيد: (وارحمني وعافني واهدني وارزقني). ثم يسجد مرة ثانية ويفعل كما فعل في الأولى.
- 13 - ثم يقوم للركعة الثانية، فيفعل فيها مثل ما فعل في الأولى.
- 14 - يجلس للتشهد، فإذا كانت الصلاة ثنائية كصلاة الصبح فإنه يتشهد ويقرأ الصلاة الإبراهيمية، ثم يدعو، ثم يسلم جهراً قائلاً: (السلام عليكم ورحمة الله) ملتفتاً إلى اليمين، ثم يسلم ملتفتاً إلى اليسار.
- 15 - وإذا كانت الصلاة غير ثنائية فيتابع الخطوات التالية: بعد التشهد والصلاة على النبي ﷺ ينهض مكبراً رافعاً يديه حذو منكبيه فيتم صلاته على ما ذكرنا من خطوات سابقة (إلا أنه يقتصر على الفاتحة فقط في الركعتين الثالثة والرابعة).
- 16 - ثم يجلس متوركاً بإفضائه بوركه إلى الأرض وينصب قدمه اليمنى وبطون أصابعه إلى الأرض أو مفترشاً بأن يجلس على قدمه اليسرى وينصب قدمه اليمنى، ثم يتشهد ويقرأ الصلاة الإبراهيمية، ويدعو بما ورد من الدعاء.
- 17 - ويسلم جهراً قائلاً: (السلام عليكم ورحمة الله) ملتفتاً إلى اليمين، ثم يسلم ملتفتاً إلى اليسار.

سجود السهو:

من رحمة الله بعباده أن شرع لعباده جبر النقص والخلل الذي يدخل عليهم في عباداتهم، ولا يستطيعون التحرز منه على الوجه التام، إما بنوافل العبادات، وإما الاستغفار، وإما نحو ذلك.

ومما شرعه الله لعباده جبراً لنقص طراً على صلاتهم، سجود السهو، غير أنه إنمّا شرع لجبر أمور خاصة، وليس كل شيء يجبره السهو، أو يشرع له.

وسجود السهو عبارة عن سجدتين يسجدهما المصلي قبل التسليم، أو يسجدهما بعده، ثم يعيد التسليم مرة أخرى إذا سجد بعده، وكلتا الهيئتين جائزة.

وقد اتفق الفقهاء على سجود السهو في المواضع التي ثبت أن النبي ﷺ سجد فيها، أو أمر بالسجود فيها، وهي:

1 - من قام عن جلسة التشهد الأول في الرباعية أو الثلاثية فإنه يمضي ويسجد سجدتي السهو، لما جاء عن عبد الله بن بَحِينَةَ ؓ أَنَّهُ قَالَ: (إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَامَ مِنْ اثْنَتَيْنِ مِنَ الظُّهْرِ لَمْ يَجْلِسْ بَيْنَهُمَا، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ سَجَدَ سَجْدَتَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ بَعْدَ ذَلِكَ) (1).

2 - من سلم سهوًا قبل تمام صلاته ثم رجع فأكملها، فإنه يسجد سجدتي السهو، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ أَنْصَرَفَ مِنْ اثْنَتَيْنِ، فَقَالَ لَهُ ذُو الْيَدَيْنِ: أَقْصَرْتَ الصَّلَاةَ أَمْ نَسِيتَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ فَقَالَ ﷺ: «أَصَدَقَ ذُو الْيَدَيْنِ». فَقَالَ النَّاسُ: نَعَمْ، فَقَامَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَصَلَّى اثْنَتَيْنِ أُخْرَيْنِ، ثُمَّ سَلَّمَ، ثُمَّ كَبَّرَ، فَسَجَدَ مِثْلَ سُجُودِهِ أَوْ أَطْوَلَ) (2).

3 - أن يزيد في الصلاة ركعة سهوًا، عن ابن مسعود ؓ قَالَ: (صَلَّى النَّبِيُّ ﷺ الظُّهْرَ خَمْسًا، فَقَالُوا: أَزِيدَ فِي الصَّلَاةِ؟ قَالَ: «وَمَا ذَاكَ». قَالُوا: صَلَّيْتَ خَمْسًا، فَتَنَى رَجُلِيهِ، وَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ) (3).

4 - من شك في صلاته فلم يدر كم صلى، فإنه يبني على ما تيقن، وهو الأقل، ويصلي ما تبقى وفق ما تيقن، ثم يسجد سجدتي السهو، لما جاء عن أبي سعيد الخدري ؓ قَالَ: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا شَكَّ أَحَدُكُمْ فِي صَلَاتِهِ فَلَمْ يَدْرِ كَمْ صَلَّى ثَلَاثًا أَمْ أَرْبَعًا، فَلْيَطْرَحِ الشَّكَّ وَلْيَبْنِ عَلَى مَا اسْتَيْقَنَ، ثُمَّ يَسْجُدْ سَجْدَتَيْنِ قَبْلَ أَنْ يُسَلَّمَ. فَإِنْ كَانَ صَلَّى خَمْسًا شَفَعْنَ لَهُ صَلَاتَهُ، وَإِنْ كَانَ صَلَّى إِتْمَامًا لِأَرْبَعٍ كَانَتْ تَرْغِيمًا لِلشَّيْطَانِ» (4).

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب السهو، باب: ما جاء في السهو إذا قام من ركعتي الفريضة، رقم (1167).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجماعة والإمامة، باب: هل يأخذ الإمام إذا شك بقول الناس، رقم (682).

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب استقبال القبلة، باب: ما جاء في القبلة، ومن لا يرى الإعادة على من سها، فصلى إلى غير القبلة، رقم (396).

(4) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب السهو في الصلاة والسجود له، رقم (571).

وبناءً على هذه الأحاديث وأمثالها اتفق الفقهاء في الجملة على أنَّ سجود السهو يُشرع لزيادة، أو نقصان، أو شك في الصلاة.

فالزيادة: مثل أن يزيد الإنسان ركوعاً أو سجوداً، أو قياماً أو قعوداً سهواً لا عمدًا، فإن زاد عمدًا بطلت صلاته.

والنقص: مثل أن ينقص الإنسان ركناً سهواً، فيعود إليه ليؤديه، ثم يسجد للسهو.

والشك: كأن يتردد كم صلى: ثلاثاً أم أربعاً، فيبني على الأقل ويسجد للسهو.

واتفق العلماء على أن من ترك ركناً من أركان الصلاة، أو شرطاً من شروطها، أو فعل شيئاً من مبطلاتها، أن ذلك لا يجبر بسجود السهو..

صلاة المسافر:

جمع وقصر الصلوات:

إذا سافر رجل أو امرأة سفرًا طويلاً يقارب من 85 كم فيجوز له أمران:

1 - قصر الصلاة الرباعية إلى ركعتين:

بمعنى أنه يجوز له أن يصلي الظهر والعصر والعشاء ركعتين لا أربعاً.

2 - الجمع بين الصلوات تقديمًا وتأخيرًا:

فيجوز له أن يجمع بين صلاتي الظهر والعصر جمع تقديم أي يصليهما في وقت الظهر، أو جمع تأخير أي يصليهما في وقت صلاة العصر.

ويجوز له أن يجمع بين صلاتي المغرب والعشاء جمع تقديم أي يصليهما في وقت المغرب، أو جمع تأخير أي يصليهما في وقت صلاة العشاء.

وهذه رخصة وفضل من الله ﷻ، والله يحب أن يؤخذ برخصه كما يكره أن تؤتى محارمه.

الصلاة في الطائرة:

المسافر بواسطة الطائرة لا يصلي في الطائرة ويلجأ إلى الجمع بين الصلوات، فيصلي جمع تقديم في المطار الذي يريد السفر منه أو جمع تأخير في البلد الذي يريد الوصول إليه، إذا لم يستطع أن يصلي كل صلاة من الصلاتين اللتين تجمعان في وقتها.

كأن يُسافر من الجزائر إلى عمّان، فإذا غادر الجزائر بعد أذان الظهر وكان لا يصل إلى عمّان إلا بعد صلاة المغرب، فإنه يجمع في مطار الجزائر الظهر والعصر قبل الإقلاع.

وإذا سافر من الجزائر في الصباح قبل صلاة الظهر وكان سيصل إلى عمّان بعد صلاة العصر فإنه يجمع بين الظهر والعصر جمع تأخير في مطار عمّان.

ولا تجوز الصلاة في الطائرة إلا في حالتين:

1 - إذا استطاع المسافر أداء جميع الأركان بشكل كامل بأن يكون في الطائرة مكان مخصص للصلاة، وفي مثل هذه الحالة يتجه المصلي إلى القبلة في بداية الصلاة، ثم لا يبالي أينما اتجهت الطائرة.

2 - إذا سافر سفرًا طويلًا بحيث يبقى في الطائرة لمدة تتجاوز وقت الصلاتين اللتين يجوز جمعهما، فإنه يصلي على مقعده، يتجه إلى القبلة واقفًا في أولها ثم يجلس في مقعده يومئ إيماءً، كمن لا يستطيع الصلاة إلا على الكرسي، ويجوز له عندها الجمع بين الصلاتين ويجوز أن يصلي كل صلاة في وقتها.

كمن يسافر من شيكاغو إلى عمّان حيث تمر عليه أوقات صلوات في الطائرة، فيصلي في الطائرة يقصر ويجمع.

المدة التي يجوز الجمع والقصر فيها للمسافر:

يجوز الجمع والقصر للمسافر إذا لم ينو الإقامة في البلد الذي سافر إليه أكثر من أربعة أيام غير يوم القدوم ويوم السفر، فإن نوى الإقامة أكثر من هذه المدة فإنه يتم ولا يجمع⁽¹⁾، إلا أن يكون لا يعلم المدة التي سيمكثها لارتباطه بعمل يريد أن ينجزه، فإنه يبقى يجمع ويقصر، حتى يتم مهمته أو يعلم موعد سفره إذا زاد على المدة التي ذكرنا.

صلاة الجماعة:

فضلها:

لقد حثَّ النَّبِيُّ ﷺ على صلاة الجماعة، لما فيها من الأجر العظيم، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال ﷺ: «صَلَاةُ الرَّجُلِ فِي جَمَاعَةٍ تَزِيدُ عَلَى صَلَاتِهِ فِي بَيْتِهِ وَصَلَاتِهِ فِي سُوقِهِ بِضْعًا وَعَشْرِينَ دَرَجَةً»⁽²⁾.

(1) للعلماء آراء أخرى في مدة الجمع واختارنا هذا القول لكونه أوسطها.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة وانتظار الصلاة، رقم (649).

حكم صلاة الجماعة على المسلم الفرد سنة مؤكدة عند جمهور علماء الأمة، وأما إقامتها في المساجد، فهو فرض كفاية⁽¹⁾ على الأمة، فإن أقامتها جماعة من المسلمين في بلد سقطت فرضيتها عن باقي أهله، وإن اتفق أهل بلد على تركها قوتلوا عليها. وأقل الجماعة اثنان. وَيَجُوزُ فَعْلُهَا فِي الْبَيْتِ أَوْ فِي مَكَانِ الْعَمَلِ وَالدراسة وفي الصَّحْرَاءِ، وفي أي مكان، إلا معابد أهل الكتاب فإنه يكره إلا للحاجة الماسة.

أحكام المسبوق في صلاة الجماعة:

من هو الْمَسْبُوقُ؟

الْمَسْبُوقُ: هُوَ الَّذِي دَخَلَ فِي صَلَاةِ الْجَمَاعَةِ وَقَدْ سَبَقَهُ الْإِمَامُ بِشَيْءٍ مِنَ الصَّلَاةِ، سِوَا كُلِّ الرُّكْعَاتِ أَوْ بَعْضِهَا.

ماذا يفعل المسبوق؟

1 - ما يدركه المسبوق مع إمامه، هو أول صلاته، فلو أدرك المسبوق مع الإمام الركعة الثالثة من صلاة المغرب مثلاً، فهذه الركعة تعد الثالثة للإمام، والأولى للمأموم، فإذا انتهى الإمام وسلم قام المسبوق وأتى بركعتين يجلس بينهما الجلوس الأوسط، ويجلس في آخرهما الجلوس الأخير، حتى لو أدرك مع الإمام جلوسه الأوسط. قال ﷺ: «إِذَا سَمِعْتُمُ الْإِقَامَةَ، فَأَمْسُوا إِلَى الصَّلَاةِ، وَعَلَيْكُمْ بِالسَّكِينَةِ وَالْوَقَارِ، وَلَا تُسْرِعُوا، فَمَا أَدْرَكْتُمْ، فَصَلُّوا، وَمَا فَاتَكُمْ فَأَتِمُّوا»⁽²⁾.

2 - إذا دخل المأموم المسجد أو في صلاة جماعة والإمام قد كبر وكان يقرأ الفاتحة أو بعدها فيلحقه ويكبر للإحرام ويقف معه، وليس عليه شيء، ويكون قد أدرك الركعة بركوعه مع الإمام، حتى لو لم يقرأ الفاتحة.

3 - إذا أدرك المسبوق الإمام راکعاً، فيلزمه أن يكبر للإحرام قائماً ثم يركع مع الإمام، ويكون بذلك قد أدرك الركعة، فإن أتى بتكبيرة الإحرام حال انحنائه لم تصح صلاته.

(1) فرض الكفاية: ما قصد الشارع فعله في الجملة، بحيث إذا عمله البعض سقط الطلب الجازم به والإثم عن الباقيين. ويتناول ما هو ديني كصلاة الجنازة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ودينوي كالعرف والصنائع.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأذان، باب: لا يسعى إلى الصلاة، وليأت بالسكينة والوقار، رقم (610).

والأحوط للمأموم في هذه الحالة أن يكبر تكبيرتين، الأولى للإحرام والثانية للركوع، فإن كبر للإحرام فقط، ثم ركع من غير أن يكبر للركوع، أجزأه إذا أتى بتكبيرة الإحرام بجميع حروفها قائماً ثم أدرك الركوع مع الإمام، ولو لم يسبح المأموم إلا بعد رفع الإمام.

4 - إذا شك المسبوق هل أدرك الركوع مع إمامه أو لم يدركه، فإنه في هذه الحال يأخذ بغلبة الظن، فإن غلب على ظنه أنه أدرك الإمام في الركوع، فيكون مدرّكاً للركعة، وإن غلب على ظنه أنه لم يدركه، فلا يعتبر مدرّكاً للركعة، والأحوط ألا يعتبرها ركعة.

5 - يجوز للمسبوق أن يصلي خلف الصف وحده، إذا لم يجد في الصف الذي قبله مكاناً له، ولا يلزمه أن يرجع أحدًا من الصف الأول ليصلي بجواره.

6 - إذا سجد الإمام للسهو قبل السلام، فالمسبوق يسجد معه، سواء أدرك المسبوق ذلك السهو، أم دخل بعد سهو إمامه، وأمّا لو كان سجود الإمام للسهو بعد السلام، فالمسبوق لا يتابع إمامه في ذلك السجود، لتعذر المتابعة في هذه الحال.

7 - المسبوق لا يُعد مدرّكاً للجماعة، إلا إذا أدرك ركعة من الصلاة، والركعة إنمّا تدرك بإدراك الركوع، وقال بعض أهل العلم إنه يدرك الجماعة ما دام أنه التحق مع الإمام قبل التسليم.

8 - إذا جاء المسبوق بعد الركوع الأخير، فإن الأفضل في حقه أن يدخل مع إمامه، ولا ينتظر جماعة أخرى.

9 - الأحوط للمسبوق ألا يقوم لقضاء ما فاتته من الصلاة، إلا بعد أن ينتهي الإمام من التسليمة الثانية.

الجمع بين الصلوات في الحَضَر:

يجوز لمن يصلون الجماعة في المسجد أن يجمعوا بين صلاتي الظهر والعصر والمغرب والعشاء جمع تقديم، بمعنى صلاتهما في وقت الأولى، وذلك إذا كان هناك مطرٌ أو ثلجٌ أو بردٌ أو بردٌ شديدٌ تسبب حرجاً شديداً على المصلين إذا عادوا إلى المسجد في وقت الصلاة التالية، عندئذٍ يجوز الجمع، والله أعلم.

كذلك يجوز للمسلم أن يجمع بين الصلوات جمع تقديم أو تأخير بين الظهر والعصر وبين المغرب والعشاء، لضرورة منعه من أداء الصلاة في وقتها، كالمريض الذي يدخل

لغرفة العلميات ولا يخرج من غرفة العناية المركزة إلا بعد فوات وقت الصلاة، وكذلك الطبيب الذي يدخل عمليات لفترة طويلة ولا يمكنه أداء الصلاة في وقتها حتى يخرج⁽¹⁾.

صلاة الجمعة

فضلها:

جاء في فضل صلاة الجمعة أحاديث منها، ما جاء عن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَنْ تَوَضَّأَ فَأَحْسَنَ الْوُضُوءَ. ثُمَّ أَتَى الْجُمُعَةَ فَاسْتَمَعَ وَأَنْصَتَ. غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجُمُعَةِ. وَزِيَادَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ. وَمَنْ مَسَّ الْحَصَى فَقَدْ لَعَا»⁽²⁾.

وَعَنْهُ رضي الله عنه أَيْضًا عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الصَّلَوَاتُ الْخَمْسُ وَالْجُمُعَةُ إِلَى الْجُمُعَةِ كَفَّارَاتٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ»⁽³⁾.

حكمها:

والجمعة فرض عين على مَنْ تَجَبَّ عليه بإجماع الأمة، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الجمعة: 9].

وعن عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُمَا سَمِعَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ عَلَى أَعْوَادٍ مِنْبَرِهِ: «لَيَنْتَهِيَنَّ أَقْوَامٌ عَنْ وَدْعِهِمُ الْجُمُعَاتِ. أَوْ لَيَخْتِمَنَّ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ. ثُمَّ لَيَكُونَنَّ مِنَ الْغَافِلِينَ»⁽⁴⁾.

وعن سَمُرَةَ بْنِ جُنْدَب رضي الله عنه قَالَ ﷺ: «مَنْ تَرَكَ ثَلَاثَ جُمُعٍ تَهَاوَنًا بِهَا، طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ»⁽⁵⁾.

(1) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 143-331، وص 360-368. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 1 ص 141-236، وص 292-350. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 162-258. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج 1 ص 255-440.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجمعة، باب فضل من استمع وأنصت في الخطبة، رقم (857).

(3) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الطهارة، باب الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة ورمضان إلى رمضان مكفرات لما بينهن ما اجتنبت الكبائر، رقم (233).

(4) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجمعة، باب التغليظ في ترك الجمعة، رقم (865).

(5) أخرجه أبو داود، السنن، في تفریع أبواب الجمعة، باب التشديد في ترك الجمعة، رقم (1052)، والنسائي، السنن، كتاب الجمعة، باب التشديد في التخلف عن الجمعة، رقم (1369). وهو حديث: حسن.

تجب صلاة الجمعة على من توفرت فيه هذه الشروط:

1 - الإسلام.

2 - الذكورة.

3 - العقل.

4 - البلوغ.

5 - الإقامة.

6 - القدرة على السَّعي إليها.

7 - الخلو من الأعذار المبيحة للتخلف عنها، كالمرض.

8 - الحرية.

واستدل لهذه الموجبات بقول النبي ﷺ: «الْجُمُعَةُ حَقٌّ وَاجِبٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ فِي جَمَاعَةٍ إِلَّا أَرْبَعَةً: عَبْدٌ مَمْلُوكٌ، أَوْ امْرَأَةٌ، أَوْ صَبِيٌّ، أَوْ مَرِيضٌ»⁽¹⁾.

ومن لا يجب عليه حضور الجمعة يصلي الوقت ظهرًا، ويحوز له أن يصلي الظهر قبل أن يصلي الناس الجمعة، ويجوز بعد ذلك.

عدد المصلين الذي تنعقد وتجب به الجمعة:

اشتراط عدد معين لإقامة صلاة الجمعة مما اختلف فيه الفقهاء، فبعضهم يشترط حتى تصح الجمعة أربعين رجلًا، وهو مذهب الشافعية والحنابلة، ومنهم من يشترط ثلاثة رجال سوى الإمام ولو كانوا مسافرين أو مرضى، وهو مذهب أبي حنيفة، ومنهم من يشترط اثني عشر غير الإمام، ويشترط فيهم ألا يكونوا مسافرين وهو مذهب المالكية في المشهور عنهم. وعلى كل حال فليس هناك نص صريح في اشتراط عدد معين لإقامة الجمعة، لكن الجماعة فيها شرط بالاتفاق.

وما نراه أن الأمور تقدر بقدرها، حسب الظرف والبلد، والخلاف يصنع سعة في الاختيار.

(1) أخرجه أبو داود، السنن، في تفريع أبواب الجمعة، باب الجمعة للمملوك والمرأة، رقم (1067)، وصححه النووي. (المجموع ج 4 ص 482).

وقت الجمعة هو وقت صلاة الظهر، وأما آخر وقتها خروج وقت صلاة الظهر، وهو إذا صار ظل كل شيء مثله.

عدد ركعاتها:

صلاة الجمعة ركعتان جماعة، ويُستحب أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة سورة «الجمعة»، وفي الثانية سورة «المنافقون»، أو يقرأ في الأولى سورة «الأعلى»، وفي الثانية «الغاشية».

المسبوق في الجمعة:

إذا أدرك المأموم ركعة كاملة مع الإمام، فقد أدرك الصلاة، وليُضف إليها أخرى، وقد تمت صلاته، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الصَّلَاةِ فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ»⁽¹⁾.

وأما مَنْ أدرك أقل من ركعة، وذلك بأن يُدرك ما بعد الركوع الأخير، كالسجدة الأخيرتين والتشهد، فإنه لا يكون مُدركاً للجمعة، وعليه أن يُتمّها أربعاً، عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَدْرَكَ رَكْعَةً مِنَ الصَّلَاةِ فَقَدْ أَدْرَكَ الصَّلَاةَ»⁽²⁾، وجاء تفصيل ذلك موقوفاً عن ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: (مَنْ أَدْرَكَ مِنَ الْجُمُعَةِ رَكْعَةً فَلْيُضِفْ إِلَيْهَا أُخْرَى، وَمَنْ فَاتَتْهُ الرُّكْعَتَانِ فَلْيُصَلِّ أَرْبَعًا)⁽³⁾، وهذا هو مذهب الجمهور.

سنة الجمعة:

ذهب الحنفية إلى أنه تسن الصلاة قبل الجمعة وبعدها، وذهب الشافعية في وجه ورجحه الإمام النووي -رحمه الله- أنه تسن ركعتان قبلها، وركعتان بعدها، والأكمل أربع قبلها، وأربع بعدها.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، باب: من أدرك من الصلاة ركعة، رقم (555). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب من أدرك ركعة من الصلاة فقد أدرك تلك الصلاة، رقم (607).

(2) أخرجه أبو داود، السنن، في تفريع أبواب الجمعة، باب من أدرك من الجمعة ركعة، رقم (1121)، وإسناده صحيح.

(3) أخرجه وأبو القاسم سليمان بن أحمد بن أيوب الطبراني، المعجم الكبير، تحقيق: حمدي عبد المجيد، (القاهرة: مكتبة ابن تيمية)، رقم (9545)، ج 9 ص 226. وإسناده حسن.

وبالرجوع إلى الأدلة نرى أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ رَغِبَ فِي التَّبَكُّيرِ إِلَى الْجُمُعَةِ وَالصَّلَاةِ قَبْلَ أَنْ يَصْعَدَ الْإِمَامَ الْمَنْبِرَ، فَقَالَ ﷺ: «مَنْ غَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَرَ وَابْتَكَّرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْغُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلُ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»⁽¹⁾، وهذا من التطوُّعِ الْمَطْلُوقِ، ويكون قبل الْأَذَانِ الَّذِي بَيْنَ يَدَيِ الْخُطِيبِ، وَلَا يَدُلُّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذِهِ الصَّلَاةُ سَنَّةٌ قَبْلِيَّةٌ لِلْجُمُعَةِ.

وَأَمَّا السَّنَةُ بَعْدَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، فَقَدْ أَجْمَعَ عَلَيْهَا أَهْلُ الْعِلْمِ، لَمَّا ثَبَتَ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ كَانَ مُصَلِّيًا بَعْدَ الْجُمُعَةِ، فَلْيَصِلْ أَرْبَعًا»⁽²⁾.

وَمَا جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- أَنَّهُ كَانَ إِذَا صَلَّى الْجُمُعَةَ انْصَرَفَ فَصَلَّى سَجْدَتَيْنِ فِي بَيْتِهِ، ثُمَّ قَالَ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَصْنَعُ ذَلِكَ)⁽³⁾، يَعْنِي صَلَّى رَكْعَتَيْنِ فِي بَيْتِهِ.

وَعَلَيْهِ يَصَلِّي الْمُسْلِمُ رَكْعَتَيْنِ أَوْ أَرْبَعَةَ، سِوَاهُ فِي بَيْتِهِ أَوْ فِي الْمَسْجِدِ.

خُطْبَتَا الْجُمُعَةِ:

اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ عَلَى أَنَّهُ يُشْرَعُ خُطْبَتَانِ قَبْلَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ، وَذَهَبَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ إِلَى وَجُوبِ هَاتَيْنِ الْخُطْبَتَيْنِ، لِعُمُومِ مُوَاضِيَتِهِ ﷺ عَلَى ذَلِكَ.

آدَابُ الْمُصَلِّي يَوْمَ الْجُمُعَةِ:

يُشْرَعُ لِمَنْ وَجِبَتْ عَلَيْهِ صَلَاةُ الْجُمُعَةِ بَعْضُ الْآدَابِ، نَذَرُهَا وَنَبِيْنُ أَحْكَامَهَا، وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ:

1 - الْإِغْتِسَالُ قَبْلَ صَلَاةِ الْجُمُعَةِ: وَالرَّاحُ أَنْ وَقَتَ الْغُسْلِ يَبْدَأُ مِنْ طُلُوعِ الْفَجْرِ.

(1) أَخْرَجَهُ أَبُو دَاوُدَ، السَّنَنِ، كِتَابُ الطَّهَارَةِ، بَابُ فِي الْغُسْلِ لِلْجُمُعَةِ، رَقْمُ (345)، وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ. وَالتِّرْمِذِيُّ، الْجَامِعُ، رَقْمُ (500). وَالتِّرْمِذِيُّ، الْجَامِعُ، أَبْوَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي فَضْلِ الْغُسْلِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (496). وَابْنُ مَاجَةَ، السَّنَنِ، كِتَابُ الصَّلَاةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الْغُسْلِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (1087).

(2) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، الصَّحِيحُ الْمُسْنَدُ، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ الصَّلَاةِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (881).

(3) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، الْجَامِعُ، أَبْوَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلَاةِ قَبْلَ الْجُمُعَةِ وَبَعْدَهَا، رَقْمُ (521)، وَقَالَ: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ. وَابْنُ مَاجَةَ، السَّنَنِ، كِتَابُ إِقَامَةِ الصَّلَاةِ، وَالسَّنَةُ فِيهَا، بَابُ مَا جَاءَ فِي الصَّلَاةِ بَعْدَ الْجُمُعَةِ، رَقْمُ (1130).

2 - التَّنَظُّفُ والتَّجَمُّلُ للجمعة: وذلك بأن يلبس الثياب الحسنة، ويتسوّك، ويتطيب، بل يُسْتَحَبُّ أَنْ يَجْعَلَ للجمعة ثيابًا خاصّةً، لقوله ﷺ: «مَا عَلَى أَحَدِكُمْ لَوْ اشْتَرَى ثَوْبَيْنِ لِيَوْمِ الْجُمُعَةِ سِوَى ثَوْبِي مَهْنَتِهِ»⁽¹⁾.

3 - التَّكْبِيرُ فِي الذَّهَابِ للجمعة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ اغْتَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ غُسْلَ الْجَنَابَةِ ثُمَّ رَاحَ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَدَنَهُ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّانِيَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَقَرَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الثَّالِثَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ كَبْشًا أَقْرَنَ، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الرَّابِعَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ دَجَاجَةً، وَمَنْ رَاحَ فِي السَّاعَةِ الْخَامِسَةِ فَكَأَنَّمَا قَرَّبَ بَيْضَةً، فَإِذَا خَرَجَ الْإِمَامُ حَضَرَتِ الْمَلَائِكَةُ يَسْتَمِعُونَ الذِّكْرَ»⁽²⁾.

4 - عَدَمُ تَخْطِي الرِّقَابِ: فعن عبد الله بن بسرٍ ؓ أَنَّهُ قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ يَتَخَطَّى رِقَابَ النَّاسِ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَالنَّبِيُّ ﷺ يَخْطُبُ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «اجْلِسْ، فَقَدْ آذَيْتَ»⁽³⁾.

وَيُسْتَتْنَى مِنْ ذَلِكَ الْإِمَامُ، وَكَذَلِكَ مَنْ كَانَ أَمَامَهُ فَرْجَةٌ لَا يَصِلُ إِلَيْهَا إِلَّا بِالتَّخْطِي. 5 - وَيَدْنُو مِنَ الْإِمَامِ: فَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ غَسَلَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَاغْتَسَلَ، ثُمَّ بَكَرَ وَابْتَكَرَ، وَمَشَى وَلَمْ يَرْكَبْ، وَدَنَا مِنَ الْإِمَامِ فَاسْتَمَعَ وَلَمْ يَلْعُ، كَانَ لَهُ بِكُلِّ خُطْوَةٍ عَمَلٌ سَنَةٍ أَجْرُ صِيَامِهَا وَقِيَامِهَا»⁽⁴⁾.

6 - إِذَا دَخَلَ الْمَسْجِدَ صَلَّى تَحِيَّةَ الْمَسْجِدِ، ثُمَّ يَصَلِّي مَا شَاءَ مِنَ التَّطَوُّعِ، وَلَهُ أَنْ يَجْلِسَ لانتظاره، فإذا خرج الإمام: جلس واستمع، فقد قال النبي ﷺ: «لَا يَغْتَسِلُ رَجُلٌ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَيَتَطَهَّرُ بِمَا اسْتَطَاعَ مِنْ طَهْرٍ وَيَدْهَنُ مِنْ دُهْنِهِ، أَوْ يَمَسُّ مِنْ طِيبِ بَيْتِهِ، ثُمَّ يَرْوِحُ إِلَى الْمَسْجِدِ، وَلَا يَفَرِّقُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، ثُمَّ يَصَلِّي مَا

(1) أخرجه ابن ماجه، السنن، كتاب إقامة الصلاة، والسنة فيها، باب ما جاء في الزينة يوم الجمعة، رقم (1095).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجمعة، باب: فضل الجمعة، رقم (881). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجمعة، باب الطيب والسواك يوم الجمعة، رقم (850).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (17674)، ج 29 ص 221. أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب تخطي رقاب الناس يوم الجمعة، رقم (1118). وابن ماجه، السنن، أبواب إقامة الصلوات والسنة فيها، باب ما جاء في النهي عن تخطي الناس يوم الجمعة، رقم (1115).

(4) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الطهارة، باب في الغسل للجمعة، رقم (345)، وإسناده صحيح. والترمذي، الجامع، رقم (500). والترمذي، الجامع، أبواب الجمعة، باب ما جاء في فضل الغسل يوم الجمعة، رقم (496). وابن ماجه، السنن، كتاب الصلاة، باب ما جاء في الغسل يوم الجمعة، رقم (1087).

كُتِبَ لَهُ، ثُمَّ يُنْصَتُ لِلْإِمَامِ إِذَا تَكَلَّمَ، إِلَّا غُفِرَ لَهُ مَا بَيْنَ الْجُمُعَةِ إِلَى الْجُمُعَةِ الْآخَرِ»⁽¹⁾.

وَيَصْلِي تَحِيَةَ الْمَسْجِدِ حَتَّى لَوْ دَخَلَ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ فَقَالَ: «إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، وَقَدْ خَرَجَ الْإِمَامُ، فَلْيُصَلِّ رَكَعَتَيْنِ»⁽²⁾، يَعْنِي: لِيُخَفِّفَ هَاتَيْنِ الرُّكْعَتَيْنِ دُونَ الْإِخْلَالِ بِالْوَاجِبَاتِ، كَالْاطْمِئْنَانِ فِي الرُّكُوعِ وَالسُّجُودِ وَنَحْوِ ذَلِكَ.

7 - يَحْرُمُ الْكَلَامُ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ: لِقَوْلِهِ ﷺ: «إِذَا قَلَّتْ لِمُصَاحِبِكَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ: أَنْصِتْ، وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، فَقَدْ لَعُوتَ»⁽³⁾، يَعْنِي ضَاعَ ثَوَابُ جَمْعَتِكَ أَوْ قَلَّ⁽⁴⁾.

صلاة العيدين:

وقتها:

يَدْخُلُ وَقْتُهَا بَعْدَ ارْتِفَاعِ الشَّمْسِ قَدْرَ رِمْحٍ، وَحَدَّهِ الْعُلَمَاءُ بِزَوَالِ حَمْرَتِهَا، وَيَنْتَهِي وَقْتُهَا بِزَوَالِ الشَّمْسِ، وَقْتُ دُخُولِ صَلَاةِ الظُّهْرِ.

كيفية أدائها:

صَلَاةُ الْعِيدِ رَكَعَتَانِ يَخْطُبُ الْإِمَامُ بَعْدَهُمَا، لِحَدِيثِ جَابِرٍ ؓ قَالَ: (إِنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَرَجَ يَوْمَ الْفِطْرِ فَبَدَأَ بِالصَّلَاةِ قَبْلَ الْخُطْبَةِ)⁽⁵⁾.

وَتَفْتَرِقُ رَكَعَتَا صَلَاةِ الْعِيدِ عَنْ غَيْرِهِمَا أَنَّهُ يَسُنُّ أَنْ يَكْبِرَ الْإِمَامُ أَوْ الْمُصَلِّي لَهَا فِي الرُّكْعَةِ الْأُولَى سَبْعًا أَوْ سِتًّا غَيْرَ تَكْبِيرَةِ الْإِحْرَامِ، وَيَسُنُّ فِي الرُّكْعَةِ الثَّانِيَةِ أَنْ يَكْبِرَ خَمْسًا غَيْرَ

(1) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، الْمُسْنَدُ، رَقْمُ (23710)، ج 39 ص 113. وَابْنُ خَرِيزٍ، الْجَامِعُ الْمُسْنَدُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ: الدَّهْنُ لِلْجُمُعَةِ، رَقْمُ (843).

(2) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، الصَّحِيحُ الْمُسْنَدُ، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ التَّحِيَةِ وَالْإِمَامِ يَخْطُبُ، رَقْمُ (875).

(3) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، الْجَامِعُ الْمُسْنَدُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ الْجُمُعَةِ، بَابُ: الْإِنْصَاتُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ وَالْإِمَامُ يَخْطُبُ، رَقْمُ (892).

(4) انْظُرْ: الْبَغَا، الْفَقْهُ الْحَنْفِيُّ بِأَدْلَتِهِ، ج 1 ص 332-359. وَظَاهِرُ، الْفَقْهُ الْمَالِكِيُّ وَأَدْلَتُهُ، ج 1 ص 238-258. وَالزَّحِيلِيُّ، الْفَقْهُ الشَّافِعِيُّ الْمَيْسَرُ، ج 1 ص 266-278. وَالحَنْبَلِيُّ، هَدَايَةُ الرَّائِبِ لشرح عمدة الطالب، ج 1 ص 443-448.

(5) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، الْجَامِعُ الْمُسْنَدُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ الْعِيدَيْنِ، بَابُ: الْمَشْيُ وَالرُّكُوبُ إِلَى الْعِيدِ وَالصَّلَاةُ قَبْلَ الْخُطْبَةِ بِغَيْرِ أَذَانٍ وَلَا إِقَامَةٍ، رَقْمُ (915).

تكبيرة القيام، لحديث عائشة رضي الله عنها: (عَنْ عَائِشَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُكَبِّرُ فِي الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى فِي الْأُولَى سَبْعَ تَكْبِيرَاتٍ وَفِي الثَّانِيَةِ خَمْسًا)⁽¹⁾.

ومن سنن هذه الصلاة أن يقرأ في الركعة الأولى بعد الفاتحة بسورة الأعلى أو سورة ق، وأن يقرأ في الثانية بسورة الغاشية أو بسورة القمر.

فإذا انتهت الصلاة اعتلى الإمام المنبر فيخطب في الناس خطبة أو خطبتين كالجمعة يذكرهم فيها الناس ويعظهم، فعن أبي سعيد رضي الله عنه قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْرُجُ يَوْمَ الْفِطْرِ وَالْأَضْحَى إِلَى الْمُصَلَّى فَأَوَّلُ شَيْءٍ يَبْدَأُ بِهِ الصَّلَاةُ ثُمَّ يَنْصَرِفُ فَيَقُومُ مُقَابِلَ النَّاسِ وَالنَّاسُ جُلُوسٌ عَلَى صُفُوفِهِمْ فَيَعِظُهُمْ وَيُوصِيهِمْ وَيَأْمُرُهُمْ فَإِنْ كَانَ يُرِيدُ أَنْ يَقْطَعَ بَعْثًا قَطَعَهُ أَوْ يَأْمُرَ بِشَيْءٍ أَمَرَ بِهِ ثُمَّ يَنْصَرِفُ⁽²⁾.

مكان أداء صلاة العيد:

الجمهور من أهل العلم على استحباب أداء صلاة العيد في المصليات الكبيرة، وخالفهم الشافعية فقالوا إنَّ الأفضل أداء صلاة العيد في المسجد، ووافقهم الجمهور في حالة تعذر صلاتها في المصليات لوجود مطر أو برد أو ما شابه.

فوت صلاة العيد:

من فاتته صلاة العيد مع الإمام صلاها جماعة أو منفردًا في المصلى أو في المسجد دون خطبة، وبجوز أن يصليها منفردًا أو جماعة في بيته ودون خطبة.

إذا جاء العيد يوم الجمعة لم تسقط الجمعة:

إذا جاء العيد يوم جمعة لم تسقط صلاة الجمعة عمّن صلى العيد في جماعة، بل يجب عليه أن يصلي الجمعة حيث تقام، وهذا قول الجمهور من الحنفية والمالكية والشافعية، وهو الذي ترجح عندنا -والله أعلم-⁽³⁾.

(1) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الصلاة، باب التكبير في العيدين، رقم (1149).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب العيدين، باب: الخروج إلى المصلى بغير منبر، رقم (913).

(3) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج1 ص375-388. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج1 ص281-287. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج1 ص284-288. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج1 ص446-476.

تعريف الصوم:

الصوم لغة: الإمساك والامتناع.

الصوم شرعاً: التعبد لله ﷻ، بالإمساك عن الأكل والشرب وسائر المفطرات، من طلوع الفجر إلى غروب الشمس.

شروط وجوب الصيام:

يجب الصيام على:

المسلم، العاقل، البالغ، الصحيح، المقيم. ويُزاد في حق المرأة: الطهارة من الحيض والنِّفاس.

أركان الصيام:

للصَّوم رُكنان أساسيان وهما:

الأول: النِّيَّة: وحقيقة النِّيَّة: العزم على الفعل امتثالاً لأمر الله ﷻ، فمتى عزمَ على الصَّوم بقلبه فقد تحققت النِّيَّة، ولا يَلْزَمُهُ التَّلَفُّظُ بها -بأن يقول: نويتُ الصيام غداً-، وأعلم أنَّ السُّحُورَ في حَدِّ ذاتِهِ يُعْتَبَرُ نِيَّةً لصيام الغد.

الثاني: الإمساك عن المفطرات من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس: أي الامتناع عن الطعام والشراب والجماع من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس.

مُبطِّلات الصيام:

أولاً- ما يُبطل الصَّوم ويُوجِبُ القضاء:

هناك ما يُبطل الصَّوم ويُوجِبُ القضاء فقط (يعني يُوجِبُ قضاء ذلك اليوم الذي أَفْسَدَ صَوْمَهُ) مثل:

- 1 - الأكل والشُّرب عَمْدًا وما في معناهما: والمقصود إدخال الطعام والشراب عن طريق الفم، فمتى أُدْخِلَ الطعام إلى جَوْفِهِ ذَاكِرًا متعمدًا، فقد أفطر، ويكونُ بذلك آثِمًا، لَتَعْمُدِهِ معصية الله بالإفطار، ويلْزَمُهُ التوبة، وعليه قضاء ذلك اليوم.

وأما إنْ أَكَلَ أو شَرِبَ نَاسِيًا فلا شيء عليه، وَلَبِثَ صَوْمُهُ، فقد قال النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ نَسِيَ وَهُوَ صَائِمٌ، فَأَكَلَ أو شَرِبَ، فَلَبِثَ صَوْمُهُ، فَإِنَّمَا أَطْعَمَهُ اللَّهُ وَسَقَاهُ»⁽¹⁾.

وهذا الحُكْم يشمل الفريضة والنافلة، لأن الحديث السابق لم يفرق بين الفرض والنفل.

2 - القِيء عَمْدًا: وسواء كان القيء قليلًا أو كثيرًا، لأن النَّبِيَّ ﷺ قال: «مَنْ ذَرَعَهُ القِيء (أي: غلبه القيء) وهو صَائِمٌ فليس عليه قضاء، وَمَنْ اسْتَقَاءَ (أي تعمَّد القيء) فَلْيَقْضِ»⁽²⁾.

3 - الحَيْض والنَّفَاس: حتى لو خرج دم الحَيْض أو النَّفَاس في اللحظة الأخيرة قبل المغرب، فلا خلاف بين العلماء بالفطر، ووجوب قضاء ذلك اليوم عليها.

4 - الاستمنا: وهو طلب خروج المني بوسيلة كاليد، وقد ذهب الفقهاء إلى أنَّ المرء إذا استمنى فأنزل فسد صَوْمُهُ، وعليه قضاء ذلك اليوم، أما إذا فَكَرَ فنزل منه المني أو أُمْدَى (أي خرج منه المذي)، فصيامه صحيح، ولا يَفْسَدُ بذلك.

ثانيًا- ما يبطل الصَّوْم ويوجبُ القضاء مع الكفارة:

ما يبطل الصَّوْم ويوجبُ القضاء مع الكفارة هو الجَماع، فمتى جامعَ الصائم في نهار رمضان عالمًا بتحريم الجماع في أثناء الصَّوْم، ومتعمدًا لذلك، -وسواء أنزل أو لم ينزل-، فقد أثمَ بذلك، وفَسَدَ صَوْمُهُ ووجب عليه القضاء والكفارة.

والكفارة هي: عِتْق رَقَبَةٍ (تحرير عبد أو أمة)، فإن لم يجد (كما هو الحال اليوم أو لم يملكها أو ثمنها في الزمن السابق) فصيام شهرين متتابعين، فإن لم يستطع فإطعام ستين مسكينًا، هكذا على هذا الترتيب، فلا يُطعم ستين مسكينًا إلا إذا لم يَقوَ على صيام الشهرين، ولا يَصُم إلا إذا لم يجد الرقبة، وهذا قول الجمهور.

ويُزَى الجمهور أن مقدار إطعام المسكين مُدٌّ من طعام، (والمُدُّ: هو الحِفْنة التي تملأ الكفَّين معًا)، (والمعنى أنَّ تكون وجبة مُشبعة للمسكين، أما نوع الطعام فيكون حسب الحالة المادية لمن عليه الكفارة).

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيام، باب أكل الناسي، وشربه، وجماعه لا يفطر، رقم (1155).

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الصوم، باب ما جاء فيمن استقأ عمدا، رقم (729). وابن ماجه، السنن، كتاب الصيام، باب ما جاء في الصائم يقيء، رقم (1676).

وإذا أُعْسِرَ (أي وجد صعوبة في إخراج ثمن الكفارة) فلم يستطيع الكفارة، فإنها متعلقة بذمته إلى أن يتيسر له ذلك.

مكتبة

t.me/soramnqraa

آداب ومستحبات وسنن الصيام:

للصيام سنن ومستحبات وآداب عديدة، نذكر منها:

1 - السحور: يستحب السحور لمريد الصوم، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «تَسَحَّرُوا، فَإِنَّ فِي السَّحُورِ بَرَكَهً» ⁽¹⁾. ويستحب له تأخيرها.

2 - تعجيل الفطور: يُسْتَحَبُّ للصائم تعجيل الفطر متى غربت الشمس، عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ -رضي الله عنهما- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «لَا يَزَالُ النَّاسُ بِخَيْرٍ مَا عَجَّلُوا الْفِطْرَ» ⁽²⁾.

3 - أن يفطر على الرطب أو التمر أو الماء قبل الصلاة: يستحب أن يكون فطره على رُطْبٍ (بلح)، فَإِنْ لم يجد فالتمر، فَإِنْ لم يجد فالماء. عن أنس رضي الله عنه قال: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُفْطِرُ عَلَى رُطَبَاتٍ قَبْلَ أَنْ يُصَلِّيَ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ رُطَبَاتٌ، فَتَمْرَاتٌ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ تَمْرَاتٌ حَسَا حَسَوَاتٍ مِنْ مَاءٍ) ⁽³⁾.

4 - استحباب الدعاء عند الفطر: أَصَحُّ مَا ثَبَتَ فِي الدُّعَاءِ عِنْدَ الْفِطْرِ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ إِذَا أَفْطَرَ قَالَ: «ذَهَبَ الظَّمَأُ، وَابْتَلَّتِ الْعُرُوقُ، وَثَبَتَ الْأَجْرُ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» ⁽⁴⁾، ويجوز أيضًا الدعاء بغير ذلك.

5 - ملازمة التقوى: وذلك بالكف عن اللغو والرفث -وهو الكلام الفاحش- وغير ذلك مما يُنَافِي الصَّوْمَ، فعن أبي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا كَانَ يَوْمٌ صَوْمٍ أَحَدِكُمْ فَلَا يَرْفُثْ، وَلَا يَصْحَبْ، فَإِنْ سَابَهُ أَحَدٌ أَوْ قَاتَلَهُ فَلْيَقُلْ: إِنِّي أَمْرُؤٌ صَائِمٌ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ، لَخُلُوفُ فَمِ الصَّائِمِ أَطْيَبُ عِنْدَ اللَّهِ مِنْ

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصوم، باب: بركة السحور من غير إيجاب، رقم (1823). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيده استحبابه، واستحباب تأخيرها وتعجيل الفطر، رقم (1095).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصوم، باب: تعجيل الإفطار، رقم (1856). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيام، باب فضل السحور وتأكيده استحبابه، واستحباب تأخيرها وتعجيل الفطر، رقم (1098).

(3) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الصوم، باب ما يفطر عليه، رقم (2356). والترمذي، الجامع، أبواب الصوم، باب ما جاء ما يستحب عليه الإفطار، رقم (696)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(4) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب الصوم، باب القول عند الإفطار، رقم (2357).

رِيحِ الْمُسْكِ، لِلصَّائِمِ»⁽¹⁾. وعن أبي هريرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَدَعْ قَوْلَ الزُّورِ وَالْعَمَلَ بِهِ، فَلَيْسَ لِلَّهِ حَاجَةٌ فِي أَنْ يَدَعَ طَعَامَهُ وَشَرَابَهُ»⁽²⁾.

6 - الْجُودُ وَالكَرَمُ، وَمُدَارَسَةُ الْقُرْآنِ: فعن ابن عباس ؓ قال: (كان النَّبِيُّ ﷺ أَجُودَ النَّاسِ بِالْخَيْرِ، وَكَانَ أَجُودَ مَا يَكُونُ فِي رَمَضَانَ حِينَ يَلْقَاهُ جَبْرِيلُ، وَكَانَ جَبْرِيلُ ﷺ يَلْقَاهُ كُلَّ لَيْلَةٍ فِي رَمَضَانَ حَتَّى يَنْسَلَخَ، يَعْرِضُ عَلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ الْقُرْآنَ، فَإِذَا لَقِيَهُ جَبْرِيلُ ﷺ كَانَ أَجُودَ بِالْخَيْرِ مِنَ الرِّيحِ الْمُرْسَلَةِ)⁽³⁾.

الأيام المنهي عن صيامها:

نهى النَّبِيُّ ﷺ عن صيام أيام في السنة، وهي:

- 1 - يَوْمَا الْعِيدِ: يوم الفِطْرِ، ويوم الأَضْحَى، فيحرم صومهما.
- 2 - أَيَّامُ التَّشْرِيقِ: وهي الأيام الثلاثة التي تلي يوم الأَضْحَى، فلا يُرَخَّصُ في صيامها إلا للحاج الذي لم يجد هديًا يذبحه إذا كان متمتعًا.
- 3 - يَوْمُ الْجُمُعَةِ مُنْفَرَدًا: إلا إذا صام معه يومًا قبله أو يومًا بعده، فإنه يجوز له ذلك، أو إذا وافق صيامًا كان يصومه، كيوم عرفة، ويوم عاشوراء، وصيام يوم وإفطار يوم، وغير ذلك.
- 4 - صِيَامُ يَوْمِ الشُّكِّ: ويوم الشك هو آخر يوم من شعبان، إذا كان في السماء ما يمنع رؤية هلال رمضان، فعندئذٍ يُحْتَمَلُ وجود الهلال، ومع هذا لا يَجُوزُ صَوْمُهُ إلا بالتحقيق من الرؤية، إلا أن يكون لرجل عادة بصيام، فوافق هذا اليوم عادته فلا مانع من صَوْمِهِ.
- 5 - صَوْمُ الدَّهْرِ: وذلك بأن يصوم كل أيام السنة، فلا يفصل بينها بإفطار.

مُبيحات الفِطْرِ في رمضان:

- 1 - السَّفَرُ: يُباح للمسافر الفِطْر، حتى ولو كان قادرًا على الصيام، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَّرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184].

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصوم، باب: هل يقول إنني صائم إذا شتم، رقم (1805).
ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيام، باب فضل الصيام، رقم (1151).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصوم، باب: من لم يدع قول الزور، والعمل به في الصوم، رقم (1804).

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصوم، باب: أجود ما كان النَّبِيُّ صلى الله عليه وسلم يكون في رمضان، رقم (1803).

وذهب جمهور العلماء: إلى جواز صَوْم المسافر، وأن ذلك يُجْزئُه، ويُباح الإفطار له، حتى لو كان سفره بوسائل النقل المريحة، وسواء وجد مَشَقَّةً أو لم يجد، إذ إنَّ عِلَّةَ الفِطْرِ: وجود السفر دون التَّقَيُّد بشيء آخر.

والسفر المبيح للفطر ما زاد على 81 كم.

2 - **الحامل والمُرْضِع:** يُباح للمرأة الحامل والمُرْضِع الفِطْر في رمضان، وتقضي بعد رمضان الأيام التي أفطرتها فقط.

3 - **المريض:** يُباح الفِطْر للمريض في رمضان، لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ مَرِيضًا أَوْ عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَرَ﴾ [البقرة: 184].

والمرض المُبِيح للفِطْرِ: هو المرض الذي تلحق المرء بسببه المشقة، أو الذي يخاف فيه زيادة مرضه بسبب الصَّوْم.

ويجبُ على المريض إذا أخذَ برخصة الفِطْرِ وأفطر، إن كان المرض مما يُرَجى شفاؤه، أن يقضي الأيام التي أفطرها بعد شفاؤه.

وإن كان المرض مما لا يُرَجى شفاؤه، كأن يكون المرض مُزْمِنًا، فيُفطر ويطعم عن كل يوم مسكينًا، ومثله الشيخ الكبير، والمرأة العجوز اللذين لا يقدران على الصوم، فكل هؤلاء يُطعمون مسكينًا عن كل يوم أفطروه من رمضان.

4 - **الحائض والنُّفَساء:** يجب على الحائض والنُّفَساء الفِطْر، ولا يصحُّ صَوْمُها، بل يَحْرُمُ عليها الصَّوْم، فلو صامت أثمت، وكان الصَّوْم باطلًا، ويجب عليها القضاء، فعن مُعَاذَةَ، قَالَتْ: سَأَلْتُ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- فَقُلْتُ: مَا بَالُ الْحَائِضِ تَقْضِي الصَّوْمَ وَلَا تَقْضِي الصَّلَاةَ؟ فَقَالَتْ: (... كَأَنَّ يُصِيبُنَا ذَلِكَ فَنُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّوْمِ وَلَا نُؤْمَرُ بِقَضَاءِ الصَّلَاةِ) (1).

وإذا طَهَّرَتِ الحائض في أثناء النهار (وكانت مُفْطِرَةً)، فلا يَلْزَمُها الإمساك عن الطعام والشراب بقية النهار، فلها أن تأكل وتشرب، أمَّا إذا طَهَّرَت قبل الفجر الصادق -يعني قبل بداية يوم جديد في الصيام- ولو بلحظة: فإنها تنوي الصيام وتصوم، سواء اغتسلت قبل الفجر أم بعده، ويكون صَوْمُها صحيحًا.

أما إذا حاضت قبل غروب الشمس، ولو بلحظة فعليها قضاء ذلك اليوم.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الحيض، باب وجوب قضاء الصوم على الحائض دون الصلاة، رقم (335).

والمُسْتَحَاضَةُ، وهي التي يخرج منها الدم في غير زمن الحيض بسبب مرض في الرحم، صَوْمُهَا صحيح على كل حال، فلا تمتنع عن الصَّوْمِ.

ولو تعاطت المرأة أدوية تمنع الحيض فلم تر الدم، فصَوْمُهَا صحيح، والأوَّلَى أَنْ تتعبد لله بفطرها وصيامها ولا تُكَلِّف نفسها هذا العناء، وربما تسبب هذه الأدوية إضرارًا لها.

مسائل متعلقة بالفطر والقضاء:

1 - لا يجب التتابع في قضاء هذه الأيام، فمن شاء صامها متتابعة، ومن شاء صامها متفرقة.

2 - وجوب قضاء هذه الأيام في أي وقت من السنة قبل أَنْ يأتي رمضان الذي يليه، لكنَّ الأوَّلَى: المسارعة إلى قضائها، لقوله ﷺ: ﴿أَوَّلِيكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾ [المؤمنون: 61].

3 - اختلف العلماء في مقدار الإطعام للمسكين الواحد في الفدية، وسبب ذلك أنه لم يَنْصُ دليل على مقداره، فذهب بعض العلماء أنه مُدٌّ من طعام لكل يوم، وقيل: نصف صاع (مدان) قياسًا على فدية محظورات الإحرام، (والصاع هو ما يعادل 2.5 كيلو جرام تقريبًا)، وَيَجُوزُ أَنْ يجمع كل المساكين على طعام واحد، فالأمر مَوْسَعٌ والحمد لله.

4 - لا يُشْتَرَطُ أَنْ يُعَدَّدَ المساكين بعدد الأيام، فلو أطلع المسكين نفسه كل يوم أجزاءه⁽¹⁾.

أحكام الزكاة:

مَعْنَى الزكاة:

الزكاة في اللغة: النماء والزيادة والطهارة، وسميت بذلك لأنَّ المسلم حين يخرج زكاة ماله، يرجو معها أن يزكو ماله ويزداد، كذلك في تطهير للنفس من الشح، وتطهير للمال إن علق به شيء من الحرام.

وهي في الشرع: التعبد لله تعالى، بإخراج نصيب مُقَدَّر شرعًا، في مالٍ مُعَيَّن، يُصْرَفُ لطائفةٍ أو جهةٍ مخصوصة.

(1) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 497-567. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 2 ص 72-112. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 350-371 والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج 1 ص 558-620.

زكاة المال فرض واجب على مَنْ كانت فيه وفي ماله الشروط التي سنذكرها، وقد ثبتت فرضيّتها بالكتاب والسنة والإجماع.

أما الكتاب، فقوله ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا﴾ [التوبة: 103].

أما السنة، فالأحاديث في ذلك كثيرة، نقتصر منها ما جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «بُنِيَ الْإِسْلَامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»⁽¹⁾.

أما الإجماع، فقد أجمع المسلمون في جميع الأعصار على وجوبها، وأتفق الصحابة على قتال مانعيها.

شروط وجوب الزكاة:

- 1 - أن يكون من تجب عليه الزكاة حرّاً، لأنّ الزكاة لا تجب على العبد إلا في زكاة الفطر.
- 2 - أن يكون مسلماً.
- 3 - أن يصل المال الذي يملكه إلى قيمة النصاب. والنصاب هو: قيمة معينة من المال، بحيث إذا بلغ مال الشخص هذه القيمة أصبحت الزكاة واجبة عليه، وسيأتي تحديد هذه الأنصبة.
- 4 - حوّلان الحول بأن يمرّ عام هجري كامل على هذا المال الذي بلغ قيمة النصاب. ولكن هناك بعض الأنواع تستثنى من شرط مرور العام الكامل عليها، وهي: الزروع والثمار الخارجة من الأرض، وكذلك نتاج المواشي، وكذلك ربح التجارة، وكذلك الرّكاز، وهو ما يُكتشف في الأرض من الدفائن والمعادن.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (367)، ج 1 ص 434-435. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس)، رقم (8). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (16).

الأصناف التي تجب فيها الزكاة:

من أهم الأصناف التي تجب فيها الزكاة:

أ- الذهب والفضة:

تجب الزكاة في الذهب والفضة، وقيمة نصاب الذهب: ما يُقدَّر بـ (85 جرامًا) من الذهب عيار 24 قراطًا.

وأما قيمة نصاب الفضة: ما يُقدَّر بـ (595 جرامًا) من الفضة، فإذا بلغت الفضة وقيمة زكاتها: (ربع العشر) اثنان ونصف بالمائة.

زكاة النقود من العملات المختلفة:

تجب فيها الزكاة إذا بلغت قيمة نصاب الذهب من عيار 24، ومَرَّ عليها عام هجري كامل. وقيمة زكاتها (ربع العشر) اثنان ونصف بالمائة.

ب- الأنعام:

المقصود بالأنعام: زكاة الإبل، والبقر، والغنم فقط، لأنه لم تنص الأحاديث على وجوب زكاة شيء آخر غير ما ذُكر، فلا زكاة في شيء آخر من الحيوانات، كالطيور، والدواجن، والخيول، والحمير، والأرانب، وغير ذلك، مهما بلغت أعدادها، إلا ما أُعِدَّ منها للتجارة فذلك يدخل تحت زكاة ما يُعرف بزكاة عروض التجارة، أي الأشياء المعدة للتجارة.

ويُشترط لزكاة الأنعام شروط:

1. أن تبلغ قيمتها النصاب المقدر لك نوع من الأنعام.
2. أن يمرَّ عليها عام هجري كامل.
3. أن تكون هذه الأنعام سائمة (يعني غير معلوفة (لا تأكل العلف))، فإذا كانت معلوفة: فالراجح الذي ذهب إليه الجمهور أنه لا زكاة فيها.

قيمة نصاب زكاة الأنعام:

فصلت كتب الفقه الأنصبة لكل صنف من أصناف الأنعام ومقدار ما يُخرج من زكاة، ونقتصر في هذا المختصر على أقل النصاب فيها:

- 1 - نصاب الإبل: لا زكاة في الإبل حتى تبلغ خمسًا.
- 2 - نصاب زكاة البقر: لا زكاة في البقر حتى تبلغ ثلاثين.
- 3 - نصاب زكاة الغنم: لا زكاة في الغنم حتى تبلغ أربعين.

الأصناف التي تجب فيها زكاة الزروع:

الأصناف التي وردت النصوص في أنها تجب الزكاة فيها أربعة أصناف، وهي:

1 - الحنطة (وهي القمح)

2 - والشعير

3 - والتمر

4 - والزبيب.

واختلف الفقهاء فيما عدا هذه الأربعة على أقوال كثيرة.

قيمة نصاب زكاة الزروع والثمار:

نصاب الزروع والثمار: خمسة أوسق، وهو ما يُعادل: (647) كيلو جرامًا تقريبًا، ولا زكاة فيما هو أقل.

المقدار الواجب إخراجه في زكاة الزروع:

يجب إخراج العُشر (يعني 10% من إجمالي هذه الزروع أو الثمار التي عنده) بشرط أن تكون قد سقيت بغير تكلفة، كالنبات الذي يشرب من الأمطار ومياه الأنهار، وكذلك النبات الذي يشرب بعروقه الطويلة من أي مكان بجانبه، فيستغنى بذلك عن السقية (مثل النخل).

وأما إذا كانت هذه الزروع أو الثمار قد سقيت بتكلفة (كأن تُسقى بآلات الري وغيرها)، فإنه يجب إخراج نصف العُشر (يعني 5% فقط من قيمة هذه الزروع أو الثمار التي عنده).

مصارف الزكاة:

مصارف الزكاة أي في أي مجال ولمن تدفع الزكاة، وقد جاء تحديد الفئات والمجالات التي تدفع فيها الزكاة في قوله ﷺ: ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمَوْلَى قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْعَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: 60]، وهم ثمانية أصناف:

1 - الفقراء: وهم المعوزون عوزًا شديدًا.

- 2 - **المساكين:** وهم المعوزون الذين هم أحسن حالًا من الفقراء، وهم في زماننا من يقعون على ما يعرف بخط الفقر.
- 3 - **العاملون عليها:** وهم السُّعَاة (الذين يُرسلهم الحاكم لجمع الزكاة مِمَّنْ وَجِبَتْ عليهم)، وكذلك الحُفَاط (الذين يقومون على حفظ الزكاة)، وكذلك الذين يقومون بتقسيمها وتوزيعها على مُستحقيها، فهؤلاء يُعْطَوْنَ من الزكاة، ولو كانوا أغنياء، لأنَّ هذا حقهم الذي فرضه الشرع لهم.
- 4 - **المؤَلَّفَة قلوبُهُم:** وهم الذين يُرَجَى إسلامهم، أو قوة إيمانهم، أو كَفُّ شَرِّهِم عن المسلمين.
- 5 - **في الرقاب:** وَهُم العبيد والإماء، والمقصود تحريرهم من العبودية.
- 6 - **الغارمون:** جمع غارم، والغارم هو الذي لَحِقَهُ الْغَرَمُ، أي الدَّيْنُ، وَيُسَمَّى بِالْمَدِينِ.
- 7 - **في سبيل الله:** والمقصود بهذا الْمَصْرَفُ الْإِنْفَاقُ مِنْ أَجْلِ الْجِهَادِ، ونشر الإسلام، ورأى فريق من أهل العلم جواز الإنفاق في جميع مصالح الخير والبرِّ.
- 8 - **ابن السبيل:** وهو المسافر الذي انقطعت عنه نفقته، بأنْ ضاعت، أو نَفِدَتْ، أو أصابها شيء، فاحتاجَ إلى النفقة.

زكاة الفطر:

تعريف زكاة الفطر:

زكاة الفطر: هي صدقة تجب على المسلم بعد أن ينهي صيامه لرمضان، وأضيفت الزكاة إلى الفطر، لأنَّه سبب وجوبها.

حكمة مشروعيها:

جاء بيان الحكمة من زكاة الفطر في حديث ابن عَبَّاسٍ -رضي الله عنهما- الذي قال فيه: (فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ طَهْرَةً لِلصَّائِمِ مِنَ اللَّغْوِ وَالرَّفَثِ، وَطُعْمَةً لِلْمَسَاكِينِ، فَمَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ، فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ، فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ) (1).

(1) رواه أبو داود، السنن، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (1371). وابن ماجه، السنن، أبواب الزكاة، باب صدقة الفطر، رقم (1827). قوله: (طهرة): أي تطهيرًا لنفس من صام رمضان، وقوله (والرفث) هنا هو الفحش من كلام، وقوله (وطعمة): بضم الطاء وهو الطعام الذي يؤكل. قوله: (من أداها قبل الصلاة): أي قبل صلاة العيد، وقوله (فهي زكاة مقبولة): المراد بالزكاة صدقة الفطر، قوله (صدقة من الصدقات): يعني التي يتصدق بها في سائر الأوقات. (العظيم آبادي، عون المعبود، ج5 ص3).

زكاة الفطر فرض، لحديث ابن عباس السابق: (فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ) الحديث.

وَلِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهَا فَرَضٌ.

وقت وجوبها:

وتجب عند غروب الشمس من آخر يوم من رمضان، فمن تزوج أو ولد له ولد أو أسلم قبل غروب الشمس، فعليه صدقة الفطر. وإن كان ذلك بعد الغروب، لم تلزمه. ومن مات بعد غروب الشمس ليلة الفطر، فعليه صدقة الفطر.

على من تجب زكاة الفطر:

1 - تجب على المسلمين، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: (فَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ عَلَى الْعَبْدِ وَالْحُرِّ وَالذَّكَرِ وَالْأُنْثَى وَالصَّغِيرِ وَالْكَبِيرِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ)⁽¹⁾.

2 - تجب على المستطيع، فالمُعسر لا تجب عليه بلا خلاف، فَمَنْ فَضَلَ عَنْ قُوَّتِهِ وَقُوَّتِ مَنْ تَلَزَّمَهُ نَفَقَتُهُ لَيْلَةَ الْعِيدِ وَيَوْمَهُ صَاعٌ، فَهُوَ مُوسِرٌ، وَمَنْ لَمْ يَفْضَلْ عِنْدَهُ شَيْءٌ فِي لَيْلَةِ الْعِيدِ وَيَوْمِهِ فَهُوَ مُعْسِرٌ وَلَا تَلَزَّمُهُ صَدَقَةُ الْفِطْرِ.

3 - يخرج المسلم صدقة الفطر عن نفسه وعن من ينفق عليهم، من الزوجات والأقارب إذا لم يستطيعوا إخراجها عن أنفسهم، فإن استطاعوا فالأولى أن يخرجوها هم، لأنهم المخاطبون بها أصلاً.

مقدارها:

مقدار زكاة الفطر صاع من طعام بصاع النبي ﷺ لحديث أبي سعيد الخدري ؓ قال: (كُنَّا نُعْطِيهَا فِي زَمَانِ النَّبِيِّ ﷺ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ)⁽²⁾.

والوزن يختلف باختلاف ما يملأ به الصاع، فعند إخراج الوزن لا بد من التأكد أنه يعادل ملء الصاع من النوع المخرج منه، وهو مثل 3 كيلو من الرز تقريباً.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب صدقة الفطر، باب: صاع من زبيب، رقم (1437). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم (984).

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب صدقة الفطر، باب: فرض صدقة الفطر، رقم (1432).

تخرج زكاة الفطر من أي طعام يقتاته الناس، كالقمح والذرة والأرز واللوبياء والعدس والحمص والبقول والمكرونة واللحم والتمر ونحو ذلك، فقد فرضها الرسول ﷺ صاعاً من طعام، وكان الصحابة رضي الله عنهم يخرجونها من الطعام الذي يقتاتونه. فعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: (كُنَّا نُخْرِجُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَوْمَ الْفِطْرِ صَاعًا مِنْ طَعَامٍ). وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ رضي الله عنه: (وَكَانَ طَعَامَنَا الشَّعِيرُ وَالزَّبِيبُ وَالْأَقِطُ⁽¹⁾ وَالتَّمْرُ⁽²⁾). وفي رواية قال: (كُنَّا نُخْرِجُ إِذْ كَانَ فِيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ زَكَاةَ الْفِطْرِ عَنْ كُلِّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ، حُرٌّ أَوْ مَمْلُوكٌ، صَاعًا مِنْ طَعَامٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ أَقِطٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ شَعِيرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ تَمْرٍ، أَوْ صَاعًا مِنْ زَبِيبٍ)⁽³⁾.

وأما إخراجها مالاً فلا يجوز عند جمهور العلماء، وأجازه الحنفية، وهو الأيسر على سكان المدن في أيامنا والأنفع للفقراء.

وقت إخراج زكاة الفطر؛

وقت الدفع لها، يقسم إلى وقت استحباب ووقت جواز.

فأما وقت الاستحباب فهو صباح يوم العيد، كما في الحديث أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَمَرَ بِهَا أَنْ تُؤَدَّى قَبْلَ خُرُوجِ النَّاسِ إِلَى الصَّلَاةِ⁽⁴⁾، ولهذا يسن تأخير صلاة العيد يوم الفطر ليتسع الوقت لمن عليه إخراجها، وليفطر قبل الخروج.

أما وقت الجواز فهو من أول رمضان، لأنَّ سبب الصدقة الصوم والفطر منه، فإذا وجد أحد السببين جاز تعجيلها.

ويكره تأخيرها بعد صلاة العيد.

(1) اللبن المجفف، وهو ما نسميه في بلاد الشام باللبن الجميد.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب صدقة الفطر، باب: الصدقة قبل العيد، رقم (1439).

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب صدقة الفطر، باب: صدقة الفطر صاع من طعام، رقم (1435). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر على المسلمين من التمر والشعير، رقم (985).

(4) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب صدقة الفطر، باب: فرض صدقة الفطر، رقم (1432). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزكاة، باب الأمر بإخراج زكاة الفطر قبل الصلاة، رقم (986).

وقيل: يحرم وتكون قضاء، واستدل لذلك بحديث ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: (فرض رسول الله ﷺ زكاة الفطر طهرة للصائم من اللغو والرفث، وطعمة للمساكين، مَنْ أَدَّاهَا قَبْلَ الصَّلَاةِ فَهِيَ زَكَاةٌ مَقْبُولَةٌ، وَمَنْ أَدَّاهَا بَعْدَ الصَّلَاةِ فَهِيَ صَدَقَةٌ مِنَ الصَّدَقَاتِ)⁽¹⁾. وتأخيرها يؤدي إلى أن يفوت المعنى المقصود منها، وهو إغناء الفقراء عن الطلب يوم السرور، فلو أخرها بلا عذر عصى وقضى.

لِمَنْ تُعْطَى زَكَاةُ الْفِطْرِ؟

تصرف زكاة الفطر إلى الأصناف الثمانية التي تصرف فيها زكاة المال، وهذا هو قول الجمهور، وخصص المالكية صرفها بالفقراء والمساكين⁽²⁾.

فقه العمرة والحج:

تعريف الحج والعمرة:

تعريف الحج:

الحج في اللغة: قصد الشيء المُعْظَم.

وفي الشرع: هو قصدُ المشاعر المقدَّسة، لأداء المناسك في مكان ووقت مخصوص تعبدًا لله ﷻ.

تعريف العمرة:

العمرة في اللغة: هي الزيارة والقصد.

وفي الشرع: هي التعبد لله تعالى بالطواف بالبيت، والسَّعي بين الصفا والمروة، والتحلل منها بالحل أو التقصير.

(1) رواه أبو داود، السنن، كتاب الزكاة، باب زكاة الفطر، رقم (1371).

(2) انظر: البنا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 578-649. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 2 ص 5-71. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 316-349. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج 1 ص 531-584.

حُكْم الْحَجِّ:

الحجُّ ركنٌ من أركان الإسلام، وفرضٌ من فروضه، دلَّ على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].

وما جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بُنِيَ الإسلامُ عَلَى خَمْسٍ: شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ، وَإِقَامِ الصَّلَاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَالْحَجِّ، وَصَوْمِ رَمَضَانَ»⁽¹⁾.

وعلى ذلك أجمع العلماء.

حُكْم الْعُمْرَةِ:

الراجح أَنَّ الْعُمْرَةَ واجبةٌ، وذلك لقوله تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: 196]، فاقترانها بالحجِّ في الآية، والحجُّ واجبٌ، دلَّ على وجوبها.

واستدلَّ مِنَ السُّنَّةِ على وجوبها ما جاء عن أبي رَزِينٍ ؓ أَنَّهُ قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّ أَبِي شَيْخٌ كَبِيرٌ لَا يَسْتَطِيعُ الْحَجَّ وَلَا الْعُمْرَةَ وَلَا الظُّعْنَ، قَالَ ﷺ: «احْجُجْ عَنْ أَبِيكَ وَاعْتَمِرْ»⁽²⁾.

شروط وجوب الحج والعمرة:

الحجُّ واجبٌ على المسلم، العاقل، البالغ، الحرُّ، المستطيع، أي أن يكون قادرًا بماله وبدنه، لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ [آل عمران: 97].
واعلم أَنَّ المقصود بالاستطاعة الزاد، والراحلة، مع تمام القدرة البدنيَّة، بحيث يكون المرء قادرًا في ماله وبدنه، مع عدم وجود مانع يمنعه من الذهاب كالحبس، أو الخوف من سلطان ظالم.

ويُشْتَرَطُ لوجوب الحجِّ والعمرة على المرأة الشروط السالِف ذكرها، ويزاد في حقها شرط آخر، وهو وجود مَحَرَّم لها ليسافر معها، فإن لم تجد مَحَرَّمًا فهي عاجزة عجزًا شرعيًّا.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (367)، ج 1 ص 434-435. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإيمان وقول النبي ﷺ: (بني الإسلام على خمس)، رقم (8). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان أركان الإسلام ودعائمه العظام، رقم (16).

(2) رواه أبو داود، السنن، كتاب المناسك، باب الرجل يحج عن غيره، رقم (1810).

والمَحْرَم: هو الزوج، أو مَنْ تَحَرَّمَ عليه حرمة أَيْدِيَّة كالأب، والابن، والأخ، وأبو زوجها (حَمَاهَا)، وابن زوجها، وزوج بنتها.

وَيُشْتَرَطُ فِي الْمَحْرَم أَنْ يَكُونَ مُسْلِمًا، بَالِغًا، عَاقِلًا.

أنواع الْحَجِّ:

اعلم أن الْحَجَّ ثلاثة أنواع:

(قارن، ومُتَمَتِّع، ومُفْرِد)، وهي على التفصيل الآتي:

أ. الْحَجُّ قَارِنًا:

وذلك بَأَنْ يُلَبِّيَ وينوي الْحَاجُّ عِنْدَ المِيقَاتِ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مَعًا، بَأَنْ يَدْخُلَهُمَا مَعًا، فيقول: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ بِالْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ)، فَإِذَا وَصَلَ إِلَى مَكَّة طَافَ وَسَعَى، وَظَلَّ عَلَى إِحْرَامِهِ حَتَّى يَنْتَهِيَ مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةِ مَعًا.

ب. الْحَجُّ مُفْرَدًا:

وذلك بَأَنْ يُلَبِّيَ وينوي عِنْدَ المِيقَاتِ الْحَجَّ فَقَطْ، وَيَبْقَى عَلَى إِحْرَامِهِ حَتَّى تَنْتَهِيَ أَعْمَالُ الْحَجِّ.

ج. الْحَجُّ مُتَمَتِّعًا:

وهو أَنْ يُلَبِّيَ وينوي الْعُمْرَةَ فِي أَشْهُرِ الْحَجِّ، أَيْ فِي: شَوَالٍ أَوْ ذِي الْقَعْدَةِ أَوْ ذِي الْحِجَّةِ، فيقول: (لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ بِعُمْرَةٍ)، عَلَى أَنْ يَحُجَّ فِي الْعَامِ نَفْسَهُ.

وَأَفْضَلُ هَذِهِ الْأَنْوَاعِ هُوَ حَجُّ التَّمَتُّعِ عَلَى الرَّاجِحِ مِنْ أَقْوَالِ الْعُلَمَاءِ.

أركان الحج وواجباته وسننه:

مِنْ أَعْمَالِ الْحَجِّ مَا هُوَ رُكْنٌ يَجِبُ الْإِتْيَانُ بِهِ، وَلَا يَصِحُّ الْحَجُّ بِتَرْكِهِ، وَلَا يَقُومُ غَيْرُهَا مَقَامَهَا، وَمِنْهَا مَا هُوَ وَاجِبٌ يَصِحُّ بِتَرْكِ شَيْءٍ مِنْهَا وَيُجْبَرُ الْمَتْرُوكُ بِأَنْ يَذْبَحَ فِدْيَةً، وَمِنْهَا مَا هُوَ سُنَنٌ وَمُسْتَحَبَاتٌ يَكْمُلُ بِهَا أَجْرُ الْحَاجِّ وَثَوَابُهُ عِنْدَ اللَّهِ ﷻ.

ونتناول هذه الأعمال بشكل موجز يناسب المقام:

أ- أركان الحج:

للحج أركان أربعة عند جمهور أهل العلم، وهي:

الأول- الإحرام:

وهو نية الدخول في النسك، وله أمكنة محددة، وهي **المواقيت المكانية**، وينبغي أن يكون في أوقات محددة، وهي **أشهر الحج**، وتسمى **المواقيت الزمانية**.

المواقيت:

مِيقَاتُ زَمَانِي: وهو الوقت الذي لا يَصِحُّ شيء من أعمال الْحَجِّ إلا فيه، وهذه المواقيت الزمانية هي المذكورة في قوله تعالى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ [البقرة: 197]، وهي: (شوال، وذو القعدة، وعشر أيام من ذي الحِجَّة)، (أو ذو الحِجَّة كله)، وهو الراجح. وأما «العُمْرة» فهي جائزة في أيِّ وقتٍ من أوقات السنة.

المواقيت المكانية: وهي الأماكن التي يُحْرَمُ منها مَنْ يريد الْحَجَّ والعُمْرة، ولا يَجُوزُ له أَنْ يتجاوزها دون أَنْ يُحْرَمَ، والجدول الآتي يبين المواقيت المكانية التي حددها رسول الله ﷺ، **بأسمائها الأصلية، وأسمائها الحالية:**

- مِيقَاتُ أَهْلِ الْمَدِينَةِ «ذُو الْحُلَيْفَةِ» واسمه الحالي أَبْيَار عَلِيٍّ وَيَقَعُ عَلَى بَعْدِ 450 كَم شَمَالِ مَكَّة.
- مِيقَاتُ أَهْلِ الشَّامِ «الْجُحْفَةِ» واسمه الحالي رَابِعٌ وَيَقَعُ عَلَى بَعْدِ 200 كَم مِنَ الشَّامِ الْغَرْبِيِّ لِمَكَّة.
- مِيقَاتُ أَهْلِ نَجْدٍ «قَرْنِ الْمَنَازِلِ» واسمه الحالي السَّيْلُ الْكَبِيرُ وَيَقَعُ عَلَى بَعْدِ 94 كَم شَرْقِي مَكَّة.
- مِيقَاتُ أَهْلِ الْيَمَنِ «يَلْمَلَمٌ» واسمه الحالي السَّعْدِيَّةُ وَيَقَعُ عَلَى بَعْدِ 54 كَم جَنُوبِ مَكَّة.
- أَهْلُ الْعِرَاقِ «ذَاتُ عَرَقٍ» واسمه الحالي الضَّرِيبَةُ وَيَقَعُ عَلَى بَعْدِ 94 كَم مِنَ الشَّامِ الشَّرْقِيِّ لِمَكَّة.
- الَّذِينَ يَسْكُنُونَ بَيْنَ هَذِهِ الْمَوَاقِيتِ وَبَيْنَ مَكَّةَ فَمِيقَاتُهُمْ يَكُونُ مِنْ سَكَنِهِمْ، وَكَذَلِكَ أَهْلُ مَكَّةَ مِيقَاتُهُمْ يَكُونُ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ الَّتِي يَسْكُنُونَ فِيهَا إِذَا أَرَادُوا الْحَجَّ، وَأَمَّا

إذا أرادوا العُمْرَةَ فذهب الجمهور إلى أنهم يخرجون خارج الحرم، ويُحْرَمُونَ من هناك للعمرة، كمنطقة التنعيم.

محظورات الإحرام:

وإذا أحرم الحاج أو المعتمر فهناك أشياء ممنوع عليه فعلها في أثناء فترة الإحرام حتى يتحلل، وهي:

- 1 - حلق الرأس أو قص شيء من الشعر.
- 2 - تقليم الأظفار.
- 3 - وَضْع الطَّيِّب، سواء على بدنه أو على ثوبه.
- 4 - لبس الرجل الملابس التي كان يلبسها قبل الإحرام مما هو مصنوع تفصيلاً على قدر أعضاء الجسد، كالقميص، والبنطلون، والملابس الداخلية، وكذلك ما يستر كامل القدم مع الكعبين من الأحذية والجوارب، أما المرأة فتلبس ملابسها، لكن لا يجوز لها أن تلبس البرقع أو النقاب والقفازين. ولا يشترط في لباس الإحرام للرجل والمرأة لون معين.
- 5 - تغطية الرأس بلبس شيء مُلاصق للرأس، كالطاقية والكوفية وغير ذلك.
- 6 - الخطبة.
- 7 - جماع زوجته أو مباشرتها، واعلم أنَّ الجماع هو أشد محظورات الإحرام.
- 8 - صيد الحيوان البري، وأما الحيوان البحري فيجوز للمُحْرِم صيده.

الركن الثاني - الوقوف بعرفة:

لقول النبي ﷺ: «الْحَجُّ عَرَفَةٌ، مَنْ جَاءَ لَيْلَةَ جَمْعٍ⁽¹⁾ قَبْلَ صَلَاةِ الصُّبْحِ، فَقَدْ أَدْرَكَ حَجَّهُ»⁽²⁾.

ويبتدئ وقته من زوال شمس يوم التاسع من ذي الحجة ويمتد إلى طلوع فجر يوم النحر، وقيل: يبتدئ من طلوع فجر اليوم التاسع.

(1) المقصود بجمع: المزدلفة.

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الحج عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء فيمن أدرك الإمام بجمع فقد أدرك الحج، رقم (889). والنسائي، السنن، كتاب مناسك الحج، باب فيمن لم يدرك صلاة الصبح مع الإمام بالمزدلفة، رقم (3044).

فمن حصل له في هذا الوقت وقوف بعرفة ولو لحظة واحدة فقد أدرك الوقوف، ولا بد أن يكون هذا الوقف ممتداً إلى ليلة يوم النحر أو في جزء منها.
وفي أي مكان وقف من عرفة أجزأه، لقول النبي ﷺ: «وَقَفْتُ هَهُنَا وَعَرَفْتُ كُلَّهَا مَوْقِفٌ»⁽¹⁾.

الركن الثالث - طواف الإفاضة:

طواف الإفاضة يبدأ بعد طلوع شمس يوم العيد، ويكون سبعة أشواط، لقوله ﷺ: «ثُمَّ لِيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ» [الحج: 29].

الركن الرابع - السعي بين الصفا والمروة:

السعي بين الصفا والمروة واجب على جميع الحجاج والمعتمرين، إذ هو ركن من أركان الحج والعمرة، لقوله ﷺ: «اسْعَوْا، فَإِنَّ اللَّهَ كَتَبَ عَلَيْكُمُ السَّعْيَ»⁽²⁾.

ووقته بالنسبة إلى المتمتع بعد الوقوف بعرفة ومزدلفة وطواف الإفاضة، وهو غير السعي الذي سعاه للعمرة عند وصوله إلى مكة، وأما القارن والمفرد فلهما السعي بعد طواف القدوم عند وصولهما إلى مكة.

ويكون السَّعْيُ بين الصفا والمروة سبعة أشواط، فيبدأ الحاج بالصفاء، ويختتم بالمروة، فيكون سَعْيُهُ من الصفا إلى المروة (شوطاً)، ثم من المروة إلى الصفا (شوطاً آخر)، وهكذا حتى يُكْمِل سبعة أشواط آخرها بالمروة.

واجبات الحج:

وأما واجبات الحج التي يصح بترك شيء منها، ويُجَبَّر المتروك بدم، فهي:

- 1 - أن يكون الإحرام من الميقات المعتبر.
- 2 - الوقوف بعرفة إلى الغروب لمن وقف نهاراً.
- 3 - المبيت بمزدلفة ليلة النحر واجب عند أكثر أهل العلم. ويجوز الدفع إلى منى في آخر الليل للضعفة من النساء والصبيان ممن يشق عليهم زحام الناس، وذلك ليرموا الجمرة قبل وصول الناس.
- 4 - المبيت بمنى لياالي أيام التشريق.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الحج، باب ما جاء أن عرفة كلها موقف، رقم (1218).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (27367)، ج 45 ص 363.

5 - رمي الجمار، جمرة العقبة يوم العيد، والجمرات الثلاث أيام التشريق.

6 - الحلق أو التقصير.

7 - طواف الوداع.

سنن الحج:

وما عدا الأركان والواجبات من أعمال الحج فسنن ومستحبات، يستحب للحاج أن يفعلها، وألا يفرط فيها اقتداء بالنبي ﷺ، وإن كان لا يلزمه شيء بتركها.

أحكام العمرة:

أركان العمرة:

وأما العمرة، فلها أركان ثلاثة: الإحرام، والطواف، والسعي.

واجباتها:

الإحرام من الميقات، والحلق أو التقصير، وطواف الوداع عند من قال بوجوبه. وما عدا ذلك سنن.

ما حُكِمَ مَنْ ترك واجباً أو ركناً في الحج أو العمرة؟

- أما مَنْ ترك نية الإحرام، فإنَّ إحرامه لم ينعقد أصلاً، فلا يَصِحُّ حجه.
- وأما من ترك ركناً من الأركان، كالطواف أو السعي فإنَّه يلزمه الإتيان به، إلا إذا فات وقته كالوقوف بعرفة، فقد فاتته الحج.
- وأما من ترك واجباً فعليه دم، (والمقصود بالدم: أن يذبح سُبُع بدنة أو سُبُع بقرة، يعني يشارك ستَّة غيره فيها، أو واحدة من الضأن أو الماعز).
- فإذا لم يجد الهدى فلا شيء عليه، وعليه الاستغفار والتوبة.
- وأما مَنْ ترك سنة من السنن فإنَّه فاتته الفضل ولا شيء عليه⁽¹⁾.

(1) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج 1 ص 78-86. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج 1 ص 117-130. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج 1 ص 376-410. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج 2 ص 8-81.

من أحكام اللباس:

من شمول الإسلام أنه حدّد أحكامًا شرعية للباس، وهذه الأحكام تحكمها القاعدة الشرعية القائلة: «الأصل في الأشياء الإباحة» ما لم يرد ما يدل على غيرها من الأحكام، فالأصل في أحكام اللباس أنها مشروعة وحلال، حتى يأتي ما يدل على خروج الحكم من الإباحة إلى غيره من الأحكام الشرعية، أي: تحويلها من الإباحة إلى الوجوب أو الاستحباب، أو من الإباحة إلى التحريم أو الكراهة.

وتؤخذ هذه الأحكام الاستثنائية من القاعدة العامة إمّا من عموم ضوابط الشريعة، وإمّا من نصوص خاصة دلت على إخراج الحكم عن أصله.

وتختلف هذه الأحكام من الذكر إلى الأنثى.

شروط عامة في لباس المسلم والمسلمة:

يمكن لنا أن نجمل هذه الشروط بالنقاط التالية:

1 - الطهارة والنظافة: فتجب طهارة الثوب، ودليل ذلك قول الله ﷻ: ﴿وَيَبِئْكَ

فَطَهِّرْ﴾ [المدثر: 4]، والآية عامّة في الصلاة وفي كل وقت وحال، وجاء في الحديث عن جابر رضي الله عنه قال: أتانا رسول الله ﷺ فرأى رجلًا شعيرًا قد تفرّق شعره، فقال: «أما كان هذا يجد ما يسكن به شعره؟» ورأى رجلًا آخر عليه ثيابٌ وسخة، فقال ﷺ: «أما كان هذا يجد ما يغسل به ثوبه؟»⁽¹⁾.

2 - ستر العورة: ودليل وجوب ستر العورة قول الله ﷻ: ﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا

عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ﴾ [الأعراف: 26]، وقوله ﷻ للمؤمنين: ﴿وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ﴾ [النور: 30].

وجاء في الحديث عن معاوية بن حيدة رضي الله عنه قال رجل: يا نبي الله، عوراتنا، ما نأتي منها وما نذر؟ قال: «احْفَظْ عَوْرَتَكَ إِلَّا مِنْ زَوْجَتِكَ أَوْ مَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ»، قلت: فإذا كان القوم بعضهم في بعض؟ قال: «إِنْ اسْتَطَعْتَ أَلَّا يَرَاهَا أَحَدٌ فَلَا

(1) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب اللباس، باب في غسل الثوب وفي الخلقان، رقم (4062).

تُرِيْنَهَا، قلت: يا رسول الله، فإذا كان أحدنا خاليًا؟ قال: «فَاللهُ أَحَقُّ أَنْ يُسْتَحْيَا مِنْهُ مِنَ النَّاسِ»⁽¹⁾.

وعورة الرجل أمام النَّاسِ وفي الصلاة ما بين سُرْتِه وركبته، كما حددها جمهور الفقهاء، فلا يجوز للرجل كشف ما بين سُرْتِه وركبته في الصلاة ولا يجوز له كشفها خارج الصلاة لا على الرجال ولا على النساء، على الراجح من أقوال العلماء⁽²⁾.

أما المرأة فعورتها أمام الرجال الأجانب، وفي الصلاة جميع جسدها إلا الوجه والكفين.

ويحسُنُ التنبيه إلى أَنَّ سترَ العورة ليس عكسه الكشف والتعرِّي المطلق فقط، فمن الإخلال بالستر أن تكونَ الثياب شفافةً، أو تكون مما يلتصق بالجسم فيصِفُ العورة، وهذا أمرٌ يكثرُ وجوده اليوم.

3 - **عدم التشبُّه بالجنس الآخر:** وذلك فيما هو من خصائصه التي اعتادها المجتمع، وكلُّ بحسَب مجتمعه مكانًا وزمانًا، أو إن كان مما نصَّت الشريعة عليه.

ودليل تحريم تشبه الرجال بالنساء والنساء بالرجال حديث ابن عباس -رضي الله عنهما- أنه قال: (لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الْمُتَشَبِّهِينَ مِنَ الرِّجَالِ بِالنِّسَاءِ، وَالْمُتَشَبِّهَاتِ مِنَ النِّسَاءِ بِالرِّجَالِ)⁽³⁾. وما جاء عن أبي هريرة ؓ: (أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ لَعَنَ الرَّجُلَ يَلْبَسُ لُبْسَةَ الْمَرْأَةِ، وَالْمَرْأَةَ تَلْبَسُ لُبْسَةَ الرَّجُلِ)⁽⁴⁾.

4 - **عدم التشبُّه بأهل الكفر والفسق:** ودليل ذلك قوله ﷺ في الحديث المشهور: «من تشبَّه بقومٍ فهو منهم»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (20034)، ج 33 ص 235. والترمذي، الجامع، أبواب الاستئذان والآداب عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في حفظ العورة، رقم (2974)، وقال: هذا حديثٌ حسنٌ. وابن ماجه، السنن، أبواب النكاح، باب التستر عند الجماع، رقم (1920). وأبو داود، السنن، كتاب الحمام، باب ما جاء في التعري، رقم (4017). وهو حديثٌ حسنٌ.

(2) انظر: وهبة الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، (دمشق: دار الفكر، ط 4، 1997م)، ج 1 ص 743-756.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (3151)، ج 5 ص 243. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب اللباس، باب: المتشبهين بالنساء والمتشبهات بالرجال، رقم (5546).

(4) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8309)، ج 14 ص 61. وأبو داود، السنن، أول كتاب اللباس، باب في لباس النساء، رقم (4062).

(5) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (5115)، ج 9 ص 126. وأبو داود، السنن، أول كتاب اللباس، باب في لبس الشُّهْرَةِ، رقم (4031).

والتشبه: هو أن يأتي الإنسان بما هو من خصائص المتشبه بهم، بحيث لا يشاركهم فيه أحد، كلباس لا يلبسه إلا الكفار، أو علامة من علامات الفساق، فهذا هو المنهي عنه، أما إن كان اللباس شائعاً بين الكفار والمسلمين فلا يُعدُّ تشبهاً، والمرجع فيه إلى الأعراف والعادات والبيئة.

5 - حرمة لبس الحرير والذهب على الرجال، لحديث علي ؓ أن رسول الله ﷺ أخذ حريراً فجعله في يمينه وأخذ ذهباً وجعله في شماله، ثم قال: «إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي»⁽¹⁾.

أما النساء فيجوز لهنَّ ذلك، لرواية أخرى للحديث: «إِنَّ هَذَيْنِ حَرَامٌ عَلَى ذُكُورِ أُمَّتِي، حِلٌّ لِأَنَائِهِمْ»⁽²⁾.

شروط لباس المرأة المسلمة:

هذا ويشترط في لباس المرأة المسلمة شروط أخرى غير ما سبق في الشروط العامة، وهي:

1 - أن يكون اللباس مستوعباً لجميع بدنها إلا الوجه والكفين، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِّأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَاءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذَلِكَ أَدْنَى أَنْ يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: 59]، والجلاب هو الرداء الذي يستر البدن من فوق إلى أسفل عدا الوجه والكفين.

ويؤكد ذلك ما جاء في حديث السيدة عائشة -رضي الله عنها- أَنَّ أَسْمَاءَ بِنْتَ أَبِي بَكْرٍ -رضي الله عنهما- دَخَلَتْ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَلَيْهَا ثِيَابٌ رِقَاقٌ، فَأَعْرَضَ عَنْهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَقَالَ: «يَا أَسْمَاءُ، إِنَّ الْمَرْأَةَ إِذَا بَلَغَتِ الْمَحِيضَ لَمْ تَصْلُحْ أَنْ يَرَى مِنْهَا إِلَّا هَذَا وَهَذَا»، وَأَشَارَ إِلَى وَجْهِهِ وَكَفَّيْهِ⁽³⁾.

2 - ألا يكون زينة في نفسه: بمعنى ألا يكون مزيناً بحيث يلفت إليه أنظار الرجال، لقوله تعالى: ﴿وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا﴾ [النور: 31].

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (935)، ج 2 ص 250، وقال محققوه: صحيح لشواهده. وأبو داود، السنن، أول كتاب اللباس، باب في الحرير للنساء، رقم (4057).

(2) أخرجه ابن ماجه، السنن، كتاب اللباس، باب لبس الحرير والذهب للنساء، رقم (3595)، وقال محققوه: صحيح لغيره، وهذا إسناد حسن (ط: الرسالة).

(3) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب اللباس، باب في ما تبدي المرأة من زينتها، رقم (4104)، قال محققاه: الرسالة: حسن لغيره، وأقول: وهذا أحسن أحوال الحديث، ولا حجة لمن صححه.

3 - أن يكون صفيقًا لا يشف: فالمقصود من اللباس الستر، والستر لا يتحقق بالشفاف، بل الشفاف يزيد المرأة زينة وفتنة، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «صِنْفَانِ مِنْ أُمَّتِي مِنَ أَهْلِ النَّارِ، لَمْ أَرَهُمْ بَعْدُ، نِسَاءً كَاسِيَاتٍ عَارِيَّاتٍ، مَائِلَاتٍ مُمِيلَاتٍ، عَلَى رُؤُوسِهِنَّ أُمْتَالُ أَسْنِمَةِ الْإِبِلِ، لَا يَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ وَلَا يَجِدَنَّ رِيحَهَا، وَرِجَالٌ مَعَهُمْ أَسْيَاطُ كَأَذْنَابِ الْبَقَرِ، يَضْرِبُونَ بِهَا النَّاسَ»⁽¹⁾. قال ابن عبد البر -رحمه الله-: «قوله ﷺ: «كاسيات عاريات» فإنه أراد اللواتي يلبسن من الثياب الشيء الخفيف، الذي يصف ولا يستر، فهن كاسيات بالاسم، عاريات في الحقيقة، مائلات عن الحق، مُمِيلَاتٌ لِأَزْوَاجِهِنَّ عَنْهُ»⁽²⁾.

4 - أن يكون فضفاضًا غير ضيق: فتغطية بدن المرأة عن أنظار الأجانب هدفه منع الفتنة والفساد، ولا شك أن اللباس الضيق لا يحقق هذا الغرض، لأنه يصف بدن المرأة ويبرز حجمه أو حجم أعضائه، فلا يكون في الحقيقة ساترًا للبدن ولا حاجبًا له عن أنظار الأجانب، ولا مانعًا من الفتنة وتحريك الشهوة ووقوع الفساد. جاء عن أسامة بن زيد -رضي الله عنهما- قَالَ: كَسَانِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ قُبْطِيَّةً كَثِيفَةً كَانَتْ مِمَّا أَهْدَاهَا دِحْيَةُ الْكَلْبِيِّ رضي الله عنه، فَكَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا لَكَ لَمْ تَلْبَسِ الْقُبْطِيَّةَ»⁽³⁾. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، كَسَوْتُهَا امْرَأَتِي. فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مُرَهَا فَلْتَجْعَلَ تَحْتَهَا غِلَآةً»⁽⁴⁾ إِنِّي أَخَافُ أَنْ تَصِفَ حَجْمَ عِظَامِهَا»⁽⁵⁾.

5 - ألا يكون مبخرًا أو مطيبًا: لأن المرأة لا يجوز لها أن تخرج متطيبية لورود الخبر بالنهي عن ذلك، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه أَنَّهُ لَقِيَنَّهُ امْرَأَةٌ وَجَدَ مِنْهَا رِيحَ الطِّيبِ يَنْفُحُ وَلَذِيْلَهَا إِعْصَارٌ فَقَالَ ﷺ: يَا أُمَّةَ الْجَبَّارِ جِئْتِ مِنَ الْمَسْجِدِ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: وَلَهُ تَطْيِيبَتٍ؟ قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: إِنِّي سَمِعْتُ جَبِّي أَبَا الْقَاسِمِ رضي الله عنه يَقُولُ: «لَا تُقْبَلُ صَلَاةُ

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9680)، ج 5 ص 436. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب اللباس والزينة، باب: النساء الكاسيات العاريات المائلات المميلات، رقم (2128).

(2) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر، التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد، تحقيق: مصطفى العلوي ومحمد عبد الكبير، (المغرب: وزارة عموم الأوقاف، ط 1، 1387هـ)، ج 8 ص 302. وانظر: الزحيلي، الفقه الإسلامي وأدلته، ج 1 ص 739-741.

(3) قبطية: ثياب من مصر بيضاء فيها رقة ورهافة، منسوبة إلى الأقباط. وأراد بالكثيف هنا الساتر.

(4) الغلالة: شعار يلبس تحت الثوب وتحت الدرع أيضًا، والشعار: الثوب الذي يلي الجسد، لأنه يلي شعره (البطانة).

(5) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (21786)، ج 36 ص 120، قال محققوه: محتمل للتحسين.

لِامْرَأَةٍ تَطَيَّبَتْ لِهَذَا الْمَسْجِدِ حَتَّى تَرْجِعَ فَتَغْتَسِلَ غُسْلَهَا مِنَ الْجَنَابَةِ»، قَالَ أَبُو دَاوُدَ: الْإِعْصَارُ غُبَارٌ⁽¹⁾.

وهذه الشروط دلت عليها نصوص الكتاب والسنة، إما صراحة وإما مفهوماً، وكذلك تفهم من عموم القواعد الشرعية⁽²⁾.

من أحكام الزواج:

إنَّ للزواج في الإسلام أحكاماً خاصَّةً متعلِّقةً به، منها ما يعتبر شروطاً، ومنها ما هو ركن لا يتمُّ الزواج دونَه.

حكم الزواج:

يختلف حكم الزواج باختلاف حالة الشخص، لذا تكتنفه أحكام ثلاثة:

1 - فقد يكون الزواج فرضاً واجباً، وذلك على من خاف الفتنة والزنا وقدر على النكاح، ومستلزماته المادية والمعنوية.

2 - وقد يكون سنة مؤكدة، وذلك في حق مَنْ له شهوة معتدلة بحيث يقوى على ضبط نفسه، ولا يخاف الزنا، وهو يقدر على أعباء الزواج المادية والمعنوية.

3 - وقد يكون محرماً، وذلك إذا تيقن أنه إذا تزوج سوف يظلم من يتزوجها، لأي سبب كان.

وبعض أهل العلم جعل الزواج تنطبق عليه الأحكام الشرعية الخمسة، وما أثبتناه مناسب لهذا المختصر⁽³⁾.

الخطبة:

معنى الخطبة:

بكسر الخاء: هي طلب المرأة للزواج.

ومعناها شرعاً: التماس الخاطب الزواج من المخطوبة أو من وليها.

(1) أخرجه أبو داود، السنن، كتاب اللباس، باب ما جاء في المرأة تطيب للخروج، رقم (4174)، قال محققاه: حسن لغيره (ط: الرسالة).

(2) انظر: محمد عبد العزيز عمرو، اللباس والزينة في الشريعة الإسلامية، (عمَّان: دار النفائس، ط1، 2009م)، ص41-106، وص227-23.

(3) محمد عقله الإبراهيم، الزواج والفرقة في الفقه الإسلامي، (عمَّان: دار النفائس، ط1، 2014م)، ص10.

فَيُقَصَّدُ بِهَا مَا يَجْرِي مِنَ الْمَرَاجَعَةِ وَالْمَحَاوَلَةِ فِي طَلَبِ الزَّوْجِ وَالْإِجَابَةِ عَلَيْهِ.

مَشْرُوعِيَّةُ الْخُطْبَةِ:

الْخُطْبَةُ مَشْرُوعَةٌ فِي الْجُمْلَةِ، وَلَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا أَيْةُ حَقُوقٍ أَوْ وَاجِبَاتٍ عَلَى الْخُطِيبِينَ، سِوَى أَنْ كُلًّا مِنْهُمَا وَعَدَ الْآخَرَ بِالزَّوْجِ فَلَا يَنْبَغِي لَهُ خَلْفُ الْوَعْدِ إِنْ تَمَّ التَّرَاضِي وَالِاتِّفَاقُ. فَالْخُطْبَةُ مُقَدِّمَةٌ لِلنِّكَاحِ لَا يَتَرْتَبُ عَلَيْهَا مَا يَتَرْتَبُ عَلَى النِّكَاحِ، مِنْ أُمُورٍ بَيْنَ الزَّوْجَيْنِ. فِي بَعْضِ الْمَجْتَمَعَاتِ جَرَى الْعَرَفُ أَنََّّهُمْ يَطْلُقُونَ الْخُطْبَةَ عَلَى حَالَةِ الْاِقْتِرَانِ بَيْنَ الْمَرْأَةِ وَالرَّجُلِ قَبْلَ الدَّخُولِ بِالْعَقْدِ الشَّرْعِيِّ التَّامِّ، وَهَذِهِ لَيْسَتْ الْخُطْبَةُ بِمَفْهُومِهَا الشَّرْعِيِّ، بَلْ فِي هَذِهِ الْحَالِ تَمَّ الْعَقْدُ وَالزَّوْجُ وَإِنْ لَمْ يَحْدَثِ الدَّخُولُ أَوْ حَفَلَ الزَّوْجُ، وَيَتَرْتَبُ عَلَى ذَلِكَ فِي حَالَةِ عَدَمِ الْاِتِّفَاقِ وَالْفِرَاقِ أَحْكَامُ الطَّلَاقِ قَبْلَ الدَّخُولِ أَوْ الْخُلُوةِ الشَّرْعِيَّةِ.

الْحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّتِهَا:

الْحِكْمَةُ مِنْ مَشْرُوعِيَّةِ الْخُطْبَةِ أَنَّهَا مُقَدِّمَةٌ لِلزَّوْجِ وَمِفْتَاحُهُ فِي الْغَالِبِ، إِذْ إِنْ مِنْ يَرْغَبُ فِي نِكَاحِ امْرَأَةٍ فِي الْغَالِبِ لَا بُدَّ أَنْ يَلْتَمِسَ رِضَاهَا أَوْ رِضَا أَهْلِهَا وَهَذِهِ هِيَ الْخُطْبَةُ.

مِنْ أَحْكَامِ الْخُطْبَةِ:

يَجُوزُ لِلْخَاطِبِ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى الْمَخْطُوبَةِ، وَيَجْلِسَ مَعَهَا، وَيَحَادِثُهَا، وَلَوْ تَكَرَّرَ ذَلِكَ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ، مَا دَامَ مُتَرَدِّدًا وَيَهْدَفُ لِلْوُصُولِ إِلَى قِنَاعَةٍ تَامَةٍ، وَإِلَى قَبُولِ كُلِّ مِنْهُمَا بِالْآخِرِ، وَكَذَلِكَ الْعَكْسُ، شَرِيطَةٌ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ دُونَ خُلُوةٍ شَرْعِيَّةٍ، وَفِي حَدُودِ الْكَلَامِ الْمُبَاحِ وَالْمَعْتَادِ. فَإِذَا جَزَمَا بِالْمُوَافَقَةِ أَوْ عَدَمِهَا، رَجَعَ الْحُكْمُ إِلَى الْأَصْلِ وَهُوَ تَحْرِيمُ النَّظَرِ إِلَيْهَا، لِأَنَّ سَبَبَ الْإِبَاحَةِ قَدْ زَالَ، إِلَى أَنْ يَعْقِدَا.

وَيَدُلُّ عَلَى هَذَا قَوْلُهُ ﷺ: «إِذَا خَطَبَ أَحَدُكُمْ الْمَرْأَةَ، فَإِنْ اسْتَطَاعَ أَنْ يَنْظُرَ إِلَى مَا يَدْعُوهُ إِلَى نِكَاحِهَا، فَلْيَفْعَلْ»⁽¹⁾.

وَهَذَا يَعْنِي أَنَّ مَا يَجْرِي فِي بَعْضِ الْبَيِّنَاتِ مِنْ لِقَاءَاتٍ بَيْنَ الْخَاطِبِ وَمَخْطُوبَتِهِ وَمَلَامَسَاتٍ وَخُرُوجٍ مَعًا وَسَهَرٍ وَخُلُوةٍ وَمَا إِلَى ذَلِكَ حَرَامٌ.

صِفَاتُ الْمَرْأَةِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَحْرَصَ عَلَى الزَّوْجِ بِهَا:

وَقَدْ بَيَّنَّتِ السَّنَةُ النَّبَوِيَّةُ صِفَاتَ الْمَرْأَةِ الَّتِي يَنْبَغِي لِلرَّجُلِ أَنْ يَحْرَصَ عَلَى الْاِقْتِرَانِ بِهَا، وَيَتَلَخَّصُ ذَلِكَ فِي أَنْ تَكُونَ: بَكْرًا، ذَاتَ دِينٍ، وَحَسَبٍ، وَجَمَالٍ، وَمَالٍ، لِقَوْلِ النَّبِيِّ ﷺ:

(1) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، الْمُسْنَدُ، رَقْمُ (14586)، ج 22 ص 440، قَالَ مُحَقِّقُوهُ: حَدِيثٌ حَسَنٌ. وَأَبُو دَاوُدَ، السُّنَنِ، كِتَابُ النِّكَاحِ، بَابُ فِي الرَّجُلِ يَنْظُرُ إِلَى الْمَرْأَةِ وَهُوَ يَرِيدُ تَزْوِيجَهَا، رَقْمُ (2082).

«تُنْكَحُ الْمَرْأَةُ لِأَرْبَعٍ: لِمَالِهَا، وَلِحَسَبِهَا، وَلِجَمَالِهَا، وَلِدِينِهَا، فَظَفَرُ بَذَاتِ الدِّينِ تَرَبَّتْ يَدَاكَ»⁽¹⁾.

فإذا اجتمع في المرأة جميع هذه الخصال، فهو خير وكمال، وإلا فيقدم الأهم والأولى، وأهم ذلك أن تكون ذات دين وصلاح، كما قال ﷺ: «الدُّنْيَا مَتَاعٌ، وَخَيْرُ مَتَاعِ الدُّنْيَا: الْمَرْأَةُ الصَّالِحَةُ»⁽²⁾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ؟ قَالَ ﷺ: «الَّتِي تَسْرُهُ إِذَا نَظَرَ، وَتُطِيعُهُ إِذَا أَمَرَ، وَلَا تَخَالِفُهُ فِي نَفْسِهَا وَمَالِهَا بِمَا يَكْرَهُ»⁽³⁾.
ممن تُخْطَبُ المرأة:

الأصل أن تُطلب المرأة من وليِّها، فعن عروة بن الزبير أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ خَطَبَ عَائِشَةَ -رضي الله عنها- إِلَى أَبِي بَكْرٍ ؓ، فَقَالَ لَهُ أَبُو بَكْرٍ: إِنَّمَا أَنَا أَخُوكَ، فَقَالَ ﷺ: «أَنْتَ أَخِي فِي دِينِ اللَّهِ وَكِتَابِهِ، وَهِيَ لِي حَلَالٌ»⁽⁴⁾.

ويجوز أن تُخْطَبَ المرأة الرشيدة إلى نفسها، فعن أم سلمة -رضي الله عنها- قالت: (لما مات أبو سلمة أَرْسَلَ إِلَيَّ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَاطِبُ بْنُ أَبِي بَلْتَعَةَ يَخْطُبُنِي لَهُ، فَقُلْتُ: إِنَّ لِي بِنْتًا وَأَنَا غَيُورٌ. فَقَالَ ﷺ: «أَمَّا ابْنَتُهَا فَتَدْعُو اللَّهَ أَنْ يُغْنِيَهَا عَنْهَا، وَادْعُوا اللَّهَ أَنْ يَذْهَبَ بِالْغِيَرَةِ»⁽⁵⁾).

ويجوز للولي عرض موليته على أهل الصلاح من الرجال لخطبتها، كما جاء في حديث عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما-: (أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ ؓ حِينَ تَأَيَّمَتْ⁽⁶⁾ حَفْصَةَ بِنْتُ عُمَرَ مِنْ خُنَيْسِ بْنِ حُذَافَةَ السَّهْمِيِّ ؓ، وَكَانَ مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَدْ شَهِدَ بَدْرًا، تُؤَفِّي بِالْمَدِينَةِ، قَالَ عُمَرُ ؓ: فَلَقِيتُ عُثْمَانَ بْنَ عَفَّانَ ؓ، فَعَرَضْتُ عَلَيْهِ حَفْصَةَ، فَقُلْتُ: إِنَّ شَيْئًا أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتُ عُمَرَ، قَالَ: سَأَنْظُرُ فِي أَمْرِي، فَلَبِثْتُ لَيَالِي،

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب النكاح، باب: الأكفاء في الدين، رقم (4802). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الرضاع، باب استحباب نكاح ذات الدين، رقم (1466).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (6567)، ج 11 ص 127. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الرضاع، باب خير متاع الدنيا المرأة الصالحة، رقم (1467).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9587)، ج 15 ص 360، قال محققوه: إسناده قوي. والنسائي، السنن، كتاب النكاح، باب أَيُّ النِّسَاءِ خَيْرٌ، رقم (3231).

(4) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب النكاح، باب: تزويج الصغار من الكبار، رقم (4793).

(5) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنائز، باب ما يقال عند المصيبة، رقم (918).

(6) ترملت، أي: مات زوجها.

فَقَالَ: قَدْ بَدَأَ لِي أَنْ لَا أَتَزَوَّجَ يَوْمِي هَذَا. قَالَ عُمَرُ: فَلَقِيتُ أَبَا بَكْرٍ، فَقُلْتُ: إِنْ شِئْتُ أَنْكَحْتُكَ حَفْصَةَ بِنْتُ عُمَرَ، فَصَمَتَ أَبُو بَكْرٍ فَلَمْ يَرْجِعْ إِلَيَّ شَيْئًا، فَكُنْتُ عَلَيْهِ أَوْجَدَ مِنِّي عَلَى عُثْمَانَ، فَلَبِثْتُ لَيَالِي ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْكَحَهَا إِيَّاهُ، فَلَقِيتُنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأَفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكْتُهَا لَقَبَلْتُهَا⁽¹⁾.

قال ابن حجر -رحمه الله-: «وفيه عرض الإنسان بنته وغيرها من موليّاته على من يعتقد خيره وصلاحه، لما فيه من النفع العائد على المعروضة عليه، وأنه لا استحياء في ذلك»⁽²⁾.

خِطْبَةُ مَخْطُوبَةِ الْغَيْرِ:

لا تجوز خِطْبَةُ مَخْطُوبَةِ الْغَيْرِ، فإذا خَطَبَ الْمُسْلِمُ امْرَأَةً فَلَا يَحِلُّ لغيره أن يتقدم لِيَخْطُبَهَا على خِطْبَةِ أَخِيهِ، إذا علم بذلك، لأنَّ ذلك يقطع الأواصر ويورث العداوات والشحناء. ومن أدلة تحريم ذلك ما جاء عن أبي هريرة ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «وَلَا يَخْطُبُ أَحَدُكُمْ عَلَى خِطْبَةِ أَخِيهِ حَتَّى يَنْكِحَ أَوْ يَدَعَ»⁽³⁾.

وبمجرد تقدم المسلم لَخِطْبَةِ امْرَأَةٍ يجعل خِطْبَةَ غَيْرِهِ لها حرامًا إذا علم بذلك، ولا يجوز له التقدم حينئذٍ إلا إذا علم عدم رضاهم بالخاطب الأول أو أذن الخاطب الأول أو عدل عن الخِطْبَةِ.

ومما يدل على ذلك حديث ابن عمر ؓ السابق في قصة عرض عُمَرَ ﷺ حَفْصَةَ عَلَى عُثْمَانَ ؓ ثم على أَبِي بَكْرٍ ؓ، ثُمَّ خَطَبَهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فَأَنْكَحَهَا إِيَّاهُ، قال فيه عمر ؓ: (فَلَقِيتُنِي أَبُو بَكْرٍ ﷺ فَقَالَ: لَعَلَّكَ وَجَدْتَ عَلَيَّ حِينَ عَرَضْتَ عَلَيَّ حَفْصَةَ فَلَمْ أَرْجِعْ إِلَيْكَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، قَالَ: فَإِنَّهُ لَمْ يَمْنَعْنِي أَنْ أَرْجِعَ إِلَيْكَ فِيمَا عَرَضْتَ، إِلَّا أَنِّي قَدْ عَلِمْتُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَدْ ذَكَرَهَا، فَلَمْ أَكُنْ لِأَفْشِي سِرَّ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَوْ تَرَكْتُهَا لَقَبَلْتُهَا)⁽⁴⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم (3783).

(2) علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري شرح صحيح البخاري، تحقيق: عبد العزيز بن باز ومحب الدين الخطيب، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، (بيروت: دار الفكر)، ج 9 ص 178.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (5010)، ج 9 ص 53، قال محققوه: حديث إسناده صحيح. والنسائي، السنن، كتاب النكاح، النهي أن يخطب الرجل على خِطْبَةِ أَخِيهِ، رقم (3241).

(4) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب المغازي، باب: شهود الملائكة بدرا، رقم (3783).

فإنَّ أبا بكر ﷺ امتنع عن خطبتها بمجرد علمه برغبة رسول الله ﷺ في التقدم لها حتى ينظر رسول الله ﷺ في أمره⁽¹⁾.

أركان عقد الزَّواج الشرعي:

عقد الزَّواج الشرعي لا يتحقَّق إلا باكتمال أركانه، وأركانه هي:

الركن الأول- الصَّيْغَة (الإيجاب والقبول):

وتعني الصيغَة: الإيجاب من وليِّ الزَّوجة، مثل قوله: زَوَّجْتُكَ أو أَنْكَحْتُكَ ابنتي، والقبول من الزَّوج، مثل قوله: تزَوَّجْتُ أو نَكَحْتُ.

الركن الثاني- الزَّوج:

ومن الشُّروط التي تشترط في الزوج:

- 1 - ألا يكون من المحرَّمين على الزَّوجة بنسب أو رضاع أو مصاهرة، أو اختلاف دين.
- 2 - أن يكون الزَّوج معيَّنًا ومحدَّدًا، فلو قال الولي: زَوَّجْتُ ابنتي على أحدكم، لا يكون الزَّواج صحيحًا، وذلك لعدم تعيين الزَّوج وتحديد.
- 3 - أن يكون الزَّوج متحلِّلاً، أي غير مُحرَّم بحجٍّ أو بعمرة.
- 4 - الرضا بين الزوجين.

الركن الثالث- الزَّوجة:

ومن الشُّروط الواجب توفُّرها في الزَّوجة ما يلي:

- 1 - أن تكون خاليةً من موانع النِّكاح، بأن يكون مباحًا له الزواج بها، لا أن تكون محرمة عليه بنسب أو رضاع أو مصاهرة، أو اختلاف دين إلا أن تكون كتابية عفيفة.
- 2 - أن تكون الزَّوجة معيَّنة ومحدَّدة.
- 3 - ألا تكون الزَّوجة مُحرَّمةً بحجٍّ أو بعمرة.
- 4 - الرضا بين الزوجين: لقوله ﷺ: «لا تُنْكَحُ الْاَيِّمُ» (وهي التي فارقت زوجها بموت أو طلاق) حَتَّى تُسْتَأْمَرَ (أي: يُطلب الأمر منها فلا بُدَّ من تصريحها) وَلَا تُنْكَحُ

(1) انظر: الإبراهيم، الزواج والفرقة في الفقه الإسلامي، ص 39-43.

الْبِكْرُ حَتَّى تُسْتَأْذَنَ» (أي: حتى توافق بكلام أو سكوت). قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَكَيْفَ إِذْنُهَا؟ (أي: لأنها تستحيي) قَالَ: «أَنْ تَسْكُتَ»⁽¹⁾.

الركن الرابع- الولي:

أن يعقد للمرأة وليها، لأنَّ الله ﷻ خاطب الأولياء بالنكاح، فقال ﷺ: ﴿وَأَنْكِحُوا الْأَيَامَى مِنْكُمْ وَالصَّالِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَأَمَائِكُمْ﴾ [النور: 32].

وعن عائشة -رضي الله عنها- أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «أَيُّمَا امْرَأَةٍ نِكَحْتَ بِغَيْرِ إِذْنِ وَلِيِّهَا، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَنِكَاحُهَا بَاطِلٌ، فَإِنْ دَخَلَ بِهَا، فَلَهَا الْمَهْرُ بِمَا اسْتَحَلَّ مِنْ فَرْجِهَا، فَإِنْ اشْتَجَرُوا، فَالسلطانُ وَلِيٌّ مِنْ لَا وَلِيَّ لَهُ»⁽²⁾. فلا يجوز للمرأة أن تزوج نفسها، سواء أكانت صغيرة أو كبيرة.

ويُشترط في الولي ما يلي:

1 و2 و-3 العقل، والبلوغ، والحرية.

4 - اتحاد الدين: فلا ولاية لكافر على مسلم ولا مسلمة، وكذلك لا ولاية لمسلم على كافر أو كافرة، وتثبت للكافر ولاية التزويج على الكافرة ولو اختلف دينهما، ولا ولاية لمرتد على أحد.

5 - العدالة: المنافية للفسق وهي شرط عند بعض العلماء واكتفى بعضهم بالعدالة الظاهرة، وقال بعضهم: يكفي أن يحصل منه النظر في مصلحة مَنْ تولَّى أمر تزويجها.

6 - الذكورة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ الْمَرْأَةَ، وَلَا تُزَوِّجُ الْمَرْأَةَ نَفْسَهَا، فَإِنَّ الزَّانِيَةَ هِيَ الَّتِي تُزَوِّجُ نَفْسَهَا»⁽³⁾.

7 - الرشد: وهو القدرة على معرفة الكفاء ومصالح النكاح.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (9605)، ج 15 ص 371. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب النكاح، باب: لا ينكح الأب وغيره البكر والثيب إلا برضاها، رقم (4843). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب النكاح، باب استئذان الثيب في النكاح بالنطق، والبكر بالسكوت، رقم (1419).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (24372)، ج 40 ص 435، قال محققوه: حديث صحيح. والترمذي، الجامع، أبواب النكاح عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء لا نكاح إلا بولي، رقم (1127)، واللفظ له، وقال: هذا حديث حسن.

(3) أخرجه ابن ماجه، السنن، أبواب النكاح، باب لا نكاح إلا بولي، رقم (1882)، وقال محققه: صحيح لغيره.

الدَّليل على وجوب وجود الشَّاهدين في عقد النكاح، عَنْ عِمْرَانَ بْنِ الْحُصَيْنِ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا نِكَاحَ إِلَّا بِوَلِيِّ وَشَاهِدَيْنِ عَدْلٍ»⁽¹⁾.

خصائص عقد الزَّواج:

يتميّز عقد النِّكاح بمجموعة من الخصائص، ومنها:

الأول - التَّأْيِيد:

ذهب الفقهاء إلى أَنَّ عقد الزَّواج مؤبَّد، أي أَنَّهُ غير مؤقت بمدة زمنية ينتهي عندها، وفي حال كان التَّأقيت مضمراً في نفس الزَّوج، أو غير مصرَّح به، فالزواج صحيح ويأثم على نيته.

الثاني - اللزوم:

عقد الزَّواج عقد إذا تَمَّ يلزم الطرفين، الزَّوج والزَّوجة، بعد تمامه.

سنن الزَّواج آدابه:

إنَّ للنكاح مجموعةً من السُّنن والآداب، منها:

1 - من سنن عقد النكاح الخُطبة: وهي كلمة يقولها من يتولى العقد، يبدأها بخُطبة الحاجة.

2 - ومن السنن الوليمة: وذلك لقول النَّبي ﷺ لعبد الرحمن بن عوف ؓ لَمَّا تزَوَّج: «أولم ولو بشاة»⁽²⁾.

3 - إعلان النِّكاح: وذلك من خلال دف أو ما شابهه، لقول النَّبي ﷺ: «فَصَلُّ مَا بَيْنَ الْحَلَالِ وَالْحَرَامِ الدُّفَّ وَالصَّوْتُ فِي النِّكَاحِ»⁽³⁾، ولقوله ﷺ: «أَعْلِنُوا النِّكَاحَ»⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، رقم (299)، ج 18 ص 148.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (12685)، ج 20 ص 115. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب البيوع، باب: ما جاء في قول الله تعالى: ﴿وَإِذَا فُضِّيتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ﴾ [الجمعة: 10]، رقم (1943). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب النكاح، باب الصداق وجواز كونه تعليم قرآن وخاتم حديد، وغير ذلك من قليل وكثير. واستحباب كونه خمسمائة درهم لمن لا يجحف به، رقم (1437).

(3) أخرجه النسائي، السنن، كتاب النكاح، باب إعلان النِّكاح بالصَّوْتِ وَضَرْبِ الدُّفِّ، رقم (3369)، قال محققوه: إسناده حسن.

(4) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (16130)، ج 26 ص 53، قال محققوه: حسن لغيره.

4 - الدُّعَاءُ لِلزَّوْجَيْنِ: وذلك بقول: «بَارَكَ اللَّهُ لَكَ وَبَارَكَ عَلَيْكَ وَجَمَعَ بَيْنَكُمَا فِي الْخَيْرِ»⁽¹⁾.

5 - الدُّعَاءُ عِنْدَ الدُّخُولِ: حيثُ يَسْنُ للرجل إذا دخل على زوجته أن يأخذ بناصيتها، ثُمَّ يقول: «اللهم إني أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا جَبَلْتَهَا عَلَيْهِ، وَإِذَا اشْتَرَى بَعِيرًا فَلْيَأْخُذْ بِذُرْوَةِ سَنَامِهِ، وَلِيَقْلَ مِثْلَ ذَلِكَ»⁽²⁾.

6 - الدُّعَاءُ عِنْدَ الْجَمَاعِ: عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ، يَبْلُغُ بِهِ النَّبِيُّ ﷺ قَالَ: «لَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا أَتَى أَهْلَهُ قَالَ: بِسْمِ اللَّهِ، اللَّهُمَّ جَنِّبْنَا الشَّيْطَانَ، وَجَنِّبِ الشَّيْطَانَ مَا رَزَقْتَنَا، فَقَضِيَ بَيْنَهُمَا وَلَدٌ لَمْ يَضُرَّهُ»⁽³⁾.

هذه بعض الأحكام المتعلقة بالزواج سائلين الله أن يرزقكم الزوج والزوجة الصالحين⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، كتاب النكاح، باب ما يُقَالُ لِلْمُتَزَوِّجِ، رقم (1116)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(2) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب النكاح، باب في جامع النكاح، رقم (2160). وابن ماجه، السنن، أبواب التجارات، باب النهي عن التفريق بين السبي، رقم (2252)، وقال محققوه: حديث حسن.

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الوضوء، باب: التسمية على كل حال وعند الوقاع، رقم (141).

(4) انظر: البغا، الفقه الحنفي بأدلته، ج2 ص801-918. وطاهر، الفقه المالكي وأدلته، ج3 ص183-270. والزحيلي، الفقه الشافعي الميسر، ج2 ص15-81. والحنبلي، هداية الراغب لشرح عمدة الطالب، ج2 ص407-447. ومحمد أبو زهرة، الأحوال الشخصية، (القاهرة: دار الفكر العربي)، ص19-145. ومحمد إبراهيم الحفناوي، الزواج، (المنصورة: مكتبة الإيمان)، ص147-210. وإبراهيم، الزواج والفرقة في الفقه الإسلامي، ص55-172.



المبحث الخامس

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ﴾

في محبة النبي ﷺ وخلفائه

في هذا المبحث نعيش مع حياة خير البشر، متتبعين سنوات سيرته من ولادته حتى وداعه ﷺ، ثُمَّ نَعْرِجُ عَلَى شَيْءٍ مِنْ سِيرَةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ الْأَرْبَعَةِ ﷺ، لِيَكُونَ لَنَا فِيهِ ﷺ وَفِي خُلَفَائِهِ ﷺ خَيْرُ قُدْوَةٍ، فَلَا نَجَاةَ لَنَا إِلَّا فِي اتِّبَاعِ سُنَّتِهِ وَسُنَّتِهِمْ مِنْ بَعْدِ، كَمَا أَوْصَانَا ﷺ بِقَوْلِهِ: «مَنْ يَعْشُ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمُهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا، وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ»⁽¹⁾.

حال العرب قبل الإسلام:

كان حال العرب في الجاهلية قبل الإسلام يُرِثُ لَه، حَيْثُ بَدَّلُوا الْحَنِيفِيَّةَ السَّمْحَةَ الَّتِي جَاءَ بِهَا إِبْرَاهِيمُ ﷺ بِعِبَادَةِ الْأَصْنَامِ زَاعِمِينَ أَنَّهَا تَقْرِبُهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَنَسَبُوا إِلَى اللَّهِ الْوَلَدَ، فَقَالُوا: إِنَّ الْمَلَائِكَةَ بَنَاتُ اللَّهِ، تَعَالَى عَنْ ذَلِكَ عُلُوًّا كَبِيرًا.

كَذَلِكَ انْتَشَرَ بَيْنَهُمُ الْعَدِيدُ مِنَ الْعَادَاتِ الذَّمِيمَةِ وَالْأَعْرَافِ الْقَبِيحَةِ، كَالْقَتْلِ وَاسْتِعْبَادِ النَّاسِ وَالزَّوْنِ وَوَادِ الْبَنَاتِ وَشَرْبِ الْخَمْرِ وَالْغَزْوِ وَالْأَخْذِ بِالثَّأْرِ، حَتَّى مَقَّتَهُمُ اللَّهُ مَعَ مَنْ مَقَّتَ مِنْ أَهْلِ الْأَرْضِ، قَالَ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ فَمَقَّتَهُمْ، عَجَمِيَّهُمْ وَعَرَبِيَّهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»⁽²⁾، فَبِعَثَ ﷺ سَيِّدَنَا مُحَمَّدٌ ﷺ لِإِعَادَةِ الْأُمُورِ إِلَى نَصَابِهَا بِنَشْرِ الرِّسَالَةِ الَّتِي

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم، (17145)، ج 28 ص 375. وأبو داود، السنن، كتاب السنة، باب في لزوم السنة، رقم (4607).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (17484)، ج 29 ص 23-33. وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم.

أرسله بها، فكان للنبي ﷺ الفضل في هداية الأمة ونقلها من الضلال والشرك إلى الهداية والإسلام، قال ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الجمعة: 2] (1).

أولاً- النبي ﷺ قبل البعثة

نسب النبي ﷺ:

ولد النبي محمد ﷺ في أشرف بيت من بيوت العرب، هو أشرف فروع قريش، وهم بنو هاشم، وقريش أشرف قبيلة في العرب، وأزكاها نسباً وأعلاها مكانة، روى العباس ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ الْخَلْقَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ مِنْ خَيْرِ فِرْقِهِمْ وَخَيْرِ الْفِرْقَيْنِ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْقَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ قَبِيلَةٍ، ثُمَّ تَخَيَّرَ الْبُيُوتَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ بُيُوتِهِمْ، فَأَنَا خَيْرُهُمْ نَفْسًا، وَخَيْرُهُمْ بَيْتًا» (2).

وجاء عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «بُعِثْتُ مِنْ خَيْرِ قُرُونِ بَنِي آدَمَ قَرْنًا فَقَرْنًا، حَتَّى بُعِثْتُ مِنَ الْقَرْنِ الَّذِي كُنْتُ فِيهِ» (3).

وسلسلة نسبه الشريف ﷺ ثابتة إلى عدنان، وعدنان متيقن أنه من ولد إسماعيل، وهذه السلسلة الثابتة حريٌّ بكل مسلم أن يحفظها، وهي: «مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافٍ بْنِ قُصَيٍّ بْنِ كِلَابٍ بْنِ مُرَّةَ بْنِ كَعْبٍ بْنِ لُؤَيٍّ بْنِ غَالِبٍ بْنِ فِهْرٍ بْنِ مَالِكِ بْنِ النُّضْرِ بْنِ كِنَانَةَ بْنِ خُزَيْمَةَ بْنِ مُدْرِكَةَ بْنِ إِيَّاسَ بْنِ مُضَرَ بْنِ زَرَّارٍ بْنِ مَعَدٍّ بْنِ عَدْنَانَ»، الذي يعود إلى إسماعيل بن إبراهيم -عليهما الصلاة والسلام- (4).

«فليس في آبائه ﷺ خاملٌ مسترذل، ولا مغمورٌ مستذل، كلُّهم سادة قادة، وهم أخصُّ النَّاسِ بالمناكح الطاهرة» (5).

(1) انظر: محمد محمد أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 43-106. وج 1 ص 241-246.

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب في فضل النبي ﷺ، رقم (3607). وقد اختلف فيه.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8857)، ج 14 ص 446. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب المناقب، باب: صفة النبي ﷺ، رقم (3364).

(4) صفى الرحمن المباركفوري، الرحيق المختوم، (الرياض: دار السلام، ط 9، 1992م)، ص 48-49.

(5) أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، أعلام النبوة، (بيروت: دار الهلال، ط 1، 1409هـ)، ص 202.

تعددت مآثر أجداد النبي ﷺ في مكة، فكان قصي -جد هاشم، وهاشم جد والد النبي عبد الله- أبرز رجال قريش في عصره، فقصي هو الذي نظم إدارة مكة عن طريق استحداث دار الندوة التي يعقد فيها زعماء قريش اجتماعاتهم، كما كانت له الرقادة والسقاية والحج واللواء، التي توزعت بعده في ذريته.

ومن تلك المآثر حفر جد النبي ﷺ عبد المطلب لبئر زمزم التي بقيت قرونًا عديدة تمثل أهم عيون المياه بمكة، وكانت قد طمرت وذهب أثرها.

وقصة حفر زمزم خلاصتها ما حكاها عبد المطلب أنه رأى رؤيا في أربع ليال، أنه يأتيه آت في المنام يأمره بحفر البئر دون أن يحدد موقعها، وفي المرة الرابعة حدّد له موقع البئر وصرح باسمها «زمزم»، فحفر عبد المطلب في موقعها وكشف عن الماء وحده مع ابنه البكر والوحيد آنذاك «الحارث»، فنازعته قريش وطلبت إشراكها معه في الماء على الرغم من عدم مساعدتها له بشيء في الحفر، فلم يقبل، فاحتكموا إلى كاهنة خارج مكة، لكن قبل وصولهم إليها حدث أن نفذ الماء عند عبد المطلب، ومن كانوا في صفه، وأبى الآخرون إشراكهم بما معهم من ماء، حرصًا على الماء في الصحراء، فلما أشرف عبد المطلب ورفاقه على الهلاك أخذوا يحفرون قبورهم، وإذا بعين ماء تنبع تحت حافر ناقة عبد المطلب، فشرب القوم جميعًا واعتبروا ذلك علامة على أحقية عبد المطلب بماء زمزم فأسلموها إليه⁽¹⁾.

نذر عبد المطلب:

عندما كان عبد المطلب يحفر زمزم اشتدّ عليه ما لقي من قومه من الأذى، حيث لم يجد له مُعينًا، فنذر إن أنجب عشرةً من الولد أن ينحر أحدهم. فلما رُزق بالعشرة أراد أن يوفي بنذره، فقام بالقرعة بينهم أيهم يذبح، فخرجت القرعة على ابنه عبد الله، وكان أحب الناس إليه، فراجعته الناس بألا يفعل، حتى لا يصير الأمر سنة بينهم، واقترحوا عليه أن يقيم قرعة بين عبد الله وعشر من الإبل، فخرجت القرعة على عبد الله، فزاد في الإبل عشرًا أخرى

(1) أكرم ضياء العمري، السيرة النبوية الصحيحة، (المدينة المنورة: مكتبة العلوم والحكم، ط6، 1994م)، ج1 ص91-92. وانظر: عبد الملك بن هشام بن أيوب المصري، سيرة رسول الله ﷺ (المعروفة بسيرة ابن هشام)، تحقيق: عادل مرشد ورفيقه، (عمّان: دار الفاروق، ط1، 2022م)، ج1 ص155-161. المباركفوري، الرحيق المختوم، ص51.

وأُقرع بينها وبين ابنه فخرجت القرعة على عبد الله، واستمر في الزيادة حتى بلغت الإبل مائة فخرجت القرعة على الإبل، فافتدَّى عبد الله بمائة من الإبل⁽¹⁾.

صفات النَّبي ﷺ الخَلْقِيَّة:

كان رسول الله من أحسن النَّاس وجهًا، أبيض اللون بياضًا مزهريًا، مستدير الوجه، مليحه، واسع الفم، طويل شق العينين، رجل الشعر -بين الجُعودة والسَّبَط- يصل إلى شحمة أذنيه، وأحيانًا بين أذنيه وعاتقه، وقد يمتد حتى منكبيه أحيانًا أخرى، ولم يشب شعره الأسود إلا اليسير منه، حيثُ قُدِّرَ شبيهه في أواخر عمره ﷺ بعشرين شعرة موزعة في الرأس وتحت الفم والصدغين، وكان يميل اللون إلى الحمرة في بعض شعره من أثر الطَّيب.

وكان متوسط القامة، متوسط الوزن، ليس بال نحيف ولا الجسيم، عريض الصدر ضخم اليدين والقدمين، مبسوط الكفين، كفاه لينتان، قليل لحم العقبين، يحمل في أعلى كتفه اليسرى خاتم النبوة وهو مِثْل: زَرُّ الْحَجَلَةِ⁽²⁾.

وهذه الصفات الجسيمة تدل على جمال المظهر، واكتمال الجسم وقدرته على النهوض بالواجبات العظيمة التي أنيطت به⁽³⁾.

زواج عبد الله بآمنة:

لما بلغ عبد الله سنَّ الزواج اختار له والده عبد المطلب خيرة نساء قريش، وهي آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زُهرة بن كلاب كي تكون زوجة، وبالفعل تمَّ هذا الزواج الذي نتج عنه ولادة سيد البشر محمد ﷺ.

ونشير إلى أنَّه قد ذكرت قصص خيالية لا أساس لها من الصحة في زواج عبد الله، أعرضنا عنها⁽⁴⁾.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 164-169. والعمرى، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 92-93.

(2) الحجلة: بيت كالقبة، يُستَر بالثياب، وتكون له أزرار كبار، جمعها: حجال. وقيل الحجلة: هي الطير التي تسمى: القبجة، وتسمى الأنثى: الحجلة، وزرها: بيضها، ويؤيد هذا حديث آخر جاء فيه: «مثل بيضة الحمامة».

(3) العمرى، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 89.

(4) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 169-171.

بعد الزواج مباشرة حملت آمنة برسول الله ﷺ، وكان عليها حملًا يسيرًا، ويُروى في حملها روايات لا يقبل منها إلا أنها رأت في المنام أنه قد خرج من بطنها نورٌ أضاء قصور بُصرى⁽¹⁾ في الشام⁽²⁾.

وفاة عبد الله:

بعد أن بُشر عبد الله بحمل زوجته آمنة أرسله والده عبد المطلب إلى يثرب (المدينة المنورة) ليشتري تمرًا، وقيل: إنَّ عبد الله ذهب في تجارة فنزل يثرب لزيارة أخواله في الطريق، ولما وصل عبد الله إلى يثرب مرض مرضًا شديدًا توفي على إثره ودُفن هناك، وكانت وفاته قبل أن يولد رسول الله ﷺ.

زمن ولادة الرسول ﷺ:

ولد سيدنا محمد ﷺ يتيماً في مكة المكرمة في شعب أبي طالب، في يوم اثنين من أيام شهر ربيع الأول، وكان ذلك في العام الذي سُمي بعام الفيل.

وقد رويت روايات في ولادته لا يقبل منها عند علماء الحديث شيء، كذلك لم يصح في تحديد تاريخ يوم ولادته شيء، لكن المشهور عند الجمهور أنه وُلد في الثاني عشر -والله أعلم بالصواب-⁽³⁾.

وفي يوم السابع من ولادته ﷺ خَتَنَهُ جده عبد المطلب وجعل له مأدبة وسماه محمدًا. وعام الفيل الذي ولد فيه رسول الله ﷺ هو العام الذي حاول فيه ملك اليمن أبرهة الأشرم هدم الكعبة المشرفة، بعد أن رأى النَّاسَ يحجون إليها في مكة، ولا يأتون إلى الكنيسة التي بناها في اليمن وندب النَّاسَ للحج إليها. فجهز أبرهة جيشًا كبيرًا تقوده الفيلة وتوجه به إلى مكة، وكان دورُ الفيلة دكَّ كلِّ ما يلاقيها بما في ذلك الكعبة عند وصولها إلى مكة.

ومضى الجيش العَرْمَرَمُ⁽⁴⁾ لا يقف في وجهه شيء حتى وصل إلى بُغيته، وعندما تهيأ لدخول البلد الحرام، برك الفيل ولم يتحرك، وكانوا كلُّما وجهوه إلى الجنوب أو الشمال أو

(1) بلدة في بادية الشام، تقع شرق مدينة درعا في جنوب سوريا، وكانت وقتئذٍ عاصمة لملوك الغساسنة.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 171.

(3) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 173-175، وتعليقات محقيقه.

(4) جيش عَرْمَرَم: كثير العدد.

الشرق يقوم يهرول، وإذا صرفوه إلى الكعبة برك، وبينما هم كذلك إذ أرسل الله ﷻ عليهم جماعاتٍ من الطير تحمل حجارةً رمت بها أبرهة وجنوده وفيلته، فماتوا وهلكوا وفرَّ أبرهة، وبعث الله ﷻ عليه داءً تساقطت بسببه أنامله، ولم يصل إلى صنعاء، إلا وهو هزيل جدًّا، وما لبث أن مات.

وكانت قريش قد تفرقوا في الشعاب وحرصوا في رؤوس الجبال، خوفًا على أنفسهم من الجيش، فلما نزل بأبرهة وجيشه ما نزل رجعوا إلى بيوتهم آمنين.

وكانت هذه الواقعة في شهر المحرم قبل مولد النبي ﷺ بخمسين يومًا أو بخمسة وخمسين يومًا.

وحادثة الفيل ثابتة الوقوع بنص القرآن، كما أشرنا إلى ذلك في تفسيرنا لسورة الفيل في هذا الكتاب⁽¹⁾.

أول من أرضع النبي ﷺ:

أول من أرضع النبي ﷺ من المراضع -بعد أمه- كانت ثويبة مولاة أبي لهب بحليب ابن لها يقال له «مسروح»، وكانت قد أرضعت قبله عمه «حمزة بن عبد المطلب»، وأرضعت بعده «أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي»، وهو ابنُ عمته «برّة»، فكان هؤلاء إخوة للنبي ﷺ في الرضاعة من «ثويبة»⁽²⁾.

رضاعه في بني سعد:

كانت العادة عند أهل الحواضر والمدن من العرب أن يلتمسوا المراضع لأولادهم في البادية، وذلك ابتعادًا بهم عن أمراض الحواضر، لتقوى أجسامهم، وتشتد أعصابهم، وليتقنوا اللسان العربي الخالص في مهدهم.

ولما جاءت الممرضعات إلى مكة ذاك العام التمس جد النبي ﷺ عبد المطلب له مرضعة من بينهن، فاسترضع له امرأة من بني سعد بن بكر، اسمها حليلة بنت أبي ذؤيب، وكان زوجها الحارث بن عبد العزى المكنى بأبي كبشة، من القبيلة نفسها.

وكان لحليمة أولاد هم: عبد الله بن الحارث، وأنيسة بنت الحارث، وحذافة أو جذامة أو جذامة بنت الحارث (وهي الشيماء، لقب غلب على اسمها)، فصاروا إخوة للنبي ﷺ في الرضاعة.

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص51.

(2) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص55.

حملت حليلة وزوجها محمدًا إلى ديار بني سعد فأروا من بركات هذا الطفل خلال سنتي رِضاعه الشيء الكثير مما جعل قلوبهم تتعلق به، وبعد مضي السنتين رجعت حليلة بمحمد ﷺ إلى أمه، لكنها لشدة تعلقها به طلبت منها أن تبقى عندها لفترة أطول، فوافقت السيدة آمنة على ذلك لما رأت أثر تربية البادية باديةً على محمد، فأعادته مع حليلة إلى ديار بني سعد، فظل هناك إلى أن بلغ الرابعة أو قريب، حيث حصلت له حادثة غريبة، وهي حادثة شق الصدر، حين أتاه جبريل ﷺ على صورة رجل، وهو يلعب مع الولدان في البادية، فأخذه وأضجعه ثم شق صدره، وأخرج قلبه، فشقه نصفين، ثم أخرج منه قطعة سوداء، وهي حظ الشيطان منه، ثم غسل القلب بماء زمزم، ثم لأم قلبه، وأعادته إلى مكانه⁽¹⁾، ورجع النبي ﷺ بعد ذلك إلى حليلة التي ما إن سمعت بما جرى له خافت عليه وأعادته إلى أهله في مكة.

وبهذا أمضى رسول الله ﷺ السنوات الأربع الأولى من طفولته في الصحراء في بني سعد، فنشأ قوي البنية، سليم الجسم، فصيح اللسان، جريء الجنان، يحسن ركوب الخيل على صغر سنه، قد تفتحت مواهبه على صفاء الصحراء وهدوئها، وإشراق شمسها ونقاوة هوائها⁽²⁾.

وفاة أمه ﷺ:

بعد قرابة سنتين من عودة محمد ﷺ إلى أمه الحنون، رأت آمنة وفاءً لذكرى زوجها الراحل أن تزور قبره ببيترب، فخرجت من مكة ومعها ولدها محمد ﷺ وخادمتها أم أيمن، وقيمها عبد المطلب، فمكثت شهرًا عند أخوال جدّه عبد المطلب من بني النجار، ثم قفلت: وبينما هي راجعة مرضت في الطريق وماتت ودُفنت في منطقة تُسمّى بالأبواء⁽³⁾ بين مكة والمدينة، وقد بلغ محمد حينها ست سنين⁽⁴⁾.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات، وفرض الصلوات، رقم (161).

(2) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 175-184. ومحمد محمد أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، (دمشق: دار القلم، ط 3، 1996م)، ج 1 ص 191-203.

(3) منطقة جنوب غرب المدينة المنورة على بعد 170 كم.

(4) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 184-185.

عاد عبد المطلب بحفيده محمد ﷺ إلى مكة، وكانت مشاعر الحنان في فؤاده تربو نحو حفيده اليتيم، فرق عليه رقة لم يرقها علي أحد من أولاده، فكان لا يدعه وحيداً، وكان يؤثره على أولاده وأحفاده.

وقد عُرفت بمحمد ﷺ النجابة من صغره، وكانت تلوح على مُحياه مخايل الذكاء التي كانت تحببه إلى كل من رآه، وبسبب ذلك كان جده إذا جلس في مجلسه لا يجلس على الفراش معه أحد من أولاده وأحفاده إلا محمداً.

ولما بلغ ﷺ الثامنة من العمر فارقَ جده عبد المطلب الحياة، وكان قد أوصى ابنه أبا طالب عم النبي ﷺ أن يكفل محمداً ويرعاه، لأنه كان شقيق أبيه عبد الله⁽¹⁾.

كفالة عمه أبي طالب:

قَامَ أَبُو طَالِبٍ بِحَقِّ ابْنِ أَخِيهِ عَلَى أَكْمَلِ وَجْهِهِ، وَضَمَّهُ إِلَى وَلَدِهِ، وَاخْتَصَهُ بِفَضْلِ عَنَاءَةٍ وَاحْتِرَامٍ وَتَقْدِيرٍ، وَظَلَّ أَبُو طَالِبٍ فَوْقَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يُعِزُّ جَانِبَ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَبْسِطُ عَلَيْهِ حِمَايَتَهُ، وَيُصَادِقُ وَيُخَاصِمُ مِنْ أَجْلِهِ.

وكان أبو طالب تاجرًا يشارك في رحلات قريش التجارية فاحتمل النبي ﷺ وهو فتى معه في بعض تلك الرحلات، مما أكسبه بعض الخبرة في هذا المجال⁽²⁾.

النبي ﷺ يرعى الغنم:

وقد اشتغل النبي ﷺ برعي الغنم ليساعد عمه في تحمل نفقاته، لما كان يعانيه عمه من ضيق الحال.

ورعى الغنم أفادَ النبي ﷺ، إذ رقق قلبه، وأعطاه دُرْبَةً عَلَى رِعَايَةِ الْبَشَرِ فِيمَا بَعْدَ، فَقَدْ أَلْفَ الْعَمَلَ وَالْكَفَاحَ مِنْذُ طِفْلُوته، واعتاد أن يهتم بما حوله، ويبذل العون للآخرين⁽³⁾.

حلف الفضول:

وفي شبابه ﷺ وقبل بعثته أبرمت معاهدة أو اتفاق بين بعض عشائر أهل مكة، تعاهدوا على الدفاع عن أيِّ مظلومٍ في مكة، وقد شهد على هذا الاتفاق أو العهد النبي ﷺ وكان

(1) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 185-186.

(2) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 198-203. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج 1 ص 207-208.

(3) أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 209-210.

في العشرين من عمره، فقد قال ﷺ بعد أن أكرمه الله بالرسالة: «لَقَدْ شَهِدْتُ فِي دَارِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جُدْعَانَ حِلْفًا مَا أَحِبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ وَلَوْ أَدْعَى بِهِ فِي الْإِسْلَامِ لِأَجَبْتُ»⁽¹⁾.

ويقال إنَّ سبب هذا الحلف أنَّ رجلًا من زَبِيد من اليمن قدم مكة ببضاعة، واشتراها منه العاص بن وائل السهمي، وحبس عنه حقه، ولم ينصره أحد ممن طلب نصرتهم، فعلا الرجلُ جبل أبي قُبَيْس، ونادى بأشعار يصف فيها ظلامته رافعًا صوته، فمشى في ذلك الزبير بن عبد المطلب، وقال: ما لهذا مترك؟ حتى اجتمع عشائر قريش وعقدوا هذا الحلف، فقاموا إلى العاص بن وائل فانتزعوا منه حق الزبَيْدي بعدما أبرموا الحلف⁽²⁾.

عمله ﷺ بالتجارة:

اشتغل النَّبِيُّ ﷺ في شبابه بالتجارة فعرف عنه الصدق والأمانة مما استدعى امرأة شريفة غنية من قريش هي خَدِيجَةُ بِنْتُ حُوَيْلِدٍ أَنْ تطلب منه أن يتجر بمالها، فقبل النَّبِيُّ ﷺ هذا العرض وتاجر لها في قافلة إلى الشام، وربح فيها ربحًا وفيرًا، فأعجبت بأخلاقه وأمانته أيما إعجاب، حتى ألحمت لإحدى صديقاتها، وهي نَفِيسَةُ بِنْتُ مُنِيَّةٍ، أنها لو خطبها محمدٌ لقبلت به، فما كان من نَفِيسَةَ إِلَّا أَنْ ذهبت لمحمدٍ وأخبرته بما دار بينها وبين خديجة من حديث، فاقتنع النَّبِيُّ ﷺ بالفكرة وتقدم لزواج خديجة على الرغم من فارق العمر بينهما، فقد كان عمره حينها خمسة وعشرين عامًا، وكانت تكبره هي بأعوام.

فتم الزواج بينهما وفق المعتاد من عادات قريش وأعطاهما ﷺ مهرًا عشرين ناقة فتية⁽³⁾.

أولاد النَّبِيِّ ﷺ:

كان للرسول ﷺ سبعة من الولد، أنجبت خديجة للنبي ﷺ ستة منهم، هم:

اثنان من الذكور هما: (القاسم وعبد الله) توفيا وهما صغيران.

وأربعة من البنات: (رقية وأم كلثوم وزينب وفاطمة).

وكان له ولد سابع من جاريته مارية القبطية اسمه إبراهيم توفي وهو صغير.

(1) البيهقي، السنن الكبير، كتاب قسم الفيء والغنيمة، باب إعطاء الفيء على الديوان، ومن تقع به البداية، رقم (13211)، ج 13 ص 97.

(2) أبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 213-215. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 59-60.

(3) أبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 215-225. وانظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 207-212.

ومات بنوه كلهم في صغرهم، أما البنات فكلهن أدركن الإسلام فأسلمن وهاجرن، إلا أنَّهن أدركتهن الوفاة في حياته ﷺ، سوى فاطمة -رضي الله عنها- فقد تأخرت بعده ستة أشهر، ثم لحقت به ﷺ (1).

تجديد بناء الكعبة وقضية التحكيم:

لما بلغ عمر النبي ﷺ خمسًا وثلاثين قررت قريش إعادة بناء الكعبة بعد تصدع جدرانها، وعملوا على جمع المال لبنائها، واتفقوا على ألا يدخلوا في بنائها إلا مألًا ليس فيه ظلم أو يكون مما يشين، وفي أثناء بنائهم للكعبة خصصوا لكل قبيلة بناءً جزء منها، فجمعت كل قبيلة الحجارة على حدة وأخذوا يبنونها معًا، وحينما وصلوا إلى مرحلة وضع الحجر الأسود، اختلفوا فيمن يحظى بشرف وضع الحجر الأسود في مكانه، واستمر النزاع حتى كاد يتحول إلى حرب ضروس في أرض الحرم، إلا أنَّ أبا أمية بن المغيرة المخزومي (2)، وكان أسنَّ قريش، عرض عليهم أن يُحكِّموا بينهم أول داخل عليهم من باب المسجد فارتضوه، وشاء الله أن يكون ذاك الداخل رسول الله ﷺ فلما رأوه هتفوا: هذا الأمين، رضيناه، هذا محمد.

فلما انتهى إليهم وأخبروه الخبر طلب رداءً، فوضع الحجر الأسود وسطه، وطلب من رؤساء القبائل المتنازعين أن يمسكوا جميعًا بأطراف الرداء، وأمرهم أن يرفعوه، حتى إذا أوصلوه إلى موضعه أخذه ﷺ بيده، فوضعه في مكانه، وبذلك حُلَّ النزاع الواقع بينهم (3).

التهيئة للبعثة:

كان النبي ﷺ قد جمع في نشأته خيرَ ما في طبقات النَّاس من ميزات، وكان طرازًا رفيعًا من الفكر الصائب، والنظر السديد، ونال حظًا وافرًا من الفطنة وأصالة الفكرة وسداد الوسيلة والهدف، وكان يستعين بصمته الطويل على طول التأمل، وطالع بعقله الخصب وفطرته الصافية صحائف الحياة وشؤون النَّاس وأحوال الجماعات، فعاف ما فيها من خُرافة، ونأى عنها، ثم عايش النَّاس على بصيرة من أمره وأمرهم، فما وجده حسنًا شارك فيه، وإلا عاد إلى عزلته، فكان لا يشرب الخمر، ولا يأكل مما ذُبِح على النُّصب، ولا يحضر

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 61.

(2) اسمه حذيفة، والد أم سلمة، ويلقب بزاز الركب.

(3) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 214-221. وأبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 207-208. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 61-62.

للأوثان عيدًا، بل كان من أول نشأته نافرًا من هذه المعبودات الباطلة، حتى لم يكن شيء أبغض إليه منها، حتى كان لا يصبر على سماع الحلف باللات والعزى.

ولا شك أنَّ القَدَرَ حاطَه بالحفظ، فعندما تتحرك نوازع النفس لاستطلاع بعض متع الدنيا، وعندما يرضى باتباع بعض التقاليد غير المحمودة تتدخل العناية الربانية للحيلولة بينه وبينها.

ومن إرهافات النبوة ما جاء عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- قال: لَمَّا بُنِيَتِ الْكُعْبَةُ، ذَهَبَ النَّبِيُّ ﷺ وَعَبَّاسٌ يَنْقُلَانِ الْحِجَارَةَ، فَقَالَ عَبَّاسٌ لِلنَّبِيِّ ﷺ: (اجْعَلْ إِزَارَكَ عَلَى رَقَبَتِكَ يَبْقِيكَ مِنَ الْحِجَارَةِ، فَخَرَّ إِلَى الْأَرْضِ، وَطَمَحَتْ عَيْنَاهُ إِلَى السَّمَاءِ، ثُمَّ أَفَاقَ فَقَالَ: (إِزَارِي إِزَارِي). فَشَدَّ عَلَيْهِ إِزَارُهُ. وفي رواية فما رؤيت له عورة بعد ذلك (1).

وكانت الكعبة تزخر بالأصنام وقريش تذبح لها في الأعياد، فحال الله ﷻ بين نبيه وبينها فلم يمس في حياته صنمًا، ولم يحضر عيدًا لها.

ومن الروايات التي تؤكد هذه العصمة ما جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أنه سمع رسول الله ﷺ يحدث أنه ﷺ لَقِيَ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو بْنِ نُفَيْلٍ بِأَسْفَلِ بَلَدٍ (2) قَبْلَ أَنْ يَنْزَلَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ الْوَحْيُ، فَقَدِمَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ، وَأَنَّ زَيْدَ بْنَ عَمْرٍو كَانَ يَعِيبُ عَلَى قُرَيْشٍ ذَبَائِحَهُمْ، وَيَقُولُ: الشَّاةُ خَلَقَهَا اللَّهُ، وَأَنْزَلَ لَهَا مِنَ السَّمَاءِ الْمَاءَ، وَأُنْبِتَ لَهَا مِنَ الْأَرْضِ، ثُمَّ تَذْبَحُونَهَا عَلَى غَيْرِ اسْمِ اللَّهِ! إِنْكَارًا لِذَلِكَ وَإِعْظَامًا لَهُ (3).

ومما خالف فيه الرسول ﷺ قريشًا الوقوف بعرفة، وكانت قريش في الحج تفيض من مزدلفة دون أن تقف في عرفة على حين يقف بقية الناس في عرفة، وتعلل قريش ذلك بأنها أهل الحرم، فليس لها أن تخرج من الحرم، ولا تعظم غيرها كما تعظمها.

أما رسول الله ﷺ فكان يقف بعرفة، وهذا من توفيق الله لرسوله ﷺ قبل البعثة، فكان يستمسك بإرث إبراهيم وإسماعيل -عليهما السلام- في حجهم ومناكحهم وبيوعهم (4).

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (14140)، ج 22 ص 45. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب: بنيان الكعبة، رقم (3617). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الحيض، باب الاعتناء بحفظ العورة، رقم (340).

(2) بلدح: واد قبل مكة من جهة الغرب.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (5369)، ج 9 ص 269. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب: حديث زيد بن عمرو بن نفيل، رقم (3614).

(4) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 114-117. وانظر: أبو شهبه، السيرة النبوية، ج 1 ص 235-

كان النبي ﷺ يمتاز في قومه بخلال عذبة وأخلاق فاضلة، وشمائل كريمة فكان أفضل قومه مروءة، وأحسنهم خلقاً، وأعزهم جواراً، وأعظمهم حلماً، وأصدقهم حديثاً، وألينهم عريكة، وأعفهم نفساً، وأكرمهم خيراً، وأبرهم عملاً، وأوفاهم عهداً، وآمنهم أمانة، حتى سماه قومه: الأمين، لما جمع فيه من الأحوال الصالحة والخصال المرضية. فأخلاقه ﷺ كانت من إرهاصات النبوة⁽¹⁾.

ومن إرهاصات نبوته تسليم الحجر عليه قبل النبوة كما أخبر ﷺ. ومنها الرؤيا الصادقة وهي أول ما بُدئ به من الوحي فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح. وقد حُبب إليه العزلة والتحنُّن -التعب- فكان يعتزل قومه في غار حراء، وهو في جبل حراء، ويطل الغار على الكعبة، ويحتاج صعوده إلى جهد ويستغرق الصعود نصف ساعة، فكان يمكث فيه الليالي ذوات العدد، قبل أن يرجع إلى أهله ويتزود لذلك، حتى فجأه الوحي وهو في غار حراء⁽²⁾.

ثانياً- النبي ﷺ بعد البعثة

تعبده في غار حراء:

كان النبي ﷺ قبل البعثة بسنوات يخرج إلى غار حراء⁽³⁾ يخلو فيه مقدار شهر -وكان في شهر رمضان- ليفكر في آلاء الله، وعظيم قدرته، وكان يتعبّد الله ﷻ على دين الحنيفية. واستمر على ذلك حتى جاءه الوحي، ونزل عليه القرآن الكريم⁽⁴⁾.

بداية الوحي:

كان أوّل عهد النبي ﷺ بالوحي الرؤيا الصادقة، إذ كان يرى المنام، فيتحقّق في الواقع كقلق الصُّبح، ولما تم للنبي ﷺ أربعون سنة، نزل عليه جبريل ﷺ بالوحي، وتحدّثنا السيدة عائشة -رضي الله عنها- عن كيفية نزول الوحي عليه، فتقول: (أوّل ما بُدئ به رسولُ الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصّادقة في النّوم، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق

(1) انظر: العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 89.

(2) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 123.

(3) حراء: جبل يقع في الجانب الشمالي الغربي من مكة، على قرب منها.

(4) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 65.

الصُّبْحِ، فَكَانَ يَأْتِي حِرَاءَ فَيَتَحَنَّتْ فِيهِ - وَهُوَ التَّعَبُّدُ اللَّيَالِي ذَوَاتِ الْعَدَدِ - وَيَتَزَوَّدُ لَذَلِكَ، ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَى خَدِيجَةَ فَيُزَوِّدُهُ لِمِثْلِهَا، حَتَّى فُجِئَهُ الْحَقُّ وَهُوَ فِي غَارِ حِرَاءٍ، فَجَاءَهُ الْمَلَكُ فِيهِ، فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ ﷺ: فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي» فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّانِيَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي» فَقَالَ: اقْرَأْ، فَقُلْتُ: «مَا أَنَا بِقَارِيٍّ، فَأَخَذَنِي فَعَطَّنِي الثَّالِثَةَ حَتَّى بَلَغَ مِنِّي الْجَهْدُ، ثُمَّ أَرْسَلَنِي» فَقَالَ: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ۝ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ۝ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ۝ عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: 1-5].

فَرَجَعَ بِهَا تَرْجُفُ بَوَادِرُهُ، حَتَّى دَخَلَ عَلَى خَدِيجَةَ، فَقَالَ: «رَمَلُونِي رَمَلُونِي»، فَرَمَلُوهُ حَتَّى ذَهَبَ عَنْهُ الرُّوعُ، فَقَالَ: «يَا خَدِيجَةُ، مَا لِي؟» وَأَخْبَرَهَا الْخَبَرَ، وَقَالَ: «قَدْ خَشِيتُ عَلَى نَفْسِي»، فَقَالَتْ لَهُ: كَلَّا، أَبَشِّرْ، فَوَاللَّهِ لَا يُخْزِيكَ اللَّهُ أَبَدًا، إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وَتَصْدُقُ الْحَدِيثَ، وَتَحْمِلُ الْكَلَّ⁽¹⁾، وَتَقْرِي الضَّيْفَ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ.

ثُمَّ انْطَلَقَتْ بِهِ خَدِيجَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- حَتَّى أَتَتْ بِهِ وَرَقَةَ بْنَ نَوْفَلٍ بْنِ أَسَدِ بْنِ عَبْدِ الْعُزَّى بْنِ قُصَيٍّ، وَهُوَ ابْنُ عَمِّ خَدِيجَةَ، أَخُو أَبِيهَا، وَكَانَ أَمْرًا تَنَصَّرَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ، وَكَانَ يَكْتُبُ الْكِتَابَ الْعَرَبِيَّ، فَيَكْتُبُ بِالْعَرَبِيَّةِ مِنَ الْإِنْجِيلِ مَا شَاءَ اللَّهُ أَنْ يَكْتُبَ، وَكَانَ شَيْخًا كَبِيرًا قَدْ عَمِيَ، فَقَالَتْ لَهُ خَدِيجَةُ: أَيُّ ابْنِ عَمٍّ، أَسْمَعُ مِنْ ابْنِ أَخِيكَ، فَقَالَ وَرَقَةُ: ابْنُ أَخِي، مَاذَا تَرَى؟ فَأَخْبَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ مَا رَأَى، فَقَالَ وَرَقَةُ: هَذَا النَّامُوسُ الَّذِي أُنْزِلَ عَلَى مُوسَى، يَا لَيْتَنِي فِيهَا جَدْعًا، أَكُونُ حَيًّا حِينَ يُخْرِجُكَ قَوْمُكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَوْ مُخْرِجِي هُمْ؟» فَقَالَ وَرَقَةُ: نَعَمْ، لَمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ يَمِثِلُ مَا جِئْتَ بِهِ إِلَّا عُودِي، وَإِنْ يُدْرِكُنِي يَوْمُكَ أَنْصُرَكَ نَصْرًا مُؤَدَّرًا، ثُمَّ لَمْ يَنْشَبْ وَرَقَةُ أَنْ تُوفِّيَ⁽²⁾.

(1) بفتح الكاف، وأصله الثقل، ويدخل فيه الإنفاق على الضيف واليتيم والعيال، وهو من (الكلال) وهو الإعياء.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (3). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (231). قال النووي -رحمه الله- في شرحه لصحيح مسلم: «وأما «صلة الرحم»: فهي الإحسان إلى الأقارب على حسب حال الواصل والموصول، فتارة تكون بالمال وتارة بالخدمة وتارة بالزيارة والسلام وغير ذلك. وأما «الكل»: فهو بفتح الكاف، وأصله الثقل، ويدخل في حمل الكل الإنفاق على الضعيف واليتيم والعيال وغير ذلك، وهو من الكلال وهو الإعياء. وأما معنى «تكسب المعدوم» فمن رواه بالضم فمعناه تكسب غيرك المال المعدوم، أي تعطيه إياه تبرعًا فحذف أحد المفعولين، وقيل: معناه تعطى الناس ما لا يجدونه عند غيرك من نفائس الفوائد ومكارم الأخلاق. وأما رواية الفتح فقيل: معناها كمعنى الضم، وقيل: معناها تكسب المال المعدوم وتصيب

ثم انقطع الوحي بعد ذلك فترة من الزمن اختلفت الروايات في تقديرها، ويبدو أنها ليست بالطويلة، وقد شقَّ انقطاع الوحي على الرسول ﷺ، وأحزنه ذلك كثيرًا، ثم عاد إليه الوحي بعد ذلك، كما يروي الإمام البخاري عن جابر بن عبد الله -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ: «بَيْنَا أَنَا أَمْشِي إِذْ سَمِعْتُ صَوْتًا مِنَ السَّمَاءِ فَرَفَعْتُ بَصْرِي، فَإِذَا الْمَلَكُ الَّذِي جَاءَنِي بِحَرَاءٍ جَالِسٌ عَلَى كُرْسِيِّ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، فَرُعِبْتُ مِنْهُ فَرَجَعْتُ، فَقُلْتُ: زَمَلُونِي زَمَلُونِي»، فأنزل تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَبَيِّنْ بَيْنَ ظَهْرٍ ۝ وَالرُّجْزِ فَاهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: 1-7] فحمي الوحي وتتابع⁽¹⁾.

الدعوة في مكة:

بعد نزول الوحي والأمر بالدعوة، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ [المدثر: 1-2]، فبدأ النبي ﷺ واجبات الدعوة، وأعباءها بإنذار الناس.

وانقسمت الدعوة في مكة إلى مرحلتين، الدعوة السرية والجهرية، وبيان ذلك كما يأتي:

الدعوة السرية:

استمرت طيلة السنوات الثلاث الأولى، دعا فيها ﷺ أقرب الناس إليه، فكان أول من أسلم من الناس جميعًا زوجته خديجة، ومولاه زيد بن حارثة، وابن عمه علي بن أبي طالب الذي كان يتربى في بيته وكان صبيًا، وصديقه الأقرب أبو بكر الصديق، الذي اجتهد في الدعوة،

منه ما يعجز غيرك عن تحصيله، وكانت العرب تتماح بكسب المال المعلوم لا سيما قریش. وأما قولها: «وَتَقْرِي الضَّيْفَ» فهو بفتح التاء قال أهل اللغة: يقال: قرئت الضيف أقریه قرى بكسر القاف مقصور وقرأ بفتح القاف والمد، ويقال للطعام الذي يضيفه به: قرى بكسر القاف مقصور، ويقال لفاعله: قار، مثل قضى فهو قاض. وأما قولها: «وتعين على نوائب الحق»، فالنوائب جمع نائبة، وهي الحادثة، وإنما قالت: «نوائب الحق» لأنَّ النائبة قد تكون في الخير، وقد تكون في الشر». (النووي، المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ج 2 ص 201-202 باختصار).

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (4). ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (161). والإمام أحمد، المسند، رقم (14483)، ج 22 ص 368-369.

فأسلم على يديه عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبي وقاص، وغيرهم -رضوان الله عليهم جميعاً-⁽¹⁾.

الدعوة الجهرية:

انقضت مرحلة الدعوة السرية بنزول قوله ﷺ: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: 214]، بعد أن بلغ عدد الداخلين في الإسلام نحوًا من ثلاثين، فانطلق النبي لدعوة قومه، حيث وقف على جبل الصفا هاتفاً بهم: «يا صباحاه»، فاجتمعت إليه قريش، فقال: «يَا بَنِي فَلَانٍ، يَا بَنِي فَلَانٍ، يَا بَنِي فَلَانٍ، يَا بَنِي عَبْدٍ مَنَافٍ، يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، فَاجْتَمِعُوا إِلَيْهِ، فَقَالَ: أَرَأَيْتَكُمْ لَوْ أَخْبَرْتُكُمْ أَنَّ خَيْلًا تَخْرُجُ بِسَفْحِ هَذَا الْجَبَلِ، أَكُنْتُمْ مُصَدِّقِي؟» قالوا: ما جربنا عليك كذبًا. قال: «فَإِنِّي نَذِيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيِ عَذَابِ شَدِيدٍ». فقال أبو لهب: تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا! ثم قام. فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يُدَا أَيْ لَهَبٍ﴾ [المسد: 1]⁽²⁾. فكان أبو لهب عم النبي ﷺ أعدى أعدائه، وأكثر الناس حربًا لدين الله، هو وزوجته أم جميل⁽³⁾.

إيذاء قريش:

منذ أن جهر النبي ﷺ بدعوته، أخذت قريش على عاتقها منع انتشار هذه الدعوة لما رأى زعماءها من تهديد لمصالحهم الشخصية لو قامت للإسلام قائمة، فبدأت بإيذاء النبي ﷺ وإيذاء كل من دخل في دين الله ﷻ، ولم تألُ جهدًا خلال سنينٍ عشرين في هذه الأذية، فقامت بتعذيب المستضعفين منهم، وبالهزاء واللمز بهم قولًا، وفِعلاً، قال عبد الله بن مسعود -وهو شاهد عيان-: (أول من أظهر إسلامه سبعة، رسول الله ﷺ، وأبو بكر، وعمار، وأمه سُمَيَّة، وصهيب، وبلال، والمقداد).

فأما رسول الله ﷺ فمنعه الله بعمه أبي طالب، وأما أبو بكر ﷺ فمنعه الله بقومه، وأما سائرهم فأخذهم المشركون فألبسوهم أروع الحديد، وصهروهم في الشمس، فما منهم

(1) انظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 1 ص 284-298. وأبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 283-288.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب التفسير، باب سورة تبت يدأ أبي لهب وتب، رقم (4971).

ومسلم، المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾، رقم (208).

(3) أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 292-294.

إنسان إلا وقد واتاهم على ما أرادوا إلا بلالاً، فإنه هانت عليه نفسه في الله وهان على قومه، فأعطوه الولدان وأخذوا يطوفون به شعاب مكة وهو يقول: أَحَدٌ أَحَدٌ، ثم اشترى أبو بكر بلالاً فأعتقه.

وقد أعتق أبو بكر ﷺ ممن كان يعذب في الله سبعة: عامر بن فهيرة، وبلال، ونذيرة، وأم عُبَيْس، والنهدية، وأختها، وجارية بني عمرو بن مؤمل.

ولم يسلم صاحب الدعوة والرسالة من الأذى، فقد ناله نصيبٌ وافرٌ من الاتِّهامات الباطلة، والتشهير الأرعن، فقد اتُّهم تارةً بالجنون، وتارةً أخرى بالسُّحر، وعانى أصحابه الظُّلم، والتحقيق، والشتائم، فما لانت قناتُهم، وما ضعفت عزيمةُهم.

وحاولوا أن يصدوه بالإغراء مرةً والتهديد أخرى، وحاولوا مراراً مع عمه أبي طالب أن يترك حمايته وكان يرفض دائماً⁽¹⁾.

لقاء النَّبي ﷺ صحابته :

كان رسول الله ﷺ في هذه الفترة وفي ظل هذه الظروف يجتمع بالمؤمنين سرّاً في دار الأرقم بن أبي الأرقم الذي دخل في الإسلام أيضاً، وكان الرسول يتلو عليهم ما ينزل عليه من آيات القرآن الكريم، ويعلمهم من أحكام الدين وشرائعه ما كان ينزل حينئذ⁽²⁾.

الهجرة الأولى إلى الحبشة:

حينما اشتدَّت معاناة المسلمين، جرّاء ازدياد تعذيب قريش لهم رخص النَّبي ﷺ لأصحابه بالهجرة إلى الحبشة إلى أن يُحدث الله ﷻ لهم من أمرهم فرجاً ومخرجاً، وكانت بلاد الحبشة تدين بالنصرانية، ويحكمها ملكٌ عادلٌ رقيقٌ بالناس يلقب بالنجاشي، فهاجر إليها المسلمون مرّتين.

فهاجر بعض المسلمين، وكان عددهم عشرة رجال وأربع نسوة، ثم ما لبثوا أن عادوا لما وصلت إليهم إشاعة تقول: إنَّ قريشاً قد أسلمت، وعندما وصلوا إلى مكة وجدوها كما تركوها⁽³⁾.

(1) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 154-156. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 80-91.

(2) أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 1 ص 289. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 91-92.

(3) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 92-94. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج 1 ص 349-350. وج 1 ص 360-361.

ومن الأشخاص الذين كان لإسلامهم أثر في عزة المسلمين في مكة عمُّ النَّبي ﷺ حمزة بن عبد المطلب ، وكان من أشدَّ فرسان مكة وأشجعهم (1).

وكذلك أسلم عمر بن الخطاب ، الذي كان يعادي الدعوة ويعذب أصحابها، الذي كان مهاب الجانب، قوي العزيمة والنشاط.

وبإسلام عمر وحمزة عزَّ المسلمون، وصاروا يغشون الكعبة ويطوفون حولها، ويصلُّون لا يخافون قريشاً (2).

الهجرة الثانية إلى الحبشة:

اقترح الرسول ﷺ على المؤمنين الهجرة مجدداً إلى الحبشة، بعد اشتداد العذاب على المسلمين من قريش، فهاجر حينها من الرجال ثلاثة وثمانون رجلاً، وثمانية عشرة أو تسع عشرة امرأة.

وغاز ذلك قريشاً فأرسلت خلفهم عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، طالبين إليهم إعادة المهاجرين، فلم يقلحوا في مسعاهم، فعاش المهاجرون في حماية النجاشي في الحبشة (3).

وقد رجع منهم عدد قبل الهجرة إلى المدينة، ثم هاجروا مع الرسول ﷺ إليها، ومنهم من بقي إلى عام خيبر، فوصلوا إلى النَّبي ﷺ وهو في خيبر، وكان من هؤلاء ابن عم النَّبي ﷺ جعفر بن أبي طالب .

مكتبة

t.me/soramnqraa

المقاطعة الجائرة:

لما رأت قريش أنَّ أصحاب رسول الله ﷺ قد كثروا وعزُّوا بعد إسلام حمزة وعمر -رضي الله عنهما-، وأنَّ المهاجرين إلى الحبشة قد نزلوا بلدًا أصابوا به أمناً وقراراً، وأنَّ النجاشي قد منع من لجأ إليه منهم، ورأوا الإسلام يفسد في القبائل أجمعوا على أن يقتلوا النَّبي ﷺ، فبلغ ذلك أبا طالب، فجمع بني هاشم وبني المطلب، فأمرهم فأدخلوا رسول الله ﷺ شعبهم: شعب بني هاشم، ومنعوه ممن أرادوا قتله، فأجابوه لذلك حتى كفارهم، فعلوا

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص100-101. أبو شهبة، السيرة النبوية، ج1 ص299-300.

(2) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص101-106. وأبو شهبة، السيرة النبوية، ج1 ص251-356.

(3) أبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج1 ص375-380.

ذلك حمية للرحم والقراية على عادة أهل الجاهلية في ذلك، ولم يشذ عن هذا الإجماع إلا أبو لهب بن عبد المطلب، فقد انحاز إلى قريش وظاهرهم.

فلما رأَت قريش ذلك وأجمعوا أمرهم، واثتمروا فيما بينهم على أن يكتبوا كتابًا يتعاقدون فيه على بني هاشم والمطلب: ألا يتزوجوا منهم، ولا يزوجهم، ولا يبيعوا منهم شيئًا، ولا يبتاعوا، ولا يقبلوا منهم صلحًا أبدًا حتى يسلموا رسول الله ﷺ إليهم ليقتلوه. وكتبوه في صحيفة، وعلقوها في جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبع من النبوة، فدعا رسول الله ﷺ على كاتبها، فشُلَّت يمينه.

فأقاموا على ذلك ثلاث سنين، وكان لا يصل إلى المسلمين ومن معهم من بني هاشم شيء إلا سرًّا مستخفياً ممن أراد صلتهم من قريش، وكان ممن يصلهم حكيم بن حزام ابن أخي السيدة خديجة -رضي الله عنها-، وهشام بن عمرو العامري وكان أوصلهم لبني هاشم⁽¹⁾.

ثم شاء الله ﷻ أن يرفع تلك المقاطعة بتسخير بعض العقلاء من قريش لإنهاؤها، وهؤلاء العقلاء كانوا خمسة هم: هشام بن عمرو من بني عامر بن لؤي، وزهير بن أبي أمية المخزومي، وأبو البختری بن هشام، وزمعة بن الأسود، والمطعم بن عدي، حيث اتفقوا على نقضها ونجحوا في ذلك⁽²⁾.

عام الحزن:

بعد خروج النبي ﷺ ومن معه من الشعب ورفع المقاطعة عنهم توفي عمه أبو طالب، وذلك في السنة العاشرة من البعثة، وكان أبو طالب في حياته شديد الدفاع عن ابن أخيه رسول الله ﷺ، وكانت قريش لا تستطيع أن تنال النبي ﷺ بأذى في نفسه طيلة حياة عمه احترامًا له وهيبة، فلما مات جرئت قريش على تشديد الأذى على النبي ﷺ، ولذلك كانت وفاة أبي طالب مبعث حزن عميق للنبي ﷺ، وقد حرص النبي أن يقول أبو طالب الشهادتين حين احتضاره، وهو على فراش الموت، فأبى خشية أن يلحقه العار أنه خالف دين قومه، ومات على الكفر.

ثم ماتت زوج النبي خديجة -رضي الله عنها- في السنة نفسها، وهي التي كانت تخفف عن الرسول همومه وأحزانه لما يلقاه من عداء قريش، فلما ماتت ازداد حزن النبي ﷺ⁽³⁾.

(1) أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج1 ص359-362.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج1 ص445-446. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج1 ص384-386.

(3) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج2 ص34-38. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج1 ص391-400.

وسُمي ذلك العام الذي مات فيه عمه وزوجه بـ«عام الحزن»، وهذه التسمية لا ترجع إلى عهد الصحابة ولا التابعين.

زوجاه ﷺ بسودة:

ثم عقد النبي ﷺ على سودة بنت زمعة العامرية القرشية -رضي الله عنها- بعد أن توفي عنها زوجها وابن عمها السكران بن عمرو ﷺ، وقد كانت آمنت بالله وبرسوله وخالفت أقاربها وبني عمها، وهاجرت مع زوجها إلى الحبشة في المرة الثانية خوف الفتنة، وعقب رجوعه من هجرته توفي عنها، فلم يكن ثمَّ أجمل مما صنعه الرسول ﷺ بزوجة رجل آمن به، ولو تُركت لقومها مع ما هم عليه من الغلظة وكراهة الإسلام لفتنوها، وكرم نسبها في قومها بمنعها من التزوُّج برجل أقل منها نسبا وشرفاً⁽¹⁾.

وكان عمره ﷺ خمسين سنة، وقيل كان عمر سودة ستاً وستين سنة.

عقده ﷺ على عائشة -رضي الله عنها-:

وبعد ذلك بشهر عقد على عائشة -رضي الله عنها- بنت صديقه أبي بكر ﷺ، ولم يتزوج ﷺ بكرة غيرها، ودخل بها في المدينة في السنة الثانية للهجرة، أي بعد خمسة أعوام⁽²⁾.

البحث عن مكان آخر لنشر الدعوة وبناء الدولة:

لما اشتد كيد قريش وأذاها بعد وفاة عم النبي ﷺ عليه توجه في شوال من السنة العاشرة للهجرة إلى الطائف، وبرفقه غلامه زيد بن حارثة ﷺ، لعله يجد في قبيلة ثقيف سكان الطائف حُسن الإصغاء لدعوته والانتصار لها، وبعد أن مكث فيهم أياماً رده رداً قبيحاً، وأغروا به صبيانهم فقفزوه بالحجارة حتى سال الدم من قدميه الطاهرتين، وعاد رسول الله ﷺ من الطائف دون أن يستجيب أهل الطائف من ثقيف لدعوته.

وفي هذه الغمرة من الأسى والحزن، والآلام النفسية والجسمانية روي أن الرسول ﷺ توجه إلى ربه بهذا الدعاء الذي يفيض إيماناً و يقيناً، ورضاً بما ناله في الله، واسترضاء لله ﷻ⁽³⁾، حيث روي عنه ﷺ أنه قال: «اللَّهُمَّ إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي، وَقَلَّةَ حِيلَتِي،

(1) محمد بن عفيفي الباجوري الخضري، نور اليقين في سيرة سيد المرسلين، (دمشق: دار الفيحاء، ط2، 1425 هـ)، ص58-59. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص117.

(2) الخضري، نور اليقين، ص59.

(3) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج2 ص34. وأبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج1 ص396-400.

وَهَوَانِي عَلَى النَّاسِ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، أَنْتَ أَرْحَمَ الرَّاحِمِينَ، إِلَى مَنْ تَكَلَّنِي؟ إِلَى عَدُوِّ يَنْجَهُمُنِي⁽¹⁾، أَمْ إِلَى قَرِيبٍ مَلَكَتْهُ أَمْرِي، إِنْ لَمْ تَكُنْ غَضَبَانَا عَلَيَّ، فَلَا أَبَالِي، إِنَّ عَافِيَتَكَ أَوْسَعُ لِي، أَعُوذُ بِنُورِ وَجْهِكَ الَّذِي أَشْرَقَتْ لَهُ الظُّلُمَاتُ، وَصَلَحَ عَلَيْهِ أَمْرُ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ أَنْ تُنْزِلَ بِي غَضَبَكَ، أَوْ تُجَلَّ عَلَيَّ سَخَطُكَ، لَكَ الْعُتْبَى⁽²⁾ حَتَّى تَرْضَى، لَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ⁽³⁾.

أمر الجن الذين استمعوا إلى النبي ﷺ :

وفي طريق عودته ﷺ إلى مكة، وفي منطقة «وادي نخلة» قام النبي في جوف الليل يصلي متهجداً، فمرَّ به نفرٌ من الجن، فاستمعوا له، فلما فرغ من صلاته ولوا إلى قومهم منذرين قد آمنوا وأجابوا إلى ما سمعوا، وقد قصَّ الله خبرهم عليه ﷺ، فقال ﷺ: ﴿وَأَذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ۝ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسَى مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ ۝ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرَكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ ۝ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءُ أُولَئِكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ [الأحقاف: 29-32]⁽⁴⁾.

الاحتماء بالمطعم بن عديّ:

ولما رجع النبي ﷺ من الطائف لم يتمكّن من دخول مكة لما علمه كفار قريش من أنّه توجه إلى الطائف يستنصر بأهلها عليهم، فأرسل ﷺ إلى المطعم بن عدي بن نوفل بن عبد مناف يخبره أنّه سيدخل مكة في جواره، فأجاب إلى ذلك، فتسلّح هو وبنوه وتوجّهوا مع رسول الله ﷺ إلى المطاف، فقال له بعض المشركين: أمجير أنت أم تابع؟ فقال: بل مجير. قالوا: إذن لا تخفر ذمتك⁽⁵⁾.

(1) يَنْجَهُمُنِي: يَلْقَانِي بغلظة ووجه كريمة.

(2) لك الْعُتْبَى: هي الترضي، وهو طلب رضا الله، أي: لك مني أن أرضيك من نفسي حتى تَرْضَى عني.

(3) الطبراني، المعجم الكبير، رقم (14764)، ج 14 ص 139. وفي: الدعاء، رقم (1036)، ص 315، مرسلاً.

(4) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 127-128.

(5) الخضري، نور اليقين، ص 62. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 128-129.

وفي هذه الغمرة من الماسي والأحزان، وصدود القوم عن الإيمان، ومحاربة الدعوة الإسلامية بكل الوسائل والطرق، وبعد هذه الشدائد المتلاحقة، كان من رحمة الله بعبده وحبيبه محمد ﷺ أن يُسري عن نفسه الجريحة، وفؤاده المحزون، فكانت معجزة الإسراء والمعراج، تخفيفاً عنه وتثبيتاً له.

والإسراء: هو السير به ﷺ ليلاً من المسجد الحرام في مكة إلى المسجد الأقصى في القدس، **والمعراج:** هو الصعود به من المسجد الأقصى إلى السماوات العلاء.

والإسراء والمعراج معجزة من خوارق العادات، والإسراء ثابت بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء: 1].

وأما المعراج فهو ثابت بالأحاديث الصحيحة التي رواها الثقات العدول، وتلقاها الأمة بالقبول. وكذلك أشير إليه في سورة النجم في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى ۖ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى ۚ عِنْدَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَى ۖ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى ۚ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى ۚ لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم: 13-18].

وهذه المعجزة حدثت للنبي ﷺ يقظة بالجسد والروح في ليلة واحدة، حيث جاءه جبريل وميكائيل -عليهما السلام- وهو في الحجر عند الكعبة، فشقَّ جبريل ﷺ صدره واستخرج قلبه، ثم أتى بطستٍ من ذهبٍ مملوءة إيماناً وحكمة، فغسل قلبه بماء زمزم، ثم حشي إيماناً وحكمة ثم أعيد.

وبعد ذلك أُسري به ﷺ على دابة تُسمَّى البُرَاق من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، وهناك جَمَعَ اللهُ له الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فصلَّى بهم إماماً.

ثم أتى له جبريل ﷺ بِقَدْحَيْنِ أَحَدُهُمَا فِيهِ لَبَنٌ، وَالْآخَرُ فِيهِ خَمْرٌ. فَاخْتَارَ اللَّبَنَ، فَقَالَ جِبْرِيلُ ﷺ: «اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ»⁽¹⁾.

ثم عُرج به من المسجد الأقصى إلى السماوات العُلى، وكلما مرَّ بسمااء سَلَّمَ على أهلها والتقى فيها نبياً من الأنبياء، حتى عَلَا فَوْقَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى في السماء السابعة، وكَلَّمَ اللهُ ﷻ مباشرة دون أن يراه، وفرض ﷻ عليه وعلى أمته في هذا العروج خمس صلوات، ورأى ﷻ الجنة ورأى النار وغيرهما من آيات الله ﷻ، ثم أهبط إلى المسجد الأقصى.

(1) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب الإيمان، باب الإسراء برسول الله ﷺ إلى السماوات وفرض الصلوات، رقم (162).

ومن ثمَّ حُمِلَ على البراق وأُعيد إلى مكة في تلك الليلة، وفي الصباح أخبر قريشًا بأمر المعجزة، فهزئت وسخرت، على الرغم من أنَّه ﷺ وصف لهم بيت المقدس وصفًا دقيقًا، وأخبرهم بخبر قافلة رآها في الطريق.

وقد صدَّقه أبو بكر ؓ وأقوياء الإيمان من صحابته الكرام، وقيل: إِنَّ أبا بكر ؓ سُمي بالصدِّيق لتصديقه بهذه الحادثة دون تردد⁽¹⁾.

عرض النَّبي ﷺ نفسه على القبائل في المواسم والأسواق:

كان النَّبي ﷺ لا يدع فرصةً إلا ويعرض فيها الإسلام على من يقابل، فكان إذا ذهب إلى الأسواق العامة التي تجمع العرب من كل جهة تكلم عن الإسلام ودعا له، وكذلك كان يستثمر مواسم الحج في كل عام للدعوة، وبعد رجوعه من الطائف فعل النَّبي ﷺ ما كان يفعل في مواسم الحج في موسم حج سنة 11 من النبوة، وبينما هو عند العقبة التي ترمى عندها الجمار، لقي ستة شباب من الخزرج من أهل يثرب (المدينة المنورة)⁽²⁾، فدعاهم إلى الإسلام فأسلموا، ووعدوه أن يوافوه في العام القادم.

وكان هؤلاء الستة من عقلاء يثرب، أنهكتهم الحرب الأهلية التي ما تلبث أن تخمد نارها حتى يستعر أوارها بين قومهم الخزرج وأبناء عمومتهم الأوس، فأملوا أن تكون دعوته ﷺ سببًا لوضع الحرب، فقالوا: (إنا قد تركنا قومنا، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم، فعسى أن يجمعهم الله بك، فسنقدم عليهم، فندعوهم إلى أمرك، ونعرض عليهم الذي أجبنك إليه من هذا الدين، فإن يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك).

ولما رجعوا إلى يثرب حملوا إليها رسالة الإسلام، حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها ذكر رسول الله ﷺ⁽³⁾.

(1) انظر أحداث الإسراء والمعراج في كتاب: الآيات البينات في قصة الإسراء بسيد أهل الأرض والسموات، للإمام ابن النجار الشافعي الصالحي، تحقيق مجموعة من الباحثين، (عمَّان: دار الرياحين، ط1، 2022م). وابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ ج2 ص5-24. وأبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج1 ص407-428.

(2) وهم: 1- أسعد بن زُرَّارة. 2- عوف بن الحارث بن رفاعة ابن عَفْراء. 3- رافع بن مالك بن العَجْلان. 4- قُطَبة بن عامر بن حديدة. 5- عُقَبة بن عامر بن نابي. 6- جابر بن عبد الله بن رثاب.

(3) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص135-136.

وفي العام التالي في موسم الحج سنة 12 من النبوة، عاد النفر الستة ومعهم إخوة لهم قبلوا الدخول في الدين، وكان عددهم اثني عشر شاباً⁽¹⁾ من الخزرج ومن الأوس معاً، فاجتمعوا بالنبي ﷺ وبايعوه ﷺ بيعة العقبة الأولى، وكان ذلك بداية ائتلاف القبيلتين تحت راية الإسلام.

وبعث معهم النبي ﷺ مصعب بن عمير ؓ يعلمهم الدين، ويدعو أهل يثرب إلى الإسلام، فنجح نجاحاً باهراً. وقبل حلول موسم الحج التالي -السنة الثالثة عشرة- عاد مصعب بن عمير إلى مكة يحمل إلى رسول الله ﷺ بشائر الفوز، ويقص عليه خبر قبائل يثرب، وما فيها من مواهب الخير، وما لها من قوة ومنعة⁽²⁾.

ثم عند حلول موسم الحج من السنة 13 من النبوة كانت بيعة العقبة الثانية، حيث تشرف ببيعة النبي ﷺ ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من مسلمي يثرب، فنظم الرسول ﷺ أمورهم بعد أن استوثق منهم واتفق معهم على الهجرة وإقامة دولة الإسلام في بلادهم على أن يحموه ودعوته مما يحمون منه أنفسهم وأولادهم، وكانت هذه البيعة مقدمة للهجرة⁽³⁾.

ثالثاً- الهجرة وما بعدها

الإذن بالهجرة:

علمت قريش بإسلام فريق من أهل يثرب، وأن النبي ﷺ وصحابته يخططون للهجرة إلى يثرب فاشتد أذى قريش للمؤمنين بمكة، فأذن النبي ﷺ بالهجرة، فخرج الصحابة من مكة سراً متخفين.

فكان أول المهاجرين أبو سلمة بن عبد الأسد ؓ بعد أن أذنته قريش إثر عودته من هجرة الحبشة فتوجه إلى المدينة في وقت مبكر، تاركاً خلفه زوجته وابنه بعد أن منعتهم قريش.

(1) فيهم خمسة من الستة الذين كانوا قد التقوا رسول الله ﷺ في العام السابق، والسادس الذي لم يحضر هو جابر بن عبد الله بن رثاب، وسبعة سواهم، وهم: -1 معاذ بن الحارث، ابن عقراء من بني النجار من الخزرج. -2 ذكوان بن عبد القيس من بني زريق. من الخزرج. -3 عبادة بن الصامت من بني غنم من الخزرج. -4 يزيد بن ثعلبة من حلفاء بني غنم من الخزرج. -5 العباس بن عباد بن تَصْلَة من بني سالم من الخزرج. -6 أبو الهيثم بن التَّيْهَان من بني عبد الأشهل من الأوس. -7 عُؤَيْم بن ساعدة من بني عمرو بن عوف من الأوس.

(2) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص143-146.

(3) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص147-153. وانظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج2 ص44-95. وأبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج1 ص429-455.

وكذلك كان مصعب بن عمير وابن أم مكتوم من أوائل المهاجرين، حيث كانا يُقرئان النَّاسَ القرآنَ. وقد تتابع المهاجرون فقدم المدينة بلال بن رباح وسعد بن أبي وقاص وعمار بن ياسر ثم عمر بن الخطاب في عشرين من الصحابة، وكلهم هاجروا سرًّا. وقد سعت قريش بِشْتَى الطرق إلى عرقله الهجرة إلى المدينة، وإثارة المشكلات أمام المهاجرين، مرة بحجز أموالهم ومنعهم من حملها، ومرة بحجز زوجاتهم وأطفالهم، وثالثة بالاحتتيال لإعادتهم إلى مكة، لكن شيئًا من ذلك كله لم يعق موكب الهجرة⁽¹⁾.

هجرة النَّبِيِّ ﷺ :

وانتظر النَّبِيُّ ﷺ حتى خَرَجَ كُلُّ من يستطيع الهجرة من أصحابه ﷺ، فأوكل ﷺ إلى ابن عمه عليٍّ ﷺ رَدَّ الودائع والأمانات التي كان قد أودعها أهل مكة عنده إلى أصحابها، ثم خرج ﷺ هو وأبو بكر ﷺ الذي كان قد أعد راحلتين لهذه الرحلة، ولم يعلم بأمر هجرته ﷺ إلا علي ﷺ وآل أبي بكر ﷺ، حيث عملت عائشة وأسماء بنتا أبي بكر في تهيئة الزاد لهما، وقطعت أسماء قطعة من نطاقها -وهو ما يشد به الوسط- فربطت به على فم الجراب -وعاء الطعام- فسميت لأجل ذلك: ذات النطاقين.

واتجه النَّبِيُّ ﷺ وصاحبه ﷺ بعد خروجهما من بيت أبي بكر ﷺ جنوبًا ليخفيا على المشركين طريقهما، حتى وصلا إلى «غار ثور»، فكمنا فيه ثلاث ليال، وكان يبيت عندهما عبد الله بن أبي بكر، وهو شاب حاذق سريع الفهم، فيخرج من عندهما في وقت السَّحَر، ويصبح مع قريش بمكة، كأنَّه كان نائمًا فيها، فلا يسمع من قريش أمرًا يبيتونه لهما إلا وعاه حتى يأتيهما في المساء بخبره، وكان غلامٌ أبي بكر عامر بن فُهيرة يغدو عليهما بغنمه صباحًا ليعفي أثر عبد الله ويسقيهما من حليب الشياه يغذوهما به.

ولما أدركت قريش أنَّ رسول الله ﷺ قد خرج من مكة، وهي التي كانت تخطط لحبسه أو قتله قامت قيامتها، وخرجوا يطلبونه من طريق مكة المعتاد إلى يثرب شمالًا، فلم يجدوه فاتجهوا إلى الجنوب على طريق اليمن، حتى صعدوا جبل ثور، ووقفوا عند فم الغار الذي يختبئ فيه النَّبِيُّ ﷺ وأبو بكر ﷺ، فأعمى الله ﷺ أبصارهم عنهما، ولما رأى أبو بكر ﷺ أقدامهم وهم واقفون على فم الغار، قال: (والله يا رسول الله، لو نظر أحدهم إلى موطن قدمه لرأنا)، فقال له الرسول ﷺ: «يَا أَبَا بَكْرٍ! مَا ظَنُّكَ بِاِثْنَيْنِ اللهُ تَالِثَهُمَا؟»⁽²⁾.

(1) العمري، السيرة النبوية الصحيحة، ج 1 ص 202.

(2) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل أبي بكر الصديق، رقم (2381).

وبعد ثلاث ليال وانقطاع الطلب جاءهما غلامٌ أبي بكر عامر بن فُهيرة ؓ بالراحتين ومعه الدليل الذي استأجره النَّبي ﷺ ليدلهما على الطريق، وهو عبد الله بن أريقط، وكان مشرِّكًا، وتحركوا جميعًا قاصدين يثرب.

وأول ما سلك بهم الدليل ابن أريقط بعد الخروج من الغار أنَّه أمعن في اتجاه الجنوب نحو اليمن، ثم اتجه غربًا نحو الساحل «ساحل البحر الأحمر»، حتى إذا وصل إلى طريق لم يألفه الناس، اتجه شمالًا على مقربة من شاطئ البحر الأحمر.

وكانت قريش قد وضعت جائزة ضخمة لكل من يأتي بالنَّبي وأبي بكر حيين أو ميتين فانتهز الفرصة رجلٌ اسمه سُراقَة بن مالك، وأخذ على نفسه أن يظفر وحده بالجائزة، فخرج في طلبهما.

وبعد أن قطعوا مسافة بعيدة أدركهم سراقَة، فلما اقترب منهما ساخت قوائم فرسه في الرمل فلم تقدر على السير، وحاول ثلاث مرات أن يحملها على السير جهة الرسول ﷺ، وعندئذٍ أيقن أنَّه أمام رسول كريم، فنادى النَّبي ﷺ وطلب منه أن يعطيه الأمان إذا نصره الله ﷻ، ففعل ﷺ وطلب منه أن يخفي عن قريش أنَّه رآهما، وبالفعل عاد سراقَة إلى مكة وتظاهر بأنَّه لم يعثر على أحد⁽¹⁾.

وفي الطريق -في بطن رثم- قبل الوصول إلى المدينة بقليل لقي رسول الله ﷺ الزبير بن العوام، وهو في ركب من التجار، قافلين من الشام، فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثيابًا بياضًا، ليدخلوا المدينة بأحسن حلة⁽²⁾.

أحداث السنة الأولى من الهجرة:

وصول النَّبي ﷺ إلى يثرب:

وصل الرسول ﷺ وصاحبه إلى ضواحي يثرب إلى قُباء، حيثُ تجمَّع الصحابة المهاجرون فيها، وذلك في يوم الاثنين 8 أو 12 من ربيع الأول، فلما وصل ﷺ ضجَّت الطرقات بمستقبله، فأقام في قُباء أيامًا أسس فيها أول مسجد بني في الإسلام.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة، باب: هجرة النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، رقم (3693).

(2) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 161-170.

ثم سار ﷺ صباح أحد أيام الجمعة إلى المدينة، فأدركته صلاة الجمعة في بني سالم بن عوف، فأسس لمسجد هناك وأقام أول جمعة في الإسلام فيه، وأدى أول خطبة خطبها في الإسلام.

ثم سار إلى يثرب فلما وصل إليها أراد كل شخص فيها أن يستضيفه في بيته، لكن وقع الاختيار على أبي أيوب الأنصاري ؓ، فأقام النبي ﷺ عنده حتى بنى له حُجرة ملتصقة بالمسجد⁽¹⁾.

بناء المسجد النبوي:

وقد كان أول عمل عمله بعد وصوله أن اختار مكاناً ليكون مسجداً له، وكان المكان لغلامين يتيمين من الأنصار، فساوتهما على ثمنه، فقالا: (بل نهيه لك يا رسول الله)، فأبى إلا أن يبتاعه منهما، فاشتراه بعشرة دنانير ذهباً أداها من مال أبي بكر ؓ، ثم ندب المسلمين للاشتراك في بناء المسجد، فأسرعوا إلى ذلك، وكان رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبن -الطوب-، حتى تم بناء المسجد، وكانت جدرانها من لبن، وسقفه من جريد النخل مقاماً على الجذوع⁽²⁾.

مكونات المجتمع في يثرب:

كانت يثرب قبيل هجرة المسلمين تضم العديد من الفئات، وهم: قبائل الأوس والخزرج⁽³⁾، ولقبوا بعد الهجرة بـ (الأنصار)، لأنهم نصرُوا الرسول وأصحابه من المهاجرين، كما ضمت المدينة قبائل من يهود (بني قريظة، وبني قينقاع، وبني النضير)، وبذلك ضم مجتمع المدينة المنورة بعد الهجرة المسلمين الأنصار، والمهاجرين، ومن بقي على الشرك من الأوس والخزرج، واليهود⁽⁴⁾.

المؤاخاة بين المهاجرين والأنصار:

ولأجل أن يصهر النبي المجتمع الإسلامي الناشئ ببوتقة واحدة آخى ﷺ بين المهاجرين والأنصار، وكانت المؤاخاة في دار أنس بن مالك ؓ، فقدّم الأنصارُ السكن والطعام

(1) أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 30-31. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 170-174.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 2 ص 136-150. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج 2 ص 21-27.

(3) الأوس والخزرج هما أخوان، وهما جدّ القبيلتين، والأوس يعني العطية أو الذئب، والخزرج يعني الريح الباردة.

(4) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 177-183.

للمهاجرين، وشاركوا معهم أموالهم من أجل مساعدتهم بعد الهجرة، وبهذا حلَّ النبي ﷺ مُشكلات المهاجرين المعيشية والاجتماعية والمادية، وبذلك أصبح المسلمون في المدينة إخوانًا يتشاركون لُقمة عيشهم⁽¹⁾.

وثيقة المدينة المنورة:

ولأجل تنظيم العلاقات بين مكونات المجتمع المدني الجديد كتب رسول الله ﷺ كتابًا بين المهاجرين والأنصار، كذلك وادع فيه اليهود، وأقرهم على دينهم وأموالهم، وكان هذا الكتاب أو تلك الوثيقة متضمنة المبادئ التي قامت عليها أول دولة في الإسلام، وفيها من الإنسانية والعدالة الاجتماعية والتسامح الديني والتعاون على مصلحة المجتمع⁽²⁾.

الإذن بالقتال والتحرك العسكري:

حاولت قريش التواصل مع مَنْ بقوا على الشرك من الأوس والخزرج لإشعال فتنة في المدينة، فبلغ ذلك النبي ﷺ فعالج الأمر بحكمة وحزم وبيّن لهؤلاء المشركين أنهم أول المتضررين لو وقع الاضطراب الداخلي بينهم وبين إخوانهم وأبناء عمومتهم من مسلمي الأوس والخزرج، فهدأ القوم وأحبط النبي ﷺ الفتنة في مهدها.

كذلك بلغ إلى مسامع المسلمين أَنَّ قريشًا تحاول اغتيال النبي ﷺ، لذا وضع النبي ﷺ حراسة على بابه.

كذلك أعلنت قريش صدها للمسلمين عن المسجد الحرام، وأمام ذلك كله كان لزامًا من مواجهة هذا العدو المتغطرس، الذي كان قبل ذلك كله قد آذى المسلمين في أنفسهم وفي أموالهم من خلال الاستيلاء على أموالهم وأملأهم في مكة. لذا جاء الإذن بالقتال بعد الهجرة مباشرة، وذلك بنزول قوله تعالى: ﴿أَذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بِأَنَّهُمْ ظَلَمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: 39].

وقد بدأت ملامح هذا الإذن خلال بيعة العقبة الثانية، حيث بايع رسول الله ﷺ الأنصار على حمايته بما يحمون به أنفسهم وذرايعهم وجرت خلال مفاوضات البيعة كلمات تشير إلى ضرورة الاستعداد للتصدي لعدوان من يعتدي على رسول الله ﷺ وعلى دينه إذا قصدوا المدينة المنورة.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 2 ص 156-160. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج 2 ص 49-51. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 185-186.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 2 ص 150-156. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 186-188. وص 192-193.

وَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ مَعَ هَذَا الْإِذْنَ آيَاتَ بَيِّنٍ فِيهَا أَنَّ هَذَا الْإِذْنَ إِنَّمَا هُوَ لِإِزَاحَةِ الْبَاطِلِ وَإِقَامَةِ شَعَائِرِ اللَّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنْكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [الحج: 41].

وكان الإذن مقتصرًا على قتال قريش، ثُمَّ تطور فيما بعد مع تغير الظروف حتى وصل إلى مرحلة الوجوب، وجاوز قريشًا إلى غيرهم.

ولما نزل الإذن بالقتال رأى رسول الله ﷺ أن يبسط سيطرته على الطريق الرئيس الذي تسلكه قريش من مكة إلى الشام في تجارتهم، واختار لذلك خطتين:

الأولى: عقد معاهدات الحلف أو عدم الاعتداء مع القبائل التي كانت مجاورة لهذا الطريق، أو كانت تقطن ما بين هذا الطريق وما بين المدينة، وقد عقد ﷺ معاهدة مع قبيلة «جهينة» قبل الأخذ في النشاط العسكري، وكانت مساكنهم على ثلاث مراحل من المدينة، كما عقد معاهدات أخرى في أثناء دورياته العسكرية، وسيأتي ذكرها.

الثانية: إرسال البعوث واحدة تلو الأخرى إلى هذا الطريق.

ولتنفيذ هاتين الخطتين بدأ بالتحركات العسكرية فعلاً بعد نزول الإذن بالقتال وكانت أشبه بالدوريات الاستطلاعية، وكان المطلوب منها كما أشرنا:

- 1 - الاستكشاف والتعرف على الطرق المحيطة بالمدينة، والمسالك المؤدية إلى مكة.
- 2 - عقد المعاهدات مع القبائل التي مساكنها على هذه الطرق.
- 3 - إشعار مشركي يثرب ويهودها وأعراب البادية الضاربين حول المدينة أَنَّ المسلمين أقوياء، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم.
- 4 - إنذار قريش عقب طيشها، حتى تفيق من غيها الذي لا يزال يتوغل في أعماقها، وعَلَّها تشعر بتفاقم الخطر على اقتصادها وأسباب معاشها فتجئ إلى السلم، وتمتنع عن إرادة قتال المسلمين في عقر دارهم، وعن الصد عن سبيل الله، وعن تعذيب المستضعفين من المؤمنين في مكة، حتى يصير المسلمون أحرارًا في إبلاغ رسالة الله في ربوع الجزيرة⁽¹⁾.

أول سرية⁽¹⁾ كانت في رمضان من السنة الأولى للهجرة، أمر رسول الله ﷺ على هذه السرية حمزة بن عبد المطلب، وبعثه في ثلاثين رجلاً من المهاجرين يعترضون عيراً لقريش جاءت من الشام، وفيها أبو جهل بن هشام في ثلاثمائة رجل، فبلغوا ساحل البحر من ناحية العيص⁽²⁾، فالتقوا واصطفوا للقتال، فمضى مجدي بن عمرو الجهني - وكان حليفاً للفريقين جميعاً - بين هؤلاء وهؤلاء حتى حجز بينهم فلم يقتتلوا.

سرية رابع:

في شوال من السنة الأولى للهجرة، الموافق أبريل سنة 632م، بعث لها رسول الله ﷺ عبدة بن الحارث بن المطلب في ستين رجلاً من المهاجرين، فلقى أبا سفيان - وهو في مائتين - على بطن رابع، وقد ترامي الفريقان بالنبل، ولم يقع قتال.

وفي هذه السرية انضم رجلان من جيش مكة إلى المسلمين، وهما المقداد بن عمرو البهراني⁽³⁾، وعتبة بن غزوان المازني، وكانا مسلمين خرجا مع الكفار ليكون ذلك وسيلة للوصول إلى المسلمين.

سرية الخرار:

في ذي العقدة من السنة الأولى للهجرة، بعث لها رسول الله ﷺ سعد بن أبي وقاص في عشرين رجلاً يعترضون عيراً لقريش، وعهد إليه ألا يجاوز الخرار⁽⁴⁾، فخرجوا مشاة يكمنون بالنهار، ويسرون بالليل، حتى بلغوا الخرار صبيحة خمس، فوجدوا العير قد مرت بالأمس⁽⁵⁾.

(1) السرية هي البعث الذي يبعثه النبي ﷺ للكفار، وغالباً تكون بلا قتال، ولا يشارك النبي فيه، ولقد سميت بهذا الاسم نسبة إلى السري، وهو المشي ليلاً خفية، وهذا سبب إرسالهم إذ لا يشعر بهم العدو. ويبلغ أقصى عددها 400. والفرق بين السرية والغزوة هو اشتراك النبي ﷺ في الغزوة، بينما لا يشارك في السرية ويبعث بأحد الصحابة.

(2) وإد لجهينة يبعد عن البحر 90 كم ويبعد عن المدينة 170 كم يقع شمال غرب.

(3) يقال له: المقداد بن الأسود، لأنه ربي في حجر الأسود بن عبد يغوث الزهري فتبناه، وقيل: بل كان عبداً له أسود اللون فتبناه، ويقال: بل أصاب دماً في كعدة، فهرب إلى مكة، وحالف الأسود.

(4) اسم منطقة بالقرب من الجحفة.

(5) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 197-198.

في السنة الأولى توفي من المهاجرين عثمان بن مظعون ؓ أخو رسول الله ﷺ من الرضاع، أسلم قديماً، وهاجر الهجرتين.

وتوفي من الأنصار أسعد بن زُرارة ؓ أحد النقباء الاثني عشر كان ؓ نقيب بني النجار، وله اليد الطُولَى في مساعدة مصعب بن عمير ؓ عند قدومه إلى يثرب في نشر الإسلام بين أهلها.

وتوفي أيضاً البراء بن معرور ؓ أحد النقباء⁽¹⁾.

أحداث السنة الثانية من الهجرة:

غزوة الأبواء أو ودّان:

كانت أول غزوة للنبي ﷺ، حيث خرج في صفر السنة الثانية للهجرة، في سبعين رجلاً من المهاجرين خاصة يعترض عيراً لقريش، حتى بلغ ودّان، فلم يلق كيّداً، واستخلف فيها على المدينة سعد بن عباد ؓ.

وفي هذه الغزوة عقد معاهدة حلف مع عمرو بن مخشى الضمري، وكان سيد بني ضمرة في زمانه.

غزوة بواط:

في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، خرج فيها رسول الله ﷺ في مائتين من أصحابه، يعترض عيراً لقريش فيها أمية بن خلف الجمحي ومائة رجل من قريش، وألفان وخمسمائة بعير، فبلغ بواطاً من ناحية رضوى ولم يلق كيّداً فعاد.

غزوة سفوان:

في شهر ربيع الأول من السنة الثانية للهجرة، أغار كُرْزُ بْنُ جَابِرٍ الْفُهْرِيُّ⁽²⁾ في قوات خفيفة من المشركين على مراعي المدينة، ونهب بعض المواشي.

فخرج رسول الله ﷺ في سبعين رجلاً من أصحابه لمطاردته، حتى بلغ وادي «سفوان» من ناحية بدر، ولكنه لم يدرك كُرْزاً وأصحابه، فرجع من دون حرب، وهذه الغزوة تسمى بغزوة بدر الأولى.

(1) الخضري، نور اليقين، ص 91-92.

(2) كرز بن جابر الفهري صحابي جليل، أسلم بعد الهجرة النبوية.

في جمادى الأولى- جمادى الآخرة من السنة الثانية للهجرة، خرج فيها رسول الله ﷺ في خمسين ومائة ويقال: في مائتين، من المهاجرين، ولم يكره أحدًا على الخروج، وخرجوا على ثلاثين بعيرًا يعتقبونها، يعترضون عيرًا لقريش، ذاهبة إلى الشام، فبلغ ذا العُشيرة، فوجد العير قد فاتته بأيام. وهذه هي العير التي خرج في طلبها حين رجعت من الشام، فصارت سببًا لغزوة بدر الكبرى.

وفي هذه الغزوة عقد رسول الله ﷺ معاهدة عدم اعتداء مع بني مدلج وحلفائهم من بني ضمرة.

سرية نخلة:

في رجب من السنة الثانية للهجرة، بعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش الأسدي إلى نخلة في اثني عشر رجلًا من المهاجرين، كل اثنين يعتقبان على بعير. فساروا حتى نزلوا بمنطقة نخلة، فمرت عير لقريش تحمل مؤنة وتجارة، وفيها عمرو بن الحضرمي، وعثمان ونوفل ابنا عبد الله بن المغيرة، والحكم ابن كيسان مولى بني المغيرة.

فتشاور المسلمون وقالوا: نحن في آخر يوم من رجب الشهر الحرام، فإن قاتلناهم انتهكنا الشهر الحرام، وإن تركناهم الليلة دخلوا الحرم، ثم اجتمعوا على اللقاء، فرمى أحدهم عمرو بن الحضرمي فقتله، وأسروا عثمان والحكم وأفلت نوفل، ثم قدموا بالبعير والأسيرين إلى المدينة. فأنكر رسول الله ﷺ ما فعلوه، وقال: «مَا أَمَرْتُكُمْ بِقِتَالٍ فِي الشَّهْرِ الْحَرَامِ»، وتوقف عن التصرف في العير والأسيرين.

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله ﷻ، وكثر في ذلك القيل والقال، حتى نزل الوحي حاسمًا هذه الأقاويل وأن ما عليه المشركون أكبر وأعظم مما ارتكبه المسلمون: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ﴾ [البقرة: 217].

فقد صرح هذا الوحي بأن الضجة التي افتعلها المشركون لإثارة الريبة في سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها، فإن الحرمات المقدسة قد انتهكت كلها في محاربة الإسلام، واضطهاد أهله، ألم يكن المسلمون مقيمين بالبلد الحرام حين تقرر سلب أموالهم

وقتل نبيهم؟ فما الذي أعاد لهذه الحرمات قداستها فجأة، فأصبح انتهاكها معرة وشناعة؟ لا جرم أن الدعاية التي أخذ ينشرها المشركون دعاية تبتني على وقاحة ودعارة. وبعد ذلك أطلق رسول الله ﷺ سراح الأسيرين، وأدّى دية المقتول إلى أوليائه⁽¹⁾.

تحويل القبلة:

مكث النبي ﷺ بالمدينة ستة عشر أو سبعة عشر شهراً يستقبل بيت المقدس في صلاته، وكان يحب أن تكون قبلته الكعبة ويقبّل وجهه في السماء داعياً الله بذلك. وبينما هو في صلاته إذ أوحى الله ﷻ إليه بتحويل القبلة إلى الكعبة فتحول وتحول من وراءه.

وكانت هذه الحادثة سبباً لافتتان بعض المسلمين الذين ضعفت قلوبهم فارتدّوا على أعقابهم، وقد أكثر اليهود من التنديد على الإسلام بهذا التحويل، وما دروا أنّ لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم⁽²⁾.

غزوة بدر الكبرى:

تُسمّى غزوة بدر بغزوة الفرقان، وغزوة بدر الكبرى، وكانت في اليوم السابع عشر من رمضان للسنة الثانية من الهجرة، وسببها أنّ النبي ﷺ حتّ أصحابه للتعرض لقافلة قريش العائدة من الشام إلى مكة، ولم يكن يريد قتالاً، ولكن القافلة التي كان يقودها أبو سفيان نجت بعد أن كان قد أرسل إلى قريش يستنفرها لحماية القافلة، فخرجت قريش في نحو من ألف مقاتل، منهم ستمائة دارع (لابس للدرع) ومائة فرس عليها مائة درع سوى دروع المشاة، وسبعمائة بعير، ومعهم القيان يضربن بالدفوف، ويغنين بهجاء المسلمين. أما المسلمون فكانت عدتهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر رجلاً، وأكثرهم من الأنصار، وكان معهم سبعون جَملاً، وفرسان أو ثلاثة أفراس فحسب.

وقبل أن يخوض النبي ﷺ المعركة، أراد أن يستشير أصحابه، وبخاصة الأنصار، في خوض المعركة، فأشار عليه المهاجرون بخوضها، وتكلموا خيراً، ثمّ علم الأنصار أنّه يريدهم، فقالوا كلاماً سرّ رسول الله ﷺ أبدوا فيه موافقتهم على الغزو.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج2 ص290-295. والباركفوري، الرحيق المختوم، ص198-201.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج2 ص295-296. والخضري، نور اليقين، ص96.

ثم سار الرسول ﷺ حتى وصل إلى أدنى ماء من بدر فنزل به، فأشار عليه الحُبَاب بن المنذر ﷺ أن يسير إلى مكان آخر يستطيع المسلمون فيه من قطع ماء بدر عن المشركين، فنهض الرسول ﷺ وأصحابه حتى وصلوا إلى المكان الذي أشار به الحُبَاب، فأقاموا فيه. ثم أشار سعد بن مُعَاذ ﷺ أن يبني للرسول ﷺ عريشاً وراء صفوف المسلمين، فإن أعزهم الله ﷻ كان ما أحب، وإلا جلس على ركائبه ولحق بمن في المدينة، فدعا له النَّبِيُّ ﷺ، وأمر أن يبني له العريش.

وبعد أن بُني العريش أخذ الرسول ﷺ في الدعاء، ومن دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أُنْشِدُكَ عَهْدَكَ وَوَعْدَكَ، اللَّهُمَّ إِنْ شِئْتَ لَمْ تُعَبِّدْ بَعْدَ الْيَوْمِ»، فأخذ أبو بكر ﷺ بيده، فقال: حسبك يا رسول الله، فقد ألححت على ربك وهو في الدرع، فخرج ﷺ وهو يقول: ﴿سَيَهْزُمُ الْجَمْعُ وَيُؤَلِّوْنَ الدَّبْرَ﴾ ١٥ بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَذَى وَأَمْرٌ ﴿[القمر: 45-46] (1).

والتقى المسلمون جيش المشركين عند عيون ماء بدر، وقد بدأ المشركون بالهجوم عن طريق الأسود بن عبد الأسد، الذي حلف أن يشرب من حوض المسلمين، فإن لم يتمكن من ذلك هَدَمَهُ، فتصدَّى له حمزة بن عبد المطلب ﷺ حتى قتله، واشتعلت نار المعركة، فخرج ثلاثة من أفضل فرسان قريش، وهم: عتبة وأخوه شيبة ابنا ربيعة، والوليد بن عتبة يطلبون المبارزة.

فخرج لهم ثلاثة من الأنصار، إلا أنَّ فرسان قريش طلبوا من رسول الله ﷺ فُرساناً من بني عَمِّهِمْ لمُبارزتهم، فأخرج لهم رسول الله ﷺ عبيدة بن الحارث، وحمزة بن عبدالمطلب، وعلياً بن أبي طالب ﷺ، وقيل: إنَّ رسول الله هو من أرجع الأنصار، حتى تكون عشيرته أوَّل من يواجه العدو، فبدأ النزال، وسرعان ما قُتل فرسان قريش.

فبلغ الغضب قمته لدى المشركين لهذه البداية المُحِبِّطَة، فهجموا هجمة رجل واحد على المسلمين، مُتَّبِعِينَ أسلوب الكَرِّ والفَرِّ في قتالهم.

وقاتل المسلمون بأسلوب مُختلف تماماً، حيث اهتَمَّ النَّبِيُّ ﷺ بترتيب المقاتلين صفوفًا، فجعل الصفوف الأمامية تُقاتل بالرماح، لمواجهة فرسان العدو، أمَّا بقيَّة الصفوف فقد كانت ترمي العدو بالنُّبال، مع رباط الصفوف جميعها في مواقعها حتى يَفْقِدَ المشركون الزخم في عددهم، ففتقدَّم الصفوف كُلُّها مُهاجمة العدو، وهذا الأسلوب مَكَّنَ النَّبِيَّ ﷺ من إدارة قوَّة جيشه، وتأمين قوَّة احتياطية للطوارئ.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (3042)، ج 5 ص 165. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب: ما قيل في درع النبي ﷺ والقميص في الحرب، رقم (2758).

داوم رسول الله ﷺ على حث المسلمين وتشجيعهم على القتال، فالموقف صعب، ولا بُدَّ من الاستمرار برفع المعنويات، فكان يُحَفِّزُهُمْ بقوله: «قُومُوا إِلَى جَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ»، وأمام هذا التشجيع قام رجل من الأنصار اسمه عُمَيْرُ بْنُ الْحُمَامِ ؓ فقال: (يا رَسُولَ اللَّهِ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ؟ قال ﷺ: «نَعَمْ». قال: بَخٍ بَخٍ، فقال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا يَحْمِلُكَ عَلَى قَوْلِكَ بَخٍ بَخٍ؟». قال: لا والله يا رَسُولَ اللَّهِ، إِلَّا رَجَاءُ أَنْ أَكُونَ مِنْ أَهْلِهَا، قَالَ: «فَإِنَّكَ مِنْ أَهْلِهَا»، فأُخْرِجَ تَمَرَاتٍ مِنْ قَرْنِهِ فَجَعَلَ يَأْكُلُ مِنْهُنَّ، ثُمَّ قَالَ: لَئِنْ أَنَا حَيِّيتُ حَتَّى أَكُلَ تَمَرَاتِي هَذِهِ، إِنَّهَا لِحَيَاةٍ طَوِيلَةٍ، قال: فرمى بما كان معه مِنَ التَّمْرِ، ثُمَّ قَاتَلَهُمْ حَتَّى قُتِلَ⁽¹⁾.

كذلك واصل ﷺ التضرع لله والدعاء للمسلمين حتى أوحى الله إليه: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلِيفٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾ [الأنفال: 9]، وأمر الله ملائكته بقوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَتَيَّبُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ﴾ [الأنفال: 12]. فكان المَدَد من الله أعدادًا من الملائكة، وليس مَلَكًا واحدًا على الرغم من كفايته، وذلك بشارة للمسلمين، إذ قال ﷺ: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: 10].

وصلت المعركة إلى النهاية بعد أن تزعزعت صفوف المشركين واضطربت وبدؤوا بالانسحاب والفرار، وأخذ المسلمون بالقتل والأسر حتى ألحقوا الهزيمة الفادحة بالمشركين. بعد ذلك تحرَّك رسول الله ﷺ بجيشه نحو المدينة ومعه الأسرى من المشركين، وقد بلغ عددهم سبعين رجلًا، قُتِلَ مِنْهُمْ اثْنَانِ مِمَّنْ عُرِفُوا بِأَذْيَتِهِمُ الشَّدِيدَةَ للمسلمين، وهما: النضر بن الحارث، وعقبة بن أبي مُعيط.

وعندما وصل رسول الله ﷺ إلى المدينة، استشار أصحابه في قضية الأسرى، فرأى أبو بكر ؓ أخذ الفدية منهم، ورأى عمر بن الخطاب ؓ الحزم وقتلهم، لأنَّ إيذاءهم كان شديدًا للمسلمين، وقد أخذ رسول الله ﷺ بمشورة أبي بكر ؓ بأخذ الفدية منهم.

أما كيفية الفداء فكانت بأخذ ألف إلى أربعة آلاف درهم عن الأسير، فإن لم يجد ما يفدي به نفسه، علَّم الكتابة لعشرة من مُسْلِمِي المدينة، وقد مَنَّ رسول الله ﷺ على عدد من الأسرى بإطلاق سراحهم دون الفداء.

(1) أخرجه مسلم، المسند الصحيح، كتاب الإمامة، باب ثبوت الجنة للشهيد، رقم (1900).

وكان عدد المسلمين الذين استشهدوا في المعركة أربعة عشر رجلاً، ستة من المهاجرين، وثمانية من الأنصار، أما قتلى المشركين فقد بلغ عددهم سبعين رجلاً معظمهم من قادة قريش، منهم أبو جهل وأمّية بن خلف⁽¹⁾.

غزوة بني سليم بالكدر:

لما رجّع رسول الله ﷺ من بدر لم يبق في المدينة إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه، يريد بني سليم. فبلغ ماء من مياههم، يقال له: الكدر، فأقام عليه ثلاث ليالٍ ثم رجع إلى المدينة، ولم يلق كيذاً، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة، وأفدى في إقامته تلك جُلّ الأسارى من قريش⁽²⁾.

غزوة بني قينقاع:

بعد تمام الظفر في بدر، نبذ يهودُ بني قينقاع ما عاهدوا المسلمين عليه، وأظهروا مكنون ضمائرهم، فبدت البغضاء من أفواههم، فدعا ﷺ رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغي ونكث العهد، فقالوا: (يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك، فإنهم لا علم لهم بالحرب، ولو لقيتنا لتعلمن أننا نحن الناس)، وكانوا أشجع يهود، وبدل أن ينزجروا انتهك تاجر من تجارهم حرمة سيدة من نساء الأنصار في سوقهم، فلما صرخت لبى نداءها أنصاري كان موجوداً في السوق فقتل التاجر فاجتمع عليه بنو قينقاع فقتلوه.

وبدل أن يأتوا إلى النبي ﷺ لمعالجة الموقف أظهروا العداوة وتحصنوا بحصونهم، فسار إليهم النبي ﷺ بجيش في النصف من شوال من هذه السنة، فحاصره خمس عشرة ليلة، وكان يحمل لواءه عمه حمزة ، وخلف على المدينة أبا لبابة بشير بن عبد المنذر الأنصاري .

وعند ذلك تبرأ من حلفهم عبادة بن الصامت ، أحد رؤساء الخزرج، وتشبّث بالحلف عبد الله بن أبي، وقال: (لني رجل أخسى الدوائر).

ولمّا رأى بنو قينقاع من أنفسهم العجز عن مقاومة المسلمين وأدركهم الرعب سألوا رسول الله ﷺ أن يخلي سبيلهم، فيخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية، وللمسلمين

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 2 ص 297-390. وص 438-455. والخضري، نور اليقين، ص 97-113. وأبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 123-166.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 5.

الأموال، فقبل ذلك ﷺ، ووُكِّلَ جلاءهم إلى عبادة بن الصامت ؓ وأمهلهم ثلاث ليال، فجلوا إلى أذرعات (درعة في سوريا)، ولم يحل عليهم الحول حتى انتهى ذكرهم⁽¹⁾.

غزوة السَّوِّيق: (2)

كان أبو سفيان بعد غزوة بدر متحفزاً لمعاودة قتال المسلمين، لأنه قُتل فيها ابنه وقرباته، فحلف ألا يمَسَّ رأسه الماء حتى يغزو محمّداً، ولكي يبرَّ بقسمه خرج بمائتين من أصحابه يريد المدينة، ولما قاربها أراد أن يقابل اليهود من بني النضير ليهيجهم ويستعين بهم على حرب المسلمين، فأتى سيدهم حيي بن أخطب فلم يقبل مقابلته، فأتى سَلام بن مُشْكِم فأذن له واجتمع به، ثم خرج من عنده.

فأرسل أبو سفيان بعد ذلك مجموعة من جنوده إلى المدينة فحرّقوا بعض نخلها، ووجدوا أنصارياً هو وصديق له فقتلوهما، ولما علم بذلك رسول الله ﷺ خرج في أثرهم في مائتين من أصحابه لخميس خَلون من ذي الحجة، بعد أن ولى على المدينة أبا لُبابة ؓ، ولكن النبي ﷺ لم يتمكن من اللحاق بهم لأنهم هربوا، وكانوا قد ألقوا ما معهم من أكياس السَّوِّيق ليتخففوا من حملتهم، فأخذها المسلمون، ولذلك سميت هذه الغزوة بغزوة السَّوِّيق⁽³⁾.

بعض أحداث هذه السنة:

وفي هذه السنة توفيت أولى بنات النبي ﷺ رقية زوج عثمان بن عفان -رضي الله عنهما-.

وفي هذه السنة تزوج علي بن أبي طالب ؓ بفاطمة بنت رسول الله ﷺ، وكان منها -رضي الله عنها- عقب رسول الله ﷺ الحسن والحسين وزينب -رضي الله عنهم-.

وفي هذه السنة دخل النبي ﷺ بعائشة بنت أبي بكر -رضي الله عنها-، بعد أن كان قد عقد عليها قبل الهجرة بثلاث سنين⁽⁴⁾.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 10-14. والخضري، نور اليقين، ص 113-115. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 236-240.

(2) السَّوِّيقُ: طعامٌ يَتَّخَذُ من مدقوق الحنطة والشعير بعد قليهما، ويضاف إليه الماء أو اللبن عند أكله: سُمِّيَ بذلك لانسياقه في الحلق.

(3) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 5-9. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 240-241.

(4) الخضري، نور اليقين، ص 115.

أحداث السنة الثالثة من الهجرة:

قتل كعب بن الأشرف:

افتتحت هذه السنة بمقتل كعب بن الأشرف أحد اليهود الذين سَخَّروا وقتهم وجهدهم للتحريض على الإسلام ورسوله ﷺ، حيث اغتيل على يد مفرزة من رجال الأوس، يرأسها محمد بن مسلمة ؓ.

غزوة غطفان:

ثم غزا رسول الله ﷺ غطفان، بعد أن رجع من غزوة السويق، بعد أن بلغه أنهم يجتمعون لغزو المدينة، فلما سمعوا بخبر خروجه ﷺ لغزوهم هربوا ولم يستطيعوا مواجهة المسلمين، وهي غزوة ذي أمر، واستعمل على المدينة عثمان بن عفان ؓ.

غزوة بخران:

ثم غزا ﷺ بخران⁽¹⁾ بعد أن تناهى إليه أن جمعاً من بين سليم يريدون الغارة على المدينة، فكان شأنهم كشأن من قبلهم.

سرية زيد إلى نجد:

وسير ﷺ زيد بن حارثة ؓ بسرية تلقاء نجد ليلقى قافلة لقريش بقيادة أبي سفيان، حيث أرادت قريش تغيير طريق تجارتها المعتاد، فلقاهم زيد عند ماء يسمى الفردة، واستطاع أن يحوز ما في أيديهم ويعود به إلى المدينة⁽²⁾.

غزوة أحد:

ومن أهم الأحداث في هذه السنة غزوة أحد، كانت يوم السبت لخمسة عشر خلت من شوال.

وسببها أن قريشاً أرادت أن تتأثر ليوم بدر، فما زالت تستعد حتى تجهزت لغزو المدينة، فخرجت في ثلاثة آلاف مقاتل، ومعهم سبع عشرة امرأة، فيهن هند بنت عتبة زوج أبي

(1) جبل شرق المدينة المنورة على 90 كم منها.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 9-10. وص 14-28. والخضري، نور اليقين، ص 116-119. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 242-247.

سفیان، وقد قتل أبوها يوم بدر، ثم ساروا حتى وصلوا إلى بطن الوادي من قبل جبل أحد⁽¹⁾ مقابل المدينة.

وكان من رأي الرسول ﷺ وعدد من الصحابة ألا يخرج المسلمون إليهم، بل يظلون في المدينة، فإن هاجمهم المشركون صدوهم عنها، وكان النبي ﷺ قد رأى رؤيا فأخبرهم بها، فقال ﷺ: «رَأَيْتُ كَأَنِّي فِي دِرْعِ حَصِينَةٍ، وَرَأَيْتُ بَقْرًا يُنْحَرُ، فَأَوَّلْتُ أَنَّ الدَّرْعَ الْمَدِينَةَ، وَأَنَّ الْبَقَرَ نَفَرٌ وَاللَّهُ خَيْرٌ، وَلَوْ أَقَمْنَا بِالْمَدِينَةِ، فَإِنْ دَخَلُوا عَلَيْنَا قَاتَلْنَاهُمْ».

ولكن بعض شباب المسلمين وبعض المهاجرين والأنصار، وبخاصة من لم يحضر منهم معركة بدر ولم يحصل له شرف القتال فيها، تحمسوا للخروج إليهم ومنازلتهم في أماكنهم، فنزل الرسول ﷺ عند رأيهم، ودخل بيته ولبس لأمته (درعه)، وألقى الترس في ظهره، وأخذ قناته بيده، ثم خرج إلى المسلمين، وهو متقلد سيفه، فندم الذين أشاروا عليه بالخروج إذ كانوا سبباً في حمله على خلاف رأيه، وقالوا للرسول ﷺ: ما كان لنا أن نخالفك فاصنع ما شئت أو اقعد إن شئت، فأجابهم الرسول ﷺ بقوله: «إِنَّهُ لَيْسَ لِنَبِيِّ إِذَا لَبَسَ لَأَمَّتَهُ أَنْ يَضَعَهَا حَتَّى يُقَاتِلَ»⁽²⁾، ثم خرج والمسلمون معه في نحو ألف بينهم مائة دارع وفرسان.

وفي منتصف الطريق انخذل زعيم المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول فرجع ومعه ثلاثمائة من المنافقين، فبقي عدد المسلمين سبعمائة رجل فحسب، ثم مضى الرسول حتى وصل إلى ساحة أحد، فجعل ظهره للجبل ووجهه للمشركين، وصف الجيش، وجعل على كل فرقة منه قائداً، واختار خمسين من الرماة، على رأسهم عبد الله بن جبير الأنصاري ﷺ ليحموا ظهر المسلمين من التفاف المشركين وراءهم، وقال لهم: «احْمُوا ظُهُورَنَا، فَإِنْ رَأَيْتُمُونَا نَقُتِلُ، فَلَا تَنْصُرُونَا، وَإِنْ رَأَيْتُمُونَا قَدْ غَنِمْنَا فَلَا تَشْرِكُونَا»⁽³⁾.

ثم ابتدأ القتال، ونصر الله المؤمنين على أعدائهم، فقتلوا منهم عدداً، ثم ولوا الأدبار، فانغمس المسلمون في أخذ الغنائم التي وجدوها في معسكر المشركين، ورأى ذلك من وراءهم من الرماة، فقالوا: ماذا نفعل وقد نصر الله رسوله؟ ثم فكروا في ترك أمكنتهم لينالهم نصيب من الغنائم، فذكرهم رئيسهم عبد الله بن جبير بوصية الرسول، فأجابوا

(1) هو جبل مرتفع يقع شمال المدينة على بعد ميلين منها.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (14787)، ج 23 ص 99-100. والحاكم، المستدرک على الصحيحين، رقم (2620)، ج 3 ص 472.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (2609)، ج 4 ص 368. والحاكم، المستدرک على الصحيحين، رقم (3201)، ج 4 ص 176.

بأن الحرب قد انتهت، ولا حاجة إلى البقاء حيث هم، فأبى عبد الله ومعه عشرة آخرون أن يغادروا أمكنتهم.

فلما رأى خالد بن الوليد، وكان قائد ميمنة المشركين، خلو ظهر المسلمين من الرماة، كثر عليهم من خلفهم، فما شعر المسلمون إلا والسيوف تناوشهم من هنا وهناك، فاضطرب حبلهم، وأشيع أن الرسول ﷺ قد قُتل، ففر بعضهم عائداً إلى المدينة، واستطاع المشركون أن يصلوا إلى الرسول ﷺ، فأصابته جاراتهم حتى وقع ﷺ وشجَّ وجهه، وخُذشت ركبته، وجُرحت شفته السفلى، وكُسرت الخوذة على رأسه، ودخلت حلقتان من حلقات المغفر في وجنته، وتكاثر المشركون على الرسول يريدون قتله، فثبت ﷺ وثبت معه نفر من المؤمنين، منهم: أبو دجاجة ؓ، الذي تترس على الرسول ليحميه من نبال المشركين، فكان النبل يقع على ظهره، ومنهم: سعد بن أبي وقاص ؓ رمى يومئذ نحو ألف سهم. وفي ساعة الشدة هذه حاول أبي بن خلف أن يصل إلى الرسول ﷺ ليقتله، وأقسم ألا يرجع عن ذلك، فأخذ النبي ﷺ حربة ممن كانوا معه، فسدها في نحره، فكانت سبب هلاكه، وهو الوحيد الذي قتله ﷺ في جميع معاركه الحربية.

ثم استطاع ﷺ الوقوف والنهوض على أكتاف طلحة بن عبيد الله ؓ، فنظر إلى المشركين، فرأى جماعة منهم على ظهر الجبل، فأرسل من ينزلهم قائلاً: «اللَّهُمَّ إِنَّهُ لَا يَنْبَغِي لَهُمْ أَنْ يَعْلُونَا» وانتهت المعركة، وقال أبو سفيان مظهرًا تشفيه والمشركين من هزيمتهم يوم بدر: (يوم بيوم بدر).

وقد بلغ عدد قتلى المسلمين في هذه المعركة نحوًا من السبعين، كان منهم حمزة عم الرسول ﷺ، وقد حزن الرسول ﷺ لمشهده حزنًا عظيمًا، وممن قتل في هذه المعركة مصعب بن عمير، وأنس بن النضر، وعبد الله بن حرام وعمرو بن الجموح ؓ، وكان عدد قتلى المشركين ثلاثة وعشرين⁽¹⁾.

غزوة حمراء الأسد:

ولمَّا رجع النبي ﷺ ومن معه إلى المدينة خاف من رجوع المشركين إليها ليتَّموا انتصارهم، فنادى في اليوم التالي في أصحابه بالخروج خلف العدو، وألا يخرج إلا من كان معه بالأمس، فاستجابوا لله والرسول، فضمَّدوا جراحاتهم، وخرجوا، وسار الجيش حتى وصل إلى حمراء الأسد.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 29-101. والخضري، نور اليقين، ص 115. وأبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 186-218.

وقد كان ما ظنَّه الرسول ﷺ حقًّا، فإنَّ المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شئ الغارة على المدينة حتى يتمَّ لهم النصر، فأصرُّوا على الرجوع، ولكن لما بلغهم خروج الرسول في أثرهم ظنوا أنَّه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس، وألقى الله الرعب في قلوبهم، فأكملوا سيرهم إلى مكَّة⁽¹⁾.

حوادث في هذه السنة:

في هذه السنة: زوَّج النبي ﷺ بنته أم كلثوم -رضي الله عنها- لعثمان بن عفَّان بعد أن ماتت رقية -رضي الله عنها- عنده، ولذلك كان يسمَّى ذا النورين. وفيها: تزوَّج النبي ﷺ حفصة بنت عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، وكانت قبله تحت خنيس بن حذافة السهمي ، فتوفِّي عنها بجراحة أصابته ببدر. وفيها: تزوج ﷺ أيضًا بزينب بنت خزيمة الهلالية -رضي الله عنها-، كانت تدعى في الجاهلية أم المساكين لرأفتها وإحسانها إليهم، وكانت قبله تحت عبد الله بن جحش. وفيها ولد الحسن بن علي -رضي الله عنهما-. وفي هذه السنة: حرَّمت الخمر⁽²⁾.

أحداث السنة الرابعة من الهجرة:

سِرِّيَّةُ أَبِي سَلَمَةَ إِلَى قَطْن:

في المحرم من السنة الرابعة بلغ رسول الله ﷺ أن طليحة وسلمة ابني خويلد الأسديين قد جمعا الجموع لحرب النبي ﷺ، فأرسل أبا سلمة بن عبد الأسد المخزومي على رأس سرية تعدادها خمسون ومائة، فساروا حتى وصلوا إلى أرضهم إلى ماء يقال له: قطن، فلما سمع القومُ بهم هربوا وتفرقوا، وتركوا نَعَمًا كثيرة من الإبل والغنم خلفهم، فأخذ المسلمون الغنيمة، وعادوا إلى المدينة، وقد أعادت هذه السرية إلى النفوس من هيبة المسلمين شيئًا مما ضيعت أحد.

ثم لم يلبث أبو سلمة أن توفي، فقد كان أصيب في أحدٍ بجرح ثم التأم، فلما خرج في هذه السرية نغر عليه الجرح ومات بسبب ذلك⁽³⁾.

(1) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص284-289. وأبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج2 ص228-230.

(2) الخضري، نور اليقين، ص128-129.

(3) الخضري، نور اليقين، ص128-129.

وفي اليوم الخامس من شهر محرم سنة 4 هـ نقلت الاستخبارات أن خالد بن سفيان الهذلي يحشد الجموع لحرب المسلمين، فأرسل إليه النبي ﷺ عبد الله بن أنيس ﷺ ليقضي عليه.

وظل عبد الله بن أنيس ﷺ غائباً عن المدينة ثمانى عشرة ليلة، ثم قدم يوم السبت لسبع بقين من المحرم، وقد قتل خالد الهذلي⁽¹⁾.

غدر المشركين بالمسلمين:

الموقف الأول: يوم الرجيع:

وفي صفر أرسل ﷺ عشرة رجال مع رهط من عَصَل وَقَارَة جاؤوا رسول الله ﷺ يطلبون من يفقههم في الدين، وأمر عليهم عاصم بن ثابت الأنصاري ﷺ، فخرجوا يسرون الليل، ويكمنون النهار حتى إذا كانوا بالرجيع غدر بهم أولئك الرهط، ودلّوا عليهم هذيلاً قوم سفيان بن خالد الهذلي الذي كان قد قتله عبد الله بن أنيس، فنفروا إليهم فيما يقرب من مائتي رام، واقتفوا آثارهم حتى قربوا منهم، فلما أحس بهم رجال السرية لجؤوا إلى جبل هناك، فقال لهم الأعداء: انزلوا، ولكم العهد ألا نقتلكم، فنزل إليهم ثلاثة اغتروا بعهدهم، وقتلهم الباقون، ومعهم عاصم غير راضين بالنزول في ذمة مشرك.

ولما رأى الثلاثة الذين سلموا عين الغدر، امتنع أحدهم فقتلوه، وأما الاثنان، فباعوهما بمكة ممن كان له ثأر عند المسلمين، وهناك قُتِلَا⁽²⁾.

الموقف الثاني: حادثة بئر معونة:

وفي صفر وفد على رسول الله ﷺ أبو براء عامر بن مالك «مُلاَعِب الأُسنة»، وهو من رؤوس بني عامر، فدعاه ﷺ إلى الإسلام فلم يسلم ولم يبعد، بل قال: إني أرى أمرك هذا حسناً شريفاً، ولو بعثت معي رجالاً من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك رجوت أن يستجيبوا لك، فقال ﷺ: «إِنِّي أَخْشَى أَهْلَ نَجْدٍ عَلَيْهِمْ».

فقال أبو عامر: أنا لهم جار، فأرسل معه المنذر بن عمرو ﷺ في سبعين من أصحابه كانوا يسمون القرءاء لكثرة ما كانوا يحفظون من القرآن، وأمر عليهم المُنْذِرَ بْنَ عَمْرِو بْنِ حُنَيْسٍ.

(1) الخضري، نور اليقين، ص 128-129.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 195-208. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 235-238.

فساروا حتى نزلوا «بئر معونة»، فبعثوا حَرام بن مَلْحَانَ بكتاب إلى عامر بن الطفيل سيد بني عامر، فلمَّا وصل إليه، لم يلتفت إلى الكتاب، بل عدا على حرام فقتله، ثم استصرخ على بقية البعثة أصحابه من بني عامر، فلم يرضوا أن يخفروا جوار ملاعب الأسنة، فاستصرخ عليهم قبائل بني سُلَيْم، فأجابته عَصِيَّة ورِغْل وذَكْوَان، وذهبوا معه، حتى إذا اتقوا القرءاء أحاطوا بهم، وقتلوهم حتى قتلوه عن آخرهم، بعد دفاع شديد لم يجدهم نفعًا لقلة عددهم، ولم ينج إلا كعب بن زيد بن النجار ، فإنه ارْتُثَّ⁽¹⁾ من بين القتلى، فعاش حتى استشهد يوم الخندق.

وكان عمرو بن أمية الضمري والمنذر بن عقبة بن عامر في سرح المسلمين فرأيا الطير تحوم على موضع الوقعة، فنزل المنذر، فقاتل المشركين حتى قُتل مع أصحابه، وأسر عمرو بن أمية الضمري، فلما أخبر أنه من مُضَر جرَّ عامر ناصيته، وأعتقه عن رقبة كانت على أمه.

ورجع عمرو بن أمية الضمري إلى النبي ﷺ حاملًا معه أنباء المصاب الفادح، مصرع سبعين من أفاضل المسلمين، تذكَّر نكبتهم الكبيرة بنكبة أحد، إلا أن هؤلاء ذهبوا في قتال واضح، وأولئك ذهبوا في غدره شائنة.

ولما كان عمرو بن أمية في الطريق، نزل في ظل شجرة، وجاء رجلان من بني سُلَيْم فنزلا معه، فلما ناما فتك بهما عمرو، وهو يرى أنه قد أصاب ثأر أصحابه، وإذا معهما عهد من رسول الله ﷺ لم يشعر به، فلما قدم أخبر رسول الله ﷺ بما فعل، فقال ﷺ: «لقد قتلت قتيلين لأدبنيهما»، وانشغل بجمع ديتهما من المسلمين ومن حلفائهم اليهود، وهذا الذي صار سببًا لغزوة بني النضير.

وقد تألم النبي ﷺ لأجل هذه المأساة، ولأجل مأساة الرجيع اللتين وقعتا خلال أيام معدودة، تألمًا شديدًا، وأقام يدعو على الغادرين أَرْبَعِينَ صَبَاحًا⁽²⁾.

غزوة بني النضير:

وفي هذه السنة وقعت غزوة بني النضير، بين المسلمين ويهود بني النضير، وهم قوم من اليهود يجاورون المدينة، وكانوا حلفاء للخزرج وبينهم وبين المسلمين عهد سلم، لكن

(1) ارْتُثَّ فلان: ضُربَ في الحرب فأُثْخِنَ وحِمِلَ وبه رَمَقٌ ثم مات، وفي ارْتُثَّ حديث كعب بن مالك: حديث شريف أنه ارْتُثَّ يوم أُحُد فجاء به الزبير يقود بزمام راحلته.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 214-219. والخضري، نور اليقين، ص 130-133. وأبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 239-242.

طبيعة الشر والغدر المتأصلة في اليهود أبت إلا أن تحملهم على نقض عهدهم، فبينما كان الرسول ﷺ وبعض أصحابه في ديارهم، إذ ذهب ﷺ إليهم يسألهم المشاركة في دية الرجلين اللذين قتلها عمرو بن أمية، فقام زعماء بني النضير ليتشاوروا، وإذا بهم يتآمرون على قتل النبي ﷺ بإلقاء صخرة من ظهر البيت الذي كان جالساً مسنداً ظهره إلى جداره، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ بما يكاد له، فنهض سريعاً كأنه يهْم بحاجة، فتوجه ﷺ إلى المدينة، ولحقه أصحابه.

ثم أرسل إليهم محمد بن مسلمة ﴿﴾ «أَنْ اخْرُجُوا مِنْ بَلَدِي، فَلَا تُسَاكِنُونِي بِهَا وَقَدْ هَمَمْتُ بِمَا هَمَمْتُ بِهِ مِنَ الْعَدْرِ، وَقَدْ أَجَلْتُكُمْ عَشْرًا فَمَنْ رُؤِيَ بَعْدَ ذَلِكَ ضَرِبْتُ عَنْقَهُ».

وتجهز بنو النضير للخروج في هذا الإنذار، ولكن عبد الله بن أبيّ، رأس المنافقين، أرسل إليهم ينهاهم عن الخروج، ويعدهم بإرسال ألفين من جماعته يدافعون عنهم، فعدلوا عن النزوح، وتحصنوا في حصونهم، وأرسلوا إلى رسول الله ﷺ: إنا لا نخرج من ديارنا، فاصنع ما بدا لك.

فخرج إليهم النبي ﷺ في أصحابه يحمل لواءه علي بن أبي طالب ﴿﴾، فلما رآهم اليهود أخذوا يرمونهم بالنبل والحجارة، ولم يصل إليهم المدد الذي وعدهم به رأس المنافقين، فحاصروهم المسلمون، لكنهم صبروا، فاضطر المسلمون إلى قطع نخيلهم، فقالوا عندئذٍ: نخرج من بلادك.

واشترط عليهم النبي ﷺ ألا يُخْرِجُوا معهم السلاح، ولهم أن يُخْرِجُوا معهم من أموالهم ما حملته الإبل، ودماؤهم مصونة لا يسفك منها قطرة، فلما أرادوا الخروج أخذوا كل شيء يستطيعونه، وهدموا بيوتهم كيلا يستفيد منها المسلمون، وساروا، فمنهم من نزل خيبر على بعد مائة ميل من المدينة، ومنهم من نزل في ناحية «جرش» بجنوب الشام، ولم يُسَلِّم منهم إلا اثنا (1).

غزوة بدر الآخرة:

في شعبان من السنة الرابعة وقعت غزوة بدر الآخرة، حيث واعد أبو سفيان المسلمين في نهاية غزوة أحد أن يلقاهم بجيش يجتثهم فيه في بدر السنة القابلة، فخرج له النبي

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج3 ص222-229. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص294-297.

ﷺ على الموعد وجلس ينتظره ثمانية أيام، لكنه نكص على عقبيه هو ومن معه وأخلفوا الموعد، وكفى الله المؤمنين القتال⁽¹⁾.

حوادث في هذا العام:

- 1 - في هذه السنة توفي أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد بن هلال القرشي المخزومي ﷺ.
- 2 - وفي جمادى الأولى من هذه السنة مات عبد الله بن عثمان ﷺ، وهو ابن السيدة رقية بنت الرسول، وكان ابن ست سنين، فصلى عليه رسول الله ﷺ، ونزل والده عثمان ﷺ في حفرته.
- 3 - وفي ليال خلون من شعبان من هذا العام وُلد الحسين بن علي من فاطمة بنت رسول الله ﷺ، وهو سيد شباب أهل الجنة ﷺ.
- 4 - وفي شوال من هذه السنة تزوج رسول الله ﷺ بالسيدة أم سلمة، واسمها هند بنت أبي أمية بن المغيرة المخزومية القرشية.
- 5 - وفي هذه السنة تعلم زيد بن ثابت ﷺ كتابة اليهود، فقد أمره النبي ﷺ أن يتعلم كتاب يهود ليقرأ له كتبهم إذا كتبوا إليه، فتعلمه في خمسة عشر يوماً⁽²⁾.

أحداث السنة الخامسة من الهجرة:

افتتحت هذه السنة في ربيع الأول بغزوة دومة الجندل، واستعمل على المدينة سباع بن عُرفطة الغفاري ﷺ، واختلف في سبب هذه الغزوة، وقد رجع النبي ﷺ قبل أن يصل إليها، لما وصل إليه أن من فيها قد غادروها، ولم يلق كيذاً⁽³⁾.

غزوة الأحزاب:

في شوال من السنة الخامسة حدثت غزوة الأحزاب، وتسمى غزوة (الخنق). وسببها أنه لما أجلى بنو النضير، ذهب رؤساء اليهود إلى قريش وغطفان يحرضونهم على قتال النبي ﷺ، فاستجابوا لهم وانضم إليهم حلفاؤهم من بني فزارة وبني مرة وأشجع وغيرهم، واتجهوا نحو المدينة بحيش قوامه قرابة عشرة آلاف مقاتل.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج3 ص250-255.

(2) أبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج2 ص245-249.

(3) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج3 ص256-257.

فلما سمع رسول الله ﷺ باتفاقهم على مهاجمة المدينة استشار الصحابة ؓ، فأشار عليه سلمان الفارسيّ ؓ بحفر خندقٍ يحول بين العدو وبين المدينة من الجهات التي قد ينفذوا منها، فأمر به رسول الله ﷺ فبادر إليه المسلمون وعمل هو ﷺ بنفسه فيه، وكان في أثناء حفره من آياتِ نبوّته ﷺ وأعلام رسالته ما قد تواتر الخبر به، ومن أعظم تلك الآيات التي صنعها الصحابة ؓ أنهم استطاعوا أن يحفروا الخندق في أيام معدودة لعلها لا تزيد على خمسة عشر يوماً.

ولما وصلت قريش ومن معها من الأحزاب راعها ما رأت من أمر الخندق ووجدت نفسها أمامه وأمام مرتفعات الحرة وحِصن بني قريظة عاجزة عن دخول المدينة، عندها ذهب حُيي بن أخطب -أحد زعماء اليهود الذين هيجوا قريشاً والأحزاب ضد المسلمين- إلى كعب بن أسد زعيم بني قريظة يطلب منه نقض عهد السلم بينه وبين المسلمين، ويسمح لجيش المشركين بالانفاذ إلى المدينة من خلال حصنهم، فرفض كعب أول الأمر فلم يزل به حُيي حتى نقض العهد الذي بينه وبين رسول الله ﷺ ودخل مع المشركين في محاربته، فسُرَّ بذلك المشركون، وشرط كعب على حُيي أنّه إن لم يظفروا بمحمدٍ أن يجيء حتى يدخل معه في حصنه فيصيبه ما أصابه، فأجابته إلى ذلك ووفى له به.

ووعظهم أحدهم وهو عمرو بنُ سعدٍ وخوَّفهم سوء فعالهم، وذكَّره ميثاق رسول الله ﷺ وعهده، وقال لهم: إذا لم تنصروه فاتركوه وعدوه، فأبوا.

فبلغ خبر نقض بني قريظة العهد رسول الله ﷺ فبعث الزبير بن العوام ؓ ليتأكد فرأى علامات على خيانتهم، فرجع إلى رسول الله ﷺ يخبره بما سمع ورأى، فبعث النبيّ ﷺ سعد بن معاذٍ، وسعد بن عبادٍ وهما سيِّدا قومهما، ومعهما عبد الله بن رواحة وخوأت بن جبير وأسيد بن حضير ؓ، وقال ﷺ: «انْطَلِقُوا حَتَّى تَنْظُرُوا أَحَقَّ مَا بَلَّغْنَا عَنْ هَؤُلَاءِ الْقَوْمِ أَمْ لَا، فَإِنْ كَانَ حَقًّا فَالْحَنُوا إِلَيَّ لَحْنًا أَعْرِفُهُ وَلَا تَفْتَنُوا فِي أَعْضَادِ النَّاسِ، وَإِنْ كَانُوا عَلَى الْوَفَاءِ فِيمَا بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ فَاجْهَرُوا بِهِ لِلنَّاسِ».

فلما دنوا منهم وجدوهم على أخبث ما يكون، وجاهروهم بالسبِّ والعداوة ونالوا من رسول الله ﷺ، فانصرفوا عنهم إلى داخل المدينة، فلحنوا إلى رسول الله ﷺ لحنًا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا، فلما أحس بذلك المسلمون عَظُم عليهم، فقال رسول الله ﷺ: «أَبْشِرُوا يَا مَعْشَرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَصْرِ اللَّهِ تَعَالَى وَعَوْنِهِ، إِنِّي لَأَرْجُو أَنْ أَطُوفَ بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ وَأَحْذُ الْمِفْتَاحَ، وَلِيَهْلِكَنَّ كِسْرَى وَقَيْصَرٌ وَلَتَنْفِقَنَّ أَمْوَالُهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ».

واشتد البلاء ونجم النفاق، وأقام المشركون محاصرين رسول الله ﷺ شهراً، ولم يكن بينهم قتال لأجل ما حال الله ﷻ به من الخندق بينهم وبين المسلمين، إلا أنَّ فوارس من

قريش منهم عمرو بن عبد ودٌ وجماعة معه أقبلوا نحو الخندق، فلما وقفوا عليه قالوا: إن هذه مكيدة ما كانت العرب تعرفها، ثم بحثوا عن مكان ضيق من الخندق فلما وجدوه اقتحموه، ودَعَوْا إلى البراز، فانتدب لعمرو علي بن أبي طالب ؓ فبارزه، فقتله الله ﷻ على يديه، وكان عمرو من شجعان المشركين وأبطالهم، وانهمز الباقيون إلى أصحابهم.

وقد حاول النبي ﷺ أن يرد غطفان بإعطائها ثلث محصول المدينة من التمر ليخفف الضغط على المسلمين، لكن سعد بن معاذ وسعد بن عباد رفضا ذلك، ففرح رسول الله ﷺ بهذه المعنويات العالية.

ثُمَّ شَاءَ اللَّهُ أَنْ يُسَلِّمَ رَجُلٌ مِنْ غُطْفَانَ هُوَ نُعَيْمُ بْنُ مَسْعُودٍ الْأَشْجَعِيُّ ؓ فَأَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: (يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَسْلَمْتُ، وَإِنَّ قَوْمِي لَمْ يَعْلَمُوا بِإِسْلَامِي، فَمُرْنِي بِمَا شِئْتَ؟)، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّمَا أَنْتَ فِينَا رَجُلٌ وَاحِدٌ، فَخُذْ عَنَّا مَا اسْتَطَعْتَ، فَإِنَّ الْحَرْبَ خُذْعَةٌ».

فاستعمل نعيم دهاءه فكاد مكيدة فرقت بين بني قريظة وبين المشركين من جهة وبين غطفان وبين قريش وحلفائها من جهة أخرى، حيث أقنع كعب بن أسد أن يطلب رهائن من قريش وغطفان خشية غدرهم مما أوقع الخلاف بينهم وآخر هجوم المشركين عبر حصن بني قريظة.

وبعد ما أخذ به النبي ﷺ من أسباب وتوكلوا على الله ﷻ إذا يريح يرسلها الله ﷻ على الأحزاب شديدة في ليلة شاتية شديدة البرد، فجعلت تقلب قدورهم وتمزق خيامهم، فامتلات نفوس الأحزاب بالرعب ورحلوا في تلك الليلة، وكان رسول الله ﷺ قد أرسل حذيفة بن اليمان -رضي الله عنهما- يأتيه بخبرهم، فوجدهم على هذه الحال وقد تهيؤوا للرحيل، فرجع إلى رسول الله ﷻ ليلاً فأخبره برحيل القوم، فلما أصبح الصباح نظر المسلمون فلم يروا أحداً⁽¹⁾.

غزوة بني قريظة:

لما أصبح رسول الله ﷺ وقد ردَّ الله ﷻ عدوه بغيظه لم ينالوا خيراً وكفاه الله قتالهم، وصدق وعده وأعزَّ جنده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده، دخل ﷺ المدينة ووضع السلاح، فجاءه جبريل ؑ وهو يغتسل في بيت أم سلمة -رضي الله عنها- فقال: «أَوْضَعْتُمُ السَّلَاحَ! إِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَمْ تَضَعْ بَعْدُ أَسْلِحَتَهَا انْهَضْ إِلَى غَزْوَةِ هَؤُلَاءِ» يعني

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 258-283. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 301-313. وأبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 275-288.

بني قريظة، فَأَمَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُؤَدَّنًا، فنادى فِي النَّاسِ: «مَنْ كَانَ سَامِعًا مُطِيعًا، فَلَا يُصَلِّينَ الْعَصْرَ إِلَّا بِبَنِي قَرْيَظَةَ»، فخرج المسلمون سراعًا، فلما دنوا من حصن بني قريظة أخذ المسلمون في حصاره خمسًا وعشرين ليلة.

ولما اشتد الحصار وعظم البلاء على بني قريظة، أرادوا الاستسلام والنزول على أن يحكم الرسول ﷺ فيهم، وقبلوا النزول على حكم سعد بن معاذ ؓ، ورأوا أنه سيرأف بهم بسبب الحلف بينهم وبين قومه الأوس.

فجاء بسعدٍ محمولًا، لأنه كان قد أصابه سهم في ذراعه يوم الخندق، ف قضى فيهم أن تقتل المقاتلة، وأن تسبى النساء والذرية، وأن تقسم أموالهم، فأقره رسول الله ﷺ وقال: «لَقَدْ حَكَمْتَ فِيهِمْ بِحُكْمِ اللَّهِ».

وبذلك تبرأ سعدُ بن معاذ ؓ من حلف بني قريظة ولم يقع في نفوس الأوس شيء رغم تحالفهم مع بني قريظة، وقرب عهدهم بالإسلام، فسيدهم سعد ؓ هو الذي حكم فيهم، وكان عدد مقاتلتهم الذين نفذوا فيهم الحكم أربعمئة، ونجا ثلاثة من بني قريظة بدخولهم في الإسلام فأحرزوا أنفسهم وأموالهم.

وبذلك قضى النبي ﷺ على مؤامرات اليهود ودسائسهم وتآمرهم على رسول الله ﷺ ودعوته قضاء مبرمًا في المدينة وما حولها. واستشهد يومَ الخندق ويوم قريظة نحو عشرة من المسلمين.

وبتمام هذه الغزوة أراح الله المسلمين من شرِّ مجاورة اليهود الذين تعودوا الغدر والخيانة، ولم تبق إلا بقية من كبارهم بخيبر وأهلها وهم الذين كانوا السبب في إثارة الأحزاب⁽¹⁾.

مقتل سَلَامَ بن أبي الحَقِيقِ:

كان سَلَامٌ -وكنيته أبو رافع- من أكابر مجرمي اليهود الذين حزبوا الأحزاب ضد المسلمين، وأعانهم بالعتاد والأموال الكثيرة، وكان يؤذي رسول الله ﷺ، فلما فرغ المسلمون من أمر قريظة استأذنت الخزرجُ رسولَ الله في قتله. فأذن لهم رسولُ الله ﷺ بذلك، فخرجت مفرزة منهم قوامها خمسة رجال، قائدَهم عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَتِيكٍ، فنفذوا المهمة ورجعوا سالمين.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 283-315. والخضري، نور اليقين، ص 149-151. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 314-318.

كانت أول سرية بعد الفراغ من الأحزاب وقریظة، وكان عدد قوات هذه السرية ثلاثين راكباً. وتحركت هذه السرية إلى القرطاء من أرض نجد وعادت سالمة غانمة.

زواج النَّبي ﷺ بزینب بنت جحش:

وفي هذه الفترة تزوج النَّبي ﷺ زینب بنت جحش -رضي الله عنها- وهي ابنة عمته أميمة، تزوجها ﷺ بعد أن طلقها مولاها زيد بن حارثة (1).

غزوة بني المصطلق أو المُرَيْسِع:

في هذه السنة أو في السنة السادسة للهجرة بلغ النَّبي ﷺ أنَّ الحارث بن ضرار سيّد بني المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على حرب المسلمين في أحد يجمع الجموع لحربه، فخرج له ﷺ في جمع كثير بلغ سبعمائة مقاتل، وثلاثين فرساً، وكان خروجهم في الثاني من شعبان، وخرج معه كثير من المنافقين على رأسهم عبد الله بن أبي بن سلول.

واستخلف رسول الله ﷺ على المدينة زيد بن حارثة، وقيل: أبا ذر الغفاري.

وانتهى المسلمون إلى ماء يُسمى (المُرَيْسِع) اجتمع لديه بنو المصطلق، فلما وصل جيش المسلمين إلى الماء وكانت راية المهاجرين مع أبي بكر الصديق (رضي الله عنه)، وراية الأنصار مع سعد بن عباد (رضي الله عنه)، أمرهم رسول الله ﷺ فحملوا على بني المصطلق حملة رجل واحد، فكان النصر.

ولم يفلت من المشركين أحد، إذ وقعوا جميعاً أسرى بعدما قتل منهم عشرة أشخاص، ولم يستشهد من المسلمين إلا رجل واحد قُتل خطأ، وسقطت القبيلة بما تملك في أيدي المسلمين.

ورأى رسول الله ﷺ أن يعامل المهزومين بالإحسان، فلما جاء الحارث قائد القبيلة المنكسرة يطلب ابنته جويرية التي وقعت في الأسر ردّها النَّبي ﷺ عليه، ثم خطبها منه، وتزوجها، فاستحيا النَّاس أن يسترّفوا أصحاب رسول الله ﷺ، فأطلقوا من بأيديهم من الأسرى، فكانت جويرية -رضي الله عنها- من أيمن النَّاس على أهلها، فقد أعتق في زواجها مائة من أهل بيت بني المصطلق!

على أنَّ هذا النصر الميسّر شابه من أعمال المنافقين ما عكّر صفوه، وأنسى المسلمين حلاوته، فإنَّ خادماً لعمر (رضي الله عنه) كان يسقي له من ماء المُرَيْسِعِ ازدحم مع مولى لبني عوف

من الخزرج، وكادا يقتتلان على الورد، فصاح الأول: يا للمهاجرين! وصاح الآخر: يا للأنصار! واستمع إلى صياح الأتباع عبد الله بن أبي فرأى الفرصة سانحة لإثارة حفاظهم، وإحياء ما أماته الإسلام من نعرات الجاهلية، فقال: أو قد فعلوها؟ نافرونا وكاثرونا في بلادنا، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأدل.

ثم أقبل على قومه يلومهم ويحرضهم على التنكر للرسول ﷺ وصحبه، وكان ممن سمعه زيد بن أرقم ؓ الذي قص على عمه الخبر، فأخبر عمه رسول الله ﷺ وعنده عمر، فقال عمر ؓ: مر عباد بن بشر ؓ فليقتله. فقال ﷺ: «فَكَيْفَ يَا عُمَرُ إِذَا تَحَدَّثَ النَّاسُ أَنَّ مُحَمَّدًا يَقْتُلُ أَصْحَابَهُ! لَا وَلَكِنْ أَذْنٌ بِالرَّحِيلِ». وذلك في ساعة لم يكن ﷺ يرتحل فيها، فارتحل الناس، فلقيه أسيد بن حضير فحياه، وقال: لقد رحت في ساعة منكرة؟ فقال له: «أَوْ مَا بَلَغَكَ مَا قَالَ صَاحِبُكُمْ؟» يريد ابن أبي، فقال: وما قال؟ قال: «زَعَمَ أَنَّهُ إِنْ رَجَعَ إِلَى الْمَدِينَةِ لِيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَدْلَ»، قال: فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت، هو والله لذليل وأنت العزيز، ثم قال: يا رسول الله، ارفق به، فو الله لقد جاءنا الله بك، وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه، فإنه يرى أنك استلبته ملكًا.

ثم مشى بالناس يومهم ذلك حتى أمسى، وليلتهم حتى أصبح، وصدر يومهم ذلك حتى أذهت الشمس، ثم نزل بالناس، فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض، فوقعوا نيامًا. فعل ذلك، ليشغل الناس عن الحديث بالأمر.

أما ابن أبي لما علم أن زيد بن أرقم ؓ بلغ الخبر جاء إلى رسول الله ﷺ، وحلف بالله ما قلت ما قال، ولا تكلمت به، وقال من حضر من الأنصار: يا رسول الله، عسى أن يكون الغلام قد أوهم في حديثه، ولم يحفظ ما قال الرجل، فصدقه، قال زيد: (فأصابني هم لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي، فأنزل الله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: 1] إلى قوله: ﴿هُمُ الَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنْفِقُوا عَلَى مَنْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ حَتَّى يَنْفَضُوا وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾ ٥ يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الْأَعَزُّ مِنْهَا الْأَدْلَ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون: 8-7]، فأرسل إلي رسول الله ﷺ فقرأها علي، ثم قال: «إِنَّ اللَّهَ قَدْ صَدَّقَكَ يَا زَيْدٌ»⁽¹⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (19333)، ج 32 ص 82. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب

التفسير، باب: قوله: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ﴾ الآية، رقم (4617).

وكان ابن هذا المنافق -وهو عبد الله بن عبد الله بن أبي- رجلاً صالحاً من الصحابة الأخيار، فتبرأ من أبيه، ووقف له على باب المدينة، واستل سيفه، فلما جاء ابن أبي قال له: والله لا تجوز من ههنا حتى يأذن لك رسول الله ﷺ، فإنه العزيز وأنت الذليل.

فلما جاء النبي ﷺ أذن له، فخلى سبيله، وكان قد قال عبد الله بن عبد الله ﷺ: (يا رسول الله إن أردت قتله فمرني بذلك، فأنا والله أحمل إليك رأسه)، فأبى الرسول ﷺ وأمره أن يحسن صحبة أبيه⁽¹⁾.

حديث الإفك:

وفي هذه الغزوة كانت قصة الإفك، وملخصها أن عائشة -رضي الله عنها- كانت قد خرج بها رسول الله ﷺ معه في هذه غزوة بني المصطلق بقرعة أصابتها، وكانت تلك عادته مع نسائه، فلما رجعوا من الغزوة نزلوا في بعض المنازل، فخرجت عائشة لحاجتها، ففقدت عقدًا لأختها كانت أعارتها إياه، فرجعت تلتمسه في الموضع الذي فقدته فيه، فجاء النفر الذين كانوا يرحلون هودجها فظنوها فيه فحملوا الهودج، ولا ينكرون خفته، لأنها -رضي الله عنها- كانت نحيلة، وأيضًا فإن النفر لما تساعدوا على حمل الهودج لم ينكروا خفته، فرجعت عائشة إلى منازلهم، وقد أصابت العقد، فإذا ليس به داع ولا مجيب، فقعدت في المنزل، وظنت أنهم سيفقدونها فيرجعون في طلبها، فغلبتها عينها، فنامت، فلم تستيقظ إلا بقول صفوان بن المعطل ؓ: إنا لله وإنا إليه راجعون، زوجة رسول الله ﷺ.

وكان صفوان قد تأخر في أخريات الجيش لأنه كان في الساقة⁽²⁾، فلما رآها عرفها، وكان يراها قبل نزول الحجاب، فاسترجع وأناخ راحلته، فقربها إليها، فركبتها، وما كلمها كلمة واحدة، ولم تسمع منه إلا استرجاعه، ثم سار بها يقودها حتى قدم بها، وقد نزل الجيش في نحر الظهيرة، فلما وصلا وجد الخبيث عدو الله عبد الله بن أبي ابن سلول متنفسًا للطعن بعرض النبي ﷺ، فجعل يستحكي الإفك، ويشيعه، ويذيعه، وكان أصحابه يتقربون به إليه، فلما قدموا المدينة أفاض أهل الإفك في الحديث، ورسول الله ﷺ ساكت لا يتكلم.

أما عائشة فلما رجعت مرضت شهرًا، وهي لا تعلم عن حديث الإفك شيئًا، سوى أنها كانت لا تعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذي كانت تعرفه حين تشتكي، فلما نقهت خرجت مع أم مسطح في حاجة، فأخبرتها الخبر، فرجعت عائشة واستأذنت رسول الله ﷺ، لتأتي أبويها وتستيقن الخبر، ثم أنتهما بعد الإذن حتى عرفت جلية الأمر، فجعلت

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج3 ص367-378. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج2 ص252-257.

(2) الساقة: مؤخرة الجيش، تحمي الجيش من أي هجوم مباغت عن طريق إنذاره.

تبكي، فبكت ليلتين ويومًا، لم تكن تكتحل بنوم، وجاء رسول الله ﷺ في ذلك، فتشهد وقال: «أَمَّا بَعْدُ، يَا عَائِشَةُ، أَنَّهُ بَلَغَنِي عَنْكَ كَذَا وَكَذَا، فَإِنْ كُنْتَ بَرِيئَةً، فَسَيُبرِّئُكَ اللَّهُ، وَإِنْ كُنْتَ أَلَمَمْتَ بِذَنْبٍ، فَاسْتَغْفِرِي اللَّهَ وَتَوْبِي إِلَيْهِ، فَإِنَّ الْعَبْدَ إِذَا اعْتَرَفَ ثُمَّ تَابَ، تَابَ اللَّهُ عَلَيْهِ».

وحينئذٍ قلص دمعها، وقالت لكل من أبويها أن يجيبا، فلم يدريا ما يقولان، فقالت: والله لقد علمت، لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر في أنفسكم، وصدقتم به، فلئن قلت لكم: إني بريئة -والله يعلم أنني بريئة- لا تصدقوني بذلك، ولئن اعترفت لكم بأمر -والله يعلم أنني منه بريئة- لتصدقني والله ما أجد لكم مثلًا إلا قول أبي يوسف. قال: ﴿فَصَبِّرْ حَبِيبُ وَاللَّهِ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18]. ثم تحولت واضطجعت، ونزل الوحي ساعته، فسري عن رسول الله ﷺ وهو يضحك، فكانت أول كلمة تكلم بها: «يَا عَائِشَةُ، أَمَّا اللَّهُ فَقَدْ بَرَّأكَ»، فقالت لها أمها: قومي إليه. فقالت عائشة، إدلالًا ببراءة ساحتها، وثقة بمحبة رسول الله ﷺ: (والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله).

والذي أنزله الله بشأن الإفك هو قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النور: 11]، الآيات العشر من سورة النور.

وقد روي أن النبي ﷺ أقام الحدَّ على من ثبتت عليهم تهمة القذف ممن عاضوا في عرض السيدة عائشة من المؤمنين، وهم: «حسان بن ثابت» و«مسطح بن أثاثه» و«حمنة بنت جحش»، وقيل لم يقم الحد عليهم لعفو السيدة عائشة عنهم.

أما عبد الله بن أبي، مدبر الحملة وجريثومتها الخفية، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب⁽¹⁾.

وهكذا وبعد شهر انقشعت سحابة الشك والقلق والاضطراب عن جو المدينة، وافتضح رأس المنافقين افتضاحًا لم يستطع أن يرفع رأسه بعد ذلك.

قال ابن إسحاق: وجعل بعد ذلك إذا أحدث الحدث كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه. فقال رسول الله ﷺ لعمر: «كَيْفَ تَرَى يَا عُمَرُ، أَمَّا وَاللَّهِ لَوْ قَتَلْتَهُ يَوْمَ قُلْتَ

(1) أخرج حديث الإفك: البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب المغازي، باب: حديث الإفك، رقم (3910). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب التوبة، باب في حديث الإفك وقبول توبة القاذف، رقم (2770).

لِي أَقْتُلَهُ، لَأَزْعِدَ لَهُ أَنْفٌ، لَوْ أَمَرْتَهَا الْيَوْمَ بِقَتْلِهِ لَقَتَلْتُهُ». قال عمر ؓ: (قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمري)⁽¹⁾.

أحداث السنة السادسة من الهجرة:

كان النبي ﷺ يعمل حساب كل القوى المجاورة، ولا يغفل عن أي قوة منها، وقد قال بعد غزوة الخندق وفشل المشركين وهزيمتهم: «الآن نَغْزُوهُمْ وَلَا يَغْزُونَنَا، نَحْنُ نَسِيرُ إِلَيْهِمْ»⁽²⁾.

وقد تتالت الأحداث في هذا العام، وكان منها:

1 - غزوة بني لَحْيَانَ: بنو لحيان هم الذين كانوا قد غدروا بعشرة من أصحاب رسول الله ﷺ بالرَّجِيع، فلما حانت الفرصة خرج إليهم ﷺ في ربيع الأول أو جمادي الأولى سنة 6 هـ في مائتين من أصحابه، فسمعت به بنو لحيان فهربوا في رؤوس الجبال، فأقام يومين بأرضهم، ثم رجع إلى المدينة.

2 - سرية عُكَّاشَةَ بْنِ مِخْصَنٍ ؓ إِلَى الْغَمَرِ: في ربيع الأول أو الآخر سنة 6 هـ خرج عُكَّاشَةُ ؓ في أربعين رجلاً إلى الغمر، ماء لبني أسد، ففر القوم، وأصاب المسلمون مائتي بعير ساقوها إلى المدينة.

3 - سرية محمد بن مَسْلَمَةَ ؓ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ: في ربيع الآخر سنة 6 هـ خرج ابن مسلمة ؓ في عشرة رجال إلى ذي القصّة في ديار بني ثعلبة، فكمّن القوم لهم -وهم مائة- فلما ناموا قتلوهم إلا ابن مسلمة فإنه أفلت منهم جريحاً.

4 - سرية أبي عبيدة بن الجراح ؓ إِلَى ذِي الْقَصَّةِ: بعث النبي ﷺ أبا عبيدة بن الجراح ؓ على إثر مقتل أصحاب محمد بن مسلمة لينتقم لمقتلهم، فخرج ومعه أربعون رجلاً إلى مصارعهم، فساروا ليلتهم مشاة، ووافوا بني ثعلبة مع الصبح فأغاروا عليهم، فأعجزوهم هرباً في الجبال، وأصابوا رجلاً واحداً فأسلم، وغنموا نَعَمًا وشاء.

5 - سرية زيد بن حارثة ؓ إِلَى الْجَمُومِ: وخرج إليهم أيضاً زيد ؓ، فأصاب امرأة من مُزَيْنَةَ يقال لها: حليلة، فدلّتهم على محلة من بني سليم أصابوا فيها نَعَمًا وأسرى، فلما قفل زيد بما أصاب وهب رسول الله ﷺ للمزينية نفسها وزوجها.

(1) ابن هشام، السيرة النبوية، ج 3 ص 378-397. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 258-267.

(2) البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب المغازي، باب: غزوة الخندق، وهي الأحزاب، رقم (3884).

6 - سرية زيد ﷺ إلى العيص: في جمادي الأولى سنة 6 هـ أرسل النبي ﷺ زيداً ﷺ إلى العيص في سبعين ومائة راكب، وفيها أخذت أموال عير لقريش كان قائدها أبا العاص زوج زينب بنت رسول الله ﷺ.

وأفلت أبو العاص منهم وأتى زينب فاستجار بها، وسألها أن تطلب من رسول الله ﷺ رد أموال العير عليه ففعلت، وأشار رسول الله ﷺ على الناس برد الأموال من غير أن يكرههم، فردوا الكثير والقليل والكبير والصغير حتى رجع أبو العاص إلى مكة، وأدى الودائع إلى أهلها، ثم أسلم وهاجر.

7 - سرية عبد الرحمن بن عوف إلى ديار بني كلب بدومة الجندل، في شعبان سنة 6 هـ.

8 - سرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفدك، في شعبان سنة 6 هـ.

9 - سرية أبي بكر الصديق أو زيد بن حارثة إلى وادي القري، في رمضان سنة 6 هـ.

10 - سرية كرز بن جابر الفهري إلى العرنيين، كانت في شوال سنة 6 هـ، وذلك أن رهطاً من عُكْلٍ وعُرَيْنَةَ أظهروا الإسلام، وأقاموا بالمدينة فمرضوا، فبعثهم رسول الله ﷺ إلى المرعى، وأمرهم أن يشربوا من ألبان الإبل وأبوالها، فلما صحوا قتلوا راعي رسول الله ﷺ، واستاقوا الإبل وكفروا بعد إسلامهم، فبعث في طلبهم كُرْزُ الفهري في عشرين من الصحابة، ودعا على العرنيين: «اللَّهُمَّ عَمَّ عَلَيْهِمُ الطَّرِيقَ، وَاجْعَلْهَا عَلَيْهِمْ أَضْيَقَ مِنْ مَسَكٍ⁽¹⁾ جَمَلٍ»، فعَمَّى الله ﷻ عليهم السبيل، فأدركوا، ففُطِعت أيديهم وأرجلهم، وسُمِلت أعينهم، جزاء وقصاصاً بما فعلوا، ثم تركوا في ناحية الحرة حتى ماتوا، وحديثهم في الصحيح عن أنس ﷺ.

هذه أهم السرايا والغزوات بعد الأحزاب، وبني قريظة، ويظهر بعد التأمل في الظروف أن مجرى الأيام كان قد أخذ في التطور بعد غزوة الأحزاب، وأن أعداء الإسلام كانت معنوياتهم في انهيار متواصل، ولم يكن قد بقي لهم أمل في نجاح كسر الدعوة الإسلامية وخضد شوكتها، إلا أن هذا التطور ظهر جلياً بصلح الحديبية، فلم تكن الهدنة إلا الاعتراف بقوة الإسلام، والتسجيل على بقائها في ربوع الجزيرة العربية⁽²⁾.

(1) مسك: جلد.

(2) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص319-336. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج2 ص323.

في ذي القعدة من السنة السادسة للهجرة، رأى النبي ﷺ في منامه أنه دخل البيت هو وصحابته آمنين محلقين رؤوسهم ومقصرين لا يخافون شيئاً. فأخبر بذلك أصحابه ففرحوا، وحسبوا أنهم سيدخلون مكة عامهم ذلك.

فأمر ﷺ الناس أن يتجهزوا للخروج إلى مكة معتمرين، فخرج معه عدد من المهاجرين والأنصار يحدوهم الشوق إلى رؤية بيت الله الحرام بعد أن حُرِّموا ذلك ست سنوات، وخرج معهم من شاء من الأعراب، وساق أمامه ﷺ من الإبل والنعم تعظيماً للبيت وتكريماً. واستخلف على المدينة ابن أم مكتوم ؓ أو نُميلة الليثي ؓ، وخرج منها يوم الاثنين غرة ذي القعدة سنة 6هـ، وأخذ معه زوجته أم سلمة -رضي الله عنها-.

وأحرم بالعمرة من مكان يسمى بذي الحليفة، ليعلم الناس وقريش خاصة أنه لا يريد قتالاً، وكان عدد من خرج معه نحو ألف وخمسمائة، ولم يخرجوا معهم بسلاح إلا سلاح المسافرين في تلك العهود: السيوف في أغمادها.

وسار حتى وصل إلى «عُسْفَانَ» جاء من يقول له: هذه قريش قد سمعت بمسيرك، فخرجوا وقد لبسوا جلود النمر يحلفون بالله لا تدخلها عليهم أبداً، فقال ﷺ: «يَا وَيْحَ قُرَيْشٍ! لَقَدْ أَكَلْتَهُمُ الْحَرْبُ! مَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ خَلَوْا بَيْنِي وَبَيْنَ سَائِرِ الْعَرَبِ، فَإِنْ هُمْ أَصَابُونِي كَانَ ذَلِكَ الَّذِي أَرَادُوا، وَإِنْ أَظْهَرَنِي اللَّهُ عَلَيْهِمْ دَخَلُوا فِي الْإِسْلَامِ وَافِرِينَ، وَإِنْ لَمْ يَفْعَلُوا قَاتَلُوا وَبِهِمْ قُوَّةٌ، فَمَا تَظُنُّ قُرَيْشُ؟ فَوَاللَّهِ لَا أَزَالُ أَجَاهِدُ عَلَى الَّذِي بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ حَتَّى يُظْهِرَهُ اللَّهُ أَوْ تَنْفَرِدَ هَذِهِ السَّالِفَةُ».

وعند ذلك أخذ رسول الله ﷺ طريقاً آخر غير معهود وبينما هو في ثنية المزار بركت ناقته ﷺ، فقال الناس: خلأت الناقة⁽¹⁾. فقال رسول الله ﷺ: «مَا خَلَأْتُ، وَمَا هُوَ لَهَا بِخُلُقٍ، وَلَكِنْ حَبَسَهَا حَابِسُ الْفِيلِ عَنْ مَكَّةَ، وَاللَّهِ لَا تَدْعُونِي قُرَيْشُ الْيَوْمَ إِلَى خُطْبَةٍ يَسْأَلُونَنِي فِيهَا صَلَةَ الرَّحِمِ إِلَّا أُعْطِيَتْهُمْ إِيَّاهَا». ثُمَّ قَالَ لِلنَّاسِ: «انْزِلُوا» فقالوا: يا رسول الله، ما بالوادي من ماء ينزل عليه الناس. فأخرج رسول الله ﷺ سهماً من كنانته، فأعطاه رجلاً من أصحابه، فنزل في بئر من تلك الآبار، فغرز فيه، فجاش الماء بالرواء، فشربوا جميعاً.

فلما وصل إلى الحديبية -وهي مكان قريب من مكة- جاءه بُدَيْلُ بْنُ وَرْقَاءَ في بعض رجال من خزاعة يسأله عن سبب قدومه، فأخبرهم أنه لم يأت إلا ليزور البيت ويعتمر،

(1) بَرَكْتُ، أَوْ حَرَنْتُ مِنْ غَيْرِ عِلَّةٍ.

فرجعوا إلى قريش وقالوا لهم: إنكم تعجلون على محمد، لم يأت لقتال، إنما جاء زائرًا لهذا البيت.

ف قالت قريش: لا والله لا يدخلها علينا عنوة أبدًا، ولا يتحدث العرب عنا بذلك.

ثم بعثوا إليه مَكْرَزَ بْنَ حَفْصٍ، فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ كلمه رسول الله ﷺ بنحو مما كلم به أصحابه، ثم رجع إلى قريش، فأخبرهم بما قال له رسول الله ﷺ.

فبعثوا إليه الجلس بن علقمة الكناني، وهو يومئذ سيد الأحابيش، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: «هَذَا مِنْ قَوْمٍ يَتَأَلَّهُونَ، فَأَبْعَثُوا الْهَدْيَ فِي وَجْهِهِ»، فبعثوا الهدى، فلما رأى الهدى يسيل عليه من عرض الوادي في قلائده، قد أكل أوباره من طول الحبس عن محله، رجع، ولم يصل إلى رسول الله ﷺ إعظامًا لما رأى.

ثم بعثوا عروة بن مسعود الثقفي ليتحدث إلى الرسول ﷺ بهذا الشأن، وبعد حديث وأخذ ورد بين عروة وبعض الصحابة ، عاد إلى قريش وحدثهم عما رأى من حُب الصحابة لرسول الله ﷺ، وهيبتهم له، ورغبتهم في الصلح معه، وقد رأى من تعظيم الصحابة للنبي ﷺ حُبًا وكرامة وطاعة ما لم يره عند كسرى وقيصر وقد أخبر قريشًا بما رآه، فأبوا أن يسمحوا له بدخول مكة.

ثم بعث الرسول ﷺ عثمان بن عفان إلى أهل مكة ليؤكد لهم الغرض من مجيء الرسول ﷺ وصحابته، وأبطأ عثمان، فأشيع بين المسلمين أنه قد قُتل، فقال الرسول ﷺ عندئذٍ: «لَا نَبْرُحُ حَتَّى نُنَاجِرَ الْقَوْمَ» (نقاتلهم)، ودعا المسلمين إلى البيعة على الجهاد، والشهادة في سبيل الله، فبايعوه تحت شجرة هناك من أشجار الطَّلح على عدم الفرار، وأنه إما الصلح، وإما الشهادة، فكانت بيعة الرضوان.

ولما علمت قريش بأمر البيعة، خافوا ورأوا الصلح معه على أن يرجع هذا العام ويعود من قابل فيقيم ثلاثًا معه سلاح الراكب: الرماح والسيوف في أغمارها، وأرسلت قريش لذلك سهيل بن عمرو ليتم هذا الصلح، وأخيرًا تم هذا الصلح، على ما رغبت قريش، وعلى وضع الحرب بين الفريقين عشر سنين، وأن من أتى من عند محمد إلى مكة لم يردوه، وأن من أتى محمدًا من مكة ردوه إليهم، فعز ذلك على المسلمين، وأخذ بعضهم يجادل النبي ﷺ فيما جاء من شروطها، ومن أشدهم في ذلك عمر ، حتى قال رسول الله ﷺ: «أَنَا عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، لَنْ أُخَالِفَ أَمْرَهُ، وَلَنْ يُضَيِّعَنِي».

وبينما كتاب الصلح يُكْتَب، إذ دخل أبو جندل بن سهيل يرسف في قيوده فردّه النبي ﷺ إنفاذًا لبنود الصلح قائلاً له ﷺ: «يَا أَبَا جَنْدَلٍ، اصْبِرْ وَاحْتَسِبْ، فَإِنَّ اللَّهَ

جَاعِلٌ لَكَ وَلِمَنْ مَعَكَ مِنَ الْمُسْتَضْعِفِينَ فَرَجًا وَمَخْرَجًا، إِنَّا قَدْ عَقَدْنَا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ صُلْحًا، فَأَعْطَيْنَاهُمْ عَلَى ذَلِكَ، وَأَعْطَوْنَا عَلَيْهِ عَهْدًا، وَإِنَّا لَنْ نَعْدِرَ بِهِمْ».

ثُمَّ أَمَرَ الرَّسُولُ ﷺ أَصْحَابَهُ ﷺ بِالْتَحَلُّلِ مِنَ الْعِمْرَةِ، فَلَمْ يَفْعَلُوا ذَلِكَ فِي مَوْجَةٍ مِنَ الْأَلَمِ، لَمَّا حِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ دُخُولِ مَكَّةَ، وَلَمَّا شَقَّ عَلَيْهِمْ مِنْ شُرُوطِ الصَّلْحِ فَبَادَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِنَفْسِهِ، فَتَحَلَّلَ مِنَ الْعِمْرَةِ، فَتَبِعَهُ الْمُسْلِمُونَ جَمِيعًا، وَقَدْ ظَهَرَتْ فِيهَا بَعْدَ فَوَائِدِ هَذِهِ الشَّرُوطِ الَّتِي صَعِبَتْ عَلَى الْمُسْلِمِينَ وَرَضِيَ بِهَا الرَّسُولُ ﷺ لِبَعْدِ نَظَرِهِ وَرَجْحَانِ عَقْلِهِ، وَإِمْدَادِ الْوَحْيِ لَهُ بِالسَّدَادِ فِي الرَّأْيِ وَالْعَمَلِ.

ثُمَّ رَجَعَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ وَفِي الطَّرِيقِ، نَزَلَتْ سُورَةُ الْفَتْحِ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا ۝ لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيكَ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا ۝ وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: 1-3]، فَسَمَّى اللَّهُ هَذَا الصَّلْحَ فَتْحًا مُبِينًا.

وَصَلَ النَّبِيُّ ﷺ وَمِنْ مَعِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ فِي ذِي الْحِجَّةِ، فَإِذَا بِأَبِي بَصِيرٍ ﷺ يَأْتِي إِلَى الْمَدِينَةِ فَارًّا مِنْ سَجْنِهِ فِي مَكَّةَ، فَأَرْسَلَتْ قُرَيْشٌ خَلْفَهُ رَجُلَيْنِ يَرُدَّانِهِ، فَرَدَّهُ النَّبِيُّ ﷺ وَبَرَّ بَعْدَهُ لِلْقَوْمِ، وَفِي الطَّرِيقِ إِلَى مَكَّةَ اسْتَطَاعَ أَبُو بَصِيرٍ أَنْ يَقْتُلَ أَحَدَ الرَّجُلَيْنِ وَفَرَّ مِنْهُ الْآخَرُ رَاجِعًا إِلَى الْمَدِينَةِ وَأَبُو بَصِيرٍ خَلْفَهُ، فَلَمَّا انْتَهَى الْقُرَشِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «قَتَلَ وَاللَّهِ صَاحِبِي وَإِنِّي لَمَقْتُولٌ»، فَجَاءَ أَبُو بَصِيرٍ فَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ قَدْ وَاللَّهِ أَوْفَى اللَّهِ ذِمَّتَكَ قَدْ رَدَدْتَنِي إِلَيْهِمْ، ثُمَّ أَنْجَانِي اللَّهُ مِنْهُمْ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ فِيهِ: «وَيْلُ أُمِّهِ مُسْعِرُ حَرْبٍ لَوْ كَانَ مَعَهُ رَجَالٌ».

فَخَرَجَ أَبُو بَصِيرٍ ﷺ قَاصِدًا سَيْفَ الْبَحْرِ⁽¹⁾ فَجَعَلَ كُلُّ مَنْ يَفِرُّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ يَأْتِي إِلَيْهِ حَتَّى أَصْبَحَ مَصْدَرُ تَهْدِيدٍ لِقُرَيْشٍ فَأَرْسَلَتْ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ: بِأَنْ يَمْسَكَ مَنْ يَأْتِي مُسْلِمًا مِنْ قُرَيْشٍ وَلَا حَاجَةَ لَهُمْ فِيهِ، وَأَنْ يَبْعَثَ إِلَى أَبِي بَصِيرٍ وَمَنْ كَانَ مَعَهُ فَيَحْزُومَهُمْ إِلَيْهِ ﷺ⁽²⁾.

(1) أي: ساحل البحر.

(2) أخرج ما جرى في صلح الحديبية كاملاً: الإمام أحمد، المسند، رقم (18910)، ج 31 ص 212-220. ورقم (18928)، ج 31 ص 243-253. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الشروط، باب: الشروط في الجهاد، والمصالحة مع أهل الحرب، وكتابة الشروط، رقم (2581). وانظر: ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 398-430. وأبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 325-342. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 337-347.

بعد رجوع المسلمين من الحديبية في أواخر سنة ست وأمن الطريق من قريش كاتب النبي ﷺ ملوك الأرض يدعوهم إلى الإسلام. وأتخذ إذ ذاك خاتماً من فضة يختم به خطاباته، وكان نقشه (محمد رسول الله)، فوجه عددًا من الرسائل إلى مجموعة من الملوك والزعماء من ذلك:

1 - فكاتب قيصر، زعيم الروم، فأرسل إليه دحية الكلبي ، وكاد قيصر أن يسلم لولا حاشيته التي عارضته، وخوفه على ملكه.

2 - أرسل ﷺ الحارث بن عمير الأزدي بكتاب إلى أمير بصرى فلمّا بلغ مؤتة تعرّض له شرحبيل بن عمرو الغساني، فقال له: أين تريد! قال: الشام، قال: لعلك من رسل محمد ﷺ؟ قال: نعم. فأمر به فضربت عنقه، ولم يقتل لرسول الله ﷺ رسول غيره وقد حزن النبي ﷺ لذلك حزناً شديداً.

3 - وجه النبي ﷺ حاطب بن أبي بلتعة بكتاب إلى المقوقس أمير مصر من جهة قيصر، فأوصله إليه حاطب في الإسكندرية، فتلفظ وردّ رداً حسناً وأكرم حاطب وأرسل إلى النبي ﷺ معه هدية، جاريتين وثياباً وبغلة، وكانت إحدى الجاريتين مارية التي تسرى بها ﷺ، وجاء منها بولده إبراهيم، والأخرى أعطاها لحسان بن ثابت ، ولم يسلم المقوقس.

4 - وجه النبي ﷺ عمرو بن أمية الضمري بكتاب إلى النجاشي ملك الحبشة، ولما وصل إليه الكتاب احترمه غاية الاحترام، وقال لعمرو: إنني أعلم والله أن عيسى بشر به، ولكن أعواني بالحبشة قليل فأنظرني حتى أكثر الأعوان وألين القلوب.

وقد عرض عمرو على من بقي من مهاجري الحبشة الرجوع إلى رسول الله بالمدينة، وكان من المهاجرين أم حبيبة بنت أبي سفيان زوجة عبيد الله بن جحش الذي كان قد أسلم وهاجر بها، ولكن قد غلبت عليه الشقاوة فتنصر، فتزوج النبي ﷺ أم حبيبة وهي بالحبشة، والذي زوجها له النجاشي بتوكيل منه .

5 - وجه النبي ﷺ عبد الله بن حذافة السهمي بكتاب إلى كسرى ملك الفرس، فلمّا وصل إليه الكتاب مرّقه استكباراً ولما بلغ النبي ﷺ ما فعله كسرى بكتابه، قال ﷺ: «مَرْقَ اللَّهُ مُلْكَهُ»، وقد فعل ﷺ، فكانت مملكته أقرب الممالك سقوطاً.

6 - وَجَّهَ النَّبِيُّ ﷺ الْعَلَاءَ بْنَ الْحَضْرَمِيِّ ﷺ بِكِتَابٍ إِلَى الْمُنْذَرِ بْنِ سَاوَى مَلِكِ الْبَحْرَيْنِ
يَدْعُوهُ إِلَى الْإِسْلَامِ فَأَسْلَمَ⁽¹⁾.

أحداث السنة السابعة من الهجرة:

غزوة خيبر:

في محرم السنة السابعة أمر النبي ﷺ المسلمين بالتجهز لغزو خيبر، التي كان فيها
أعظم مُهيِّج للأحزاب من زعماء اليهود الذين أُجلوا من المدينة، الذين لا يزالون مجتهدين
في مخالفة الأعراب ضد المسلمين.

فأهل خيبر هم الذين حَزَبُوا الأحزاب ضد المسلمين، وأثاروا بني قريظة على الغدر
والخيانة، ثم أخذوا في الاتصالات بالمنافقين وبغطفان وأعراب البادية، وكانوا هم أنفسهم
يهيئون للقتال، ووضعوا خطة لاختياله النبي ﷺ.

وإنما أبطأ المسلمون في الخروج إليهم، لأن قريشاً كانت تقف في مجابهة للمسلمين،
فلما انتهت هذه المجابهة صفا الجو لمحاسبة هؤلاء المجرمين، واقترب لهم يوم الحساب.
فأعلن النبي ﷺ ألا يخرج معه إلا راغب في الجهاد، فلم يخرج إلا أصحاب بيعة الرضوان.
واستعمل ﷺ على المدينة سباع بن عُرفطة الغفاري ﷺ.

ولما اقترب النبي ﷺ من خيبر دعا أن يرزقه الله ﷻ خيرها وخير أهلها وتعوذ من
شرها وشر أهلها، وكان قد وصل إليها ليلاً فلم يطرقها حتى الصباح، فلما كان الصباح
خرج اليهود بمكاتلتهم وفؤوسهم إلى أعمالهم فلما رأوا النبي ﷺ رجعوا إلى حصونهم
هاربين، وتحصنوا بها، وكانت حصون خيبر في ثلاث مناطق رئيسة: النطاة، والكثبية،
والشق.

واتخذ النبي ﷺ راية سوداء تسمى العقاب، وحملها الحباب بن المنذر ﷺ، وكان اللواء
أبيض وكان يحملُه علي بن أبي طالب ﷺ⁽²⁾.

(1) أبو شهبه، السيرة النبوية، ج 2 ص 357-365. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 350-361.

(2) قال ابن حجر - رحمه الله - في الفرق بين اللواء والراية: «اللواء - بكسر اللام والمد - هي الراية، ويسمى أيضاً العلم، وكان الأصل أن يمسكها رئيس الجيش، ثم صارت تحمل على رأسه. وقال أبو بكر بن العربي: اللواء غير الراية، فاللواء ما يعقد في طرفه الرمح، ويلوي عليه، والراية ما يعقد فيه يترك حتى تصفقه الرياح. وقيل: اللواء دون الراية. وقيل: اللواء العلم الضخم، والعلم علامة لمحل الأمير يدور معه حيث دار، والراية يتولاها صاحب الحرب». (ابن حجر العسقلاني، فتح الباري، ج 1 ص 126).

وبدأ ﷺ بحصون النطاة، وعسكر المسلمون شرقيها، وقد أشار الحُبَابُ بْنُ الْمُنْذَرِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَبْتَعدَ عَنِ الْحُصُونِ حَتَّى لَا يُصِيبَهُ نَبْلُ أَهْلِ النُّطَاةِ، وَأَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ بِرَأْيِهِ.

ثُمَّ بَدَأَ النَّبِيُّ ﷺ بِفَتْحِ الْحُصُونِ، وَكَانَ أَوَّلُ حِصْنٍ فُتِحَ حِصْنٌ نَاعِمٍ، وَاسْتَشْهَدَ عِنْدَهُ مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلَمَةَ ، ثُمَّ أَخَذَ النَّبِيُّ ﷺ فِي حِصَارِ حِصْنٍ تَلَوِ الْآخِرَ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ جَمِيعَ الْحُصُونِ، ثُمَّ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ حُصُونِ الشَّقِّ ثُمَّ حُصُونِ الْكُتَيْبَةِ، وَأَعْظَمُ حُصُونِهَا الْقُمُوصُ وَكَانَ حِصْنًا مَنِيعًا تَنَاقَبَ عَلَيْهِ الصَّحَابَةُ حَتَّى قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يُفْتَحُ عَلَى يَدَيْهِ، يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ». فَبَاتَ النَّاسُ لَيْلَتَهُمْ: أَيُّهُمْ يُعْطَى، فَغَدَا كُلُّهُمْ يَرْجُوهُ، فَقَالَ ﷺ: «أَيْنَ عَلِيٌّ». فَقِيلَ: يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ، فَبَصَقَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ، فَبَرِئَ كَأَن لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ، فَأَعْطَاهُ، فَقَالَ: أَقَاتَلْتُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا؟ فَقَالَ ﷺ: «انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ، فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا، خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»⁽¹⁾، وَقَاتَلَهُمْ عَلِيٌّ حَتَّى فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ .

وَقَدْ سَأَلَتْ يَهُودُ خَيْبَرَ أَنْ يُصَالِحَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أَرْضِ خَيْبَرَ يَزْرَعُونَهَا لَهُ وَيُصْلَحُونَهَا عَلَى أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الشَّطْرُ مِنْ كُلِّ زَرْعٍ وَنَخْلٍ وَشَيْءٍ مَا بَدَأَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ.

اسْتَشْهَدَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْبَرَ خَمْسَةَ عَشَرَ رَجُلًا، مِنْهُمْ: مُحَمَّدُ بْنُ مُسْلَمَةَ وَبِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ، وَعَامِرُ بْنُ الْأَكْوَعِ، وَأَسْلَمَ الْأَسْوَدُ الرَّاعِي الْحَبَشِيُّ مِنْ أَهْلِ خَيْبَرَ أَسْلَمَ فِيهَا وَقُتِلَ يَوْمئِذٍ. وَقُتِلَ مِنَ الْيَهُودِ ثَلَاثَةٌ وَتَسْعُونَ رَجُلًا.

وَفِي هَذِهِ الْغَزْوَةِ أَهْدَتْ إِحْدَى نِسَاءِ الْيَهُودِ «زَيْنَبُ بِنْتُ الْحَارِثِ» امْرَأَةً «سَلَامُ بْنُ مَشْكَمٍ»، نِزَاعَ شَاةٍ مَسْمُومَةٍ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَأَخَذَ مِنْهَا مِضْغَةً ثُمَّ لَفَظَهَا حَيْثُ أُعْلِمَ بِالْوَحْيِ أَنَّهَا مَسْمُومَةٌ، وَأَكَلَ مِنْهَا «بِشْرُ بْنُ الْبَرَاءِ بْنِ مَعْرُورٍ» -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- فَمَاتَ، فَجِئَ بِالْمَرْأَةِ الَّتِي فَعَلَتْ هَذِهِ الْفَعْلَةَ فَسَأَلَهَا النَّبِيُّ ﷺ عَنْ سَبَبِ ذَلِكَ فَأَجَابَتْ: «قُلْتُ إِنَّ كَانَ نَبِيًّا لَنْ يَضُرَّهُ، وَإِنْ كَانَ كَاذِبًا أَرَا حَنَا اللَّهَ مِنْهُ»، فَعَفَا عَنْهَا ﷺ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ فَلَمَّا تَوَفَّى بِشْرَ أَقَامَ عَلَيْهَا الْقِصَاصَ.

وَبَعْدَ تَمَامِ الظَّفَرِ وَالنَّصْرِ تَزَوَّجَ النَّبِيُّ ﷺ بِـ «صَفِيَّةَ بِنْتُ حَيٍّ» -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- سَيِّدَ بَنِي النُّضَيْرِ، وَجَعَلَ مَهْرَهَا عَتَقَهَا، وَقَدْ أَسْلَمَتْ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَبْلَ أَنْ يَدْخُلَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ، فَشُرِّفَتْ بِأُمُومَةِ الْمُؤْمِنِينَ⁽²⁾.

(1) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، الْجَامِعُ الْمُسْنَدُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ الْجِهَادِ وَالسَّيْرِ، بَابُ: فَضْلُ مَنْ أَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ رَجُلٌ، رَقْمُ (2847).

(2) ابْنُ هِشَامٍ، سِيرَةُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، ج 3 ص 431-484. وَالْمُبَارَكُفُورِيُّ، الرَّحِيقُ الْمَخْتُومُ، ص 364-377.

وحين رجوع المسلمين من خير قَدَم من الحبشة جعفر بن أبي طالب وَأَصْحَابُهُ ﷺ مِنْ الْحَبَشَةِ ومعه الأشعريون أبو موسى وقومه ﷺ، وفرح النَّبِيُّ ﷺ بمقدمهم فرحاً عظيماً، وأعطى للأشعريين من مغانم الحصون المفتوحة صلحاً، وكان مع جعفر أم حبيبة بنت أبي سفيان أم المؤمنين -رضي الله عنها-، وقدم في هذا الوقت على النَّبِيِّ ﷺ الدوسيون إخوان أبي هريرة ﷺ، فأعطاهم أيضاً رسول الله ﷺ مِنْ الْفَيْءِ⁽¹⁾.

إسلام عمرو بن العاص، وخالد بن الوليد، وعثمان بن أبي طلحة ﷺ:

أعقب هذه الغزوة وهذا الفتح المبين إسلام ثلاثة طالما كانت لهم اليد الطولى في قيادة الجيوش لحرب المسلمين، وهم: خالد بن الوليد المخزومي، وعمرو بن العاص السهمي، وعثمان بن طلحة العبدي ﷺ، فسُرَّ بهم النَّبِيُّ ﷺ سروراً عظيماً⁽²⁾.

غزوة ذات الرِّقَاع:

بعد أن تَمَّ الْقَضَاءُ عَلَى فِتْنَةِ الْيَهُودِ، وكسر شوكة قريش ومن معها، بقي هناك خطرٌ آخر، وهو الأعراب القُساة في صحارى نجد، الذين لم يتوقَّفوا عن أعمال النهب والسلب، حتَّى تنَاهَى إِلَى سَمْعِ النَّبِيِّ ﷺ بِأَنَّ قَبِيلَتِي أَنْمَارَ وَتَغْلَبَةَ قَدْ جَمَعُوا لِقِتَالِهِ فَحَزَمَ أَمْرَهُ، ودعا أصحابه للغزو، فسارع المسلمون إلى أسلحتهم فخرج معه، قيل: أربعمائة أو سبعمائة مقاتل.

وخرج النَّبِيُّ ﷺ بجيشه من المدينة، وكان هناك نقصٌ شديد في عدد الرواحل، ومما زاد الأمر سوءاً وعورة الأرض وكثرة أحجارها الحادة، التي أثَّرت على أقدام المجاهدين حتَّى تَمَزَّقَتْ خفافهم، فلفوا الْخِرَقَ والجلود على الأرجل، ومن هنا جاءت تسمية هذه الغزوة بذات الرِّقَاع.

واستمرَّ الجيش في المسير حتَّى بلغ موضعاً لغطفان يُقال له «نخل»، فلما سمع بهم الأعراب تملَّكهم الخوف، وأدركوا جدية الأمر، فهربوا إلى رؤوس الجبال، تاركين وراءهم النساء والذرية.

وعاد النَّبِيُّ ﷺ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَكَانَتْ غَيْبَتُهُ خَمْسَ عَشْرَةَ لَيْلَةً⁽³⁾.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 486-496. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج 2 ص 371-372.

(2) أبو شهبه، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 423.

(3) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 3 ص 240-250. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 380-382.

وفي ذي القعدة 7 هـ خرج النَّبي ﷺ بمن صدَّ معه في الحديبية، ليقضِيَّ عُمْرته التي رجع منها بعد صلح الحديبية، وساق معه الهدي ستين بدنة، وأخرج معه السلاح حذرًا من غدر قريش.

ولمَّا حان وقت دخوله مكَّة، خرج أهلوها منها كارهين رؤية المسلمين يطوفون بالبيت، وأدَّى المسلمون عُمَرتهم وقفلوا راجعين إلى المدينة⁽¹⁾.

أحداث السنة الثامنة من الهجرة:

غزوة مؤتة:

كانت في جمادى الأولى للسنة الثامنة من الهجرة، و«مؤتة» بلدة قرب مدينة الكرك في الأردن، وكان سبب الغزوة أنَّ الرسول ﷺ كان قد أرسل «الحارث بن عمير الأزدي» ﷺ بكتاب إلى أمير بصرى من جهة هرقل، وهو «الحارث بن أبي شمر الغساني» يدعو فيه إلى الإسلام، فلما نزل «الحارث بن عمير الأزدي» بمؤتة قتله أحد الأمراء العرب الغسانية التابعين لقيصر الروم.

فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فجهز لهم جيشًا من المسلمين عدته ثلاثة آلاف، وأمر عليهم «زيد بن حارثة»، وأوصاهم إن أصيب زيد فليؤمروا «جعفر بن أبي طالب» ﷺ، فإن أصيب فليؤمروا عليهم «عبد الله بن رواحة» ﷺ، فإن أصيب فالأمر إليهم يختارون من شاؤوا.

فسار الجيش حتى وصل إلى مدينة «معان» جنوب الأردن، فبلغهم أنَّ هرقل قد جمع لهم جمعًا عظيمًا جدًّا، ونزل في منطقة «مؤاب» من أرض البلقاء، وكان جيش الروم جيشًا عَمرَمًا مؤلفًا منهم ومن العرب المنتصرة، فتشاور المسلمون فيما بينهم وهم في «معان»، ورأوا أنَّ يرسلوا إلى الرسول ﷺ فيمدِّهم بمدد، أو يأمرهم بأمر آخر فيمضوا له، فكان رأي «عبد الله بن رواحة» ﷺ أنَّ يمضوا للقتال، فوافقه النَّاسُ على خوض المعركة.

فتحرك المسلمون شمالًا حتى لقوا الروم أو جزءًا منهم في أرض «مؤتة»، وابتدأ القتال، فقاتل زيد ﷺ وهو يحمل الراية حتى قُتل. ثم استلم اللواء بعده جعفر ﷺ، فقاتل حتى قُطعت يمينه، فأخذ اللواء بيساره، فقُطعت يساره، فاحتضن اللواء حتى قُتل ﷺ، ولذلك سُمي بجعفر الطيار، وبجعفر ذي الجناحين، ووُجد فيه بضعة وسبعون جرحًا ما بين ضربة بسيف وطعنة برمح.

(1) أبو شعبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 375-378. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 384-386.

ثم أخذ اللواء عبد الله بن رواحة ؓ، فقاتل حتى قُتل، وحينئذٍ تقدم رجل من بني عجلان - اسمه «ثابت بن أقرم» ؓ - فأخذ الراية وقال: «يا معشر المسلمين، اصطلحوا على رجل منكم»، قالوا: أنت. قال: «ما أنا بفاعل»، فاصطلح الناس على «خالد بن الوليد» ؓ أميرًا للجيش - وكانت هذه أول معركة يحضرها في الإسلام-، فما زال يستعمل دهاءه الحربي حتى أنقذ الجيش الإسلامي من الفناء، حيث تراجع نحو الصحراء حتى ظنه الرومان ومن معهم أنه يريد أن يستدرجهم لكمين في الصحراء نُصب لهم بمدد من رسول الله ﷺ، فتراجع جيش الروم واستطاع خالد ؓ أن يرجع بالجيش سالمًا إلى المدينة.

وسُميت هذه المعركة بالغزوة وإن لم يحضرها رسول الله ﷺ، لكثرة المحاربين فيها، حيث بلغوا ثلاثة آلاف مما يخالف عدد المحاربين في السرايا، ولأنَّ جيش تلك المعركة انطلق بأمر النبي ﷺ وإشرافه المباشر، وكانت الملائكة تنقل خبرها أولًا بأول للنبي ﷺ. وقد أطلق رسول الله ﷺ على «خالد بن الوليد» في هذه المعركة: «سيف الله».

واستشهد يومئذٍ من المسلمين اثنا عشر رجلًا، أما الرومان، فلم يُعرف عدد قتلهم، غير أن تفصيل المعركة يدل على كثرتهم⁽¹⁾.

سيرة ذات السلاسل⁽²⁾؛

لما علم رسول الله ﷺ بموقف القبائل العربية -التي تقطن مشارف الشام- في معركة مؤتة من اجتماعهم إلى الرومان ضد المسلمين، شعر بمسييس الحاجة إلى القيام بحكمة بالغة توقع الفرقة بينها وبين الرومان، وتكون سببًا للاتلاف بينها وبين المسلمين، حتى لا تتحشد مثل هذه الجموع الكبيرة مرة أخرى.

واختار لتنفيذ هذه الخطة «عمرو بن العاص» ؓ، فبعثه ﷺ إليهم في جمادي الآخرة سنة 8 هـ، على إثر معركة مؤتة ليستألفهم.

ويقال: إنَّ الاستخبارات نقلت أنَّ جمعًا من قُضَاعَة قد تجمعوا، يريدون أن يدنوا من أطراف المدينة، فبعثه إليهم، ويمكن أن يكون السببان اجتماعًا معًا.

وبعث النبي ﷺ عمراً ؓ في ثلاثمائة رجل، ومعهم ثلاثون فرسًا، وأمره أن يستعين بمن مرَّ به من قبائل: يَلِي، وعُدْرَة، وبَلْقَيْن.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 5-32. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 426-430. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 387-392.

(2) ذات السلاسل أو السلاسل، بقعة وراء وادي القَرْى، بينها وبين المدينة عشرة أيام.

فلما قرب من القوم بلغه أن لهم جمعًا كثيرًا، فبعث «رافع بن مكيث الجُهني» ﷺ إلى رسول الله ﷺ يستمده، فبعث النبي ﷺ إليه «أبا عبيدة عامر بن الجراح» ﷺ في مائتين من المقاتلين، وعقد له لواء، وبعث له سُرّة المهاجرين والأنصار -فيهم: أبو بكر وعمر- وأمره أن يلحق بعمر، وأن يكونا جميعًا ولا يختلفا.

وسار الجيش حتى جاء بلاد «قُضاعة»، فدوخها حتى أتى أقصى بلادهم، ولقي في آخر ذلك جمعًا، فحمل عليهم المسلمون فهربوا في البلاد وتفرقوا.

وبعث عمرو ﷺ بـ «عوف بن مالك الأشجعي» ﷺ بريدًا إلى رسول الله ﷺ، فأخبره بقولهم وسلامتهم، وما كان في غزاتهم.

سرية أبي قتادة إلى خِصْرَة:

كانت هذه السرية في شعبان سنة 8 هـ، وذلك أن بعض بني غَطَفَان كانوا يتحشدون في منطقة خِصْرَة بنَجْد فبعث إليهم رسول الله ﷺ أبا قتادة ﷺ في خمسة عشر رجلًا، فقتل منهم، وسبى وغنم، وكانت غيبته خمس عشرة ليلة.

غزوة فتح مكة:

وهي فتح مكة، وكانت في رمضان للسنة الثامنة من الهجرة.

وكان سببها نقض قريش العهد الذي بينها وبين رسول الله ﷺ في الحديبية وذلك أن بني بكر كانت قد دخلت في حلف قريش وبني خزاعة قد دخلت في حلف النبي ﷺ، فقاتلت بنو بكر خزاعة وقتلوهم حتى ألجؤهم إلى الحرم وقتلوهم فيه، وعاونتها قريش بالسلح والرجال خفية، وقدم عليه عمرو بن سالم الخزاعي يناشده النصر بما بينهم من حلف وإسلام ذاكرا ما فعلته بنو بكر وقريش بهم. فقال رسول الله ﷺ: «نُصِرْتُ يَا عَمْرُو بْنُ سَالِمٍ»، ثُمَّ عَرَضَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَنَانٌ مِنَ السَّمَاءِ، فَقَالَ: «إِنَّ هَذِهِ السَّحَابَةُ لَتَسْهَلُ بِنُصْرِ بَنِي كَعْبٍ».

ولا شك أن ما فعلت قريش وحلفاؤها كان غدرا محضا ونقضا صريحا للميثاق، لم يكن له أيُّ مُسَوِّغ، ولذلك سرعان ما أحست قريش بغدرها، وخافت وشعرت بعواقبه الوخيمة، فعقدت مجلسا استشاريا وقررت أن تبعث قائدها أبا سفيان ممثلا لها ليجدد الصلح.

وقد أخبر النبي ﷺ بقدوم أبي سفيان، فقال: «لَكَأَنَّكُمْ بِأَبِي سُفْيَانَ قَدْ جَاءَ يَقُولُ: جَدِّدِ الْعَهْدَ وَزِدْ فِي الْهَدَنَةِ، وَهُوَ رَاجِعٌ بِسَخَطِهِ»، فكان كما قال النبي ﷺ.

وبالفعل قدم أبو سفيان المدينة، ووجد ما أخبر به النبي ﷺ فعاد بسخطه خائبًا، حتى إنه لا يعرف ما ينويه النبي ﷺ ردًا على خيانة العهد.

وأمر النبي ﷺ أصحابه بالجد والتجهيز للغزو، وأخذ في جهازه ﷺ وأخفى وجهته، وقال ﷺ: «اللَّهُمَّ خُذِ الْعُيُونَ وَالْأَخْبَارَ عَنْ قُرَيْشٍ حَتَّى نَبْعَثَهَا فِي بِلَادِهَا». فَتَجَهَّزَ النَّاسُ.

وفي تلك الأثناء كتب «حاطب بن أبي بلتعة» ﷺ كتابًا وأرسله مع امرأة إلى قريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، حتى يكون له يد عند قريش فلا يعدوا على أهله وولده، إذ ليس في مكة من يمنعهم من قريش، وقد أخبر الله ﷺ نبيه ﷺ بما صنع حاطب فأرسل عليًا والزبير والمقداد في طلب المرأة والكتاب فاسترجعوا الكتاب، وعاتب ﷺ حاطبًا، فقال حاطب إنه ما فعل ذلك كفرًا أو نفاقًا، ولكن خوفًا على أهله، وأراد عمرُ ﷺ الإذن من النبي ﷺ في قتله، فقال النبي ﷺ: «إِنَّهُ شَهِدَ بَذْرًا وَمَا يُدْرِيكَ؟ لَعَلَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَطْلَعَ عَلَى أَهْلِ بَذْرِ فَقَالَ: اْعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ عَفَرْتُ لَكُمْ».

وأرسل النبي ﷺ سرية إلى بطن إضم ليظن الظان أن هذه وجهته، وأرسل إلى المسلمين ممن حول المدينة أن يوافوه بالمدينة في رمضان.

واستخلف على المدينة أبا رهم كلثوم بن حصين الغفاري، ويقال: ابن أم مكتوم.

فخرج رسول الله ﷺ من المدينة لعشر مضي من رمضان، وكان عدد المسلمين حين خروجهم من المدينة قرابة عشرة آلاف، ثم انضم إليهم في الطريق عدد من قبائل العرب، ولما كان بالجُحْفَةِ -أو فوق ذلك- لقيه عمه العباس بن عبد المطلب، وكان قد خرج بأهله وعياله مسلمًا مهاجرًا، ثم لما كان رسول الله ﷺ بالأبواء لقيه ابن عمه أبو سفيان ابن الحارث وابن عمته عبد الله بن أبي أمية، فأعرض عنهما، لما كان يلقاه منهما من شدة الأذى والهجو، فقالت له أم سلمة: لا يكن ابن عمك وابن عمك أشقى الناس بك، فقبلهما ﷺ.

وسار أمام النبي ﷺ الزبير بن العوام في مائتين من المسلمين، ولما بلغ النبي ﷺ قُدَيْدًا عقد الألوية والرايات ودفعها إلى القبائل، وجاءه «أبو سفيان بن الحارث» و«عبد الله بن أبي أمية بن المغيرة» فأسلما.

ولما وصل ﷺ الكديد أفطر وأمر الناس بالفطر رخصةً، وبين لهم أن الفطر أقوى لهم على الجهاد.

ثم واصل ﷺ سيره حتى نزل بمر الظُّهْران -وادي فاطمة-، فأمر الجيش، فأوقدوا النيران، فأوقدت عشرة آلاف نار، وجعل رسول الله ﷺ على الحرس عمر بن الخطاب ﷺ.

وفي «مر الظهران» عثر حرس المسلمين على أبي سفيان وحكيم بن حزام وبديل بن ورقاء، فأسروهم وجاءوا بهم إلى النبي ﷺ، فأسلم أبو سفيان، وقال العباس ﷺ للنبي ﷺ: (إنَّ أبا سفيان رجل يحب الفخر، فاجعل له شيئاً يفتخر به)، فقال ﷺ: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ».

ثُمَّ وصل الجيش إلى مكة في العشرين من رمضان، فأعلن منادي رسول الله ﷺ: «مَنْ أَعْلَقَ بَابَهُ فَهُوَ آمِنٌ، وَمَنْ دَخَلَ الْمَسْجِدَ فَهُوَ آمِنٌ، مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»، واستثنى من ذلك خمسة عشر رجلاً عظمت جرائمهم في حق الإسلام ورسوله.

ثُمَّ دخل النبي ﷺ مكة وهو راكب راحلته، مُنحِنٌ على الرحل، حتى لتكاد جبهته تمس قَتَبَ الراحلة شكرًا لله ﷻ على هذا الفتح الأكبر، وأمر ﷺ المسلمين أن يكفوا أيديهم وألا يقتلوا إلا من قاتلهم.

ثُمَّ طاف ﷺ بالبيت، وطلب مفتاح الكعبة فأخذه ودخل الكعبة فصلى بها، وأزال ما حولها من أصنام بلغت ثلاثمائة وستين، ثُمَّ وقف على بابها وقريش تنظر ما هو فاعل بها، فقال فيما قال ساعتئذٍ: «مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» قالوا خيرًا، أخ كريم وابن أخ كريم، فقال رسول الله ﷺ: «أَقُولُ كَمَا قَالَ أَخِي يُوسُفُ ﷺ: ﴿لَا تَتْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ﴾ [يوسف: 92] اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلُقَاءُ»، فخرجوا كأنما نُشِروا من القبور فدخلوا في الإسلام.

وجاء النبي ﷺ بمفتاح الكعبة ورده على عثمان بن طلحة ﷺ، وقال ﷺ: «خُذْهَا خَالِدَةً مُخَلَّدَةً إِنِّي لَمْ أَدْفَعْهَا إِلَيْكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ دَفَعَهَا إِلَيْكُمْ وَلَا يَنْزِعُهَا مِنْكُمْ إِلَّا ظَالِمٌ».

ثُمَّ اجتمع النَّاسُ حول الصفا ليبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام، فجلس إليهم الرسول ﷺ على الصفا، وأخذ بيعتهم على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا، بايع الرجال أولًا، ثُمَّ النساء، ولم يصافح واحدة منهن، وكان فيمَن بايعهنَّ هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان وكان ﷺ أهدر دمها فيمَن أهدر دمه يوم الفتح، فلما علم بيعتها عفا عنها.

وفي يوم الفتح أمر رسول الله ﷺ بلالًا أن يؤذن لصلاة الظهر على ظهر الكعبة، فاستعظم ذلك الحاضرون من قريش ولم يسلموا بعد، ولكن رسول الله ﷺ أراد ذلك عمدًا لسر عظيم وحكمة بالغة⁽¹⁾.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 33-85. وأبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 435-458. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 394-409.

كانت غزوة حُنين، وتسمى هوازن أيضًا، في شهر شوال من السنة الثامنة من الهجرة، حيث فتح الله تعالى على نبيه مكة ودخل النَّاس في دين الله أفواجًا، فرأت قبيلتا هوازن وثقيف من أهل الطائف أنه ليس شيء دونهما يمنع النَّبي ﷺ من غزوهما، فسعى أشرافهما إلى بعضهم بعضًا وعزموا على المسير إلى النَّبي ﷺ وغزوه.

فأجمعت هوازن أمرها وقام «مالك بن عوف النصري» ومعه ثقيف كلها والعديد من قبائل العرب ممن لم يسلموا بعد، خرجوا بنسائهم وذرائعهم وأموالهم حتى خرجوا معهم الشياه والغنم، وخرج معهم دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّة، وهو شيخ مُجرب خرج مشيرًا عليهم، وكان قد انتقد خروجهم بنسائهم وذرائعهم وأموالهم، فلم يطيعوه.

وكان قد نما إلى النَّبي ﷺ ما عزم عليه هوازن فأرسل «عبد الله بن أبي حدر» -رضي الله عنهما- يأتيه بخبر القوم، فدخل فيهم وجاء مؤكدًا ما عزموا عليه، فأجمع النَّبي ﷺ المسير، واستعمل على مكة عَتَّابُ بْنُ أُسَيْدٍ ؓ أميرًا عليها، ومعاذ بن جبل ؓ معلمًا لأهلها، وخرج معه المهاجرون والأنصار والمسلمون الجدد بعد الفتح، فكان عدد جيشه اثني عشر ألفًا، وقيل: أكثر من ذلك، فقال رجل: (لن نُغلب اليوم من قلة)، فشَقَّ ذلك على رسول الله ﷺ، لأنَّه كان يعلم أنَّ الغرور يمنع النصر.

وسار رسول الله ﷺ والجيش مستقبليْن وادي حُنين، وكان له مضايق وشعاب وخطوط، وكان قد سبق إليه المشركون وكنموا في شُعبه ومضايقه وكانوا رماة، فما شعر المسلمون لما دخلوا الوادي إلا والسهام تنهال عليهم والكتائب قد خرجت إليهم، فانهزمت مقدمة جيش المسلمين وولت، وكان أغلبهم من مُسلمة الفتح، وتبعهم النَّاس منهزمين، وفي هذه الأثناء أخذ النَّبي ﷺ ذات اليمين، وهو يدعو المنهزمين إليه، فما انتبهوا وهو على بغلته الشهباء والعباس أخذ بلجامها وأبو سفيان بركابها والنَّبي ﷺ يركض بها قَبْلَ الكفار، وهو يقول: «أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبَ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ»⁽¹⁾.

وأمر ﷺ العباس وكان رجلًا عالي الصوت أن يُنادي: يا معشر الأنصار يا أصحاب السَّمرة (شجرة الطلح التي تمت تحتها بيعة الرضوان)، يا أصحاب سورة البقرة، فجعل الصحابة يعطفون راجعين إلى النَّبي ﷺ قائلين: (يا لبيك يا لبيك).

فشدوا على القوم وصبروا لهم فتكاثر المؤمنون حتى استطاعوا أن يعيدوا الكرة، فاندحر المشركون وتبعهم المسلمون يقتلون ويأسرون ويغنمون.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب: من قاد دابة غيره في الحرب، رقم (2709).

وقد أخبر الله تعالى عن حالهم في هذه الغزوة فقال: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ۝ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ﴾ [التوبة: 25-26].

وقد استشهد في هذه الغزوة أربعة من الصحابة هم: «أيمن بن أم أيمن، ويزيد بن زمعة بن الأسود، وسراقة بن الحارث بن عدي، وأبو عامر الأشعري» ؓ. وقد قتل الله تعالى من المشركين قرابة السبعين، منهم دريد بن الصمة.

وكانت هذه الغزوة آخر معركة ذات شأن بين الإسلام والمشركين، لم يلبث العرب من بعدها أن كسروا الأصنام ودخلوا في دين الإسلام⁽¹⁾.

غزوة الطائف:

سار النبي ﷺ بمن معه إلى الطائف، ليُجهز على بقية ثقيف، ومَنْ تَجَمَّعَ معهم مِنْ هَوَازن، وجعل على مقدمة الجيش «خالد بن الوليد» ؓ.

ولما وصل المسلمون إلى الطائف وجدوا الأعداء قد تحصَّنوا به، وأدخلوا معهم قوت سنتهم. فعسكر المسلمون قريب الحصن، فرماهم المشركون بالنبل رميًا شديدًا حتى أصيبَ منهم كثيرون بجراحات، منهم «عبد الله بن أبي بكر» -رضي الله عنهما-، وقد طالوله جرحه حتى أماته في خلافة أبيه، ومنهم أبو سفيان بن حرب ؓ فقُتِلَ عينه، وقد مات بالجراحات اثنا عشر رجلًا من المسلمين، واستمرَّ الحصار ثمانية عشر يومًا، كان فيها ينادي «خالد بن الوليد» ؓ بالمبارزة ولا يجيبه أحد، وناداه «عبد ياليل» عظيم ثقيف: «لا ينزل إليك منَّا أحد، ولكن نقيم في حصننا، فإنَّ فيه من الطعام ما يكفيننا سنين، فإن أقممت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا حتى نموت عن آخرنا».

فأمر النبي ﷺ بأن يُنصب عليهم المنجنيق فنصب، ودخل جَمْعٌ من الأصحاب تحت دبابتين (عربة من الخشب مغطاة بالجلود يُحتمى بها من السهام) لينقبوا الحصن، فأرسلت عليهم ثقيف سكك الحديد محماة بالنَّار حتى أرجعوهم.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 122-158. وأبو شهبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 467-473. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 413-420.

ثُمَّ أَمَرَ ﷺ مِنْ يُنَادِي: «أَيُّمَا عَبْدٍ نَزَلَ مِنَ الْحِصْنِ وَخَرَجَ إِلَيْنَا فَهُوَ حُرٌّ»، فخرج منهم بضعة عشر رجلاً، منهم أَبُو بَكْرَةَ ؓ، فأعتقهم رسول الله ﷺ، ودفع كل رجل منهم إلى رجل من المسلمين يموه، فشق ذلك على أهل الطائف مشقة شديدة.

وعلى الرغم من هذه المحاولات لم يؤذن لرسول الله ﷺ بفتح الطائف، فاستشار ﷺ «نَوْفَلَ بْنَ مُعَاوِيَةَ الدِّبْلِيِّ»⁽¹⁾، فقال ﷺ: «مَا تَرَى؟». فقال ﷺ: (تَغْلِبُ فِي جُحْرِ إِنْ أَقَمْتَ عَلَيْهِ أَخَذْتَهُ، وَإِنْ تَرَكْتَهُ لَمْ يَضْرِكْ). فَأَمَرَ النَّبِيُّ ﷺ بِالرَّحِيلِ⁽²⁾.

عُمْرَةُ الْجِعْرَانَةِ:

وفي طريق عودته ﷺ إلى مكة نزل في الْجِعْرَانَةِ، ومكث بضع عشرة ليلة لا يقسم الغنائم، ويتأني بها، يريد أن يأتيه أهل الطائف تائبين فيحرزوا ما فقدوا من مال، لكن لم يجئه أحد، فبدأ بقسمة المال، ليست المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة، فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطي وحظي بالأنصبة الجزلة. ولم يعط منها الأنصار شيئاً اعتماداً على إيمانهم وصدق إسلامهم.

ثم إِنَّ الرسول ﷺ أحرَمَ بالعمرة من الجعرانة ودخل مكة بليل، فطاف واستلم الحجر ثُمَّ رجع من ليلته، ثم أَمَرَ ﷺ بِالرَّحِيلِ إلى المدينة، فسار الجيش آمناً مطمئناً، حتى دخل المدينة لثلاث بقين من ذي القعدة⁽³⁾.

أحداث السنة التاسعة من الهجرة:

سرية علي بن أبي طالب ؓ لهدم الفُلس:

في ربيع الأول أرسل ﷺ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ في مائة راكب وخمسين فارساً لهدم الفُلس -صنم لطيء- فسار إليه وهدمه وأحرقه، ولما حارب عبَّاده هزمهم واستاق نعمهم وشاءهم وسبيهم، وكان فيه سَفَانَةُ بنت حاتم الطائي.

ولما وصل علي ؓ إلى المدينة طلبت سَفَانَةُ من رسول الله ﷺ أن يَمُنَّ عليها، فأجابها لأنه كان من سننه أن يكرم الكرام.

وكانت هذه المعاملة من رسول الله ﷺ سبباً في إسلام أخيها عدي بن حاتم الطائي الذي كان قد فرَّ إلى الشام عندما رأى الرايات الإسلامية قاصدة بلاده، وكان من حديث

(1) عُمَرُ فِي الْجَاهِلِيَّةِ سِتِّيْنِ سَنَةً وَفِي الْإِسْلَامِ سِتِّيْنِ سَنَةً.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 187-221. وأبو شهبه، السيرة النبوية، ج 2 ص 475-478.

(3) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 222-223. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 422-423.

مجيئه أن أخته توجّهت إليه في الشام، وأخبرته بما عولمت به من الكرم، فقال لها: (ما ترين في أمر هذا الرجل؟) فقالت: (أرى أن تلحق به سريعاً، فإن يكن نبياً فللسابق إليه فضل، وإن يكن ملكاً فأنت أنت). قال: (والله هذا هو الرأي).

فخرج عدي حتى جاء المدينة، ولقي رسول الله ﷺ وجرى بينهما حوار قاده للدخول في الإسلام، وللإيمان برسول الله ﷺ (1).

غزوة تبوك:

تعد آخر غزوة غزاها الرسول ﷺ في السيرة النبوية، كان هدفها قتال الروم ومن تحالف معهم لقتال المسلمين، وانتصر المسلمون فيها. وتسمى غزوة العُسرة، وكانت في رجب سنة تسع من الهجرة. و(تبوك) موضع شمال الحجاز.

وسببها أن الروم قد جمعت جموعاً كثيرة بالشام ضمت قبائل لخم، وجذام، وعاملة، وغسان، وهي من نصارى العرب، وكان قصد هرقل من ذلك، الهجوم على المدينة والقضاء على الدولة الناشئة في جزيرة العرب التي أخذت أخبارها وأخبار انتصاراتها تثير جزع هرقل وخوفه، فندب رسول الله النَّاس للخروج، وكان الوقت وقت عسر شديد وحر شديد، فانتدب المؤمنون الصادقون عن طيب نفس، وتخلّف ثلاثة منهم من صادقي الإيمان، وندب رسول الله ﷺ الأغنياء لتجهيز جيش العسرة، قائلاً: «مَنْ جَهَّزَ جَيْشَ الْعُسْرَةِ فَلَهُ الْجَنَّةُ» (2)، فاستجاب الصحابة لندائه، وضربوا أروع الأمثلة في البذل والعطاء، من ذلك أن عثمان بن عفان ؓ لما سمع حث النبي على البذل في هذه الغزوة انطلق مسرعاً إلى بيته وأخذ ألف دينار ووضعها بين يدي رسول الله ﷺ، وتكفل بعدد كبير من الإبل بكامل عدتها، فاستبشر النبي ﷺ من فعله، وقال ﷺ: «مَا ضَرَّ عُثْمَانَ مَا عَمَلَ بَعْدَ الْيَوْمِ» مرّتين (3).

وفي هذه الغزوة حاول عمر بن الخطاب ؓ أن يسبق أبا بكر ؓ فأتى بنصف ماله، وإذا بأبي بكر ؓ يأتي بكل ما عنده دون أن يُبقي لأهله شيئاً (4).

(1) الخصري، نور اليقين، ص 217.

(2) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الوصايا، باب: إذا وقف أرضاً أو بئراً واشترط لنفسه مثل دلاء المسلمين، رقم (2626).

(3) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (4034). وقال: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه.

(4) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (4006). وقال: هذا حديث حسن صحيح.

وتصدق عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه بألفي درهم، إلى جانب الصدقات العظيمة الأخرى التي قدمها أغنياء الصحابة كالعباس بن عبد المطلب، وطلحة بن عبيد الله، ومحمد بن مسلمة، وعاصم بن عدي رضي الله عنه.

وكان لفقراء المسلمين نصيب في الصدقة، حيث قدموا كل ما يملكون في سبيل الله مع قلة ذات اليد، فمنهم من أتى بصاع من تمر، ومنهم من جاء بنصف صاع أو أقل.

واستغل المنافقون هذه المواقف المشرفة للسخرية من صدقات الفقراء، والتعريض بنوايا الأغنياء، وقد كشف القرآن عن خباياهم فقال ﷺ: ﴿الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [التوبة: 79].

كما حاولوا أن يصدوا الناس عن الخروج، بالترهيب من لقاء العدو تارة، والترغيب في الجلوس والإخلاد إلى الراحة تارة أخرى، خصوصاً أن الغزوة كانت في وقت شدة الحر وطيب الثمر.

واجتمع لرسول الله ﷺ ثلاثون ألف مقاتل من المهاجرين والأنصار وغيرهم من أبناء القبائل العربية، ومن الخيل عشرة آلاف، ودفع باللواء إلى أبي بكر الصديق رضي الله عنه.

واستخلف ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه ليرعى أهله، فشق عليه ﷺ أن تفوته هذه الغزوة، فذهب إلى النبي ﷺ يستأذنه في الخروج، فقال له ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»⁽¹⁾.

وجاء الفقراء إلى النبي ﷺ يطلبون منه أن يعينهم بحملهم إلى الجهاد، والنبي ﷺ يعتذر بأنه لا يجد ما يحملهم عليه من الدواب، فانصرفوا وقد فاضت أعينهم أسفاً على ما فاتهم من شرف الجهاد مع رسول الله ﷺ، فخلد الله ذكرهم إلى يوم القيامة، وأنزل فيهم ﷺ قوله: ﴿لَيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ﴾ [التوبة: 91-92]، وكانت رغبتهم الصادقة في الخروج سبباً لأن يكتب الله لهم الأجر كاملاً، فقد جاء عن أنس رضي الله عنه قال: رجعنا من غزوة تبوك مع النبي ﷺ فقال:

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب: مناقب علي بن أبي طالب، رقم (3503). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (2404)، واللفظ له.

«إِنَّ أَقْوَامًا بِالْمَدِينَةِ خُلَفْنَا، مَا سَلَكْنَا شِغْبًا وَلَا وَاِدِيًا إِلَّا وَهُمْ مَعَنَا فِيهِ، حَبَسَهُمُ الْعَذْرُ»⁽¹⁾.

أما المنافقون فقد تخلف منهم بضعة وثمانون رجلاً، وأدعوا الأعذار الكاذبة، فمنهم من اعتذر بعدم القدرة على السفر، ومنهم من اعتذر بقلّة المتاع، ومنهم من اعتذر بشدّة الحرّ، ومنهم من اعتذر بخوفه من الفتنة بنساء الروم، فقبل النبي ﷺ أَعذارهم، وأنزل الله آياتٍ في سورة التوبة تفضح أمرهم، وتكشف حقيقة كذبهم، وتنذرهم بالعذاب الأليم.

وبدأت المعاناة بسبب نقص المياه، وشدّة الحرارة، وقلّة الرواحل، حتى إن البعير الواحد كان يتناوب عليه الجماعة من الرجال، واضطّر بعضهم إلى أكل أوراق الشجر ونحر الإبل ليشربوا ما في بطونها، وبعد أن بلغ بهم الجهد مبلغاً عظيماً شكوا ذلك لرسول الله ﷺ، فدعا ربّه بنزول المطر، ولم يكد ينتهي من دعائه حتى أمطرت السماء وارتوى النَّاسُ، وكانت هذه المعجزة تثبيتاً للمؤمنين وتخفيفاً لمعاناتهم.

وكان ممن تخلف عن الغزو في أوّل الأمر أبو حَيْثَمَةَ الأنصاري ؓ، حيث لم يستطع أن يحمل نفسه على الخروج، وفي يومٍ من الأيام دخل بستاناً له، ورأى زوجتيه وهما تعذّان له المكان الظليل والماء البارد، فعاتب نفسه كيف يجلس في الظلّ والنعيم والرسول ﷺ يعاني شدّة الحرّ ومشقة الطريق؟ فندم وأخذ سلاحه وركب دابّته، حتى أدرك النبي ﷺ في تبوك، وذهب إليه معتذراً، فعاتبه النبي ﷺ على ما كان منه، ثم عفا عنه ودعا له بخير. وعندما وصل الجيش إلى تبوك، لم يجدوا أثراً للروم أو القبائل الموالية، فبعث النبي ﷺ سريةً بقيادة خالد بن الوليد ؓ إلى دومة الجندل، وغنموا عدداً كبيراً من المتاع والأنعام، واستطاعوا أن يأسروا ملكها أُكَيْدَرُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ كِنْدَةَ وأتوا به إلى النبي ﷺ، فصالحه على دفع الجزية، ثم أطلق سراحه.

ومكث النبي ﷺ في تبوك عشرين يوماً، يستقبل الوفود التي جاءت للمصالحة ودفع الجزية من أهل جَرْبَاءَ وأهل أذْرُح⁽²⁾، وجاءه وفد ملكِ يَحْنَنَ بْنِ رُؤْبَةَ صاحبِ أَيْلَةَ⁽³⁾، الذي بعث إلى النبي ﷺ بهديّة من كساء وبغلة بيضاء، فقبلها النبي ﷺ.

وبعد أن تحقّق المقصود من الغزو، عاد الجيش الإسلاميّ إلى المدينة، فلما اقترب منها خرجت جموع النساء والأطفال لاستقبال النبي ﷺ والاطمئنان على سلامته، ثم توجه النبي ﷺ

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب من حبسه العذر عن الغزو، رقم (2839).

(2) جرباء وأذرح بلدان شمال غرب مدينة معان جنوب الأردن، تبعدان قرابة 20 كم عن معان.

(3) شمال غرب مدينة العقبة جنوب الأردن.

﴿إِلَىٰ مَسْجِدِهِ صَلَّى فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، ثُمَّ جَلَسَ مَعَ النَّاسِ، وَجَاءَهُ الْمُنَافِقُونَ يَعْتَذِرُونَ إِلَيْهِ، فَقَبِلَ أَعْذَارَهُمْ وَأَوْكَلَ سَرَائِرَهُمْ إِلَى اللَّهِ ﷻ، وَحَضَرَ إِلَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ تَخَلَّفُوا عَنِ الْمَعْرَكَةِ وَهُمْ: كَعْبُ بْنُ مَالِكٍ، وَهَلَالُ بْنُ أُمِيَّةٍ، وَمِرَارَةُ بْنُ الرَّبِيعِ ﷻ مِنْ غَيْرِ عَذْرٍ، فَعَاقَبَهُمُ النَّبِيُّ ﷺ بِأَنْ نَهَى النَّاسَ عَنْ مَخَالَطَتِهِمْ وَالْكَلَامِ مَعَهُمْ، حَتَّى أَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ تَوْبَتَهُمْ فِي كِتَابِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى الثَّلَاثَةِ الَّذِينَ خَلَفُوا حَتَّىٰ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللَّهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ [التوبة: 118] (1).

مسجد الضرار:

وَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ ﷺ عَلَىٰ مَقْرَبَةٍ مِنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ بَلَغَهُ خَبْرُ مَسْجِدِ الضَّرَارِ، وَهُوَ مَسْجِدُ أَسَسِهِ جَمَاعَةٌ مِنَ الْمُنَافِقِينَ مَعَارِضَةٌ لِمَسْجِدِ قُبَاءَ، لِيَفْرِقُوا جَمَاعَةَ الْمُسْلِمِينَ. وَجَاءَ جَمَاعَةٌ مِنْهُمْ إِلَى الرَّسُولِ ﷺ طَالِبِينَ مِنْهُ أَنْ يَصَلِّيَ لَهُمْ فِيهِ، فَسَأَلَهُمْ عَنْ سَبَبِ بِنَائِهِ، فَحَلَفُوا بِاللَّهِ ﷻ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى، فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ قَوْلَهُ: ﴿وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَأَرْصَادًا لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿٣٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لِمَسْجِدٍ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَّخِذُوا اللَّهَ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطْهَرِينَ﴾ [التوبة: 107-108]، فَأَمَرَ ﷺ جَمَاعَةً مِنْ أَصْحَابِهِ لِيَنْطَلِقُوا إِلَيْهِ وَيَهْدِمُوهُ فَفَعَلُوا (2).

قدوم وفد ثقيف وإسلامهم:

وَعَقِبَ قُدُومُهُ ﷺ مِنْ تَبُوكَ وَفِي شَهْرِ رَمَضَانَ قَدِمَ عَلَيْهِ ﷺ وَفَدٌ مِنْ ثَقِيفٍ، وَكَانَ مِنْ خَبَرِهِمْ أَنَّهُ لَمَّا انْصَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنْ مُحَاصَرَتِهِمْ تَبَعَ أَثَرَهُ «عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ» حَتَّى أَدْرَكَهُ قَبْلَ أَنْ يَصِلَ إِلَى الْمَدِينَةِ، فَاسْلَمَ وَسَأَلَهُ أَنْ يَرْجِعَ إِلَى قَوْمِهِ وَيَدْعُوهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَقَالَ لَهُ: «إِنَّهُمْ قَاتِلُوكَ»، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَحَبُّ إِلَيْهِمْ مِنْ أَبْكَارِهِمْ، فَخَرَجَ إِلَى قَوْمِهِ يَرْجُو مِنْهُمْ طَاعَتَهُ لِمَرَّتَبَتِهِ فِيهِمْ، لِأَنَّهُ كَانَ فِيهِمْ مُحِبًّا مُطَاعًا، فَلَمَّا جَاءَ الطَّائِفَ وَأَظْهَرَ لَهُمْ مَا جَاءَ بِهِ رَمَوْهُ بِالْنبْلِ فَقَتَلُوهُ ﷻ، وَكَانَ مِمَّا قَالَ حِينَئِذَا أَصَابُوهُ: (كَرَامَةٌ أَكْرَمَنِي اللَّهُ بِهَا وَشَهَادَةٌ سَاقَهَا اللَّهُ إِلَيَّ)، ثُمَّ طَلَبَ مِنْهُمْ أَنْ يَذْفِنُوهُ مَعَ الشُّهَدَاءِ الَّذِينَ قُتِلُوا مَعَ النَّبِيِّ ﷺ.

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 243-272. وأبو شهبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 495-506. وج 2 ص 510-518. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 429-438.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 272-274. وأبو شهبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 507-509.

وبعد أشهر من مقتله ائتمروا فيما بينهم ورأوا أنه لا طاقة لهم بحرب من حولهم من العرب، فأجمعوا أمرهم على أن يرسلوا لرسول الله ﷺ رجلاً منهم يكلمه، وطلبوا من «عبد ياليل بن عمرو» أن يكون ذلك الرجل فأبى، وقال: لست فاعلاً حتى ترسلوا معي رجلاً، فبعثوا معه خمسة من أشرافهم فخرجوا متوجهين إلى المدينة، ولما قابلوا رسول الله ﷺ ضرب لهم قُبَّة في ناحية المسجد ليسمعوا القرآن ويروا الناس إذا صلُّوا. فسألوا النبي ﷺ أموراً منها: أَنْ يَدَعَ لَهُمْ صَنَمَهُمْ لَوْ قَتَلَ فَأَبَى النبي ﷺ فَطَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يَكُونَ هَدْمُهُ لَيْسَ بِأَيْدِيهِمْ فَأَعْطَاهُمْ ذَلِكَ، كَمَا طَلَبُوا مِنْهُ أَنْ يُعْفِيَهُمْ مِنَ الصَّلَاةِ فَقَالَ النبي ﷺ: «فَإِنَّهُ لَا خَيْرَ فِي دِينٍ لَا صَلَاةَ فِيهِ».

وكانوا قد طلبوا مِنْهُ ﷺ أموراً فَقَبِلَ بَعْضَهَا تَأْلِيفًا لَهُمْ ورفض بَعْضَهَا، فَأَسْلَمُوا عَلَى ذَلِكَ فَصَلُّوا وَصَامُوا وَكَانَ بِلَالٌ ؓ يَأْتِيهِمْ بِفُطُورِهِمْ وَسُحُورِهِمْ تَعْلِيمًا لَهُمْ بِوَقْتِ ذَلِكَ. وكانوا يغدون إلى رسول الله ﷺ كل يوم ويخلفون في رحالهم أصغرهم سنًا «عثمان بن أبي العاص» ؓ، فكان إذا رجعوا ذهب للنبي ﷺ واستقرأه القرآن، وإذا رآه نائماً استقرأ أبا بكر ؓ حتى حفظ شيئاً من القرآن، وهو يكتم ذلك عن أصحابه، ثُمَّ أَسْلَمَ الْقَوْمَ وَطَلَبُوا مِنَ النَّبِيِّ ﷺ أَنْ يَعْيِّنَ لَهُمْ مِنْ يَوْمُهُمْ، فَأَمَرَ ﷺ عَلَيْهِم «عثمان بن أبي العاص» ؓ لما رآه من حرصه على الإسلام وقراءة القرآن وتعلُّم الدين.

ولمَّا خرجوا من عند النبي ﷺ قال لهم رئيسهم: أنا أعلمكم بثقيف اكنموا عنهم إسلامكم، خوِّفوهم الحرب والقتال، وأخبروهم أَنَّ مُحَمَّدًا طَلَبَ أُمُورًا عَظِيمَةً أَبْيَنَاهَا عَلَيْهِ، سَأَلْنَا أَنْ نَهْدِمَ الطَّاغِيَةَ، وَأَنْ نَتْرِكَ الزَّنا، وَشَرِبَ الْخمر وَالرِّبَا، فَلَمَّا حَلُّوا بِلَادَهُمْ جَاءَتْهُمْ ثَقِيفٌ، فَقَالَ الْوَفْدُ: جِئْنَا رَجُلًا فَظًّا غَلِيظًا قَدْ ظَهَرَ بِالسَّيْفِ، وَدَانَ النَّاسَ لَهُ فَعَرَضَ عَلَيْنَا أُمُورًا شَدِيدَةً، وَذَكَرُوا مَا تَقْدِمُ. فَقَالُوا: وَاللَّهِ لَا نَطِيعُهُ أَبَدًا، فَقَالُوا لَهُمْ: أَصْلَحُوا سِلَاحَكُمْ، وَرَمُّوا حِصُونَكُمْ، وَاسْتَعَدُّوا لِلْقِتَالِ، فَأَجَابُوا، وَاسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ يَوْمِينَ أَوْ ثَلَاثَةً، ثُمَّ أَلْقَى اللَّهُ الرَّعْبَ فِي قُلُوبِهِمْ، فَقَالُوا: وَاللَّهِ مَا لَنَا بِحَرْبِهِ مِنْ طَاقَةٍ أَرْجِعُوا إِلَيْهِ وَأَعْطُوهُ مَا سَأَلَ، فَقَالَ الْوَفْدُ: قَدْ قَاضَيْنَاهُ وَأَسْلَمْنَا، فَقَالُوا: لَمْ كَتَمْتُمْ عَلَيْنَا ذَلِكَ؟ قَالُوا: حَتَّى تَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةُ الشَّيْطَانِ فَأَسْلَمُوا⁽¹⁾.

هدم اللات:

ولما بلغ رسول الله ﷺ إسلام ثقيف أرسل أبا سفيان والمغيرة بن شعبة الثقفي لهدم «اللات» صنم ثقيف بالطائف، فهدماه على مرأى ومشهد من ثقيف، وأخذوا ما فيه من ذهب

(1) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 284-292. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 507-509.

ومال، ففضى به النبي ﷺ عن «أبي مليح بن عروة بن مسعود» ديناً كان على أبيه، كما أعطى لـ «قارب بن الأسود» أيضاً ليقضي به ديناً كان على أبيه يُطلب هو به فأعطاه النبي ﷺ صلة وقرابة⁽¹⁾.

حج أبي بكر:

وفي أخريات ذي القعدة أرسل النبي ﷺ أبا بكر ليحجَّ بالنَّاس، فخرج في ثلاثمائة رجل من المدينة ومعه الهدي، عشرون بدنة أهداها رسول الله ﷺ، وساق أبو بكر خمس بدنات، ولما سافر نزلت على رسول الله ﷺ أوائل سورة براءة، فأرسل بها علياً ليلبغها النَّاس في يوم الحجِّ الأكبر، فلحق أبو بكر في الطريق، فقال الصَّدِّيق (عليه السلام): (هل استعملك رسول الله ﷺ على الحج؟). قال: (لا ولكن بعثني أقرأ، أو أتلو، براءة على النَّاس).

فلما اجتمعوا بمنى يوم النحر قرأ عليهم عليٌّ ثلاث عشرة آية من أول سورة براءة، تتضمن نبذ العهود لجميع المشركين الذين لم يؤفوا عهودهم، وإمهالها أربعة أشهر يسبحون فيها في الأرض كيف شاءوا، وإتمام عهد المشركين الذين لم يظاهروا على المسلمين، ولم يغدروا بهم إلى مدتهم، ثم نادى: (لا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان)، وكان عليٌّ يصلي في هذا السفر وراء أبي بكر -رضي الله عنهما-⁽²⁾.

أحداث السنة العاشرة من الهجرة:

حجة الوداع:

في هذه السنة حجَّ النبي ﷺ بالنَّاس حجةً ودَّع فيها المسلمين، ولم يحجَّ ﷺ غيرها. وقد خرج من المدينة يوم السبت الخامس والعشرين من ذي القعدة، وولَّى على المدينة «أبا دجانة الأنصاري» (عليه السلام)، وكان مع الرسول ﷺ جمع عظيم يبلغ تسعين ألفاً.

وانطلق حتى بلغ ذي الحليفة، فأحرم بالحج والعمرة وقرن بينهما، وواصل السير وهو يلبي ويقول: «لَبَّيْكَ اللَّهُمَّ لَبَّيْكَ، لَبَّيْكَ لَا شَرِيكَ لَكَ لَبَّيْكَ، إِنَّ الْحَمْدَ وَالنُّعْمَةَ لَكَ وَالْمُلْكَ، لَا شَرِيكَ لَكَ»، حتى وصل إلى مكة، فلما دخل المسجد الحرام طاف بالبيت، وسعى بين الصفا والمروة، وبقي محرماً لأنه كان قارناً، وأقام ﷺ وأصحابه (عليهم السلام) بمكة أربعة أيام.

(1) أبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 528-531.

(2) ابن هشام، سيرة رسول الله ﷺ، ج 4 ص 294-308. وأبو شعبة، السيرة النبوية، ج 2 ص 536-540. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 440.

وفي ضحَى يوم الخميس الثامن من ذي الحجة توجه ﷺ بالمسلمين إلى منى فباتوا فيها ﷺ. وفي التاسع من ذي الحجة توجه ﷺ والصحابة إلى عرفة فوقف فيها، وخطب خطبته الشريفة التي بين فيها الدين كله، وقد حضرها عشرات الألوف من الناس.

وفي هذا اليوم امتنَّ الله على المؤمنين بقوله ﷺ: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: 3].

فلما غربت الشمس أفاض ﷺ من عرفات، حتى أتى المزدلفة، فبات فيها، فلما أشرق الصبح توجه إلى منى، وهو يلبي، فلما وصل إلى منى رمى جَمرة العَقبة، ثم خطب الناس خطبة بليغة.

ثم انصرف إلى المنحر فنحر ثلاثاً وستين بدنة بيده، ثُمَّ أمر علياً ؓ أن ينحر ما بقي من المائة التي ساقها ﷺ. ثُمَّ استدعى الحلاق فحلق رأسه، ثم أفاض ﷺ إلى مكة راكباً، وطاف بالبيت طواف الإفاضة، ثم رجع إلى منى فبات وبقي بها أيام التشريق الثلاثة يرمي فيها الجمار الثلاث يبدأ بالجمرة الصغرى ثُمَّ الوسطى ثُمَّ جَمرة العَقبة الكُبرى، يرمي كلَّ جَمرة بسبع حصيات، يكبرُ مع كل حصاة.

وفي اليوم الثالث عشر من ذي الحجة، نفر ﷺ من منى إلى مكة وبات في الطريق، فلما وصل إلى البيت الحرام في اليوم التالي طاف طواف الوداع، ثم توجه راجعاً إلى المدينة. وهكذا قضى رسول الله ﷺ حَجَّه، بعد أن بينَّ للمسلمين مناسكهم، وأعلمهم ما فرض الله ﷻ عليهم في حجهم⁽¹⁾.

عام الوفود:

في هذه السنة والتي قبلها كانت وفود العرب تتتابع في القدوم إلى رسول الله ﷺ ليبايعوه على الإسلام، ومن أهم هذه الوفود:

وفد نصارى نجران:

ومن تلك الوفود وفد نصارى نجران، وكانوا ستين راكباً، دخلوا المسجد وعليهم ثياب الحبرة، وأردية الحرير، مختمين بالذهب، ومعهم بُسْط فيها تماثيل ومسوح⁽²⁾ جاؤوا بها هدية للنبي ﷺ فلم يقبل البُسْط، وقبل المسوح. ولما جاء وقت صلاتهم صلوا في المسجد مستقبليين بيت المقدس، ولما أتموا صلاتهم دعاهم ﷺ للإسلام، فأبوا، وقالوا: كنا مسلمين

(1) أبو شهبه، السيرة النبوية، ج 2 ص 567-581. والباركفوري، الرحيق المختوم، ص 458-463.

(2) هو ثوب من الشعر غليظ.

قبلكم، فقال ﷺ: «كَذَبْتُمْ يَمْنَعُكُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ ثَلَاثٌ: قَوْلُكُمْ اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا، وَأَكْلُكُمْ الْخِنْزِيرَ، وَسُجُودُكُمْ لِلصَّلِيبِ»، قالوا: فمن مثل عيسى خلق من غير أب؟ فأنزل الله في ذلك: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۝ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُنْ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ۝ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: 59-61].

فدعاهم ﷺ لذلك فامتنعوا ورضوا بإعطاء الجزية، وهي: ألف حُلَّة في شهر صفر، وألف حُلَّة في رجب مع كل حُلَّة أوقية من ذهب، ثم قالوا: أرسل معنا أمينًا، فأرسل لهم أبا عبيدة عامر بن الجراح ؓ، وكان لذلك يسمى أمين هذه الأمة.

وفد عبد القيس:

ومن الوفود وفد عبد القيس، وهي قبيلة كبيرة يسكن أهلها البحرين شرق الجزيرة العربية، ويُنسبون إلى «عبد القيس بن أفضى»، فلما أتوا ورأوا النبي ﷺ رموا بأنفسهم عن الركائب بباب المسجد، وتبادروا إلى رسول الله يسلمون عليه، وكان فيهم «عبد الله بن عوف الأشج»، وكان أصغرهم سنًا فتخلف عند الركائب حتى أناخها وجمع المتاع، وأخرج ثوبين أبيضين فلبسهما، ثم جاء يمشي هونًا حتى سلم على رسول الله ﷺ، وكان رجلًا دميماً ففطن لنظر الرسول ﷺ إلى دماسته، فقال يا رسول الله: إنه لا يستقى في مسوك جلود الرجال، وإنما الرجل بأصغريه قلبه ولسانه، فقال له ﷺ: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ الْحِلْمَ وَالْأَنَانَةَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَنَا أَتَخَلَّقُ بِهِمَا أَمْ اللَّهُ جَبَلَنِي عَلَيْهِمَا؟ قَالَ: «بَلِ اللَّهُ تَعَالَى جَبَلَكَ عَلَيْهِمَا». قَالَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَبَلَنِي عَلَى خَلَّتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ⁽¹⁾.

فمكثوا عند النبي ﷺ يتعلمون من الأحكام ما يخص أحوالهم ثم رجعوا إلى ديارهم.

وفد بني حنيفة:

ومن الوفود وفد بني حنيفة، وكان معهم مسيلمة الكذاب، وكان مسيلمة يقول: إن جعل لي الأمر من بعده اتبعته. فأقبل النبي ﷺ ومعه ثابت بن قيس بن شماس وفي يده ﷺ قطعة من جريد حتى وقف على مسيلمة في أصحابه فقال ﷺ: «إِنْ سَأَلْتَنِي هَذِهِ الْقِطْعَةَ

(1) أخرجه ابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب الحلم، رقم (4188).

مَا أُعْطِيَتْكَهَا، وَلَنْ تَعْدُو أَمْرَ اللَّهِ فِيكَ، وَلَكِنْ أَدْبَرْتَ لِيَعْقِرَنَّكَ اللَّهُ، وَإِنِّي أَرَاكَ الَّذِي أُرِيتَ فِيهِ مَا أُرِيتُ، وَهَذَا نَابِتُ بْنُ قَيْسٍ يُحِبُّكَ عَنِّي»⁽¹⁾.

وكان ﷺ قد رأى في منامه أن في يده سوارين من ذهب، فأهمَّ شأنهما، فأوحى الله إليه أن انفخهما فنفخهما فطارا، فأولهما ﷺ كذابين يخرجان من بعده، فكان مسيلمة أحدهما، والثاني الأسود العنسي صاحب صنعاء. وقد أسلم بنو حنيفة⁽²⁾.

أحداث السنة الحادية عشرة من الهجرة:

سرية أسامة بن زيد:

كان سبب هذه السرية أن عنجهية دولة الروم جعلتها تمنع كل من أراد أن يدين بدين الإسلام، بل قتلت بعض المسلمين، كما فعلت بـ «فَرْوَةَ بن عمرو الجُدَامي»⁽³⁾.

ونظرًا إلى هذه الجراءة والغطرسة أخذ رسول الله ﷺ يجهز جيشًا للحدِّ من كبرياء هذه الدولة، ولكسر غطرستها. فشرع في شهر صفر من السنة الحادية عشرة من الهجرة، بتجهيز هذا الجيش، وأمر عليه أسامة بن زيد بن حارثة -رضي الله عنهما-، وأمره أن يتوجه نحو البلقاء من أرض الشام، بقصد إرهاب دولة الروم، ومن ثمَّ إعادة الثقة إلى قلوب العرب المقيمين على حدود تلك الدولة.

وخرج أسامة بن زيد معه جميع المهاجرين والأنصار، ونزلوا مكانًا يسمى «الجُرْف» على بعد خمسة كم تقريبًا من المدينة المنورة، إلا أنَّ الأخبار عن مرض رسول الله ﷺ جعلتهم يترثون، حتى يعرفوا ما الله قاضٍ في أمر رسوله ﷺ.

ولما اشتد برسول الله ﷺ المرض رجع أسامة من معسكره، ودخل على النَّبي ﷺ، وكان مستلقيًا في فراشه، فطأطأ أسامة رأسه، وقبَّل رسول الله ﷺ، فجعل النَّبي ﷺ يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة، قال أسامة: (فعرفت أنه يدعو لي).

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب المناقب، رقم (3424). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الرؤيا، باب رؤيا النبي ﷺ، رقم (2273).

(2) المباركفوري، الرحيق المختوم، ص 445-454.

(3) فروة بن عمرو الجُدَامي، أحد الذين آمنوا بالنبي ﷺ، كان أميرًا على منطقة معان (في الأردن)، أسلم فروة وكتب للنبي ﷺ بإسلامه وأهدى له بغلة بيضاء. ولمَّا بلغ الروم إسلامه طلبوه فلما حضر أخذوه وحبسوه، وحاولوا رده عن الإسلام، فثبت على دينه، فقتلوه وصلبوه قرب ما يعرف الآن بحمامات عفرا في محافظة الطفيلة جنوب الأردن.

وفي اليوم التالي نشط رسول الله ﷺ من مرضه، فتوجه إلى أسامة قائلاً له: «اغد على بركة الله»، فودعه أسامة ، وخرج إلى معسكره.

ثم اشتد الحال برسول الله ﷺ، فأقام الجيش في مكانه، ينتظر خبر رسول الله ﷺ، حتى أتاهم نبأ وفاته -عليه الصلاة والسلام-⁽¹⁾.

وفاة النبي ﷺ:

توفي النبي ﷺ في يوم الاثنين من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة في المدينة المنورة، وكان عمره ثلاثة وستين عاماً.

وكانت آخر وصاياه ﷺ الإحسان إلى الأنصار والتجاوز عنهم، كذلك أوصى أمته بالصلاة وبالضعفاء من العبيد، فقال ﷺ: «الصَّلَاةُ الصَّلَاةُ، اتَّقُوا اللَّهَ فِيمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»⁽²⁾.

وقد صلى ﷺ بالناس وهو مريض أياماً، ثم أوكل إمامة المسلمين في صلاتهم إلى أبي بكر الصديق .

وبعد أربعة عشر يوماً قضاها ﷺ في المرض ارتحل إلى ربه ، بعد أن أدّى رسالته على أكمل وجه، وكانت وفاته في حجرة عائشة -رضي الله عنها-، التي دُفن فيها.

ولما أشيع نبأ وفاته ﷺ اضطرب الصحابة جميعاً لهول الكارثة، وطاشت عقول كثير منهم، ومنهم من عُقِلَ لِسَانُهُ، ومنهم من أُقْعِدَ عن الحركة، ومنهم مَنْ شَهَرَ سَيْفَهُ -وهو عمر - ينهى النَّاسَ أَنْ يَقُولُوا: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قد مات، ولكنَّ أبا بكر كان له موقف مميز، حيثُ دخل على رسول الله ﷺ، وهو مُسَجَّى على فراشه فكشَفَ عن وجهه، ثم أَكَبَّ عليه فقَبَّلَهُ، ثم بكى، وقال له: (بأبي أنت وأُمِّي يا رسول الله! ما أَطْيَبِكَ حَيًّا ومَيِّتًا! أَمَا الْمَوْتَةُ الَّتِي كَتَبَ اللَّهُ عَلَيْكَ فَقَدْ دُقْتُهَا، ثُمَّ لَنْ تَصِيْبَكَ بَعْدَهَا مَوْتَةٌ أَبَدًا، يا رسول الله، اذْكُرْنَا عِنْدَ رَبِّكَ).

ثم خرج أبو بكر إلى النَّاسِ، فخطب فيهم فقال: (أيها النَّاسُ! مَنْ كَانَ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، ثُمَّ تَلَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144]).

(1) أبو شهبه، السيرة النبوية، ج2 ص585-586. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص463.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (585)، ج2 ص24.

فلما تلا أبو بكر ﴿١﴾ الآية أفاق الصحابة ﴿٢﴾ من هول الصدمة، وكأنهم لم يسمعوها من قبل، يروي أبو هريرة ﴿٣﴾ عن عمر ﴿٤﴾ أنه قال: (فوالله ما هو إلا أن سمعت أن أبا بكر ﴿٥﴾ تلاها ففعلت -أي دهشت وتحيرت- حتى وقعت إلى الأرض، وما تحملني رجلاي، وعرفت أن رسول الله ﴿٦﴾ قد مات) (١).

ولقد كانت وفاة النبي ﴿٧﴾ ليست ك وفاة أحد من الناس أو من الأنبياء، إذ بموته ﴿٨﴾ انتهت النبوات، وانقطع الوحي عن الأرض.

رابعاً- الخلفاء الراشدون الأربعة

الخلفاء الراشدون هم الذي خلفوا النبي ﴿٩﴾ في قيادة الأمة بعد وفاته ﴿١٠﴾، وهم الأئمة الأربعة: أبو بكر الصديق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفان، وعلي بن أبي طالب ﴿١١﴾، واستمرت مدة خلافتهم من وفاة الرسول ﴿١٢﴾ إلى أن توفي علي بن أبي طالب ﴿١٣﴾، أي من شهر ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، إلى شهر رمضان من سنة أربعين للهجرة، أي ما يقارب ثلاثين عاماً.

الخليفة الراشد الأول: أبو بكر الصديق ﴿١٤﴾

هو: الصحابي الجليل أبو بكر الصديق، اسمه عبد الله بن عثمان بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤي بن غالب القرشي، ويلتقي نسبه مع النبي ﴿١٥﴾ في جده السادس مرة، ويكنى بأبي بكر، والبكر: هو الفتى من الإبل. وُلد بعد مولد النبي ﴿١٦﴾ بعامين وأشهر.

والده يُكنى بأبي قحافة، أسلم يوم الفتح، وأمه هي سلمى بنت صخر بن عامر بن كعب، وتُكنى بأُم الخير، وقد أسلمت مبكراً.

لقب ﴿١٧﴾ بالصديق، لأنه أول من صدّق النبي ﴿١٨﴾ بحادثة الإسراء والمعراج، وقيل: إن النبي ﴿١٩﴾ هو من لقبه بالصديق، لأنه كان يسارع في تصديق النبي ﴿٢٠﴾ في كل خبر.

(١) ابن هشام، سيرة رسول الله ﴿٢١﴾، ج ٤ ص 472-481. وأبو شعبة، السيرة النبوية على ضوء القرآن والسنة، ج 2 ص 587-595. والمباركفوري، الرحيق المختوم، ص 464-472.

وَلُقِّبَ أَيْضًا بِالْعَتِيقِ، قِيلَ: لِأَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ لَهُ: «أَنْتَ عَتِيقُ اللَّهِ مِنَ النَّارِ»⁽¹⁾، وَقِيلَ: إِنَّهُ لُقِّبَ بِهِ لِعِتَاقَةِ وَجْهِهِ، أَيْ لْجَمَالِهِ، وَقِيلَ: إِنَّ أُمَّهُ كَانَتْ لَا يَحْيَا لَهَا طِفْلٌ، فَلَمَّا وَلَدَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ اسْتَقْبَلَتْ بِهِ الْبَيْتَ وَقَالَتْ: «اللَّهُمَّ إِنَّ هَذَا عَتِيقٌ مِنَ الْمَوْتِ فَهَبْهُ لِي».

كَمَا لُقِّبَ بِالصَّاحِبِ، لِإِجْمَاعِ الْعُلَمَاءِ عَلَى أَنَّهُ الْمَقْصُودُ بِالصَّاحِبِ فِي الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ: ﴿إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ [التوبة: 40].

كَانَ أَبُو بَكْرٍ ﷺ جَمِيلَ الْخَلْقَةِ، وَقَدْ وَصَفَتْهُ ابْنَتُهُ عَائِشَةُ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا- قَائِلَةً: (رَجُلٌ أَبْيَضٌ، نَحِيفٌ، خَفِيفُ الْعَارِضِينَ أَجْنَأُ -أَي: مُنْحَنِي الظَّهْرِ-، مَعْرُوقُ الْوَجْهِ -أَي: قَلِيلُ لَحْمِ الْوَجْهِ-، غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ).

وَكَانَ مَنْشُؤُهُ ﷺ بِمَكَّةَ لَا يَخْرُجُ مِنْهَا إِلَّا لِلتَّجَارَةِ، وَكَانَ غَنِيًّا فَقَدْ كَانَ تَاجِرًا، وَكَانَ ﷺ عَفِيفًا مَحْبُوبًا فِي قَوْمِهِ لَصَدَقِهِ وَمُرُوءَتِهِ وَإِحْسَانِهِ، كَمَا كَانَ مُعْتَبَرًا مِنْ رُؤُسَائِهِمْ وَأَهْلٍ مَشَاوَرَتِهِمْ، وَكَانَ مِنْ مَهَامِهِ تَوَلَّى الدِّيَاتِ وَالْمَغَارِمَ لَعَلَّمَهُ بِالْأَنْسَابِ، فَقَدْ كَانَ أَعْلَمَ قَرِيشَ بِأَنْسَابِهِمْ وَتَارِيخِهِمْ.

لَمْ يَعْهَدْ عَنْهُ ﷺ قَبْلَ إِسْلَامِهِ أَنْ شَرِبَ الْخَمْرَ قَطُّ، أَوْ سَجَدَ لَصَنْمٍ، فَلَا غَضَاضَةَ أَنْ يَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَصَدَّقَ النَّبِيَّ ﷺ.

لَمَّا أَسْلَمَ ﷺ حَمَلَ الدَّعْوَةَ مَعَ النَّبِيِّ ﷺ، وَبَادَرَ بِدَعْوَةِ كُلِّ مَنْ يَعْرِفُهُ وَيَأْمَلُ بِهِ، فَأَسْلَمَ عَلَى يَدَيْهِ ثَلَاثَةٌ مِنَ الصَّحَابَةِ السَّابِقِينَ، مِنْهُمْ: عِثْمَانُ بْنُ عَفَّانَ وَالزُّبَيْرُ بْنُ الْعَوَّامِ وَطَلْحَةُ بْنُ عُبَيْدِ اللَّهِ وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ وَأَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ ﷺ.

أَذْنَتْهُ قَرِيشٌ لِإِسْلَامِهِ وَنَشَاطِهِ فِي الدَّعْوَةِ وَدَفَاعِهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَلَى الرَّغْمِ مِنْ أَنَّهُ كَانَ مِنْ سَادَاتِهِمْ وَأَشْرَافِهِمْ، فَقَدْ أُلْقِيَ التَّرَابُ عَلَى رَأْسِهِ، وَضُرِبَ بِالنَّعَالِ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، بَلْ شَدُّدُوا عَلَيْهِ حَتَّى ظَنُّوا أَنَّهُمْ قَاتَلُوهُ.

بِذَلِكَ كَثِيرًا مِنْ مَالِهِ عَلَى الدَّعْوَةِ وَعَلَى الْمُسْلِمِينَ، حَتَّى قَالَ عَنْهُ النَّبِيُّ ﷺ: «مَا نَفَعَنِي مَالٌ قَطُّ مَا نَفَعَنِي مَالُ أَبِي بَكْرٍ»⁽²⁾، وَكَانَ مُشْفَقًا عَلَيْهِ وَنَاصِرًا لَهُ.

مِنْ ذَلِكَ أَنَّهُ اشْتَرَى سَبْعَةً مِمَّنْ أَسْلَمُوا مِنَ الْعَبِيدِ وَأَعْتَقَهُمْ لِيَنْقِذَهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الَّذِي يُوَقَّعُهُ عَلَيْهِمْ سَادَتُهُمْ نَتِيجَةً لِإِسْلَامِهِمْ، كَانَ مِنْهُمْ بِلَالُ بْنُ رِبَاحٍ ﷺ.

(1) أَخْرَجَهُ التِّرْمِذِيُّ، الْجَامِعُ، أَبْوَابَ الْمَنَاقِبِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، بَابَ مَنَاقِبِ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ ﷺ، وَاسْمُهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عِثْمَانَ وَلَقَبَهُ عَتِيقٌ، رَقْمٌ (3679).

(2) أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، الْمُسْنَدُ، رَقْمٌ (7446)، ج 12 ص 414. وَقَالَ مُحَقِّقُوهُ: إِسْنَادُهُ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ.

كان أبو بكر صديق النبي ﷺ قبل إسلامه وكان لصيقاً به منذ أن أسلم حتى توفي ﷺ، فكان صاحبه في هجرته، وفي غزواته كلها، وموقفه يوم أحد مشهود حين تفرق الناس عن النبي ﷺ، حيث شقَّ ﷻ الجموع حتى وصل إلى النبي ﷺ ليدافع عنه.

حظي أبو بكر ﷻ بمكانة خاصة في الإسلام وعند النبي ﷺ، كان ﷻ أقرأ الصحابة، وأعلمهم بالقرآن، لذا قدمه النبي ﷺ إماماً للصلاة بالصحابة ﷻ. وكان مشهوراً بتعبير الرؤى، بل كان المقدم في هذا العلم بالاتفاق، كما كان من أفصح الناس وأخطبهم.

في سنة 9 هجرية بعثه النبي ﷺ أميراً على الحجاج، وكانت هذه الحجة توطئة لحجة الوداع التي رافق فيها أبو بكر النبي ﷺ.

وقد بَشَّرَ النبي ﷺ الصديق ﷻ بالجنة، فذات يوم استأذن للدخول على رسول الله ﷺ فقال ﷻ لأبي موسى الأشعري ﷻ: «إِنِّدْنُ لَهُ وَبَشِّرْهُ بِالْجَنَّةِ»⁽¹⁾.

بعد وفاة النبي ﷺ اجتمع الأنصار في سقيفة بني ساعدة، وناقشوا أمر اختيار خلافة رسول الله ﷺ، فوقع الاختيار عليه ﷻ، وبايعه الصحابة الموجودون في السقيفة، ثم بايعوه جميعاً في اليوم التالي بيعة عامة، وبذلك كان أول الخلفاء الراشدين، وبدأت خلافته في العام 11 للهجرة.

من أبرز إنجازات الصديق ﷻ في خلافته:

كانت لأبي بكر ﷻ بصمة كبيرة في مسار الدولة الإسلامية، وتظهر هذه البصمة في مواقف عديدة، منها:

1 - إرساله جيش أسامة بن زيد ﷻ الذي كان قد عقد لواءه النبي ﷺ قبل وفاته، فأبى أبو بكر إلا أن ينفذه فانطلق بأمره ﷻ.

2 - القضاء على فتنة الردة، فبعد وفاة الرسول ﷺ ارتدت قبائل عربية كثيرة عن الإسلام، فكان لا بد من تأمين حصانة للدعوة والدفاع عنها ورداً من تصدوا لها وهاجموها، فجهَّز ﷻ الصحابة لردع الردة واستطاع أن يرد الناس إلى الصواب، وكان من أهم معارك الردة معركة اليمامة، التي انتصر فيها المسلمون، وقُتل فيها مسيلمة الكذاب، وتاب كثير ممن ارتدوا، واستشهد عدد كبير من حفظة القرآن الكريم من الصحابة.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (15)، ج 1 ص 193. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة ﷻ، باب: قول النبي ﷺ: (لَوْ كُنْتُ مُتَّخِذًا خَلِيلًا)، رقم (3471).

3 - جمع القرآن، فبعد استشهاد الكثير من الصحابة ؓ في قتال أهل الردة خشي عمر ؓ أن يذهب القرآن باستشهاد القراء، فأشار على أبي بكر ؓ بجمعه، وبعد نقاش وافق أبو بكر فأمر ؓ زيد بن ثابت ؓ بجمع القرآن الكريم مما كُتب بين يدي رسول الله ﷺ ومما حُفظ في حياته، فكان هذا أول جمع للقرآن الكريم في مصحف واحد بشكل رسمي، وكان هذا العمل من أعظم الأعمال للحفاظ على النص القرآني.

4 - البدء بالفتوحات الإسلامية، فكانت أهم المعارك في عهده ؓ التي كانت مسمارًا في نعش الدولتين العظميين في ذلك الزمن، دولة الفرس ودولة الروم، من هذه المعارك: معركة أجنادين، ومعركة مرج الصفر، ومعركة اليرموك، وفتح في عهده الحيرة وبعض مدن العراق وبعض مدن الشام.

وفاة الصديق ؓ :

تروي أم المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- أنه ؓ قد مات متأثرًا بمرضه بعدما اغتسل في ليلة شديدة البرد، فأصيب على إثرها بالحُمى، ولم يستطع أن يخرج للصلاة خمسة عشر يومًا، وقد أوصى عمر بن الخطاب ؓ بإمامة الناس لصلاة الجماعة نيابة عنه إلى أن توفي ؓ في ليلة الثلاثاء الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة ثلاث عشرة للهجرة.

وكان عمره ثلاثة وستين عامًا كما كان عُمر الرسول ﷺ حين توفي، وأوصى زوجته أسماء بنت عميس وابنه عبد الرحمن ؓ بغسله، وصلى المسلمون عليه صلاة الجنازة بإمامة عمر ؓ، وحُمل على الخشبة التي حُمل عليها الرسول ﷺ، وأوصى عائشة -رضي الله عنها- أن يُدفن بجانب قبر الرسول ﷺ، فنقذت ابنته أم المؤمنين وزوجة النبي ﷺ وصيته ؓ (1).

مكتبة

t.me/soramnqraa

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، راشدون 7-67. وجلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي، تاريخ الخلفاء، (بيروت: دار الفكر)، ص 26-101. وخالد محمد خالد، خلفاء الرسول، (بيروت: دار الفكر، ط 1983م)، ص 17-109.

هو ثاني الخلفاء الراشدين، الصحابيُّ الجليل أبو حفص عمر بن الخطَّاب بن نُفيل بن عبد العزى بن رياح بن عبد الله بن قرط بن رزاح بن عدي بن كعب بن لؤي القُرشيُّ العدويُّ ، يلتقي نسبه مع رسول الله ﷺ في كعب بن لؤي بن غالب.

والدته هي: حنتمة بنت هاشم بن المغيرة المخزومية، وورد في إحدى الروايات أنها أخت أبي جهل حنتمة بنت هشام.

وُلد عمر بعد أربع سنواتٍ من حرب الفجار الأخيرة، أي قبل البعثة النبوية الشريفة بثلاثين عامًا، وورد أنه وُلد بعد عام الفيل بثلاث عشرة سنة.

من صفاته الجسدية أنه كان طويلًا، جسيم القامة، أعسر، أشعر، وأصلع الرأس، شديد الحمرة.

كان في الجاهلية من أبطال قريش، وأشرافهم، وكانت له السفارة فيهم، ينافر عنهم، وينذر من أرادوا إنذاره.

أسلم قبل الهجرة بخمس سنوات، وكان إسلامه بدايةً لفتح طريق جديد للمسلمين، حيث جهر بإسلامه، وصار المسلمون في منعة بعد أن أسلم هو وحمزة بن عبد المطلب -رضي الله عنهما-.

ولُقّب بالفاروق، لأنَّ الله فرَّق به بين الحقِّ والباطل، وذُكر أنَّ رسول الله ﷺ هو مَنْ أطلق عليه ذلك اللقب.

هاجر عمر إلى المدينة، كما هاجر باقي الصحابة سرًّا، وما يروى أنه هاجر جهراً لا يصح، ويخالف ما جاء في الصحيح من الأحاديث.

امتلك عمر شخصيةً ألهته كي يكون له دور في رسم خطوط التاريخ، فقد كان صاحب همة عالية، وذا شخصية قوية، عازماً وحازماً، وله هيبة بين الناس، ولديه من العلم ورجاحة العقل وحُسن التصرف ما جعله في الجاهلية سفيراً لقريش، حيث كان من القلائل الذين يعرفون القراءة والكتابة، كما عُرف بالجدية، وتميَّز بالفراسة، والعدل.

شهد الوقائع والغزوات كلها مع النبي ﷺ، وظهرت شخصيته في المواقف الحرجة التي ضُيق فيها على المسلمين، كغزوة أحد عندما ردَّ على أبي سفيان وهو يتفاخر بهزيمة المسلمين في الغزوة، وفي الخندق، وفي بني المصطلق واجه المنافقين بكلِّ قوة.

وثبت في بداية غزوة حُنين مع رسول الله ﷺ، بعدما تراجع المسلمون بعد مباغته الأعداء لهم.

ومن مآثره ﷺ في الجهاد أنه أراد مسابقة أبي بكر ﷺ في غزوة تبوك في البذل فتصدق بنصف ماله، فما لبث أبو بكر ﷺ إلا أن جاء بكل ماله صدقة في سبيل الله.

توافق عددٌ من آراء عمر ﷺ مع ما نزل من القرآن الكريم، فقد ثبت في صحيح البخاري أنه ﷺ قال: (وَأَفَقْتُ رَبِّي فِي ثَلَاثٍ: فَقُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ اتَّخَذْنَا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى، فَنَزَلْتُ: ﴿وَاتَّخِذُوا مِنْ مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ [البقرة: 125]، وَآيَةُ الْحِجَابِ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَوْ أَمَرْتُ نِسَاءَكَ أَنْ يَحْتَجِبْنَ، فَإِنَّهُ يَكْلُمُهُنَّ الْبَرُّ وَالْفَاجِرُ، فَنَزَلْتُ آيَةَ الْحِجَابِ، وَاجْتَمَعَ نِسَاءُ النَّبِيِّ ﷺ فِي الْغَيْرَةِ عَلَيْهِ، فَقُلْتُ لَهُنَّ: ﴿عَسَى رَبُّهُ إِنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبَدِّلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِنْكُنَّ﴾ [التحریم: 5]، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ⁽¹⁾.

ولما توفي النبي ﷺ وبويع بالخلافة لأبي بكر ﷺ كان عمر ﷺ له نعم السند منذ اليوم الأول إلى أن توفي أبو بكر ﷺ، فقد شهد التاريخ الإسلامي حضوراً عظيماً لعمر في توحيد المسلمين، إذ إنه جمع المسلمين على مبايعة أبي بكر ﷺ لخلافة رسول الله ﷺ، ولا شك أنه قدّم كل ما يملك من معرفة ورجاحة عقل في خدمة وإعانة الصديق بعدما أصبح الخليفة.

ومن المواقف التي تُبين ذلك إشارته على أبي بكر بعدم قتال من ارتدَّ عن الإسلام، وإعادة أسامة وسريته إلى المدينة، واستبدال قائد غيره به، وعلى الرغم من رفض الصديق ذلك فقد وقف عمر معه وقفة الأمين الذي يُشير بما يراه ولا يخرج عن أمر الخليفة.

ومن تلك المواقف إشارته على أبي بكر ﷺ بجمع القرآن الكريم، خشية ضياعه بعدما استشهد كثيرٌ من حفظة كتاب الله في حرب اليمامة.

وقد ولاه أبو بكر ﷺ القضاء، فكان أول قاضٍ في الإسلام، ولم يأتِه في مدة ولايته القضاء متخاصمان، لأنَّ حلاوة الإيمان، وأخوة الإسلام، كانت تمنع الناس من التخاصم، فإذا اختلفوا، استفتوا، ونزلوا عند إفتاء من يفتيهم من الصحابة.

وبويع بالخلافة يوم وفاة أبي بكر ﷺ، وبعده منه، بعد استشارة الناس فيه، فوافقوه، وذلك سنة ثلاث عشرة من الهجرة.

وكان ﷺ أول من لُقّب بأُمير المؤمنين، وسبب ذلك أنه كان يُقال لأبي بكر ﷺ خليفة رسول الله ﷺ، فلما تولى عمرُ ﷺ صار الناس ينادونه خليفة خليفة رسول الله ﷺ،

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (14140)، ج 22 ص 45. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، أبواب استقبال القبلة، باب: ما جاء في القبلة، ومن لا يرى إعادة على من سها، فصلى إلى غير القبلة، رقم (402). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عمر، رقم (2399).

فرأى المسلمون أنَّ الاسم سيطول لمن يأتي بعده، فأجمعوا على لقب أمير المؤمنين لعمر بن الخطَّاب رضي الله عنه.

كانت قد امتلأت مدة خلافته رضي الله عنه بالفتوحات على الصعيد الخارجي، وبالرحمة والعُدل على الصعيد الداخلي، فقد كان رضي الله عنه شديد الاهتمام بالرَّعية، بحيث يخرج ليلاً يتفقّد أحوالهم، وقد رويت في ذلك قصص كثيرة.

وقد مرّت بالمسلمين في عهده رضي الله عنه أزمتان ثقيلتان فكان رضي الله عنه نعم الرجل في التعامل معها:

الأزمة الأولى: طاعون عمواس: حيث ظهرت حكمة عمر رضي الله عنه ورجاحة عقله في تعامله عندما انتشر مرض الطاعون في الشام، الذي سمي بطاعون عمواس إحدى بلدات فلسطين، حررها الله.

فقد خرج رضي الله عنه إلى الشام، ومعه عددٌ من النَّاس، وعندما علِم أنَّ المرض انتشر في الشام، أمر الجميع بالعودة وعدم دخول الشام. فقال له أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه: (أفرار من قدر الله)، فردَّ عليه عمر رضي الله عنه: (نعم، نفر من قدر الله إلى قدر الله)، ثمَّ حمد الله، وعاد في طريقه عندما سمع من عبد الرحمن بن عوف رضي الله عنه أنَّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد قال: «إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا، فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ» ⁽¹⁾.

الأزمة الثانية: عام الرَّمَادَة: وعام الرَّمَادَة، وهو العام الذي أصاب النَّاس فيه القحط، وجاع فيه المسلمون حتى كاد يصيبهم الهلاك، وقد سُمي بعام الرَّمَادَة، لأنَّ الأرض أصبحت جرداء سوداء كالرَّمَاد، من قَلَّة المطر، فسار النَّاس من البوادي إلى المدينة المنورة، وقَدَّم الفاروق كلَّ ما هو موجودٌ في بيت المال للناس. وبقي الحال على ذلك تسعة أشهرٍ، حتى هبَّ الله صلى الله عليه وآله أسباب الفرج، وصَلَّى الفاروق والمسلمون صلاة الاستسقاء فنزل الغيث.

من أهم أعمال عمر رضي الله عنه في خلافته:

توسعة المسجد النبويّ والمسجد الحرام في السنة السابعة عشرة من الهجرة، حيث ازداد عدد المسلمين والمصلّين، فاشترى كلُّ ما هو حول المسجد النبويّ، باستثناء حُجرات أمهات المؤمنين، وبيت العبَّاس بن عبد المطلب، الذي رفض البيع في البداية، ثمَّ قدَّمه صدقةً، إلَّا أنَّ الفاروق بنى له دارًا من بيت مال المسلمين، وزاد في توسعة مسجد النَّبي صلى الله عليه وآله.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الطب، باب: ما يذكر في الطاعون، رقم (5397). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب السلام، باب الطاعون والطيرة والكهانة ونحوها، رقم (2219).

كما حدّد موقعًا خارج المسجد، لمن أراد الحديث بلغط الدُّنيا أو بصوت عالٍ، حيث كان يغضب ويُعاقب من يرفع صوته في المسجد، وكذلك فعل في المسجد الحرام، فقد اشترى البيوت التي تُحيط به، وهدمها، ووسع بيت الله، وأحاطه بجدارٍ، ووضع له الأبواب، كما أضاف ردماً في أعلى مكّة المكرمة، لحماية المسجد الحرام من السُّيول.

وفي عهده توسّعت الفتوحات الإسلاميّة وازدهرت، فقد توسّعت الدولة الإسلاميّة فوصلت إلى الصين من الشرق، وبحر قزوين من الشمال، وتونس وما خلفها من الغرب، والنوبة من الجنوب، حيث فتحت الجيوش الإسلاميّة في عهد الفاروق بلاد الشام وإيران والعراق، بالإضافة إلى مصر وليبيا. وكان ذلك كلّهُ في عشر سنواتٍ.

وأخضع أراضي البلاد المفتوحة عنوة للخراج، ولم يقسمها بين الغانمين، لكي يستكملوا فريضة الجهاد، وأعادها إلى أصحابها، الذين كانوا عليها، وجعل خراجها حقّاً للمسلمين. وفي عهده ﷺ استخدم العرب والمسلمون الدواوين لأوّل مرّة، حيث إنّه أمر بإنشاء الدواوين عندما رأى كثرة المال الذي يردُّ إلى بيت المال، وكان ذلك سنة عشرين هجريّة. وجعلها على الطريقة الفارسية، لإحصاء الأعطيات، وتوزيع المرتبات لأصحابها، حسب سابقتهم في الإسلام.

وهو أول من بدأ التاريخ بسنة الهجرة النبوية.

وهو أول من اتخذ بيت مال المسلمين، وكانت الدراهم على أيامه على نقش الكسروية، فزاد فيها: (الحمد لله)، وفي بعضها زاد: (لا إله إلا الله)، وفي بعضها: (محمد رسول الله).

وفاته:

في فجر يوم الأربعاء 26 ذو الحجة سنة 23 هـ قام غلام المغيرة بن شعبة أبو لؤلؤة فيروز الفارسي المجوسي، بطعن عمر ﷺ وهو يؤمّ النَّاس في صلاة الفجر، فأخذ بيد عبد الرحمن بن عوف، وقدمه للصلاة، وبعدما علِم أنَّ من طعنه هو أبو لؤلؤة حمد الله أنّه لم يُقتل على يد مُسلم.

وبعث ابنه عبد الله إلى أمّ المؤمنين عائشة -رضي الله عنها- مُستأذناً منها أن يُدفن بجانب رسول الله ﷺ وأبي بكر الصديق، فأذنت له بذلك، واستشهد -رحمه الله- بعد ذلك بثلاثة أيّام.

وكانت مدة خلافته عشرة أعوام وستة أشهر، وتوفي عن ثلاث وستين من العمر⁽¹⁾.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، راشدون 71-145. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 101-138. وخالد، خلفاء الرسول، ص 115-228.

ال خليفة الراشد الثالث: عثمان بن عفان

الصحابي الجليل وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، خليفة الراشد الثالث، عثمان بن عفان بن أبي العاص بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي، الأموي القرشي، يلتقي مع رسول الله ﷺ عند عبد مناف.

وأُمُّه أروى بنت كرز بن ربيعة دخلت في الإسلام، وماتت في أثناء توليه ﷺ للخلافة. وُلد عثمان ﷺ في مكة المكرمة بعد عام الفيل بست سنين، وقيل: إنَّه وُلد في الطائف. كان يُكنى في الجاهلية أبا عمرو، فلما ولدت زوجته رقية بنت رسول الله ﷺ ابنه عبد الله كُني به، وقد لُقِّب بذي النورين، لأنَّه تزوج بابنتين من بنات رسول الله ﷺ، رقية وأمّ كلثوم تزوجها بعد وفاة أختها.

تميّز ﷺ بجمال الخلق، فوصف بأنه متوسط الطول، حسن الوجه، أسمر البشرة، كثيف الشعر، طويل اللحية، طويل الذراعين، أقنى الأنف، أي: أنفه مرتفع وفي وسطه حذب، ضخم الساقين.

كان ﷺ من السابقين في الإسلام ولم يُعرف عنه تلكؤ أو تلعث حين دعاه أبو بكر ﷺ إلى الإسلام، بل كان سباقاً أجاب على الفور دعوة الصديق، فكان بذلك رابع من أسلم من الرجال. وكان قد ناهز الرابعة والثلاثين من عمره. وسرعة استجابته تدل على معدنه الطيب، فقد كان ﷺ في أيام الجاهلية من أفضل الناس في قومه، فهو عريض الجاه ثري، شديد الحياء، عذب الكلمات، فكان قومه يحبونه أشد الحب ويوقرونه.

لم يسجد ﷺ في الجاهلية لصنم قط، ولم يقترب فاحشة قط، فلم يشرب خمراً قبل الإسلام، وكان يقول: (إنَّها تذهب العقل)، العقل الذي عُرف برجاحته، كما أنَّه كان على علم بأنساب العرب في الجاهلية.

وبعد إسلامه عُرف إضافة لما سبق من صفات وحسن خلق بكثرة الصيام والقيام.

وكان ﷺ ممن هاجروا إلى الحبشة مرتين طلباً للأمان، ولما هاجر المسلمون إلى المدينة كان عثمان ﷺ في مقدمتهم.

كان رسول الله ﷺ يثق بعثمان ﷺ ويحبه ويكرمه لحيائه ودمائة أخلاقه وحسن عشرته، ولما كان يبذله من المال لنصرة المسلمين، وبشَّره ﷺ بالجنة كأبي بكر وعمر وعلي وبقية العشرة، وأخبره بأنَّه سيموت شهيداً. واستخلفه ﷺ على المدينة في غزوته إلى ذات الرقاع وإلى غطفان.

لم يكن عثمان ؓ من الخطباء، وكان أعلم الصحابة بالمناسك، حافظاً للقرآن، ولم يكن متقشفاً مثل عمر ؓ، بل كان يأكل اللين من الطعام.

وكان ؓ مستعداً دوماً للتضحية بالغالي والنفيس نصرة للدين، من ذلك أنه عندما هاجر الصحابة من مكة إلى المدينة، لم يكن لهم من مصدر للماء سوى بئر اسمها رومة، وكانت لرجلٍ من بني غفار، وكان يبيع ماءها للمسلمين ومنهم من لا يستطيع الشراء، فجاؤوا إلى الرسول ﷺ يشكون له ذلك، فعرض عليه الرسول ﷺ بأخذها مقابل عينٍ له في الآخرة. فكان رده بأنه لا يوجد له مصدر دخل له ولأهل بيته سوى هذه البئر، فقام الرسول ﷺ وقال: «من يشتري بئرَ رومةَ، فَيَجْعَلُ دَلْوَهُ مَعَ دِلَاءِ الْمُسْلِمِينَ بِخَيْرٍ لَه مِنْهَا فِي الْجَنَّةِ؟»⁽¹⁾، فاشترها وجعلها سبيلاً للمسلمين.

ومن ذلك تجهيزه جيش العُسرة في السنة التاسعة للهجرة، وكان عدده ثلاثين ألفاً تقريباً، وذلك في غزوة تبوك في العام التاسع للهجرة، فبمجرد فَتْحِ النَّبِيِّ ﷺ لباب الجهاد بالمال كان عثمان ؓ قد بادر لتجهيز جيش العسرة، حيث جلب ألف دينار ومعها مائة من الإبل بأحلاسها وأقتابها، ومعنى الأحلاس والأقتاب أي الإبل المُحَمَّلَة بكامل عدتها.

ومن ذلك أنه ساهم في توسعة المسجد النبوي في عهد النبي ﷺ، فعندما زاد عدد المسلمين ضاقت مساحة المسجد، فحَثَّ النَّبِيُّ ﷺ أصحابه على شراء قطعة أرض بجانب المسجد وضمَّها إليه، وأخبر أنَّ من يفعل ذلك فله خيرٌ منها في الجنة، فما كان من عثمان ؓ إلا أنه سارع بشرائها من ماله ووسَّع على المسلمين.

وعندما توفي الرسول ﷺ، كان عثمان ؓ من بين الصحابة الذين بادروا للقيام بواجباتهم، فسعى مع غيره من الصحابة لدعم أبي بكر الصديق ؓ في تثبيت أركان الخلافة. وكان عثمان مستشاراً قوياً له، وأدَّى دوره في جمع الأمة حول خليفته، وكان مشاركاً فاعلاً في جميع القرارات المصيرية، كما كان له دورٌ بارزٌ في جمع القرآن في عهد أبي بكر. وكان محللاً للثقة في العديد من القضايا، بما في ذلك الشورى في اختيار الخلفاء واتخاذ القرارات الحاسمة للأمة.

وفي عهد عمر ؓ ساهم بشكل مباشر في تطوير نظام الإدارة المالية، وكان له دورٌ حيويٌّ في توسعة المسجد النبوي، مما مكن المسلمين من أداء عباداتهم بشكل أكثر راحة. تولى عثمان الخلافة بعد مقتل عمر ؓ، وفي اختياره للخلافة قصة تعرف بقصة الشورى، وهي أنه لما طعن عمر ؓ دعا ستة أشخاص من الصحابة وهم: علي

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب المناقب عن رسول الله ﷺ، باب، رقم (3703).

بن أبي طالب، وعثمان بن عفان، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقاص، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيد الله، ليختاروا من بينهم خليفة.

وذهب المدعوون إلى لقاء عمر ﷺ إلا طلحة بن عبيد الله فقد كان في سفر وأوصاهم باختيار خليفة من بينهم في مدة أقصاها ثلاثة أيام من وفاته حرصاً على وحدة المسلمين، فتشاور الصحابة فيما بينهم ثم أجمعوا على اختيار عثمان ﷺ وبايعه المسلمون في المسجد ببيعة عامة سنة 23 هـ، فأصبح ثالث الخلفاء الراشدين.

من أهم أعماله ﷺ:

ولما تولى الخلافة لم يألُ جهداً أن يخدم الأمة وأن ينصر الدين، فكان مما قام به:

1 - جَمَعَ القرآن الكريم وكتابته وإرسال نسخ منه إلى الأمصار مع قراء يُعلمون الناس القراءة الصحيحة للقرآن، فوحد الناس وأبعدهم عن الاختلاف في قراءة القرآن من خلال ذلك.

2 - بناء أول أسطول بحري: فعندما اتسعت الدولة الإسلامية في عهد الخليفة عثمان ﷺ زاد نوع وحجم الحدود للدولة الإسلامية، وكان من هذه الحدود الحدود البحرية في الشواطئ الشرقية والجنوبية للبحر المتوسط، الذي كان يُعرَف وقتها ببحر الروم. ولحماية هذه الحدود من خطر الهجمات البيزنطية جاء الإنجاز العظيم له في المجال العسكري، حيث أنشأ أول أسطول بحري في الإسلام بمشورة جاءت من قبل الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنهما-، حيث إنَّه عرض ذلك على الفاروق ﷺ، لكنه رفض الفكرة حرصاً على سلامة المسلمين من خطر البحار، وفي عهد عثمان ﷺ سُمِحَ بإنشاء الأسطول البحري وبدؤوا ببنائه بمساعدة من والي مصر عبد الله بن أبي السرح، وأول الفتوحات البحرية كانت جزيرة قبرص عام 28هـ.

3 - استكمال الفتوحات الإسلامية: فمن أهم أعماله فتح مرو وتركيا وتوسيع الدولة الإسلامية وفتحت في أيامه الإسكندرية وإفريقية، ثم أذربيجان، وأرمينية والقوقاز وخراسان وكرمان وسجستان وإفريقية وقبرص. وكان ﷺ أول من فكر في فتح القسطنطينية، واقتحام أوروبا عن طريق إسبانيا، للوصول إليها، وكان أمره بغزو سواحل إسبانيا لهذه الغاية.

أثار اتساع الدولة الإسلامية حنق أعداء الإسلام من اليهود والنصارى فبدؤوا بحياكة فتنة تقضي على الإسلام من خلال إثارة الفرقة بين المسلمين.

وتولى كِبَر ذلك يهودي تظاهر بالإسلام اسمه عبد الله بن سبأ، وخلال سنوات من العمل المتواصل استطاع إثارة حنق بعض المسلمين على عثمان وأشعل نار ثورة ظالمة أودت بحياة عثمان ﷺ.

وفاته:

قُتل عثمان ﷺ في السنة 35 للهجرة، وكانت سنه عند استشهاده اثنين وثمانين عامًا، ودُفن بالبقيع، وكان مقتله مقدمة لأحداث جسام في تاريخ المسلمين⁽¹⁾.

الخليفة الراشد الرابع: علي بن أبي طالب ﷺ

الصحابي الجليل وأحد العشرة السابقين إلى الإسلام، وأحد العشرة المبشرين بالجنة، الخليفة الراشد الرابع، أبو الحسن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف القرشي الهاشمي، ابن عم رسول الله ﷺ، وصهره، وأول الفتيان إسلامًا، وأحد الشجعان الأبطال، ومن أكابر الخطباء، والفصحاء، والعلماء بالقضاء، والفتيا.

أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم التي شاركت زوجها في تربية النبي ﷺ بعد وفاة جده، وقد كانت سيدة من سيدات بني هاشم اللواتي يشار إليهنَّ بالبنان.

وُلد علي في شعب بني هاشم بمكة قبل البعثة بـ 10 سنين، وقبل الهجرة بـ 23 عامًا. كفله النبي الكريم ﷺ بعد أن أصاب قريشًا شديداً أورث الناس جوعاً وفقراً، وكان أبو طالب كثير العيال، فأراد النبي ﷺ أن يخفف عن عمه بعضاً من همه، كما أراد من هذه البادرة أن يردَّ بعض الجميل لبيت عمه الذي نشأ فيه، وكان دَيْدُنُهُ المسارعة إلى مكافأة من يحسن إليه.

ومنذ أن بلغ علي ﷺ السادسة من عمره أقام في بيت ابن عمه محمد ﷺ، فتفتح وعيه في بيت من أنبل بيوت قريش المشهود لها بالفضيلة والخلق الرفيع وحسن السيرة في الناس، بعد أن تشربَّ موروثة العرب الكريمة في بيت أبيه سيد قريش ووريث بني هاشم. ظل ﷺ منذ أن دخل بيت النبي ﷺ مرافقاً له لم يبرحه إلا لمهام يكلفه بها زهاء 17 عامًا في مكة، و10 أعوام في المدينة المنورة.

كان من أوائل من أسلموا، فلم يلبث الفتى بعد أن دعاه ابن عمه إلى الدين الجديد أن آمن به وصدقته، فكان أول الفتيان إسلامًا، وكان إذ ذاك بعمر العاشرة.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، راشدون 149-222. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 138-155. وخالد، خلفاء الرسول، ص 233-343.

عُرف ﷺ بالشجاعة والإقدام منذ نعومة أظفاره، وكان محباً للنبي ﷺ، ففي الهجرة إلى المدينة بقي آخر النَّاس في مكة بأمر من رسول الله ﷺ حتى يردَّ إلى النَّاس ودائعهم التي كانوا يستأمنون عليها النَّبي ﷺ، ويخرجَ بأهله من مكة إلى المدينة.

تقدم ﷺ لخطبة فاطمة بنت النَّبي ﷺ فزوجه بها بعد معركة بدر (السنة الثانية للهجرة) وكان عمرها حينذاك 15 سنة بينما كان عمر علي 25 سنة. وقد أنجبت فاطمة له السبطين، الحسن والحسين، ومنها -رضي الله عنها- امتد نسل النَّبي ﷺ دون غيرها من أبنائه وبناته.

شارك ﷺ في جميع غزوات النَّبي ﷺ إلا غزوة تبوك، حيث استخلفه على المدينة في غيابه، ولما أثار المنافقون أنَّ النَّبي ﷺ ما خَلَفَ علياً إلا لشيء كرهه منه، تبعه علي يسأل عن سبب إبقائه إياه في المدينة، فقال ﷺ: «أَمَا تَرْضَى أَنْ تَكُونَ مِنِّي بِمَنْزِلَةِ هَارُونَ مِنْ مُوسَى؟ غَيْرَ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدِي»، فقال علي: (رضيتُ.. رضيتُ)⁽¹⁾.

ومواقفه في الجهاد لا تُحصى فقد كان ﷺ من الثلاثة الذين انتدبهم النَّبي ﷺ لمبارزة رؤوس قريش في غزوة بدر الكبرى، كما أعطاه الراية يوم أحد (عام 3 هـ) بعد استشهاد مصعب بن عمير، وهو من الذين ثبتوا حول النَّبي ﷺ بعد نزول الرماة من الجبل وإحاطة خالد بن الوليد بجيش المسلمين.

وفي غزوة الخندق (عام 5 هـ) برز علي ﷺ للفارس المشهور عمرو بن عبد ود، الذي كان يقومُ بألف فارس فبارزه وقتله.

وقد أظهر علي في الحديبية أدبه الجم وحبه العظيم للنبي ﷺ، فلما صالح رسول الله قريشاً في الحديبية كتب علي بين الطرفين كتاباً (وكان علي من كُتَّاب رسول الله ﷺ): «هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله ﷺ»، فقال ممثلو قريش في الصلح: لا نقرُّ بها، فلو نعلم أنك رسول الله ما منعناك، لكن أنت محمد بن عبد الله، فقال لعلي: «أنا رسول الله، وأنا محمد بن عبد الله، امحُ رسول الله»، فقال علي: لا والله لا أمحوك أبداً، فقال رسول الله: «فأرنيه» فأراه إياه، فمحاها النَّبي ﷺ بيده⁽²⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب: مناقب علي بن أبي طالب، رقم (3503). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل علي بن أبي طالب، رقم (2404)، واللفظ له.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (18635)، ج 30 ص 594. والبخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الصلح، باب: كيف يكتب: هذا ما صالح فلان بن فلان، وفلان بن فلان، وإن لم ينسبه إلى قبيلته أو نسبه، رقم (2552).

وفي العام السابع للهجرة عزم النبي ﷺ على غزو خيبر آخر معاقل اليهود في جزيرة العرب، وكانت أمني ما تكون من القلاع، فاستعصت على المسلمين أياماً، حتى قال النبي ﷺ: «لَأُعْطِيَنَّ الرَّايَةَ عَدَا رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ»، فتطلع جميع الصحابة لهذه المكانة، ولما كان من الغد سأل النبي ﷺ عن علي ف قيل له أنه يشتكي عينيه، فأرسل إليه، وبصق ﷺ فيهما، ودعا له فبرأ حتى كأن لم يكن به وجع، ثم أعطاه الراية وأوصاه⁽¹⁾. وقد لقي علي ﷺ في هذه الغزوة أكبر فرسان خيبر «مرحب» اليهودي، وكان مضرب مثل في قومه بالشجاعة والإقدام، فقتله.

في العام التاسع للهجرة ألحقه ﷺ بأبي بكر ﷺ أمير الحج يحمل سورة براءة (التوبة) ليقرأها على الناس في الموسم، كما مرّ بنا في الحديث عن سيرة النبي ﷺ. وفي العام نفسه جاء وفد أهل اليمن إلى النبي ﷺ، فبعث معهم خالد بن الوليد ﷺ، فأقام فيهم ستة أشهر يدعوهم فلم يجيبوه، فأوفد النبي ﷺ إليهم علياً، فدعاهم فأسلموا، وكان علي ﷺ حينها يناهز الـ 32 من عمره.

وفي حجة الوداع رافق علي ﷺ النبي ﷺ، الذي ساق مائة من الإبل لتنحر في الموسم، فنحر ﷺ ثلاثة وستين منها بيده، ثم أعطى علياً فنحر ما بقي وأشركه في هديه. وكان لطول ملازمة علي ﷺ للنبي ﷺ أثر كبير في تكوينه العلمي، إضافة إلى ما وهب من قلب عقول ولسان سؤال، كما وصف نفسه، وقد روى عن النبي ﷺ زهاء 600 حديث، وهو أكثر من مجموع ما رواه الخلفاء الراشدون الثلاثة الآخرون مجتمعين، وحدث عنه جمع كبير من الصحابة والتابعين.

كما قرأ علي ﷺ القرآن على النبي ﷺ وحفظه في حياته، واهتم ﷺ بتفسير كتاب الله. ويعد ﷺ من أكابر فقهاء الإسلام، وقد كان من الصحابة ﷺ الذين أفتوا في حياة النبي ﷺ.

وقد اتفقت كلمة الأدباء على أن علياً علّم من أعلام البلاغة وإمام من أئمة الفصاحة، وقد أثرى أسلوبه الخطابي تشبّعاً من القرآن الكريم والبيان النبوي الرفيع، فضلاً عما لسليقته العربية التي ارتوت من معين فصاحة الأعراب وبلاغة أهل مكة من فضل وأثر. اختاره عمر بن الخطاب ﷺ بعد طعنه بين الستة من أصحاب الشورى، ليخلفه واحد منهم.

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب: مناقب علي بن أبي طالب، رقم (3498).

وما إن استشهد الخليفة الراشد عثمان رضي الله عنه، ونفض الناس أيديهم من دفنه حتى سارعوا إلى علي يريدون مبايعته بالخلافة، وقد أراد رضي الله عنه التملص من الأمر، ولما لم يجد بداً أحال أمر البيعة إلى أهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فدفعوه إلى ذلك، غير أنه اشترط أن تكون في المسجد النبوي على رؤوس أهل المدينة، فقدم المسجد وبايعه الناس، وكان ذلك في 18 من ذي الحجة عام 35 هـ.

أقام علي رضي الله عنه بعد ذلك بالكوفة، وجعلها دار الخلافة.

دخل المسلمون في أتون فتنة انتهت بقتل عبد الرحمن بن ملجم الخارجي لعلي رضي الله عنه، في مؤامرة يوم 17 رمضان سنة 40 هـ، ومن ثم تنازل ابنه الحسن رضي الله عنه بالخلافة لمعاوية رضي الله عنه.

واختلف في مكان قبره رضي الله عنه، وكان عمره يوم قُتل 63 سنة⁽¹⁾.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، راشدون 225-289. والسيوطي، تاريخ الخلفاء، ص 155-175. وخالد، خلفاء الرسول، ص 349-479.



المبحث السادس

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾

«إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبُكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ
الْقِيَامَةِ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»

الأخلاق الإسلامية

العنصر الأخلاقي سمة بارزة في جميع جوانب الإسلام، حيث نجده في القرآن الكريم بجانب العقيدة والعبادة والمعاملات، والعلاقات الأسرية والاجتماعية والدولية، والأحوال الشخصية وغيرها، فالعنصر الأخلاقي سمة بارزة في جميع تلك الجوانب.

وأمثلة هذا في القرآن والسنة لا تحصر، فكم من آية قرنت بين التوحيد والإيمان من جهة، وبين أنواع من الأخلاق من جهة أخرى، من ذلك قوله تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنْبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ [النساء: 36]، وغير ذلك من الآيات.

وهناك آيات وضحت الصلة بين العبادة والأخلاق، كالصلاة والزكاة، قال تعالى: ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِنَّ الصَّلَاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾ [العنكبوت: 45]، وقال ﷺ: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [التوبة: 103].

ومن ذلك أيضًا: ارتباط الصيام بالتقوى التي هي جماع الأخلاق الفاضلة ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: 183].

وهكذا سائر العبادات وكذا المعاملات والعلاقات، ترتبط بالمنهج الأخلاقي في القرآن.

تعريف الأخلاق:

أصل مادة «خلق» في اللغة: التقدير المستقيم، والخلق والخلق والخلق في الأصل واحد، لكن خُصَّ الخلق بالهيئات والأشكال والصُّور المدركة بالبصر، وخُصَّ الخلق بالقوى والسَّجَايا المدركة بالبصيرة⁽¹⁾.

ووردت عدة تعريفات للأخلاق عند العلماء، نختار منها ما قرره الإمام الغزالي -رحمه الله-، حيث قال: «الخلق عبارة عن هيئة في النفس راسخة، عنها تصدر الأفعال بسهولة ويسر من غير حاجة إلى فكر وروية. فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأفعال الجميلة المحمودة عقلاً وشرعاً، سُميت تلك الهيئة خلقاً حسناً، وإن كان الصادر عنها الأفعال القبيحة، سُميت الهيئة التي هي المصدر خلقاً سيئاً.

وإنما قلنا إنها هيئة راسخة، لأن من يصدر منه بذل المال على الدور لحاجة عارضة، لا يقال خلقه السخاء ما لم يثبت ذلك في نفسه ثبوت رسوخ. وإنما اشترطنا أن تصدر منه الأفعال بسهولة من غير روية، لأن من تكلف بذل المال أو السكوت عند الغضب بجهد وروية، لا يقال خلقه السخاء والحلم»⁽²⁾.

(1) أبو الحسين أحمد بن فارس بن زكريا، معجم مقاييس اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، (بيروت: دار الفكر، 1979م)، ج 2 ص 213-214. وأبو الفيض المرتضى محمد بن محمد بن عبد الرزاق الحسيني الرُّبَيْدِي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: مجموعة من المحققين، (الكويت: مطبعة حكومة الكويت، 1989م)، ج 25 ص 257. وأبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، (دمشق بيروت دار القلم: الدار الشامية، ط 1، 1412هـ)، ص 297. وأحمد بن يوسف المشهور بالسمين الحلبي، عمدة الألفاظ بتفسير أشرف الألفاظ، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط 1، 1996م)، ج 1 ص 528. وانظر:

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ح 3 ص 58. وانظر: ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 19 ص 171-172.

تعريف الأخلاق الإسلامية:

أما الأخلاق الإسلامية فقد عرّفت بأنّها «مجموعة المبادئ والقواعد المنظّمة للسلوك الإنساني، التي يحددها الوحي لتنظيم حياة الإنسان وتحديد علاقته بغيره، على نحو تحقيق الغاية من وجوده في هذا العالم على أكمل وجه»⁽¹⁾.

مكانة الأخلاق في الإسلام:

الأخلاق في الإسلام كلها حسنة، وقد كان لها في هذا الدين العظيم مكانة عظيمة جداً، ظهرت في القرآن الكريم وفي سنة النبي ﷺ، وفي سلوك وأقوال العلماء من سلف الأمة، وقد وجدنا أنّ هذه المكانة تبرز من خلال وجوه عديدة، نذكر منها:

1 - من مقاصد البعثة المحمدية إتمام صالح الأخلاق، فعن أبي هريرة ؓ قال ﷺ: «إِنَّمَا بُعِثْتُ لِأَتَمِّمَ صَالِحَ الْأَخْلَاقِ»⁽²⁾.

ولمّا بُعث النبي ﷺ أرسل أبو ذر ؓ أخاه أنيساً إلى مكة لينظر له حال النبي ﷺ قال له: (انظر لصاحب هذا الوادي ماذا يقول)، فلما رجع أنيس قال: (وجدته يدعو إلى مكارم الأخلاق)⁽³⁾.

2 - حسن الخلق صفة من أهم صفات نبينا محمد ﷺ، فقد قال ﷺ في بيان أعظم صفاته ﷺ الدالة على صدق نبوته: «وَأَنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ» [القلم: 4].
وتصف السيدة عائشة -رضي الله عنها- هذا الخلق العظيم عندما سئلت عن ذلك، حيث قالت: «كَانَ خُلُقُهُ الْقُرْآنَ»⁽⁴⁾.

وقال أنس بن مالك ؓ: (كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَحْسَنَ النَّاسِ خُلُقًا)⁽⁵⁾.

(1) مقدار بالجين، التربية الأخلاقية الإسلامية، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط1، 1977)، ص75. وانظر: عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني، الأخلاق الإسلامية وأسسها، (دمشق: دار القلم، ط6، 2002م)، ج1 ص10-16.

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (8952)، ج14 ص512-513. والحاكم، المستدرک، کتاب دلائل النبوة، رقم (4267)، ج5 ص188. وقال: صحيح على شرط مسلم، ووافقه الذهبي.

(3) ذكره البخاري تعليقاً، الجامع الصحيح، کتاب الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل.

(4) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (24601)، ج41 ص148، وصححه محققو المسند (الرسالة).

(5) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (13209)، ج20 ص431. والبخاري، الجامع الصحيح، کتاب الأدب، باب الكنية للصبي وقبل أن يولد للرجل، رقم (5850). ومسلم، الصحيح المسند، کتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب جواز الجماعة في النافلة، والصلاة على حصير وخمرة وثوب وغيرها من الطاهرات، رقم (659).

3 - ومن ذلك أَنَّ الله أمر في كتابه العظيم بكل خلق كريم، ونهى عن كل خلق ذميم، وجاءت السنة النبوية أمرة بكل خصلة حميدة، ناهية عن كل خصلة خبيثة.

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة جداً، كما سيأتي في هذا المبحث.

4 - **الخلق الحسن من أفضل أساليب الدعوة إلى الله ﷻ**، وقد أكد ذلك قصة ثُمَامَةَ بن أثال كما رواها أبو هريرة رضي الله عنه فقال: **بَعَثَ النَّبِيُّ ﷺ خَيْلاً قَبْلَ نَجْدٍ فَجَاءَتْ بِرَجُلٍ مِنْ بَنِي حَنِيفَةَ يُقَالُ لَهُ: ثُمَامَةُ بْنُ أَثَالٍ فَرَبَطُوهُ بِسَارِيَةٍ مِنْ سَوَارِي الْمَسْجِدِ، فَخَرَجَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ ﷺ فَقَالَ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ».** فَقَالَ: **عِنْدِي خَيْرٌ يَا مُحَمَّدُ، إِنْ تَقْتُلْنِي تَقْتُلْ ذَا دِمٍّ، وَإِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، وَإِنْ كُنْتَ تُرِيدُ الْمَالَ فَسَلْ مِنْهُ مَا شِئْتَ، فَتَرَكْهُ حَتَّى كَانَ الْغَدُ، ثُمَّ قَالَ ﷺ لَهُ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ».** قَالَ: **مَا قُلْتُ لَكَ إِنْ تُنْعِمَ تُنْعِمَ عَلَيَّ شَاكِرٍ، فَتَرَكْهُ حَتَّى كَانَ بَعْدَ الْغَدِ، فَقَالَ ﷺ: «مَا عِنْدَكَ يَا ثُمَامَةُ».** فَقَالَ: **عِنْدِي مَا قُلْتُ لَكَ. فَقَالَ ﷺ: «أَطْلِقُوا ثُمَامَةَ»، فَاَنْطَلَقَ إِلَى نَخْلٍ قَرِيبٍ مِنَ الْمَسْجِدِ، فَاغْتَسَلَ ثُمَّ دَخَلَ الْمَسْجِدَ، فَقَالَ: (أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ يَا مُحَمَّدُ، وَاللَّهِ مَا كَانَ عَلَى الْأَرْضِ وَجْهٌ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ وَجْهِكَ فَقَدْ أَصْبَحَ وَجْهُكَ أَحَبَّ الْوُجُوهِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ دِينٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ دِينِكَ فَأَصْبَحَ دِينُكَ أَحَبَّ الدِّينِ إِلَيَّ، وَاللَّهِ مَا كَانَ مِنْ بَلَدٍ أَبْغَضَ إِلَيَّ مِنْ بَلَدِكَ فَأَصْبَحَ بَلَدُكَ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَيَّ، وَإِنَّ خَيْلَكَ أَخَذْتَنِي وَأَنَا أُرِيدُ الْعُمْرَةَ فَمَاذَا تَرَى؟) فَبَشَّرَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَمَرَهُ أَنْ يَعْتَمِرَ، فَلَمَّا قَدِمَ مَكَّةَ قَالَ لَهُ قَائِلٌ: صَبَوْتَ؟ قَالَ: (لَا وَلَكِنْ أَسْلَمْتُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَلَا وَاللَّهِ لَا يَأْتِيكُمْ مِنَ الْيَمَامَةِ حَبَّةٌ حِنْطَةٍ حَتَّى يَأْذَنَ فِيهَا النَّبِيُّ ﷺ) ⁽¹⁾.**

5 - **تقوى الله وحسن الخلق متلازمان**، لذلك كان النبي ﷺ كثيراً ما يجمع بينهما في وصاياه، قال رضي الله عنه لأبي ذر رضي الله عنه: **«اتَّقِ اللَّهَ حَيْثُمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»** ⁽²⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المغازي، باب وفد بني حنيفة، وحديث ثُمَامَةَ بن أثال، رقم (4114). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجهاد والسير، باب ربط الأسير وحبسه، وجواز المن عليه، رقم (1764).

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (21354)، ج 35 ص 284، قال محققوه: حسن لغيره. والترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشرته الناس، رقم (1987)، وقال: حديث حسن صحيح.

وَسُئِلَ ﷺ عَنْ أَكْثَرِ مَا يُدْخِلُ النَّاسَ الْجَنَّةَ؟ فَقَالَ: «تَقْوَى اللَّهِ وَحُسْنُ الْخُلُقِ»⁽¹⁾.

6 - الأخلاق وقاية للمجتمعات من الفساد، فمن المعلوم أن أخلاقيات الأفراد تنعكس على المجتمع، فإن كان الأفراد على خلق حسن كان المجتمع على خير وأمان، وإن كانوا على سيئ الأخلاق كان المجتمع كذلك، «إذ الفرد يمثل المجتمع في خصائصه كما أن المجتمع يمثل أفرادَه في أخلاقهم»⁽²⁾، وعليه فالأخلاق الحسنة تحفظ على المجتمع توازنه وأمنه في هذه الحياة الدنيا.

ومن هنا جاء الإسلام بشعيرة من أعظم الشعائر وهي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر للحفاظ على المجتمع سليماً معافى، قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ [آل عمران: 110].

وروى النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- عن النبي ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «مَثَلُ الْقَائِمِ عَلَى خُدُودِ اللَّهِ وَالْوَاقِعِ فِيهَا، كَمَثَلِ قَوْمٍ اسْتَهَمُوا عَلَى سَفِينَةٍ، فَأَصَابَ بَعْضُهُمْ أَعْلَاهَا وَبَعْضُهُمْ أَسْفَلَهَا، فَكَانَ الَّذِينَ فِي أَسْفَلِهَا إِذَا اسْتَقَوْا مِنَ الْمَاءِ مَرُّوا عَلَى مَنْ فَوْقَهُمْ، فَقَالُوا: لَوْ أَنَّا خَرَقْنَا فِي نَصِيبِنَا خَرْقًا، وَلَمْ نُؤْذِ مَنْ فَوْقَنَا، فَإِنْ يَتْرَكُوهُمْ وَمَا أَرَادُوا هَلَكُوا جَمِيعًا، وَإِنْ أَخَذُوا عَلَى أَيْدِيهِمْ نَجَوْا وَنَجَّوْا جَمِيعًا»⁽³⁾.

8 - حسن الخلق من أسباب دخول الجنة والنجاة من النار، فعن أبي الدرداء رضي الله عنه قال: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي مِيزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ خُلُقٍ حَسَنٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَيُبْغِضُ الْفَاحِشَ الْبِذِيءَ»⁽⁴⁾.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: سُئِلَ النَّبِيُّ ﷺ: مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ الْجَنَّةَ؟ قَالَ: «التَّقْوَى وَحُسْنُ الْخُلُقِ». وَسُئِلَ مَا أَكْثَرُ مَا يُدْخِلُ النَّارَ؟ قَالَ: «الْأَجْوَفَانِ الْفَمُ وَالْفَرْجُ»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (2004)، وقال: هذا حديث صحيح غريب.

(2) يالجن، التربية الأخلاقية الإسلامية، ص 67.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الشركة، باب: هل يقرع في القسمة والاستهام فيه، رقم (2361).

(4) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في حسن الخلق، رقم (2002)، وقال: (حديث حسن صحيح). وأبو داود، السنن، أول كتاب الأدب، باب في حسن الخلق، رقم (4800).

(5) أخرجه أحمد، المسند، رقم (7907)، ج 13 ص 287. وابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب ذكر الذنوب، رقم (4246) واللفظ له.

وحسن الخلق من أسباب النجاة من النار، عن ابن مسعود ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِمَنْ يَحْرُمُ عَلَى النَّارِ أَوْ بِمَنْ تَحْرُمُ عَلَيْهِ النَّارُ عَلَى كُلِّ قَرِيبٍ هَيْنِ سَهْلٍ»⁽¹⁾.

9 - بحسن الخلق يُنالُ حبُّ النَّبي ﷺ والقربُ منه يوم القيامة، جاء عن عبد الله بن عمرو -رضي الله عنهما- قال ﷺ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» فَسَكَتَ الْقَوْمُ فَأَعَادَهَا ﷺ مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلَاثًا قَالَ الْقَوْمُ: نَعَمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ ﷺ: «أَحْسَنُكُمْ خُلُقًا»⁽²⁾.

10 - الأخلاق مقياس الخيرية عند الله ﷻ: فخيرية الرجل لا تقاس بصلاته وصيامه فحسب، بل لا بُدَّ من النظر إلى أخلاقه وشيمه، فعن ابن عمرو -رضي الله عنهما- قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا، وكان ﷺ يقول: «خِيَارُكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقًا»⁽³⁾.

خصائص الأخلاق في القرآن:

امتاز نظام الأخلاق في القرآن الكريم بخصائص ميزته عن غيره من النظم الأخرى، سواء ما ينسب منها إلى الأديان أو الفلسفات وما أنتجته عقول البشر من نظم، ويمكن أن نحصر تلك الخصائص بما يلي:

- 1 - الأخلاق الإسلامية مصدرها الوحي، أي أن استمدادها من القرآن والسنة.
- 2 - الأخلاق في الإسلام فيض من ينبوع الإيمان، وعليه فالأخلاق من علامات كمال الإيمان، فالمسلم كلما حسن خلقه وجمل آدابه كان أكمل إيمانًا، وأقرب منزلة عند ربه، جاء في الحديث عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «أَكْمَلُ الْمُؤْمِنِينَ إِيْمَانًا أَحْسَنُهُمْ خُلُقًا، وَخِيَارُهُمْ خِيَارُهُمْ لِنِسَائِهِمْ»⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، باب ما جاء في صفة أواني الحوض، باب، رقم (2488)، وقال: هذا حديث حسن غريب.

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (6735)، ج 11 ص 347، قال محققوه: إسناده حسن.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: حسن الخلق والسقاء، وما يكره من البخل، رقم (5688). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الفضائل، باب كثرة حياته ﷺ، رقم (2321).

(4) أخرجه أحمد، المسند، رقم (7402)، ج 12 ص 364، قال محققوه: حديث صحيح. وأبو داود، السنن، أول كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (4681)، مختصرًا. والترمذي، الجامع، أبواب الرضاع، باب ما جاء في حق المرأة على زوجها، رقم (1162)، وقال أبو عيسى: هذا حديث صحيح.

والإيمان بالله ﷻ يقتضي أن يكون المؤمن متصفاً بالأخلاق الفاضلة من الكرم والجود والسماحة وحسن الجوار، يعرف حقوق جاره عليه، فيؤديها، ولا يفعل ما يؤذيه أو يضره، ويعلم حق ضيفه عليه فيؤديه، يقول ﷺ: «مَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيَقُلْ خَيْرًا أَوْ لِيَصْمُتْ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلَا يُوْذِ جَارَهُ، وَمَنْ كَانَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ فَلْيُكْرِمْ ضَيْفَهُ»⁽¹⁾.

3 - من خصائص الأخلاق الإسلامية الشمول، أي أن دائرة الأخلاق القرآنية واسعة بحيث تشمل جميع أفعال الإنسان المتعلقة بنفسه والمتعلقة بغيره، فرداً أو جماعة أو دولة، فلا يخرج شيء عن تلك الدائرة، وتلتزم مراعاتها في كل شيء وكل حين.

4 - من خصائص الأخلاق في الإسلام دوامها وثباتها، فالأخلاق الإسلامية ليست لوناً من الترف يمكن الاستغناء عنه عند اختلاف البيئة، وليست ثوباً يرتديه الإنسان لموقف ثم ينزعه متى يشاء، بل هي ثابت من ثوابته.

وهذا ما أكدته سنة النبي ﷺ، فقد جاء عن أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «اتَّقِ اللَّهَ حَيْنَمَا كُنْتَ، وَاتَّبِعِ السَّيِّئَةَ الْحَسَنَةَ تَمَحُّهَا، وَخَالِقِ النَّاسَ بِخُلُقٍ حَسَنٍ»⁽²⁾.

5 - العدل والوسطية من ميزات الأخلاق الإسلامية، فالمطلوب في تطبيق الأخلاق الاعتدال في تحقيقها دون إفراط ولا تفريط، وهذه الوسطية التي أرشد إليها القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ [الفرقان: 67].

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الرقاق، باب: حفظ اللسان، رقم (6110). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب الحث على إكرام الجار والضيف ولزوم الصمت إلا عن الخير، وكون ذلك كله من الإيمان، رقم (47).

(2) أخرجه أحمد، المسند، رقم (21354)، ج 35 ص 284، قال محققوه: حسن لغیره. والترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء في معاشره الناس، رقم (1987)، وقال: حديث حسن صحيح.

أولاً-الصدق

الصدق خُلُقٌ منزلته عظيمة، ليس في دين الإسلام فقط، بل في جميع الأديان، لأنه أصل الإيمان المقبول عند الله ﷻ، وهو أساس النجاة من عذاب الله ﷻ، وبه يتميز أهل الإيمان الحق من المنافقين الكاذبين.

تعريف الصدق:

الصدق: مأخوذ في اللغة من مَادَّة (ص د ق) التي تدلُّ على قوَّة في الشَّيء قولاً أو غير قول.

وعرفه الراغب الأصفهاني -رحمه الله- فقال: «هو مطابقة القول الضمير والمخبر عنه معاً، ومتى انخرم شرط من ذلك لم يكن صدقاً تاماً».

مكانة الصدق في الإسلام:

تضافرت الأدلة الدالة على علو شأن الصدق، من ذلك ما يلي:

1 - الصدق من صفات الله تعالى، قال تعالى: ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 95]، وقال جل شأنه: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ

اللَّهِ قِيلًا﴾ [النساء: 122].

2 - الصدق من أعظم صفات الأنبياء، فهم المبلَّغون عن الله وحيه، والمرسلون

بشرعه إلى خلقه، وقد امتدح الله تعالى أنبياءه باتصافهم بالصدق، فقال: ﴿وَاذْكُرْ

فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 41]، وقال ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ

إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 54]، وقال ﷻ: ﴿وَاذْكُرْ

فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا﴾ [مريم: 56]. وقد وُصِفَ النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ ﷺ

بالصادق الأمين، وهذا ما عرفته قريش منه قبل البعثة.

3 - الصدق أساس الإيمان، وركنه الركين، وأساس قبول الطاعات والقربات عند الله

ﷻ، وعليه يترتب الأجر والثواب يوم القيامة، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ

الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ

اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119]. لذا كان الصدق الصفة

الفارقة بين المؤمن والمنافق، فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «آيَةُ الْمُنَافِقِ ثَلَاثٌ: إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا أُؤْتِمِنَ خَانَ»⁽¹⁾.

4 - الصدق هو أصل البر الذي هو كل عمل خير، فهو يدخل في كل أمر من الأمور، وفي المقابل كان الكذب أصل الفجور، الذي هو الخروج عن الدين بنوع من التمرد والوقاحة، جاء في الصحيحين عن النبي ﷺ: «إِنَّ الصُّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ»⁽²⁾.

5 - لأهمية الصدق في الإسلام فقد أمر به النبي ﷺ في بداية الدعوة، ولذلك لما سأل هرقل أبا سفيان وكان مُشركًا، فماذا يأمركم؟ يعني النبي ﷺ قال أبو سفيان: (اعْبُدُوا اللَّهَ وَحْدَهُ وَلَا تَشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَاتْرَكُوا مَا يَقُولُ آبَاؤُكُمْ، وَيَأْمُرُنَا بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالصَّلَةِ)⁽³⁾.

ثمرات الصدق:

1 - صدق القلب أساس القبول، فلا بُدَّ للعبد أن يحقق الصدق، ليقبل الله ﷻ منه طاعته، وليجعله من المقبولين عنده ﷻ، عن سَهْلِ بْنِ حُنَيْفٍ ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «مَنْ سَأَلَ الشَّهَادَةَ بِصِدْقٍ، بَلَغَهُ اللَّهُ مَنَازِلَ الشُّهَدَاءِ، وَإِنْ مَاتَ عَلَى فِرَاشِهِ»⁽⁴⁾.

2 - وَعَدَ اللَّهُ الصَّادِقِينَ بِأَعْظَمِ الثَّوَابِ، وما ذلك إِلَّا لِعِظَمِ هَذِهِ الْخَصْلَةِ الَّتِي تَحُلُّوا بِهَا، قَالَ ﷺ: ﴿قُلْ أَوْتَيْتُكُمْ بِخَيْرٍ مِنْ ذَلِكَ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب: علامة المنافق، رقم (33). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان خصال المنافق، رقم (59).

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ﴾ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ، رقم (5743). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر، باب قبح الكذب، وحسن الصدق، وفضله، رقم (2607).

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، بدء الوحي، باب: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رقم (7).

(4) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمامة، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله تعالى، رقم (1909).

﴿الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ بِالْأَسْحَارِ ﴿[آل عمران: 15-17].

ولا ينفع المؤمن يوم القيامة، ولا ينجيه من عذاب الله ﷻ إلا صدقه، قال تعالى: ﴿قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنْفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [المائدة: 119].
وقد سئل النبي ﷺ مَا عَمَلُ الْجَنَّةِ؟ قَالَ ﷺ: «الْصَّدَقُ»⁽¹⁾.

وعن عبد الله بن مسعود ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ الصَّدَقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَصَّدُقَ حَتَّى يَكُونَ صَدِيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لِيَكْذِبَ، حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَابًا»⁽²⁾.

3 - الصدق يورث الطمأنينة والسكينة في القلب، وينفي عنه التردد والريبة والاضطراب، التي لا توجد إلا في حالات الشك وضعف الصدق أو عدمه، فعن الحسن بن علي -رضي الله عنهما- أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «دُعَا مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ، فَإِنَّ الصَّدَقَ طُمَأْنِينَةٌ، وَإِنَّ الْكَذِبَ رَيْبَةٌ»⁽³⁾.

مجالات الصدق:

للصدق مجالات تشمل تصرفات الإنسان كلها، وهذه المجالات:

- 1 - صدق اللسان: وهو أشهر أنواع الصدق وأظهرها، فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق.
- 2 - صدق النية والإرادة: ويرجع ذلك إلى الإخلاص، وهو ألا يكون له باعث في الحركات والسكنات إلا الله تعالى، فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية.
- 3 - صدق العزم: فإن الإنسان قد يُقدم العزم على العمل، فيقول في نفسه: إن رزقني الله مالا تصدقت بجميعه أو بشطره، فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه، وهي

(1) أخرجه أحمد، المسند، رقم (6641)، ج 11 ص 216، قال محققوه: صحيح لغيره.

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾، رقم (5743). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر، باب قبح الكذب، وحسن الصدق، وفضله، رقم (2607).

(3) أخرجه أحمد، المسند، رقم (1723)، ج 3 ص 248-249، قال محققوه: إسناده صحيح.

عزيمة جازمة صادقة، وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضعف يضاد الصدق في العزيمة.

4 - **صدق الوفاء بالعزم:** فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال، إذ لا مشقة في الوعد والعزم، فإذا حقت الحقائق وحصل التمكن، ولم يتفق الوفاء بالعزم، فهذا يضاد الصدق فيه.

5 - **الصدق في الأعمال والأفعال:** وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر في باطنه لا يتصف هو به. ولا يتحقق الصدق في الأعمال إلا باستواء السريرة والعلانية، بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيراً من ظاهره.

6 - **الصدق في مقامات الدين:** وهو أعلى الدرجات وأعزها، ومن أمثلته: الصدق في الخوف والرجاء، والتعظيم والزهد، والرضا والتوكل، وغيرها من الأمور. ومن اتصف بالصدق في جميع ما سبق فهو صديق.

نماذج من صدق الصادقين:

ولقد كان رسول الله ﷺ وصحابته الكرام والصالحين من بعهدهم خير قدوة وأسوة لنا في هذا الخلق، فإليك بعض نماذج صدقهم:

رسول الله ﷺ:

كان ﷺ أصدق الناس وأبرهم وأكملهم علماً وعملاً وإيماناً وإيقاناً، كان معروفاً بالصدق في قومه، لا يشك في ذلك أحد منهم، بحيث لا يُدعى بينهم إلا بالصادق الأمين، ولهذا لما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان عن تلك المسائل التي سألها من صفة رسول الله ﷺ، كان فيما قال له: «أو كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال؟» قال: لا. فقال هرقل: «فما كان ليدع الكذب على الناس ويذهب فيكذب على الله»⁽¹⁾.

أبو ذرؓ:

كان أبو ذرؓ صادقاً للهجة، قال عنه النبي ﷺ: «ما أقلت الغبراء ولا أظلت الخضراء من رجل أصدق لهجة من أبي ذرؓ»⁽²⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، بدء الوحي، باب: كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله ﷺ، رقم (7).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (6519)، ج 11 ص 70، قال محققوه: حسن لغيره.

خطب بلالٌ على أخيه امرأةً من بني جَسَلٍ من قُرَيْشٍ، وقال : (نحن من قد عَرَفْتُمْ، كُنَّا عِبْدِينَ فَأَعْتَقَنَا اللَّهُ، وَكُنَّا ضَالِّينَ فَهَدَانَا اللَّهُ، وَفَقِيرِينَ فَأَغْنَانَا اللَّهُ، وَأَنَا أُخْطَبُ عَلَى أَخِي خَالِدٍ فَلَنَّةٌ، فَإِنْ تَنَكَّحُوهُ فَالْحَمْدُ لِلَّهِ، وَإِنْ تَرَدُّوهُ فَاللَّهُ أَكْبَرُ)، فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ فَقَالُوا: هُوَ بِلَالٌ، وَلَيْسَ مِثْلُهُ يُدْفَعُ، فَزَوَّجُوا أَخَاهُ. فَلَمَّا انْصَرَفْنَا قَالَ خَالِدٌ : لِبِلَالٍ: (يَغْفِرُ اللَّهُ لَكَ! أَلَا ذَكَرْتَ سَوَابِقَنَا وَمَشَاهِدَنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ!) قَالَ بِلَالٌ: (مَهْ! صَدَقْتَ) فَأَنكَحَ الصَّدُوقُ! (1).

الإمام عبد القادر الجيلاني - رحمه الله -:

قال الإمام عبد القادر الجيلاني - رحمه الله -: «بَنَيْتُ أَمْرِي عَلَى الصَّدَقِ، وَذَلِكَ أَنِّي خَرَجْتُ مِنْ مَكَّةَ إِلَى بَغْدَادَ أَطْلُبُ الْعِلْمَ، فَأَعْطَنِي أُمِّي أَرْبَعِينَ دِينَارًا وَعَاهَدَتْنِي عَلَى الصَّدَقِ، فَلَمَّا وَصَلْنَا أَرْضَ هَمْدَانَ خَرَجَ عَلَيْنَا عَرَبٌ، فَأَخَذُوا الْقَافِلَةَ فَمَرَّ وَاحِدٌ مِنْهُمْ وَقَالَ: مَا مَعَكَ؟ قُلْتُ: أَرْبَعُونَ دِينَارًا، فَظَنَّ أَنِّي أَهْزَأُ بِهِ فَتَرَكَنِي، فَرَأَنِي رَجُلٌ آخَرُ فَقَالَ: مَا مَعَكَ؟ فَأَخْبَرْتُهُ فَأَخَذَنِي إِلَى كَبِيرِهِمْ، فَسَأَلَنِي فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: مَا حَمَلَكَ عَلَى الصَّدَقِ. قُلْتُ: عَاهَدَتْنِي أُمِّي عَلَى الصَّدَقِ، فَأَخَافُ أَنْ أَخُونَ عَهْدَهَا! فَصَاحَ وَمَزَّقَ ثِيَابَهُ، وَقَالَ: أَنْتَ تَخَافُ أَنْ تَخُونَ عَهْدَ أُمِّكَ، وَأَنَا لَا أَخَافُ أَنْ أَخُونَ عَهْدَ اللَّهِ!

ثُمَّ أَمَرَ بَرْدًا مَا أَخَذُوهُ مِنَ الْقَافِلَةِ، وَقَالَ: أَنَا تَائِبٌ لِلَّهِ عَلَى يَدَيْكَ! فَقَالَ مِنْ مَعَهُ: أَنْتَ كَبِيرُهُمْ فِي قَطْعِ الطَّرِيقِ وَأَنْتَ الْيَوْمَ كَبِيرُنَا فِي التَّوْبَةِ، فَتَابُوا جَمِيعًا بِبِرْكَةِ الصَّدَقِ! (2).

(1) أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري، عيون الأخبار، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1418هـ)، ج 4 ص 72.

(2) عبد الرحمن الصفوري، نزهة المجالس ومنتخب النفائس، (مصر: المطبعة الكاستلية، 1283هـ)، ج 1 ص 145.

وقد ذكر الله الصَّبْر في القرآن في نِيْفٍ وسبعين موضعًا مما يدل على فضيلة هذا الخلق.

تعريف الصبر:

الصبر في اللغة: الحبس والكف، ومنه: قُتِلَ فلانٌ صبرًا، إذا أُمِسِكَ وحُبِسَ حتى مات. وفي الاصطلاح: «حَبَسَ النَّفْسَ على ما يقتضيه العقل والشرع أو عَمَّا يقتضيان حبسها عنه»⁽¹⁾.

أهمية التَّخَلُّق بالصَّبْر:

تظهر أهمية التَّخَلُّق بالصَّبْر في جوانب عدة، منها:

1 - أن الصَّبور من أسماء الله ﷻ، والصبر من صفاته: وفي معنى اسم الله الصبور يقول الإمام الغزالي -رحمه الله-: «الصَّبور هو الَّذِي لا تحمله العجلة على المسارعة إلى الفعل قبل أوانه، بل ينزِّل الأمور بقدر معلوم ويجريها على سنن محدودة، لا يؤخِّرها عن آجالها المقدَّرة لها، ولا يقدِّمها على أوقاتها، بل يودع كلَّ شيء في أوانه على الوجه الَّذِي يجب أن يكون كما ينبغي»⁽²⁾.

2 - أمر الله بالصبر في كتابه وأمر به نبيه ﷺ مما يدل على وجوبه، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: 200]، وقال ﷺ: ﴿وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ [النحل: 127]، وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: 153].

3 - الصبر من صفات الأنبياء والمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِنْ قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَى مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّى أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَبِيِّ الْمُرْسَلِينَ﴾ [الأنعام: 34]، وقال ﷺ: ﴿وَإِسْنَاعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا الْكِفْلِ كُلٌّ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنبياء: 85].

(1) الراغب الأصفهاني، المفردات في غريب القرآن، ص 474.

(2) أبو حامد محمد بن محمد الغزالي، المقصد الأسنى في شرح معاني أسماء الله الحسنى، تحقيق: بسام الجابي، (قبرص: الجفان والجابي، ط 1، 1987م)، ص 149.

وقال ﷺ: **أَمَرَ نَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ بِالصَّبْرِ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعِزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ﴾ [الأحقاف: 35].**

وكان نبي الله أيوب **﴿عَايَةَ فِي الصَّبْرِ﴾** وبه يضرب المثل في ذلك، قال تعالى: **﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَى رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾ [AT] فَاسْتَجَبْنَا لَهُ فَكَشَفْنَا مَا بِهِ مِنْ ضِرٍّ وَأَتَيْنَاهُ أَهْلَهُ وَمِثْلَهُمْ مَعَهُمْ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَذِكْرَى لِلْعَابِدِينَ﴾ [الأنبياء: 83-84].**

ومن ذلك صبر يعقوب **﴿عَايَةَ عَلَى فَقْدَانِ يُوسُفَ﴾** لما ذهب إخوته به وألقوه في جوف البئر ثم جاؤوا إلى أبيهم في وقت العشاء يبيكون، يزعمون أن الذئب أكله، فما كان من يعقوب **﴿عَايَةَ﴾** إلا أن قال: **﴿وَجَاءُوا عَلَى قَيْصِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنْفُسُكُمْ أَمْرًا فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ عَلَى مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].**

ولنا في أنبياء الله -عليهم الصلاة والسلام- خير قدوة.

4 - **الصبر أساس من أسس الإيمان**، قال علي بن أبي طالب **﴿عَايَةَ﴾**: **(أَلَا إِنَّ الصَّبْرَ مِنَ الْإِيمَانِ بِمَنْزِلَةِ الرَّأْسِ مِنَ الْجَسَدِ، فَإِذَا قُطِعَ الرَّأْسُ بَادَ الْجَسَدُ)،** ثم رفع صوته فقال: **(أَلَا إِنَّهُ لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا صَبْرَ لَهُ) (1).**

ولأجل هذه العلاقة قرن الله **﴿عَايَةَ الصَّبْرِ بِأَرْكَانِ الْإِسْلَامِ وَمَقَامَاتِ الْإِيمَانِ، فَقَرَنَهُ ﷺ بِالصَّلَاةِ فَقَالَ: ﴿وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: 45]، وَبِالتَّقْوَى فَقَالَ: ﴿إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ [سورة يوسف: 90]، وَبِالشُّكْرِ فَقَالَ: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [سورة لقمان: 31]، وَبِالرَّحْمَةِ فَقَالَ: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ﴾ [سورة البلد: 17]، وَبِالْصَّدَقِ فَقَالَ: ﴿وَالصَّادِقِينَ وَالصَّادِقَاتِ وَالصَّابِرِينَ وَالصَّابِرَاتِ﴾ [سورة الأحزاب: 35].**

5 - **الصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها**، فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبر عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها.

(1) ابن أبي شيبه، المصنف في الأحاديث والآثار، رقم (30439)، ج 6 ص 178.

أنواع الصبر:

الصبر ثلاثة أنواع:

أولاً: صبر على طاعة الله، وبخاصة العبادات التي تصعب على النفوس بسبب الكسل، كالصلاة، أو بسبب البخل، كالزكاة، أو بسببهما جميعاً، كالحج والجهاد.

ثانياً: صبر عن معصية الله ﷻ، وهو أشد ما يكون العبد حاجة إليه، وبخاصة إذا تيسرت أسباب المعصية، وغاب الرقيب من البشر. وكلما كان الفعل الممنوع مما ييسر فعله، كمعاصي اللسان من الغيبة والكذب ونحوهما، كان الصبر عليه أثقل.

ثالثاً: صبر على ابتلاء الله وامتحانه، فالله ﷻ قد يبتلي العبد بأنواع المصائب من أمراض، ونقص في الأموال والأنفس، وهذا كله مما لا كسب للإنسان فيه، بل فعل الله بالعبد امتحاناً وتمحيصاً وتطهيراً.

والصبر على هذا النوع من المقدورات من أعلى المقامات، لأنَّ سنده اليقين في ثواب الله ﷻ، وحسن عوضه، وأنه أرحم الراحمين لا يفعل ذلك بعبد إلا لحكمة يعلمها، وإلا لمصلحة ذلك العبد إما عاجلاً وإما أجلاً. وما دامت هذه الابتلاءات ليست من كسب العبد، ولا حيلة له فيها أو معها، فالأفضل له الصبر عليها، واحتساب مشقتها.

والنصوص في فضل هذا النوع من الصبر كثيرة، ومواقف الصالحين من عباد الله ﷻ في هذا الخصوص عديدة، دالة على عظم يقينهم في وعد الله ﷻ، وانتظارهم ثوابه جل وعلا.

ثمرات الصبر:

1 - جعل الله تعالى الصَّبر واليقين سبباً للإمامة في الدِّين، قال ﷻ: ﴿وَجَعَلْنَا

مِنْهُمْ أَيْمَةً يَهْتَدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: 24].

2 - للصابرين ما ليس لغيرهم من الأجر والثواب عند الله، قال تعالى: ﴿وَنَبِّئِ

الصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ

عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157]. وقال

ﷻ: ﴿إِنَّمَا يُوقِ الصَّابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

ومن ذلك الثواب أنهم يفوزون بمعية الرحمن ﷻ، قال تعالى: ﴿وَاصْبِرُوا

إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46]، فهو معهم يثبت قلوبهم ويحوطهم بعنايته

وتأييده.

وهم أهل محبة الله ﷻ، قال سبحانه: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: 146].

وهم الفائزون بدخول الجنة والنجاة من النار، قال عز من قائل: ﴿إِنِّي جَزَيْتُهُمُ
الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: 111]. وقال ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا
ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً يَدْرَهُونَ
بِالْحُسْنَةِ السَّيِّئَةِ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٣٢﴾ جَنَّاتٌ عَذْنٌ يَدْخُلُونَهَا وَمَنْ صَلَحَ
مِنْ آبَائِهِمْ وَازْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِمْ مِنْ كُلِّ بَابٍ ﴿٣٣﴾ سَلَامٌ
عَلَيْكُمْ بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ [الرعد: 22-24].

3 - علق الله ﷻ النصر والمدد على الصبر وعلى التقوى، كقوله تعالى: ﴿يَلَى
إِنْ تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ
الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَى لَكُمْ وَلِتَطْمَئِنَّ قُلُوبُكُمْ بِهِ وَمَا
النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: 125-126].

4 - الانتفاع بآيات الله والاتعاظ بها يكون لأهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا
مُوسَى بِآيَاتِنَا أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَذَكِّرْهُمْ بِأَيَّامِ اللَّهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ
لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ﴾ [إبراهيم: 5].

5 - خصال الخير والحظوظ العظيمة لا يلقاها إلا أهل الصبر، قال تعالى: ﴿وَقَالَ
الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَبَلَغُمْ ثَوَابَ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا يُلْقَاهَا إِلَّا
الصَّابِرُونَ﴾ [القصاص: 80]، وقوله تعالى: ﴿وَمَا يُلْقَاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلْقَاهَا
إِلَّا ذُو حِظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: 35]. وقوله تعالى: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ
بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [النحل: 96].

من نماذج الصابرين:

صبر الرسول ﷺ:

صبر الرسول ﷺ وبلغ صبره مبلغًا عظيمًا، من ذلك ما جاء عن أنس ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ أُخِفْتُ فِي اللَّهِ وَمَا يَخَافُ أَحَدٌ، وَلَقَدْ أُودِيتُ فِي اللَّهِ وَمَا يُؤْذِي

أَحَدٌ، وَلَقَدْ أَتَتْ عَلَيَّ ثَلَاثُونَ مِنْ بَيْنِ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ وَمَا لِي وَلَا لِبِلَالٍ طَعَامٌ يَأْكُلُهُ ذُو كَبِدٍ إِلَّا سَيِّئُ يَوَارِيهِ إِبْطُ بِلَالٍ»⁽¹⁾.

ومن ذلك صبره ﷺ على فقد الأولاد والأحباب: فمات عمه أبو طالب، وتوفيت زوجته خديجة، وتوفي أولاده كلهم في حياته إلا فاطمة، وقتل عمه حمزة ﷺ، فصلوات ربي وسلامه عليه. ومواقف صبره ﷺ كثيرة جداً فحياته كلها جهاد وصبر.

بلال ﷺ:

بلال بن رباح ﷺ الذي عذب من أجل إيمانه فيصبر، (فكان أُمِّيَّةً يُخْرِجُهُ إِذَا حَمَيْتِ الظَّهِيْرَةَ فَيَطْرَحُهُ عَلَى ظَهْرِهِ فِي بَطْحَاءِ مَكَّةَ، ثُمَّ يَأْمُرُ بِالصَّخْرَةِ الْعَظِيْمَةِ فَيَتَوَضَّعُ عَلَى صَدْرِهِ، ثُمَّ يَقُولُ لَهُ: لَا تَزَالْ هَكَذَا حَتَّى تَمُوتَ أَوْ تَكْفُرَ بِمُحَمَّدٍ وَتَعْبُدَ اللَّاتَ وَالْعِزَّى! فَيَقُولُ ﷺ وَهُوَ فِي ذَلِكَ الْبَلَاءِ: أَحَدُ أَحَدٍ)⁽²⁾.

وعن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: (كَانَ أَوَّلُ مَنْ أَظْهَرَ إِسْلَامَهُ سَبْعَةٌ: رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ، وَأَبُو بَكْرٍ، وَعِمَارٌ، وَأُمُّهُ سُمَيَّةٌ، وَصُهِيبٌ، وَبِلَالٌ، وَالْمِقْدَادُ، فَأَمَّا رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِعَمِّهِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَمَّا أَبُو بَكْرٍ فَمَنْعَهُ اللَّهُ بِقَوْمِهِ، وَأَمَّا سَائِرُهُمْ فَأَخَذَهُمُ الْمَشْرِكُونَ، وَأَلْبَسُوهُمْ أَدْرَاعَ الْحَدِيدِ، وَصَهَرُوهُمْ فِي الشَّمْسِ، فَمَا مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدِ وَاثَاهُمْ (وَأَفْقَهُمْ) عَلَى مَا أَرَادُوا إِلَّا بِلَالًا، فَإِنَّهُ هَانَتْ عَلَيْهِ نَفْسُهُ فِي اللَّهِ ﷺ، وَهَانَ عَلَى قَوْمِهِ، فَأَخَذُوهُ، فَأَعْطَوْهُ الْوِلْدَانَ، فَجَعَلُوا يَطْوِفُونَ بِهِ فِي شِعَابِ مَكَّةَ وَهُوَ يَقُولُ: أَحَدٌ أَحَدٌ)⁽³⁾.

أَم سُلَيْمٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا:-

وَأَم سُلَيْمٍ تَصْبِرُ عِنْدَ مَوْتِ ابْنِهَا وَفَلَذَةِ كَبِدِهَا فَيَعْوِضُهَا اللَّهُ خَيْرًا مِمَّا فَقدَتْ، فَعَن أَنَسٍ ﷺ قَالَ: (مَاتَ ابْنُ لَأْبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ. فَقَالَتْ لِأَهْلِهَا: لَا تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّى أَكُونُ أَنَا أُحَدِّثُهُ. قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عِشَاءً. فَأَكَلَ وَشَرِبَ. فَقَالَ: ثُمَّ تَصْنَعْتَ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَتْ تَصْنَعُ قَبْلَ ذَلِكَ. فَوَقَعَ بِهَا. فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِعَ وَأَصَابَ مِنْهَا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ! أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْمًا أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَيْسَ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لَا. قَالَتْ: فَاحْتَسِبْ ابْنَكَ. قَالَ فَغَضِبَ وَقَالَ: تَرَكْتَنِي حَتَّى تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتَنِي بِابْنِي! فَانْطَلَقْ

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (14055)، ج 21 ص 443، قال محققوه: إسناده صحيح على شرط مسلم. وابن ماجه، السنن، باب فِي فَضَائِلِ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ، فضائل بلال، رقم (151).

(2) أخرجه الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 1 ص 148.

(3) ابن ماجه، السنن، باب فِي فَضَائِلِ أَصْحَابِ رَسُوْلِ اللَّهِ ﷺ، فضائل بلال، رقم (150).

حَتَّى أَتَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا». قَالَ ﷺ: فَحَمَلْتُ (1).

عُرْوَةُ بْنُ الزُّبَيْرِ:

(وَقَعَتِ الْأَكْلَةُ) (الغرغرينة) فِي رَجُلِ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، فَصَعِدَتْ فِي سَاقِهِ، فَبَعَثَ إِلَيْهِ الْوَلِيدُ، فَحُمِلَ إِلَيْهِ وَدَعَا الْأَطِبَّاءَ، فَقَالُوا: لَيْسَ لَهُ دَوَاءٌ إِلَّا الْقَطْعُ! وَقَالُوا لَهُ: اشْرَبِ الْمُرْقِدَ، فَقَالَ عُرْوَةُ لِلطَّبِيبِ: امْضِ لِسَانِكَ، مَا كُنْتُ أَظُنُّ أَنَّ خَلْقًا يَشْرَبُ مَا يُزِيلُ عَقْلَهُ حَتَّى يَعْرِفَ بِهِ! فَوَضَعَ الْمِنْشَارَ عَلَى رُكْبَتَيْهِ الْيُسْرَى، فَمَا سَمِعَ لَهُ جَسًّا! فَلَمَّا قَطَعَهَا جَعَلَ يَقُولُ: «لَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ، وَلَئِنْ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتَ»، وَمَا تَرَكَ جَزَأَهُ مِنَ الْقُرْآنِ تِلْكَ اللَّيْلَةَ! قَالَ الْوَلِيدُ: «مَا رَأَيْتُ شَيْخًا قَطُّ أَصْبَرَ مِنْ هَذَا». ثُمَّ إِنَّهُ أُصِيبَ بَابِنِهِ مُحَمَّدٌ فِي ذَلِكَ السَّفَرِ، رَكَضَتَهُ بَغْلَةً فِي إِصْطَبِلٍ، فَلَمْ يُسْمَعْ مِنْ عُرْوَةَ فِي ذَلِكَ كَلِمَةً! فَلَمَّا كَانَ بِوَادِي الْقُرَى قَالَ: «لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا! اللَّهُمَّ كَانَ لِي بَنُونَ سَبْعَةٌ، فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ لِي سِتَّةً، وَكَانَ لِي أَطْرَافُ أَرْبَعَةٌ، فَأَخَذْتُ وَاحِدًا وَأَبْقَيْتُ ثَلَاثَةً، وَلَئِنْ ابْتَلَيْتَ لَقَدْ عَافَيْتَ، وَلَئِنْ أَخَذْتَ لَقَدْ أَبْقَيْتَ» (2).

- مُطَرِّفُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الشَّحْبَرِ:

عَنْ ثَابِتٍ قَالَ: مَاتَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مُطَرِّفٍ -رَحِمَهُ اللَّهُ-، فَخَرَجَ مُطَرِّفٌ -رَحِمَهُ اللَّهُ- عَلَى قَوْمِهِ فِي ثِيَابٍ حَسَنَةٍ وَقَدْ اَدَّهَنَ، فَغَضِبُوا وَقَالُوا: يَمُوتُ عَبْدُ اللَّهِ ثُمَّ تَخْرُجُ فِي ثِيَابٍ مِثْلَ هَذِهِ مُدَّهِنًا! قَالَ: فَاسْتَكِينُ لَهَا وَقَدْ وَعَدَنِي رَبِّي تَبَارَكَ عَلَيْهَا ثَلَاثَ خِصَالٍ، كُلُّ خَصْلَةٍ مِنْهَا أَحَبُّ إِلَيَّ مِنَ الدُّنْيَا كُلِّهَا؟ قَالَ اللَّهُ ﷻ: ﴿وَيَذِّيرُ الصَّابِرِينَ ۝ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاغِبُونَ ۝ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ﴾ [البقرة: 155-157] فَاسْتَكِينُ لَهَا بَعْدَ هَذَا؟ (3)

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (13026)، ج 20 ص 328. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الفضائل، باب من فضائل أبي طلحة الأنصاري ﷺ، رقم (2144).

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4 ص 430.

(3) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن الجوزي، صفة الصفوة، تحقيق: أحمد علي، (القاهرة: دار الحديث، 2000م)، ج 2 ص 132.

معنى الأمانة:

الأمانة في اللغة: مأخوذة من مادة «الهمزة والميم والنون» التي تدل على سكون القلب⁽¹⁾.

وفي الاصطلاح: «هي خُلُقٌ ثابت في النَّفس يعفُّ به الإنسان عما ليس له به حقٌّ، وإن تهيأت له ظروف العدوان عليه، أو يؤدِّي به ما عليه أو لديه من حقٍّ لغيره، وإن استطاع أن يهضمه دون أن يكون عرضة للإدانة عند النَّاسِ»⁽²⁾.

أهمية الأمانة:

الأمانة أحد الأعمدة الرئيسة للنظام الأخلاقي في الإسلام، وتظهر أهميتها من خلال النقاط التالية:

1 - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ ربط بينها وبين الإيمان، فعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ قَالَ: مَا خَطَبَنَا نَبِيُّ اللَّهِ ﷺ إِلَّا قَالَ: «لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا أَمَانَةَ لَهُ، وَلَا دِينَ لِمَنْ لَا عَهْدَ لَهُ»⁽³⁾.

2 - أَنَّهَا من أبرز أخلاق الرُّسُلِ ﷺ، فنوح وهود وصالح ولوط وشعيب -عليهم الصلاة والسلام- يخبرنا الله ﷻ عنهم في سورة الشعراء أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ مِنْهُمْ قَالَ لِقَوْمِهِ: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ﴾ [الشعراء: 107، 125، 143، 162، 178].

ورسولنا محمد ﷺ قد كان في قومه قبل الرِّسالة وبعدها مشهوراً بينهم بأنَّه الأمين، وكان النَّاسُ يختارونه لحفظ ودائعهم، ولَمَّا هاجر ﷺ وَكَلَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ بَرْدَ الْوَدَائِعِ إِلَى أَصْحَابِهَا.

3 - أَمَرَنَا اللَّهُ تَعَالَى وَرَسُولُهُ ﷺ بِأَدَاءِ الْأَمَانَاتِ وَافْتَرَضَ ذَلِكَ عَلَيْنَا، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: 58]. وقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَخُونُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ وَتَخُونُوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال: 27].

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 1 ص 133.

(2) ابن حميد وملوح، موسوعة نضرة النعيم في مكارم أخلاق الرسول الكريم، ج 3 ص 509.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (12383)، ج 19 ص 375، وقال محققوه: حديث حسن.

وامتدح الله المؤمنين باتصافهم بهذا الخلق، فقال ﷺ: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ

وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ﴾ [المؤمنون: 8، والمعارج: 32].

وكان من آخر وصايا النبي ﷺ في حجة الوداع الوصية بالأمانة، فقال ﷺ: «وَمَنْ كَانَتْ عِنْدَهُ أَمَانَةٌ فَلْيُؤَدِّهَا إِلَى مَنْ ائْتَمَنَهُ عَلَيْهَا»⁽¹⁾.

بل كانت الأمانة من أول الأوامر التي أمر النبي ﷺ بها، فعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: أَخْبَرَنِي أَبُو سُفْيَانَ أَنَّ هِرْقُلَ قَالَ لَهُ: (سَأَلْتُكَ مَاذَا يَأْمُرُكُمْ فَرَعَمْتَ أَنَّهُ أَمَرَكُمْ بِالصَّلَاةِ وَالصَّدَقِ وَالْعَفَافِ وَالْوَفَاءِ بِالْعَهْدِ وَأَدَاءِ الْأَمَانَةِ قَالَ وَهَذِهِ صِفَةُ نَبِيِّ)⁽²⁾.

4 - من علامات الساعة نزع الأمانة من قلوب الرجال، فعَنْ حُذَيْفَةَ ؓ قَالَ: حَدَّثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ حَدِيثَيْنِ، قَدْ رَأَيْتُ أَحَدَهُمَا، وَأَنَا أَنْتَظِرُ الْآخَرَ، حَدَّثَنَا ﷺ: «أَنَّ الْأَمَانَةَ نَزَلَتْ فِي جَذْرِ قُلُوبِ الرِّجَالِ، ثُمَّ نَزَلَ الْقُرْآنُ، فَعَلِمُوا مِنَ الْقُرْآنِ، وَعَلِمُوا مِنَ السُّنَّةِ»، ثُمَّ حَدَّثَنَا عَنْ رَفْعِ الْأَمَانَةِ، قَالَ ﷺ: «يَنَامُ الرَّجُلُ النَّوْمَةَ، فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظِلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْوَكْتِ»⁽³⁾، ثُمَّ يَنَامُ النَّوْمَةَ فَتَقْبِضُ الْأَمَانَةُ مِنْ قَلْبِهِ، فَيَظِلُّ أَثَرُهَا مِثْلَ الْمَجْلِ»⁽⁴⁾، كَجَمْرِ دَخَرَجْتَهُ عَلَى رِجْلِكَ، فَتَنْفِطُ، فَتَرَاهُ مُنْتَبِرًا، وَلَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ»، ثُمَّ أَخَذَ حَصَى فَدَحْرَجَهُ عَلَى رِجْلِهِ، فَقَالَ: «فَيُصِيبُ النَّاسُ يَتَّبَاعِيْعُونَ، لَا يَكَادُ أَحَدٌ يُؤَدِّي الْأَمَانَةَ، حَتَّى يُقَالَ: إِنَّ فِي بَنِي فَلَانٍ رَجُلًا أَمِينًا، حَتَّى يُقَالَ لِلرَّجُلِ: مَا أَجْلُدُهُ، مَا أَظْرَفُهُ، مَا أَعْقَلُهُ، وَمَا فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ حَبَّةٍ مِنْ خُرْدٍ مِنْ إِيْمَانٍ. وَلَقَدْ أَتَى عَلِيٌّ زَمَانًا، وَمَا أَبَالِي أَيْكُمْ بَايَعْتُ، لَنْ كَانَ مُسْلِمًا لِيُرِدَّنَهُ عَلَيَّ دِينَهُ، وَلَنْ كَانَ نَصْرَانِيًّا،

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (20695)، ج 34 ص 299-300، وقال محققوه: صحيح لغيره مقطوعاً.

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب: كَيْفَ كَانَ بَدْءُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، رقم (7).

(3) الوكت: جمع وكته بمعنى الأثر في الشيء كالنقطة من غير لونه. (الجزري، النهاية في غريب الحديث، ج 5 ص 218).

(4) يقال: مَجَلَّتْ يده تمجُلُ مجلًا، ومجلت تمجُلُ مجلًا، إذا ثخن جلدها وتعجر وظهر فيها ما يشبه البثر من العمل بالأشياء الصلبة الخشنة. (الجزري، النهاية في غريب الحديث، ج 4 ص 300).

أَوْ يَهُودِيًّا، لَيَرُدَّنَّهُ عَلَيَّ سَاعِيهِ، وَأَمَّا الْيَوْمَ فَمَا كُنْتُ لِأُبَايِعَ مِنْكُمْ، إِلَّا فَلَانًا، وَفَلَانًا»⁽¹⁾.

5 - إضاعة الأمانة من علامات الساعة، فعن أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ ﷺ: «إِذَا أُسْنِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ»⁽²⁾. وفي رواية عنه ﷺ قَالَ: بَيْنَمَا النَّبِيُّ ﷺ فِي مَجْلِسٍ يُحَدِّثُ الْقَوْمَ جَاءَهُ أَغْرَابِيٌّ فَقَالَ: مَتَى السَّاعَةُ؟ فَمَضَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يُحَدِّثُ، فَقَالَ: بَعْضُ الْقَوْمِ سَمِعَ مَا قَالَ فَكَرَهُ مَا قَالَ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: بَلْ لَمْ يَسْمَعْ حَتَّى إِذَا قَضَى حَدِيثَهُ قَالَ: «أَيُّنَ أَرَاهُ السَّائِلُ عَنِ السَّاعَةِ؟» قَالَ: هَا أَنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «فَإِذَا ضَيَّعَتِ الْأَمَانَةُ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ» قَالَ: كَيْفَ إِضَاعَتُهَا قَالَ: «إِذَا وُسِدَ الْأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَاَنْتَظِرِ السَّاعَةَ»⁽³⁾.

وكان ﷺ يستعيز من ضياعها، حيث كان يقول في دعائه: «اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنَ الْجُوعِ، فَإِنَّهُ يَنْسُ الضَّجِيعَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنَ الْخِيَانَةِ، فَإِنَّهَا يَنْسُ الْبِطَانَةَ»⁽⁴⁾.

6 - الأمانة حَمَلُهَا ثَقِيلُ أَبْتَه السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضُ وَالْجِبَالُ، قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ [الأحزاب: 72].

وَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَلَا تَسْتَعْمِلُنِي؟ قَالَ: فَضْرَبَ بِيَدِهِ عَلَى مَنْكِبِي، ثُمَّ قَالَ: «يَا أَبَا ذَرٍّ إِنَّكَ ضَعِيفٌ، وَإِنَّهَا أَمَانَةٌ، وَإِنَّهَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ خِزْيٌ وَنَدَامَةٌ إِلَّا مَنْ أَحْذَاهَا بِحَقِّهَا وَأَدَّى الَّذِي عَلَيْهِ فِيهَا»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (23255)، ج 38 ص 291-292. والبُخَارِي، الجامع الصحيح، كتاب الرقائق، باب: رفع الأمانة، رقم (6132). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب رفع الأمانة والإيمان من بعض القلوب، وعرض الفتن على القلوب، رقم (143).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8729)، ج 14 ص 343-344. والبُخَارِي، الجامع الصحيح، كتاب الرقائق، باب: رفع الأمانة، رقم (6131).

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب العلم، باب: من سئل علماً وهو مشغول في حديثه، رقم (59).

(4) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب السنة، باب في ذرائع المشركين، رقم (4720)، وابن ماجه، السنن، كتاب الأطعمة، باب التعوذ من الجوع، رقم (3354). والنسائي، السنن، كتاب الاستعاذة، باب الاستعاذة من الجوع، رقم (5468). والحديث حسن.

(5) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب كراهة الإمارة بغير ضرورة، رقم (1825).

7 - الأمانة من أول الحقوق التي يحاسب الله عنها يوم القيامة: فعَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَجْمَعُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى النَّاسَ فَيَقُومُ الْمُؤْمِنُونَ حَتَّى تُزْلَفَ لَهُمُ الْجَنَّةُ، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: يَا أَبَانَا اسْتَفْتِحْ لَنَا الْجَنَّةَ. فَيَقُولُ: وَهَلْ أَخْرَجَكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ إِلَّا خَطِيئَةُ أَبِيكُمْ آدَمَ لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، اذْهَبُوا إِلَى ابْنِي إِبْرَاهِيمَ خَلِيلِ اللَّهِ. قَالَ: فَيَقُولُ إِبْرَاهِيمُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَّمَا كُنْتُ خَلِيلًا مِنْ وَرَاءَ وَرَاءَ، اعْمِدُوا إِلَى مُوسَى ﷺ الَّذِي كَلَّمَهُ اللَّهُ تَكْلِيمًا، فَيَأْتُونَ مُوسَى ﷺ فَيَقُولُ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ اذْهَبُوا إِلَى عِيسَى كَلَّمَهُ اللَّهُ وَرُوحِهِ. فَيَقُولُ عِيسَى ﷺ: لَسْتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ. فَيَأْتُونَ مُحَمَّدًا ﷺ فَيَقُومُ فَيُؤَذِّنُ لَهُ، وَتُرْسَلُ الْأَمَانَةُ وَالرَّحِمُ فَتَقُومَانِ جَنْبَتِي الصِّرَاطِ يَمِينًا وَشِمَالًا فَيَمُرُّ أَوْلَكُمْ كَالْبَرْقِ»⁽¹⁾.

مجالات الأمانة:

المجالات التي تدخل فيها الأمانة كثيرة، فما من جانب من جوانب حياة المسلم والمجتمع إلا ويحتاج إلى أن يفعل فيه هذا الخلق، ومن هذه المجالات:

1 - الأمانة في العبادة، فعبادة الله ﷻ أمانة ينبغي المحافظة عليها بأدائها على أكمل وجه، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ، أَنَّهُ ذَكَرَ الصَّلَاةَ يَوْمًا، فَقَالَ: «مَنْ حَافَظَ عَلَيْهَا، كَانَتْ لَهُ نُورًا، وَبُرْهَانًا، وَنَجَاةٌ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَمَنْ لَمْ يُحَافِظْ عَلَيْهَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ نُورٌ، وَلَا بُرْهَانٌ، وَلَا نَجَاةٌ، وَكَانَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ قَارُورٍ، وَفِرْعَوْنٌ، وَهَامَانَ، وَأَبِي بَنٍ خَلْفٍ»⁽²⁾.

2 - الأمانة في حفظ الجوارح، وحفظها بألا يقترب فيها مُحَرَّمًا وَلَا يستعملها إِلَّا بما يرضي الله ﷻ، فهو مسؤول عنها يوم القيامة، قال تعالى: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: 36]. وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «الْعَيْنُ تَرْنِي، وَالْقَلْبُ يَزْنِي، فَرْنَا الْعَيْنَ النَّظْرُ، وَرْنَا الْقَلْبَ التَّمَنِّي، وَالْفَرْجُ يُصَدِّقُ مَا هُنَاكَ أَوْ يَكْذِبُهُ»⁽³⁾.

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب أدنى أهل الجنة منزلة فيها، رقم (195).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (6576)، ج 11 ص 141-142، وقال محققوه: إسناده حسن.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (8356)، ج 14 ص 96، قال محققوه: حديث صحيح.

وكذلك المحافظة على صحة هذه الجوارح، قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ [الأعراف: 31].

3 - الأمانة في الودائع: من الأمانة أن يحفظ الإنسان الودائع التي توضع عنده، ويردها إلى ذويها إذا طلبوها. انظر إلى رسول الله ﷺ كيف استخلف ابن عمه علي بن أبي طالب ؓ ليسلم إلى المشركين الودائع التي حفظوها عنده، لما أراد الهجرة، على الرغم من أن المشركين هم الذين اضطروه إلى ترك مكة.

4 - الأمانة في العمل: وذلك بإتقانه، وكتمان أسرارهِ، وألا يغشَّ أحدًا، ولا يغدر به، ولا يخونه، مرَّ النبي ﷺ بِرَجُلٍ يَبِيعُ طَعَامًا فَأَعْجَبَهُ، فَأَدْخَلَ يَدَهُ فِيهِ، فَإِذَا هُوَ طَعَامٌ مَبْلُولٌ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ غَشَّأَ»⁽¹⁾.

6 - أمانة المسؤولية، أيًا كان نوعها، فعن ابن مسعود ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «كُلُّكُمْ رَاعٍ فَمَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ، فَالْأَمِيرُ الَّذِي عَلَى النَّاسِ رَاعٍ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالرَّجُلُ رَاعٍ عَلَى أَهْلِ بَيْتِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُمْ، وَالْمَرْأَةُ رَاعِيَةٌ عَلَى بَيْتِ بَعْلِهَا وَوَلَدِهِ وَهِيَ مَسْئُولَةٌ عَنْهُمْ، وَالْعَبْدُ رَاعٍ عَلَى مَالِ سَيِّدِهِ وَهُوَ مَسْئُولٌ عَنْهُ، أَلَا فكلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»⁽²⁾.

وخيانة الواجبات تتفاوت إثماً ونكراً وأشدّها شناعة ما أصاب الدين وجمهور المسلمين وتعرضت البلاد لأذاه، عن ابن عمر، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا جَمَعَ اللَّهُ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، رُفِعَ لِكُلِّ عَابِدٍ لَوَاءٌ، فَقِيلَ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ بْنِ فُلَانٍ»⁽³⁾.

ومن المسؤولية مسؤولية الأسرة، قال رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «كُلُّ مُسْتَرْعَى مَسْئُولٌ عَمَّا اسْتَرْعَى، حَتَّى إِنْ الرَّجُلُ يُسْأَلُ عَنْ زَوْجَتِهِ وَوَلَدِهِ وَعَبْدِهِ»⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (15833)، ج 25 ص 155، قال محققوه: حديث صحيح.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (4495)، ج 28 ص 83. والبخاري، الجامع الصحيح، كتاب العتق، باب: كراهية التطاول على الرقيق، وقوله عبيد أو أمتي، رقم (2416). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل، رقم (1829).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (4839)، ج 8 ص 451-542. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجهاد والسير، باب تحريم الغدر، رقم (1735).

(4) أخرجه أبو عوانه، المستخرج، رقم (7041)، ج 5 ص 385.

7 - أمانة العلم: فالعلم لديه أمانة، وطلاب العلم والعلماء سيُسالون عنه ويؤاخذون عليه من قبل الله تعالى إن لم يعملوا به أو يعلموه للناس، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ سِئِلَ عَنْ عِلْمٍ فَكَتَمَهُ، أَلْجِمَ بِلِجَامٍ مِنْ نَارِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ»⁽¹⁾.

7 - الأمانة في حفظ الأسرار: عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: «إِذَا حَدَّثَ الرَّجُلُ بِالْحَدِيثِ، ثُمَّ التَّفَتَّ: فَهِيَ أَمَانَةٌ»⁽²⁾.

وعن أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رضي الله عنه قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ مِنْ أَعْظَمِ الْأَمَانَةِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، الرَّجُلُ يُفْضِي إِلَى امْرَأَتِهِ، وَتُفْضِي إِلَيْهِ، ثُمَّ يَنْشُرُ سِرَّهَا»⁽³⁾.

8 - في النصيحة: فقد جاء في الحديث: «الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ»⁽⁴⁾، وجاء عنه ﷺ أنه قال: «وَمَنْ أَشَارَ عَلَى أَخِيهِ بِأَمْرٍ يَعْلَمُ أَنَّ الرُّشْدَ فِي غَيْرِهِ فَقَدْ خَانَ»⁽⁵⁾، وماذا يكون قد بقي فيه من الخير من أشار على أخيه بما لا ينفعه، بل ربما يضره؟!

ثمرات التخلق بخلق الأمانة:

1 - دخول الجنة، عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: «حَمْسٌ مَنْ جَاءَ بِهِنَّ مَعَ إِيْمَانٍ دَخَلَ الْجَنَّةَ، مَنْ حَافَظَ عَلَى الصَّلَوَاتِ الْحَمْسِ عَلَى وَضُوئِهِنَّ وَرُكُوعِهِنَّ وَسُجُودِهِنَّ وَمَوَاقِيْتِهِنَّ، وَصَامَ رَمَضَانَ، وَحَجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَأَعْطَى الزَّكَاةَ طَيِّبَةً بِهَا نَفْسُهُ، وَآدَى الْأَمَانَةَ»⁽⁶⁾.

2 - استقامة الحياة: عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رضي الله عنه قَالَ: قَالَ رَسُوْلُ اللَّهِ ﷺ: «أَدَّ الْأَمَانَةَ إِلَى مَنْ أَنْتَمَكَ وَلَا تَخُنْ مَنْ خَانَكَ»⁽⁷⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (7571)، ج 13 ص 17-18، قال محققوه: إسناده صحيح.

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة، باب ما جاء أن المجالس أمانة، رقم (1959)، وقال: هذا حديث حسن. وأبو داود، السنن، أول كتاب الأدب، باب في نقل الحديث، رقم (4868).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (11655)، ج 18 ص 196-197. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب النكاح، باب تحريم إفشاء سر المرأة، رقم (1437).

(4) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (22360)، ج 37 ص 43. قال محققوه: صحيح لغيره.

(5) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب العلم، باب التوقي في الفتيا، رقم (3657). قال محققوه: حديث حسن.

(6) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب الصلاة، باب المحافظة على الوقت، رقم (429). قال محققوه: إسناده ضعيف.

(7) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (15424)، ج 24 ص 150. قال محققوه: حسن لغيره. وأبو داود، السنن، أول كتاب البيوع، باب في الرجل يأخذ حقه من تحت يده، رقم (3534).

سيرة النبي ﷺ مليئة بنماذج أدائه الأمانة، حتى سمَّاه العدو قبل الصديق بالأمين، وحياته كلها مثال على حمل المسؤولية وتأدية أمانتها، وموقفه في الهجرة عندما ترك علياً خلفه ليرد الودائع، مثال على عظم أمانته.

أما صحابته الكرام فيروى عنهم الكثير من ذلك، فقد جاء أنه لما أتى عمر بسواري كسرى، جعل يقلب بعض ذلك بعضاً، ثم قال: (إِنَّ الذي أدى هذا لأمين!) فقال له رجل: (أنا أخبرك، أنت أمين الله وهم يؤدون إليك ما أديت إلى الله ﷻ، فإذا رتعت رتعو! قال ﷺ: (صدقت)، ثم فرقه⁽¹⁾.

وروي عن أبي السباع ﷺ قال: اشتريت ناقة من دار وائلة بن الأسقع ﷺ، فلما خرجت بها، أدركنا وائلة، وهو يجر رداءه، فقال: يا عبد الله، اشتريت؟ قلت: نعم، قال: هل بين لك ما فيها؟ قلت: وما فيها؟ قال: إنها لسمينة ظاهرة الصحة، فقال: أردت بها سفراً، أم أردت بها لحماً؟ قلت: بل أردت عليها الحج، قال: فإنَّ بخفها نقباً، فقال صاحبها: أصلحك الله، ما تريد إلى هذا تفسد علي؟ قال: إني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لَا يَحِلُّ لِأَحَدٍ يَبِيعُ شَيْئاً إِلَّا يَبَيِّنَ مَا فِيهِ، وَلَا يَحِلُّ لِمَنْ يَعْلَمُ ذَلِكَ إِلَّا يَبَيِّنُهُ»⁽²⁾.

روى الشافعي في الأم: «أَنَّ عبدَ اللَّهِ، وعُبَيْدَ اللَّهِ، ابني عُمر بن الخطَّاب -رضي الله عنهما- خرجا في جيش إلى العراق، فلَمَّا قفلا مرًّا بعامِلٍ لِعُمر ﷺ فرحَّبَ بهما وسَهَّلَ، وهو أميرُ البصرة، وقال: لو أَقْدَرُ لَكُما على أمرٍ أَنْفَعُكُما به لَفَعَلْتُ، ثُمَّ قال: بلى، ها هُنَا مالٌ من مالِ اللَّهِ، أُرِيدُ أَنْ أَبْعَثَ به إلى أميرِ الْمُؤْمِنِينَ، فَأُسَلِّفُكُماهُ فِتْبَتاعانِ به متاعاً من متاعِ العراق، ثُمَّ تَبِيعانِهِ بالمدينة، فَتَوَدَّيانِ رأسَ المالِ إلى أميرِ الْمُؤْمِنِينَ ويَكُونُ لَكُما الرِّبْحُ، فقالا: وددنا، ففعل، فكتب لهُما إلى عُمر ﷺ أَنْ يأخُذَ مِنْهُما المالَ، فلَمَّا قدما المدينة باعا فربحاً، فلَمَّا دفعاهُ إلى عُمر قال لهُما: أَكُلْ الجيشَ قد أسلفهُ كما أسلفُكُما؟ فقالا: لا، فقال عُمر ﷺ: ابنا أميرِ الْمُؤْمِنِينَ فأَسلفُكُما، أدِّيا المالَ وربحهُ، فأَمَّا عبدُ اللَّهِ فسَكَتَ، وأَمَّا عُبيدُ اللَّهِ فقال: ما ينبغي لك هذا يا أميرِ الْمُؤْمِنِينَ، لو هلك هذا المالُ أو نقص لضمناهُ، فقال: أدِّياه، فسَكَتَ عبدُ اللَّهِ وراجعه عُبيدُ اللَّهِ، فقال رجلٌ من جُلُساءِ عُمر ﷺ: يا أميرِ الْمُؤْمِنِينَ،

(1) أخرجه البيهقي، السنن الكبرى، جماع أبواب تفريق ما أخذ من أربعة أخماس الفيء غير الموجف عليه، باب الاختيار في التعجيل بقسمة مال الفيء إذا اجتمع، رقم (13033).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (16013)، ج 25 ص 394-395. قال محققوه: إسناده ضعيف، لجهالة أبي سباع، فإن كان صحابياً فلا تضر جهالته.

لو جعلته قراضاً، فأخذ عُمرُ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ عبدُ الله وعُبيدُ الله نصف ربح ذلك المال»⁽¹⁾.

وهذه أمانة الحاكم الذي يسهر على مال الأمة فلا يحابي فيه صديقاً ولا قريباً. وكذلك كان سلف الأمة: فهذا ابن المبارك -رحمه الله- يقول: «استعرت قلمًا بأرض الشام، فذهبت على أن أردّه، فلما قدمت مرو نظرت فإذا هو معي، فرجعت إلى الشام حتى رددته على صاحبه»⁽²⁾.

(1) أخرجه الإمام الشافعي، الأم، ج 4 ص 34.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 8 ص 395.

من أعظم ما يتخلق به العبد مع ربه ﷻ الإخلاص له، فلا يعمل عملاً مما يبتغى به وجه الله إلا لله، ويبعد عن الرياء والسמعة في كل حال.

تعريف الإخلاص:

الإخلاص في اللغة: يدور حول ظلال معنى «التنقية، والتهذيب، والصفاء». وفي الاصطلاح: «الإخلاص: أن يفعل المكلف الطاعة خالصةً لله وحده، ولا يريد بها تعظيمًا من الناس ولا جلبَ نفعٍ ديني ولا دفعَ ضررٍ دنيوي»⁽¹⁾.

أهمية الإخلاص:

تظهر أهمية الإخلاص في النقاط التالية:

1 - الإخلاص الأمر الأول من الله تعالى لجميع عباده، قال ﷻ عن أهل الكتاب: ﴿وَمَا أَمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ [البينة:5].

وقال ﷻ: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ﴾ [الزمر:2].

2 - وهو حق الله الأول على عباده، جاء في الحديث أن الإخلاص هو حق الله على عباده، فعن معاذ بن جبل ؓ قَالَ: كُنْتُ رَدَفَ النَّبِيِّ ﷺ عَلَى حِمَارٍ يُقَالُ لَهُ: عُفَيْرٌ، فَقَالَ ﷺ: «يَا مُعَاذُ هَلْ تَذَرِي مَا حَقَّ اللَّهُ عَلَى عِبَادِهِ، وَمَا حَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ؟» قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّ حَقَّ اللَّهِ عَلَى الْعِبَادِ أَنْ يَعْبُدُوهُ وَلَا يُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وَحَقُّ الْعِبَادِ عَلَى اللَّهِ أَلَّا يُعَذِّبَ مَنْ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»⁽²⁾.

وعباد الله من غير إشراك هي الإخلاص، عن محمود بن لبيد ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ أَخَوْفَ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ». قَالُوا: وَمَا الشِّرْكَ الْأَصْغَرُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «الرِّيَاءُ، يَقُولُ اللَّهُ ﷻ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: إِذَا جَزَى النَّاسُ

(1) عز الدين عبد العزيز بن عبد السلام السلمي، قواعد الأحكام في مصالح الأئام، (بيروت: دار المعرفة)، ج1 ص123.

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجهاد والسير، باب اسم الفرس والحمار، رقم (2856). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب من لقي الله بالإيمان وهو غير شاك فيه دخل الجنة وحرّم على النار، رقم (48).

بِأَعْمَالِهِمْ: اذْهَبُوا إِلَى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُرَاءُونَ فِي الدُّنْيَا، فَانظُرُوا هَلْ تَجِدُونَ عِنْدَهُمْ جَزَاءً»⁽¹⁾.

3 - الإخلاص الركن الأول لقبول العمل، ثبت بالكتاب والسنة واتفاق الأئمة أن من

عمل الأعمال بغير إخلاص لله لم يُقبل منه ذلك، فعن عمر رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى دُنْيَا يُصِيبُهَا، أَوْ إِلَى امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا، فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ»⁽²⁾.

وعن أبي أمامة رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَقْبَلُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ لَهُ خَالِصًا، وَابْتِغَايَ بِهِ وَجْهَهُ»⁽³⁾.

وسئل الفضيل بن عياض -رحمه الله- عن تفسير: ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ من قوله ﷺ: ﴿لِيَبْلُوكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: 7، والملك: 2]، فَقَالَ: «أَحْسَنُ الْعَمَلِ أَخْلَصُهُ وَأَصَوْبُهُ، قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ إِذَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: إِذَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ»⁽⁴⁾.

ولابن الجوزي -رحمه الله- تشبيه جميل للإخلاص والعمل، حيث يقول: «العمل صورة والإخلاص روح، إذا لم تخلص فلا تتعب، فلو قطعت سائر المنازل لم تكن حاجبًا إلا بشهود الموقف، ولا تغتر بصورة الطاعات، فَإِنَّ خِصْمَ الْإِخْلَاصِ إِذَا جَاءَ عِنْدَ حَاكِمِ الْجَزَاءِ أَلْزَمَ الْحَبْسَ عَنِ الْقَبُولِ»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (23630)، ج 39 ص 39. وهو حديث حسن.

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي، رقم (1)، وفي غير هذا الموطن. ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإمارة، باب قوله ﷺ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّةِ»، وأنه يدخل فيه الغزو وغيره من الأعمال، رقم (1907).

(3) أخرجه النسائي، السنن، كتاب الجهاد، باب مَنْ غَزَا يَلْتَمِسُ الْأَجْرَ وَالذِّكْرَ، رقم (3140). «إسناده حسن».

(4) رواه الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 8 ص 95.

(5) جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن ابن الجوزي، البواقيب الجوزية في المواعظ النبوية، تحقيق: السيد عبد المقصود، (بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، ط 1، 1988م)، ص 77.

ولعل ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله-، صاحب الحكم المعروفة بـ «الحكم العطائية»، قد تَرَجَّم قول ابن الجوزي في حِكْمَةٍ من حِكَمِهِ، عندما قال: (الْأَعْمَالُ صُورٌ قَائِمَةٌ، وَأَزْوَاحُهَا وَجُودٌ سِرٌّ الْإِخْلَاصُ فِيهَا)⁽¹⁾.

4 - حرص السلف على الإخلاص: ومن نماذج حرصهم على النِّيَّةِ الصالحة وإخلاص القصد لله ﷻ ما روي أَنَّ أحدهم ما كان يعمل العمل إلا إذا أحضر لله النِّيَّةَ، فهذا سيدنا عمر بن الخطاب ؓ يَسْأَلُ اللهَ أَنْ يجعل عمله خالصاً بهذا الدعاء: (اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، واجعله لوجهك خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لِأَحَدٍ فِيهِ شَيْئًا)⁽²⁾.

ويصف هذا الحرص التابعي الجليل سفيان الثوري -رحمه الله- فيقول عن الصحابة ؓ: «كانوا يتعلمون النِّيَّةَ للعمل كما يتعلمون العمل»⁽³⁾.

ثمرات الإخلاص والنية الصادقة وآثارهما:

للإخلاص آثار وثمرات يجدها المخلص في حياته يمكننا أن نجملها في النقاط التالية:

1 - النجاة في الآخرة من عذاب الله تعالى: وهذا ما دلت عليه النصوص، فها هو القرآن الكريم يتوعد مَنْ انحرف عن منهج الله بالعذاب إلا المخلصين، المخلصين، قال تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَذَائِقُو الْعَذَابِ الْأَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَمَا تُحْزِنُونَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَ اللَّهِ الْمُخْلَصِينَ﴾ [الصافات: 38-40]، فقد قرأ الآية الأخيرة قراء المدينة والكوفة ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام، يعني: الذين أخلصهم الله لطاعته ودينه وولايته. وقرأها الباقر بكسر اللام ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾، أي: الذين أخلصوا لله العبادة⁽⁴⁾.

2 - الطمأنينة والسكينة في حياة المخلص: قال ﷺ: ﴿صَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: 29].

(1) محمد بن إبراهيم بن عباد النفري الرندي، غيث المواهب العلية في شرح الحكم العطائية، تحقيق: خليل المنصور، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1998م)، ص19.

(2) محمد جمال الدين القاسمي، محاسن التأويل، تحقيق: محمد باسل عيون السود، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1997م)، ج3 ص155.

(3) محمد بن محمد الحسيني الزبيدي، إتحاف السادة المتقين بشرح إحياء علوم الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ج13 ص20.

(4) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، ج15 ص76.

وعن أنس رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «مَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الْآخِرَةِ جَعَلَ اللَّهُ غِنَاهُ فِي قَلْبِهِ، وَجَمَعَ شَمْلَهُ، وَأَتَتْهُ الدُّنْيَا وَهِيَ رَاغِمَةٌ، وَمَنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ طَلَبَ الدُّنْيَا جَعَلَ اللَّهُ الْفَقْرَ بَيْنَ عَيْنَيْهِ، وَسَتَّتْ عَلَيْهِ أَمْرُهُ، وَلَا يَأْتِيهِ إِلَّا مَا كُتِبَ لَهُ» (1).

3 - حياة القلب: عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «ثَلَاثٌ لَا يَغِلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ، وَلُزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيَّطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ» (2).

4 - الحفظ من الذنوب ومغفرتها لمن وقع فيها: لقد أعطانا الله في كتابه مثلاً جلياً على ذلك، حيث قال ﷺ بعد أن صرف عن نبيه يوسف عليه السلام المعصية: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهْ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَنْ رَأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ﴾ [يوسف: 24] (قُرأت) ﴿الْمُخْلَصِينَ﴾ بفتح اللام وبكسرها). وإضافة إلى ذلك، فَإِنَّ الإِخْلَاصَ سبَبٌ مِنْ أَسْبَابِ مَغْفِرَةِ الذُّنُوبِ، فكلنا يعرف حديث النَّبِيِّ ﷺ عن الرجل الذي وجد في الطريق غصن شوك على الأرض فأخره عنها فشكر الله له فغفر له (3).

وحديث النَّبِيِّ ﷺ عن المرأة البغي التي سقت كلباً يلهث فغفر الله لها (4).

5 - الحفظ من الشيطان: قال تعالى حكاية عن إبليس: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمٍ يُبْعَثُونَ﴾ (٥) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ (٦) إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٧) قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ

(1) أخرجه الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 6 ص 307 و 308، وابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الهم بالدنيا، رقم (4105)، عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (13350)، ج 21 ص 60-61، وعن جبير بن مطعم عن أبيه، رقم (16738)، ج 27 ص 300-3001. وابن ماجه، السنن، المقدمة، باب من بلغ علماً، رقم (230)، عن زيد بن ثابت. وعن جبير بن مطعم عن أبيه، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر رقم (3056)، والحديث صحيح لتعدد طرقه.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، أبواب صلاة الجماعة والإمامة، باب فضل التهجير إلى الظهر، رقم (652). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة، باب فضل إزالة الأذى عن الطريق، رقم (1914). قال أبو العباس القرطبي: «قوله: «فَشَكَرَ اللَّهُ لَهُ فَعَفَّرَ لَهُ» أي: أظهر ما جازاه به عند ملائكته، وأنتى عليه عندهم. وقد قَدَّمنا: أن أصل الشكر: الظهور». (القرطبي، المفهم لما أشكل من تلخيص كتاب مسلم، ج 5 ص 545).

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (3467). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب السلام، باب فضل ساقى البهائم المحترمة وإطعامها، رقم (2245).

﴿الْمُخْلِصِينَ﴾ [الحجر: 36-40]، فَلَمَّا عَلِمَ عَدُوُّ اللَّهِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَسْلُطُهُ عَلَى أَهْلِ التَّوْحِيدِ وَالْإِخْلَاصِ قَالَ: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ ٣٦ قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ٣٧ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ٣٨ قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَا أُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ٣٩ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمْ الْمُخْلِصِينَ﴾ [ص: 79-83].

6 - من آثار الإخلاص على العبد المخلص تفريج الكرب والنجاة من المصائب، وهذا ما نفهمه من قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِّ وَجَرْتُمْ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَجَبْنَاهُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾ [يونس: 22-23].

وكذلك حديث الثلاثة الذين أوى بهم المبيت إلى الغار، فعن ابن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انطلق ثلاثة رهطٍ ممَّنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حَتَّى أَوْوَا الْمَبِيتَ إِلَى غَارٍ فَدَخَلُوهُ فَانْحَدَرَتْ صَخْرَةٌ مِنَ الْجَبَلِ فَسَدَّتْ عَلَيْهِمُ الْغَارَ، فَقَالُوا: إِنَّهُ لَا يُنْجِيكُمْ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ إِلَّا أَنْ تَدْعُوا اللَّهَ بِصَالِحِ أَعْمَالِكُمْ. فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أَرْحُ عَلَيْهِمَا حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْبِقُ قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاطَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ. فَانْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ». قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الْآخَرُ: اللَّهُمَّ كَانَتْ لِي بِنْتُ عَمٍّ كَانَتْ أَحَبَّ النَّاسِ إِلَيَّ فَأَرَدْتُهَا عَنْ نَفْسِهَا فَأَمْتَنَعَتْ مِنِّي حَتَّى أَلَمْتُ بِهَا سَنَةً مِنْ السَّنِينَ فَجَاءَتْنِي فَأَعْطَيْتُهَا عَشْرِينَ وَمِائَةً دِينَارٍ عَلَى أَنْ تُخَلِّيَ بَيْنِي وَبَيْنَ نَفْسِهَا فَفَعَلَتْ حَتَّى إِذَا قَدَرْتُ عَلَيْهَا قَالَتْ: لَا أَجِلُ لَكَ أَنْ تَفْضُ الْخَاتَمَ إِلَّا بِحَقِّهِ، فَتَحَرَّجْتُ مِنَ الْوُقُوعِ عَلَيْهَا، فَأَنْصَرَفْتُ عَنْهَا وَهِيَ أَحَبُّ النَّاسِ إِلَيَّ وَتَرَكْتُ الذَّهَبَ الَّذِي أُعْطَيْتُهَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَافْرِجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ. فَانْفَرَجَتْ الصَّخْرَةُ غَيْرَ أَنَّهُمْ لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ مِنْهَا».

قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «وَقَالَ الثَّالِثُ: اللَّهُمَّ إِنِّي اسْتَأْجَرْتُ أَجْرَاءَ فَأَعْطَيْتُهُمْ أَجْرَهُمْ غَيْرَ رَجُلٍ وَاحِدٍ تَرَكَ الَّذِي لَهُ وَذَهَبَ فَنَمَرْتُ أَجْرَهُ حَتَّى كَثُرَتْ مِنْهُ الْأَمْوَالُ فَجَاءَنِي بَعْدَ حِينٍ فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ أَدِّ إِلَيَّ أَجْرِي. فَقُلْتُ: لَهُ كُلُّ مَا تَرَى مِنْ أَجْرِكَ مِنَ الْإِبِلِ وَالْبَقَرِ وَالْغَنَمِ وَالرَّقِيقِ، فَقَالَ: يَا عَبْدَ اللَّهِ لَا تَسْتَهْزِئْ بِي! فَقُلْتُ: إِنِّي لَا أَسْتَهْزِئُ بِكَ. فَأَخَذَهُ كُلَّهُ فَاسْتَأَقَهُ فَلَمْ يَتْرُكْ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ فَإِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءَ وَجْهِكَ فَافْرُجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ، فَانْفَرَجَتِ الصَّخْرَةُ فَخَرَجُوا يَمْشُونَ»⁽¹⁾.

7 - النصر والتمكين في الأرض: فعن سعد ؓ أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قال: «إِنَّمَا يَنْصُرُ اللَّهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِضَعِيفِهَا، بِدَعْوَتِهِمْ وَصَلَاتِهِمْ وَإِخْلَاصِهِمْ»⁽²⁾.

وجاء عن أَبِي بِنِ كَعْبٍ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قال: «بَشَّرَ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالسَّنَاءِ، وَالرَّفْعَةِ، وَالنَّصْرِ، وَالتَّمْكِينِ فِي الْأَرْضِ، فَمَنْ عَمِلَ مِنْهُمْ عَمَلَ الْآخِرَةِ لِلدُّنْيَا، لَمْ يَكُنْ لَهُ فِي الْآخِرَةِ نَصِيبٌ»⁽³⁾، فالسنة والرفعة والتمكين من حظ أولياء الله المخلصين.

8 - البركة في الأعمار والأعمال: شَكَّى ثَلَاثَةٌ مِنْ طُلَّابِ الْعِلْمِ فِي أَيَّامِ السَّلَفِ إِلَى شَيْخِهِمْ حَمْدُونَ بْنِ أَحْمَدَ النِّيسَابُورِيِّ -رَحِمَهُ اللَّهُ- فَقَالُوا: مَا بِأَلْ كَلَامِ السَّلَفِ

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، أو من عمل في مال غيره، فاستفضل، رقم (2272). وكتاب أحاديث الأنبياء، باب حديث الغار، رقم (3465). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (2743).

(2) أخرجه النسائي، السنن، كتاب الجهاد، الاستنصار بالضعيف، رقم (3178)، وهو حديث صحيح.

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (21222)، ج 35 ص 146، وقال محققه: إسناده حسن. وأخرجه الحاكم، المستدرک، رقم (7895)، ج 4 ص 354، وقال: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ»، ووافقه الذهبي. وأخرجه الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 10 ص 29. والحديث صحيح. ومعنى الحديث: «بشّر هذه الأمة بالسنة، بالفتح والمدة، أي: بارتفاع المنزلة والقدرة عند الله ﷻ. «والدين» أي: التمكن فيه. «والرفعة» أي: العلو في الدارين. «والنصر» على الأعداء. «والتمكن في الأرض فمن عمل منهم عمل الآخرة للدنيا» أي: جعل عمله الآخري وسيلة إلى تحصيلها. «لم يكن له في الآخرة من نصيب» لأنه لم يعمل لها». (علي بن أحمد بن نور الدين العريزي، السراج المنير شرح الجامع الصغير في حديث البشير النذير، (مصر: المطبعة الخيرية، 1304هـ)، ج 3 ص 6).

أَنْفَعُ مِنْ كَلَامِنَا؟ قَالَ: لَأَنْتُمْ تَكَلِّمُوا لِعِزِّ الْإِسْلَامِ، وَنَجَاةِ النُّفُوسِ، وَرِضَا الرَّحْمَنِ، وَنَحْنُ نَتَكَلَّمُ لِعِزِّ النُّفُوسِ، وَطَلَبِ الدُّنْيَا، وَرِضَا النَّاسِ»⁽¹⁾.

وروي أَنَّ الإمام الماوردي - رحمه الله - لم يظهر من تصانيفه شيئاً في حياته، وكان قد جمعها في موضع، فلما دنت منيته قال لمن يثق به: «الكتبُ التي في المكانِ الفلاني كلها تصانيفي، وإنَّما لم أظهرها لأنِّي لم أجد نيةً خالصةً، فإذا عاينتُ الموتَ وقعتُ في النزاع فاجعل يدك في يدي، فإنَّ أنا قبضتُ عليها وعصرتها فاعلم أَنَّهُ لم يَقْبَلْ مِنِّي شيءٌ منها، فاعمُدْ إليها وألقها في دجلة، وإنَّ أنا بسطتُ يدي فاعلم أَنَّهَا قُبِلَتْ».

قال الرجل: «فلما احتضر وضعتُ يدي في يده فبسطها، فأظهرتُ كتبه»⁽²⁾.

9 - النجاة من الفتن: فعن معاذ رضي الله عنه أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ قَالَ: «الْيَسِيرُ مِنَ الرِّيَاءِ شَرُّهُ، وَمَنْ عَادَى أَوْلِيَاءَ اللَّهِ فَقَدْ بَارَزَ اللَّهَ بِالْمُحَارَبَةِ، إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْأَبْرَارَ الْأَتْقِيَاءَ الْأَخْفِيَاءَ، الَّذِينَ إِنْ غَابُوا لَمْ يُفْتَقَدُوا، وَإِنْ حَضَرُوا لَمْ يُعْرَفُوا، قُلُوبُهُمْ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَخْرُجُونَ مِنْ كُلِّ غَبْرَاءٍ مُظْلِمَةٍ»⁽³⁾⁽⁴⁾.

وعنهم يقول الإمام علي رضي الله عنه: (طُوبَى لِكُلِّ عَبْدٍ نُؤْمَةٍ، عَرَفَ النَّاسَ وَلَمْ يَعْرِفْهُ النَّاسُ، عَرَفَهُ اللَّهُ بِرِضْوَانٍ، أُولَئِكَ مَصَابِيحُ الْهُدَى، يَكْشِفُ اللَّهُ عَنْهُمْ كُلَّ فِتْنَةٍ مُظْلِمَةٍ، سَيَدْخُلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ، لَيْسَ أَوْلَئِكَ بِالْمَذَابِيحِ الْبَذَرِ، وَلَا الْجَفَاءِ الْمُرَائِيْنَ)⁽⁵⁾، أي الذي يفشي السر ويطلع الناس على أحواله.

(1) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 4 ص 122.

(2) ابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 4 ص 122.

(3) «يخرجون من كل غبراء مظلمة» أي: من عهدة كل مسألة مشكلة، أو بلية معضلة. (القاري، مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح، ج 8 ص 3339).

(4) أخرجه الحاكم، المستدرک، رقم (4)، ج 1 ص 4، وحديث رقم (7933)، ج 4 ص 328، وقال صحيح لا علة فيه، ووافقه الذهبي.

(5) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 1 ص 76.

كان من دعاء عُمَرُ بْنِ الْخَطَّابِ (رضي الله عنه): (اللَّهُمَّ اجْعَلْ عَمَلِي كُلَّهُ صَالِحًا، وَاجْعَلْهُ لَكَ خَالِصًا، وَلَا تَجْعَلْ لغيرِكَ مِنْهُ شَيْئًا، اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ ظُلْمِ خَلْقِكَ إِيَّايَ، وَأَسْأَلُكَ الْعَافِيَةَ مِنْ ظُلْمِي إِيَّاهُمْ) (1).

وجاء في «البداية والنهاية» لابن كثير - رحمه الله - أن طَلْحَةَ بْنَ عُبَيْدِ اللَّهِ (رضي الله عنه) قال: (خَرَجَ عُمَرُ لَيْلَةً فِي سَوَادِ اللَّيْلِ، فَدَخَلَ بَيْتًا، فَلَمَّا أَصْبَحْتُ ذَهَبْتُ إِلَى ذَلِكَ الْبَيْتِ، فَإِذَا عَجُوزٌ عَمِيَاءُ مُقْعَدَةٌ، فَقُلْتُ لَهَا: مَا بَالُ هَذَا الرَّجُلِ يَأْتِيكَ؟ فَقَالَتْ: إِنَّهُ يَتَعَاهَدُنِي مُدَّةَ كَذَا وَكَذَا، يَأْتِينِي بِمَا يُصْلِحُنِي وَيُخْرِجُ عَنِّي الْأَذَى. فَقُلْتُ لِنَفْسِي: تَكَلَّمْتَ أُمُّكَ يَا طَلْحَةُ أَعْتَرَاتِ عُمَرَ تَتَّبِعُ!) (2).

فمن حرص عمر (رضي الله عنه) على الإخلاص كان يُسَرُّ عمله، وهو الخليفة، لمدة طويلة.

زين العابدين علي بن الحسين:

جاء في «حلية الأولياء» أمثلة عدة على مدى حرص زين العابدين (رضي الله عنه) على الإخلاص، من ذلك: أنه (رضي الله عنه) كان يحمل جراب الخبز على ظهره بالليل فيتصدق به، ويقول (رضي الله عنه): «إِنَّ صَدَقَةَ السِّرِّ تَطْفِئُ غَضَبَ الرَّبِّ (رضي الله عنه)».

وكان (رضي الله عنه) يُبْخَلُّ، فلما مات وجدوه يقوت مائة أهل بيت بالمدينة.

ولما مات وجدوا بظهره آثارًا مما كان يحمل بالليل الجُربُ إلى المساكين.

وعن عمرو بن ثابت قال: لما مات علي بن الحسين فغسلوه جعلوا ينظرون إلى آثار سواد بظهره، فقالوا: ما هذا؟ فقل: كان يحمل جُربَ الدقيق ليلاً على ظهره يعطيه فقراء أهل المدينة.

وعن محمد بن إسحاق قال: كان ناس في المدينة يعيشون لا يدرون من أين كان معاشهم، فلما مات علي بن الحسين فقدوا ما كانوا يؤتون به في الليل (3).

(1) أخرجه الشيخ الأصبهاني، طبقات المحدثين بأصبهان والواردين عليها، تحقيق: عبد الغفور البلوشي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط 1992م)، ج 4 ص 261.

(2) أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير، البداية والنهاية، تحقيق: عبد الله التركي، (مصر: دار هجر للطباعة، ط 1997م)، ج 10 ص 185.

(3) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 3 ص 135-136.

فانظر إلى حرصه ﷺ على إخفاء عمله وعدم إظهاره حتى يكون خالصاً لله تعالى.

الثالث - ابن المبارك:

ومن تلك الحكايات الطيبات ما جاء في سيرة شيخ الإسلام أبي عبد الرحمن عبد الله بن المبارك.

كان ابن المبارك كثير الاختلاف إلى طرسوس (مدينة جنوب تركيا)، وكان ينزل الرقة (مدينة في سوريا) في خان، فكان شاب يختلف إليه ويقوم بحوائجه ويسمع منه الحديث، فقدم عبد الله مرة فلم ير الشاب، فخرج في النفير مستعجلاً، فلما رجع سأل عن الشاب، فقيل له: إنه محبوبس على عشرة آلاف درهم، فاستدل على الغريم، ووزن له عشرة آلاف وحلّقه ألا يخبر أحداً ما عاش، فأخرج الرجل، وسرى ابن المبارك، فلحقه الفتى على مرحلتين من الرقة، فقال له ابن المبارك: يا فتى أين كنت؟ لم أرك. قال الشاب: يا أبا عبد الرحمن كنت محبوبساً بدين. قال: وكيف خلصت؟ قال: جاء رجل فقضى ديني ولم أر من هو. قال ابن المبارك: فاحمد الله. ولم يعلم الرجل إلا بعد موت عبد الله⁽¹⁾.

وجاء فيهما أيضاً عن عبدة بن سليمان المروزي أنه قال: «كنا سرية مع ابن المبارك في بلاد الروم فصادفنا العدو، فلما التقى الصفان خرج رجل من العدو، فدعا إلى البراز، فخرج إليه رجل فقتله، ثم آخر فقتله، ثم آخر فقتله، ثم دعا إلى البراز فخرج إليه رجل فطارده ساعة وطعنه فقتله، فازدحم الناس، فنظرت فإذا هو عبد الله بن المبارك، وإذا هو يكتم وجهه بكمه كي لا يُعرف، فأخذت بطرف كمه فمددته فإذا هو هو، فقال -رحمه الله-: وأنت يا أبا عمرو ممن يُشنع علينا»⁽²⁾.

يرحمك الله يا أبا عبد الرحمن، تعتبر معرفة الناس لهذا العمل تشنيعاً عليك.

محمد بن أسلم الطوسي:

ومنها ما جاء في سيرة الإمام، الحافظ، الرباني، شيخ الإسلام، أبو الحسن محمد بن أسلم بن سالم الطوسي، توفي سنة 242هـ⁽³⁾.

(1) أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد وذيوله، تحقيق: مصطفى عطا، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 1997م)، ج10 ص158-159. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج7 ص607.

(2) الخطيب البغدادي، تاريخ بغداد، ج10 ص168. والذهبي، سير أعلام النبلاء، ج8 ص394-395.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج12 ص197.

قيل لأحمد بن نصر: يا أبا عبد الله صلّى على محمد بن أسلم ألف ألف ومائة ألف من النَّاس، يقول صالحهم وطالحهم لم نعرف لهذا الرجل نظيرًا. فقال أحمد بن نصر -رحمه الله-: «يا قوم أصلحوا سرائركم بينكم وبين الله، ألا ترون رجلاً دخل بيته بطوس فأصلح سره بينه وبين الله، ثم نقله الله إلينا، فأصلح الله على يديه ألف ألف ومائة ألف من النَّاس»⁽¹⁾.

وهذا تلميذه وخادمه يحكي تفاصيل هذا الإصلاح، قال أبو عبد الله محمد بن القاسم الطوسي -رحمه الله-: «صحبْتُ محمدَ بنَ أسلمَ نيفًا وعشرين سنةً لم أَره يصلي حيثُ أراه ركعتين من التطوع إلا يوم الجمعة، ولا يُسبح ولا يقرأ حيثُ أراه، ولم يكن أحدٌ أعلم بسرّه وعلائيته مني.

وسمعته يحلف كذا وكذا مرة: أن لو قدرت أن أتطوع حيث لا يراني ملكاي لفعلت، ولكن لا أستطيع ذلك، خوفًا من الرياء.

وكان -رحمه الله- يصلُّ قومًا ويعطيهم ويكسوهم، فبيعتُ إليهم ويقول للرسول: انظر ألا يعلموا من بعثه إليهم، فيأتيهم هو بالليل فيذهب به إليهم، ويخفي نفسه، فربما بليت ثيابهم ونفد ما عندهم ولا يدرون من الذي أعطاهم»⁽²⁾.

(1) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 9 ص 240-241.

(2) الأصفهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 9 ص 243. وابن الجوزي، صفة الصفوة، ج 4 ص 126-

من أهم مميزات أمة الإسلام التماسك والترابط المبني على الأخوة في الله ﷻ: قال ﷻ: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: 10].

ولقد أثنى الله في قرآنٍ يُتلى إلى يوم القيامة على أهل المدينة من الأنصار بسبب سلامة صدورهم، ومجدهم ﷻ لاتصافهم بهذه الصفة، يقول ﷻ: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّؤُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَحْنًا نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

وكذلك وصف ﷻ من جاؤوا من بعدهم بالبعد عن الغل والتزام سبيل السلف في سلامة الصدر: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10].

إن كثيراً من الناس اليوم يتورع عن أكل الحرام أو النظر الحرام ويترك قلبه يرتع في مهاوي الحقد والضغينة والحسد والغل.

معنى سلامة الصدر:

سلامة الصدر تعني: خلو القلب من الغل والحقد والحسد على إخوانه المسلمين، وأن يكون قلبه تجاههم سليماً.

أهمية سلامة الصدر:

1 - سلامة الصدر صفة من صفات أهل الجنة، قال تعالى فيهم: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي

صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرَى مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ﴾ [الأعراف: 43].

وفي وصف أول زمرة تلج الجنة قال رسول الله ﷺ: «أَوَّلُ زُمْرَةٍ تَلْجُ الْجَنَّةَ صُورَتُهُمْ عَلَى صُورَةِ الْقَمَرِ لَيْلَةَ الْبَدْرِ، لَا يَبْصُقُونَ فِيهَا وَلَا يَمْتَخِطُونَ وَلَا يَتَغَوِّطُونَ، آيِبَتُهُمْ فِيهَا الذَّهَبُ، أَمْشَاطُهُمْ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ، وَمَجَامِرُهُمُ الْأَلْوَةُ، وَرَشْحُهُمُ الْمِسْكُ، وَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ رَوْحَتَانِ يَرَى مَخُ سَوْقَهُمَا مِنْ وَرَاءِ اللَّحْمِ مِنَ الْحُسْنِ، لَا اخْتِلَافَ بَيْنَهُمْ وَلَا تَبَاغُضَ، قُلُوبُهُمْ قَلْبٌ وَاحِدٌ، يُسَبِّحُونَ اللَّهَ بُكْرَةً وَعَشِيًّا»⁽¹⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإجارة، باب: ما جاء في صفة الجنة وأنها مخلوقة، رقم (3073).

2 - سَلَامَةُ الصَّدْرِ مِنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ، قَالَ ابْنُ رَجَبٍ -رحمه الله-: «أَفْضَلُ الْأَعْمَالِ سَلَامَةُ الصَّدْرِ مِنْ أَنْوَاعِ الشَّحْنَاءِ كُلِّهَا، وَأَفْضَلُهَا السَّلَامَةُ مِنْ شَحْنَاءِ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ وَالْبِدَعِ، الَّتِي تَقْتَضِي الطَّعْنَ عَلَى سَلَفِ الْأُمَّةِ، وَبُغْضَهُمْ وَالْحَقْدَ عَلَيْهِمْ، وَاعْتِقَادَ تَكْفِيرِهِمْ أَوْ تَبْدِيعِهِمْ وَتَضْلِيلِهِمْ، ثُمَّ يَلِي ذَلِكَ سَلَامَةُ الْقَلْبِ مِنَ الشَّحْنَاءِ لِعُمُومِ الْمُسْلِمِينَ، وَإِرَادَةُ الْخَيْرِ لَهُمْ، وَنَصِيحَتُهُمْ، وَأَنْ يَجِبَ لَهُمْ مَا يَجِبُ لِنَفْسِهِ، وَقَدْ وَصَفَ اللَّهُ تَعَالَى الْمُؤْمِنِينَ عُمُومًا بِأَنَّهُمْ يَقُولُونَ: ﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحشر: 10]»⁽¹⁾.

ثمرات سلامة الصدر:

سلامة الصدر خصلة عظيمة يغفل عن معرفة فضلها كثير من المسلمين ويجهلونها:

1 - الفلاح والنجاة في الآخرة: فإنه لا ينجو يوم القيامة إلا صاحب القلب السليم، كما قال ربنا ﷺ حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ ^(٨٧) يَوْمَ لَا يَنْفَعُ مَالٌ وَلَا بَنُونَ ^(٨٨) إِلَّا مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿ [الشعراء: 87-89].

والمراد بالقلب السليم هاهنا: ذلك القلب الذي سلم من الشرك كبيره وصغيره، وسلم من النفاق والبدعة، ومن الغل والحسد على إخوانه المؤمنين.

جاء في الحديث عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: (كُنَّا جُلُوسًا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمُ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَطَلَعَ رَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ تَنْطِفُ لِحْيَتُهُ مِنْ وُضُوئِهِ قَدْ تَعَلَّقَ نَعْلَيْهِ فِي يَدِهِ الشِّمَالِ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِثْلُ ذَلِكَ فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ مِثْلَ الْمَرَّةِ الْأُولَى، فَلَمَّا كَانَ الْيَوْمُ الثَّالِثُ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مِثْلُ مَقَالَتِهِ أَيْضًا فَطَلَعَ ذَلِكَ الرَّجُلُ عَلَى مِثْلِ حَالِهِ الْأُولَى».

فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ تَبَعَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرِو -رضي الله عنهما- الرجلَ فَقَالَ: «إِنِّي لَأَحِبُّ أَبِي فَأَقْسَمْتُ أَلَّا أَدْخُلَ عَلَيْهِ ثَلَاثًا، فَإِنْ رَأَيْتُ أَنْ تُؤْوِيَنِي إِلَيْكَ حَتَّى تَمْضِيَ فَعَلْتُ». قَالَ: نَعَمْ. قَالَ أَنَسُ ^(٨٩): وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ يُحَدِّثُ أَنَّهُ بَاتَ مَعَهُ تِلْكَ اللَّيَالِي الثَّلَاثَ فَلَمْ يَرَهُ يَقُومُ مِنَ اللَّيْلِ شَيْئًا غَيْرَ أَنَّهُ إِذَا تَعَارَى وَتَقَلَّبَ عَلَى فِرَاشِهِ ذَكَرَ اللَّهَ

(1) أبو الفرج عبد الرحمن بن أحمد بن رجب الحنبلي، لطائف المعارف فيما لمواسم العام من الوظائف، تحقيق: عامر ياسين، (الرياض: دار ابن خزيمة، ط1، 2007م)، ص 330-331.

﴿وَكَبَّرَ حَتَّى يَقُومَ لِصَلَاةِ الْفَجْرِ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ ﷺ: «غَيْرَ أَنِّي لَمْ أَسْمَعْهُ يَقُولُ إِلَّا خَيْرًا» فَلَمَّا مَضَتْ الثَّلَاثُ لَيْالٍ وَكِدْتُ أَنْ أَحْتَقِرَ عَمَلَهُ قُلْتُ: يَا عَبْدَ اللَّهِ إِنِّي لَمْ يَكُنْ بَيْنِي وَبَيْنَ أَبِي غَضَبٌ وَلَا هَجْرٌ ثُمَّ، وَلَكِنْ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ لَكَ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: «يَطْلُعُ عَلَيْكُمْ الْآنَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ»، فَطَلَعْتُ أَنْتَ الثَّلَاثَ مَرَّاتٍ فَأَرَدْتُ أَنْ أَوِيَ إِلَيْكَ لِأَنْظُرَ مَا عَمَلُكَ فَأَقْتَدَيْتُ بِهِ، فَلَمْ أَرَكَ تَعْمَلُ كَثِيرَ عَمَلٍ! فَمَا الَّذِي بَلَغَ بِكَ مَا قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ؟ فَقَالَ الرَّجُلُ -واسمه سعد كما في رواية البزار-: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، قَالَ عَبْدُ اللَّهِ: فَلَمَّا وَلَّيْتُ دَعَانِي، فَقَالَ: مَا هُوَ إِلَّا مَا رَأَيْتَ، غَيْرَ أَنِّي لَا أَجِدُ فِي نَفْسِي لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غِشًّا وَلَا أَحْسُدُ أَحَدًا عَلَى خَيْرٍ أَعْطَاهُ اللَّهُ إِيَّاهُ. فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: هَذِهِ الَّتِي بَلَغْتَ بِكَ وَهِيَ الَّتِي لَا نَطِيقُ(1).

2 - سلامة الصدر سبب في خيرية المسلم وفضله وحب النبي ﷺ له، فقد عد النبي ﷺ سلامة الصدر سبباً في خيرية المسلم وفضله على غيره، فعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو قَالَ: قِيلَ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ: أَيُّ النَّاسِ أَفْضَلُ؟ قَالَ: «كُلُّ مَخْمُومٍ الْقَلْبِ صَدُوقِ اللِّسَانِ» قَالُوا: صَدُوقُ اللِّسَانِ نَعْرِفُهُ فَمَا مَخْمُومُ الْقَلْبِ؟ قَالَ ﷺ: «هُوَ التَّقِيُّ النَّقِيُّ لَا إِثْمَ فِيهِ وَلَا بَغْيٍ وَلَا غِلٍّ وَلَا حَسَدٍ»(2).

3 - سلامة الصدر سبب في مغفرة الذنوب: يقول النبي ﷺ: «تُفْتَحُ أَبْوَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْاِثْنَيْنِ وَيَوْمَ الْخَمِيسِ فَيُغْفَرُ لِكُلِّ عَبْدٍ لَا يُشْرِكُ بِاللَّهِ شَيْئًا إِلَّا رَجُلًا كَانَتْ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَخِيهِ شَحْنَاءُ فَيُقَالُ: أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا أَنْظِرُوا هَذَيْنِ حَتَّى يَصْطَلِحَا»(3).

4 - الراحة وطمأنينة البال، قال ابن حزم الظاهري -رحمه الله-: «رَأَيْتُ أَكْثَرَ النَّاسِ -إِلَّا مِنْ عَصَمَ اللَّهُ وَقَلِيلٌ مَا هُمْ- يَتَعَجَّلُونَ الشَّقَاءَ وَالْهَمَّ وَالتَّعَبَ لِأَنْفُسِهِمْ فِي الدُّنْيَا، وَيَحْتَقِبُونَ عَظِيمَ الْإِثْمِ الْمَوْجِبَ لِلنَّارِ فِي الْآخِرَةِ بِمَا لَا يَحْظُونَ مَعَهُ بِنَفْعٍ أَصْلًا، مِنْ نِيَاتٍ خَبِيثَةٍ يَضْبُونَ عَلَيْهَا مِنْ تَمَنَّى الْغَلَاءِ الْمَهْلِكِ لِلنَّاسِ وَلِلصَّغَارِ وَمِنْ لَا ذَنْبَ لَهُ، وَتَمَنَّى أَشَدَّ الْبَلَاءِ لِمَنْ يَكْرَهُونَهُ، وَقَدْ عَلِمُوا يَقِينًا أَنَّ تِلْكَ النِّيَّاتِ الْفَاسِدَةَ لَا تَعْجَلُ لَهُمْ شَيْئًا مِمَّا يَتَمَنُّونَهُ أَوْ يَوْجِبُ كَوْنَهُ، وَأَنْتَهُمْ لَوْ صَفَوْا نِيَّاتَهُمْ وَحَسَنُوهَا لَتَعَجَّلُوا

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (12697)، ج 20 ص 124-125، وقال محققه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(2) أخرجه ابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الورع والتقوى، رقم (4216)، قال محققه: حديث صحيح.

(3) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب النهي عن الشحناء والتهاجر، رقم (2565).

الراحة لأنفسهم وتفرغوا بذلك لمصالح أمورهم، ولاقتنوا بذلك عظيم الأجر في المعاد من غير أن يؤخر ذلك شيئاً مما يريدونه أو يمنع كونه، فأَيُّ غَبْنٍ أعظم من هذه الحال التي نبهنا عليها؟ وأيُّ سعدٍ أعظم من الحال التي دعونا إليها»⁽¹⁾.

خطورة ترك هذا الخلق:

الحقد والغل والبغضاء من وسائل الشيطان، يقول ﷺ: «إِنَّ الشَّيْطَانَ قَدْ أَيْسَرَ أَنْ يَغْبُدَهُ الْمُصَلُّونَ فِي جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَلَكِنْ فِي التَّخْرِيشِ بَيْنَهُمْ»⁽²⁾، ولهذا فإنَّ دين الإسلام يسعى لعلاج بوادر الجفاء وما يثير البغضاء وينمي الشحناء.

أمثلة من حياة الأنبياء والصالحين:

ولقد ضرب لنا نبينا محمد ﷺ وإخوانه الأنبياء وسلف هذه الأمة ﷺ وعلماءها أروع الأمثلة في سلامة الصدور ونظافتها من الأحقاد والحسد والضغينة.

١ - سيدنا محمد ﷺ:

عن عائشة -رضي الله عنها- رَوَى النَّبِيُّ ﷺ: أَنَّهَا قَالَتْ لِلنَّبِيِّ ﷺ: هَلْ أَتَى عَلَيْكَ يَوْمٌ كَانَ أَشَدَّ مِنْ يَوْمٍ أُحَدِّدُ؟ قَالَ ﷺ: «لَقَدْ لَقِيتُ مِنْ قَوْمِكَ مَا لَقِيتُ، وَكَانَ أَشَدَّ مَا لَقِيتُ مِنْهُمْ يَوْمَ الْعَقَبَةِ، إِذْ عَرَضْتُ نَفْسِي عَلَى ابْنِ عَبْدِ يَالِيلَ بْنِ عَبْدِ كَلَالٍ، فَلَمْ يُجِبْنِي إِلَى مَا أَرَدْتُ، فَانْطَلَقْتُ وَأَنَا مَهْمُومٌ عَلَى وَجْهِي، فَلَمْ أَسْتَفِقْ إِلَّا وَأَنَا بِقَرْنِ الثَّعَالِبِ، فَرَفَعْتُ رَأْسِي، فَإِذَا أَنَا بِسَحَابَةٍ قَدْ أَظَلَّتْنِي، فَنَظَرْتُ فَإِذَا فِيهَا جَبْرِيلُ، فَنَادَانِي فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ قَدْ سَمِعَ قَوْلَ قَوْمِكَ لَكَ وَمَا رَدُّوا عَلَيْكَ، وَقَدْ بَعَثَ إِلَيْكَ مَلَكَ الْجِبَالِ لِتَأْمُرَهُ بِمَا شِئْتَ فِيهِمْ، فَنَادَانِي مَلَكُ الْجِبَالِ، فَسَلَّمَ عَلَيَّ ثُمَّ قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، فَقَالَ ذَلِكَ فِيمَا شِئْتَ، إِنَّ شِئْتَ أَنْ أَطْبِقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ! فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا»⁽³⁾.

(1) أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الأندلسي، الأخلاق والسير في مداواة النفوس، (بيروت: دار الأفاق الجديدة، 1979م)، ص 19.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، وبعثه سراياه لفتنة الناس، وأن مع كل إنسان قريناً، رقم (2812).

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب بدء الخلق، باب: إذا قال أحدكم: آمين، والملائكة في السماء، فوافقت إحداهما الأخرى، غفر له ما تقدم من ذنبه، رقم (3059). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الجهاد والسير، باب ما لقي النبي ﷺ من أذى المشركين والمنافقين، رقم (1795).

وفي مكة لما دخل المسجد الحرام وخطب بأهلها وأعلن فيها كلمة التوحيد وقضى على الأصنام، فقال ﷺ: «يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ، مَا تَرَوْنَ أَنِّي فَاعِلٌ فِيكُمْ؟»، قالوا: خيراً أخ كريم. قال ﷺ: «فإني أقول لكم، كما قال يوسف لإخوته: ﴿لَا تَثْرِبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ﴾ اذْهَبُوا فَأَنْتُمْ الطُّلَقَاءُ»⁽¹⁾.

2- الصحابة:

وقد كان الصحابة رضي الله عنهم قمة في سلامة الصدر والعفو، ولهذا أثنى الله ﷻ على الأنصار ومن تبعهم رضي الله عنهم بقوله: ﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُودْرِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شَخْخِ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9].

أبو دجانة رضي الله عنه: دخلوا عليه في مرضه ووجهه يتهلل! فقالوا له: ما لوجهك يتهلل؟ فقال: (ما من عمل شيء أوثق عندي من اثنتين: كنت لا أتكلم فيما لا يعنيني، وكان قلبي للمسلمين سليماً)⁽²⁾.

وابن عباس رضي الله عنه: يروى عنه أنه قال لرجل شتمه: (إنك لتشتمني وفي ثلاث خصال:

- إنني لآتي على الآية في كتاب الله ﷻ فلوددت أن جميع الناس يعلمون منها ما أعلم.
- وإنني لأسمع بالحاكم من حكام المسلمين يعدل في حكمه فأفرح به، ولعلي لا أقاضي إليه أبداً.

- وإنني لأسمع أن الغيث قد أصاب بلدًا من بلدان المسلمين فأفرح به، وما لي من سائمة!)⁽³⁾.

التابعون وعلماء الأمة:

ولقد سار التابعون والعلماء الربانيون على هذا الهدى، من الصفح والعفو وسلامة الصدر:

علي بن الحسين رضي الله عنه: قال أبو يعقوب المدني: «كان بين حسن بن الحسن وبين ابن عمه علي بن الحسين شيء، فما ترك حسن شيئاً إلا قاله، وعلي ساكت، فذهب حسن، فلما

(1) أبو عمر يوسف بن عبد الله بن عبد البر النمري، الاستذكار، تحقيق: سالم عطا، محمد معوض، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط1، 2000م)، ج5 ص152.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج1 ص243.

(3) أخرجه الطبراني، المعجم الكبير، رقم (10621)، ج10 ص266.

كان في الليل أتاه علي فخرج، فقال علي: يا بن عمي، إن كنت صادقًا فغفر الله لي، وإن كنت كاذبًا فغفر الله لك، السلام عليك، قال فالتزمه حسن وبكى حتى رثى له⁽¹⁾.

عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: عن مجاهد - رحمه الله - قال: قال لي عمر بن عبد العزيز - رحمه الله -: يا مجاهد، ما يقول الناس - يعني لما سُقي السم ☹️ -؟ قلت: يقولون: مسحور، قال: ما أنا بمسحور، ثم دعا غلامًا له، فقال: ويحك، ما حملك على أن سقيتني السم؟ قال: ألف دينار أعطيتها، وأن أُعتق، قال: هاتها، فجاء بها، فألقاها في بيت المال، وقال: اذهب حيث لا يراك أحد⁽²⁾.

الإمام مالك - رحمه الله -: قال أبو الوليد الباجي: روي أنَّ المنصور - رحمه الله - حج، فأقاد مالكا - رحمه الله - من جعفر بن سليمان الذي كان ضربه، فأبى مالك، وقال: معاذ الله⁽³⁾.

(1) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4 ص 397.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4 ص 453.

(3) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 8 ص 113.

تعريف الحياء:

تعريفه لغة: الحياء تغير وانكسار يعتري الإنسان من تخوُّف ما يعاب به ويذم. واشتقاقه من الحياة⁽¹⁾.

تعريفه اصطلاحاً: هو الخلق الذي يبعث ويحمل على ترك القبيح من الصفات والأفعال والأقوال، ويمنع من التقصير في حق الله المتفضل المنعم سبحانه، والتقصير في حق ذي الحق. فالحياء هنا أشبه بحجر كبير يعترض دربك حينما تهم النفس الأمارة بالسوء بالمشي في أحوال كل ما هو قبيح وذميم ومرفوض وبذيء.

أهمية الحياء ومكانته:

تظهر أهمية الحياء ومكانته في هذا الدين من خلال النقاط التالية:

1 - الله وَصَفَ نَفْسَهُ بِالْحَيَاءِ، وَصَفَ اللَّهُ نَفْسَهُ بِالْحَيَاءِ، وَهُوَ حَيَاءٌ مَحْمُولٌ عَلَى مَعْنَى يَلِيقُ بِهِ ﷻ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَا بَعُوضَةٌ فَمَا فَرَّقَهَا﴾ [البقرة: 26].

وروى سَلْمَانٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ حَيُّ كَرِيمٌ يَسْتَحْيِي إِذَا رَفَعَ الرَّجُلُ إِلَيْهِ يَدَيْهِ أَنْ يَرُدَّهُمَا صِفْرًا خَائِبَتَيْنِ»⁽²⁾.

2 - الحياء من صفات النبي ﷺ الحياء، قال أبو سعيد الخُدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (كَانَ النَّبِيُّ ﷺ: أَشَدَّ حَيَاءً مِنَ الْعَذْرَاءِ فِي خِدْرِهَا، فَإِذَا رَأَى شَيْئًا يَكْرَهُهُ عَرَفْنَاهُ فِي وَجْهِهِ)⁽³⁾.

3 - الحياء خلق يحبه الله تعالى، عَنْ يَعْلَى بْنِ أُمَيَّةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَيُّ سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتْرَ»⁽⁴⁾.

وقال النبي ﷺ لأشج عبد القيس: «إِنَّ فِيكَ خَصْلَتَيْنِ يُحِبُّهُمَا اللَّهُ: الْحِلْمَ وَالْحَيَاءَ»⁽⁵⁾.

(1) الزمخشري، الكشاف، ج 1 ص 112.

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الدعوات عن رسول الله ﷺ، رقم (3556). حديث صحيح.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المناقب، باب صفة النبي ﷺ، رقم (3369). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الفضائل، باب كثرة حيائه ﷺ، رقم (2320).

(4) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب الحمائم، باب النهي عن التعري، رقم (4012).

(5) أخرجه ابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب الحلم، رقم (4188).

- 4 - الحياء خلق الإسلام الأعظم، فعن أنس وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِنَّ لِكُلِّ دِينٍ خُلُقًا وَإِنَّ خُلُقَ الْإِسْلَامِ الْحَيَاءُ»⁽¹⁾.
- 5 - الحياء في الإسلام قرين الإيمان وجزؤه، قال النبي ﷺ لرجل من الأنصار حينما مرَّ به وهو يعظ أخاه في الحياء: «دَعُهُ فَإِنَّ الْحَيَاءَ مِنَ الْإِيمَانِ»⁽²⁾.
وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ شُعْبَةً وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»⁽³⁾.
- 6 - الحياء خير كله ولا يأتي إلا بالخير، فهو سبب كل خير، وعمدة كل فضيلة، لذا قال النبي ﷺ: «الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ»⁽⁴⁾.
- 7 - الحياء زينة الأعمال كلها، جاء في الحديث قوله ﷺ: «مَا كَانَ الْفُحْشُ فِي شَيْءٍ إِلَّا شَانَهُ وَمَا كَانَ الْحَيَاءُ فِي شَيْءٍ إِلَّا زَانَهُ»⁽⁵⁾.
- 8 - صفة الحياء من صفات الملائكة، ويدل على ذلك حديث عائشة -رضي الله عنها- في القصة المشهورة لما دخل عثمان على النبي ﷺ وقد كشف النبي ﷺ فخذه أو ساقه، فالحاصل أن النبي ﷺ سترهما وسوى ثيابه حينما استأذن عليه عثمان، فلما سألت عائشة -رضي الله تعالى عنها- عن ذلك، قال: «أَلَا أَسْتَحِي مِنْ رَجُلٍ تَسْتَحِي مِنْهُ الْمَلَائِكَةُ»⁽⁶⁾.
- 9 - الحياء من صفات المؤمنين الأبرار الأتقياء والمؤمنات التقيات الحافظات لحدود الله ﷻ، فهذه المرأة بنت ذلك الرجل الصالح الذي كان في مدين حينما

(1) أخرجه ابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب الحياء، رقم (4182).

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب الحياء من الإيمان، رقم (24). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم (36).

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب أمور الإيمان، رقم (9). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها، وفضيلة الحياء، وكونه من الإيمان، رقم (35).

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: الحياء، رقم (5766). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان وأفضلها وأدناها وفضيلة الحياء وكونه من الإيمان، رقم (37).

(5) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الفحش والتفحش، رقم (1974). وهو حديث صحيح.

(6) أخرجه ومسلم، الصحيح المسند، كتاب فضائل الصحابة، باب من فضائل عثمان بن عفان، رقم (2401).

جاءت إلى موسى ﷺ تدعوه كيف وصف لنا القرآن مشيتها؟ قال ﷺ: ﴿فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ﴾ [القصص: 25].

أقسام الحياء:

أقسام الحياء أربعة، هي:

1 - **الحياء من الله:** إنه حين يستقر في نفس العبد أن الله يراه، وأنه ﷺ معه في كل حين، فإنه يستحي من الله أن يراه مقصرًا في فريضة، أو مرتكبًا لمعصية. قال الله ﷻ: ﴿أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى﴾ [العلق: 14]. وقال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [ق: 16]. إلى غير ذلك من الآيات الدالة على اطلاعه على أحوال عباده، وأنه رقيب عليهم، فيكون الحياء من الله باتباع الأوامر واجتناب النواهي.

فيستحي العبد من ربه ﷻ أن يراه على معصيته ومخالفته، وهو أعلى درجات الحياء فيستحي من ربه أن يجده حيث نهاه، وهذا الحياء الذي بين العبد وربّه.

2 - **الحياء من الملائكة:** فمن المعلوم أن الله ﷻ قد جعل فينا ملائكة يتعاقبون علينا بالليل والنهار، وهناك ملائكة يصاحبون أهل الطاعات، كالخارج في طلب العلم، والمجتمعين على مجالس الذكر، والزائر للمريض، وغير ذلك. وأيضًا هناك ملائكة لا يفارقونها وهم الحفظة والكتبة: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ۝ كِرَامًا كَاتِبِينَ ۝ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: 10-12].

ويكون الحياء منهم: بالبعد عن المعاصي والقبائح، وإكرامهم عن مجالس الخنا، وأقوال السوء، والأفعال المذمومة المستقبحة.

3 - **الحياء من الناس:** إن العبد إذا استحيا من ربه حق الحياء واستحى من نفسه انعكس ذلك عليه بالتأدب والتخلق بأخلاق النفس الكريمة على ممارساته، وسلوكه اليومي، وعلاقاته مع الناس الآخرين، فيجتنب عمل القبيح أمامهم، كما اجتنب القبيح أمام الله ﷻ.

4 - **الحياء من النفس:** فحق الإنسان إذا هم بقبيح أن يتصور أحدًا من نفسه كأنه يراه، ويكون هذا الحياء بالعفة وصيانة الخلوات وحسن السريرة. فإذا كبرت عند العبد نفسه فسيكون استحياءه منها أعظم من استحيائه من غيره. وهذا أكمل ما يكون من الحياء، فإن العبد إذا استحى من نفسه فهو بأن يستحي من غيره أجدر.

من ثمرات الحياء:

1 - أنه سبب من أسباب الفوز بالجنة والنجاة من النار: وذلك لعموم الأدلة الدالة

على أن حسن الخلق من أسباب دخول الجنة والحياء منها، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «الْحَيَاءُ مِنَ الْإِيمَانِ، وَالْإِيمَانُ فِي الْجَنَّةِ، وَالْبَدَأُ مِنَ الْجَفَاءِ، وَالْجَفَاءُ فِي النَّارِ»⁽¹⁾.

2 - أنه سبب لترك المعاصي: لأن الترك من ثمرات الحياء، لأن الإنسان إذا استحيا من فعل شيء تركه، فيكون من باب تسمية المسبب باسم السبب.

فالحياء يزجر صاحبه عن المعصية ومقارفة ما لا يليق، وبغياب الحياء تتدمر الأخلاق وتُرتكب الفواحش والموبقات، وفي الحديث يقول النبي ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَدْرَكَ النَّاسُ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ، إِذَا لَمْ تَسْتَحْ فَافْعَلْ مَا شِئْتَ»⁽²⁾.

3 - أنه سبب لمحبة الله ﷻ: فالله حيي ستير، يحب أهل الحياء، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ حَيِّي سَتِيرٌ يُحِبُّ الْحَيَاءَ وَالسَّتَرَ»⁽³⁾.

نماذج من الحياء:

حياء النبي ﷺ:

إن وصف الحياء كان ملازمًا للنبي ﷺ، كما أشرنا إلى ذلك سابقًا، ومن حياؤه ﷺ ما جاء في حديث المعراج ومراجعته لله في فرض الصلاة بناء على طلب سيدنا موسى عليه السلام، قَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «يَا مُوسَى، قَدْ وَاللَّهِ اسْتَحْيَيْتُ مِنْ رَبِّي مِمَّا اخْتَلَفْتُ إِلَيْهِ، قَالَ: فَاهْبِطْ بِاسْمِ اللَّهِ»⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (10512)، ج 16 ص 305. والترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الحياء، رقم (2009). وابن ماجه، السنن، كتاب الزهد، باب الحياء، رقم (4184). حديث صحيح.

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب إذا لم تستح فاصنع ما شئت، رقم (5769).

(3) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب الحما، باب النهي عن التعري، رقم (4012).

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب التوحيد، باب قوله: «وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا»، رقم (7079).

قالت: كُنْتُ أَدْخُلُ بَيْتِي الَّذِي دُفِنَ فِيهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَأَبِي ﷺ فَأَضَعُ ثَوْبِي. فَأَقُولُ: إِنَّمَا هُوَ زَوْجِي وَأَبِي. فَلَمَّا دُفِنَ عَمْرٌ ﷺ مَعَهُمْ، فَقَالَ مَا دَخَلْتُ إِلَّا وَأَنَا مُشْدُودَةٌ عَلَيَّ ثِيَابِي حَيَاءً مِنْ عَمْرٍ ﷺ (1).

لَمَّا مَرَضَتْ فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - مَرَضَ الْمَوْتِ الَّذِي تُوفِّيَتْ فِيهِ، دَخَلْتُ عَلَيْهَا أَسْمَاءُ بِنْتُ عُمَيْسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا - تَعُودُهَا وَتَزُورُهَا فَقَالَتْ لَهَا فَاطِمَةُ: (إِنِّي أَسْتَقْبِحُ مَا يُصْنَعُ بِالنِّسَاءِ، يُطْرَحُ عَلَى الْمَرْأَةِ التُّوبُ، فَيَصِفُّهَا)، أَيْ: عِنْدَمَا تَمُوتُ وَتُوضَعُ عَلَى الْحِمَالَةِ لَتُؤْخَذَ إِلَى الْمَقْبَرَةِ، قَالَتْ: يَا ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ، أَلَا أُرِيكِ شَيْئًا رَأَيْتُهُ بِالْحَبَشَةِ؟ فَدَعَتْ بِجَرَائِدَ رَطْبِيَّةٍ، فَحَنَنْتَهَا، ثُمَّ طَرَحَتْ عَلَيْهَا ثَوْبًا. فَقَالَتْ فَاطِمَةُ: (مَا أَحْسَنَ هَذَا وَأَجْمَلَهُ! إِذَا مِتُّ فَغَسِّلِينِي أَنْتِ وَعَلِيٌّ ﷺ، وَلَا يَدْخُلَنَّ أَحَدٌ عَلَيَّ). فَلَمَّا تُوفِّيَتْ، فَعَلْتُ أَسْمَاءَ ذَلِكَ. قَالَ ابْنُ عَبْدِ الْبَرِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «هِيَ أَوَّلُ مَنْ غُطِّيَ نَعْشُهَا فِي الْإِسْلَامِ عَلَى تِلْكَ الصِّفَةِ» (2).

عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتُ أَبِي بَكْرٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - قَالَتْ: تَزَوَّجَنِي الزَّبِيرُ، وَمَا لَهُ فِي الْأَرْضِ مِنْ مَالٍ وَلَا مَمْلُوكٍ، وَلَا شَيْءٍ غَيْرِ نَاضِحٍ وَغَيْرِ فَرَسِهِ، فَكُنْتُ أَعْلِفُ فَرَسَهُ وَأَسْتَقِي الْمَاءَ، وَأُخْرِزُ غَرَبَهُ وَأَعْجَنُ، وَلَمْ أَكُنْ أَحْسَنَ أَخْبَزٍ، وَكَانَ يَخْبِزُ جَارَاتِ لِي مِنَ الْأَنْصَارِ، وَكَانَ نِسْوَةٌ صَدَقَ، وَكُنْتُ أَنْقَلُ النَّوَى مِنْ أَرْضِ الزَّبِيرِ الَّتِي أَقْطَعَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ عَلَى رَأْسِي، وَهِيَ مِنِّْي عَلَى ثَلَاثِي فَرَسَخٍ، فَجِئْتُ يَوْمًا وَالنَّوَى عَلَى رَأْسِي، فَلَقِيتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنَ الْأَنْصَارِ، فَدَعَانِي ثُمَّ قَالَ ﷺ: «إِخْ إِخْ». لِيَحْمِلَنِي خَلْفَهُ، فَاسْتَحْيَيْتُ أَنْ أُسِيرَ مَعَ الرِّجَالِ، وَذَكَرْتُ الزَّبِيرَ وَغَيْرَتَهُ وَكَانَ أَغْيَرَ النَّاسِ، فَعَرَفَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ أَنِّي قَدْ اسْتَحْيَيْتُ فَمَضَى، فَجِئْتُ الزَّبِيرَ ﷺ فَقُلْتُ: لَقِينِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ وَعَلَى رَأْسِي النَّوَى، وَمَعَهُ نَفَرٌ مِنْ أَصْحَابِهِ، فَأَنَاخَ لَأُرْكَبَ، فَاسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ وَعَرَفْتُ غَيْرَتَكَ، فَقَالَ ﷺ: وَاللَّهِ لِحِمْلِكَ النَّوَى كَانَ أَشَدَّ عَلَيَّ مِنْ رُكُوبِكَ مَعَهُ، قَالَتْ: حَتَّى أَرْسَلَ إِلَيَّ أَبُو بَكْرٍ ﷺ بَعْدَ ذَلِكَ بِخَادِمٍ يَكْفِينِي سِيَاسَةَ الْفَرَسِ، فَكَأَنَّمَا أَعْتَقَنِي (3).

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (25660)، ج 42 ص 440-441. وقال محققوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين.

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 2 ص 129.

(3) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب النكاح، باب: الغيرة، (4926). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب السلام، باب جواز إرداف المرأة الأجنبية إذا أعيت في الطريق، رقم (2182).

من الأخلاق العظيمة التي اعتنى بها الإسلام أيما عناية، خلق بر الوالدين.

مكانة بر الوالدين:

بر الوالدين من الأخلاق الذي تظهر مكانتها وأهميتها في الإسلام من خلال جوانب عدة، منها:

1 - أن الله قرن حق الوالدين مع حقه في القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الإسراء: 23] وقوله ﷻ: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَنُؤْمَرْ بِمَا حَرَّمَ رَبِّيَ كُفِّرُكُمْ عَنْ سَيِّئَاتِكُمْ وَأَشْكُرُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَتْلُوا مِنْ حَتَمٍ مِّثْلَ الْقُرْآنِ ۚ إِنَّ الْقُرْآنَ كَانَ مِنْ قَبْلِهِ عَذَابًا لِّمَنْ خَلَعَ ظُهُورَهُ عَلَىٰ عُنُوفِهِ وَكَانَ طَائِفًا مِّنْ فَاعِلِينَ﴾ [النساء: 36]. وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَٰئِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [البقرة: 83].

2 - أن الله خصص باباً من أبواب الجنة للبارين بوالديهم: قَالَ أَبُو الدَّرْدَاءِ ﷺ سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «الْوَالِدُ أَوْسَطُ أَبْوَابِ الْجَنَّةِ»⁽¹⁾.

3 - أنه من أخلاق الأنبياء التي نوه بها القرآن وأثنى عليهم بها، فهذا نوح ﷺ يخص والديه بالدعاء بالمغفرة فيما حكاه عنه رب العزة: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا﴾ [نوح: 28].

وأما ما كان من شأن إبراهيم الخليل ﷺ مع أبيه ودعوته إياه وتحببه له فأمر قد بلغ في البر غايته قال تعالى: ﴿وَإِذْ كُنَّا فِي الْكِتَابِ إِبْرَاهِيمَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ۚ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئًا ۗ يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا ۗ يَا أَبَتِ لَا تَعْبُدِ الشَّيْطَانَ إِنَّ الشَّيْطَانَ كَانَ لِلرَّحْمَنِ عَصِيًّا ۗ يَا أَبَتِ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِنَ الرَّحْمَنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَانِ وَلِيًّا ۗ قَالَ أَرَأَيْبُ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي يَا إِبْرَاهِيمُ لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَاهْجُرْنِي مَلِيًّا ۗ قَالَ سَلَامٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّي إِنَّهُ كَانَ بِي حَفِيًّا﴾ [مريم: 41-47].

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (27511)، ج 45 ص 504. وقال محققوه: إسناده حسن.

والبر يقابله البر، فقد أثنى الله ﷻ على إسماعيل ﷺ الذي قال لأبيه إبراهيم
 عندما أخبر بالرؤيا التي رأى فيها أنه يذبحه: ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ
 يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَى قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا تُؤْمَرُ
 سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ﴾ [الصافات: 102].

وكذا حال عيسى ابن مريم ﷺ حين قال عنه الله ﷻ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَجْعَلْنِي
 جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: 32]. وكذا يحيى ﷺ قال عنه ﷻ: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُنْ
 جَبَّارًا عَصِيًّا﴾ [مريم: 14].

4 - بر الوالدين من أهم الأسس التي ينبغي تربية الجيل عليها: كما في وصية
 لقمان لابنه قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ
 الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿٣١﴾ وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي
 عَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ﴿٣٢﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ
 لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ
 إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [لقمان: 13-15].

5 - إن بر الوالدين من أحب الأعمال إلى الله ﷻ وأفضلها بعد الصلاة، فعن عبد الله
 بن مسعود ؓ قال: سألت رسول الله ﷺ: أَيُّ الْعَمَلِ أَحَبُّ إِلَى اللَّهِ؟ قَالَ: «الصَّلَاةُ
 عَلَى وَقْتِهَا»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ قَالَ: «ثُمَّ بَرُّ الْوَالِدَيْنِ»، قَالَ: ثُمَّ أَيُّ قَالَ: «الْجِهَادُ فِي
 سَبِيلِ اللَّهِ». وفي رواية: (قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَيُّ الْعَمَلِ أَفْضَلُ) الحديث⁽¹⁾.

بل إن بر الوالدين مُقدم حتى على الجهاد في سبيل الله، مما يدل على عظيم
 حق الوالدين، ليعرف المسلمون فضل والديهم وقدرهما، عبد الله بن عمرو -رضي
 الله عنهما- قَالَ: أَقْبَلَ رَجُلٌ إِلَى نَبِيِّ اللَّهِ ﷺ فَقَالَ أَبَايُكَ عَلَى الْهَجْرَةِ وَالْجِهَادِ
 أَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ قَالَ: «فَهَلْ مِنْ وَالِدَيْكَ أَحَدٌ حَيٌّ» قَالَ: نَعَمْ بَلْ كِلَاهُمَا
 قَالَ: «فَتَبْتَغِي الْأَجْرَ مِنَ اللَّهِ» قَالَ: نَعَمْ. قَالَ: «فَارْجِعْ إِلَى وَالِدَيْكَ فَأَحْسِنْ

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (3890)، ج 7 ص 5. والبخاري، الجامع الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، باب: فضل الصلاة لوقتها، رقم (504). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (139).

صُحِبَتْهُمَا»⁽¹⁾. وفي رواية: جاء رجل إلى النبي ﷺ فاستأذنه في الجهاد، فقال له ﷺ: «أَحْيِ وَالِدَاكَ؟» قال: نعم، قال: «فَفِيهِمَا فَجَاهِدْ»⁽²⁾.

6 - رضا الرب في رضا الوالد: عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو -رضي الله عنهما- عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: «رِضَا الرَّبِّ فِي رِضَا الْوَالِدِ وَسَخَطُ الرَّبِّ فِي سَخَطِ الْوَالِدِ»⁽³⁾.

7 - عقوق الوالدين من أكبر الكبائر بعد الإشراك بالله: جاء عن أبي بكرة ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «أَلَا أُتَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكِبَائِرِ»، ثَلَاثًا، «الإِشْرَاكُ بِاللَّهِ وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ وَشَهَادَةُ الزُّورِ -أَوْ قَوْلُ الزُّورِ-»، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُتَكِنًا فَجَلَسَ فَمَا زَالَ يَكْرُرُهَا حَتَّى قُلْنَا لَيْتَهُ سَكَتَ⁽⁴⁾.

وعن الْمُغِيرَةِ بْنِ شُعْبَةَ ؓ قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ حَرَّمَ عَلَيْكُمْ عُقُوقَ الْأُمَمَاتِ، وَمَنْعًا وَهَاتِ، وَوَادًّا الْبَنَاتِ، وَكَرِهَ لَكُمْ قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةَ الْمَالِ»⁽⁵⁾.

مدى ارتباط بر الوالدين بالتزامهما الديني:

حق الوالدين باقٍ، ومصاحبتهم بالمعروف واجبة، حتى وإن كانا كافرين، فلا يختص برهما بكونهما مسلمين، أو صالحين، بل تبرهما وإن كانا كافرين، عَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا- قَالَتْ: قَدِمْتُ عَلَى أُمِّي وَهِيَ مُشْرِكَةٌ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَاسْتَفْتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قُلْتُ: وَهِيَ رَاغِبَةٌ⁽⁶⁾ أَفَأَصِلُ أُمِّي. قَالَ ﷺ: «نَعَمْ صِلِي أُمَّكَ»⁽⁷⁾.

ولم يقف حق الوالدين عند هذا الحد، بل تبرهما وتحسن إليهما حتى لو كانا يأمرانك بالكفر، وحاولا إلزامك بالشرك بالله، من غير طاعة لهما في ذلك، قال تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب بر الوالدين، وأنهما أحق به، رقم (2549).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (6544)، ج 11 ص 102.

(3) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء من الفضل في رضا الوالدين، رقم (1899) وهو صحيح.

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب مواقيت الصلاة، باب: إثم من أشرك بالله، وعقوبته في الدنيا والآخرة، رقم (6521). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان كون الإيمان بالله تعالى أفضل الأعمال، رقم (139).

(5) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب استتابة المرتدين والمعاندين وقتالهم، باب: فضل الصلاة لوقتها، رقم (504). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان الكبائر وأكبرها، رقم (87).

(6) أي: أَنَّهَا قَدِمَتْ طَالِبَةً فِي بَرٍّ ابْنَتَهَا لَهَا خَائِفَةٌ مِنْ رَدِّهَا إِلَيْهَا خَائِفَةً، وَقِيلَ: رَاغِبَةٌ عَنِ دِينِي أَوْ رَاغِبَةٌ فِي الْقُرْبِ مِنِّي وَمُجَاوِزَتِي وَالْتَوَدُّدِ إِلَيَّ.

(7) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الهبة وفضلها، باب: الهدية للمشركين، رقم (2477).

الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ ﴿١٤﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ [لقمان: 14-15].

وعن سعد بن أبي وقاص قال: (حَلَفْتُ أُمُّ سَعْدٍ أَلَّا تُكَلِّمَهُ أَبَدًا حَتَّى يَكْفُرَ بِدِينِهِ. وَلَا تَأْكُلَ وَلَا تَشْرَبَ. قَالَتْ: رَعِمْتُ أَنَّ اللَّهَ وَصَّاكَ بِوَالِدَيْكَ. وَأَنَا أُمُّكَ. وَأَنَا أَمْرُكَ بِهَذَا. قَالَ: مَكَّنْتُ ثَلَاثًا حَتَّى غَشِيَ عَلَيْهَا مِنَ الْجَهْدِ. فَقَامَ ابْنُ لَهَا يُقَالُ لَهُ عُمَارَةٌ. فَسَقَاهَا. فَجَعَلْتُ تَدْعُو عَلَى سَعْدٍ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ ﷻ فِي الْقُرْآنِ هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفِصَالُهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾ وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَى أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ [لقمان: 14-15]. وفيها: ﴿وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ (1).

ثمرات التخلق بخلق بر الوالدين:

دلت نصوص شرعية على فضل بر الوالدين وكونه مفتاح الخير منها:

1 - فمن تلك الثمرات أَنَّ بر الوالدين سبب لدخول الجنة: عن أبي هريرة ؓ قال ﷺ: «رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ، ثُمَّ رَغِمَ أَنْفٌ»، قيل: من يا رسول الله؟ قال: «مَنْ أَدْرَكَ أَبَوَيْهِ عِنْدَ الْكِبَرِ أَحَدَهُمَا أَوْ كِلَيْهِمَا فَلَمْ يَدْخُلِ الْجَنَّةَ» (2). وعن عائشة -رضي الله عنها-، عَنِ النَّبِيِّ ﷺ: «دَخَلْتُ الْجَنَّةَ، فَسَمِعْتُ فِيهَا قِرَاءَةً، قُلْتُ: مَنْ هَذَا؟ قَالُوا: حَارِثَةُ بْنُ النُّعْمَانِ. كَذَاكُمُ الْبِرُّ، كَذَاكُمُ الْبِرُّ» (3). وكان شديد البر بأمه ؓ.

وعَنْ عَمْرِو بْنِ مُرَّةَ الْجُهَنِيِّ ؓ قَالَ: (جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، شَهِدْتُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، وَأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ، وَصَلَّيْتُ الْخُمْسَ، وَأَدَّيْتُ زَكَاةَ مَالِي،

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب فضائل الصحابة ؓ، باب في فضل سعد بن أبي وقاص، رقم (1748).

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب رَغِمَ أَنْفٌ من أدرك أبويه أو أحدهما عند الكبر، فلم يدخل الجنة، رقم (2551).

(3) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (24080)، ج 40 ص 96. قال محققوه: إسناده صحيح.

وَصُمْتُ شَهْرَ رَمَضَانَ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ مَاتَ عَلَى هَذَا كَانَ مَعَ النَّبِيِّينَ وَالصَّدِيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ هَكَذَا -وَنَصَبَ إِيصْبَعَيْهِ- مَا لَمْ يَعْصِ وَالِدَيْهِ» (1).

2 - وهو منجاة من المصائب وسبب في تفريج الكرب وذهاب الهم: مرَّ بنا حديث الثلاثة الذين أوا إلى الغار عند الحديث عن الإخلاص، وقد توسل أحدهم إلى الله ﷻ ببره لوالديه، حيث قال: «اللَّهُمَّ كَانَ لِي أَبَوَانِ شَيْخَانِ كَبِيرَانِ وَكُنْتُ لَا أَغْنِي قَبْلَهُمَا أَهْلًا وَلَا مَالًا» (2)، فَنَأَى بِي فِي طَلَبِ شَيْءٍ يَوْمًا فَلَمْ أُرَحْ عَلَيْهِمَا (3) حَتَّى نَامَا فَحَلَبْتُ لَهُمَا غُبُوقَهُمَا فَوَجَدْتُهُمَا نَائِمَيْنِ وَكَرِهْتُ أَنْ أَغْنِي قَبْلَهُمَا أَهْلًا أَوْ مَالًا فَلَبِثْتُ وَالْقَدْحُ عَلَى يَدَيَّ أَنْتَظِرُ اسْتِيقَاضَهُمَا حَتَّى بَرَقَ الْفَجْرُ فَاسْتَيْقَظَا فَشَرِبَا غُبُوقَهُمَا، اللَّهُمَّ إِنْ كُنْتُ فَعَلْتُ ذَلِكَ ابْتِغَاءً وَجْهَكَ فَفَرِّجْ عَنَّا مَا نَحْنُ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الصَّخْرَةِ فَاَنْفَرَجَتْ شَيْئًا لَا يَسْتَطِيعُونَ الْخُرُوجَ» (4).

3 - ومن ثمار بر الوالدين تكفير الذنوب، كما جاء عن ابن عمر -رضي الله عنهما- أَنَّ رَجُلًا أَتَى النَّبِيَّ ﷺ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أَصَبْتُ ذَنْبًا عَظِيمًا فَهَلْ لِي تَوْبَةٌ؟ قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ أُمٍّ؟» قَالَ: لَا، قَالَ: «هَلْ لَكَ مِنْ خَالَةٍ؟» قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: «فَبِرَّهَا» (5).

4 - ومن ثمار بر الوالدين سعة الرزق وطول العمر، كما دل على ذلك ما جاء عن أنس بن مالك ؓ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «مَنْ سَرَهُ أَنْ يُبْسَطَ لَهُ فِي

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (24299)، ج 39 ص 522-523. قال محققوه: حديث صحيح.

(2) (لَا أَغْنِي) أَي: مَا كُنْتُ أَقْدِمُ عَلَيْهِمَا أَحَدًا فِي شُرْبِ نَصِيبِهِمَا عِشَاءً مِنَ اللَّبَنِ، وَالْغُبُوقُ شُرْبُ الْعِشَاءِ، وَالصُّبُوحُ شُرْبُ أَوَّلِ النَّهَارِ.

(3) مَعْنَاهُ: إِذَا زَدَدْتَ الْمَاشِيَةَ مِنَ الْمَرْعَى إِلَيْهِمْ، وَإِلَى مَوْضِعِ مَبِيتِهَا، وَهُوَ مَرَاحِهَا بِضَمِّ الْمِيمِ، يُقَالُ: أَرَحْتُ الْمَاشِيَةَ وَزَوَّحْتُهَا بِمَعْنَى.

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإجارة، باب من استأجر أجيرًا فترك الأجير أجره، فعمل فيه المستأجر فزاد، أو من عمل في مال غيره، فاستفضل، رقم (2272). وَكِتَابُ أَحَادِيثِ الْأَنْبِيَاءِ، باب حديث الغار، رقم (3465). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الرقاق، باب قصة أصحاب الغار الثلاثة والتوسل بصالح الأعمال، رقم (2743).

(5) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في بر الخالة، رقم (1904).

رِزْقِهِ، أَوْ يُنْسَأَ لَهُ فِي أَثَرِهِ، فَلْيَصِلْ رَحِمَهُ»⁽¹⁾، وبر الوالدين من أعظم صور صلة الرحم.

وما جاء عَنْ ثَوْبَانَ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «لَا يَزِيدُ فِي الْعُمْرِ إِلَّا الْبِرُّ، وَلَا يَزِيدُ الْقَدْرَ إِلَّا الدُّعَاءُ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيُحْرَمُ الرِّزْقُ بِخَطِيئَةٍ يَعْمَلُهَا»⁽²⁾.

المدى الزماني لبر الوالدين:

يمتد بر الوالدين إلى ما بعد مماتهما فباب الإحسان مفتوح، وبإمكانك أن تدرك شيئاً ولو قليلاً من البر بعد موتها لعل الله أن يعفو عنك ويُرْضِيَ عنك والديك، جاء عن بريدة ؓ قال: بَيْنَمَا أَنَا جَالِسٌ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِذْ أَتَتْهُ امْرَأَةٌ فَقَالَتْ: إِنِّي تَصَدَّقْتُ عَلَى أُمِّي بِجَارِيَةٍ وَإِنَّهَا مَاتَتْ، فَقَالَ: «وَجَبَ أَجْرُكَ وَرَدَّهَا عَلَيْكَ الْمِيرَاثُ»، قَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُ كَانَ عَلَيْهَا صَوْمٌ شَهْرٍ أَفَأَصُومُ عَنْهَا؟ قَالَ ﷺ: «صُومِي عَنْهَا» قَالَتْ: إِنَّهَا لَمْ تَحُجَّ قَطُّ أَفَأَحُجُّ عَنْهَا؟ قَالَ ﷺ: «حُجِّي عَنْهَا»⁽³⁾.

عقوبة عقوق الولدين:

من عقوبات عقوق الولدين:

1 - تعجيل العقوبة في الدنيا، فعن أَبِي بَكْرَةَ ؓ قال: قال رسول الله ﷺ: «مَا مِنْ ذَنْبٍ أُخْرِيَ أَنْ يُعَجَّلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى الْعُقُوبَةَ لِصَاحِبِهِ فِي الدُّنْيَا مَعَ مَا يَدْخُرُ لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْبَغْيِ وَقَطِيعَةِ الرَّحِمِ»⁽⁴⁾.

3 - اللعن والطرْد من رحمة الله، وعدم دخول الجنة: فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ؓ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَلْعُونٌ مَنْ عَقَّ وَالِدَيْهِ»⁽⁵⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب البيوع، باب: من أحب البسط في الرزق، رقم (1961).

(2) أخرجه ابن ماجه، السنن، افتتاح الكتاب في الإيمان وفصائل الصحابة والعلم، باب في القدر، رقم (90).

(3) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الصيام، باب قضاء الصيام عن الميت، رقم (1148).

(4) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (20398)، ج 34 ص 39-40. والترمذي، الجامع، أبواب صفة القيامة والرقائق والورع عن رسول الله ﷺ، (2511). وقال: حديث حسن صحيح. وابن ماجه، السنن، أبواب الزهد، باب البغي، رقم (4211).

(5) رواه الطبراني، المعجم الأوسط، رقم (8497)، ج 8 ص 234.

وروى ابن عمر -رضي الله عنهما- أنَّ رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللَّهُ ﷻ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ وَالْمَرْأَةُ الْمُتَرْجِلَةُ وَالْدَيُّوثُ، وَثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: الْعَاقُ لِوَالِدَيْهِ وَالْمَذْمُونُ عَلَى الْحَمْرِ وَالْمَنَانُ بِمَا أُعْطِيَ»⁽¹⁾.

4 - وقوع دعوة الوالد عليه: عن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ أنه قال: «ثَلَاثُ دَعَوَاتٍ مُسْتَجَابَاتٌ: دَعْوَةُ الْمَظْلُومِ، وَدَعْوَةُ الْمُسَافِرِ، وَدَعْوَةُ الْوَالِدِ عَلَى وَلَدِهِ»⁽²⁾.

وقصة جريج معروفة في هذا الباب، فعن أبي هريرة ؓ عن النبي ﷺ قال: «كَانَ رَجُلٌ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ يُقَالُ لَهُ جُرَيْجٌ يُصَلِّي، فَجَاءَتْهُ أُمُّهُ فَدَعَتْهُ فَأَبَى أَنْ يُجِيبَهَا، فَقَالَ أُجِيبَهَا أَوْ أُصَلِّي، ثُمَّ أَتَتْهُ فَقَالَتْ: اللَّهُمَّ لَا تَمِتْهُ حَتَّى تَرِيَهُ وَجُوهَ الْمُؤْمِسَاتِ. وَكَانَ جُرَيْجٌ فِي صَوْمَعَتِهِ فَقَالَتْ امْرَأَةٌ: لَا أَفْتِنَنَّ جُرَيْجًا، فَتَعَرَّضَتْ لَهُ فَكَلَّمَتْهُ فَأَبَى، فَأَتَتْ رَاعِيًا فَأَمَكَّتْهُ مِنْ نَفْسِهَا، فَوَلَدَتْ غُلَامًا فَقَالَتْ: هُوَ مِنْ جُرَيْجٍ فَأَتَوْهُ وَكَسَرُوا صَوْمَعَتَهُ فَأَنزَلُوهُ وَسَبُّوهُ فَتَوَضَّأَ وَصَلَّى ثُمَّ أَتَى الْغُلَامَ فَقَالَ: مَنْ أَبُوكَ يَا غُلَامُ. قَالَ: الرَّاعِي. قَالُوا: نَبِيِّ صَوْمَعَتِكَ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: لَا إِلَّا مِنْ طِينٍ»⁽³⁾.

من حقوق الوالدين:

إن للوالدين حقوقًا وواجبات كثيرة، نذكر منها:

1 - الإحسان إليهما بالقول والعمل والحال، كما قال الله تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبُلُغَنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا وَلَا تُنْهَرُهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ٣١ وَاحْفَظْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ﴾ [الإسراء: 23-24].

2 - الدعاء لهما في الحياة وبعد الممات: قال الله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].

(1) أخرجه النسائي، السنن، كتاب الزكاة، باب المنان بما أعطي، رقم (2562).

(2) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما ذكر في دعوة المسافر، رقم (3747). وقال: هذا حديث حسن.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب المظالم، باب: إذا هدم حائطًا فليين مثله، رقم (2350).

3 - صلة أهل ودهما وأصدقائهما، عن عبد الله بن عمر -رضي الله عنهما- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إِنَّ مِنْ أَكْبَرِ الْبِرِّ صَلََّةَ الرَّجُلِ أَهْلَهُ وَدَّ أَبْيِهِ بَعْدَ أَنْ يُؤَلِّيَ»⁽¹⁾.

4 - التواضع لهما وخفض الجناح: قال الله تعالى: ﴿وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذَّلِيلِ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا﴾ [الإسراء: 24].
وغير ذلك مما لا يخفى على كل بار بوالديه.

نماذج للأبناء البررة:

ذكر لنا التاريخ نماذج مشرقة من الصحابة رضي الله عنهم والتابعين والعلماء والصالحين في بر الوالدين، نعرض على بعضها:

1 - أبو هريرة رضي الله عنه:

كان من البارين بأمهاتهم المحسنين إليهن فعن أبي مرة مولى أم هانئ بنت أبي طالب: «أنه ركب مع أبي هريرة رضي الله عنه إلى أرضه بالعقيق، فإذا دخل أرضه صاح بأعلى صوته: عليك السلام ورحمة الله وبركاته يا أمه! تقول: وعليك السلام ورحمة الله وبركاته. يقول: رحمك الله كما رببتني صغيراً. فنقول: «يا بني! وأنت فجزاك الله خيراً ورضي عنك، كما بررتني كبيراً»⁽²⁾.

2 - أويس بن عامر القرني -رحمه الله-:

ذاك رجل أخبر النبي ﷺ عن منزلته عند الله ﷻ ورسوله ﷺ، كما جاء في الحديث أن عمر رضي الله عنه كان إذا أتى عليه أمداد أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس بن عامر، فقال: أنت أويس بن عامر؟ قال: نعم، قال: من مراد ثم من قرن؟ قال: نعم، قال: كان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم، قال: لك والد؟ قال: نعم، قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «يَأْتِي عَيْنُكُمْ أُوَيْسُ بْنُ عَامِرٍ مَعَ أَمْدَادِ أَهْلِ الْيَمَنِ مِنْ مُرَادٍ ثُمَّ مِنْ قَرْنٍ كَانَ بِهِ بَرَصٌ فَبَرَأَ مِنْهُ إِلَّا مَوْضِعَ دِرْهَمٍ لَهُ وَالِدَةٌ هُوَ بِهَا بَرٌّ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللَّهِ لِأَبْرَهُ فَإِنْ اسْتَطَعْتَ أَنْ يَسْتَغْفِرَ لَكَ فَافْعَلْ». فاستغفر لي، فاستغفر

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب فضل صلة أصدقاء الأب والأم، ونحوهما، رقم (2552).

(2) أخرجه البخاري في كتابه: الأدب المفرد، رقم (14)، ص19.

له، فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة، قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غبراء الناس أحب إلي⁽¹⁾.

وعن أصبغ بن زيد، قال: إنما منع أويّس أن يقدم على النبي ﷺ بره بأمه.

٣ - محمد بن سيرين:

قال هشام بن حسان: «حدثتني حفصة بنت سيرين، قالت: كانت والدّة محمد بن سيرين حجازية، وكان يعجبها الصُّبغ، وكان محمد إذا اشترى لها ثوبًا اشترى ألين ما يجد، فإذا كان عيد صبغ لها ثيابًا، وما رأيته رافعًا صوته عليها، كان إذا كلمها كالمصغي⁽²⁾».

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الفضائل، باب من فضائل أويّس القرني، رقم (2542).

(2) الذهبي، سير أعلام النبلاء، ج 4 ص 619.

رابطة الأخوة في الله أعظم رابطة، فهي الرابطة الباقية إذا ذهبت الروابط والصلات، قال تعالى: ﴿الْأَخِلَاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: 67].

مفهوم الأخوة الإيمانية:

الأصل في الإخاء أنه اشتراك الطرفين في الولادة القريبة أو البعيدة. وإذا دققنا في مسمى (الإخاء) ومدلوله اللغوي والشرعي، وجدنا أنه تنظمه ثلاثة أنواع:

أ- أخوة في النسب والقربة.

ب- أخوة في الآدمية والإنسانية، وهي المراد في مطلق الإنسان، أو بني آدم، أو النوع قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: 70].

ج- أخوة في الدين والعقيدة، وهذه هي المرادة في باب الإيمان وفروعه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [سورة الحجرات: 10]، وقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ [آل عمران: 103]. وفي الحديث: «المُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ، لَا يَظْلِمُهُ وَلَا يَخْذُلُهُ وَلَا يَحْقِرُهُ»⁽¹⁾.

أهمية الأخوة في الله:

تظهر أهمية الأخوة في الله من خلال الجوانب الآتية:

1 - الأخوة هي الرابطة التي تجمع بين المسلمين، قال: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلَحُوا بَيْنَ أَرْوَاحِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: 10]. وقال الحق ﷻ: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ [سورة الأنبياء: 92]. وقال ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ﴾ [سورة المؤمنون: 52]. ويقول الله ﷻ: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ﴾ [التوبة: 71].

2 - الأخوة نعمة من الله ﷻ: امتن بها على عباده، فقال ﷻ: ﴿وَادْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله، رقم (2564).

عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿[سورة آل عمران: 103]. وقال ﷺ: ﴿وَأَنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنْ حَسَبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ ۝ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾

[الأنفال: 62-63].

3 - لا يكمل الإيمان إلا بلازم الأخوة وهو الحب في الله ﷻ، عن أبي أمامة الباهلي  قال ﷺ: «مَنْ أَحَبَّ لِلَّهِ، وَأَبْغَضَ لِلَّهِ، وَأَعْطَى لِلَّهِ، وَمَنَعَ لِلَّهِ فَقَدْ اسْتَكْمَلَ الْإِيمَانَ»⁽¹⁾.

4 - الأخوة والترابط والوحدة مقصد من مقاصد الدين: في الحديث: «ثَلَاثٌ لَا يَغُلُّ عَلَيْهِنَّ صَدْرُ مُسْلِمٍ: إِخْلَاصُ الْعَمَلِ لِلَّهِ، وَمُنَاصَحَةُ أُولِي الْأَمْرِ، وَلَزُومُ جَمَاعَةِ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ دَعَوْتَهُمْ تَحِيَّطٌ مِنْ وَرَائِهِمْ»⁽²⁾.

والإسلام قد جعل العمل الواحد في حقيقته وصورته مختلفًا في الأجر حين يؤديه الإنسان منفردًا وحين يؤديه مع آخرين، قال رسول الله ﷺ: «صَلَاةُ الْجَمَاعَةِ أَفْضَلُ مِنْ صَلَاةِ الْفَذِّ بِسَبْعٍ وَعَشْرِينَ دَرَجَةً»⁽³⁾.

والزكاة تؤخذ من أغنيائهم، وترد على فقرائهم، لكي يشعروا جميعًا أنهم جسم واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى.

والصيام يوحد بين المسلمين في أوقات الفراغ والعمل، وأوقات الطعام والشراب، ويفرغ عليهم جميعًا صفة الإنابة والرجوع إلى الله.

والحج الذي يضم أشتات المسلمين في المشرق والمغرب، في مكان معلوم هو مكة المكرمة، وزمان معلوم هو أشهر الحج، يطوفون حول بناء واحد وهو بيت الله الحرام، فيكون اللقاء بين أجناس المسلمين أمرًا محتومًا.

(1) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب السنة، باب الدليل على زيادة الإيمان ونقصانه، رقم (4681).

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (13350)، ج 21 ص 60-61، وعن جبير بن مطعم عن أبيه، رقم (16738)، ج 27 ص 3001-3002. وابن ماجه، السنن، المقدمة، باب من بلغ علمًا، رقم (230)، عن زيد بن ثابت. وعن جبير بن مطعم عن أبيه، كتاب المناسك، باب الخطبة يوم النحر رقم (3056)، والحديث صحيح لتعدد طرقه.

(3) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب المساجد ومواضع الصلاة، باب فضل صلاة الجماعة، وبيان التشديد في التخلف عنها، رقم (650).

5 - قوة المسلمين في التآخي والترابط: قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا

تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: 46].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه: «أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ: «عَلَيْكُمْ بِالْجَمَاعَةِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْفُرْقَةَ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ مَعَ الْوَاحِدِ وَهُوَ مِنَ الْاِثْنَيْنِ أَبْعَدُ مَنْ أَرَادَ بُحْبُوحَةَ الْجَنَّةِ فَلْيَلْزِمِ الْجَمَاعَةَ مَنْ سَرَّتْهُ حَسَنَتُهُ وَسَاءَتْهُ سَيِّئَتُهُ فَذَلِكَ لَكُمْ الْمُؤْمِنُ»⁽¹⁾.

وفي مقابل الترغيب يأتي الترهيب من الافتراق وأسبابه، فالله تعالى يقول:

﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: 115].

6 - الأخوة كانت أول أمر عمله النبي ﷺ بعد هجرته في الناحية الاجتماعية: لما

قدم المهاجرون المدينة قال النبي ﷺ: «إِنْ إِخْوَانَكُمْ قَدْ تَرَكَوا الْأَمْوَالَ وَالْأَوْلَادَ وَخَرَجُوا إِلَيْكُمْ»، فقالوا: أموالنا بيننا قطائع. فقال رسول الله ﷺ: «أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ» قالوا: وما ذاك يا رسول الله؟ قال: «هَمْ قَوْمٌ لَا يَعْرِفُونَ الْعَمَلَ فَتَكْفُونَهُمْ وَتَقَاسِمُونَهُم النَّمْرَ»، قالوا: نعم يا رسول الله⁽²⁾.

درجات الأخوة في الله ﷻ:

الأخوة في الله ﷻ درجات ثلاث:

أدناها: سلامة الصدر:

وكان لنا حديث مستقل حولها، وهذه الدرجة واجبة.

أوسطها: أَنْ تَحِبَّ لِأَخِيكَ مَا تَحِبُّ لِنَفْسِكَ:

وهذا رسول الهدى ﷺ يقول: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»⁽³⁾.

وجاء عن ابن عباس رضي الله عنه: «إِنَّ فِي ثَلَاثِ خِصَالٍ: إِنِّي لَأَتِي عَلَى آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ، فَلَوَدِدْتُ أَنَّ جَمِيعَ النَّاسِ يَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ، وَإِنِّي لَأَسْمَعُ بِالْحَاكِمِ يَعْدِلُ فِي حُكْمِهِ فَأَفْرَحُ وَلَعَلِّي لَا

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب الفتن عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في لزوم الجماعة، رقم (2304)، وقال: حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ.

(2) () ابن كثير، البداية والنهاية، ج3 ص510.

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (13).

أقاضي إليه أبداً، وإني لأسمع بالغيث أصاب البلد من بلاد المسلمين فأفرح وما لي به من سائمة»⁽¹⁾.

وجاء رجل إلى أبي هريرة ؓ وقال: إني أريد أن أواخيك في الله، فقال: (أتدري ما حق الإخاء؟) قال: عرّفني، قال: (ألا تكون أحقّ بدينارك ودرهمك مني)، قال: لم أبلغ هذه المنزلة بعد، قال اذهب عني⁽²⁾.

قال الحسن البصري -رحمه الله-: «كان أحدهم يشقُّ إزاره بينه وبين أخيه»⁽³⁾. وهذه درجة إن لم تكن واجبة فهي مستحبة، ومندوب إليها.

وأعلاها: الإيثار:

وهو أن يقدم المرء أخاه على نفسه في حاجة هو محتاج إليها، وهي أعلى مراتب الأخوة في الله ﷻ حيث يرتفع بعض المؤمنين الصادقين إلى مرتبة الإيثار فيلحق بأولئك الأفضال الذين خلد ذكرهم المولى ﷻ في القرآن الكريم: ﴿وَيُؤْتِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: 9]، فيصبح من المفلحين الذين يغبطهم الشهداء والنبيون.

ومن هذا الإيثار ما حصل بين المهاجرين والأنصار عندما آخى رسول الله ﷺ بينهم بعد الهجرة. قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ ؓ لَمَّا قَدِمْنَا الْمَدِينَةَ آخَى رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بَيْنِي وَبَيْنَ سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ، فَقَالَ سَعْدُ بْنُ الرَّبِيعِ ؓ: (إني أكثر الأنصار مالاً فأقسم لك نصف مالي، وانظر أي زوجتي هويتَ نَزَلْتُ لَكَ عَنْهَا، فَإِذَا حَلَّتْ تَزَوَّجْتُهَا). فَقَالَ لَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ: (لَا حَاجَةَ لِي فِي ذَلِكَ هَلْ مِنْ سُوقٍ فِيهِ تِجَارَةٌ؟) قَالَ: (سُوقٌ قَيْنَقَاعٍ). قَالَ: فَعَدَا إِلَيْهِ عَبْدُ الرَّحْمَنِ فزاحمهم وبزهم في ميدانهم، فما لبث غير قليل حتى كسب مالاً وتأهل من ماله ولم يرزأ سعداً بشيء⁽⁴⁾.

وهذه المرتبة مستحبة، وليست هي واجبة أو فريضة محتمة.

ثمرات التآخي في الله والتحاب فيه ؓ:

للتآخي في الله ﷻ ثمرات يراها المسلم في حياته الدنيا قبل أخراه، منها:

(1) الطبراني، المعجم الكبير، رقم (10621)، ج 10 ص 266.

(2) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 2 ص 174.

(3) الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 2 ص 172.

(4) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب البيوع، باب: ما جاء في قول الله تعالى، رقم (1943).

1 - الأخوة في الله طريق لمحبة الله تعالى للعبد: عَنْ أَبِي إِدْرِيسَ الْخَوْلَانِيِّ - رَحِمَهُ اللَّهُ - أَنَّهُ قَالَ: «دَخَلْتُ مَسْجِدَ دِمَشْقَ فَإِذَا قَتَى بَرَّاقُ الثَّنَائِيَا، وَإِذَا النَّاسُ مَعَهُ إِذَا اخْتَلَفُوا فِي شَيْءٍ، أَسْنَدُوا إِلَيْهِ، وَصَدَرُوا عَنْ رَأْيِهِ، فَسَأَلْتُ عَنْهُ؟ فَقِيلَ: هَذَا مُعَاذُ بْنِ جَبَلٍ ؓ، فَلَمَّا كَانَ الْغَدُ هَجَرْتُ، فَوَجَدْتُهُ قَدْ سَبَقَنِي بِالْتَّهْجِيرِ، وَوَجَدْتُهُ يُصَلِّي، فَانْتَظَرْتُهُ حَتَّى قَضَى صَلَاتَهُ، ثُمَّ جِئْتُهُ مِنْ قِبَلِ وَجْهِهِ، فَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ، ثُمَّ قُلْتُ: وَاللَّهِ إِنِّي لِأُحِبُّكَ لِلَّهِ ؓ، فَقَالَ: أَلَلَّهِ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ، فَقَالَ: أَلَلَّهِ؟ فَقُلْتُ: وَاللَّهِ، فَأَخَذَ بِحُبُوبَةِ رِدَائِي، فَجَبَذَنِي إِلَيْهِ، وَقَالَ: أَبْشُرْ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: «قَالَ اللَّهُ ﷻ: وَجَبَتْ مَحَبَّتِي لِلْمُتَحَابِّينَ فِيَّ، وَالْمُتَجَالِسِينَ فِيَّ، وَالْمُتَزَاوِرِينَ فِيَّ، وَالْمُتَبَاذِلِينَ فِيَّ»⁽¹⁾.

وعن أبي هريرة ؓ قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ ﷻ إِذَا أَحَبَّ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ ؑ فَقَالَ: إِنِّي أُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّهُ قَالَ: فَيُحِبُّهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي السَّمَاءِ فَيَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ فُلَانًا فَأُحِبُّوهُ فَيُحِبُّهُ أَهْلُ السَّمَاءِ قَالَ: ثُمَّ يُوضَعُ لَهُ الْقَبُولُ فِي الْأَرْضِ، وَإِذَا أَبْغَضَ عَبْدًا دَعَا جِبْرِيلَ فَيَقُولُ: إِنِّي أَبْغَضُ فُلَانًا فَأَبْغِضْهُ قَالَ: فَيَبْغِضُهُ جِبْرِيلُ، ثُمَّ يُنَادِي فِي أَهْلِ السَّمَاءِ إِنَّ اللَّهَ يُبْغِضُ فُلَانًا فَأَبْغِضُوهُ قَالَ: فَيَبْغِضُونَهُ ثُمَّ تَوْضَعُ لَهُ الْبَغْضَاءُ فِي الْأَرْضِ»⁽²⁾.

2 - المتآخون في الله في ظل الله تعالى: يَوْمَ تَدْنُو الشَّمْسُ مِنَ الرُّؤُوسِ، وَالزَّحَامِ وَحْدَهُ يَكَادُ يَخْنُقُ الْأَنْفَاسَ، فَالْبَشَرِيَّةُ كُلُّهَا مِنْ لَدُنْ آدَمَ إِلَى آخِرِ رَجُلٍ قَامَتْ عَلَيْهِ السَّاعَةُ فِي أَرْضِ الْمَحْشَرِ، وَجَهَنَّمَ تَزْفَرُ وَتَزْمَجِرُ، قَالَ ﷻ: «يُؤْتَى بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لَهَا سَبْعُونَ أَلْفَ زِمَامٍ، مَعَ كُلِّ زِمَامٍ سَبْعُونَ أَلْفَ مَلِكٍ يَجْرُؤْنَهَا»⁽³⁾.

(1) أخرجه مالك، الموطأ، رقم (16)، ج 2 ص 953. وهو حديث صحيح.

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب إذا أحب الله عبداً حبه إلى عباده، رقم (2637).

(3) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الجنة، وصفة نعيمها وأهلها، باب في شدة حر نار جهنم، وبعد قعرها، وما تأخذ من المعذبين، رقم (2842). وأخرجه الترمذي، الجامع، أبواب صفة جهنم عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في صفة النار، رقم (2573).

في ذلك اليوم يُظِلُّ الله ﷻ المتأخين بظله ﷻ، فعن أبي هريرة ؓ قال: رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: أَيُّنَ الْمُتَخَابُونَ بِجَلَالِي؟ الْيَوْمَ أُظِلُّهُمْ فِي ظِلِّي يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلِّي» (1).

وعن أبي هريرة ؓ أن النبي ﷺ قال: «سَبْعَةٌ يُظِلُّهُمُ اللَّهُ فِي ظِلِّهِ يَوْمَ لَا ظِلَّ إِلَّا ظِلُّهُ: الْإِمَامُ الْعَادِلُ، وَشَابٌّ نَشَأَ فِي عِبَادَةِ رَبِّهِ، وَرَجُلٌ قَلْبُهُ مُعَلَّقٌ فِي الْمَسَاجِدِ، وَرَجُلَانِ تَحَابَّا فِي اللَّهِ اجْتَمَعَا عَلَيْهِ وَتَفَرَّقَا عَلَيْهِ، وَرَجُلٌ طَلَبَتْهُ امْرَأَةٌ ذَاتُ مَنْصِبٍ وَجَمَالٍ، فَقَالَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ، وَرَجُلٌ تَصَدَّقَ أَخْفَى حَتَّى لَا تَعْلَمَ شِمَالُهُ مَا تُنْفِقُ يَمِينُهُ، وَرَجُلٌ ذَكَرَ اللَّهَ خَالِيًا، فَفَاضَتْ عَيْنَاهُ» (2).

3 - منازل المتأخين في الله تغبطهم عليها الأنبياء والشهداء: عن عمر بن الخطاب ؓ قال: قال النبي ﷺ: «إِنْ مِنْ عِبَادِ اللَّهِ لِأَنَاسًا مَا هُمْ بِأَنْبِيَاءَ، وَلَا شُهَدَاءَ، يَغْبِطُهُمُ الْأَنْبِيَاءُ وَالشَّهَدَاءُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِمَكَانِهِمْ مِنَ اللَّهِ» قالوا: يا رسول الله تخبرنا مَنْ هم، قال: «هُمْ قَوْمٌ تَحَابُّوا بِرُوحِ اللَّهِ عَلَى غَيْرِ أَرْحَامٍ بَيْنَهُمْ، وَلَا أَمْوَالٍ يَتَعَاطَوْنَهَا، فَوَاللَّهِ إِنْ وَجَّهَهُمْ لِنُورٍ، وَإِنَّهُمْ لَعَلَى نُورٍ: لَا يَخَافُونَ إِذَا خَافَ النَّاسُ، وَلَا يَحْزَنُونَ إِذَا حَزَنَ النَّاسُ»، وقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِشَيْءٍ مِنْ الدُّنْيَا أُولَٰئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَلَا يَحْزَنُونَ﴾ [يونس: 62] (3).

4 - الأخوة في الله سبب لحلاوة الإيمان: ومن أحبَّ لِلَّهِ وجد حلاوة الإيمان، كما جاء عن أنس ؓ قال: قال النبي ﷺ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ بِهِنَّ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: مَنْ كَانَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلَّهِ، وَأَنْ يَكْرَهُ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ بَعْدَ أَنْ أَنْقَذَهُ اللَّهُ مِنْهُ، كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقَذَّفَ فِي النَّارِ» (4).

(1) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب البر والصلة والآداب، باب في فضل الحب في الله، رقم (2566).

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجماعة والإمامة، باب: من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، وفضل المساجد، رقم (629).

(3) أخرجه أبو داود، السنن، أول كتاب البيوع، باب في الرهن، رقم (3527). وهو حديث صحيح.

(4) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الإيمان، باب بيان خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان، رقم (43).

ومعنى حلوة الإيمان استلذاذ الطاعات، وتحمل المشاق في الدين، وإيثار ذلك على أعراض الدنيا ومحبة العبد لله تعالى بفعل طاعته وترك مخالفته، وكذلك محبة رسوله ﷺ (1).

واجبات وحقوق الأخوة في الله:

للأخوة في الله ﷻ واجبات وحقوق كثيرة، نذكر منها ما يناسب هذا المختصر:

1 - التعاون والتآزر على البر والعمل الصالح: فالمؤمنون ببيان واحد، يشد بعضه

بعضاً، قال الله ﷻ: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾

[المائدة: 2].

2 - رُدُّ السَّلَامِ وَعِيَادَةُ الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ وإجابة الدعوى وتشميت

العاطس، قال ﷻ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ خَمْسٌ، رُدُّ السَّلَامِ وَعِيَادَةُ

الْمَرِيضِ وَاتِّبَاعُ الْجَنَائِزِ وَإِجَابَةُ الدَّعْوَةِ وَتَشْمِيْتُ الْعَاطِسِ» (2).

3 - خفض الجناح ولين الجانب وإظهار المودة للمؤمنين والتواضع وحسن

الخلق: وهذا من دواعي دوام الأخوة يقول الله ﷻ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ

أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: 29].

4 - التزاور في الله ﷻ والتهنئة وتفقد الحال، قال ﷻ: «مَنْ عَادَ مَرِيضًا أَوْ زَارَ

أَخًا لَهُ فِي اللَّهِ ﷻ نَادَاهُ مُنَادٍ أَنْ طِبْتُ وَطَابَ مَمْشَاكَ وَتَبَوَّاتِ مِنْ الْجَنَّةِ

مَنْزِلًا» (3).

5 - الوفاء والإخلاص: ومعنى الوفاء الثبات على الحب وإدامته إلى الموت معه، وبعد

الموت مع أولاده وأصدقائه، فَإِنَّ الْحَبَّ فِي اللَّهِ ﷻ إِنَّمَا يَرَادُ بِهِ مَا عِنْدَ اللَّهِ ﷻ، فلا

ينتهي بموت أخيه.

قال بعضهم: «قليل الوفاء بعد الوفاة، خير من كثيره في حال الحياة».

ويروى عن السلف أنه: كان أحدهم يخلف أخاه في عياله بعد موته أربعين سنة، لا

يفقدون إلا وجهه.

(1) العسقلاني، فتح الباري، ج 1 ص 61.

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الجنائز، باب: الأمر باتِّباع الجنائز، رقم (1183).

(3) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في زيارة الإخوان، رقم (2008)،

وهو حديث حسن.

ويروى: أَنَّ مَسْرُوقًا أَدَانَ دِينًا ثَقِيلًا، وَكَانَ عَلَى أَخِيهِ خِيْثَمَةُ دِينَ، قَالَ: فَذَهَبَ مَسْرُوقٌ فَقَضَى دِينَ خِيْثَمَةَ وَهُوَ لَا يَعْلَمُ، وَذَهَبَ خِيْثَمَةُ فَقَضَى دِينَ مَسْرُوقٍ سِرًّا وَهُوَ لَا يَعْلَمُ.

فَمِنْ حَقِيقَةِ الْمُوَاخَاةِ فِي اللَّهِ ﷻ إِخْلَاصُ الْمُوَدَّةِ لَهُ بِالْغَيْبِ، وَالشَّهَادَةُ وَاسْتِوَاءُ الْقَلْبِ مَعَ اللِّسَانِ، وَاعْتِدَالُ السِّرِّ مَعَ الْعِلَانِيَةِ فِي الْجَمَاعَةِ وَالْخُلُوةِ⁽¹⁾.

وَلَيْسَ مِنَ الْوَفَاءِ مُوَافَقَةُ الْأَخِ فِيمَا يَخَالِفُ الْحَقَّ فِي أَمْرٍ يَتَعَلَّقُ بِالدِّينِ، بَلْ مِنَ الْوَفَاءِ لَهُ الْمَخَالَفَةُ.

7 - الدِّعَاءُ لِلْإِخْوَانِ بِكُلِّ خَيْرٍ فِي حَيَاتِهِمْ وَبَعْدَ مَمَاتِهِمْ: عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ ؓ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْ عَبْدٍ مُسْلِمٍ يَدْعُو لِأَخِيهِ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، إِلَّا قَالَ الْمَلَكُ: وَلَكَ بِمِثْلٍ»⁽²⁾.

8 - التَّكَافُلُ وَالتَّبَاذُلُ وَالتَّضَحِّيَةُ وَالتَّعَاوُنُ عَلَى ضَرُورَاتِ الْمَعِيشَةِ وَحَاجَاتِهَا: وَهُوَ أَمْرٌ مِنَ الْجَلَاءِ بِحَيْثُ لَا تَخْفَى نَصُوصُهُ الْأَمْرَةَ بِهِ، كَحَدِيثٍ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ»⁽³⁾. وَحَدِيثٍ: «مِثْلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادُّهِمْ، وَتَرَاحُمِهِمْ، وَتَعَاطُفِهِمْ، مِثْلُ الْجَسَدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عَضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى»⁽⁴⁾ وَنَحْوَهَا.

صور واقعية للأخوة في الله:

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ شَدِيدَ الْإِثَارِ، حَتَّى أَشْفَقَ عَلَيْهِ أَصْحَابُهُ ؓ مِنْ شِدَّةِ مَا يُوْثِّرُهُمْ عَلَى نَفْسِهِ، يَقُولُ جَابِرٌ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: (مَا سَأَلَ النَّبِيَّ ﷺ عَنْ شَيْءٍ قَطُّ فَقَالَ: لَا)⁽⁵⁾.

عَنْ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ ؓ قَالَ: جَاءَتِ امْرَأَةٌ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ بِبُرْدَةٍ، فَقَالَ سَهْلٌ ؓ لِلْقَوْمِ: أَتَذَرُونَ مَا الْبُرْدَةُ؟ فَقَالَ الْقَوْمُ: هِيَ الشَّمْلَةُ، فَقَالَ سَهْلٌ: هِيَ شَمْلَةٌ مَنْسُوجَةٌ فِيهَا حَاشِيَتُهَا،

(1) أَبُو طَالِبٍ الْمَكِّي، قُوَّةُ الْقُلُوبِ فِي مَعَامَلَةِ الْمَحْبُوبِ، ج 2 ص 366.

(2) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، الصَّحِيحُ الْمُسْنَدُ، كِتَابُ الذِّكْرِ وَالِدُّعَاءِ وَالتَّوْبَةِ وَالِاسْتِغْفَارِ، بَابُ فَضْلِ الدُّعَاءِ لِلْمُسْلِمِينَ بِظَهْرِ الْغَيْبِ، رَقْم (2732).

(3) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، الْجَامِعُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ الْإِيمَانِ، بَابُ: مِنَ الْإِيمَانِ أَنْ يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ، رَقْم (13).

(4) أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ، الصَّحِيحُ الْمُسْنَدُ، كِتَابُ الْبِرِّ وَالصَّلَةِ وَالْأَدَابِ، بَابُ تَرَاحُمِ الْمُؤْمِنِينَ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَعَاوُنِهِمْ، رَقْم (2586).

(5) أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ، الْجَامِعُ الصَّحِيحُ، كِتَابُ الْأَدَبِ، بَابُ: حَسَنِ الْخُلُقِ وَالسَّخَاءِ، وَمَا يَكْرَهُ مِنَ الْبَخْلِ، رَقْم (5687).

فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَكْسُوكَ هَذِهِ، فَأَخَذَهَا النَّبِيُّ ﷺ مُحْتَاجًا إِلَيْهَا فَلَبِسَهَا. فَرَأَاهَا عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنَ الصَّحَابَةِ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَحْسَنَ هَذِهِ، فَاكْسُنيهَا، فَقَالَ ﷺ: «نَعَمْ»، فَلَمَّا قَامَ النَّبِيُّ ﷺ لَمْ الصَّحَابَةُ الرَّجُلَ، فَقَالُوا لَهُ: مَا أَحْسَنْتَ حِينَ رَأَيْتَ النَّبِيَّ ﷺ أَخَذَهَا مُحْتَاجًا إِلَيْهَا، ثُمَّ سَأَلْتَهُ إِيَّاهَا، وَقَدْ عَرَفْتَ أَنَّهُ لَا يُسَالُ شَيْئًا فَيَمْنَعُهُ. فَقَالَ: رَجَوْتُ بَرَكَتَهَا حِينَ لَبِسَهَا النَّبِيُّ ﷺ، لَعَلِّي أَكْفَنُ فِيهَا⁽¹⁾.

وأما الصحابة فإضافة إلى ما مضى من أمثلة على أخوتهم وإيثارهم إليك بعض النماذج الأخرى.

عن عمر بن الخطاب ؓ: أَنَّهُ لَمَّا طُعِنَ فِي مَرَضِهِ الَّذِي مَاتَ فِيهِ، قَالَ لِابْنِهِ عَبْدِ اللَّهِ: «يَا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ، اذْهَبْ إِلَى أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ عَائِشَةَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا-، فَقُلْ: يَقْرَأُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ عَلَيْكَ السَّلَامَ، ثُمَّ سَلِّهَا أَنْ أُدْفِنَ مَعَ صَاحِبِي، قَالَتْ: كُنْتُ أُرِيدُهُ لِنَفْسِي، فَلَاؤِثَرَنَّهُ الْيَوْمَ عَلَى نَفْسِي، فَلَمَّا أَقْبَلَ قَالَ لَهُ: مَا لَدَيْكَ؟ قَالَ: أَذْنْتُ لَكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَ: مَا كَانَ شَيْءٌ أَهَمُّ إِلَيَّ مِنْ ذَلِكَ الْمَضْجِعِ... الْحَدِيثُ⁽²⁾.

وعَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ ؓ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ الْأَشْعَرِيِّينَ إِذَا أُرْمِلُوا فِي الْغَزْوِ أَوْ قَلَّ طَعَامُ عِيَالِهِمْ بِالْمَدِينَةِ جَمَعُوا مَا كَانَ عَنْدهُمْ فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ ثُمَّ اقْتَسَمُوهُ بَيْنَهُمْ فِي إِنَاءٍ وَاحِدٍ بِالسَّوِيَّةِ فَهُمْ مِنِّي وَأَنَا مِنْهُمْ»⁽³⁾.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الأدب، باب: حسن الخلق والسخاء، وما يكره من البخل، رقم (5689).

(2) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الإيمان، باب: من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه، رقم (13).

(3) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، كتاب الشركة، باب: الشركة في الطعام والنهد والعروض، رقم (2354). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الفضائل، باب من فضائل الأشعريين، رقم (2500). أرملوا: فني زاهم.

إنَّ السبيل الموصل إلى مرضاة الله ﷻ محصور في أمرين اثنين لا ثالث لهما، ألا وهما: الصبر والشكر، وقد سبق الحديث عن الصبر ويأتي الآن دور الحديث عن الشكر.

تعريف الشكر:

معنى الشكر في اللغة: «الثناء على الإنسان بمعروف يُؤليكه»⁽¹⁾.

قال الراغب -رَحِمَهُ اللهُ-: «الشكر: تصور النعمة وإظهارها، قيل: هو مقلوب عن الكشر، أي الكشف»⁽²⁾.

المراد بشُكر الله: «الاعتراف بنعمة المُنعم على وجه الخضوع، وإضافة النعم إلى موليها، والثناء على المُنعم بذكر إنعامه، وعكوف القلب على محبته، والجوارح على طاعته، وجريان اللسان بذكره»⁽³⁾.

أركان الشكر:

شكر العبد يدور على ثلاثة أركان، لا يكون شكرًا على الحقيقة إلا بمجموعها، وهي:

- الاعتراف بالنعمة باطنًا.
- التحدث بها ظاهرًا.
- الاستعانة بها على طاعة الله ﷻ.

وعليه فإنَّ الشكر يكون بالقلب واللسان والجوارح:

فالقلب: للمعرفة والمحبة.

واللسان: للثناء والحمد.

والجوارح: لاستعمالها في طاعة المشكور وكفها عن معاصيه.

فضائل الشكر:

للشكر فضائل ومزايا عديدة نذكر بعضها في هذا المطلب:

(1) ابن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج 1 ص 612-613.

(2) الراغب الأصفهاني، المفردات، ص 461.

(3) انظر: الغزالي، إحياء علوم الدين، ج 4 ص 83-84.

1 - كثرة ذكر الشكر في القرآن الكريم ومشتقاته: فقد افتتح الله كتابه الكريم بالحمد لله، وجاء لفظ الشكر ومشتقاته في القرآن الكريم قرابة 75 مرة.

2 - من أسماء الله **الشَّاكِرُ** والشُّكُورُ، قال الله **﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾** [النساء: 147]، وقال **﴿وَاللَّهُ شَكُورٌ حَلِيمٌ﴾** [التغابن: 17]، لذا كان الشُّكر صفة من صفاته **﴿وَمِنْ مَظَاهِرِ شُكْرِهَ أَنَّهُ يُعْطِي الْعَبْدَ وَيُوفِّقُهُ لِمَا يَشْكُرُهُ عَلَيْهِ، وَيَشْكُرُ الْقَلِيلَ مِنَ الْعَمَلِ وَالْعَطَاءِ، وَيَشْكُرُ الْحَسَنَةَ بِعَشْرِ أَمْثَالِهَا إِلَى أَضْعَافٍ مُضَاعَفَةٍ، وَيَشْكُرُ عَبْدَهُ بِقَوْلِهِ بَأْنَ يُثْنِي عَلَيْهِ بَيْنَ مَلَائِكَتِهِ وَفِي مَلَأَتِهِ، وَيُلْقِي لَهُ الشُّكْرَ بَيْنَ عِبَادِهِ وَيَشْكُرُهُ بِفِعْلِهِ﴾**.

3 - الشكر فرض من فرائض الله على العالمين، قال تعالى: **﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾** [البقرة: 152]. وقال **﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهَذَا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي سَامَيْنِ أَنِ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَى الْمَصِيرِ﴾** [لقمان: 14]. وقال **﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَنْ يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ حَمِيدٌ﴾** [لقمان: 12].

4 - الشكر من الأخلاق اللازمة لأنبياء الله -صلوات الله عليهم-، فهم مأمورون به. قال **﴿آمَرَآ بِهِ نَبِينَا مُحَمَّدٌ﴾**: **﴿وَلَقَدْ أَوْحَىٰ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكَتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** [الزمر: 65-66].

وأمر الله تعالى به موسى **﴿يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْنَاكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ﴾** [الأعراف: 144].

وقد أثنى **﴿عَلَى أَوَّلِ رَسُولٍ بَعَثَهُ إِلَى الْأَرْضِ بِالشُّكْرِ، فَقَالَ﴾**: **﴿ذُرِّيَّةٌ مِنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾** [الإسراء: 3].

وأثنى **﴿عَلَى خَلِيلِهِ إِبْرَاهِيمَ بِشُكْرِ نِعْمِهِ، فَقَالَ﴾**: **﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾** [النحل: 120-121].

وتحكي لنا السيدة عائشة -رضي الله عنها- أنَّ الرسول **﴿كَانَ يَقُومُ اللَّيْلَ، وَيُصَلِّي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ حَتَّى تَتَشَقَّقَ قَدَمَاهُ مِنْ طَوْلِ الصَّلَاةِ وَالْقِيَامِ، فَتَقُولُ لَهُ:**

لِمَ تصنع هذا يا رسول الله، وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر؟! فيرد عليها النبي ﷺ قائلًا: «أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا»⁽¹⁾.

5 - الشكر من صفات المؤمنين: كيف لا وقد أمرهم الله به وافترضه عليهم، يقول

ﷻ آمُرُوا الْمُؤْمِنِينَ بِالشَّكْرِ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172].

وقال ﷻ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٣١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٣٢﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ [يس: 71-73].

ومما يبين أن الشكر صفة المؤمنين ما رواه صُهَيْب رضي الله عنه أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «عَجَبًا لِأَمْرِ الْمُؤْمِنِ إِنَّ أَمْرَهُ كُلَّهُ خَيْرٌ، وَلَيْسَ ذَاكَ لِأَحَدٍ إِلَّا لِلْمُؤْمِنِ، إِنْ أَصَابَتْهُ سَرَاءٌ شَكَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ ضَرَاءٌ صَبَرَ فَكَانَ خَيْرًا لَهُ»⁽²⁾.

6 - قرن الله ﷻ الشكر بالإيمان، وأخبر أنه لا غرض له في عذاب خلقه إن شكروا

وآمنوا، فقال: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ﴾ [النساء: 147]، أي إن وفيتم ما خلقتم له وهو الشكر والإيمان فما أصنع بعذابكم؟

7 - قسم الله ﷻ النَّاسَ إِلَى شَاكِرٍ وَكَافِرٍ، فأبغض الأشياء إليه الكفر وأهله، وأحب

الأشياء إليه الشكر وأهله، فقال تعالى: ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا﴾ [الإنسان: 3].

وقال تعالى على لسان نبيه سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي لِيَبْلُوَنِي أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: 40].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِنْ كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ﴾ [إبراهيم: 7]. فعلق ﷻ المزيد بالشكر والمزيد منه لا نهاية له كما لا نهاية لشكره.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح، أبواب التهجد، باب: قيام النبي ﷺ حتى ترم قدماه، رقم (1078). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب صفة القيامة والجنة والنار، باب إكثار الأعمال والاجتهاد في العبادة، رقم (2819).

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الزهد والرقائق، باب المؤمن أمره كله خير، رقم (2999).

8 - غاية إبليس أن يقطع الناس عن الشكر، ولما عرف عدو الله إبليس قدر مقام الشكر، وأنه من أجل المقامات وأعلاها جعل غايته أن يسعى في قطع الناس عنه، فقال: ﴿ثُمَّ لَا يَبْنِيهِمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: 17].

9 - الشكر هو الغاية من خلق الإنسان: أخبر ﷺ أن الشكر هو الغاية التي خلق عبده لأجلها: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [النحل: 78].

أقسام الشكر:

الشكر على أقسام، هي:

1 - الشكر بالقلب:

فالشكر بالقلب والجنان يكون بإسناد النعمة إلى منعمها، والاعتراف بالنعمة، وأنها منه وبفضله، وبقصد الخير وإضماره للخلق كافة. ومن الشكر لله بالقلب الإخلاص لله، والخوف من الله، ورجاؤه، ومحبة الله على نعمه حباً يحملك على أداء حقه وترك معصيته، وأن تدعو إلى سبيله وتستقيم على ذلك. ومن الشكر بالقلب لله ﷻ أيضاً محبة المؤمنين والمرسلين وتصديقهم فيما جاؤوا به ولا سيما نبينا محمد ﷺ، وأنهم بلغوا الرسالة وأدوا الأمانة، كما قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: 36].

2 - الشكر باللسان:

لسان المرء يعرب عما في قلبه، فإذا امتلأ القلب بشكر الله لهج اللسان بحمد الله والثناء عليه. ومن الشكر باللسان الثناء بالنعمة وذكرها وتعدادها وإظهارها، قال الله ﷻ: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: 11]. وفي هذا التحديث المأمور به قولان: أحدهما - أنه ذكر النعمة والإخبار بها.

والقول الثاني - أن التحدث بالنعمة المأمور به في هذه الآية هو الدعوة إلى الله وتبليغ رسالته وتعليم الأمة.

وعن النعمان بن بشير -رضي الله عنهما- قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ لَمْ يَشْكُرِ الْقَلِيلَ، لَمْ يَشْكُرِ الْكَثِيرَ، وَمَنْ لَمْ يَشْكُرِ النَّاسَ، لَمْ يَشْكُرِ اللَّهَ، وَالتَّحَدُّثُ بِنِعْمَةِ اللَّهِ شُكْرٌ، وَتَرْكُهَا كُفْرٌ، وَالْجَمَاعَةُ رَحْمَةٌ، وَالْفُرْقَةُ عَذَابٌ»⁽¹⁾.

3- الشكر بعمل الجوارح:

وهي ما سوى القلب واللسان من جوارح، فما من عمل يعمل به ابن آدم من الطاعات والعبادات إلا وهو شاكر فيه لنعم ربه ﷻ.

ويكون شكر الله بجوارحنا أن نقوم بواجب كل جراحة من حق العبودية لله ﷻ، ابتعاداً عن النواهي، وفعلًا للأوامر، وبإظهار نعم الله علينا بلسان الحال والمقال.

فمن الشكر بالجوارح: أَلَّا يُسْتَعَانَ بِالْجَوَارِحِ إِلَّا عَلَى طَاعَةِ اللَّهِ ﷻ وَأَنْ يَحْذَرَ مِنْ اسْتِعْمَالِهَا فِي شَيْءٍ مِنْ مَعَاصِيهِ، قَالَ ﷻ: ﴿اعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: 13].

ولكل جراحة وظيفتها في الشكر: قال رجل لأبي حازم سلمة بن دينار -رحمه الله-: ما شكر العينين يا أبا حازم؟ فقال: «إِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا خَيْرًا أَعْلَنْتَهُ، وَإِنْ رَأَيْتَ بِهِمَا شَرًّا سَتَرْتَهُ».

قال: فما شكر الأذنين؟ قال: «إِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا خَيْرًا وَعَيْتَهُ، وَإِنْ سَمِعْتَ بِهِمَا شَرًّا دَفَعْتَهُ».

قال: فما شكر اليدين؟ قال: «لَا تَأْخُذْ بِهِمَا مَا لَيْسَ لِهَمَا، وَلَا تَمْنَعْ حَقًّا لِلَّهِ هُوَ فِيهِمَا».

قال: ما شكر البطن؟ قال: «أَنْ يَكُونَ أَسْفَلُهُ طَعَامًا وَأَعْلَاهُ عِلْمًا».

قال: فما شكر الفرج؟ قال: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ [المعارج: 29-31].

قال: فما شكر الرجلين؟ قال: «إِنْ عَلِمْتَ مَيْتًا تَغْبِطُهُ اسْتَعْمَلْتَ بِهِمَا عَمَلَهُ، وَإِنْ مَقَتَّهُ رَغِبْتَ عَنْ عَمَلِهِ وَأَنْتَ شَاكِرٌ لِلَّهِ».

وأما مَنْ شَكَرَ بِلِسَانِهِ وَلَمْ يَشْكُرْ بِجَمِيعِ أَعْضَائِهِ، فَمِثْلُهُ كَمِثْلِ رَجُلٍ لَهُ كِسَاءٌ، فَأَخَذَ بِطَرَفِهِ وَلَمْ يَلْبَسْهُ، فَمَا نَفَعَهُ ذَلِكَ مِنَ الْحَرِّ وَالْبَرْدِ وَالتَّلَجِّ وَالْمَطَرِ»⁽²⁾.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (18450)، ج 30 ص 392.

(2) أخرجه الأصفهاني، حلية الأولياء، ج 3 ص 243.

ومن الشكر بالجوارح إظهار أثر النعمة على العبد، فالله ﷻ يحب أن يرى أثر نعمته على عبده دون عجب ولا غرور أو كبر. عن أبي الأحوص عن أبيه ﷺ قال: أَتَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ وَأَنَا قَشِيفُ الْهَيْئَةِ، فَقَالَ: «هَلْ لَكَ مَالٌ؟» قَالَ: قُلْتُ: نَعَمْ. قَالَ: «فَمَا مَالُكَ؟» فَقَالَ: مِنْ كُلِّ الْمَالِ، مِنَ الْخَيْلِ وَالْإِبِلِ وَالرَّقِيقِ وَالْغَنَمِ. قَالَ: «فَإِذَا آتَاكَ اللَّهُ ﷻ مَالًا فَلْيُرْ عَلَيْكَ»⁽¹⁾.

وروي عن أبي رجاء العطاردي قال: خرج علينا عمران بن حصين وعليه مطرف من خر لم نره عليه قبل ذلك ولا بعده، فقال: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: «مَنْ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ نِعْمَةً، فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى خَلْقِهِ»⁽²⁾.

وإذا أردت أن تظهر نعم الله عليك فإن ذلك مقيد في عدم الخيلاء والإسراف.

أنواع الشكر:

المسلم يشكر كل من قدم إليه خيراً، أو صنع إليه معروفاً، ومن أنواع الشكر:

1 - شكر الله ﷻ:

المسلم يشكر ربه على نعمه الكثيرة التي أنعم بها عليه، ولا يكفر بنعم الله ﷻ إلا جاحد، قال تعالى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ وَاشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ﴾ [البقرة: 152]. ويقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [البقرة: 172].

2 - شكر الناس:

المسلم يُقدِّر المعروف، ويعرف للناس حقوقهم، فيشكرهم على ما قدموا له من خير، فعن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ لَا يَشْكُرُ النَّاسَ لَا يَشْكُرُ اللَّهَ»⁽³⁾. وأحق الناس بأن تُقدَّم له الشكر الوالدان، فقد أمر الله ﷻ بشكر الوالدين والإحسان إليهما، يقول تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ وَفَصَّالَهُ فِي عَامَيْنِ أَنْ اشْكُرْ لِي وَلِوَالِدَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [لقمان: 14]. فالمسلم يقدم شكره لوالديه بطاعتهما وبرهما، والإحسان إليهما، والحرص على مرضاتهما، وعدم إغضابهما.

(1) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (15891)، ج 25 ص 226. والنسائي، السنن، كتاب الزينة من السنن، باب الجلال، رقم (5224). وهو حديث صحيح.

(2) أخرجه الإمام أحمد، المسند، رقم (19934)، ج 33 ص 159.

(3) أخرجه الترمذي، الجامع، كتاب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في الشكر لمن أحسن إليك، رقم (1954)، وقال: حديث حسن صحيح. وأبو داود، السنن، كتاب الأدب، باب في شكر المعروف، رقم (4811).

وحثنا النبي ﷺ أن نُقدم كلمة الشكر لمن صنع إلينا معروفًا، فنقول له: جزاك الله خيرًا، قال الله ﷻ: «مَنْ صُنِعَ إِلَيْهِ مَعْرُوفٌ فَقَالَ لِفَاعِلِهِ، جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا فَقَدْ أَبْلَغَ فِي الثَّنَاءِ»⁽¹⁾.

ثمرات الشكر:

للشكر ثمرات عديدة على المرء في دينه ودنياه نحاول أن نسلط عليها الضوء في هذه العجالة:

1 - أهل الشكر هم المخصوصون بمنة الله عليهم: أخبر ﷺ أن أهل الشكر هم المخصوصون بمنته عليهم من بين عباده، فقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلَاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ﴾ [الأنعام: 53].

2 - رضا الله في شكره: أخبر أن رضاه في شكره، فقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: 7]. وقال ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ لِيَرْضَى عَنِ الْعَبْدِ يَأْكُلُ الْأَكْلَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا، وَيَشْرَبُ الشَّرْبَةَ، فَيَحْمَدُهُ عَلَيْهَا»⁽²⁾.

3 - الشكر قيد النعم وسبب المزيد: والنعم تزيد بالشكر وتُحفظ من الزوال بالشكر، قال تعالى: ﴿وَإِذَا تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: 7]، فالشكر قيد النعم وسبب المزيد، وكما قيل: «الشُّكْرُ: قَيْدُ الْمَوْجُودِ، وَصَيْدُ الْمَفْقُودِ»⁽³⁾.

وكذلك كفرانها موجب لزوالها، قال ﷻ: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾ [النحل: 112].

قال ابن عطاء الله السكندري -رحمه الله-: (مَنْ لَمْ يَشْكُرْ النِّعَمَ فَقَدْ تَعَرَّضَ لِزَوَالِهَا، وَمَنْ شَكَرَهَا فَقَدْ قَيَّدَهَا بِعِقَالِهَا)⁽⁴⁾.

(1) أخرجه الترمذي، الجامع، أبواب البر والصلة عن رسول الله ﷺ، باب ما جاء في المتشبع بما لم يعطه، رقم (2035).

(2) أخرجه مسلم، الصحيح المسند، كتاب الذكر والدعاء والتوبة والاستغفار، باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب، رقم (2734).

(3) عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري، الرسالة القشيرية، تحقيق: عبد الحليم محمود، ومحمود بن الشريف، (القاهرة: دار المعارف)، ج 1 ص 313.

(4) ابن عاشور، التحرير والتنوير، ج 1 ص 512.

ويحكي لنا النبي ﷺ من قصص السابقين ما فيه عبرة للمعتبرين، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: «إِنَّ ثَلَاثَةً مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ: أَبْرَصٌ، وَأَقْرَعٌ، وَأَعْمَى، أَرَادَ اللَّهُ أَنْ يَنْتَلِيَهُمْ فَبَعَثَ إِلَيْهِمْ مَلَكًا، فَأَتَى الْأَبْرَصَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: لَوْ أَنَّ حَسَنًا وَجِلْدًا حَسَنًا، وَيَذْهَبُ عَنِّي الَّذِي قَدْ قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ قَذَرُهُ وَأُعْطِيَ لَوْنًا حَسَنًا. فَقَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْإِبِلُ -أَوْ قَالَ: الْبَقَرُ شَكَّ الرَّاوي- فَأُعْطِيَ نَاقَةً عُسْرَاءً، فَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَقْرَعَ، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: شَعْرٌ حَسَنٌ، وَيَذْهَبُ عَنِّي هَذَا الَّذِي قَذَرَنِي النَّاسُ، فَمَسَحَهُ فَذَهَبَ عَنْهُ وَأُعْطِيَ شَعْرًا حَسَنًا. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْبَقَرُ، فَأُعْطِيَ بَقَرَةً حَامِلًا، وَقَالَ: بَارَكَ اللَّهُ لَكَ فِيهَا.

فَأَتَى الْأَعْمَى، فَقَالَ: أَيُّ شَيْءٍ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: أَنْ يَرُدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي فَأُبْصِرُ النَّاسَ، فَمَسَحَهُ فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيْهِ بَصَرَهُ. قَالَ: فَأَيُّ الْمَالِ أَحَبُّ إِلَيْكَ؟ قَالَ: الْغَنَمُ، فَأُعْطِيَ شَاةً وَالِدًا، فَأَنْتَجَ هَذَانِ وَلَوْلَدَ هَذَا، فَكَانَ لِهَذَا وَاِدٌ مِنَ الْإِبِلِ، وَلِهَذَا وَاِدٌ مِنَ الْبَقَرِ، وَلِهَذَا وَاِدٌ مِنَ الْغَنَمِ.

ثُمَّ إِنَّهُ أَتَى الْأَبْرَصَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ قَدْ انْقَطَعَتْ بِي الْجِبَالُ فِي سَفَرِي فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي أَعْطَاكَ اللَّوْنَ الْحَسَنَ، وَالْجِلْدَ الْحَسَنَ، وَالْمَالَ، بَعِيرًا أَتَبْلُغُ بِهِ فِي سَفَرِي، فَقَالَ: الْحَقُّوْكَ كَثِيرَةٌ. فَقَالَ: كَأَنِّي أَعْرِفُكَ، أَلَمْ تَكُنْ أَبْرَصَ يَقْذُرُكَ النَّاسُ فَقِيرًا فَأَعْطَاكَ اللَّهُ؟! فَقَالَ: إِنَّمَا وَرِثْتُ هَذَا الْمَالَ كَابِرًا عَنْ كَابِرٍ، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ.

وَأَتَى الْأَقْرَعَ فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ لَهُ مِثْلُ مَا قَالَ لِهَذَا، وَرَدَّ عَلَيْهِ مِثْلُ مَا رَدَّ هَذَا، فَقَالَ: إِنْ كُنْتَ كَاذِبًا فَصَيِّرْكَ اللَّهُ إِلَى مَا كُنْتُ.

وَأَتَى الْأَعْمَى فِي صُورَتِهِ وَهَيْئَتِهِ، فَقَالَ: رَجُلٌ مِسْكِينٌ وَابْنُ سَبِيلٍ انْقَطَعَتْ بِي الْجِبَالُ فِي سَفَرِي، فَلَا بَلَاغَ لِي الْيَوْمَ إِلَّا بِاللَّهِ ثُمَّ بِكَ، أَسْأَلُكَ بِالَّذِي رَدَّ عَلَيْكَ بَصْرَكَ شَاةً أَتَبْلُغُ بِهَا فِي سَفَرِي؟ فَقَالَ: قَدْ كُنْتُ أَعْمَى فَرَدَّ اللَّهُ إِلَيَّ بَصَرِي، فَخُذْ مَا شِئْتَ وَدَعْ مَا شِئْتَ، فَوَاللَّهِ مَا أَجْهَدُكَ الْيَوْمَ بِشَيْءٍ أَحَدْتَهُ لِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. فَقَالَ: أُمْسِكْ مَا لَكَ فَإِنَّمَا ابْتُلِيتُمْ. فَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْكَ، وَسَخِطَ عَلَى صَاحِبَيْكَ»⁽¹⁾.

فتأمل القصة وبما جوزي من شكر ومن لم يشكر.

(1) أخرجه البخاري، الجامع الصحيح كتاب الأنبياء، باب: ما ذكر عن بني إسرائيل، حديث أبرص وأعمى وأقرع في بني إسرائيل، رقم (1078). ومسلم، الصحيح المسند، كتاب الزهد والرقائق، رقم (2964).

4 - الشكر أمان من العذاب: قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ

وَأَمَنْتُمْ﴾ [النساء: 147].

5 - الأجر الجزيل في الآخرة: قال تعالى: ﴿وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 145].

وقال ﷺ: ﴿وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: 144].

من قصص الشاكرين:

من قصص السابقين في الشكر ما تخضل له اللحي من ذلك:

سعيد بن العاص :

مرَّ سعيد بن العاص رضي الله عنه بدار رجل بالمدينة فاستسقى فسقوه، ثم مرَّ بعد ذلك بالدار ومناد ينادي عليها فيمن يزيد؟ فقال لمولاه: سل لم تباع هذه؟ فرجع إليه، فقال: على صاحبها دين، قال: فارجع إلى الدار، فرجع فوجد صاحبها جالسًا وغريمه معه، فقال: لم تبيع دارك؟ قال: لهذا عليَّ أربعة آلاف دينار، فنزل وتحدث معهما، وبعث غلامه فأتاه ببذرة فدفع إلى الغريم أربعة آلاف، ودفع الباقي إلى صاحب الدار، وركب ومضى! (1).

الإمام الشافعي - رحمه الله:-

قال الربيع بن سليمان: أخذ رجل بركاب الشافعي - رحمه الله-، فقال: يا ربيع، أعطه أربعة دنانير واعذرني عنده، قال: فأعطيته إياها (2).

إبراهيم بن أدهم - رحمه الله:-

عن أبي عيسى قال: كان إبراهيم بن أدهم - رحمه الله- إذا صنع إليه أحد معروفًا حرص على أن يكافئه أو يتفضل عليه، قال أبو عيسى: فلقيني وأنا على حمار، وأنا أريد بيت المقدس جانيًا من الرملة، قال: وقد اشتري بأربعة دنانير تفاحًا وسفرجلًا وخوخًا وفاكهة، فقال: يا أبا عيسى، أحبُّ أن تحمل هذا، قال: وإذا عجوز يهودية في كوخ لها، فقال: أحبُّ أن توصل هذا إليها، فإنني مررت وأنا مُمسٍ فبيتتني عندها، فأحبُّ أن أكافئها على ذلك (3).

(1) أبو حاتم محمد بن حبان الدارمي البُستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، (بيروت: دار الكتب العلمية)، ص 263.

(2) الأصبهاني، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، ج 9 ص 130.

(3) البُستي، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، ص 266.

قال الطوفي الحنبلي - رحمه الله -: «ولقد طالما نظرت في كتب الفضلاء، فإذا رأيت فائدة مستغربة، أو حلَّ أمرٍ مُشكل، أقرأ لمصنف الكتاب شيئاً من القرآن، وأجعل له ثوابه على مذهبي في ذلك، وإن كان المُصنّف ممن لا يعتقد وصوله فأنا أرجو من الناس مثل ذلك، فإنه يقال: كما تكونوا يولى عليكم»⁽¹⁾.

(1) سليمان بن عبد القوي الطوفي، شرح مختصر الروضة، تحقيق: عبد الله التركي، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ط1، 1987م)، ج1 ص109.



مكتبة

t.me/soramnqraa

الخاتمة

بهذا نكون وصلنا إلى نهاية كتابنا، الذي نحسب أنه يعطي لمن قرأه قسطاً من الثقافة الشرعية لا غنى للمسلم عنه، أيًا كان مشربه وتخصصه من غير التخصصات الشرعية، حيث وضعنا في هذا الكتاب خلاصات العلوم الشرعية.

هذا وقد حرص المؤلف أن يورد من العلم ما كان مؤصلاً مستنداً إلى الأدلة الشرعية، لذا كان في كثير من الأحيان يأتي بالأدلة الشرعية على ما يقيده.

ونذكر في خاتمة هذا الكتاب أن العلم إما يكون حجةً لك وإما يكون حجةً عليك، فهو حجة لك إذا عملت به وانضبطت سلوكياتك بما قرره، وهو حجة عليك إذا لم تعمل به وخالفت سلوكياتك ما يمليه عليك. لذا لا بُدَّ من عقد العزم على العمل بما علمت، وأن تطبق منه العلم ما جمعت وفهمت.

وإذا أردت أن تنتفع بهذا العلم أكثر فأكثر، بعد فقّقه والعمل به، فعليك بتبليغ ما علم حتى لو كان قليلاً، يقول النبي ﷺ: «بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً»⁽¹⁾، فاحرص أن تنقل ما علمت إلى إخوانك وأهل بيتك، فالعلم أمانة وأداؤها بتبليغها.

كذلك نذكر أن وعاء العلم هو القلب، وحتى يزهر العلم ينبغي أن يكون في وعاء يليق به، فلا بُدَّ من نظافة قلبك وطهارته من كل ما يشوبه من أمراض القلوب، وابتداءً بالإخلاص وتطهير القلب من الرياء وإرادة غير الله تعالى، فالعلم لا يكون نافعا إذا لم يكن لله خالصاً. ولا بُدَّ من التأكيد على أن هذا الكتاب لم يحو العلم كله، وإنما حوى قطرة من بحره، فلا يظن ظان أنه إذا قرأ الكتاب وهضمه أنه قد ختم العلم وأصبح من العلماء.

إنَّ طريق العلم طويل وما حواه كتابنا ليس أكثر من إشارات وافتات للدلالة على الطريق، فنسأل الله ﷻ أن ييسر عليك السبيل، فيكون هذا الكتاب مشوقاً لك كي تحرز علماً وفيراً تخدم به دينك وتعلي به من شأن أمتك.

تم الكتاب بحمد الله وفضله

(1) أخرجه البخاري، الجامع المسند الصحيح، كتاب الأنبياء، باب ما ذكر عن بني إسرائيل، رقم (3274).



هذا الكتاب يُقدم لك فهمًا كاملاً عن التصور الصحيح للعقيدة، ويحملك إلى كل ما هو ضروري في الفقه الإسلامي، ويأخذك إلى سيرة نبيك محمد -صلى الله عليه وسلم- فتدرك منها كل ما يبلغك جميل الاقتداء. هذا الكتاب يرقبك في مدارج الأخلاق، فإذا بك مليء بما يبلغك القرب من صاحب الخلق العظيم.

ولا ينتهي حتى يرحل بك إلى حديث النبي -صلى الله عليه وسلم- فتعرف كيف يُميز العلماء بين صحيحه وضعيفه، وتقرأ من كلامه -صلى الله عليه وسلم- ما يروي ظمأ روحك، ويسوقك إلى اتباع لا زل فيه... كتاب «ما لا يسع المسلم جهله»؛ كتاب الحاجة إليه ملحة لبناء ثقافة شرعية تساعد كثيرًا في بناء وعي ديني...

في هذا الكتاب نهارٌ من الفهم، ونهرٌ من المعلومات الكثيرة، ورسائل مليئة بالعلم والتربية والتزكية والسنن، فإذا بقلبك يستدير بكله نحو ربه عز وجل... وإنني لأظن الكتاب ينفع كل محاضن العلم الشرعي في ابتداء أمرها، ويُغني الذي يبحث عن الثقافة الشرعية العامة، ويكفي المسلم الباحث عن الهدى في أول سبيله إلى الله عز وجل.



أعمال
أخرى
للكاتب

غلاف: إسلام أحمد

مكتبة
t.me/soramnqraa



www.aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
aseeralkotb
aseeralkotb
aseeralkotb